



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عشر
عليه
ص

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لهذا
والَّذي كنا لنكونوا له الا ناديا

مختصر الأمم

في
تفسير كتاب الله المنزلي

الجزء الخامس

الطبعة الأولى سنة ١٤١٥ هـ

الجزء الخامس

مكتبة دار الفکر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مختصر الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابي طالب عليه السلام

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٨	مختصر الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ٥
٨	اشارة
٨	٥٣. سورة النجم
٢٠	٥٤. سورة القمر
٣٢	٥٥. سورة الرحمن
٤٥	٥٦. سورة الواقعة
٥٦	٥٧. سورة الحديد
٦٩	٥٨. سورة المجادلة
٧٩	٥٩. سورة الحشر
٩١	٦٠. سورة الممتحنة
٩٨	٦١. سورة الصف
١٠٢	٦٢. سورة الجمعة
١٠٧	٦٣. سورة المنافقون
١١٢	٦٤. سورة التغابن
١١٦	٦٥. سورة الطلاق
١٢٢	٦٦. سورة التحريم
١٢٦	٦٧. سورة الملك
١٤٢	٦٩. سورة الحاقّة
١٤٩	٧٠. سورة المعارج
١٥٥	٧١. سورة نوح
١٦٠	٧٢. سورة الجن
١٦٨	٧٣. سورة المزمل

- ١٧٣ سورة المدثر - ٧٤
- ١٨٢ سورة القيامة - ٧٥
- ١٨٧ سورة الإنسان - ٧٦
- ١٩٤ سورة المرسلات - ٧٧
- ٢٠٠ سورة النبأ - ٧٨
- ٢٠٨ سورة النازعات - ٧٩
- ٢١٤ سورة عبس - ٨٠
- ٢٢٠ سورة التكوير - ٨١
- ٢٢٤ سورة الإنفطار - ٨٢
- ٢٢٩ سورة المطفيين - ٨٣
- ٢٣٤ سورة الانشقاق - ٨٤
- ٢٤٠ سورة البروج - ٨٥
- ٢٤٤ سورة الطارق - ٨٦
- ٢٤٤ سورة الأعلى - ٨٧
- ٢٥٠ سورة الغاشية - ٨٨
- ٢٥٣ سورة الفجر - ٨٩
- ٢٦٠ سورة البلد - ٩٠
- ٢٦٤ سورة الشمس - ٩١
- ٢٦٧ سورة الليل - ٩٢
- ٢٧٠ سورة الضحى - ٩٣
- ٢٧٣ سورة الشرح - ٩٤
- ٢٧٤ سورة التين - ٩٥
- ٢٧٤ سورة العلق - ٩٦
- ٢٨١ سورة القدر - ٩٧

٢٨٢	٩٨ سورة البينة
٢٨٥	٩٩. سورة الزلزلة
٢٨٧	١٠٠. سورة العاديات
٢٨٩	١٠١. سورة القارعة
٢٩١	١٠٢. سورة التكاثر
٢٩٢	١٠٣. سورة العصر
٢٩٤	١٠٤. سورة الهمزة
٢٩٧	١٠٥. سورة الفيل
٢٩٩	١٠٦. سورة قريش
٣٠٠	١٠٧. سورة الماعون
٣٠١	١٠٨. سورة الكوثر
٣٠٣	١٠٩. سورة الكافرون
٣٠٤	١١٠. سورة النصر
٣٠٦	١١١. سورة المسد
٣٠٨	١١٢. سورة الاخلاص
٣١٢	١١٣. سورة الفلق
٣١٤	١١٤. سورة الناس
٣١٦	تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

مختصر الامثل في تفسير كتاب الله المنزل المجلد ٥

إشارة

عنوان و نام پدیدآور: مختصر الامثل في تفسير كتاب الله المنزل/ناصر مكارم شيرازي

مشخصات نشر: قم: مدرسه الامام على بن ابى طالب عليه السلام، ١٤٢٨

مشخصات ظاهري: ج

وضعيت فهرست نویسی: در انتظار فهرستنویسی

شماره کتابشناسی ملی: ١١٤٨٣٩٣

٥٣. سورة النجم

محتوى السورة: هذه السورة- كما يقول بعض المفسرين- هي أول سورة تلاها النبي صلى الله عليه وآله جهرًا وبصوت عال في حرم مكة بعد أن أضحت دعوته علنًا... وأصغى إليها المشركون وسجد لها جميع المسلمين حتى المشركون «١». إن هذه السورة- لكونها مكية- تحمل بين ثناياها بحثًا في الاصول الاعتقادية خاصة «النبوة والمعاد» وفيها تهديد ووعد وإنذارات مكررة لإيقاظ الكفار وردعهم عن غيهم.

ويمكن تقسيم محتوى هذه السورة إلى سبعة أقسام:

- ١- بداية السورة تتحدث بعد القسم العميق المغزى عن حقيقة الوحي وإتصال النبي صلى الله عليه وآله مباشرة بمنزل الوحي «جبريل».
- ٢- ثم يجرى الكلام على معراج الرسول صلى الله عليه وآله، له علاقة مباشرة بالوحي أيضاً.
- ٣- ثم يجرى الكلام عن خرافات المشركين في شأن الأصنام وعبادة الملائكة.
- ٤- ويفتح القرآن سبيل التوبة بوجه المنحرفين وعامة المذنبين، ويؤملهم بمغفرة الله الواسعة، ويؤكد على أن كلاً مسؤول عن عمله، ولا تزر وازرة وزر اخرى.
- ٥- وإكمالاً لهذه الأهداف يبين جوانب من مسألة- المعاد- ويقيم دليلاً واضحاً على هذه

(١) تفسير روح البيان ٢٠٨/٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦

المسألة بما هو موجود في النشأة الاولى- الدنيا-.

٦- وكعادة القرآن في سائر السور ترد في هذه السورة إشارات لعواقب الامم المؤلمة لعداوتهم للحق وعنادهم.

٧- وأخيراً فإن السورة تختتم بالأمر بالسجود لله وعبادته.

وتسمية السورة ب «النجم» هي لورود هذا اللفظ في الآية الاولى من السورة ذاتها.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة النجم اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد صلى الله عليه وآله ومن جحد به».

ومن المسلم به أن مثل هذا الثواب العظيم هو لأولئك الذين يتخذون تلاوة هذه السورة وسيلة للتفكير، ثم العمل، وأن يطبقوا تعليمات هذه السورة على أنفسهم في حياتهم.

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ممّا يجدر بيانه أن السورة

السابقة «الطور» ختمت بكلمة «النجوم»، وهذه السورة بُدئت ب «والنجم» - إذ أقسم به الله قائلاً: «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . والظاهر من الآية ما يقتضيه إطلاق كلمة «والنجم» القسم بنجوم السماء كافة التي هي من أدلته عظمة الله ومن أسرار عالم الوجود الكبرى ومن المخلوقات العظيمة لله تعالى.

والتعويل على غروبها وافولها مع أن طلوعها وإشراقها يسترعى النظر أكثر، هو لأن غروب النجم دليل على حدوثه كما أنه دليل على نفى عقيدة عبادة الكواكب كما ورد في قصة إبراهيم الخليل: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأَأْتِيَنَّ الْأَفْلِينَ» (١).

لكن لنعرف لم أقسم الله بالنجم؟ الآية التالية توضح ذلك فتقول: «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ .

(١) سورة الأنعام / ٧٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧

والتعبير ب «الصاحب» أى الصديق أو المحب لعله إشارة إلى أن ما يقوله نابع من الحب والشفقة. ومن أجل التأكيد على هذا الموضوع وإثبات أن ما يقوله هو من الله فإن القرآن يضيف قائلاً: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . وهذا التعبير مشابه التعبير الاستدلالي الوارد في الآية آنفة الذكر فى صدد نفى الضلالة والغواية عن النبي صلى الله عليه وآله لأن أساس الضلال غالباً ما يكون من اتباع الهوى. ثم تأتي الآية التالية لتصرح: «إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ .

فهو لا يقول شيئاً من نفسه، وليس القرآن من نسج فكره! بل كل ما يقوله فمن الله، والدليل على هذا الإدعاء كامن فى نفسه، فالتحقيق فى آيات القرآن يكشف بجلالة أنه لن يستطيع إنسان مهما كان عالماً ومفكراً - فكيف بالامى الذى لم يقرأ ولم يكتب فى محيط مملوء بالخرافات - أن يأتى بكلام غزير المحتوى كالقرآن، إذ ما يزال بعد مضى القرون والعهود ملهماً للأفكار، ويمكنه أن يكون أساساً لبناء مجتمع صالح مؤمن سالم.

وينبغى الإلتفات - ضمناً - إلى أن هذا القول ليس خاصاً بآيات القرآن، بل بقريته الآيات السابقة يشمل سنه الرسول صلى الله عليه وآله أيضاً وأنها وفق الوحي، لأن هذه الآية تقول بصراحة: «وما ينطق عن الهوى». والحديث الطريف التالى شاهد آخر على هذا المدعى.

فى الدر المنثور: أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن تسد الأبواب التى فى المسجد فشق عليهم قال:

حبه أتى لأنظر إلى حمزة بن عبد المطلب وهو تحت قطيفة حمراء وعيناه تذرطان وهو يقول:

أخرجت عمك وأبابكر وعمر والعباس، وأسكنت ابن عمك فقال رجل يومئذ ما يالوا برفع ابن عمه قال فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قد شق عليهم فدعا الصلاة جامعة فلما اجتمعوا صعد المنبر فلم يسمع لرسول الله صلى الله عليه وآله خطبة قط كان أبلغ منها تمجيداً وتوحيداً فلما فرغ قال: «يا أيها الناس ما أنا سدتها ولا أنا فتحتها ولا أنا أخرجتكم وأسكنته». ثم قرأ: «وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ .

وهذا الحديث الذى يكشف عن علو مقام أمير المؤمنين على عليه السلام بين جميع الامة الإسلامية بعد الرسول يدل على أنه ليست أقوال النبي طبق الوحي فحسب بل حتى أعماله وأفعاله وتقريره وسيرته أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٨

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) تعقيباً على الآيات المتقدمة التى تحدثت عن نزول الوحي

على الرسول صلى الله عليه وآله يجرى الكلام في هذه الآيات عن معلم الوحي. تقول الآية: إن من له تلك القدرة العظيمة هو الذي علم النبي صلى الله عليه وآله: «عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى .

وللتأكيد أكثر تضيف الآية بعدها إنه ذو قدرة خارقه ومتسلط على كل شيء: «ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وقد علمه هذا التعليم عندما كان بالافق الأعلى: «وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى .

ثم اقترب واقترب حتى كان بفاصلة قوسين من معلمه أو أقل «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . ثم أن الله تعالى أنزل عليه الوحي «فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ مَا أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ .

«المِرَّة»: معناها الفتل، وبما أن الحبل كلما قُتل أكثر كان أشد إحصاءاً وقوة... فإن هذه الكلمة استعملت في الأمور المادية أو المعنوية المحكمة والقوية.

«تدلى»: فعل مأخوذ من التدلى ومعناه، كما يقول الراغب في مفرداته، الإقتراب، فبناءً على ذلك فهو تأكيد على جملة «دنا» الواردة قبله، وكلا الفعلين بمعنى واحد تقريباً.

«قاب»: بمعنى مقدار؛ و «قوس» (معروف معناه) وهو ما يوضع في وتره السهم ليرمى به فمعنى «قاب قوسين»... قدر طول قوسين. ورد في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام بأن المراد من هذه الآيات الرؤية الباطنية (القلبية) لذات الله المقدسة التي تجلت للرسول وتكررت في المعراج واهتر لها النبي وهالته.

فعلى هذا التفسير يبين القرآن نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وآله بالصورة التالية:

إن الله الذي هو شديد القوى علم النبي في وقت بلغ حد الكمال والإعتدال في الافق الأعلى. ثم قرب وصار أكثر إقتراباً حتى كان بينه وبين الله مقدار قاب قوسين أو أقل وهناك أوحى الله إليه ما أوحاه. وبما أن هذا اللقاء الباطني يصعب تصوّره لدى البعض، فإنه يؤكد مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩

أن ما رآه قلب النبي كان حقاً وصادقاً ولا ينبغي تكذيبه أو مجادلته.

وكما بينا فإن تفسير هذه الآيات بشهود النبي الباطني لله تعالى هو أكثر صحّة وأكثر إنسجاماً وموافقاً للروايات الإسلامية، وأكرم فضيلة للنبي، ومفهومها أجمل وألطف، والله أعلم بحقائق الامور.

ونختم هذا البحث بحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وآخر عن علي عليه السلام.

١- في تفسير القرطبي: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله هل رأيت ربك؟ فقال: «رأيت بفضوادي».

٢- وفي خطبة الإمام علي (١٧٩) في نهج البلاغة إذ سأله ذعلب اليماني: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: «أفأعبد ما لا أرى؟...».

وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨) هذه الآيات هي أيضاً تنمّة للأبحاث السابقة في شأن مسألة الوحي وإرتباط النبي صلى الله عليه وآله بالله والشهود الباطني، إذ تقول: «وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى . أي مرّة ثانية، وكان ذلك «عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . أي عند شجرة سدر في الجنة تدعى بسدره المنتهى ومحلها في جنّة المأوى:

«عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى .

هذه حقائق واقعية شاهدها النبي صلى الله عليه وآله بام عينيه و «مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى .

ورغم أنه لم يرد توضيح عن سدره المنتهى في القرآن الكريم، إلّا أنّ الأخبار والروايات الإسلامية ذكرت لها أوصافاً كثيرة. وهذه التعابير تشير إلى أن المراد من هذه الشجرة ليس كما نألفه من الأشجار المورقة والباسقة على الأرض أبداً، بل إشارة إلى ظلّ عظيم في جوار رحمة الله وهناك محل تسبيح الملائكة ومأوى الامم الصالحة.

أَمَّا «جَنَّةُ الْمَأْوَى» فمعناها الجنة التي يُسكن فيها؛ والمراد من هذه الجنة هو «جنة البرزخ» التي تحلّ فيها أرواح الشهداء والمؤمنين بصورة مؤقتة.

والآية: «مِمَّا زَاغَ الْبَصِيرُ وَمِمَّا طَعَى إِشَارَةٌ إِلَى أَنْ بَصَرَ النَّبِيَّ، وَأَنَّ عَيْنَيْهِ الْكَرِيمَتَيْنِ لَمْ تَمِيلَا يَمَنَةً وَلَا يَسْرَةً، وَمَا رَأَى النَّبِيَّ بَعَيْنَيْهِ هُوَ عَيْنِ الْوَاقِعِ؛ لِأَنَّ «زَاغَ» مِنْ مَادَّةِ «زَيْغٍ» مَعْنَاهُ الْإِنْحِرَافُ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا؛ وَ «طَعَى» مِنْ الطَّغْيَانِ، مَعْنَاهُ التَّجَاوُزُ عَنِ الْحُدُودِ. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠

إِنَّ التَّعْبِيرَ بِ «نَزَلَتْ أُخْرَى» مَعْنَاهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَأَى اللَّهَ فِي شَهُودِ بَاطِنِي عِنْدَ مَعْرَاجِهِ فِي السَّمَاءِ. وَبِتَّعْبِيرِ آخَرَ: نَزَلَ اللَّهُ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ وَتَحَقَّقَ الشَّهُودُ الْكَامِلُ فِي (الْمُنْتَهَى إِلَيْهِ) الْقَرِيبَ إِلَى اللَّهِ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى حَيْثُ جَنَّةُ الْمَأْوَى وَالسِدْرَةُ تَغْطِيهَا حِجَابٌ مِنْ أَنْوَارِ اللَّهِ.

ورؤية قلب النبي في هذا الشهود لم تكن لغير الحق أبداً، ولم ير سواه، ولقد رأى من دلائل عظمة الله في الآفاق والأنفس أيضاً وشاهدها بعينه.

بحثنان

١- ما هو الهدف من المعراج؟ الهدف من المعراج هو بلوغ النبي صلى الله عليه وآله مرحلة الشهود الباطني من جهه، ورؤيته عظمة الله في السماوات بالبصر الظاهري من جهه اخرى والتي أشارت إليه آخر آية من الآيات محل البحث: «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى».

وفي الآية الاولى من سورة الإسراء: «لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا» والإطلاع على مسائل مهمية - كثيرة - كأحوال الملائكة وأهل الجنة وأهل النار وأرواح الأنبياء والتي كانت مصدر إلهام للنبي طوال عمره الشريف في تعليم وتربية الناس.

٢- جانب من إحياءات الله وكلماته لرسوله في ليلة المعراج: في كتاب ارشاد القلوب للديلمى: روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ سَأَلَ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْلَةَ الْمَعْرَاجِ فَقَالَ:

يَا رَبِّ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟! فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: لَيْسَ شَيْءٌ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَيَّ وَالرِّضَا بِمَا قَسَمْتُ. يَا مُحَمَّدُ! وَجِبْتَ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَوَجِبْتَ مَحَبَّتِي لِلْمُتَعَاظِفِينَ فِيَّ، وَوَجِبْتَ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ، وَوَجِبْتَ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيَّ، وَلَيْسَ لِمَحَبَّتِي عِلْمٌ وَلَا غَايَةٌ وَلَا نِهَائَةٌ».

وجاء في جانب آخر: «يا أحمد (١)» فاحذر أن تكون مثل الصبي إذا نظر إلى الأخضر والأصفر أحبه وإذا أعطى شيء من الحلوى والحامض اغتر به. فقال: يا رب، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ أَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْكَ.

قال: اجعل ليلتك نهراً ونهارك ليلاً. قال: رب وكيف ذلك؟ قال: اجعل نومك صلاةً وطعامك الجوع».

كما جاء في مكان آخر منه: «يا أحمد، محبتي لمحبة الفقراء فادن الفقراء وقرب مجلسهم

(١) إنَّ إِسْمَ النَّبِيِّ فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ وَرَدَ بِلَفْظِ أَحْمَدَ إِلَّا فِي بَدَايَتِهِ، أَجَلُ فَاسْمِ النَّبِيِّ فِي الْأَرْضِ مُحَمَّدٌ وَفِي السَّمَاءِ أَحْمَدُ.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١

منك ادنك وبعده الأعتياء وبعده مجلسهم منك فإن الفقراء أحبائي».

وجاء في موضع آخر أيضاً: «يا أحمد، أبغض الدنيا وأهلها وأحب الآخرة وأهلها. قال يا رب ومن أهل الدنيا ومن أهل الآخرة؟ قال: أهل الدنيا من كثر أكله وضحكه ونومه وغضبه، قليل الرضا لا يعتذر إلى من أساء إليه ولا يقبل معذرة من اعتذر إليه، كسلان عند الطاعة، شجاع عند المعصية، أمله بعيد وأجله قريب، لا يحاسب نفسه، قليل المنفعة، كثير الكلام، قليل الخوف، كثير الفرح عند الطعام، وإن أهل الدنيا لا يشكرون عند الرخاء ولا يصبرون عند البلاء، كثير الناس عندهم قليل، يحمدون أنفسهم بما لا يفعلون، ويدعون بما

ليس لهم، ويتكلمون بما يتمنون ويذكرون مساوى الناس ويخفون حسناتهم.

قال: يا رب، هل يكون سوى هذا العيب فى أهل الدنيا؟ قال: يا أحمد، إن عيب أهل الدنيا كثير، فيهم الجهل والحمق، لا يتواضعون لمن يتعلمون منه، وهم عند أنفسهم عقلاء وعند العارفين حمقاء.

ثم يتناول الحديث أهل الجنة فيقول: «يا أحمد، إن أهل الخير وأهل الآخرة رقيقة وجوههم، كثير حياؤهم، قليل حمقهم، كثير نفعهم، قليل مكرهم، الناس منهم فى راحة وأفسهم منهم فى تعب، كلامهم موزون، محاسبين لأنفسهم، متعبين لها، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، أعينهم باكية وقلوبهم ذاكرة، إذا كتبت الناس من الغافلين كتبوا من الذاكرين، فى أول النعمة يحمدون وفى آخرها يشكرون، دعاؤهم عند الله مرفوع، وكلامهم مسموع، تفرح الملائكة بهم، ... الناس [الغفلة] عندهم موتى والله عندهم حى قيوم كريم، يدعون المدبرين كراماً ويريدون المقبلين تلطفاً قد صارت الدنيا والآخرة عندهم واحدة، يموت الناس مرة ويموت أحدهم فى كل يوم سبعين مرة من مجاهدة أنفسهم ومخالفة هواهم ... وإن قاموا بين يدي كأنهم بنيان مرصوص لا أرى فى قلبهم شغلاً لمخلوق ... فوعزتى وجلالى لأحبيتهم حياة طيبة إذا فارقت أرواحهم من جسدكم ولا اسلط عليهم ملك الموت ولا يلى قبض روحهم غيرى ولأفتحن لروحهم أبواب السماء كلها ولأرفعن الحجب كلها دونى، ولأمرن الجنان فلترين»

... «يا أحمد، إن العبادة عشرة أجزاء تسعه منها طلب الحلال فإذا طيبت مطعمك ومشربك فأنت فى حفظى وكفى».

وجاء فى مكان آخر منه: «يا أحمد، هل تدرى أى عيش أهنا وأى حياة أبقي؟ قال اللهم لا.

قال: أما العيش الهنىء فهو الذى لا يفتتر صاحبه عن ذكرى ولا ينسى نعمتى ولا يجهل حقى،

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢

يطلب رضاي فى ليله ونهاره. وأما الحياة الباقية فهى التى يعمل لنفسه حتى تهون عليه الدنيا وتصغر فى عينه وتعظم الآخرة عنده ويؤثر هواى على هواه ويتغنى مرضاتى ويعظم حق عظمتى ويذكر علمى به ويراقبنى بالليل والنهار عند كل سيئته أو معصية وينقى قلبه عن كل ما أكره، ويبغض الشيطان ووساوسه ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسيلاً فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حباً حتى أجعل قلبه لى وفراغه وإشتغاله وهمه وحديثه من النعمة التى أنعمت بها على أهل محبتي من خلقى وافتح عين قلبه وسمعه حتى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالى وعظمتى». وأخيراً فإن هذا الحديث القدسى الكريم يختتم بهذه العبارات المؤثرة: «يا أحمد، لو صلى العبد صلاة أهل السماء والأرض ويصوم صيام أهل السماء والأرض ويطوى من الطعام مثل الملائكة، ولبس لباس العارى ثم أرى فى قلبه من حب الدنيا ذرة أو سعتها أو رئاستها أو حليها أو زينتها لا يجاورنى فى دارى ولأنزعت من قلبه محبتي وعليك سلامى ورحمتى والحمد لله رب العالمين» (١).

هذه الأحاديث القدسية «من رب العرش» التى تحمل روح الإنسان إلى أوج السماوات معها وتعرج به إلى حالة الشهود هى قسم من الحديث القدسى المشار إليه آنفاً.

ونضيف إلى ذلك أننا على يقين أنه كان بين النبى ومجوبه فى تلك الليلة الكريمة أسرار وإشارات وكلمات اخرى لا تستطيع الأذان الإصغاء إليها ولا الأفكار الساذجة إستيعابها؛ ولذلك بقيت فى نفس النبى صلى الله عليه وآله طي الكتمان فلم يبيح بها لأحد إلا للخصائى المختصين به.

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) هذه الأصنام وليده أهوائكم: بعد بيان الأبحاث المتعلقة بالتوحيد والوحى والمعراج وآيات عظمة الواحد الأحد فى السماء، يتناول القرآن أفكار المشركين، فينقضها ويتحدث عن معتقداتهم الخرافية ... فيقول: بعد أن أدركتم عظمة الله وآياته فى خلقه فهل أن أصنامكم

(١) بحار الأنوار ٧٤ / ٢١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣

مثل اللات والعزى والصنم الثالث وهو «مناة» بإمكانها أن تنفعكم أو تضركم: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ .

مع أنكم تزعمون أن قيمة البنت دون قيمة الولد ولو بلغكم أن أزواجكم أنجب بنات حزتم واسودت وجوهكم.

«تلك إذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى . فهذه قسمة غير عادلة بينكم وبين الله تعالى فعلام تجعلون نصيب الله دون نصيبكم؟!»

وهكذا يتناول القرآن أفكارهم الخرافية مستهزئاً بها! ويقول لهم: إنكم ترون البنت عاراً وذلةً وتدونها وهي حيّة في القبر، وفي الوقت

ذاته تزعمون بأن الملائكة بنات الله، ولا تعبدون الملائكة من دون الله فحسب بل تصنعون لها التماثيل وتجعلون لها تلك القدسية.

ومن هنا يبدو واضحاً أن العرب الجاهليين كانوا يعبدون بعض هذه الأصنام على الأقل على أنها تماثيل الملائكة، الملائكة التي يسمون كلاً منها برّب النوع ومدير الوجود ومدبره، وكانوا يرون أن الملائكة بنات الله.

ومن هنا يتبين أن القرآن لا يقصد إمضاء ما كان عليه العرب من التفريق بين الذكر والانثى، بل يريد بيان ما هو مقبول ومسلم عندهم

(وهو منطق الجدول)، وإلا فلا فرق في نظر الإسلام ومنطقه بين الذكر والانثى من حيث القيمة الإنسانية، ولا الملائكة فيهم ذكر وانثى،

ولا هم بنات الله، وليس عند الله من ولد أساساً.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث يقول القرآن بضرر قاطع: «إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ

سُلْطَانٍ».

فلا دليل لديكم من العقل، ولا دليل عن طريق الوحي على مدعاكم، وليس لديكم إلا حفته من الأوهام والخيالات الباطلة.

ثم يختتم القرآن الآية بالقول: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى النَّفْسُ». فهذه الخيالات والموهومات وليده هوى النفس «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ

مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ .. إِلَّا أَنَّهُمْ أَغْمَضُوا أَعْيُنَهُمْ عَنْهُ وخلفوه وراء ظهورهم وتاهوا في هذه الأوهام والضلالات.

وأساساً فإن «هوى النفس» ذاته يعدّ أكبر الأصنام وأخطرها، وهو الأصل لظهور الأصنام الأخرى.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤

أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ (٢٥) وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ

يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦) هذه الآيات أيضاً تتناول بالبحث والتعقيب موضوع عبادة الأصنام وخرافتها، وهي تنميه لما سبق بيانه في الآيات

المتقدمة. فتتناول أولاً الامنيات الجوفاء عند عبدة الأصنام وما كانوا يتوقعون من الأصنام: «أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى .

تُرى! هل من الممكن أن تشفع هذه الأجسام التي لا قيمة لها ولا روح فيها عند الله سبحانه؟ أو يلتجأ إليها عند المشكلات؟ كلا! «فَلِلَّهِ

الْآخِرَةُ وَالْأُولَى .

إنّ عالم الأسباب يدور حول محور إرادته، وكل ما لدى الموجودات فمن بركات وجوده، فالشفاعة من اختياراته أيضاً، وحلّ

المشاكل بيد قدرته كذلك.

وهكذا فإن القرآن يقطع أمل المشركين تماماً - بشفاعة الأصنام.

وفي آخر الآيات محل البحث يقول القرآن مضيفاً ومؤكداً على هذه المسألة: «وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ

بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى .

فحيث لا تستطيع الملائكة على عظمتها حتى ولو بشكل جماعي أن تشفع لأحد إلا بإذن الله ورضاه، فما عسى يُنتظر من هذه الأصنام

التي لا قيمة لها.

بحث

سعة الأمانى: الأمل أو التمنى إنّما ينبع من محدودية قدرة الإنسان وضعفه، الإنسان إذا كانت له علاقة بالشىء ولم يستطع أن يبلغه

ويحققه فإنه يأخذ صورة التمني عنده ...

وبالطبع قد تكون أمانى الإنسان أحياناً نابعة من روحه العالية وبعثاً على الحركة والجد والنشاط والجهاد وسيره التكاملى ... كما لو تمنى بأن يتقدم الناس بالعلم والتقوى والشخصية والكرامة.

إلما أنه كثيراً ما تكون هذه الأحلام «والأمانى» كاذبة، وعلى العكس من الأمانى الصادقة فأنها- أى الكاذبة- أساس الغفلة والجهل والتخدير والتخلف كما لو تمنى الإنسان الخلود فى الأرض والعمر الدائم، وأن يملك أموالاً طائلة، وأن يحكم الناس جميعاً وأمثال هذا الخيال الموهوم.

ولذلك فقد رغب الروايات الإسلامية الناس فى تمنى الخير، كما فى كتاب الخصال عن

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥

على عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله من تمنى شيئاً وهو لله عز وجل رضاء لم يخرج من الدنيا حتى يعطاه». إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمؤن الملائكة تسميته الأثنى (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَمَّا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (٢٨) فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى (٣٠) هذه الآيات- محل البحث- كالأيات المتقدمة، تبحث موضوع نفى عقائد المشركين، فتقول أولها: «إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى .

أجل، إن هذا الكلام القبيح والمخجل إنما يصدر من اناس لا يعتقدون بيوم الحساب ولا بجزاء أعمالهم، فلو كانوا يعتقدون بالآخرة لما تجاسروا وقالوا مثل هذا الكلام، وأى كلام؟! كلام ليس لهم فيه أدنى دليل ... بل الدلائل العقلية تبرهن على أنه ليس لله من ولد، وليس الملائكة إناثاً، ولا هم بنات الله كذلك.

ثم يتناول القرآن واحداً من الأدلة الواضحة على بطلان هذه التسمية فيقول معقلاً:

«وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَمَّا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً».

فالإنسان الهادف والمعتقد لا يطلق كلامه دون علم ودراية، ولا ينسب أية نسبة لأحد دونما دليل .. فالتعويل على الظن والتصور إنما هو من عمل الشيطان أو من يتصف بالشیطانية ... وقبول الخرافات والأشياء الموهومة دليل الانحراف وعدم العقل. ولكن الظن المعقول وهو ما يخطر فى الذهن، ويكون مطابقاً للواقع غالباً، وعليه يبنى الإنسان أعماله و سلوكياته اليومية عادة- كشهادة الشهود فى المحكمة وقول أهل الخبرة وظواهر الألفاظ وأمثال ذلك- غير داخل فى هذه الآيات، وهذه الامور نوع من العلم العرفى لا الظن.

ومن أجل أن يبين القرآن أن هؤلاء الجماعة ليسوا أهلاً للإستدلال والمنطق الصحيح، وقد ألهاهم حب الدنيا عن ذكر الله وجرهم إلى الوحل فى خرافاتهم وأوهامهم يضيف قائلاً:

«فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٦

إنما عبارة (ذكرنا) ذو مفهوم واسع بحيث يشمل كل توجه نحو الله، سواء أكان ذلك عن طريق القرآن، أو عن طريق العقل، أو عن طريق السنّة، أو تذکر القيامة وما إلى ذلك.

وربما لا حاجة إلى التذكير أن الأمر بالإعراض عن هذه الفئة (أهل الدنيا) لا ينافى تبليغ الرسالة الذى هو وظيفته النبى الأساسية، لأن التبليغ والإنذار والبشارة كلها لا- تكون إلما فى موارد احتمال التأثير، بحيث يعلم ويتيقن عدم التأثير فلا يصح هدر الطاقات، وبنبغى الإعراض بعد إتمام الحجّة.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث يثبت القرآن انحطاط أفكار هذه الفئة فيقول مضيفاً:

«ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ».

إن آية أعلاه يمكن أن تكون إشارة إلى خرافاتهم كعبادة الأصنام وجعلهم الملائكة بنات الله: أى أن منتهى علمهم هو هذه الأوهام. أو أنها إشارة إلى حب الدنيا والأسر في قبضة الماديات، أى أن منتهى إدراكهم هو قناعتهم بالأكل والشرب والنوم والمتاع الفانى في هذه الدنيا وزبرجها وزخرفها الخ.

وقد جاء في الدعاء المعروف في أعمال شعبان المنقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا».

وتختتم الآية بالقول: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَى .

ختام الآية يشير إلى هذه الحقيقة، وهى أن الله يعرف الضالين جيّداً كما يعرف المهتدين أيضاً، فيصب غضبه على الضالين ويسبغ لطفه على المهتدين، ويجازى كلّا بعمله يوم القيامة.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيُجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن اتَّقَى (٣٢) لما كان الكلام في الآيات المتقدمة عن علم الله بالضالين والمهتدين، فإن الآيات أعلاه تنميه لما جاء آنفاً. تقول: «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧

فالمالكية المطلقة في عالم الوجود له وحده، والحاكمية المطلقة على هذا العالم له أيضاً، ولذلك فإن تدبير عالم الوجود بيده فحسب. ولما كان الأمر كذلك فهو وحده الجدير بالعبادة والشفاعة.

إن هدفه الكبير من هذا الخلق الواسع ليستيقظ الإنسان في عالم الوجود وليسير في مسير التكامل في ضوء المناهج التكوينية والتشريعية وتعليم الأنبياء وتربيتهم، لذلك فإن القرآن يذكر نتيجة هذه المالكية فيختتم الآية بالقول: «لِيُجْزِيَ الَّذِينَ أَسُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى .

ثم يصف القرآن المحسنين في الآية التالية فيقول: «الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ».

«الكبائر»: جمع كبيرة؛ و «الإثم» فى الأصل هو العمل الذى يُبعد الإنسان عن الخير والثواب، لذلك يطلق على الذنب عادةً؛ و «اللمم»: معناه الإقتراب من الذنب. فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «اللمم: الرجل يلتم بالذنب فيستغفر الله منه».

والقرائن الموجودة فى هذه الآية تشهد على هذا المعنى أيضاً ... إذ قد تصدر من الإنسان بعض الذنوب، ثم يلتفت إليها فيتوب منها.

أضف إلى ذلك فإن الجملة التالية بعد الآية فى القرآن تقول: «إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ».

وهذا يدل على أن ذنباً صدر من الإنسان وهو بحاجة إلى غفران الله. يعنى أن الذين أحسنوا من الممكن أن ينزلقوا فى منزلق ما فيذنوبوا، إلا أن الذنب على خلاف سجيتهم وطبعهم وقلوبهم الطاهرة- وإنما تقع الذنوب عَرَضاً، ولذلك فما أن يصدر منهم الذنب إلا ندموا وتذكروا وطلبوا المغفرة من الله سبحانه.

ويتحدث القرآن فى ذيل الآية عن علم الله المطلق مؤكّداً عدالته فى مجازاة عباده حسب أعمالهم فيقول: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ».

وقوله «أنشأكم من الأرض» إما هو باعتبار الخلق الأول عن طريق آدم عليه السلام الذى خلقه من تراب، أو باعتبار أن ما يتشكّل منه وجود الإنسان كله من الأرض، حيث له الأثر الكبير فى التغذية وتركيب النطفة، ثم بعد ذلك له الأثر فى مراحل نمو الإنسان أيضاً.

وعلى كل حال، فإن الهدف من هذه الآية أن الله مطلع على أحوالكم وعلیم بكم منذ كنتم ذرات فى الأرض ومن يوم إنعقدت نطفتكم فى أرحام الأمهات فى أسجاف من الظلمات فكيف- مع هذه الحال- لا يعلم أعمالكم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨

وهذا التعبير مقدمه لما يليه من قوله تعالى: «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى .

فلا حاجة لتعريفكم وتزكيتكم وبيان أعمالكم الصالحة، فهو مطلع على أعمالكم وعلى ميزان خلوص نياتكم، وهو أعرف بكم منكم. في علل الشرائع عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ» قال: «لا يفتخر أحدكم بكثره صلاته وصيامه وزكاته ونسكه لأن الله تعالى أعلم بمن اتقى منكم».

بحث

ما هي كبائر الإثم: إن كل ذنب فيه أحد الشروط التالية يعدّ كبيراً:

أ الذنوب التي ورد الوعيد من قبل الله في شأنها والعذاب لمرتكبها.

ب الذنوب المذكورة في نظر أهل الشرع ولسان الروايات بأنها عظيمة.

ج الذنوب التي عدتها المصادر الشرعية أكبر من الذنوب التي هي من الكبائر.

د وأخيراً الذنوب المصرح بها في الروايات المعتبرة بأنها من الكبائر.

وقد ورد ذكر الكبائر في الروايات الإسلامية مختلفاً عددها فيه، إذ جاء في بعضها أنها سبع. في ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «... والكبائر السبع الموجبات: قتل النفس الحرام، وعقوق الوالدين، وأكل الربا، والتعرب بعد الهجرة، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف».

وجاء في بعض الروايات أنها «عشر»، وأوصلتها روايات اخر إلى «تسع عشرة» كبيرة، وربما ترقى هذا العدد إلى أكثر مما ذكر في بعض الروايات أيضاً.

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَ أَعْطَى قَلِيلًا وَ أَكْذَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْعَيْبِ فَهَوَّ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَنْ تَزْرُ وَازِرَةً وَ زُرَّ أُخْرَى (٣٨) وَ أَنْ لَيْسَ لِلنَّاسِ إِيْلَا مَا سَعَى (٣٩) وَ أَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١)

سبب النزول

في مجمع البيان: نزلت في عثمان بن عفان، كان يتصدق وينفق ماله، فقال له أخوه من الرضاة عبد الله بن أبي سرح: ما هذا الذي تصنع يوشك أن لا يبقى لك شيء؟ فقال عثمان:

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩

إن لي ذنوباً، وإنني أطلب بما أصنع رضى الله وأرجو عفوّه. فقال له عبد الله: أعطني ناقتك، وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها. فأعطاه، وأشهد عليه، وأمسك عن الصدقة. فنزلت الآيات.

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وكان قد اتبع رسول الله صلى الله عليه وآله على دينه، فغيره بعض المشركين، وقالوا: تركت دين الأشياخ وظلتهم، وزعمت أنهم في النار؟ قال: إنني خشيت عذاب الله. فضمن له الذي عاتبه إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه، أن يتحمل عنه عذاب الله، ففعل. فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له، ثم بخل، ومنعه تمام ما ضمن له، فنزلت الآيات.

التفسير

كان الكلام في الآيات السابقة في أن يجزى الله تعالى من أساء بإساءته ويشيب المحسنين بإحسانهم ... وبما أنه من الممكن أن يتصور أن يعذب أحد بذنب غيره أو أن يتحمل أحد وزر غيره، فقد جاءت هذه الآيات لتنفى هذا التوهم في المقام، وبيئت هذا الأصل الإسلامى المهم أن كلاً يرى نتيجة عمله، فقالت أولاً: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى . أى تولى من الإسلام أو الإنفاق. «وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْذَى «١». بمعنى أنه أنفق القليل ثم إمتنع وأمسك وهو يظن أن غيره سيحمل وزره يوم القيامة ..

«أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهَوْ يَرَى . فَأَيُّ رَجُلٍ جَاءَهُمْ مِنَ الْغَيْبِ وَ «الْقِيَامَةُ» فَأَخْبِرُهُمْ بِأَنَّهُ يُمْكِنُ أَخْذُ الرِّشْوَةِ وَتَحْمَلُ آثَامَ الْآخِرِينَ؟ وَبَعْدَ هَذَا تَأْتِي الْآيَةُ الْآخَرَى لِتَبَيِّنِ إِعْتِرَاضِ الْقُرْآنِ الشَّدِيدِ عَلَى ذَلِكَ، وَبَيَانِ لِأَصْلِ كُلِّ مَطْرَدٍ فِي الْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ كُلِّهَا فَتَقُولُ: تُرَى أَهَذَا الَّذِي إِمْتَنَعَ عَنِ الْإِنْفَاقِ وَآمَنَ بِالْوَعْدِ الْخَيَالِيَّةِ، وَيُرِيدُ أَنْ يَخْلُصَ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِإِنْفَاقِهِ الْيَسِيرِ وَالزَّهِيدِ مِنْ أَمْوَالِهِ، أَتَغْنِيهِ هَذِهِ الْخَيَالَاتُ وَالتَّصَوُّرَاتُ: «أُمُّ لَمْ يُبْنَأُ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَى» (٢). «إِبْرَاهِيمَ»: هُوَ ذَلِكَ النَّبِيُّ الْعَظِيمُ الَّذِي أَدَّى حَقَّ رِسَالَةِ اللَّهِ، وَبَلَّغَ مَا أَمَرَهُ بِهِ وَوَفَى بِجَمِيعِ عَهْدِهِ وَمَوَاقِفِهِ، وَلَمْ يَخْشَ تَهْدِيدَ قَوْمِهِ وَطَاغُوتِ زَمَانِهِ، ذَلِكَ الْإِنْسَانُ الَّذِي بَدَلَ نَفْسَهُ لِلنِّيرَانِ وَقَلْبَهُ لِلرَّحْمَنِ وَوَلَدَهُ لِلقُرْبَانِ وَمَالَهُ لِلْأَخْوَانِ. ثُمَّ تَأْتِي الْآيَةُ الْآخَرَى لِتَقُولُ: «أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

(١) «أَكْدَى»: مَأْخُودٌ مِنَ الْكُدْيَةِ وَمَعْنَاهُ الصَّلَابَةُ، ثُمَّ أُطْلِقَ عَلَى مَنْ يُمْسِكُ وَالبَخِيلِ.

(٢) «وَفَى»: مَصْدَرُهُ تَوْفِيَةٌ مَعْنَاهُ الْبَدْلُ وَالْأَدَاءُ التَّامُّ ..

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠

«الوزر»: فِي الْأَصْلِ مَأْخُودٌ مِنَ «الْوَزْرِ» - عَلَى زَنْهٍ خَطِرٍ - وَمَعْنَاهُ الْمَأْوَى أَوْ الْكَهْفُ أَوْ الْمَلْجَأُ الْجَبَلِيُّ، ثُمَّ اسْتَعْمَلَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي الْأَعْيَاءِ الثَّقِيلَةِ! لِشَبَاهَتِهَا الصَّخُورِ الْجَبَلِيَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَأُطْلِقَتْ عَلَى الذَّنْبِ أَيْضًا، لِأَنَّهُ يَتْرَكَ عِبْنًا ثَقِيلًا عَلَى ظَهْرِ الْإِنْسَانِ. وَالْمَرَادُ مِنَ «الْوَازِرَةِ» مَنْ يَتَحَمَّلُ الْوِزْرَ.

ولمزيد الإيضاح يضيف القرآن قائلًا: «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى .

أَمَّا الْآيَةُ التَّالِيَةُ فَتَقُولُ: «وَأَنْ سَيَعْبُهُ سَوْفَ يَرَى . فَالْإِنْسَانُ لَا يَرَى غَدًا نَتَائِجَ أَعْمَالِهِ الَّتِي كَانَتْ فِي مَسِيرِ الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ فَحَسَبَ، بَلْ سِيرَى أَعْمَالَهُ نَفْسَهَا يَوْمَ الْحِسَابِ، كَمَا نَجِدُ التَّصْرِيحَ بِذَلِكَ فِي الْآيَةِ (٣٠) مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا».

أَمَّا الْآيَةُ الْآخِرَةُ مِنَ الْآيَاتِ مَحَلِّ الْبَحْثِ فَتَقُولُ: «ثُمَّ يُجْزَى الْجُزَاءَ الْأَوْفَى .

وَالْمَرَادُ مِنَ «الْجُزَاءِ الْأَوْفَى» هُوَ الْجُزَاءُ الَّذِي يَكُونُ طَبَقًا لِلْعَمَلِ، وَبِالطَّبَعِ هَذَا لَا يَنَافِي لَطْفَ اللَّهِ وَتَفَضُّلَهُ بِأَنْ يَضَاعِفَ الْجُزَاءَ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ عَشْرَةَ أضعافٍ أَوْ عَشْرَاتِ الْأضعافِ وَمِثْلَاتِهَا وَإِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ.

اشير في الآيات - آنفه الذكر - إلى ثلاثه اصول من الاصول الإسلامية، وقد أكدت عليها الكتب السماوية السابقة وهي:

(أ) كل إنسان مسؤول عن ذنبه ووزره.

(ب) ليس للإنسان في آخرته إلا سعيه.

(ج) يُجْزَى اللَّهُ كُلَّ إِنْسَانٍ عَلَى عَمَلِهِ الْجُزَاءَ الْأَوْفَى.

وهكذا فإن القرآن يشجب الكثير من الأوهام والخرافات التي يهتم بها عامة الناس أو السائدة بينهم وكأنها مذهب عقائدي.

وَ أَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى (٤٢) وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَكَ وَ أَبْكَى (٤٣) وَ أَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَ أَحْيَا (٤٤) وَ أَنَّهُ خَلَقَ الرُّوجِينَ الدَّكَرَ وَ الْأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَ أَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخَرَى (٤٧) وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَ أَقْنَى (٤٨) وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى (٤٩) كُلُّ شَيْءٍ يَنْتَهِي إِلَيْهِ: فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَتَجَلَّى بَعْضُ صِفَاتِ اللَّهِ الَّتِي تَرشُدُ الْإِنْسَانَ إِلَى مَسْأَلَةِ التَّوْحِيدِ وَكَذَلِكَ الْمَعَادِ أَيْضًا. فَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَإِكْمَالًا لِلْبَحْثِ الْوَارِدَةِ فِي شَأْنِ جُزَاءِ

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١

الأعمال يقول القرآن: «وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى .

وليس الحساب والثواب والجزاء في الآخرة بيد قدرته فحسب، فإن الأسباب والعلل جميعها تنتهي سلسلتها إلى ذاته المقدسة، وجميع

تدبيرات هذا العالم تنشأ من تدبيراته، وأخيراً فإنَّ ابتداء هذا العالم والموجودات وانتهاءها كلها منه وإليه، وتعود إلى ذاته المقدسة. في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا وتكلموا فيما دون العرش، ولا تكلموا فيما فوق العرش». أي لا تتكلموا في ذات الله فإنَّ العقول تحار فيه ولا تصل إلى حدِّ فإنه لا يمكن للعقول المحدودة أن تفكر في ما هو غير محدود لأنه مهما فكرت العقول فتفكيرها محدود وحاشا لله أن يكون محدوداً.

إنَّ هذا التفسير لا ينافي ما ذكرناه آنفاً ويمكن الجمع بين المفهومين في الآية.

ثم يضيف القرآن في الآية التالية مبيِّناً حاكمية الله في أمر ربوبيته وإنهاء امور هذا العالم إليه فيقول: «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا* وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ .

وهذه الآيات الأربعة وما قبلها هي بيان جامع وتوضيح طريف لمسألة انتهاء الامور إليه وتدبيره وربوبيته، لأنها تقول: إنَّ موتكم وحياتكم بيده واستمرار النسل عن طريق الزوجين بيده، وكل ما يحدث في الحياة بأمره، فهو يضحك، وهو يبكي، وهو يميت، وهو يحيى، وهكذا فإنَّ أساس الحياة والمعول عليه من البداية حتى النهاية هو ذاته المقدسة.

وقد جاء في بعض الأحاديث ما يوسع مفهوم الضحك والبكاء في هذه الآية ففسرت بأنه سبحانه: «أبكى السماء بالمطر وأضحك الأرض بالنبات» (١).

وبعد ذكر الامور المتعلقة بالربوبية والتدبير من قبل الله يتحدث القرآن عن موضوع المعاد فيقول: «وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْآخِرَىٰ .

«النشأة»: معناها الإيجاد والتربية، و «النشأة الاخرى» ليست شيئاً سوى القيامة.

ثم يضيف القرآن في الآية التالية قائلاً: «وَأَنَّهُ هُوَ أَعْنَىٰ وَأَقْنَىٰ .

فالله سبحانه لم يرفع حاجات الإنسان المادية عنه بلطفه العميم فحسب، بل أولاه غنى يرفع عنه حاجاته المعنوية من امور التربية والتعليم والتكامل عن طريق إرسال الرسل إليه وإنزال الكتب السماوية وإعطائه المواهب العديدة.

(١) تفسير علي بن إبراهيم القمي ٣٣٩ / ٢.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢

«أعنى»: فعل مشتق من غنى ومعناه عدم الحاجة؛ و «أقنى»: فعل مشتق من قنية على وزن جزيه، ومعناها الأموال التي يدخرها الإنسان. فيكون معنى الآية على هذا النحو: هو أعنى أى رفع الحاجات الفعلية، وأقنى معناه إيلاء المواهب التي تدخر سواء في الامور المادية كالحائط أو البستان والأملاك وما شاكلها، أو الامور المعنوية كرضا الله سبحانه الذي يُعدُّ أكبر «رأس مال» دائم.

أما آخر آية من الآيات محل البحث فتقول: «وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ .

تخصيص القرآن «الشعري» النجم المعروف في السماء بالذكر، بالإضافة إلى أنه أكثر النجوم لمعاناً ويطلع عند السحر في مقربة من الجوزاء مما يلفت النظر تماماً... فإنَّ طائفةً من المشركين العرب كانت تعبده، فالقرآن يشير إلى أنَّ الأولى بالعبادة هو الله لأنه ربَّ الشعري «وربكم».

وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) وَتَمُودَ فَمَا أَبَقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَىٰ (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَعَشَاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) ألا تكفى دروس العبرة هذه: هذه الآيات - كالأيات المتقدمة - تستكمل المسائل المذكورة في الصحف الاولى وما جاء في صحف إبراهيم وموسى.

وكانت الآيات المتقدمة قد ذكرت عشر مسائل ضمن فصلين:

الأول: كان ناظراً إلى مسؤولية كل إنسان عن أعماله.

الثاني: ناظر إلى إنتهاء جميع الخطوط والحوادث إلى الله سبحانه. أما الآيات محل البحث فتتحدث عن مسألة واحدة - وإن شئت

قلت- تتحدث عن موضوع واحد ذلك هو مجازاه أربع امم من الامم المنحرفة الظالمه وإهلاكهم، وفي ذلك إنذار لأولئك الذين يلوون رؤوسهم عن طاعة الله ولا يؤمنون بالمبدأ والمعاد.

فتبدأ الآية الاولى من الآيات محل البحث فتقول: «وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى .

وصف عاد ب «الاولى» إمّا لقدمها حتى أنّ العرب تطلق على كل قديم أنه «عادي» أو لوجود امتين في التاريخ باسم «عاد» والامة المعروفة التي كانت نبياها هود عليه السلام تدعى ب «عاد الاولى».

ويضيف القرآن في الآية التالية قائلاً: «وَتَمُودَ فَمَا أَبْقَى .

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣

ويقول في شأن قوم نوح: «وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى .

لأنّ نبياهم نوحاً عاش معهم زماناً طويلاً، وبذل قصارى جهده في إبلاغهم ونصحهم، فلم يستجب لدعوته إلا قليل منهم، وأصروا على شركهم وكفرهم وعتوهم وإستكبارهم وإيدائهم نبياهم نوحاً وتكذيبهم إياه وعبادة الأوثان بشكل فظيع كما سنعرض تفصيل ذلك في تفسير سورة نوح إن شاء الله.

وأما رابعة الامم فهي «قوم لوط» المشار إليهم بقوله تعالى: «وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى .

والظاهر أنّ زلزلة شديدة أصابت حثيم وقريتهم فقذفت عماراتهم نحو السماء بعد إقتلاعها من الأرض وقلبتها على الأرض، وطبقاً لبعض الروايات كان جبرئيل قد إقتلعها بإذن الله وجعل عاليها سافلها ودمرها تدميراً ... «فَعَشَّاهَا مَا عَشَّى .

لقد امطروا بحجارة من السماء، فغشّت حثيم وعماراتهم المنقلبة ودفنتها عن آخرها.

وفي ختام هذا البحث يشير القرآن إلى مجموع النعم الوارد ذكرها في الآيات المتقدمة ويلمح إليها بصورة استفهام إنكارى قائلاً: «فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكَ تَتَمَارَى .

فهل تشكّ وتتردّد بنعم الله، كنعمه الحياة أو أصل نعمه الخلق والإيجاد، أو نعمه أنّ الله لا يأخذ أحداً بوزر أحد؛ وما جاء في الصحف الاولى وأكده القرآن؟!

صحيح أنّ المخاطب بالآية هو شخص النبي صلى الله عليه وآله إلّا أنّ مفهومها شامل لجميع المسلمين، بل الهدف الأصلي من هذه الآية إفهام الآخرين.

هذا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى (٥٦) أَرِزَتْ الْأَرْزَفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَ لَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢) تعقياً على الآيات المتقدمة التي كانت تتحدث عن إهلاك الامم السالفة لظلمهم، تتوجه هذه الآيات- محل البحث- إلى المشركين والكفار ومنكري دعوة النبي صلى الله عليه وآله فتخاطبهم بالقول: «هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى . أى النبي أو القرآن نذير كمن سبقه من المنذرين.

وقوله عن «القرآن أو النبي» «هذا نذير من النذر الاولى» يعنى أنّ رساله محمد وكتابه

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤

السماوى لم يكن (أى منهما) موضوعاً لم يسبق إليه، فقد أنذر الله امماً بمثله فى ما مضى من القرون، فعلام يكون ذلك مثار تعجبكم. ومن أجل أن يلتفت المشركون والكفار إلى الخطر المحقق بهم ويهتّموا به أكثر يضيف القرآن قائلاً: «أَرِزَتْ الْأَرْزَفَةُ».

والتعبير ب «الأرزة» عن القيامة هو لإقترابها وضيق وقتها، لأنّ الكلمة هذه مأخوذة من الأرف على وزن نَجَف، ومعناه ضيق الوقت، وبالطبع فإنّ مفهومه يحمل الإقتراب أيضاً.

وتسمية القيامة بالأرزة فى القرآن بالإضافة إلى هذه الآية محل البحث، واردة فى الآية (١٨) من سورة غافر أيضاً ... وهو تعبير بليغ وموقظ، وهذا المعنى جاء بتعبير آخر فى الآية (١) من سورة القمر: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ». فإنّ إقتراب القيامة مع الأخذ بنظر الاعتبار عمر

الدنيا المحدود والقصير يمكن إدراكه بوضوح، خاصة ما ورد أن من يموت تقوم قيامته الصغرى.

ثم يضيف القرآن قائلاً: أن المهم هو أنه لا أحد غير الله بإمكانه إغاثة الناس في ذلك اليوم والكشف عما بهم من شدائد: «لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ».

«الكاشفة»: هنا معناه مزيحة الشدائد.

فالحاكم والمالك وصاحب القدرة في ذلك الحين وكل حين هو الله سبحانه، فإذا أردتم النجاة فالتجئوا إليه وإلى لطفه وإذا طلبتم الدعة والأمان فاستظّلوا بالإيمان به.

ويضيف القرآن في الآية التالية قائلاً: «أَقِمْنَ هَذَا الْحَدِيثَ تَعَجُّبُونَ».

ولعل هذه الجملة إشارة إلى القيامة الوارد ذكرها آنفاً، أو أنها إشارة إلى القرآن، لأنه ورد التعبير عنه بـ «الحديث» في بعض الآيات كما في الآية (٣٤) من سورة الطور، أو أن المراد من «الحديث» هو ما جاء من القصص عن هلاك الامم السابقة أو جميع هذه المعانى.

ثم يقول مخاطباً: «وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ». أى في غفلة مستمرة ولهو وتكالب على الدنيا، مع أنه لا مجال للضحك هنا ولا الغفلة والجهل، بل ينبغي أن يبكي على الفرص الفائتة والطاعات المتروكة، والمعاصى المرتكبة، وأخيراً فلا بد من التوبة والرجوع إلى ظل الله ورحمته.

ويقول القرآن في آخر آية من الآيات محل البحث - وهي آخر آية من سورة النجم أيضاً

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥

- بعد أن بين أبحاثاً متعددة حول إثبات التوحيد ونفى الشرك: «فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَعَبُدُوا» (١).

فإذا أردتم أن تسيروا في الصراط المستقيم والسييل الحق فاسجدوا لذاته المقدسة فحسب، إذ لله وحده تنتهى الخطوط في عالم الوجود، وإذا أردتم النجاة من العواقب الوخيمة التى أصابت الامم السالفة لشركهم وكفرهم فوقعوا فى قبضه عذاب الله، فاعبدوا الله وحده.

الذى يجلب النظر - كما جاء فى روايات متعددة - أن النبى صلى الله عليه وآله عندما تلا هذه الآية وسمعها المؤمنون والكافرون سجدوا لها جميعاً.

وليست هذه هى المرة الاولى التى يترك القرآن بها أثره فى قلوب المنكرين ويجذبهم إليه دون اختيارهم، إذ ورد فى قصه «الوليد بن المغيرة» أنه لما سمع آيات فصّلت وبلغ النبى صلى الله عليه وآله (فى قوله) إلى الآية: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ». قام من مجلسه واهتز لها وجاء إلى البيت فظن جماعة من المشركين أنه صبا إلى دين محمد.

«نهاية تفسير سورة النجم»

(١) ينبغى الالتفات إلى أن هذه الآية هى ثلثة السجديات الواجبة فى القرآن الكريم، وإذا ما تلاها أحد بتمامها، أو سمعها من آخر فيجب أن يسجد. طبعاً لا يجب فيها الوضوء، لكن يجب الإحتياط فى وضع الجبهة على ما يصح السجود عليه.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧

٥٤. سورة القمر

محتوى السورة: تحوى هذه السورة خصوصيات السور المكية التى تتناول الأبحاث الأساسية حول المبدأ والمعاد، وخصوصاً العقوبات التى نزلت بالامم السالفة، وذلك نتيجة عنادهم ولجاجتهم فى طريق الكفر والظلم والفساد.. مما أدى بها الواحدة تلو الاخرى إلى

الإبتلاء بالعذاب الإلهي الشديد، وسبب لهم الدمار العظيم.

ونلاحظ في هذه السورة تكرر قوله تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ» وذلك بعد كل مشهد من مشاهد العذاب الذي يحلّ بالامم لكي يكون درساً وعظة للمسلمين والكفار.

ويمكن تلخيص أبحاث هذه السورة في عدّة أقسام هي:

١- تبدأ السورة بالحديث عن قرب وقوع يوم القيامة، وموضوع شق القمر، وإصرار وعناد المخالفين في إنكار الآيات الإلهية.

٢- ثم يبحث بتركيز واختصار عن أول قوم تمردوا على الأوامر الإلهية، وهم قوم نوح، وكيفيه نزول البلاء عليهم.

٣- ثم يتعرض إلى قصة قوم «عاد» وأليم العذاب الذي حلّ بهم.

٤- ثم تتحدث الآيات عن قوم «ثمود» ومعارضتهم لنبيهم صالح عليه السلام وبيان معجزة الناقة،

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨

وأخيراً إبتلاؤهم بالصيحة السماوية.

٥- تتطرق الآيات بعد ذلك إلى الحديث عن قوم «لوط» ضمن بيان واف لإنحرافهم الأخلاقي ... ثم عن السخط الإلهي عليهم وإبتلائهم بالعقاب الرباني.

٦- ثم تركز الآيات الكريمة الحديث عن آل فرعون، وما نزل بهم من العذاب الأليم جزاء كفرهم وضلالهم.

٧- ثم تعرض مقارنة بين هذه الامم ومشركي مكة ومخالفى الرسول الأعمم صلى الله عليه وآله والمستقبل الخطير الذي ينتظر مشركى مكة فيما إذا استمروا على عنادهم وإصرارهم فى رفض الدعوة الإلهية.

وتنتهى السورة ببيان صور ومشاهد من معاقبة المشركين، وجزاء وأجر المؤمنين والمتقين.

وسورة القمر تتميز آياتها بالقصر والقوة والحركة.

وقد سميت هذه السورة ب (القمر) لأن الآية الاولى منها تتحدث عن شق القمر.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة اقتربت الساعة فى كل غب بُعث يوم القيامة ووجهه على صورة القمر ليلة البدر، ومن قرأها كل ليلة كان أفضل وجاء يوم القيامة ووجهه مسفر على وجوه الخلائق».

ومن الطبيعى أن تكون النورانية التى تتسم بها هذه الوجوه تعبيراً عن الحالة الإيمانية الراسخة فى قلوبهم نتيجة التأمل والتفكر فى آيات هذه السورة المباركة والعمل بها بعيداً عن التلاوة السطحية الفارغة من التدبر فى آيات الله.

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمَّرٍ مُّسْتَقَرٌّ (٣) شَقَّ الْقَمَرُ: يتناول الحديث فى الآية الاولى حادثتين مهمتين:

أحدهما: قرب وقوع يوم القيامة، والذى يقترن بأعظم تغيير فى عالم الخلق، وبداية حياة جديدة فى عالم آخر، ذلك العالم الذى يقصر فكرنا عن إدراكه نتيجة محدودية علمنا وإستيعابنا للمعرفة الكونية.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩

والحادثة الثانية التى تتحدث الآية الكريمة عنها هى معجزة إنشقاق القمر العظيمة التى تدلّ على قدرة البارئ عز وجل المطلقة، وكذلك تدلّ- أيضاً- على صدق دعوة الرسول الأعمم صلى الله عليه وآله. قال تعالى: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ».

وجدير بالذكر أن سورة النجم التى أنهت آياتها المباركة بالحديث عن يوم القيامة «أَزِفَتِ الْأَافِزَةُ» تستقبل آيات سورة القمر بهذا المعنى أيضاً، مما يؤكّد قرب وقوع اليوم الموعود رغم أنه عندما يقاس بالمقياس الدنيوى فقد يستغرق آلاف السنين ويتوضّح هذا المفهوم، حينما نتصور مجموع عمر عالمنا هذا من جهة، ومن جهة اخرى عندما نقارن جميع عمر الدنيا فى مقابل عمر الآخرة فإنها لا تكون سوى لحظة واحدة.

إن إقتران ذكر هاتين الحادثتين فى الآية الكريمة: «إنشقاق القمر واقتراب الساعة» دليل على قرب وقوع يوم القيامة، حيث إن ظهور الرسول الأكرم- وهو آخر الأنبياء- قرينه على قرب وقوع اليوم المشهود.

ومن جهة اخرى، فإن إنشقاق القمر دليل على إمكانية اضطراب النظام الكونى، ونموذج مصغّر للحوادث العظيمة التى تسبق وقوع يوم القيامة فى هذا العالم، حيث إندثار الكواكب والنجوم والأرض يعنى حدوث عالم جديد، استناداً إلى الروايات المشهورة التى ادعى البعض تواترها.

فى تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: اجتمع المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن فعلت تؤمنون؟» قالوا: نعم. وكانت ليلة بدر فسأل رسول الله صلى الله عليه وآله ربه أن يعطيه ما قالوا، فانشق القمر فرقتين ورسول الله ينادى: «يا فلان! يا فلان! أشهدوا».

يقول سبحانه: «وإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ».

والمراد من قوله تعالى «مستمر» أنهم شاهدوا من الرسول الكريم صلى الله عليه وآله معجزات عديدة، وشق القمر هو استمرار لهذه المعاجز، وأنهم كانوا يبشرون إعراضهم عن الإيمان وعدم الاستسلام لدعوة الحق وذلك بقولهم: إن هذه المعاجز كانت «سحر مستمر».

أما قوله تعالى: «وَكَاذِبُوا وَأَتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَمِرٌّ». فإنه يشير إلى سبب مخالفتهم وعنادهم وسوء العاقبة التى تنتظرهم نتيجة لهذا الإصرار.

إن مصدر خلاف هؤلاء وتكذيبهم للرسول صلى الله عليه وآله أو تكذيب معاجزه ودلائله، وكذلك تكذيب يوم القيامة، هو اتباع هوى النفس.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠

والمراد من جملة «وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَمِرٌّ»، هو أن كل شىء فى هذا العالم لا يفنى ولا يزول، فالأعمال الصالحة أو السيئة تبقى مع الإنسان حتى يرى جزاء ما فعل. حيث إن الحق سيظهر وجهه الناصح مهما حاول المغرضون إطفاءه، كما أن وجه الباطل القبيح سيظهر قبحه كذلك، وهذه سنة إلهية فى عالم الوجود.

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ (٦) خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسَىٰ (٨) تَأْتِي هَذِهِ الْآيَاتِ لِتَوَاصِلِ الْبَحْثِ عَنِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَلَمْ يَدْعُوا لِلْحَقِّ حَيْثُ أَعْرَضُوا عَنْ جَمِيعِ الْمَعَاجِزِ الَّتِي شَاهَدَوْهَا. وَالآيَاتِ أَعْلَاهُ تَشْرِحُ حَالَ هَؤُلَاءِ الْأَفْرَادِ وَمَوْضِعَهُ الْمَصِيرُ الْبَائِسَ الَّذِي يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْمَعَانِدِينَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ. يَقُولُ سَبْحَانَهُ إِنْ هَؤُلَاءِ لَمْ يَعْدَمُوا الْإِنْذَارَ وَالْإِخْبَارَ، بَلْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَخْبَارِ مَا يُوْجِبُ إِنْجَارَهُمْ عَنِ الْقَبَائِحِ وَالذُّنُوبِ: «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ». وَذَلِكَ لِيَلْقَى عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ.

والقصد من «الأنباء» الإخبار عن الامم والأقوام السابقة الذين هلكوا بألوان العذاب المدمر الذى حلّ بهم، وكذلك أخبار يوم القيامة وجزاء الظالمين والكفار، حيث اتضحت كل تلك الأخبار فى القرآن الكريم.

ويضيف تعالى: «حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ». فهذه الآيات حكم إلهية بليغة ومواعظ مؤثرة، إلا أنها لا تفيد أهل العناد (١).

الآية التالية تؤكد على أن هؤلاء ليسوا على استعداد لقبول الحق، فتركهم لحالهم وأعرض عنهم وتذكّر يوم يدعو الداعى الإلهى إلى أمر مخيف، وهو الدعوة إلى الحساب،

(١) «نذر»: جمع «نذير» ويعنى (المنذرين) والمقصود بالمنذرين هي الآيات القرآنية وأخبار الامم والأنبياء الذين وصل صوتهم إلى أسماع الناس.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١

حيث يقول سبحانه: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ» (١).

أما المراد من «شئٍ نُكْرٍ» فهو الحساب الإلهي الدقيق الذي لم يكن معلوماً من حيث وقته قبل قيام الساعة، أو العذاب الذي لم يخطر على بالهم، أو جميع هذه الامور، ذلك لأن يوم القيامة في جميع أحواله حالة غير مألوفة للبشر.

وفي الآية اللاحقة يبين الله سبحانه وتعالى توضيحاً أكثر حول هذا الموضوع ويذكر أن هؤلاء يخرجون من القبور في حالة: «خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ».

نسبة «الخشوع» هنا للأبصار لأن المشهد مرعب ومخيف إلى حد لا تستطيع الأنظار رؤيته، لذلك فإنها تتحول عنه وتطرق نحو الأسفل. والتشبيه هنا بـ «الجراد مُنْتَشِرٌ» لأن النشور في يوم الحشر يكون بصورة غير منتظمة لحالة الهول التي تعترى الناس فيه، كما هي حركة إنتشار الجراد التي تتمثل فيها الفوضى والاضطراب خلافاً للقسم الأكبر من حركة الطيور التي تطير وفق نظم خاصة في الجو، مضافاً إلى أنهم كالجراد من حيث الضعف وعدم القدرة.

إن حالة هؤلاء الفاقدين للعلم والبصيرة، حالة ذهول ووحشة وتخيُّط في المسير كالسكارى يرتطم بعضهم ببعض فاقدين للوعى والإرادة.

وأما قوله تعالى: «مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ» فإن كلمة «مهطعين»: تأتي من مادة «اهطاع» أي مدّ الرقبه، والبعض يرجعها إلى النظر بانتباه أو الركض بسرعة نحو الشيء، ويحتمل أن تكون كل واحدة من هذه المعاني هي المقصودة، حيث إن بمجرد سماع صوت الداعي الإلهي تمدّ الرقاب إليه ثم يتبعه التوجّه بالنظر نحوه، ثم الإسراع إليه والحضور في المحكمة الإلهية العادلة عند دعوتهم إليها.

وهنا يستولى الخوف من الأهوال العظيمة لذلك اليوم على وجود الكفار والظالمين، لذا يضيف سبحانه معبراً عن حالة البؤس التي تعترى الكافرين بقوله: «يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ».

ويستفاد من هذا التعبير أن يوم القيامة يوم غير عسير بالنسبة للمؤمنين.

(١) «نكر»: مفرد من مادة «نكاره» وتعنى الشئ المبهم المخيف.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قُدْرٍ (١٢) وَحَمَلْنَا عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسِّرَ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسْرُنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١٧) قصة قوم نوح عبرة وعظة: جرت السنّة القرآنية في كثير من الموارد أن الله سبحانه يستعرض حالة الأقوام السابقة والعاقبة المؤلمة التي انتهوا إليها إنذاراً وتوضيحاً (للكفار والمجرمين) بأن الاستمرار في طريق الضلال سوف لن يؤدي بهم إلّا إلى المصير البائس الذي لاقته الأقوام السابقة.

وفي هذه السورة، إكمالاً للبحث الذي تناولته الآيات السابقة، في إثارات وإشارات مختصرة ومعبرة حول تاريخ خمسة من الأقوام المعاندة ابتداءً من قوم نوح كما في قوله تعالى:

«كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ»، فمضافاً إلى تكذيبه وإتهامه بالجنون صبوا عليه ألوان الأذى والتعذيب ومنعوه من الإستمرار في أداء رسالته.

فتارةً يقولون له مهتدين ومنذرين: «قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ» (١).
وتارةً اخرى يضغظون رقبته بأيديهم حتى يفقد وعيه، ولكنه ما أن يفيق إلى وعيه حتى يقول: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» (٢).
والتعبير بـ «عبدنا» إشارة إلى أن هؤلاء القوم المعاندين والمغرورين فى الواقع يبارزون الله تعالى لا مجرد شخص «نوح». ثم يضيف تعالى أن نوح عندما يئس من هداية قومه تماماً: «فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ». «انتصر»: طلب العون، وهنا جاءت بمعنى طلب الانتقام على أساس العدل والحكمة.

(١) سورة الشعراء / ١١٦.

(٢) الدر المنثور ٣ / ٩٥؛ تفسير القرطبي ٨ / ٢٧٣؛ وجامع البيان ٢٩ / ١٢٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣

ثم يشير هنا إشارة معبرة وقوية فى كيفية العذاب الذى إبتلوا به وصب عليهم حيث يقول سبحانه: «فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ». إنَّ تعبير إنفتاح أبواب السماء لتعبير رائع جداً، ويستعمل عادةً عند هطول الأمطار الغزيرة. «منهمر»: من مادة «همر» على وزن (صبر) وتعنى النزول الشديد للدموع أو الماء. ويذكر أن الماء الذى أدى إلى الطوفان لم يكن من هطول الأمطار فقط، بل كان من تفجير العيون فى الأرض، حيث يقول تعالى: «وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا». وهكذا إختلط ماء السماء بماء الأرض بمقدار مقدر وملا البسيطة: «فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ». وتترك الآيات الكريمة مسألة الطوفان، لأن ما قيل فيها من الآيات السابقة يعتبر كافياً فتنقل إلى سفينة نوح عليه السلام حيث يقول تعالى: «وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَّاحِ وَدُسْرٍ».

«دسر»: جمع «دسار» بمعنى الإبعاد أو النهر بشده مقترناً مع حالة عدم الرضا.

فإنَّ التعبير القرآنى هنا ظريف، لأنه كما يقول البارى عز وجل بأننا وفى وسط ذلك الطوفان العظيم، الذى غمر كل شىء أودعنا أمر نجاه نوح وأصحابه إلى مجموعة من المسامير وقطع من الخشب، وهكذا تتجلى القدرة الإلهية العظيمة. ويشير سبحانه إلى لطف عنايته للسفينة المخصّصة لنجاه نوح عليه السلام حيث يقول سبحانه: «تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا». أى أن هذه السفينة تسير بالعلم والمشية الإلهية، وتشق الأمواج العالية بقوة وتستمر فى حركتها تحت رعايتنا وحفظنا. ثم يضيف تعالى: «جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرًا».

إنَّ نوح عليه السلام كسائر الأنبياء الإلهيين يعتبر نعمه إلهية عظيمة وموهبه من مواهبه الكبيرة على البشرية، إلّا أن قومه الحمقى كفروا به وبرسالته.

ثم يقول سبحانه وكتيجة لهذه القصة العظيمة موضع العظة والاعتبار: «وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ».

وفى الآية اللاحقة يطرح الله سبحانه سؤالاً معبراً ومهدداً للكافرين الذين اتبعوا نفس المنهج الذى كان عليه قوم نوح حيث يقول سبحانه: «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي».

هل هذه حقيقة واقعه، أم قصة واسطورة؟

ويضيف مؤكداً هذه الحقيقة فى آخر الآية مورد البحث فى قوله تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤

إنَّ هذا الكتاب العظيم الخالى من التعقيد والمجسد لعناصر التأثير من حيث عذوبه ألفاظه وجاذبيتها، وطبيعة قصصه الواقعية ذات المحتوى الغزير ... لذا فإنَّ القلوب المهياة لقبول الحق والمتفاعله مع منطق الفطرة والمستوعبة لمنهج العقل تنجذب بصورة متميزة، والشاهد على هذا أن التاريخ الإسلامى يذكر لنا قصصاً عديدة عجيبة محيرة من حالات التأثير العميق الذى يتركه القرآن الكريم على

القلوب الخيرة.

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسْرُنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ (٢٢) مصير قوم عاد: تستعرض الآيات الكريمة أعلاه نموذج آخر من الكفار والمجرمين بعد قوم نوح، وهم (قوم عاد) وذلك كتذكير لمن يتكبر طريق الحق والهداية الإلهية. وتبدأ فصول أخبارهم بقوله تعالى: «كَذَّبَتْ عَادٌ».

لقد بذل هود عليه السلام غاية جهده في توعية قومه وتبليغهم بالحق الذي جاء به من عند الله، وكان عليه السلام كلما ضاعف سعيه وجهده لإنتشالهم من الكفر والضلال إزدادوا إصراراً ونفوراً ولجاجة في غيهم وغرورهم الناشيء من الثراء والإمكانات المادية، بالإضافة إلى غفلتهم نتيجة إنغماسهم في الشهوات، جعلتهم صم الآذان، عمى العيون، فجازاهم الله بعقاب أليم، ولهذا تشير الآية الكريمة باختصار حيث يقول سبحانه: «فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ».

كما نلاحظ التفصيل في الآيات اللاحقة بعد هذا الإجمال حيث يقول سبحانه: «إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ».

«صرصر»: من مادة «صرر» على وزن (شـرر)، وفي الأصل تعني (الإغلاق والإحكام) ويأتي تكرارها في هذا السياق للتأكيد، ولأن الرياح التي عذبوا بها كانت باردة وشديدة ولاذعة ومصحوبة بالأزيز، لذا اطلق عليها (صرصر).

«نحس»: ففي الأصل معناها (الإحمرار الشديد) الذي يظهر في الافق أحياناً، كما يطلق العرب أيضاً كلمة (نحاس) على وهج النار الخالية من الدخان، ثم أطلق هذا المصطلح على كل (شؤم) مقابل (السعد).

«مستمر» صفة ل (يوم) أو ل (نحس) ومفهومه في الحالة الاولى هو استمرار حوادث

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥

ذلك اليوم كما في الآية (٧) من سورة الحاقة قوله تعالى: «سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ».

وتعني في الحالة الثانية استمرار نحوسة ذلك اليوم حتى هلك الجميع.

ثم يستعرض سبحانه وصف الرياح بقوله: «تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ».

«منقعر»: من مادة «قعر» بمعنى أسفل الشيء أو نهايته، ولذا يستعمل هذا المصطلح بمعنى قلع الشيء من أساسه.

«أعجاز»: جمع «عجز» - على وزن رجل - بمعنى خلف أو تحت، وقد شهبوا بالقسم الأسفل من النخلة وذلك حسبما يقول البعض لأن شدة الرياح قطعت أيديهم ورؤوسهم ودفعتها باتجاهها، وبقيت أجسادهم المقطعة الرؤوس والأطراف كالنخيل المقطعة الرؤوس، ثم قُلت أجسادهم من الأرض وكانت الرياح تتقاذفها.

وللسبب المذكور أعلاه، يكرر الله سبحانه وتعالى إنذاره للكفار بقوله: «فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ».

فنحن كذلك فعلنا وجازينا الأقوام السالفة التي سلكت سبيل الغي والطغيان والعصيان، فعليكم أن تتفكروا في مصيركم وأنتم تسلكون نفس الطريق الذي سلكوه.

وفي نهاية القصة يؤكد قوله سبحانه: «وَلَقَدْ يَسْرُنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ».

والنقطة الأخيرة الجديدة بالذكر هي تأكيد قوله سبحانه: «فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ» حيث تكررت مرتين: الاولى: في بداية الحديث عن قصة قوم عاد، والثانية: في نهايتها، ولعل سبب هذا الاختلاف بين قوم عاد والأقوام الاخرى، أن عذاب قوم عاد كان أكثر شدة وإنتقاماً، رغم أن جميع ألوان العذاب الإلهي شديد.

إن مسألة الإهتمام بموضوع (سعد ونحس) الأيام، وكذلك الحوادث التي وقعت فيها، بالإضافة إلى أنها ترشدنا للكثير من الحوادث التاريخية ذات العظة والعبرة، فإنها أيضاً عامل للتوسل بالله والتوجه إلى رحاب عظمته السامقة، واستمداد العون من ذاته القدسية، وهذا

ما نلاحظه في روايات عديدة.

ففي الأيام النحسة مثلما نستطيع أن نطمئن نفسياً لممارستنا العملية وبكل تفاؤل وموقفية، وذلك حينما ندعو الله ونطلب منه العون ونصدق على الفقراء، ونقرأ شيئاً من الآيات القرآنية ونتوكل على الذات الإلهية المقدسة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذْرِ (٢٣) فَقَالُوا أَمْشَرْنَا وَحَادًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَ سَعْرٍ (٢٤) أَلْقَى الذُّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اضْطَبِرْ (٢٧) وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَنادَوْا صَاحِبِهِمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَ نَذْرٍ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (٣٢) العاقبة الأليمة لقوم ثمود: تكملة للأبحاث السابقة، تتحدث الآيات الكريمة باختصار عن ثالث قوم ذكروا في هذه السورة، وهم (قوم ثمود) الذين عاشوا في (حجر) الواقعة في شمال الحجاز، ليستفاد من قصصهم الدروس والعبر.

لقد بذل نبينهم «صالح» عليه السلام أقصى الجهد من أجل هدايتهم وإرشادهم ولكن دون جدوى. قال تعالى: «كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذْرِ».

إن «نذر» جاءت هنا جمع «إنذار» وهو الكلام الذي يتضمن التهديد، والذي هو الطابع العام لكلام الأنبياء جميعاً.

ويستعرض سبحانه سبب تكذيبهم (الأنبياء) حيث يقول على لسان قوم ثمود: «فَقَالُوا أَمْشَرْنَا وَحَادًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَلٍ وَ سَعْرٍ».

إن الكبرياء والغرور والنظرة المتعالية تجاه الآخرين، بالإضافة إلى حب الذات كانت حاجزاً عن الإستجابة لدعوة الأنبياء عليهم السلام، لقد قالوا: إن «صالح» شخص مثلنا وليست له أى امتيازات علينا ليصبح زعيماً وقائداً نطيعه وتبعه، كما لا يوجد سبب لإتباعه.

وهذا هو الإشكال الذي توردته جميع الأقوام الضالّة على أنبيائها بأنهم أشخاص مثلنا، ولذا لا يستطيع أن يبلغ رسالة سماوية.

وتزداد اللجاجة والعناد في قوم ثمود فيتساءلون: إذا اريد نزول الوحي على إنسان، فلماذا اختص بصالح من بيننا: «أَلْقَى الذُّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا».

وفي الحقيقة أن هذه الأقوال لها شبه كبير بأقوال مشركى مكة، ذلك أنهم شككوا برسالة

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧

النبي بأقوال مماثلة: «مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا» (١).

ثم تحتتم الآية بقوله سبحانه: «بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ». وذلك إتهاماً لصالح عليه السلام بالكذب فيما ادّعه من اختصاص الوحي به وإنذار قومه وأنه يريد أن يتحكّم علينا ويجعل كل امورنا تحت قبضته ويسيرنا وفق هواه وإرادته ..

«أشِر»: وصف من مادة «أشِر» على وزن (قمر) بمعنى بطر ومرح زائد عن الحد.

ويرد الباري عز وجل عليهم بصورة قاطعة بقوله: «سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ».

وعندما يدركهم العذاب الإلهي ويسويهم مع التراب ويحوّلهم رماداً، وبعد أن يجازيهم الله بأعمالهم في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ... عندئذ سيدر كون حقيقة إتهاماتهم الزائفة التي اتهموا بها نبي من أنبياء الله المقربين، وسيعلمون أيضاً أن هذه الإفتراءات هي أحق بهم وألصق.

ثم يشير سبحانه إلى قصة «الناقة» التي ارسلت كمعجزة ودلالة على صدق دعوة صالح عليه السلام حيث يقول: «إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اضْطَبِرْ».

«الناقة»: انثى البعير، وهي ليست كبقية النوق لما تتصف به من خصوصيات خارقة للعادة، وطبقاً للروايات المشهورة فإن هذه الناقة قد خرجت من بطن صخرة جبل حجة دامعة للمنكرين والمعاندين.

ومن الواضح أن قوم ثمود قد جعلوا أمام إمتحان عسير، حيث يستعرض سبحانه هذا الإختبار لهم بقوله: «وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ

كُلَّ شَرِبٍ مُّخْتَصِرٌ». يوم لهم ويوم للناقة.

ومع أن القرآن الكريم لم يوافنا بتفاصيل أكثر حول هذا الموضوع، ولكن كما يذكر الكثير من المفسرين فإن ناقة صالح عليه السلام كانت تشرب كل الماء يوم يكون شربها، ويعتقد البعض الآخر أن هيئتها ووضعها كانا بشكل يدفع الحيوانات إلى الفرار من الماء عندما تقترب الناقة نحوه، ولذلك فإنهم إقترحوا حلًا وهو: أن يكون الماء يوماً لهم وآخر للناقة. إن قوم ثمود المتمردين عقدوا العزم على قتل الناقة، في الوقت الذي حذرهم نبيهم

(١) سورة الفرقان / ٧.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨

صالح عليه السلام من مسيها بسوء، وأخبرهم بأن العذاب الإلهي سيقع عليهم بعد فترة وجيزة إن فعلوا ذلك. ونظراً لاستخفافهم بهذا التحذير (فقد نادوا أحد أصحابهم حيث تصدى للناقة وقتلها). يقول الله سبحانه: «فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ». ويمكن أن يكون المراد ب (صاحب) أحد رؤساء ثمود، وكان أحد أشرارهم المعروفين ويعرف في التاريخ ب (قدارة بن سالف) «١». «عَقَرَ»: من مادة «عقر» على وزن (ظلم) وفي الأصل بمعنى الأساس والجذر، وإذا استعمل هذا المصطلح بخصوص الناقة فإنه يعنى القتل والنحر.

وتأتى الآية اللاحقة مؤكدة إنذارهم قبل نزول العذاب الشديد عليهم، حيث يقول سبحانه: «فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي». ثم وقع العذاب والسخط الإلهي على هؤلاء المتمردين المعاندين حيث يضيف سبحانه: «إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ». «الهشيم»: من مادة «هشم» على وزن «حسم» وفي الأصل بمعنى إنكسار الأشياء الضعيفة كالنباتات. «مخاطر»: في الأصل من مادة «حظر» على وزن (حفز) بمعنى المنع، ولذلك فإن إعداد الحظائر للحيوانات والمواشي تكون مانعة لها من الخروج ولدرء المخاطر عنها، ومفردها (الحظيرة)، و «مخاطر» على وزن محتسب - هو الشخص الذي يملك مثل هذا المكان. والإستعراض الذي ذكرته الآية الكريمة حول عذاب قوم ثمود عجيب جداً ومعتبر للغاية، حيث لم يرسل الله لهم جيوشاً من السماء أو الأرض للتنكيل بهم، وإنما كان عذابهم بالصيحة السماوية العظيمة، فكانت صاعقة رهيبه، أحمدت الأنفاس، وكان إنفجاراً هائلاً حطم كل شيء في قريتهم.

إن إستيعاب هذا اللون من العذاب كان صعباً وعسيراً للأقوام السالفه، ولكنه يسير بالنسبة لنا، وذلك من خلال معرفتنا لتأثير الأمواج الناتجة من الانفجارات، حيث إنها تحطم كل شيء يقع ضمن دائرة إشعاعاتها. ومن الطبيعي أننا لا نستطيع المقارنه بين الانفجارات البشرية وصاعقة العذاب الإلهي

(١) «قدارة»: على وزن (منارة) - كان رجلاً قبيح الشكل والسيره، ومن أكثر الأشخاص شؤماً في التاريخ.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩

التي أشاعت الدمار الرهيب في هؤلاء القوم الحمقى المستبدين، وعلى بيوتهم وقصورهم، عسى أن يكون عبرة ودرسا للآخرين، حيث يقول سبحانه: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ».

كَذَّبَتْ قَوْمٌ لُوطٍ بِالَّذِي إِذْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذِي (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَ نُذِرِ (٣٧) وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَ نُذِرِ (٣٩) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ (٤٠) المصير الأكثر شؤماً: نلاحظ في هذه الآيات تعبيرات قصيرة وقوية حول قصة «قوم لوط» والعذاب الشديد الذي حل بهم، وهم المجموعة الرابعة من الأقوام التي اتصفت بالقبح

والضلال والتي استعرضتهم هذه السورة المباركة ... حيث يبدأ الحديث عنهم بقوله سبحانه: «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِينَ».

«نذر»: جمع «إنذار» وتعني التهديد والتخويف. ومن المحتمل أن يكون المراد بها بعد ذكرها بصيغة الجمع هو الإنذارات المتعاقبة من النبي لوط لقومه، والتي كُذِّبَ بها أجمع، كما يمكن أن يكون المقصود منها هو إشارة إلى إنذار لوط والأنبياء الذين سبقوه في الدعوة إلى الله ذلك أن جميع الأنبياء يسعون من أجل تثبيت حقيقة أساسية واحدة وهي العبودية لله.

وتستعرض الآيات التالية مشاهد من العذاب الذي نزل بقوم لوط وكيفيه نجاه عائلته حيث يقول سبحانه: «إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا». «حاصب»: تعني الريح الشديدة التي تأتي بالحجارة والحصباء، والحصباء هي الحصى، ويكون المقصود: إِنَّا أَمْطَرْنَا هُمْ بِالْحِجَارَةِ وَالْحِصْبَاءِ حَتَّى عُلَّتْ أَجْسَادُهُمْ وَدَفِنُوا تَحْتِهَا؛ «إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ».

وتتحدث الآيات القرآنية الأخرى عن هول العذاب الذي حلَّ بقوم لوط حيث الزلازل التي قلبت مدنهم فأصبح عاليها سافلها، وبذلك أصيبت بكارثة الدمار الماحق ... وتحدث عن مطر الحجارة والحصى الذي نزل عليهم بشدة، فيقول سبحانه في ذلك: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا مَخْتَصِرِ الْأَمْثَلِ، ج ٥، ص: ٤٠»

جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ» (١). ويضيف الباري عز وجل بقوله: «نَعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ».

إنَّ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَتَمَّ الْحِجَةَ عَلَى قَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ الْبَلَاءُ عَلَيْهِمْ، حَيْث يُوَضِّحُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ فَيَقُولُ تَعَالَى: «وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذِينَ».

«بطش»: على وزن (فرش) وتعني في الأصل أخذ الشيء بالقوة، ولأنَّ المجرم لا- يؤخذ إلَّا بالقوة ليلقى جزاءه، لذلك فإنها تعني المجازة.

«تماروا»: من «تمارى» بمعنى محادثة طرفين لإيجاد الشك وإلقاء الشبهة مقابل الحق، فهؤلاء سعوا بطرق مختلفة إلى إلقاء الشكوك والشبهات بين الناس لإبطال تأثير إنذارات هذا النبي العظيم «لوط» عليه السلام.

ولم يكتف هؤلاء المعاندون بإلقاء الشبهات العقائدية بين الناس، بل بلغت بهم الوقاحة والصلف وعدم الحياء حدًّا أنهم تجرؤوا على ملائكة الرحمن وضيوف النبي الكريم المأمورين بعذاب هؤلاء القوم حينما دخلوا بيت لوط عليه السلام بصورة شباب وسيمين، حيث يقول سبحانه: «وَلَقَدْ رَأَوْهُ عَنِ ضَيْفِهِ». أى أنهم طلبوا منه أن يضع ضيوفه تحت تصرفهم.

لقد بلغ الألم الذي اعترى «لوطًا» عليه السلام حدًّا لا يطاق نتيجة هذا التصرف القبيح والمخجل لقومه، وطلب بإصرار أن يكفوا عن هذا السلوك المشين المخجل البعيد عن الشرف والحياء.

بل وأبدى إستعداده عليه السلام لتزويج بناته لهم- إن أعلنوا توبتهم- وهذه أعلى حالات المظلومية التي يتعرض لها هذا النبي الكريم من قبل قوم عديمي الحياء والإيمان والقيم الخيرة، كما في قوله سبحانه: «قَالَ هُوَ لَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ» (٢).

ولم يمض وقت طويل حتى واجهت هذه الفئة المجرمة الباغية الجزاء الأولى لعملهم الإجرامى حيث يقول في ذلك سبحانه: «فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذَقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي».

إنَّ يَدَ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ إِتَمَدَتْ لِتَنْتَقِمَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمَجْرَمِينَ، وَذَلِكَ بِأَنْ طَمَسَتْ عَلَى أَعْيُنِهِمْ، حَيْث يَقُولُ الْبَعْضُ بِأَنَّ جِبْرَائِيلَ قَدْ أَمَرَ أَنْ يَخْفِقَ بِجَنَاحِهِمْ عَلَى عَيْنِهِمْ حَيْث فَقَدُوا

(١) سورة هود / ٨٢.

(٢) سورة الحجر / ٧١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤١

بصرهم حالاً، وقيل إن بؤر أبصارهم قد أصبحت مستوية مع وجوههم.

وجاءت الساعة المرتقبة حيث أمر الله بفنائهم وقلبت الزلزلة مدينتهم رأساً على عقب وصُبَّ عليهم العذاب صباً مع أول خيط من أشعة فجر ذلك اليوم، فتمزق أجسادهم وتلاشى أبدانهم وتدمر بيوتهم وتندثر قصورهم وتتحول إلى أنقاض وخرائب، وإذا بالمطر الحجري ينهمل عليهم ويطمس كل معالم الحياة لديهم حتى لم يبق أى أثر لهم.

وذلك ما تشير له الآية الكريمة حيث تعكس هذا المعنى باختصار وتركيز: «وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ».

«مستقر»: تعنى الثبوت والإحكام، أى بمعنى (ثابت الحكم). ويحتمل أن يكون المراد به هنا هو: أن العذاب الإلهي كان شديداً إلى حد أن أى قوة لم تكن قادرة على مواجهته.

ثم يضيف سبحانه مؤكداً ومكرراً مزة أخرى قوله: «فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي».

لكى لا يكون مجال للشك والتردد فى إنذار الأنبياء لكم بعد هذا.

وفى نهاية المطاف وفى آخر آية من بحثنا هذا تتكرر جمل الموعظة والعبرة وللمرة الرابعة فى هذه السورة بقوله تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ».

نعم، لم يتعظ قوم لوط من النذر، ولم يتعظوا من العذاب الأول الذى أعمى أبصار البعض منهم والذى كان بمثابة إنذار لهم فهل أن

الآخرين الذين يرتكبون نفس الذنوب يتعظون لدى سماع آيات القرآن هذه وينوبوا إلى رشدهم ويندموا على ما فرط منهم ..

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ

(٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ (٤٤) سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمْرٌ (٤٦) هل أنتم

أفضل من الأقوام السابقة: المجموعة الخامسة التى يتحدث عنها القرآن فى هذه السلسلة هم قوم فرعون، ولأن الحديث عن هؤلاء

القوم قد طرح بصورة تفصيلية فى السور القرآنية المختلفة، لذا فإن هذه السورة المباركة تستعرض هذه القصة فى مقاطع مختصرة

ومركزة حول ضرورة الاستفادة من العبر التى جاءت فيها والإلتعاض منها ...

يقول سبحانه: «وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٢

المقصود من (آل فرعون) ليسوا أهل بيته ومتعلقه فقط، بل يشمل كل أتباعه بصورة عامة.

«نذر»: على وزن (كتب) وهى جمع نذير، وهنا إشارة إلى المعجزات التسع لموسى عليه السلام.

و الآية اللاحقة تكشف عن رد الفعل لآل فرعون من دعوة النبيين الإلهيين، والإنذارات التى وجهوها لهم حيث يقول الله سبحانه:

«كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا».

(آيات) لها معنى واسع تشمل الدلائل العقلية والمعجزات والدلائل النقلية، وعند ملاحظة قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ

بَيِّنَاتٍ» يتبين لنا أن المقصود ب (الآيات) هنا هى المعجزات التسع لموسى عليه السلام.

إن الإنسان إذا كان صادقاً فى البحث عن الحقيقة فإنه يكفيه أن يرى واحدة منها، وخاصة تلك التى يسبقها إنذار، ثم بلاء، ثم زوال

هذا البلاء عند دعاء النبي الإلهي، ولكن العناد والإصرار على الباطل والغرور إذا ركب الإنسان، فحتى لو أصبحت جميع السماء

والأرض آيات لله، فلن تكون ذات تأثير على أمثال هؤلاء، والجواب الحاسم المناسب لهم هو العذاب الإلهي الذى يقضى على

النزعات الشريرة والنفوس المريضة التى يملؤها الهوى والغرور. كما قال تعالى: «فَأَخَذْنَاَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ» تكملة للآية مورد البحث.

والتعبير الآخر الذى أتى فى آخر هذه القصة لا يوجد له شبه فى التعابير المماثلة فى القصص الأخرى، وذلك لأن الفراعنة كانوا

يتباهون بقوتهم وسطوتهم وعزهم أكثر من بقية الامم، والحديث عن قوة سلطانهم كان فى كل مكان. يقول الله تعالى: «فَأَخَذْنَاَهُمْ

أَخَذَ عَزِيْزٍ مُّقْتَدِرٍ». وذلك كى يكون واضحاً للجميع أنّ القوّة الحقيقيّة هي لله وحده، لأنّ كل قوّة وعزّة اخرى غير قوّته وما يتّصل بذاته وهميّة لا تساوى شيئاً في قبال عزّته وقدرته ...

والعجيب أنّ نهر النيل العظيم الذي كان مصدر خير وثروة لهم، هو الذي امر بالانتقام منهم، والأعجب من ذلك أنّ أضعف المخلوقات سلّط عليهم كالجراد والضفادع والقمل فجعلتهم في حالة عجز ومسكنة لا يقدرّون على دفعها، وهم الذين كانوا من السطوة والقوّة موضع حديث أهل زمانهم.

وبعد بيان هذه المشاهد المؤثّرة من قصص الأقوام المنصرمة والعذاب الإلهي العظيم الذي حلّ بهؤلاء الجبابرة المتمرّدين على الحق، يخاطب الله سبحانه في الآية اللاحقة مشركى مكة بقوله تعالى: «أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣

فما الفرق بينكم وبين قوم فرعون وقوم نوح ولوط و ثمود؟ فكما أنّ اولئك الأقوام قد عدّبو بالطوفان تارةً والزلازل والصواعق اخرى. ومن الطبيعي أنّ مثل هذه الادعاءات ادعاءات كاذبة لا يقوم عليها أى دليل «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ».

والجدير بالذكر هنا أنّ الآية السابقة كانت بصورة خطاب، أمّا في الآية مورد البحث والآيات اللاحقة، فإنّ الحديث عن الكفار بلغه الغائب، وهو نوع من أنواع التحقير، أى أنّهم غير مؤهلين للخطاب الإلهي المباشر.

ويواجه القرآن الكريم هؤلاء السادرين في غيهم بإخبار غيبي حاسم وقوى، حيث يقول: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ».

«سيهزم»: من مادة «هزم» فى الأصل بمعنى الضغط على الجسم اليابس لحد التلاشى.

وهذا إشارة إلى النقطة التالية وهي: رغم حالة الإتحاد والإنسجام لهؤلاء القوم ظاهراً، إلّا أنّهم كالموجودات اليابسة والفاقدة للروح، فبمجرد تعرّضها إلى ضغط قوى تتهشم.

لقد صدق هذا التنبؤ في معركة بدر وسائر الحروب الاخرى حيث كانت هزيمة الكفار ساحقة، فإنّه رغم قدرتهم وقوتهم فقد تلاشى جمعهم.

وفى آخر الآية مورد البحث يشير سبحانه إلى أنّ الهزيمة التى منى بها المشركون سوف لن تكون فى الدنيا فقط، وإنّما هى فى الآخرة أشدّ وأدهى، حيث يقول البارئ عزّ وجل: «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ».

«أدهى»: من مادة (دَهَوَ) و (دهاء)، بمعنى المصيبة والكارثة العظيمة والتي لا مخرج منها ولا نجاه، ولا علاج لها، وتأتى أيضاً بمعنى الذكاء الشديد، إلّا أنّ المقصود منها فى الآية الكريمة هو المعنى الأوّل.

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصِيرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُّدْكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤

إنّ هذه الآيات هي استمرار لبحث الآيات السابقة حول بيان أحوال المشركين والمجرمين فى يوم القيامة، وآخر آية من تلك الآيات تعكس هذه الحقيقة بوضوح، وهو أنّ يوم القيامة هو الموعد المرتقب لهؤلاء الأشرار فى الاقتصاص منهم، حيث يحمل المرارة والصعوبة والأهوال لهم، والتي هي أشد وأقسى مما اصابوا به فى هذه الدنيا. وتحدث الآية الاولى - مورد البحث - عن ذلك حيث يقول سبحانه: «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ».

يقول البارئ عزّ وجل: «يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ».

وفى الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ فى جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له: سقر شكاً إلى الله عزّ وجل شدة حرّه، وسأله أن يأذن له أن يتنفّس فتنفّس فأحرق جهنم».

ولكى لا يتصور أنّ هذه الشدة فى العذاب لا تتناسب مع المعاصى، يقول سبحانه: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ».

إنّ عذابهم فى هذه الدنيا كان بتقدير وحساب، وكذلك سيكون عقابهم المؤلم فى الآخرة، وليس الجزاء فقط، ذلك أنّ الله سبحانه خلق كل شىء بحساب وتقدير.

ثم يضيف تعالى أنّه ليست أعمالنا موافقة للحكمة فحسب، بل أنّها مقترنة مع القدرة والحسم، لأنّه: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ». ولذلك فإنّ اليوم الذى تقوم فيه الساعة يحدث بأمر الله بلمح البصر، وكل شىء يكون فى مسار الآخرة حينئذ، وتبعث الحياة من جديد فى الأبدان.

كما أنّ المشيئة الإلهية فى مجازاة المجرمين بالصواعق والصيحات السماوية والزلازل والظوفان والرياح العاتية ... كل ذلك يحدث بمجرد الأمر الإلهي وبدون تأخير.

إنّ أمره تعالى فى كل مكان وكل شىء هو (كلمة واحدة) والتي تكون أسرع من لمح البصر، ولكن محتوى الأمر الإلهي متفاوت ومختلف، ومن خلال معرفته السنّة التدريجية للعالم المادى وخاصيته وطبيعته الحركة - نلاحظ أنّها تتأثر بالزمان. وفى الآية اللاحقة يخاطب الكفار والمجرمين مرّة اخرى، ويلفت إنتباههم إلى مصير الأقوام السابقة حيث يقول: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ».

إنّ الآية الكريمة تؤكد هذه الحقيقة مرّة اخرى، وهى أنّ أعمال مشركى قريش وممارساتهم هى نفس أعمال وممارسات وعقائد الأقوام السابقة، لذا فلا يوجد دليل على أنّ مصيركم سوف يكون أفضل من مصيرهم، فاتّعظوا وعوا.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥

ثم يشير القرآن إلى هذا الأصل وهو أنّ صفحة أعمال الأقوام السابقة لم تنته بموتهم، بل هى باقية ومسجلة عليهم، يقول سبحانه: «وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ». فكذلك أعمالكم مثبتة ومحفوظة ليوم الحساب.

«زبر»: جمع «زبور» بمعنى الكتاب، وهى تشير إلى صحيفة أعمال الإنسان.

ثم يضيف سبحانه: «وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ».

وبناءً على هذا فحساب الأعمال فى ذلك اليوم هو حساب شامل وتام لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، حيث يستلم المجرمون صفحة أعمالهم كاملة، فيصعقون لهولها ويصطرخون لدقتها: «وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِي هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا» (١).

ولما كانت السنّة المتبعة فى القرآن الكريم غالباً ما تعتمد المقارنة بين جبهه الصلاح والهدى من جهة، وجبهه الفساد والضلال من جهة اخرى، لأنّ فى المقارنة يبرز التفاوت والاختلاف بصورة أفضل، فهنا أيضاً بعد الحديث عن مصير الكفار والمجرمين يشير سبحانه

إشارة مختصرة إلى العاقبة السعيدة والحبور العظيم الذى يكون من نصيب المتقين حيث يقول سبحانه: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ».

وفى آخر آية مورد البحث والتي هى آخر آية فى سورة القمر يوضح الباريء بصورة أكثر (مستقر المتقين) حيث يقول سبحانه أنّهم: «فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ».

ويا له من وصف رائع وظريف! حيث إنّ هذا الوصف يتميّز بخصوصيتين تجمعان كل السمات الرائعة:

الاولى: أنّ المكان هو (مستقرّ صدق) وليس فيه باطل، بل كلّ حق يجد فيه المتقون كل ما وعدوا به كاملاً غير منقوص.

الثانية: أنّهم فى جوار وقرب الله سبحانه، وهذا هو المستفاد من كلمة (عند) والذى يشير إلى غاية القرب المعنوى، وهذا القرب هو من الله الملك القادر ... ما أروع عن قرب من الربّ الكريم الوهاب والذى يمنح العطايا والهبات لضيوفه المتقين بجميل لطفه وعظيم

إحسانه وواسع كرمه، حيث جميع ما فى الوجود تحت قبضته وإمرته ومالكيته، وهو المَنَّان

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦

الذى لا ينقصه شيء في السموات والأرض، والذى وعد المتقين بالخير العظيم وأعد لهم عظيم العطايا والإحسان. والنقطة الجديرة بالذكر في هاتين الآيتين والتي تتحدث فيها عن الهبات وجزاء أصحاب اليمين، حيث في البداية تتحدث عن العطايا المادية التي تشمل البساتين الوارفة والحدائق الغناء والأنهار الجارية، ثم تتحدث بعد ذلك عن الجزاء المعنوي العظيم، والذى يتجسد بحضورهم من المليك المقدر، وذلك تهيئة للإنسان من مرحلة إلى أخرى، يغمرها الشوق والحبور والرغبة في العمل الصالح.

«نهاية تفسير سورة القمر»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٧

٥٥. سورة الرحمن

محتوى السورة: توضّح هذه السورة بصورة عامة النعم الإلهية المختلفة، سواء كانت مادية أو معنوية، والتي تفضّل بها البارئ عزّ وجل على عباده وغمهم بها، ويمكن تسميتها لهذا السبب ب (سورة الرحمة) أو (سورة النعمة) ولهذا فإنّها بدأت بالإسم المبارك (الرحمن) الذى يشير إلى صنوف الرحمة الإلهية الواسعة، وتنتهى هذه السورة آياتها بإجلال وإكرام البارئ سبحانه، وإقرار عباده بالنعم التي تفضّل بها عليهم (إحدى وثلاثين مرّة) وذلك من خلال تكرار آية: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ». ويمكن أن نقسم محتويات السورة إلى عدّة أقسام:

- ١- فى الآيات الاولى من هذه السورة حديث عن النعم الإلهية الكبيرة، سواء تلك التي تتعلق بخلق الإنسان أو تربيته وتعليمه، أو الحساب والميزان، وكذلك سائر الامور الاخرى التي يتجسد فيها الخير للإنسان، إضافة إلى الغذاء الروحي والجسمي له.
- ٢- يتناول توضيح مسألة خلق الإنس والجن.
- ٣- يتضمن توضيح الآيات والدلائل الإلهية فى الأرض والسماء.
- ٤- وفيه بعد تجاوز النعم الإلهية على الإنسان فى الدنيا تتحدث الآيات عن نعم الله فى عالم الآخرة بدقّة وظرافة، خاصة عن الجنة، وبصورة أعمّ وأشمل عن البساتين والعيون والفاكهة وحوار العين وأنواع الملابس من السندس والإستبرق ...

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٨

٥- تتحدث عن مصير المجرمين وجزائهم المؤلم المحسوب.

إنّ تكرار آية: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» وفى مقاطع قصيرة أعطت وزناً متميزاً للسورة، وخاصة إذا قرىء بالمعنى المعبر الذى يستوحى منها ... فإنّ حاله من الشوق والإنبهار تحصل لدى الإنسان المؤمن. ولذلك فلا نعجب عندما نقرأ فى حديث للرسول صلى الله عليه وآله حيث يقول: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن جلّ ذكره» (١).

فضيلة تلاوة السورة: إنّ اتّصاف هذه السورة بما يثير الإحساس بالشكر على أفضل صورة أدّى إلى ورود روايات كثيرة فى فضل تلاوة هذه السورة تلك التلاوة التي ينبغي أن تنفذ إلى أعماق النفس الإنسانية وتحركها باتجاه الطاعات وبعيداً عن لقلقة اللسان. وفى تفسير مجمع البيان: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة الرحمن، رحم الله ضعفه، وأدّى شكر ما أنعم الله عليه».

وفى ثواب الأعمال عن أبى عبد الله الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الرحمن فقال عند كل: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ»: لا شيء من آلائك ربّي اكذب، فإن قرأها ليلاً ثم مات، مات شهيداً، وإن قرأها نهاراً ثم مات، مات شهيداً».

الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) بداية النعم الإلهية: لما كانت هذه السورة تبين أنواع النعم والهبات الإلهية العظيمة، فإنّها تبدأ باسم (الرحمن) والذى يرمز إلى الرحمة الواسعة، ولو لم تكن (الرحمانية) من صفاته لم ينعم بهذا الخير العميم على عباده الصالحين والعاصيين، لذلك يقول: «الرَّحْمَنُ». «عَلَّمَ الْقُرْآنَ»

وبهذا فإن أول نعمة تفضل بها الله سبحانه، هي نعمة «تعليم القرآن».

والظريف هنا أن بيان نعمة (تعليم القرآن) ذكرت قبل «خَلَقَ الْإِنْسَانَ» و«عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» في الوقت الذي يفترض فيه أن تكون الإشارة أولاً إلى مسألة خلق الإنسان، ومن ثم نعمة تعليم البيان، ثم نعمة تعليم القرآن، وذلك استناداً للترتيب الطبيعي، إلا أن عظمة القرآن الكريم أوجبت أن نعمل خلافاً للترتيب المفترض.

(١) تفسير مجمع البيان ٣٢٦/٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩

وقد جاءت هذه الآية جواباً لقولهم: وما الرحمن في قوله: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ». [الفرقان قالوا وما الرحمن؟ وقد روى أنه لما نزل قوله «قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ» قالوا: ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة. ف قيل لهم «الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ» أي: علم محمداً صلى الله عليه وآله القرآن، وعلمه محمداً صلى الله عليه وآله امته (١).

وعلى كل حال فإن لإسم «الرحمن» أوسع المفاهيم بين أسماء الباري عز وجل بعد إسم الجلالة (الله) لأننا نعلم أن لله رحمتين: (الرحمة العامة) و (الرحمة الخاصة) واسم «الرحمن» يشير إلى رحمة الله العامة التي تشمل الجميع، كما أن اسم «الرحيم» يشير إلى «الرحمة الخاصة» بأهل الإيمان والطاعة، ولعله لهذا السبب لا يطلق اسم الرحمن على غير الله سبحانه (إلا إذا كانت كلمة عبد قبله)، أما وصف «الرحيم» فيقال لغير الله أيضاً، وذلك لأنه لا أحد لديه الرحمة العامة سوى الله تعالى، أما الرحمة الخاصة فإنها موجودة في المخلوقات وإن كانت بصورة محدودة.

وهنا يطرح التساؤل التالي: من الذي علمه الله سبحانه القرآن الكريم.

إن هذه السورة تبين الرحمة الإلهية للإنس والجن ولذا أكد سبحانه إقرارهم بنعمه إحدى وثلاثين مرة، وذلك بقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ». والأنسب هو أن الله علم القرآن للإنس والجن بواسطة نبيه الكريم محمداً صلى الله عليه وآله. وبعد ذكره سبحانه لنعمة القرآن التي لا مثيل لها ينتقل إلى أهم نعمة في الترتيب المذكور ويقول: «خَلَقَ الْإِنْسَانَ». من الطبيعي أن المقصود هنا هو نوع الإنسان وليس آدم عليه السلام فقط.

وإطلاق كلمة (البيان) التي تأتي بعد خلق الإنسان دليل على عمومية كلمة الإنسان.

إن ذكر إسم «الإنسان» بعد «القرآن» هو الآخر يستوجب التأمل، ذلك لأن القرآن الكريم يمثل مجموعة أسرار الكون بصورة مدونة «الكتاب التدويني»، والإنسان هو خلاصة هذه الأسرار بصورة تكوينية «الكتاب التكويني»، كما أن كل واحدة منها هو صورة من هذا العالم الكبير.

وتشير الآية اللاحقة إلى أهم النعم بعد نعمة خلق الإنسان حيث يقول الباري عز وجل: «عَلَّمَهُ الْبَيَانَ».

(١) تفسير مجمع البيان ٣٢٩/٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٠

مختصر الامثل ج ٥ ٩٩

كلمة (البيان) لها معنى لغوي واسع، حيث تقال لكل شيء يوضح ويبين شيئاً معيناً.

وبناءً على هذا فإنها لا تشمل النطق والكلام فحسب، بل تجمع الكتابة والخط وأنواع الاستدلالات العقلية والمنطقية التي تبين المسائل المختلفة والمعقدة أيضاً رغم أن معالم هذه المجموعة هي التكلم والنطق.

وإذا أخذنا دور البيان في تكامل وتقدم الحياة الإنسانية، فمن الواضح أن الإنسان لم يكن بمقدوره وإمكانه أن ينقل تجاربه وعلومه

من جيل إلى آخر بهذه السهولة وبالتالي أدى إلى التقدم والعلم والدين والأخلاق ... وإذا ما سلبت هذه النعمة العظيمة من الإنسان ليوم واحد فإن المجتمع الإنساني سوف يأخذ طريقه نحو التفهقر بسرعة، ولو أخذنا «البيان» بمعناه الواسع الذي يشمل الخط والكتابة والفنون المختلفة، فإنه سيوضح لدينا بصورة أكثر دوره الهام في الحياة الإنسانية.

ويتطرق بعد ذلك إلى النعمة الإلهية الرابعة والتي هي هبة من هبات الله العظيمة أيضاً، حيث يقول تعالى: «الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ». إن أصل وجود الشمس من أكبر النعم الإلهية للإنسان، لأن العيش في المنظومة الشمسية بدون نور وحرارة الشمس أمر غير ممكن. إن نمو ونضج النبات والمواد الغذائية أجمع، بالإضافة إلى سقوط الأمطار وهبوب الرياح، كلها ببركة هذه الهبة الإلهية. كما أن للقمر دوراً هامياً في حياة الإنسان، فبالإضافة إلى أنه يضيء الليالي المعتمة، فإن جاذبيته هي علة المد والجزر في البحار والمحيطات، وهي عامل لبقاء الحياة في البحار، كما أنها تقوم بدورها في إرواء كثير من المناطق القريبة للسواحل والتي تصب الأنهار بالقرب منها.

وبالإضافة إلى ذلك فإن ثبات الانتظام لهاتين الحركتين (حركة القمر حول الأرض، وحركة الأرض حول الشمس) هو السبب في الظهور المنتظم لليل والنهار والسنين والشهور والفصول المختلفة، وبالتالي فإنه سبب أساسى لانتظام الحياة الإنسانية وبرمجة الامور التجارية والصناعية والزراعية، وإن فقد الانتظام فيها فسوف تضطرب الحياة البشرية وتختل الكثير من مرتكزاتها. وليس لحركة هذين الكوكبين نظام دقيق جداً فحسب، بل إن مقدار كثافة وجاذبية

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١

ومسافة كل منهما عن الأرض هي الاخرى محسوبة بدقته وحساب (وحسبان).

ومن المؤكد أن اختلال كل واحدة من هذه الامور سيؤد اختلالات عظيمة في المنظومة الشمسية، ومن ثم في النظام الحياتى للبشر. والجدير بالذكر أن الشمس بالرغم من أنها في وسط المنظومة الشمسية وتبدو ساكنة وثابتة، إلا أنها مع جميع كواكبها وأقمارها تسير في وسط المجرة المتعلقة بها إلى نقطة معينة (تسمى هذه النقطة بنجمه فيكا) وهذه الحركة لها أيضاً نظام وسرعة معينة. ثم يتحول بنا الله إلى نعمة عظيمة اخرى هي الخامسة في مسلسل ما ذكره سبحانه من النعم في هذه السورة المباركة، حيث يوجه النظر إلى الطافه في الأرض حيث يقول:

«وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ».

«النجم»: يأتي أحياناً بمعنى كوكب، ويأتى اخرى بمعنى النبات الذى لا- ساق له، ولَمَّا جاءت الكلمة هنا بقرينة «الشجر» فيكون المقصود هو المعنى الثانى، أى النباتات بدون سيقان.

ومن الواضح أن النبات مصدر جميع المواد الغذائية للإنسان، حيث يستهلك قسماً مباشراً منه، والقسم الآخر تستهلكه الحيوانات الاخرى التى هى جزء أساسى من غذاء الإنسان، ومن هنا فإن النبات هو مصدر غذاء الإنسان بصورة مباشرة أو غير مباشرة. وهذا المعنى يصدق أيضاً فى عالم الحيوانات البحرية، لأنها تتغذى على نباتات صغيرة جداً تنبت فى البحر وتوجد بكثرة هائلة تقدر بملايين البلايات، وهى المصدر الغذائى لهذه الحيوانات البحرية، وتنمو هذه النباتات الصغيرة فى البحر بتأثير الضوء (أشعة الشمس) التى تتحرك بين الأمواج.

وبهذا فإن «النجم» أنواع من النباتات الصغيرة الزاحفة (مثل اليقطين والخيار وأمثاله).

أما «الشجر» فإنه النوع الآخر من النباتات التى لها سيقان وتشمل أشجار الفاكهة ونباتات الغلات وغير ذلك.

وتعبير «يسجدان» إشارة إلى التسليم والخضوع أمام القدرة الإلهية وقوانين الخلق والإبداع الإلهى لأجل نفع الإنسان. وهنا إشارة إلى الأسرار التوحيدية أيضاً حيث توجد فى كل ورقة وكل بذرة آيات عجيبة من عظمة وقدره الله سبحانه.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٢

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَنْ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَالِكِهْتُمْ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) السماء رفعها ووضع الميزان: في الآية مورد البحث يتحدث سبحانه عن النعمة السادسة، ألا وهي نعمة خلق السماء حيث يقول: «وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا».

(السماء) في هذه الآية سواء كانت بمعنى جهة العلو، أو الكواكب السماوية، أو جو الأرض ... إن كل واحدة من هذه المعاني هبة عظيمة ونعمة لا مثيل لها، وبدونها تستحيل الحياة أو تصبح ناقصة.

إنّ النور الذي يمنحنا الدفء والحرارة والهداية والحياة والحركة يأتيان من السماء وكذلك الأمطار، والوحي أيضاً، (وبذلك فإنّ للسماء مفهوماً عاماً، مادياً ومعنوياً).

ثم يستعرض سبحانه النعمة السابعة حيث يقول تعالى: «وَوَضَعَ الْمِيزَانَ».

«الميزان»: كل وسيلة تستعمل للقياس، سواء كان قياس الحق من الباطل، أو العدل من الظلم والجور، أو قياس القيم وقياس حقوق الإنسان في المراحل الاجتماعية المختلفة.

و (الميزان) يشمل كذلك كل نظام تكويني ودستور اجتماعي، لأنه وسيلة لقياس جميع الأشياء.

ونستنتج من الآية اللاحقة استنتاجاً رائعاً حول هذا الموضوع حيث يضيف بقوله تعالى:

«أَلَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ».

يا له من تعبير رائع حيث يعتبر القوانين الحاكمة في هذا العالم الكبير منسجمة مع القوانين الحاكمة على حياة الإنسان (العالم الصغير) وبالتالي نقلنا إلى حقيقة التوحيد، حيث مصدر جميع القوانين والموازن الحاكمة على العالم هي واحدة في جميع المفردات وفي كل مكان.

ويؤكد مرة أخرى على مسألة العدالة والوزن حيث يقول سبحانه: «وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٣

هذه الآية تؤكد على مسألة الوزن بمعناها الخاص، ويأمر البشر أن يدققوا في قياس ووزن الأشياء في التعامل، وهذه أضيق الدوائر. إنّ أهمية الميزان في أي معنى كان عظيمة في حياة الإنسان بحيث إنّنا إذا حذفنا حتى مصداق الميزان المحدود والصغير والذي يعنى (المقياس) فإنّ الفوضى والإرتباك سوف تسود المجتمع البشرى.

ويستفاد من بعض الروايات أنّ (الميزان) قد فسّر بوجود (الإمام)، وذلك لكون الوجود المبارك للإمام المعصوم هو وسيلة لقياس الحق من الباطل، ومعياري لتشخيص الحقائق وعامل مؤثر في الهداية. وهكذا في تفسير «الميزان» بالقرآن الكريم ناظر إلى هذا المعنى. ثم ينتقل سبحانه من السماء إلى الأرض فيقول عز وجل: «وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ».

إنّ القرائن الموجودة في السورة وطبيعة النداءات الموجهة للإنس والجن تدلّ على أنّها المقصود هنا (الجن والإنس).

وفي الآية اللاحقة يستعرض ذكر نعمتين التاسعة والعاشر من النعم الإلهية، والتي تتضمن قسمًا من المواد الغذائية التي وهبها الله سبحانه للإنسان حيث يقول تعالى: «فِيهَا فَالِكِهْتُمْ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ».

«الفاكهة»: تشمل كل نوع من الفاكهة.

و «أكمام»: جمع (كم) تطلق على الغلاف الذي يغطى الفاكهة.

إنّ إختيار هذا الوصف لفاكهة شجرة النخل - والتي تكون في البدايةً مختفية في غلاف ثم ينشق الغلاف عن ثمر منظود وبشكل جميل وجذاب - يمكن أن يكون لهذا الجمال الأخاذ، أو للمنافع الجمة الكامنة في هذا الغلاف، والتي تتميز بالمنافع الطيبة والغذائية.

ثم يتحدث سبحانه عن النعمة الحادية عشرة والثانية عشرة حيث يقول سبحانه:

«وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ».

الحبوب مصدر أساسى لغذاء الإنسان، وأوراقها الطازجة واليابسة هى غذاء للحيوانات التى هى لخدمة الإنسان، حيث يستفيد من حليها ولحومها وجلودها وأصوافها، وبهذا الترتيب فلا يوجد شىء فيها غير ذى فائدة.

ومن جهة اخرى، فإنَّ الله تعالى خلق الأزاهير المعطرة والورود التى تعطر مشام الجسم والروح وتبعث الاطمئنان والنشاط، ولذا فإنَّ الله سبحانه قد أتمَّ نعمه على الإنسان.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٤

وبعد ذكر هذه النعم العظيمة (المادية والمعنوية) نقلنا فى آخر آية من البحث مخاطباً الجن والإنس بقوله تعالى: «فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ». هذه النعم التى يدل كل هذا على لطف وحنان الخالق ... فكيف يمكن التكذيب بها إذا؟

إنَّ هذا الاستفهام استفهام تقريرى جىء به فى مقام أخذ الإقرار، وقد قرأنا فى بداية السورة رواية تؤكّد على ضرورة تعقينا بهذه العبارة (لا شىء من آلائك ربى اكذب) بعد كل مرّة نلوا فيها الآية الكريمة: «فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ».

إنَّ التعبير (أى) إشارة إلى أن كل واحدة من هذه النعم دليل على مقام ربوبية الله ولطفه وإحسانه، فكيف بها إذا كانت هذه النعم مجتمعاً.

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (١٨) الصلصال وخلق الإنسان: إنَّ الله تعالى بعد ذكره للنعم السابقة والتى من جملتها «خَلَقَ الْإِنْسَانَ»، يتعرّض فى الآيات مورد البحث إلى شرح خاص حول خلق الإنس والجن كدليل على قدرته العظيمة من جهة، وموضع درس وعبرة للجميع من جهة اخرى، فيقول سبحانه: «خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ».

«صلصال»: فى الأصل معناه (ذهاب ورجوع أو تردد الصوت فى الأجسام الصلبة)، ثم اطلقت الكلمة على الطين اليابس الذى يخرج صوتاً.

«فخار»: من مادة «فخر» بمعنى الشخص الذى يفخر كثيراً، ولكون الأشخاص الذين يعيشون الفراغ فى شخصياتهم ومعنوياتهم يكثرون الثرثرة والإدعاء عن أنفسهم، فإنَّ هذه الكلمة تستعمل لكل إناء من الطين أو «الكوز»، وذلك بسبب الأصوات الكثيرة التى يولدها.

ومن هنا يستفاد بوضوح من الآيات القرآنية المختلفة حول مبدأ خلق الإنسان، أنه كان من التراب ابتداءً. قال تعالى: «فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ» (١). ثم خرج مع الماء وأصبح طيناً:

(١) سورة الحج / ٥.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥

«هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ» (١). ثم أصبح بصورة طين خبيث الرائحة: «إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ» (٢). ثم أصبح مادة فى حالة لاصقة: «إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ» (٣). ومن ثم يتحول إلى حالة يابسة ويكون من «صِلْصِلٍ كَالْفَخَّارِ» كما ذكر فى الآية مورد البحث.

هذه المراحل كم تستغرق من الوقت، وكم هى المدة التى يتوقف فيها الإنسان فى كل مرحلة من هذه المراحل، وفى أى ظروف تحدث هذه التطورات؟

هذه المسائل خفيت عن علمنا وإدراكنا، والله وحده هو العالم بها فقط.

ثم يتطرق سبحانه لخلق الجن حيث يقول: «وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ».

«مارج»: فى الأصل من «مرج» على وزن (مرض) بمعنى الإختلاط والمزج، والمقصود هنا اختلاط شعل النيران المختلفة.

ولكن كيف خلق الجن من هذه النيران المتعددة الألوان؟ هذا ما لم يعرف بصورة دقيقة، كما أنَّ الخصوصيات الاخرى عن هذا

المخلوق، قد بينت لنا عن طريق الوحي الرباني وكتاب الله الكريم، ولكن محدوديّة معلوماتنا لا تعني السماح لنا أبداً بإنكار هذه الحقائق أو تجاوزها، خاصة بعد ما ثبتت عن طريق الوحي الإلهي. (وسيكون لنا إن شاء الله شرح مفصّل حول خلق الجن وخصوصيات هذا المخلوق في تفسير سورة الجن).

وبعد أن تحدّث عن النعم التي كانت في بداية خلق الإنسان يكرّر تعالى قوله تعالى:

«فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

في الآية اللاحقة يستعرض نعمة أخرى، حيث يقول سبحانه: «رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ».

بما أنّ الشمس في كل يوم تشرق من نقطة وتغرب من أخرى، وبعدها أيام السنة لها

(١) سورة الأنعام / ٢.

(٢) سورة الحجر / ٢٨.

(٣) سورة الصافات / ١١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦

شروق وغروب، ولكن نظراً للحدّ الأكثر من الميل الشمالي للشمس والميل الجنوبي لها، ففي الحقيقة أنّ للشمس مشرقين ومغربين والبقية بينهما.

إنّ هذا النظام الذي هو سبب وجود الفصول الأربعة له فوائد وبركات كثيرة، ويؤكد ويكمل ما مرّ بنا في الآيات السابقة، وذلك لأنّ الحديث كان عن حساب سير الشمس والقمر، وكذلك عن وجود الميزان في خلق السماوات، وإجمالاً فإنّه يبيّن النظام الدقيق للخلق وحركة الأرض والقمر والشمس، وكذلك فإنّه يشير إلى النعم والبركات التي هي موضع استفادة الإنسان. فإنّ الله تعالى يؤكد هذه النعمة بعد نعمة خلق الإنس والجن بقوله: «فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) البحار وذخايرها الثمينة: استمراراً لشرح النعم الإلهية يأتي الحديث هنا عن البحار، ولكن ليس عن خصوصيات البحار بصورة عامّة، بل عن كيفية خاصّة ومقاطع معينة منها تمثّل ظواهر عجيبة وآية على القدرة اللامتناهية للحقّ، بالإضافة إلى ما فيها من النعم التي هي موضع استفادة البشرية. يقول تعالى:

«مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ». ولكن بين هذين البحرين المتلاقين فاصل يمنع من طغيان وغلبه أحدهما على الآخر: «بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ».

المقصود من البحرين هما الماء العذب والماء المالح، وذلك بالاستدلال بقوله تعالى:

«وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا» (١).

إنّ الأنهار العظيمة ذات المياه العذبة عندما تصبّ في البحار والمحيطات فإنّها تشكّل بحراً من الماء الحلو إلى جنب الساحل وتطرّد الماء المالح إلى الخلف، والعجيب أنّ هذين المائين لا يمتزجان مع بعضهما لمدة طويلة بسبب اختلاف درجة الكثافة؛ وتثير آلاف الكيلومترات على هذه الصورة.

ومرّة أخرى يخاطب الله تعالى عباده في معرض حديثه عن هذه النعم حيث يسألهم

(١) سورة الفرقان / ٥٣.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٧

سبحانه: «فَبِأَيِّ آءِالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

واستمراراً لهذا الحديث يقول عز وجل: «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْؤُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

«اللوؤ»: فهو حَبِيَّةٌ شفافةٌ ثمينةٌ تنمو في داخل الصدف في أعماق البحار، وكلما كبر حجمها زاد ثمنها؛ و «المرجان»: فهو كائن حي يشبه الغصن الصغير للشجرة، وينشأ في أعماق البحار، وكان العلماء يتصورون لفترة زمنية أن هذه الشجرة نوع من أنواع النباتات، إلا أنه اتضح فيما بعد أنه نوع من الحيوانات. وأفضل أنواع المرجان الذي يستعمل للزينة هو المرجان ذو اللون الأحمر، وكلما كان إحمراره أشد كانت قيمته أعلى وأثمن.

واستمراراً لهذا القسم من النعم الإلهية يشير سبحانه إلى موضوع (السنن) التي هي في الحقيقة أكبر وأهم وسيلة لنقل البشر وحمل الأمتعة في الماضي والحاضر، حيث يقول سبحانه: «وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ».

والظريف هنا أنه في الوقت الذي يعبر عن السفن بأنها «منشآت» والتي تحكى أنها مصنوعة بواسطة الإنسان، يقول سبحانه (وله) أي لله تعالى وهو إشارة إلى أن جميع الخواص التي يستفاد منها في صناعة السفن، والتي منحها الله للبشر المخترعين لهذه الصناعة هي لله، وكذلك فإنه هو الذي أعطى خاصية السيولة لمياه البحر والقوة للرياح، وأن الله تعالى هو الذي أوجد هذه الخواص في المواد المتعلقة بالسفينة.

«أعلام»: جمع (علم) على وزن (قلم)، بمعنى (جبل) بالرغم من أنها في الأصل بمعنى (علامة وأثر) والذي يخبر عن شيء معين، ولأن الجبال تكون واضحة من بعد فإنه يعبر عنها ب (العلم) كما أن لفظه (علم) تطلق أيضاً على «الرأية».

ومرة أخرى يكرر سبحانه هذا السؤال العميق المغزى بقوله تعالى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) كل شيء هالك إلا وجهه: استمراراً لشرح النعم الإلهية، في هذه الآيات يضيف سبحانه قوله: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ». وهنا يتساءل كيف يكون الفناء نعمه إلهية؟

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٨

وللجواب على هذا السؤال نذكر ما يلي: يمكن ألا يكون المقصود بالفناء هنا هو الفناء المطلق، وإنما هو الباب الذي يطل منه على عالم الآخرة، والجسر الذي لا بد منه للوصول إلى دار الخلد؛ أو أن النعم الإلهية الكثيرة - المذكور سابقاً - يمكن أن تكون سبباً لغفلة البعض وإسرافهم فيها بأنواع الطعام والشراب والزينة والملابس والمراكب وغير ذلك، مما يستلزم تحذيراً إلهياً للإنسان، بأن هذه الدنيا ليست المستقر، فالحذر من التعلق بها، ولا بد من الاستفادة من هذه النعم في طاعة الله ... إن هذا التنبيه والتذكير بالرحيل عن هذه الدنيا هو نعمه عظيمة. ويضيف في الآية اللاحقة قوله سبحانه: «وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

«وجه» معناه اللغوي معروف وهو القسم الأمامي للشئ بحيث يواجهه الإنسان في الطرف المقابل، وإستعمالها بخصوص لفظ الجلالة يقصد به (الذات المقدسة).

أمّا «ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» والذي هو وصف ل (الوجه) فإنه يشير إلى صفات الجمال والجلال لله سبحانه، لأن «ذُو الْجَلَالِ» تبتنا عن الصفات التي يكون الله أسمى وأجل منها (الصفات السلبية). وكلمة «الإكرام» تشير إلى الصفات التي تظهر حسن وقيمة الشئ، وهي الصفات الثبوتية لله سبحانه كعلمه وقدرته.

وبناءً على هذا فإن معنى الآية بصورة عامة يصبح كالآتي: إن الباقي في هذا العالم هو الذات المقدسة لله سبحانه، والتي تتصف بالصفات الثبوتية والمنزهة عن الصفات السلبية.

ثم يخاطب الخلاق مرة أخرى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ومضمون الآية اللاحقة هي نتيجة للآيات السابقة، حيث يقول سبحانه: «يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

ولماذا لا يكون كذلك في الوقت الذي يفنى الجميع ويبقى وحده سبحانه.

التعبير ب (يسأله) جاء بصيغة المضارع، وهو دليل على أن السؤال والطلب في الكائنات مستمر من الذات الإلهية المقدسة، وهذا شأن الموجود الممكن الذي هو مرتبط بواجب الوجود ليس في الحدوث فقط، وإنما في البقاء أيضاً.
ثم يضيف سبحانه: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ».

إن خلقه مستمر، وإجاباته لحاجات السائلين والمحتاجين لا تنقطع، كما أن ابداعاته مستمرة فيجعل الأرقام يوماً في قوة وقدره، وفي يوم آخر يهلكهم، ويوماً يعطي السلامة

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٩

والشباب، وفي يوم آخر الضعف والوهن، ويوماً يذهب الحزن والهم من القلوب وآخر يكون باعثاً له، وخلصه الأمر أنه في كل يوم - وطبقاً لحكمته ونظامه الأكمل - يخلق ظاهرة جديدة وخلقاً وأحداثاً جديدة.

ومرة أخرى - بعد هذه النعم المستمرة والإجابة لاحتياجات جميع خلقه من أهل السماوات والأرض يكرر قوله سبحانه: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتِغْتَمْتُمْ أَنْ تَتَنَفَّدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) النعم الإلهية التي استعرضتها الآيات السابقة كانت مرتبطة بهذا العالم، إلا أن الآيات مورد البحث تتحدث عن أوضاع يوم القيامة، وخصوصيات المعاد، وفي الوقت الذي تحمل تهديداً للمجرمين، فإنها وسيلة لتربيته وتوعيته وإيقاظ المؤمنين، بالإضافة إلى أنها مشجعة لهم للسير في طريق مرضاته سبحانه، ومن هنا فإننا نعتبرها نعمة، لذلك بعد ذكر كل واحدة من هذه النعم يتكرر نفس السؤال الذي كان يعقب ذكر كل نعمة من النعم السابقة.

يقول سبحانه في البداية: «سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ».

«الثقلان»: من مادة «ثقل» على وزن (كبر) بمعنى الحمل الثقيل وجاءت بمعنى الوزن أيضاً، إلا أن «ثقل» على وزن (خبر) تقال عادة لمتاع وحمل المسافرين، وتطلق على جماعة الإنس والجن وذلك لثقلهم المعنوي، لأن الله تبارك وتعالى قد أعطاهم عقلاً وشعوراً وعلماً ووعياً له وزن وقيمة بالرغم من أن الثقل الجسدي لهم ملحوظ أيضاً.
وبعد هذا يكرر الله سبحانه سؤاله مرة أخرى: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

وتعقيباً على الآية السابقة التي كانت تستعرض الحساب الإلهي الدقيق، يخاطب الجن والإنس مرة أخرى بقوله: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتِغْتَمْتُمْ أَنْ تَتَنَفَّدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» للفرار من العقاب الإلهي؛ «فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ». أي بقوة إلهية، في حين أنكم فاقدون لمثل هذه القوة والقدرة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦٠

«معشر»: في الأصل من «عشر» مأخوذ من عدد «عشرة»، ولأن العدد عشرة عدد كامل، فإن مصطلح (معشر) يقال: للمجموعة المتكاملة والتي تتكوّن من أصناف وطوائف مختلفة. «أقطار»: جمع «قَطْر» بمعنى أطراف الشيء.

«تنفذوا»: من مادة «نفوذ»، وهي في الأصل بمعنى خرق وعبور من شيء.

والتعبير (من أقطار) إشارة إلى شقّ السماوات وتجاوزها إلى خارجها.

إن الآية أعلاه تتحدث عن الهروب والفرار من يد العدالة الإلهية الذي يفكر به العاصون في ذلك اليوم.

في مجمع البيان: روى مسعدة بن صدقة عن كليب قال: كنا عند أبي عبد الله عليه السلام، فأنشأ يحدثنا فقال: «إذا كان يوم القيامة جمع الله العباد في صعيد واحد، وذلك أنه يوحى إلى السماء الدنيا أن اهبطي بمن فيك، فيهبط أهل السماء الدنيا بمثلي من في الأرض من الجن والإنس والملائكة. ثم يهبط أهل السماء الثانية بمثل الجميع مرتين، فلا يزالون كذلك حتى يهبط أهل سبع سماوات فيصير

الجن والإنس في سبع سرادقات من الملائكة ثم ينادى مناد: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْمِي تَطَعْتُمْ» الآية. فينظرون فإذا قد أحاط بهم سبع أطواق من الملائكة».

ويخاطب سبحانه هاتين المجموعتين (الجن والإنس) بقوله: «فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

والتهديد هنا لطف إلهي أيضاً، فالبرغم من أنه يحمل تهديداً ظاهرياً، إلّا أنه عامل للتنبية والإصلاح والتربية، حيث إن وجود المحاسبة في كل نظام هو نعمة كبيرة.

وما ورد في الآية اللاحقة تأكيد لما تقدم ذكره في الآيات السابقة، والذي يتعلق بعدم قدرة الجن والإنس من الفرار من يد العدالة الإلهية، حيث يقول سبحانه: «يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاطِئُ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ».

«شواطئ»: بمعنى (الشعلة العديمة الدخان). إن هذا التعبير يشير إلى شدة حرارة النار.

و «نحاس»: بمعنى الدخان أو (الشعل ذات اللون الأحمر مصحوبة بالدخان)، لأنها تتحدث عن موجود يحيط بالإنسان في يوم القيامة ويمنعه من الفرار من حكومة العدل الإلهي.

ثم يضيف سبحانه قوله: «فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦١

والكلام هنا عن النعم والآلاء من أجل ما ذكرنا من اللطف في الآية السابقة.

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) تكمله للآيات السابقة يتحدث القرآن الكريم عن بعض مشاهد يوم القيامة، والآيات أعلاه تذكر خصوصيات من مشاهد ذلك اليوم الموعود، وعن كيفية الحساب والجزاء والعقاب. يقول سبحانه في بداية الحديث: «فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ».

ويستفاد من مجموع آيات «القيامة» بصورة واضحة أنّ النظام الحالي للعالم سوف يتغير ويضطرب وتقع حوادث مرعبة جداً في كل الوجود، فتتغير الكواكب والسيارات والأرض والسماء، وتحصل تغييرات يصعب تصورها، ومن جملتها ما ذكر في الآية أعلاه، وهي إنشفاق وتناثر الكرات السماوية، حيث يصبح لونها أحمر بصورة مذابه كالدهن.

ولأنّ الإخبار بوقوع هذه الحوادث المرعبة في يوم القيامة - أو قبلها - تنبيه وإنذار للمؤمنين والمجرمين على السواء، ولطف من أ لطف الله سبحانه، يتكرر هذا السؤال: «فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

وفي الآية اللاحقة ينتقل الحديث من الحوادث الكونية ليوم القيامة إلى حالة الإنسان المذنب في ذلك اليوم، حيث يقول سبحانه: «فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ».

وكل شيء واضح، وكل شيء يُقرأ في وجه الإنسان.

إنّ يوم القيامة يوم طويل جداً، وعلى الإنسان أن يجتاز محطات ومواقف متعددة فيه، حيث لا بد من التوقف في كل محطة مدة زمنية. إنّ في بعض هذه المواقف لا يسأل الإنسان إطلاقاً، كما أنّ بعض المواقف الأخرى لا يسمح له بالكلام، حيث تشهد عليه أعضاء بدنه.

قال تعالى: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦٢

وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (١). كما أنّ في بعض المحطات يسأل الإنسان وبدقه متناهية عن كافة أعماله.

ومرة أخرى يخاطب سبحانه عباده، حيث يقول: «فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

نعم، إنّه لا يسأل حيث «يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ».

ثم يضيف سبحانه: «فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ».

«النواصي»: جمع ناصية وفي الأصل بمعنى الشعر وما يكون بمقدمة الرأس، من مادة (نصأ) وتعنى الإتصال والإرتباط، «وأخذ بناصيته» بمعنى أخذه من شعره الذى فى مقدمه رأسه، كما تأتى أحياناً كناية عن الغلبة الكاملة على الشىء. والمعنى الحقيقى للآية المباركة هو أن الملائكة تأخذ المجرمين فى يوم القيامة من نواصيهم وأرجلهم، ويرفعونهم من الأرض بمنتهى الذلّة ويلقونهم فى جهنم، أو أنه كناية عن منتهى ضعف المجرمين وعجزهم أمام ملائكة الرحمن، حيث يقذفونهم فى نار جهنم بذلّة تامّة.

ومرّة اخرى يضيف سبحانه: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ». لأنّ التذكير بيوم القيامة هو لطف منه تعالى.

ثم يقول سبحانه: «هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ».

ويضيف سبحانه فى وصف جهنم وعذابها المؤلم الشديد حيث يقول: «يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آناً».

«آن» و «آنى» هنا بمعنى الماء المغلى وفى منتهى الحرارة والإحراق.

فإنّ المجرمين يحترقون وسط هذا اللهب الحارق لنار جهنم، ويظمأون ويستغيثون للحصول على ماء يروى ظمأهم، حيث يعطى لهم ماء مغلى (أو يصبّ عليهم) مما يزيد ويضاعف عذابهم المؤلم.

ويستفاد من بعض الآيات القرآنية أنّ (عين حميم) الحارقة تكون بجانب جهنم، ويلقى فيها من يستحق عذابها ثم فى النار يسجرون. قال تعالى: «يُسْجَرُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي

(١) سورة يس / ٦٥.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦٣

النَّارِ يُسْجَرُونَ» (١).

ومرّة اخرى بعد هذا التنبيه والتحذير الشديد الموقظ، الذى هو لطف من الله يقول البارئ عز وجل: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ». وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رُوحَانٍ (٥٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِنِينَ عَلَى فُرْشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) الْجَنَّتَانِ اللَّتَانِ أَعَدَّتَا لِلْخَائِفِينَ: يترك القرآن الكريم وصفه لأهل النار وحالاتهم البائسة لينقلنا إلى صفحة جديدة من صفحات يوم القيامة، ويحدثنا فيها عن الجنة وأهلها، وما أعدّ لهم من النعم فيها، والتي يصورها سبحانه بشكل مشوق ومثير ينفذ إلى أعماق القلوب فى عمليته مقارنة لما عليه العاصون من عذاب شديد يحيط بهم والتي تحدثت عنها الآيات السابقة، وما ينتظر المؤمنين من جنات وعيون وقصور وحوار فى الآيات أعلاه، يقول سبحانه: «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ».

وللخوف من الله أسباب مختلفة، فأحياناً يكون بسبب قبح الأعمال وانحراف الأفكار، واخرى بسبب القرب من الذات الإلهية حيث الشعور بالخوف والقلق من الغفلة والتقصير فى مجال طاعة الله، وأحياناً اخرى لمجرد تصورهم لعظمة الله اللامتناهية وذاته اللامحدودة فينتابهم الشعور بالخوف والضعف أمام قدسيته العظيمة ... وهذا النوع من الخوف يحصل من غاية المعرفة لله سبحانه، ويكون خاصاً بالعارفين والمخلصين لحضرته.

ومرّة اخرى، وبعد ذكر هذه النعم العظيمة يخاطب الجميع بقوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ثم يضيف سبحانه فى وصفه لهاتين الجنتين بقوله: «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ».

وبعد ذكر هذه النعم يكرّر سبحانه السؤال مرّة اخرى فيقول: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ولأنّ البساتين النضرة والأشجار الزاهية ينبغي أن تكون لها عيون، أضاف سبحانه في وصفه لهذه الجنة بقوله: «فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ». ثم يطرح مقابل هذه النعمة الإضافية قوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

(١) سورة غافر / ٧١ و ٧٢.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦٤

وفي الآية اللاحقة ينتقل البحث إلى فاكهه هاتين الجنّتين حيث يقول سبحانه: «فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ». ثم يضيف سبحانه قوله: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

لقد طرحت في الآيات السابقة ثلاث صفات لهاتين الجنّتين، وتستعرض الآية التالية الصفة الرابعة حيث يقول تعالى: «مُتَّكِنِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِشْتَبَاقٍ».

وهذا التعبير يدل على الهدوء الكامل والاستقرار التام لدى أهل الجنة.

إنّ أثنى قماش يتصور في هذه الدنيا يكون بطانة لتلك الفرش، إشارة إلى أنّ القسم الظاهر لا- يمكننا وصفه من حيث الجمال والجادبية.

وأخيراً، وفي خامس نعمة يشير سبحانه إلى كيفية هذه النعم العظيمة، حيث يقول:

«وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ». «جنى»: على وزن (بقى) وتعنى الفاكهه التي نضج قطفها؛ و «دان» في الأصل (داني) بمعنى قريب.

ومرّة اخرى يخاطب الجميع سبحانه بقوله تعالى: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَانَتْهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) الجنة والزوجات الحسان: في الآيات السابقة

ذكرت خمسة أقسام من هبات وخصوصيات الجنّتين، وهنا نتطرّق لذكر النعمة السادسة وهي الزوجات الطاهرات، حيث يقول سبحانه:

«فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ». قد قصرن طرفهنّ على أزواجهن، ولم يردن غيرهم. ثم يضيف تعالى: «لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ» (١).

في تفسير مجمع البيان: قال أبو ذرّ: إنّها تقول لزوجها: وعزّه ربّي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك فالحمد لله الذي جعلني زوجتك، وجعلك زوجي.

«طرف»: على وزن (حرف) بمعنى جانب العين، وبما أنّ الإنسان عندما يريد النظر يحرك

(١) «يطمئنّهنّ»: من مادة «طمث»، في الأصل بمعنى دم الدورة الشهرية، وجاءت بمعنى زوال البكارة؛ والمراد هنا أنّ النساء الباكرات في الجنة لم يكن لهنّ أزواج قطّ.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦٥

أجفانه، لذا فقد استعمل هذا اللفظ كناية عن النظر، وبناءً على هذا فإنّ التعبير بقاصرات الطرف إشارة إلى النساء اللواتي يقصرن طرفهنّ على أزواجهن، ويعنى أنّهنّ يكننّ الحبّ والودّ لأزواجهن فقط، وهذه هي إحدى ميزات الزوجة التي لا تفكر بغير زوجها ولا تضرر لسواه الودّ.

وفي التعقيب على نعمة الجنة هذه يكرّر قوله تعالى: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ثم يتطرق إلى المزيد من وصف الزوجات الموجودات في الجنة، حيث يقول: «كَانَتْهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ».

ومرّة اخرى، وبعد ذكر هذه النعمة يقول سبحانه: «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

وفي نهاية هذا البحث يقول عزّ وجلّ: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ».

وهل ينتظر أن يجازى من عمل عملاً صالحاً في الدنيا بغير الإحسان الإلهي؟

يقول الراغب في المفردات: الإحسان فوق العدل، وذاك أن العدل هو أن يعطى ما عليه ويأخذ ماله، والإحسان أن يعطى أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له فالإحسان زائد على العدل ..
ويتكرر قوله سبحانه مرّة أخرى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

وذلك لأنّ جزاء الإحسان بالإحسان نعمته كبيرة من قبل الله تعالى، حيث يؤكّد سبحانه أنّ جزاءه مقابل أعمال عباده مناسب لكرمه ولطفه وليس لأعمالهم، مضافاً إلى أنّ طاعاتهم وعباداتهم إنّما هي بتوفيق الله ولطفه، وبركاتها تعود عليهم.

وَمَنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَاتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) جنتان بأوصاف عجيبه: بعد بيان صفات جنتي الخائفين وخصوصياتهما المتميزة، واستمراراً للبحث ينتقل الحديث في الآيات التالية عن جنتين بمرتبة أدنى من السابقتين يكونان لأشخاص أقلّ خوفاً وإيماناً بالله تعالى من الفئة الاولى، حيث إنّ هدف العرض هو بيان سلسله درجات ومراتب للجنان تتناسب مع الإيمان والعمل الصالح للأفراد.

يقول سبحانه في البدايه: «وَمَنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦٦

في تفسير مجمع البيان: فقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما».

وفي نفس الموضوع ورد في حديث آخر: «جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين» (١). أي من فضة. ثم يضيف سبحانه: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ثم ذكر القرآن الخصوصيات الخمس لهاتين الجنتين التي تشبه - إلى حد ما - ما ذكر حول الجنتين السابقتين، كما أنّهما تختلفان في بعض الخصوصيات الاخرى حيث يقول سبحانه:
«مُدْهَامَاتَانِ».

«مدهامتان»: من مادة (أدهيمام) ومن أصل (دهمه) على وزن (تهمه) ومعناها في الأصل السواد وظلمة الليل، ثم اطلقت على الخضرة الغامقه المعتمه، ولأنّ مثل هذا اللون يحكى عن غايه النضرة للنباتات والأشجار، ممّا يعكس منتهى السرور والإنشراح، لهذا فقد استعمل لهذا المعنى.

ويضيف سبحانه مرّة أخرى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

وفي الآية اللاحقه يصف الجنة وصفاً إضافياً حيث يقول سبحانه: «فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ». «نضّاختان»: من مادة (نضخ) بمعنى فوران الماء.

ومرّة أخرى يسأل سبحانه عن الإنس والجن سؤالاً إستنكارياً فيقول: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

وتتحدث الآية التالية حول فاكهه هاتين الجنتين حيث تقول: «فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ».

ويكرّر سبحانه السؤال مرّة أخرى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِنَّسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِنِينَ عَلَى رُفُوفٍ خُضْرٍ وَعَبَقَرِيُّ حِيسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)

(١) الدرّ المنثور ١٤٦ / ٦. والتعبير بالذهب والفضة يمكن أن يكون إشارة إلى اختلاف درجة هاتين الجنتين.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦٧

زوجات الجنة ... مرة اخرى: استمرار لشرح نعم الجنتين التي ذكرت في الآيات السابقة، تتحدث هذه الآيات عن قسم آخر من هذه النعم التي تزخر بها جنان الله التي أعدها للصالحين من عباده، حيث يقول سبحانه في البداية: «فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ».

تستعمل كلمة (خير) غالباً للصفات الجيدة والجمال المعنوي، أما «حسن» فإنها تستعمل للجمال الظاهر. لذا فإن المقصود بـ «خَيْرَاتٌ حِسَانٌ» اولئك النسوة اللواتي جمعن بين حسن السيرة، وحسن الظاهر.

وجاء في الروايات في تفسير هذه الآية أنّ الصفات الحسنة للزوجات في الجنة كثيرة ومن جملتها طيب اللسان والنظافة والطهارة، وعدم الإيذاء، وعدم النظر للرجال الأجانب.

ومرة اخرى يكرر السؤال نفسه بقوله تعالى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ثم يضيف مستمراً في وصف الزوجات في الجنة: «حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ».

«حور»: جمع حوراء وأحور، وتطلق على الشخص الذي يكون سواد عينه قاتماً وبياضها ناصعاً، وأحياناً تطلق على النساء اللواتي يكون لون وجوههن أبيض.

والتعبير بـ «مقصورات» إشارة إلى أنّهن مرتبطات ومتعلقات بأزواجهن ومحجوبات عن الآخرين.

ومرة اخرى يكرر السؤال نفسه بقوله تعالى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

ويضيف سبحانه وصفاً آخر لحوريات الجنة، حيث يقول: «لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جِآنٌ».

ويستفاد من الآيات القرآنية أنّ الزوجين المؤمنين في هذه الدنيا سيلتحقان في الجنة مع بعضهما ويعيشان في أفضل الحالات.

ويستفاد أيضاً من الروايات أنّ درجة ومقام زوجات المؤمنين الصالحات أعلى وأفضل من حوريات الجنة وذلك بما قمن به في الدنيا من صالح الأعمال وعبادة الله سبحانه.

ثم يضيف تعالى: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

وفي آخر وصف للنعم الموجودة في هذه الجنة يذكر سبحانه تعالى: «مُتَّكِنِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ».

«رفرف»: في الأصل بمعنى الأوراق الواسعة للأشجار، ثم اطلقت على الأقمشة الملونة الزاهية التي تشبه مناظر الحدائق.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦٨

«عبرى»: في الأصل بمعنى كل موجود قل نظيره.

و «حسان»: جمع «حسن» على وزن «نسب» بمعنى جيد ولطيف.

فإنّ هذه التعابير حاكية جميعاً عن أنّ كل موجودات الجنة لا نظير له ولا شبيه في نوعه.

وللمرة الأخيرة وهي (الحادية والثلاثون) يسأل سبحانه جميع مخلوقاته من الجن والإنس هذا السؤال: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

هل النعم المعنوية؟ أم النعم المادية؟ أم نعم هذا العالم؟ أم الموجوده في الجنة؟ إنّ كل هذه النعم شملت وجودكم وغمرتكم ... إلآئته- مع الأسف- قد أنساكم غروركم وغفلتكم هذه الألطاف العظيمة، ومصدر عطائها وهو الله سبحانه الذي أنتم بحاجة مستمرة

إلى نعمه في الحاضر والمستقبل ... فأياً منها تنكرون وتكذبون؟

ويختم السورة سبحانه بهذه الآية الكريمة: «تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

«تبارك»: من أصل (برك) بمعنى صدر البعير، وذلك لأنّ الجمال حينما تبرك تضع صدرها على الأرض أولاً، ومن هنا استعمل هذا المصطلح بمعنى الثبات والدوام والاستقامة، لذا فإنّ كلمة (مبارك) تقال للموجودات الكثيرة الفائدة، وأكرم من تطلق عليه هذه

الكلمة هي الذات الإلهية المقدسة باعتبارها مصدراً لجميع الخيرات والبركات.

واستعملت هذه المفردة هنا لأن جميع النعم الإلهية- سواء كانت في الأرض والسماء في الدنيا والآخرة والكون والخلق- فهي من فيض الوجود الإلهي المبارك، لذا فإن هذا التعبير من أنسب التعبيرات المذكورة في الآية لهذا المعنى. والملفت للنظر هنا أن هذه السورة بدأت باسم الله (الرحمن) وانتهت باسم الله ذي الجلال والإكرام) وكلاهما ينسجمان مع مجموعة مواضع السورة.

«نهاية تفسير سورة الرحمن»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٦٩

٥٦. سورة الواقعة

محتوى السورة: إن سورة الواقعة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وكانت قبلها سورة (طه) وبعدها (الشعراء) «١». هذه السورة- كما هو واضح من لحنها، وذكره المفسرون أيضاً- نزلت في مكة، بالرغم من أن بعضهم قال: إن الآيتين (٨١ و ٨٢) نزلتا في المدينة، إلا أن هذا الإدعاء ليس له دليل، كما أن محتوى الآيتين الكريمتين لا يساعدان على ذلك أيضاً. وسورة الواقعة- كما هو واضح من إسمها- تتحدث عن القيامة وخصوصياتها، ولذا فإن هذا الموضوع هو الأساس في البحث. إلا أننا نستطيع أن نلخص موضوعات السورة في ثمانية أقسام:

- ١- بداية ظهور القيامة والحوادث المرعبة المقترنة بها.
- ٢- تقسيم أنواع الناس في ذلك اليوم إلى ثلاثة طوائف: (أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والمقربين).
- ٣- بحث مفصل حول مقام المقربين، وأنواع الجزاء لهم في الجنة.

(١) الفهرست للنديم / ٢٨.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧٠

- ٤- بحث مفصل حول القسم الثاني في الناس وهم أصحاب اليمين، وأنواع الهبات الإلهية الممنوحة لهم.
- ٥- بحث حول أصحاب الشمال وما ينتظرهم من جزاء مؤلم في نار جهنم.
- ٦- بيان أدلة مختلفة حول مسألة المعاد من خلال بيان قدرة الله عز وجل، وخلق الإنسان من نطفة حقيرة، وظهور الحياة في النباتات، ونزول المطر، وإشتعال النار.
- ٧- وصف حالة الاحتضار والانتقال من هذا العالم إلى حيث العالم الاخرى والتي تعتبر من مقدمات يوم القيامة.
- ٨- وأخيراً نظرة إجمالية كلية حول جزاء المؤمنين وعقاب الكافرين.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة الواقعة، كتب ليس من الغافلين». وذلك لأن آيات هذه السورة تتصف بالتحريك والإيقاظ بصورة لا تسمح للإنسان أن يبقى في جور الغفلة. وفي ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ في كل ليلة جمعة الواقعة أحبه الله وأحبه إلى الناس أجمعين، ولم ير في الدنيا بؤساً أبداً ولا فقراً ولا فاقة، ولا آفة من آفات الدنيا، وكان من رفقاء أمير المؤمنين عليه السلام». ومن الواضح أننا لا نستطيع الحصول على جميع البركات التي وردت لهذه السورة بالقراءة السطحية، بل ينبغي بعد تلاوتها التفكير والتدبر، ومن ثم الحركة والعمل.

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رَجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُتَّبَثًا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ

(١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) الواقعة العظيمة: إن الأحداث المرتبطة بالقيامة تذكر غالباً في القرآن الكريم مقترنة بحوادث أساسية عظيمة قاصمه ومدمرة، وهذا ما يلاحظ في الكثير من السور القرآنية التي

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧١

تحدث عن القيامة؛ وفي سورة الواقعة، نجد هذا واضحاً في الآيات الأولى منها، حيث يبدأ سبحانه بقوله: «إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ». «لَيْسَ لَوْقَعَتَهَا كَاذِبَةٌ». وذلك لأن الحوادث التي تسبقها عظيمة وشديدة بحيث تكون آثارها واضحة في كل ذرات الوجود. فإن الحشر لا يقترن بتغيير الكائنات فحسب، بل إن البشر يتغير كذلك كما يقول سبحانه في الآية اللاحقة: «خَافِضَةً رَافِعَةً». أجل، بعض يسقط إلى قاع جهنم، وبعض آخر إلى أعلى عليين في الجنة.

وفي الخصال عن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في تفسير هذه الآية أنه قال: «خَافِضَةً خَفَضَتْ وَاللَّهُ بِأَعْدَاءِ اللَّهِ فِي النَّارِ، رَافِعَةً رَفَعَتْ وَاللَّهُ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ إِلَى الْجَنَّةِ».

ثم يستعرض القرآن الكريم وصفاً أوسع في هذا الجانب حيث يقول: «إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا».

ياله من زلزال عظيم وشديد إلى حد أن الجبال فيه تندك وتلاشى. قال تعالى: «وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُتَّبَثًا».

«رُجَّتْ»: من مادة «رج» على وزن (حج) بمعنى التحرك الشديد للشيء وتقال رجرجة للإضطراب؛ و «بُسَّتْ»: من مادة «بس» على وزن (حج) والأصل بمعنى تلين الطحين وتعجنه بواسطة الماء؛ و «هباءً»: بمعنى غبار؛ و «متبث»: بمعنى منتشر.

وبعد بيان وقوع هذه الظاهرة العظيمة والحشر الكبير يستعرض القرآن المجيد ذكر حالة الناس في ذلك اليوم، حيث قسم الناس إلى ثلاثة أقسام بقوله سبحانه: «وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً».

وحول القسم الأول يحدثنا القرآن الكريم بقوله: «فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ». والمقصود من أصحاب الميمنة هم الأشخاص الذين يعطون صحيفة أعمالهم بأيديهم اليمنى، وهذا الأمر رمز لأهل النجاة، ودليل الأمان للمؤمنين والصالحين في يوم القيامة، كما ذكر هذا مراراً في الآيات القرآنية.

عبارة «ما أصحاب الميمنة» هو بيان حقيقة السعادة التي ليس لها حد ولا يمكن تصوورها لهؤلاء المؤمنين.

ثم يستعرض الله تعالى المجموعة الثانية بقوله: «وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧٢

المشأمة. حيث الشؤم والتعاسة، وإستلام صحائف أعمالهم بأيديهم اليسرى التي هي رمز سوء عاقبتهم وعظيم جرمهم وجنابتهم، نتيجة عمى البصيرة والسقوط في وحل الضلال. والتعبير ب «ما أصحاب المشأمة» هو الآخر يعكس نهاية سوء حظهم وشقاوتهم.

وأخيراً يصف المجموعة الثالثة أيضاً بقوله سبحانه: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ».

(السابقون) ليسوا الذين سبقوا غيرهم بالإيمان فحسب، بل في أعمال الخير والأخلاق والإخلاص، فهم اسوة وقدوة وقادة للناس، ولهذا السبب فهم من المقربين إلى الحضرة الإلهية.

وإذا فسرت (السابقون) كما في بعض الروايات الإسلامية بأنها تعني الأشخاص الأربعة وهم «هايل»، و «مؤمن آل فرعون»، و «حبيب النجار» الذين تميز كل منهم بأسبقيته في قومه، وكذلك «أمير المؤمنين» عليه السلام الذي هو أول من دخل في الإسلام من الرجال، فإن هذا التفسير هو بيان للمصاديق الواضحة، وليس تحديداً لمفهوم الآية.

ثم يوضح المقام العالي للمقربين، حيث يقول سبحانه: «فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ».

التعبير ب «جَنَّاتِ النَّعِيمِ» يشمل أنواع النعم المادية والمعنوية.

ويشير في الآية اللاحقة إلى الحالة العديدة في الامم السابقة وفي هذه الامة أيضاً حيث يقول سبحانه: «ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى». أي أنهم جماعة

كثيرة في الامم السالفة والأقوام الاولى.

«وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ».

وطبقاً لها تين الآيتين فإنَّ قسماً كبيراً من المقربين هم من الامم السابقة، وقسم قليل منهم فقط هم من امه محمد صلى الله عليه وآله. على سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ (١٨) لَا يُصِيدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَمَا يَسْأَلُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهِنَّ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٥) الجنة ينتظر المقربين: هذه الآيات تتحدث عن أنواع نعم الجنة التي أعدها الله

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧٣

سبحانه للقسم الثالث من عباده المقربين، والتي كل واحدة منها أعظم من اختها وأكرم .. وقد لخصت هذه النعم بسبعة أقسام:

يقول تعالى في البداية: «عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ».

«سرر»: جمع «سرير» من مادة (سرور) بمعنى التخت الذي يجلس عليه المنعمين في مجالس الانس والسرور.

ونلاحظ استمرار الأوصاف الرائعة في القرآن الكريم لسرر الجنة، ومجالس أهلها، ومنتديات أحببها مما يدل على أن من أهم نعم وملذات هؤلاء هي جلسات الانس هذه ..

ثم يتحدث سبحانه عن نعمة اخرى لهم حيث يقول: «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ».

التعبير «يطوف» من مادة (طواف) إشارة إلى استمرار خدمة هؤلاء (الطوافين) لضيوفهم.

والتعبير «مخلدون» إشارة إلى خلود شبابهم ونشاطهم وجمالهم وطراوتهم، والأصل أن جميع أهل الجنة مخلدون وباقون.

ويضيف القرآن أن هؤلاء الولدان يقدمون لأصحاب الجنة أقداح الخمر وكؤوس الشراب المأخوذ من أنهار الجنة: «بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ» (١).

وشرايبهم هذا ليس من النوع الذي يأخذ لباب العقل والفكر، حيث يقول تعالى: «لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ» (٢).

إنَّ الحالة التي تتناوبهم من النشوة الروحية حين تناولهم لهذا الشراب لا يمكن أن توصف، إذ تغمر كل وجودهم بلذة ليس لها مثل.

ثم يشير سبحانه إلى رابع وخامس قسم من النعم المادية التي وهبها الله للمقربين في الجنة، حيث يقول سبحانه: «وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ». «وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ».

(١) «أكواب»: جمع «كوب» بمعنى القدح أو الإناء الذي لا- عروة له؛ و «أباريق»: جمع «إبريق» وهي في الأصل اخذت من الفارسية (أبريز) بمعنى الأواني ذات اليد من جهة، ومن الاخرى ذات أنبوب لصب السائل؛ و «كأس»: تقال للإناء المملوء بالسائل لدرجة يفيض من جوانبه؛ و «معين» من مادة «معن» بمعنى الجارى.

(٢) «يصدعون»: من مادة «صداع» على وزن (حباب)، بمعنى وجع الرأس، وهذا المصطلح في الأصل من (صدع) بمعنى (الإنفلاق) لأنَّ الإنسان عندما يصاب بوجع رأس شديد فكأنَّ رأسه يريد أن ينفلق من شدة الألم، لذا فإنَّ هذه الكلمة قد استعملت في هذا المعنى؛ و «ينزفون»: من أصل «نزف» بمعنى سحب جميع مياه البئر بصورة تدريجية، وتستعمل أيضاً حول (السُّكَّر) وفقدان العقل.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧٤

إنَّ تقديم الفاكهة على اللحم بلحاظ كون الفاكهة أفضل من الناحية الغذائية بالإضافة إلى نكهتها الخاصة عند أكلها قبل الطعام والذي يستفاد من بعض الروايات أنَّ غصون أشجار الجنة تكون في متناول أيدي أهل الجنة، بحيث يستطيعون بكل سهولة أن يتناولوا

أى نوع من الفاكهة مباشرة، وهكذا الحال بالنسبة لبقية الأغذية الموجودة في الجنة، إلّا أنّ مما لا شك فيه أنّ تقديم الغذاء من قبل (الولدان المخدّنين) له صفاء خاص ولطف متميز حيث إنّ تقديم الطعام يعبر عن مزيد الإحترام والإكرام لأهل الجنة. ثم يشير سبحانه إلى سادس نعمته وهي الزوجات الطاهرات الجميلات، حيث يقول سبحانه: «وَحُورٌ عِينٌ». «كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ». «حور»: جمع حوراء وأحور، ويقال للشخص الذي يكون سواد عينه شديداً وبياضها شفافاً؛ و «عين»: جمع عيناء وأعين، بمعنى العين الواسعة.

«مكنون»: بمعنى مستور، والمقصود هنا الاستتار في الصدف. أنّهن مستورات عن أعين الآخرين بصورة تامة، لا يد تصل إليهن ولا عين تقع عليهن.

وبعد الحديث عن هذه المنح، والعطايا المادية الستة، يضيف سبحانه: «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». كى لا يتصور أحد أنّ هذه النعم تعطى جزافاً، بل إنّ الإيمان والعمل الصالح هو السبيل لنيلها والحصول عليها، حيث يلزم للإنسان العمل المستمر الخالص حتى تكون هذه الألفاظ الإلهية من نصيبه.

ويلاحظ بأنّ (يعملون) فعل مضارع يعطى معنى الإستمرار.

ويتحدث القرآن الكريم عن سابع نعمته من نعم أهل الجنة، وهي التي تتسم بالطابع الروحي المعنوي، حيث يقول تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ»

فالجوّ هناك جوّ نزيه خالص بعيد عن الدنس، فلا كذب، ولا تهم، ولا إفتراءات، ولا استهزاء ولا غيبة ولا ألفاظ نائية وعبارات لاذعة ... وليس هنالك لغو ولا كلام فارغ.

ثم يضيف سبحانه: «إِلَّا قِيلاً سَلَامًا».

سلام وتحيه من الله، ومن الملائكة المقربين، وسلامهم وتحتيتهم لبعضهم البعض في تلك المجالس العامرة المملوءة بالصفاء والتي تفيض بالودّ والاخوة والصدق.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧٥

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَ لَّا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً (٣٦) غُرُباً أَتْرَاباً (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى (٣٩) وَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠) أصحاب اليمين وهباتهم: بعد بيان الهبات والنعم المادية والمعنوية (للمقرّبين) يأتي الدور في الحديث عن (أصحاب اليمين)، ويشير سبحانه إلى نعم ست، ممّا أنعم به عليهم تمثل مرحلة أدنى في مقابل سبع نعم منحها سبحانه إلى المقرّبين من عباده.

تبدأ الآيات في الحديث عنهم أوّلًا من حيث مقامهم العالى، حيث يقول عزّ وجل:

«وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ».

إنّ هذا الوصف هو أروع وصف لهؤلاء، لأنّ هذا التعبير يستعمل في موارد لا تستطيع الألفاظ التعبير عنه، وهو تعبير عن المقام العالى لأصحاب اليمين.

وتشير الآية اللاحقة إلى أوّل نعمته منحت لهذه الجماعة، حيث تقول: «فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ».

وفى تفسير روح المعاني: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يقولون: إنّ الله تعالى ينفعنا بالأعراب ومسائلهم، أقبل أعرابي يوماً، فقال: يا رسول الله! لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى أنّ في الجنة شجرة تؤذى صاحبها؟

قال: «وما هي». قال: السدر، فإنّ له شوكةً.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أليس الله يقول: في سدر مخضود، خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكه ثمرة، وأنّ الثمرة

من ثمره تفتق اثنين وسبعين لونا من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر».

ثم يأتي الحديث عن ثاني هبة لهم حيث يقول سبحانه: «وَطَلَحَ مَنُضُودٍ».

«الطلح»: شجرة خضراء لطيفة اللون والرائحة، وذكر البعض أنها شجرة الموز التي تتميز بأوراق عريضة وخضراء جميلة، وفاكهتها حلوة ولذيذة.

و «منضود»: من مادة (نضد) بمعنى متراكم.

وقال بعض المفسرين: بالنظر إلى أن أوراق شجر السدر في غاية الصغر، وأوراق شجر

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧٦

الموز في غاية الكبر فقوله تعالى «فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ* وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ» اشارة إلى ما يكون ورقه في غاية الصغر من الأشجار وإلى ما يكون ورقه في غاية الكبر منها فوقع الإشارة إلى الطرفين جامعة لجميع الأشجار نظراً إلى أوراقها، والورق أحد مقاصد الشجر «١». ثم يستعرض سبحانه ذكر النعمة الثالثة من نعم أهل اليمين بقوله: «وَوَظِلٍّ مَّمْدُودٍ».

فسير البعض هذا (الظل الواسع) بحالة شبيهة للظل الذي يكون ما بين الطلوع الفجر إلى طلوع الشمس من حيث إنتشاره في كل مكان، وقد نقل حديث للرسول صلى الله عليه وآله بهذا المعنى في روضه الكافي «٢».

وينتقل الحديث إلى مياه الجنة حيث يقول سبحانه: «وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ».

«مسكوب»: من مادة «سكب» تعنى فى الأصل الصب، ولأن صب الماء يكون من الأعلى إلى الأسفل بصورة تيار أو شلال فهي إحدى الهبات التي منحها الله لأهل الجنة.

ومن الطبيعي أن هذه الجنة المليئة بالأشجار العظيمة، والمياه الجارية، لابد أن تكون فيها فواكه كثيرة، وهذا ما ذكرته الآية الكريمة، حيث يقول سبحانه فى ذكر خامس نعمة:

«وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ* لَّمْ يَمْقُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ».

نعم، ليست كفواكه الدنيا من حيث محدوديتها فى فصول معينة من أسابيع أو شهور.

ثم يشير سبحانه إلى نعمة اخرى حيث يقول: «وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ». أى الزوجات الرفيعات القدر والشأن.

«فرش»: جمع فراش وتعنى فى الأصل كل فراش يفرش ولهذا التناسب فإنها تستعمل فى بعض الأحيان كناية عن الزوج (سواء كان رجلاً أو امرأة).

ويصف القرآن الكريم زوجات الجنة بقوله تعالى: «إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً».

وهذه الآية لعلها تشير إلى الزوجات المؤمنات فى هذه الدنيا حيث يمنهن الله سبحانه خلقاً جديداً فى يوم القيامة، ويدخلن الجنة وهن فى قمة الحيوية والشباب والجمال والكمال الظاهر والباطن، وبشكل يتناسب مع كمال الجنة وخلوها من كل نقص وعيب.

ثم يضيف تعالى: «فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا».

واحتمال أن يكون الوصف مستمراً، كما صرح كثير من المفسرين بذلك، واشير له فى

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازى ١٦٢ / ٢٩.

(٢) روضة الكافي ٩٩ / ٨.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧٧

الروايات الإسلامية أيضاً، حيث الزواج لا يغير وضعهن وبيقين أبكاراً «١».

ويضيف فى وصفهن بوصف آخر فيقول تعالى: «عُرْبًا».

«عُرْبًا»: جمع «عروبة» بمعنى المرأة التي يحكى وضع حالها عن مقام عفتها وطهارتها، وعمّا تكنه من المحبة لزوجها؛ و «إعراب»: معناه هو نفس مدلول الإظهار، ويأتى هذا المصطلح أيضاً بمعنى الفصاحة ولطافة الكلام، ويمكن جمع المعنيين فى هذه الآية. والوصف الآخر لهن: «أترابًا». أى: أنّها تماثلات فى الجمال وأتراب فى الظاهر والباطن، ومتماثلات فى العمر مع أزواجهن.

«أتراب»: جمع «ترب» بمعنى المثل والشبيه. إنّ هذا الشبه والتماثل يمكن أن يكون فى أعمار الزوجات بالنسبة لأزواجهن، كى يدركن إحساسات ومشاعر أزواجهن كاملة.

ثم يضيف تعالى: «لأصحاب اليمين».

وهذا تأكيد جديد على اختصاص هذه الصفات والنعم الإلهية بهم.

وفى نهاية هذا العرض يقول سبحانه: «ثَلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَثَلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ».

«ثَلَّةٌ»: فى الأصل بمعنى قطعة مجتمع من الصوف، ثم اطلقت على كل مجموعة من الناس عظيمة ومتماسكة، وبهذا الترتيب فإن مجموعة عظيمة من أصحاب اليمين هم من الامم السابقة، ومجموعة عظيمة من الامم الإسلامية، لأن بين المجموعتين كثير من الصالحين والمؤمنين، بالرغم من أن السابقين للإيمان فى الامم الإسلامية أقل من السابقين للإيمان فى الامم السابقة، وذلك لكثرة تلك الامم وكثرة أنبيائها.

وَ أَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ (٤١) فِى سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ (٤٢) وَ ظِلٌّ مِّنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَمَّا بَارِدٍ وَ لَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَ كَانُوا يُصْعِقُونَ عَلَى الْحِنْتِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَ كَانُوا يَقُولُونَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) الْعُقُوبَاتُ الْمُؤَلَّمَةُ لِأَصْحَابِ الشَّمَالِ: بعد الاستعراض الذى مر بنا حول النعم والهبات العظيمة التى منحها الله سبحانه للمقربين من عباده ولأصحاب اليمين من أوليائه، يتطرق

(١) روح المعاني ٢٧ / ١٤٢.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧٨

الآن إلى ذكر المجموعة الثالثة (أصحاب الشمال) والعذاب المؤلم والعاقبة السيئة التى حلت بهم، فى عملية مقارنة لوضع المجموعات الثلاثة، حيث يقول البارئ: «وَ أَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ». أصحاب الشمال هم الذين يستلمون صحائف أعمالهم بأيديهم اليسرى إشارة إلى سوء عاقبتهم، وأنهم من أهل المعاصى والذنوب.

ثم يشير سبحانه إلى ثلاثة أنواع من العقوبات التى يواجهونها، الهواء الحارق القاتل من جهة: «فِى سَمُومٍ»، والماء المغلى المهلك من جهة اخرى: «وَ حَمِيمٍ»، وظل الدخان الخائق الحار من جهة ثالثة: «وَ ظِلٌّ مِّنْ يَحْمُومٍ».

هذه الألوان من العذاب تحاصرهم وتطوقهم وتسلب منهم الصبر والقدرة.

ثم يضيف البارئ مؤكداً فيقول: «لِأَبَارِدٍ وَ لَا كَرِيمٍ».

المظلة عادةً تحمى الإنسان من الشمس والمطر والهواء ولها منافع اخرى، والظل المشار إليه فى الآية الكريمة ليس له من هذه الفوائد شىء يذكر.

ومن الطبيعى أن مظلة من الدخان الأسود الخائق لا ينتظر منها إلا الشر والضرر.

وبالرغم من أن جزء أهل النار له أنواع مختلفة مرعبة من العذاب، إلا أن ذكر الأقسام الثلاثة يكفى لإعطاء فكرة عن بقية الأهوال.

وفى الآيات اللاحقة يذكر الأسباب التى أدت بأصحاب الشمال إلى هذا المصير المخيف والمشؤوم، وذلك بثلاث جمل: (أ) يقول سبحانه وتعالى: «إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ».

«مترف»: من مادة «ترف» بمعنى التمتع، وتطلق على الشخص الذى ملكته الغفلة وجعلته مغروراً سكراناً، وجرت به إلى الطغيان.

صحيح أن أصحاب الشمال ليسوا جميعاً من زمرة المترفين، إلا أن المقصودين في القرآن الكريم هم أربابهم وأكابرهم. (ب) ثم يشير سبحانه إلى العامل الذي كان مصدراً وسبباً لعذاب أصحاب الشمال، فيقول سبحانه: «وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ». «الحنث»: في الأصل يعني كل نوع من الذنوب. فإن خصوصية أصحاب الشمال ليس فقط في ارتكاب الذنوب ولكن في الإصرار عليها.

(ج) وثالث عمل سبب لهم هذا الويل والعذاب، هو أنهم قالوا: «وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ». مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٧٩

وعلى هذا فإن إنكار القيامة والذي هو بحد ذاته مصدر للكثير من الذنوب، هو وصف آخر لأصحاب الشمال، ومصدر لشقائهم. وتعبير «كَانُوا يَقُولُونَ» يوضح لنا أنهم كانوا يصرون ويعاندون في إنكار يوم القيامة أيضاً.

إن الذنوب الثلاثة التي اشير إليها في الآيات الثلاثة السابقة كانت بمثابة نفى اصول الدين الثلاثة من قبل أصحاب الشمال. ففي آخر آية تحدت القرآن الكريم عن تكذيبهم ليوم القيامة، وفي الآية الثانية عن إنكار التوحيد، وفي الآية الاولى كان الحديث عن المترفين وهي إشارة إلى تكذيب الأنبياء.

إنهم لم يكتفوا بما ذكروا وذهبوا إلى أكثر من ذلك حيث قالوا بتعجب: «أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ».

ثم إن القرآن الكريم يأمر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أن يجيبهم: «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ». «مِيقَاتٍ»: من مادة «وقت» بمعنى الزمان الذي يحدد لعمل ما أو موعد. والمقصود من المِيقَاتِ هنا هو نفس الوقت المقرر للقيامة. ويستفاد من التعابير المختلفة التي وردت في الآية السابقة والتأكيدات العديدة حول مسألة الحشر، أن حشر جميع الناس ينجز في يوم واحد.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن معلومية يوم القيامة هي عند الله فقط، وإلما فإن جميع البشر بما فيهم الأنبياء والمرسلون والمقربون والملائكة ليس لهم علم بتوقيتها.

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَتَيْتُمُ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَمَّا كَلَّوْنَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ (٥٢) فَمَا لُتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نُزِّلَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) عقوبات جديدة للمجرمين: هذه الآيات استمرار للأبحاث المرتبطة بعقوبات أصحاب الشمال، حيث يخاطبهم بقوله: «ثُمَّ إِنَّكُمْ أَتَيْتُمُ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَمَّا كَلَّوْنَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ».

«زقوم»: نبات مرّ نتن الرائحة وطعمه غير مستساغ، وفيه عصاره إذا دخلت جسم الإنسان يصاب بالتورم، وتقال أحياناً لكل نوع من الغذاء المنفر لأهل النار.

وجملة «فَمَا لُتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ» إشارة إلى الجوع الشديد الذي يصيبهم بحيث إنهم

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٨٠

يأكلون بنهم وشراهة من هذا الغذاء النتن وغير المستساغ جداً فيملؤون بطونهم. وعند تناولهم لهذا الغذاء السيء يعطشون ولكن ما هو شرابهم! يتبين ذلك في قوله تعالى: «فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ».

إن البعير الذي يتبلى بداء العطش فإن شدة عطشه تجعله يشرب الماء باستمرار حتى يهلك، وهذا هو نفس مصير «الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ» في يوم القيامة.

وفي آخر آية- مورد البحث- يشير سبحانه إلى طبيعة ما أكلهم ومشربهم في ذلك اليوم حيث يقول: «هَذَا نُزِّلَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ».

ومن الطبيعي أن أهل النار ليسوا ضيوفاً، وأن الزقوم والحميم ليس وسيلة لضيافتهم بل هو نوع من الطعن فيهم، وأنه إذا كان كل هذا العذاب هو مجرد استقبال لهم، فكيف بعد ذلك سيكون حالهم.

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَمْ فَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَمْ أَنْتُمْ خَلَقْتُمُوهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَ مَا نَحْنُ

بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئْكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) سبعة أدلة على المعاد: بما أن الآيات السابقة تحدثت عن تكذيب الضالين ليوم المعاد، فإن الآيات اللاحقة استعرضت سبعة أدلة على هذه المسألة المهمة، كى يتركز الإيمان وتطمئن القلوب بالوعود الإلهية التى وردت فى الآيات السابقة حول «المقربين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال». يقول سبحانه فى المرحلة الأولى: «نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ».

أى لِمَ لا تصدقون بالمعاد؟! لماذا تتعجبون من الحشر والمعاد الجسمى بعد أن تصبح أجسامكم تراباً؟ ألم نخلقكم من التراب أول مرة؟ أليس حكم الأمثال واحداً؟

وفى الآية اللاحقة يشير البارئ إلى دليل ثان حول هذه المسألة فيقول: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ».

وهل أن القادر على الخلق المتكرر يعجز عن إحياء الموتى فى يوم القيامة؟

ثم يستعرض ذكر الدليل الثالث حيث يقول سبحانه: «نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٨١

إننا لن نغلب أبداً، وإذا قدرنا الموت فلا يعنى ذلك أننا لا نستطيع أن نمنح العمر السرمدى، بل إن الهدف هو أن نذهب بقسم من الناس ونأتى بآخرين محلهم، وأخيراً نعيدكم خلقاً جديداً فى عالم لا تعلمون عنه شيئاً: «عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئْكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ».

ويمكن توضيح الدليل بالصورة التالية: إن الله الحكيم الذى خلق الإنسان وقدر له الموت فطائفه يموتون وآخرين يولدون باستمرار، من البديهي أن له هدف.

فإذا كانت الحياة الدنيا هى الهدف فالمناسب أن يكون عمر الإنسان خالداً وليس بهذا المقدار القصير المقترن مع ألوان الآلام والمشاكل.

وسنة الموت تشهد أن الدنيا معبراً وليست منزلاً وأنها جسر وليست مقصداً، لأنها لو كانت مستقرراً ومقصداً لزم أن تدوم الحياة فيها.

وفى آخر آية- مورد البحث- يتحدث سبحانه عن رابع دليل للمعاد حيث يقول: «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ».

هذا الدليل نستطيع بيانه بصورتين:

الاولى: إن خلق هذه الدنيا العظيمة وما فيها هل يمكن أن يكون لهدف صغير محدود، كأن يعيش الإنسان فيها بضعة أيام؟ كلا ليس كذلك، وإلا فإنه يعنى أن خلق العالم سيكون بدون هدف، ولكن مما لا شك فيه أن هذه المخلوقات العظيمة قد خلقت لموجود شريف- مثل الإنسان- ليعرف الله سبحانه من خلالها، معرفة تكون رأسماله الوحيد فى الدار الآخرة، فالهدف إذن هو الدار الآخرة، وهذا دليل آخر على المعاد.

الثانية: هو أننا نلاحظ مشاهد المعاد فى هذا العالم تتكرر أمامنا فى كل سنة وفى كل زاوية وكل مكان، حيث مشهد القيامة والحشر فى عالم النبات، فتحبى الأرض الميتة بهطول الأمطار الباعثة للحياة. قال تعالى: «إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ (١)».

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُعْرِمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) هل أنتم الزارعون أم الله: استعرضنا لحد الآن أربعة أدلة من الأدلة السبعة التى جاء

(١) سورة فصلت / ٣٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٨٢

ذكرها فى هذه السورة حول المعاد، والآيات- مورد البحث واللاحقة لها- تستعرض الأدلة الاخرى المتبقية التى كل منها مصداق لقدرة الله اللامتناهية. فالدليل الأول يرتبط بخلق الحبوب الغذائية، والثانى يرتبط بخلق الماء، والثالث يتعلق بالنار، وهذه المحاور

تشكل الأركان الأساسية في الحياة الإنسانية.

يقول سبحانه في البداية: «أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ».

والله سبحانه هو الذى يخلق فى وسط هذه البذرة الحياة، فعندما توضع البذرة فى محيط مهياً من حيث التربة والضوء والماء، فإنها تستفيد ابتداءً من المواد الغذائية المخزونة فيها إلى أن تصبح برعمًا وتولد جذراً، ثم تنمو بسرعة عجيبة مستفيدة من المواد الغذائية الموجودة فى الأرض.

وفى الآية اللاحقة يؤكد الدور الهامشى للإنسان فى نمو ورشد النباتات فيقول: «لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ».

«حطام»: من مادة «حطم» تعنى فى الأصل كسر الشئ، وغالباً ما تطلق على كسر الأشياء اليابسة كالعظام النخرة وسيقان النباتات الجافة، والمقصود هنا هو التبن.

ويحتمل أيضاً أن المقصود بالحطام هنا هو فساد البذور فى التربة وعدم نموها.

نعم، تتعجبون وتغمركم الحيرة وتقولون: «إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» (١).

وإذا كنتم أنتم الزارعين الحقيقيين، فهل بإمكانكم أن تمنعوا وتدفعوا عن زرعكم الأضرار والمصير المدمر والنتيجة البائسة؟ وهذا التحدى يؤكد لنا أن جميع امور الخلق من الله سبحانه.

أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) من الذى خلق الماء والنار: يشير سبحانه فى هذه الآيات إلى سادس وسابع دليل للمعاد فى هذا القسم من آيات سورة الواقعة، التى تبين قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، بل

(١) «مغرمون»: من مادة «غرامه» بمعنى الضرر وفقدان الوقت والمال.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٨٣

فى كل شئ: «أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ». «ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ».

«مزن»: يعنى (الغيوم البيضاء) وفسرها البعض بأنها (الغيوم الممطرة).

إن هذه الآيات تجعل الوجدان الإنسانى أمام استفسارات عدده كى تأخذ إقراراً منه، حيث يسأل الله سبحانه: هل فكرتم بالماء الذى تشربونه باستمرار والذى هو سر حياتكم؟

وإذا لاحظنا فى الآيات أعلاه عملية استعراض لماء الشرب - فقط - وعدم التحدث عن تأثيره فى حياة الحيوانات أو النباتات فإن السبب هو الأهمية البالغة للماء فى حياة الإنسان نفسه، بالإضافة إلى أنه قد اشير له فى الآيات السابقة فى حديث الزرع، لذا لا حاجة لتكرار ذلك.

وأخيراً - ولإكمال البحث فى الآية اللاحقة - يقول سبحانه: «لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ». «اجاج»: من مادة «أجج» وقد أخذت فى الأصل من «أجيج النار» يعنى إشتعالها وإحتراقها، ويقال «اجاج» للمياه التى تحرق الفم عند شربها لشده ملوحتها ومرارتها وحرارتها.

وأخيراً نصل إلى سابع - وآخر - دليل للمعاد فى هذه السلسلة من الآيات الكريمة، وهو خلق النار التى هى أهم وسيلة لحياة الإنسان وأكثرها أهمية له فى المجالات الصناعية المختلفة، حيث يقول سبحانه: «أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ». «تورون»: من مادة «ورى» بمعنى الستر، ويقال للنار التى تكون مخفية فى الوسائل التى لها القابلية على الإشتعال التى تظهر بشرارة، ويقال «ورى» و «إبراء».

جملة (تورون)- بمعنى إشعال النار- بالرغم من أنها فسّرت هنا بما يستفاد منه توليد النار، إلا أنه لا مانع من أن تشمل الأشياء المشتعلة أيضاً كالحطب باعتباره ناراً خفية تظهر وقت توفر الشروط المناسبة لها.
وفي الآية اللاحقة يضيف مؤكداً الأبحاث أعلاه بقوله سبحانه: «نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَمتَاعاً لِلْمُقْوِينَ». إن عودة النار من داخل الأشجار الخضراء تذكّرنا برجوع الأرواح إلى الأبدان في الحشر من جهة، ومن جهة أخرى تذكّرنا هذه النار بنار جهنم.

مختصر الامثال، ج ٥، ص: ٨٤

يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» (١). جملة «متاعاً للمقوين» إشارة إلى الفوائد الدنيوية لهذه النار.

يستنتج سبحانه نتيجة مهمة بعد ما ركّز على أهميته هذه النعم للإنسان وذلك بتسيحه والشكر له تعالى باعتباره المصدر الوحيد لهذه النعم ... فيقول سبحانه في آخر آية مورد البحث: «فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ».

إن الله الذي خلق كل هذه النعم، والتي كل منها تذكّرنا بقدرته وتوحيده وعظمته ومعاده، لائق للتسبيح والتتزيه من كل عيب ونقص. إنه ربّ، وكذلك فإنه «عظيم» وقادر ومقتدر، وبالرغم من أن المخاطب في هذه الآية هو الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله إلا أن من الواضح أن جميع البشر هم المقصودون.

فَلَمَّا أُقْسِمَ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكذِّبُونَ (٨٢) المطهرون ومعرفة أسرار القرآن: استمراراً للأبحاث التي جاءت في الآيات السابقة، والتي تركّز الحديث فيها حول الأدلة السبعة الخاصة بالمعاد، ينتقل الحديث الآن عن أهمية القرآن الكريم باعتباره يشكل مع موضوع النبوة ركنين أساسيين بعد مسألة المبدأ والمعاد والتي بمجموعها تمثل أهم الأركان العقائدية. يبدأ الحديث بقسم عظيم، حيث يقول سبحانه: «فَلَمَّا أُقْسِمَ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ».

وعندما يلاحظ الإنسان- طبقاً لتصريحات العلماء- أن في (مجزّتنا) فقط ألف مليون نجمة، وتوجد في الكون مجرّات كثيرة، وكل واحدة منها لها مسار خاص، عندئذ ستوضح لنا أهمية هذا القسم القرآني. ولهذا السبب فإنه تعالى يضيف في الآية اللاحقة: «وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ». وهذه بحد ذاتها تعتبر إعجازاً علمياً للقرآن الكريم، حيث في الوقت الذي كانت تعتبر

(١) جامع البيان ٢٧/ ٢٦٢؛ وروح المعاني ٢٧/ ١٥٠.

مختصر الامثال، ج ٥، ص: ٨٥

النجوم عبارة عن مسامير فضائية رصّعت السماء بها فإن مثل هذا البيان القرآني الرائع في ظل ظروف وأوضاع يخيم عليها الجهل، محال أن يصدر من بشر عادي.

وتوضّح الآية اللاحقة ما هو المقصود من ذكر هذا القسم؟ حيث يقول سبحانه: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ».

وبهذه الصورة فإنه يردّ على المشركين المعاندين الذين يصرون باستمرار على أن هذه الآيات المباركة هي نوع من التكهن- والعياذ بالله- أو أنه حديث جنوني أو شعر، أو أنه من قبل الشيطان ... فيردّ عليهم سبحانه بأنه وحى سماوي وحديث بين وعظمته وأصالته لا غبار عليها، ومحتواه يعبر عن مبدأ نزوله.

نعم، إن القرآن كريم وقائله كريم ومن جاء به كذلك، وأهدافه كريمة أيضاً.

ثم يستعرض الوصف الثاني لهذا الكتاب السماوي العظيم حيث يقول تعالى: «فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ». إنه في «لوح محفوظ» في علم الله، محفوظ من كل خطأ وتغيير وتبديل. وفي ثالث وصف له يقول سبحانه: «لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ».

ذكر الكثير من المفسرين - تماشياً مع بعض الروايات الواردة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام - بعدم جواز مسّ (كتابة) القرآن الكريم بدون غسل أو وضوء.

كما اعتبر بعضهم أنها إشارة إلى أن الحقائق والمفاهيم العالية في القرآن الكريم لا يدركها إلا المطهرون. فإنّ طهارة الروح في طلب الحقيقة تمثل حداً أدنى من مستلزمات إدراك الإنسان لحقائق القرآن، وكلّما كانت الطهارة والقداسة أكثر كان الإدراك لمفاهيم القرآن ومحتوياته بصورة أفضل.

وفي رابع وآخر وصف للقرآن الكريم يقول تعالى: «تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ».

إنّ الله المالك والبارئ لجميع الخلق، قد نزل هذا القرآن لهداية البشر، وقد أنزله سبحانه على قلب النبي الطاهر، وكما أنّ العالم التكويني صادر منه وهو تعالى رب العالمين فكذلك الحال في المجال التشريعي، فكل نعمة وهداية فمن ناحيته ومن عطائه. ثم يضيف سبحانه: «أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ». هل أنتم بهذا القرآن وتلك الأوصاف المتقدمة تتساهلون، بل تنكرونه وتستغفرونه في حين تشاهدون الأدلة الصادقة والحقة بوضوح، وينبغي لكم التسليم والقبول بكلام الله سبحانه بكلّ جدية، والتعامل مع هذا الأمر كحقيقة لا مجال للشك فيها.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٨٦

عبارة «هذا الحديث» في الآية الكريمة إشارة للقرآن الكريم.

«مدهنون»: في الأصل من مادة «دهن» بالمعنى المتعارف عليه، ولأنّ الدهن يستعمل للبشرة وامور اخرى، فإنّ كلمة (أدهان) جاءت بمعنى المداراة والمرونة، وفي بعض الأحيان بمعنى الضعف وعدم التعامل بجديّة... ولأنّ المنافقين والكاذبين غالباً ما يتّصفون بالمداراة والمصانعة، لذا استعمل هذا المصطلح أحياناً بمعنى التكذيب والإنكار، ويحتمل أن يكون المعنيان مقصودان في الآية. وفي آخر آية - مورد البحث - يقول سبحانه إنكم بدلاً من أن تشكروا الله تعالى على نعمه ورزقه وخاصة نعمة القرآن الكبيرة، فإنكم تكذبون به: «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ».

فَلَوْ لَمَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لَكِنْ لَمَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْ لَأِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) عندما تصل الروح إلى الحلقوم: تكلمه لأبحاث المعاد والردّ على المنكرين والمكذّبين فإنّ القرآن الكريم يرسم لنا صورة معبّرة ومجسّدة لهذه اللحظات حيث يقول سبحانه: «فَلَوْ لَأِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ» ولا تستطيعون عمل شيء من أجله.

والمخاطبون هنا هم أقارب المحتضر الذين ينظرون إلى حالته في ساعة الاحتضار من جهة، ويلاحظون ضعفه وعجزه من جهة ثانية، وتتجلى لهم قدرة الله تعالى على كل شيء، حيث إنّ الموت والحياة بيده، وأنهم - أي أقاربه - سيلاقون نفس المصير. ثم يضيف سبحانه: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ».

نعم، نحن الذين نعلم بصورة جيّدة ما الذي يجول في خواطر المحتضر؟ وما هي الإزعاجات التي تعتريه؟ نحن الذين أصدرنا أمراً بقبض روحه في وقت معين، إنكم تلاحظون ظاهر حاله فقط، ولا تعلمون كيفية إنتقال روحه من هذه الدار إلى الدار الآخرة.

ثم للتأكيد الأشد في توضيح هذه الحقيقة يضيف تعالى: «فَلَوْ لَأِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

إنّ ضعفكم هذا دليل أيضاً على أنّ مالك الموت والحياة واحد، وأنّ الجزاء بيده، وهو الذي يحيى ويميت.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٨٧

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكَذِبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَتَزُلُّ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصِيلُهُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) مصير الصالحين والطالحين: هذه الآيات نوع من الخلاصة للآيات الأولى والأخيرة من هذه السورة، كما أنها تجسد حالة التفاوت بين البشر في حالة الاحتضار، وكيف أن قسماً منهم يلفظون أنفاسهم بهدوء وراحة في تلك اللحظات الصعبة، وآخرين تلوح لهم من بعيد النار الحامية، ويسيطر عليهم الخوف والاضطراب والهلع فيلفظون أنفاسهم بصعوبة بالغة.

يقول سبحانه في البداية: «فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ».

«روح»: على وزن (قول) في الأصل بمعنى التنفس؛ و «الريحان»: بمعنى النبات أو الشيء ذي العطر، ثم اصطلح على كل شيء باعث للحياة والراحة، كما أن الريحان يطلق على كل نعمة ورزق كريم. وبناءً على هذا فإنَّ الروح إشارة إلى كل الأمور التي تخلِّص الإنسان من الصعوبات ليتنفس براحته، وأمَّا الريحان فإنه إشارة إلى الهبات والنعم التي تعود إلى الإنسان بعد إزالة العوائق.

والجدير بالملاحظة أن الحديث عن «جنَّة النعيم» جاء بعد ذكر الروح والريحان وقد يستفاد من هذا أن الروح والريحان يكون من نصيب المؤمنين في الإحتضار والقبر والبرزخ، وأمَّا الجنَّة ففي الآخرة. في الأمالي للصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية أنه قال: «فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ» يعني في قبره، و«جَنَّة نعيم» يعني في الآخرة.

ثم يضيف سبحانه: «وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ». وهم تلك الثلثة الصالحة من الرجال والنساء الذين يستلمون صحيفة أعمالهم بيدهم اليمنى كعلامة للفوز والنصر والنجاح «فَسَلِّمْ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ».

وبهذا الترتيب فإنَّ ملائكة الله المختصين بقبض الروح في لحظات الانتقال من هذه الدنيا يوصلون سلام أصحاب اليمين إلى المحتضر. كما قال تعالى- في الآية (٢٦) من نفس السورة- في وصف أهل الجنَّة وكلامهم: «إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٨٨

ثم تستعرض الآيات الكريمة القسم الثالث الذين مرَّ ذكرهم في أوائل هذه السورة عبر التصنيف الذي ذكر واصطلح عليهم ب (أصحاب الشمال)، حيث يقول تعالى: «وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكَذِبِينَ الضَّالِّينَ فَتَزُلُّ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصِيلُهُ جَحِيمٍ».

نعم، إنَّهم على مشارف الموت حيث يذوقون أول عذاب إلهي، ويتجرعون مرارة عقاب يوم القيامة في القبر والبرزخ.

وهذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى أن قسماً من الأشخاص الضالين من فصيلة الأفراد المستضعفين أو الجهلة القاصرين الذين ليس لديهم إصرار وعناد على الباطل، يمكن أن تشملهم الألفاظ الإلهية، أمَّا المكذبون المعاندون فإنَّهم سيبتلون بالمصير البائس والعاقبة السيئة التي تقدَّم ذكرها.

وفي نهايه هذا الحديث يضيف سبحانه: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ».

إنَّ التعبير (فسبِّح) -الفاء تفرعية- هو إشارة إلى أن ما قيل حول الأقسام الثلاثة هو عين العدالة، وبناءً على هذا اعتبر (ربك) منزهاً من كل ظلم، وإذا ما اريد الابتعاد عن مصير أصحاب الشمال فعلينا أن نتنزه من كل شرك وظلم المتلازمان مع إنكار القيامة.

وفي الدر المنثور: لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله «فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ» قال: «اجعلوها في ركوعكم». ولما نزلت «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» قال: «اجعلوها في سجودكم».

«نهاية تفسير سورة الواقعة»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٨٩

٥٧. سورة الحديد

محتوى السورة: نستطيع أن نقسم موضوعات هذه السورة إلى سبعة أقسام:

١- الآيات الأولى من هذه السورة لها بحث جامع حول التوحيد وصفات الله تعالى.
 ٢- يتحدث عن عظمة القرآن، هذا النور الإلهي الذي أشرق في ظلمات الشرك.
 ٣- يستعرض وضع المؤمنين والمنافقين في يوم القيامة، وبهذا تعكس السورة في أبحاثها الاصول الإسلامية الثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد.

٤- تتحدث الآيات فيه عن الدعوى إلى الإيمان والخروج من الشرك، وعن مصير الأتقوان الضالة من الامم السابقة.
 ٥- جزء مهم من هذه السورة يتحدث حول الإنفاق في سبيل الله، وخصوصاً في تقوية اسس الجهاد في سبيل الله، وأن مال الدنيا ليس له وزن وقيمة.

٦- في قسم قصير من الآيات- إلا أنه واف ومستدل- يأتي الحديث عن العدالة الاجتماعية والتي هي إحدى الأهداف الأساسية للأنبياء.
 ٧- وفيه تتحدث الآيات عن سلبية الرهبانية والإنزواء الاجتماعي وأن ذلك يمثل إبتعاداً عن الخط الإسلامي.
 إن تسمية السورة ب (الحديد) هو لما جاء في الآية (٢٥) من ذكر كلمة الحديد.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩٠

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢)
 هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) فضيلة تلاوة السورة: وردت في الروايات الإسلامية نقاط جديرة بالملاحظة حول فضيلة تلاوة سورة الحديد، ومما لا شك فيه أن المقصود في التلاوة هي تلاوة التدبر والتفكير الذي يكون توأمًا مع العمل.

في الدر المنثور عن عرباض بن ساريه أن رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال: «إن فيهن آية أفضل من ألف آية».

وفي الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ المسبحات كلها قبل أن ينام، لم يمت حتى يرى القائم عليه السلام، وإن مات كان في جوار رسول الله صلى الله عليه وآله».

آيات للمتفكرين: إن هذه السورة بدأت بقسم التوحيد، الذي يشتمل على عشرين صفة من صفات الله سبحانه، تلك الصفات التي بمعرفتها يصل الإنسان إلى مستوى عال من المعرفة الإنسانية بالله، وتعمق معرفته بذاته المقدسة، وهذه الأوصاف والتي تشير إلى جانب من صفات جلاله وجماله، كلما تعمق العلماء وأهل الفكر فيها توصلوا إلى حقائق جديدة عن الذات الإلهية المقدسة.

في الكافي: عندما سئل الإمام علي بن الحسين عليهما السلام عن التوحيد فقال: «إن الله عز وجل علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون فأنزل الله تعالى: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، والآيات من سورة الحديد إلى قوله: «وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» فمن رآه ذلك فقد هلك».

إن أول آية من هذه السورة بدأت بتسبيح وتنزيه الله عز وجل حيث يقول سبحانه:

«سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

وبعد ذكر صفتين من صفات الذات الإلهية يعني (العزة والحكمة) يتطرق إلى (مالكيته وتدبيره، وقدرته في عالم الوجود) والتي هي من مستلزمات القدرة والحكمة، حيث يقول تعالى: «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩١

إن مالكية الله عز وجل لعالم الوجود ليست مالكية اعتبارية وتشريعية، إذ أنها مالكية حقيقية وتكوينية. وهذا يعني أن الله سبحانه محيط بكل شيء، وأن جميع العالم في قبضته وقدرته وتحت إرادته وأوامره، لذا فقد جاء الحديث بعد هذا الكلام عن (الإحياء والإفناء) والقدرة على كل شيء.

الاختلاف بين «العزة» و «القدرة» هو أن العزة أكثر دلالة على تحطيم المقابل والقدرة تعنى توفير الأسباب وإيجادها. وبناءً على هذا فإنهما يعدان وصفين مختلفين بالرغم من أنهما مشتركان في أصل القدرة (يرجى ملاحظة ذلك).

ثم يتطرق سبحانه إلى ذكر خمس صفات أخرى حيث يقول: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». الوصف هنا ب «الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ» تعبير رائع عن أزليته وأبديته تعالى، لأننا نعلم أنه وجود لا متناهي وأنه (واجب الوجود) أى أن وجوده من نفس ذاته، وليس خارجاً عنه حتى تكون له بداية ونهاية، وبناءً على هذا فإنه كان من الأزلى وسيبقى إلى الأبد. إنه بداية عالم الوجود، وهو الذى سيبقى بعد فناء العالم أيضاً. وبناءً على هذا فإن التعبير ب «الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ» ليس له زمان خاص أبداً، وليس فيه إشارة إلى مدّة زمنية معينة.

والوصف ب «الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ» هو تعبير آخر عن الإحاطة الوجودية- أى وجود الله- بالنسبة لجميع الموجودات، أى إنه أظهر من كل شيء لأن آثاره شملت جميع مخلوقاته في كل مكان، وهو خفى أكثر من كل شيء أيضاً لأن كنه ذاته لم يتضح لأحد. فإن أحد نتائج هذه الصفات المتقدمة هو ما جاء في نهاية الآية الكريمة: «وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». إذ إن من كان في البداية ويبقى في النهاية، وموجود في ظاهر وباطن العالم ... سيكون عالماً بكل شيء قطعاً.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩٢

على عرش القدرة دائماً: تحدثت الآيات السابقة عن إحدى عشرة صفة للذات الإلهية المقدسة، وتبين الآيات أعلاه أوصافاً أخرى حيث اشير في الآية الاولى مورد البحث إلى خمسة أوصاف أخرى من صفات جلاله وجماله. ويبدأ الحديث عن مسألة الخلقه حيث يقول سبحانه: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ». لقد ذكرت مسألة الخلقه في (ستة أيام) سبع مرات في القرآن الكريم، المرة الاولى في الآية (٥٤) من سورة الاعراف، والأخيرة هي هذه الآية مورد البحث (الحديد/٤).

فإن المقصود من (اليوم) في هذه الآيات ليس المعنى المتعارف (لليوم)، بل المقصود هو (الزمان) سواء كان هذا الزمان قصيراً أو طويلاً حتى لو بلغ ملايين السنين.

ثم تتطرق الآيات إلى مسألة الحكومه وتدير العالم حيث يقول سبحانه: «ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ». إن زمام حكومه وتدير العالم كانت دائماً بيده ولا زالت، وبدون شك فإن الله تعالى ليس جسمًا، ولذا فليس معنى «العرش» هنا هو عرش السلطه، والتعبير كناية لطيفه عن الحاكمية المطلقة لله سبحانه ونفوذ تديره في عالم الوجود.

ثم يستعرض نوعاً آخر من علمه اللامتناهى بقوله تعالى: «يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا». وفي رابع وخامس صفة له سبحانه يركز حول نقطة مهمة حيث يقول: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». وكيف لا يكون معنا في الوقت الذى نعتمد عليه، ليس فى إيجادنا فحسب، بل فى البقاء لحظة بلحظة- أيضاً- ونستمد منه العون، إنه روح عالم الوجود.

الحقيقة أن الاحساس بأن الله معنا فى كل مكان يعطى للإنسان عظمة وجلالاً من جهة، ومن جهة أخرى يخلق فيه اعتماداً على النفس وشجاعة وشهامة، ومن جهة ثالثة فإنه يثير إحساساً شديداً بالمسؤولية، لأن الله حاضر معنا فى كل مكان، وناظر ومراقب لأعمالنا، وهذا أكبر درس تربوى لنا. وهذا الاعتقاد يمثل دافعاً جدياً للتقوى والطهارة والعمل الصالح فى الإنسان، ويعتبر رمز عظمته وعزته.

وبعد مسألة الحاكمية والتدبير يأتي الحديث عن مسألة مالكيته سبحانه في كل عالم الوجود، حيث يقول: «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩٣

وأخيراً يشير إلى مسألة مرجعيته فيقول تعالى: «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ».

نعم، عندما يكون الخالق والمالك والمدبر معنا في كل مكان، فمن البديهي أن يكون رجوعنا ورجوع أعمالنا إليه كذلك.

وفي آخر آية مورد للبحث يشير إلى صفتين أخريين بقوله تعالى: «يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ».

بالتدريج ينقص أحد الوقتين (الليل والنهار) ليضيف للآخر، وتبعاً لذلك يتغير طول النهار والليل في السنة، وهذا التغير يكون مصحوباً بالفصول الأربعة في السنة مع كل البركات التي تكون مختصة في هذه الفصول لبني الإنسان.

وتفسير آخر لهذه الآية هو: إن شروق وغروب الشمس لن يحدثا فجأة ودون مقدمات، بل يتم هذا التغيير بصورة تدريجية حتى يتهيأ الجميع لذلك.

ويضيف سبحانه في النهاية: «وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

فكما أن أشعة الشمس الباعثة للحياة تنفذ في أعماق ظلمات الليل، وتضيء كل مكان، فإن الله عز وجل ينفذ كذلك في كل زوايا قلب وروح الإنسان، ويطلع على كل أسراره.

آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لِمَا تُمْنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِمَأْتُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَيَّ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَنْ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ أُولَئِكَ أَكْبَرُ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنِيَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) الإيمان والإنفاق أساسان للنجاة: بعد البيان الذي تقدم حول دلائل عظمة الله في عالم الوجود وأوصاف جماله وجلاله، تلك الصفات المحفزة للحركة باتجاه الله تعالى، تنتقل الآن إلى جو هذه الآيات المفعم بالدعوة للإيمان والعمل ...

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩٤

يقول سبحانه في البداية: «آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ».

إن هذه الدعوة دعوة عامة لجميع البشر، فهي تدعو المؤمنين إلى إيمان أكمل وأرسخ، وتدعو - أيضاً - غير المؤمنين إلى التصديق والإيمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله، وهذه الدعوة إلى الإيمان جاءت توأمًا مع أدلة التوحيد التي تناولتها الآيات التوحيدية السابقة.

ثم يدعو إلى أحد الالتزامات المهمة للإيمان وهي: (الإنفاق في سبيل الله) حيث يقول تعالى: «وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ».

إن للإنفاق مفهوماً واسعاً ولا ينحصر بالمال فقط، بل يشمل - أيضاً - العلم والهداية والسمعة الاجتماعية ورؤوس الأموال المعنوية والمادية.

ثم يقول تعالى في الحث على الإنفاق: «فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ».

إن وصف الأجر بأنه «كبير» إشارة إلى عظمة الألفاظ الإلهية والهبات الإلهية، وأبديتها وخلوصها ودوامها ليس في الآخرة فحسب، بل في عالم الدنيا أيضاً حيث إنّ قسماً من الأجر سوف يكون من نصيب الإنسان في الدنيا.

وبعد الأمر بالإيمان والإنفاق يعطى بياناً لكل منهما، وهو بمثابة الاستدلال والبرهان، وذلك بصورة استفهام تويخي ابتداءً، حيث يستفسر عن علة عدم قبول دعوة الرسول صلى الله عليه وآله حول الإيمان بالله فيقول سبحانه: «وَمَا لَكُمْ لِمَأْتُوا بِرَسُولِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِمَأْتُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

يعنى أنكم إذا كنتم مستعدين حقيقته وصدقاً لقبول الحق، فإن دلائله واضحة عن طريق الفطرة والعقل، وكذلك عن طريق النقل. وجاءت الآية اللاحقة لتأكيد وتوضيح نفس هذا المعنى حيث تقول: «هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ».

إن كلمة (رؤوف) جاءت هنا إشارة إلى محبته ولطفه الخاص بالنسبة إلى المطيعين، في حين أن كلمة (رحيم) إشارة إلى رحمته بخصوص العصيين.

ثم يأتي استدلال آخر على ضرورة الإنفاق حيث يقول تعالى: «وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». أى أنكم سترحلون عن هذه الدنيا وتركون كل ما منحكم الله فيها، وتذهبون إلى عالم آخر، فلماذا لا تستفيدون من هذه الأموال التي جعلها الله تحت تصرفكم بتنفيذ أمره بالإنفاق.

ولأنّ للإنفاق قيمةً مختلفة وأحوالاً متفاوتة الشرائط والظروف، يضيف يوم تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يوم يقولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهِمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩٥

سبحانه: «لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلٌ». أى أن الذين بذلوا المال والنفس في الظروف الحرجة مفضّلون على الذين ساعدوا الإسلام بعد سكون الموج وهدوء العاصفة. لذلك وللتأكيد أكثر يضيف تعالى: «أُولَٰئِكَ أَكْبَرُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا».

وبما أن القسمين (الإنفاق والجهاد) مشمولان بعناية الحق تعالى مع اختلاف الدرجة، فيضيف في النهاية: «وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ». وهذا تقدير لعموم الأشخاص الذين ساهموا في هذا الطريق.

وكلمة (حسنى) لها مفهوم واسع، حيث تشمل كل ثواب وجزاء وخير في الدنيا والآخرة. ولكون قيمة العمل بإخلاصه لله سبحانه فيضيف في نهاية الآية: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

نعم، إنه يعلم بكيفية وكمية أعمالكم. وكذلك تياتكم ومقدار خلوصكم، ولغرض الحث على ضرورة الإنفاق في سبيل الله، ومن خلال تعبير رائع يؤكد سبحانه ذلك في الآية مورد البحث بقوله: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا». فينفق مما آتاه الله في سبيل الله «فِيضَاعَفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ».

والمراد من الإقراض لله تعالى هو كل إنفاق في سبيله، وأحد مصاديقه المهمة الدعم الذي يقدم للرسول صلى الله عليه وآله وأئمة المسلمين من بعده، كى يستعمل في الموارد اللازمة لإدارة الحكومة الإسلامية. لذا نقل في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْأَلْ خَلْقَهُ مِمَّا فِي أَيْدِيهِمْ قَرْضًا مِنْ حَاجَةٍ بِهِ إِلَىٰ ذَلِكِ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ مِنْ حَقِّ فَإِنَّمَا هُوَ لَوْلِيهِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩٦

لقد بشر الله المنفقين في آخر آية من الآيات السابقة بالأجر الكريم، واستمراراً للبحث فالآيات أعلاه تتحدث عن هذا الأجر، وتبين مدى قيمته وعظمته في اليوم الآخر. يقول سبحانه: «يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ».

والمقصود من النور- في الواقع- تجسيم نور الإيمان، لأنّ في ذلك اليوم تتجسد أعمال البشر، فيتجسد الإيمان الذي هو نور هدايتهم بصورة نور ظاهري، ويتجسد الكفر الذي هو الظلام المطلق بصورة ظلمة ظاهريّة.

وهنا يصدر هذا النداء الملائكى باحترام للمؤمنين: «بُشْرِيَكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

أما المنافقون الذين سلكوا طريق الظلام والكفر والذنوب والمعصية، فإن صراخهم يعلو في مثل تلك الساعة ويلتمسون من المؤمنين شيئاً من النور، لكنهم يواجهون بالردّ والنفي، كما في قوله تعالى: «يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ».

ويأتى الجواب على طلبهم بقوله تعالى: «قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا».

كان من الممكن أن تحصلوا على النور من الدنيا التي تركتموها وراءكم، وذلك بإيمانكم وأعمالكم الصالحة، إلا أن الوقت انتهى، وفاتت الفرصة عليكم ولا أمل هنا في حصولكم على النور.

«فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ». وهذا الباب أو هذا الجدار من نوع خاص وأمره فريد، حيث إن كلاً من طرفيه مختلف عن الآخر تماماً، حيث: «بِاطْنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ».

ويمكن أن يكون هذا الباب من أجل أن يرى المنافقون من خلاله نعم الجنة ويتحسرون عليها، أو أن من كان قليل التلوث بالذنوب وقد نال جزاءه من العذاب بإمكانه أن يدخل منها ويكون مع المؤمنين في نعيمهم.

غير أن هذا الحائط ليس من النوع الذى يمنع عبور الصوت حيث يضيف سبحانه: أن المنافقين «يَنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ». لقد كنا نعيش معكم فى هذه الدنيا فما الذى حدث وإنفصلتم عنا وذهبتم إلى الروح والرحمة الإلهية وتركتونا فى قبضة العذاب؟

«قَالُوا بَلَىٰ . كُنَّا مَعَكُمْ فِى أَمَاكِن كَثِيرَةٍ فِى الْأَرْزَاقِ وَالْأَسْوَاقِ، فِى السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَكُنَّا

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩٧

أحياناً جيراناً أو فى بيت واحد ... نعم كنا معاً، إلا أن اختلافاتنا فى العقيدة والعمل كانت هى الفواصل بيننا، لقد كنتم تسيرون فى خطّ منفصل عن خطنا وكنتم غرباء عن الله فى الاصول والفروع، لذا فأنتم بعيدون عنا، ثم يضيفون: لقد إبتليتكم بخطايا وذنوب كثيرة من جملةها:

١- «وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ» وخذتموها بسلوك طريق الكفر والضلال.

٢- «وَتَرَبَّصْتُمْ» وانتظرتم موت النبى وهلاك المسلمين وإنهدام أساس الإسلام، بالإضافة إلى التهزّب من إنجاز كل عمل إيجابى وكل حركة صحيحة، حيث تتعللون وتماطلون وتسوفون إنجازها.

٣- «وَارْتَبْتُمْ» فى المعاد وحقانية دعوة النبى والقرآن ..

٤- وخذتكم الآمال «وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِيَّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ».

هذه الأمانى لم تعطكم مجالاً- حتى لحظة واحدة- للتفكير الصحيح، لقد كنتم مغمورين فى تصوراتكم وتعيشون فى عالم الوهم والخيال، واستولت عليكم امنية الوصول إلى الشهوات والأهداف المادية.

٥- «وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْعِزُّورِ». إن الشيطان عزكم بوساوسه فى مقابل وعد الله عز وجل، فتارةً صوّر لكم الدنيا خالدة باقية واخرى صوّر لكم القيامة بعيدة الوقوع، وفى بعض الأحيان عزكم بلطف الله والرحمة الإلهية، وأحياناً جعلكم تشكّون فى أصل وجود الله العظيم الخالق.

وأخيراً فإن المؤمنين- بلحاظ ما تقدّم- يخاطبون المنافقين بقولهم: «فَالْيَوْمَ لَأَيُّوْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةً وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا». وبهذا الترتيب يواجه المنافقون نفس مصير الكفار أيضاً، وكلهم رهينة ذنوبهم وأعمالهم القبيحة، ولا يوجد لهم أى طريق للخلاص.

ثم يضيف سبحانه: «مَأْوِيَكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلِكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

الإنسان- عادةً- لكى ينجو من العقوبة المتوقعة فى الدنيا، يتوسل للخلاص منها إما بالغرامة المالية أو طلب العون والمساعدة من قوّة شفيعة، إلا أنه فى يوم القيامة تنقطع كل الأسباب والوسائل المادية المتعارف عليها فى هذا العالم للوصول إلى المقاصد المرجوة.

وبهذه الصورة يوضّح القرآن الكريم أنّ الوسيلة الوحيدة للنجاة فى ذلك اليوم هى الإيمان والعمل الصالح فى الدنيا، حتى أنّ دائرة

الشفاعة محدودة للأشخاص الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً وليسوا من الغرباء مطلقاً عن الإيمان والذين قطعوا إرتباطهم بصورة كلية من الله وأوليائه وعصوا أوامرهم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩٨

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْمَوتُوتَ بَعْدَ مَوْتِهِمَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُؤَدِّقِينَ وَالْمُؤَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: إن الآية الأولى نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة، وذلك أنهم سألو سلمان الفارسي ذات يوم فقالوا: حدثنا عما في التوراة، فإن فيها العجائب. فنزلت «الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ» إلى قوله «لَمِنَ الْغَافِلِينَ» (١) فخبّرهم أن القرآن أحسن القصص وأنفع لهم من غيره، فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله. ثم عادوا فسألوا سلمان عن مثل ذلك، فنزلت آية «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا» (٢) فكفوا عن سؤال سلمان ما شاء الله. ثم عادوا فسألوا سلمان، فنزلت هذه الآية.

التفسير

إلى متى هذه الغفلة: بعد ما وجهت الآيات السابقة مجموعة من الإنذارات الصارمة والتنبهات الموقظة، وبيّنت المصير المؤلم للكفار والمنافقين في يوم القيامة، جاءت الآية الأولى مورد البحث بشكل استخلاص نتيجة كلية من ذلك، فتقول: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ» (٣).

«تخشع»: من مادة «خشوع» بمعنى حالة التواضع مقترنة بالأدب الجسمي والروحي، حيث تنتاب الإنسان هذه الحالة - عادةً - مقابل حقيقة مهمّة أو شخصية كبيرة.

(١) سورة يوسف / ١-٣.

(٢) سورة الزمر / ٢٣.

(٣) «يأن»: من مادة «إن»، على وزن (ندا) ومن مادة «أنا» على وزن جفاء بمعنى الإقتراب وحضور وقت الشيء.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٩٩

ومن الواضح أن ذكر الله عز وجل إذا دخل أعماق روح الإنسان، وسمع الآيات القرآنية بتدبر فإنها تكون سبباً للخشوع، والقرآن الكريم هنا يلوم بشدة قسماً من المؤمنين لعدم خشوعهم أمام هذه الامور، لأنه قد إبتلى كثير من الامم السابقة بمثل هذا من الغفلة والجهل.

وهذه الغفلة تؤدى إلى قساوة القلب وبالتالي إلى الفسق والعصيان.

إِنَّ آيَةَ: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ...» من الآيات المثيرة في القرآن الكريم، حيث تلين القلب، وترطب الروح وتمزق حجب الغفلة. لذلك نلاحظ بصورة مستمرة أن أفراداً مدنيين جداً قد هداهم الله إلى طاعته بعد سماعهم هذه الآية التي وقعت في نفوسهم كالصاعقة، وأيقظتهم من سباتهم وغفلتهم التي كانوا فيها، ولهذا شواهد عديدة حيث تنقل لنا كتب التاريخ العديد منها، حتى أن البعض منهم أصبح في صفّ الزهاد والعباد. مختصر الامثل ج ٥ ١١٩

ولأبد إحياء القلوب الميتة لا- يكون إلا بالذكر الإلهي، الحياة الروحية التي لن تكون إلا بظل الخشوع والخضوع وخاصة في أجواء القرآن الكريم ... لذا فإن القرآن يشبه عملية إحياء القلوب الميتة بإحياء الأراضي الميتة، فكما أن هذه تحيا ببركة نزول الأمطار

كذلك فإن القلوب تحيا بذكر الله سبحانه ... حيث يضيف سبحانه في الآية اللاحقة: «اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون».

هذه الآية تشير إلى إحياء الأراضي بوسيلة المطر، كذلك فإن إحياء القلوب الميتة يكون بواسطة ذكر الله وقراءة القرآن المجيد الذي نزل من سماء الوحي على القلب الطاهر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وكلاهما جديران بالتدبر والتعقل.

ويرجع مرة أخرى في الآية اللاحقة إلى مسألة الإنفاق، والتي هي إحدى ثمار شجرة الإيمان والخشوع، حيث يتكرر نفس التعبير الذي قرأناه في الآيات السابقة مع إضافته، حيث يقول تعالى: «إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ».

إن المقصود من القرض الحسن لله في هذه الآيات والآيات المشابهة هو الإنفاق في سبيل الله، بالرغم من أن القرض لعباد الله هو من أفضل الأعمال أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠٠

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور (٢٠) استمراراً للبحث الذي تناولته الآيات السابقة في بيان حال المؤمنين وأجرهم عند الله تعالى، تضيف الآيات التالية بهذا الصدد قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ».

«الصادق»: صيغته مبالغة من «الصدق» بمعنى الشخص الذي يستوعب الصدق جميع وجوده، حيث يصدق عمله قوله، وهو النموذج التام للصدق.

«شهداء»: جمع «شهيد» بمعنى الحضور مع المشاهدة. إلا أن المراد من (الشهداء) في الآية مورد البحث قد يكون الشهادة على الأعمال، كما يستفاد من الآيات القرآنية الأخرى، فالأنبياء شهداء على أعمالهم، ورسول الإسلام شاهد عليهم وعلى الأمة الإسلامية، والمسلمون أيضاً شهداء على أعمال الناس.

واحتمل البعض أن (شهداء) هنا هو الشهداء في سبيل الله، أي الأشخاص المؤمنون الذين لهم أجر وثواب الشهادة، يحسبون بمنزلة الشهداء.

ثم يضيف تعالى: «لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ».

إن هذا التعبير المختصر يشير إلى عظيم الأجر والنور الذي ينتظرهم.

وفي النهاية يضيف تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ».

وذلك كي تتوضح بهذه المقارنة والنتيجة التي آلت إليها المجموعتان، والتي تتدرج بين القمية والقاع، حيث إن القسم الأول في المقام العالي من دار الخلد، والقسم الثاني في الدرك الأسفل من النار يندبون سوء حظهم وإنحطاط مصيرهم.

وبما أن المجموعة الأولى كانت في أعلى مستويات الإيمان، ففي المقابل أيضاً ذكرت الآية

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠١

أيضاً الكفر بأسوأ صورته في الجماعة الثانية المقارن للتكذيب بآيات الله.

ولأن حب الدنيا مصدر كل رذيلة، ورأس كل خطيئة، فالآية اللاحقة ترسم بوضوح وضع الحياة الدنيا والمراحل المختلفة والمحفات والظروف والأجواء التي تحكم كل مرحلة من هذه المراحل، حيث يقول سبحانه: «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد».

وبهذه الصورة فإن «الغفلة» و «اللهو» و «الزينة» و «التفاخر» و «التكاثر» تشكل المراحل الخمس لعمر الإنسان.

ويذكر سبحانه مثلاً لبداية ونهاية الحياة ويجسد الدنيا أمام أعين الناس بهذه الصورة حيث يقول سبحانه: «كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرِيَهُ مُضْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا» (١).

«كفار» هنا ليس بمعنى الأشخاص غير المؤمنين، ولكن بمعنى «الزراع» لأن أصل الكفر هو التغطية، وبما أن الزارع عندما ينثر البذور يغطيها بالتراب، فقد قيل له كافر.

«حطام»: من مادة «حطم» بمعنى التكسير والتفتيت، ويطلق على الأجزاء المتناثرة للتبن (حطام) وهي التي تأخذها الرياح باتجاهات مختلفة.

إن المراحل التي يمر بها الإنسان مدة سبعين سنة أو أكثر تظهر في النبات بعدة أشهر، ويستطيع الإنسان أن يسكن بجوار المزرعة ويراقب بداية ونهاية العمر في وقت قصير.

ثم يتطرق القرآن الكريم إلى حصيلة العمر ونتيجته النهائية حيث يقول سبحانه: «وَفِي الْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ».

وأخيراً تنهى الآية حديثها بهذه الجملة: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ».

«غور»: في الأصل من مادة «غَرَّ» بمعنى الأثر الظاهر للشيء، ويقال (غَرَّه) للأثر الظاهر في جبهة الحصان، ثم اطلقت الكلمة على حالة الغفلة، حيث إن ظاهر الإنسان واعٍ، ولكنه غافل في الحقيقة، وتستعمل أيضاً بمعنى الخدعة والحيلة.

«المتاع»: بمعنى كل نوع ووسيلة يستفاد منها، وبناءً على هذا فإن جملة (الدنيا متاع الغرور) كما جاءت في قوله تعالى: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ». تعنى أنها وسيلة

(١) «يهيح»: من مادة «هيحان» جاءت هنا بمعنيين الأول: جفاف النبات، والآخر: التحرك والحيوية، وقد يرجع هذان المعنيان إلى أصل واحد، لأن النبات عند جفافه يكون مهياً للإندثار والانتشار بحركة الرياح.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠٢

وأداة للحيلة والخدعة للفرد وللآخرين. وطبيعي أن هذا المعنى وارد في الأشخاص الذين يعتبرون الدنيا هدفهم النهائي، وتكون منتهى غاياتهم، ولكن إذا كانت الهبات المادية في هذا العالم وسيلة للوصول للإنسان للسعادة الأبدية، فذلك لا يعد من الدنيا، بل ستكون جسراً وقنطرة ومزرعة للآخرة التي ستتحقق فيها تلك الأهداف الكبيرة حقاً.

سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ

(٢٢) لِكَيْلِمَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَخْلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ مَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) المسابقة المعنوية الكبرى: بعد ما بينت الآيات السابقة قيمة هذه الدنيا المتواضعة الفانية،

وكيف أن الناس فيها منهمكون في اللذات والتكاثر والتفاخر وجمع الأموال ... تأتي الآيات مورد البحث لتدعو الناس إلى العمل للحصول على موقع في الدار الآخرة، ذلك الموقع المتسم بالثبات والبقاء والخلود، وتدعوهم إلى السباق في هذا المجال وبذل الجهد

فيه، حيث يقول سبحانه: «سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ».

وفي الحقيقة أن مغفرة الله هي مفتاح الجنة، تلك الجنة التي عرضها السماوات والأرض وقد أعدت من الآن لضيفة المؤمنين، حتى لا يقول أحد إن الجنة نسيته ودين ولا أمل في النسيته.

ومِمَّا ينبغي ملاحظته أن المسارعة لمغفرة الله لا بد أن تكون عن طريق أسبابها كالتوبة والتعويض عن الطاعات الفائتة، وأساساً فإن طاعة الله عز وجل يعنى تجنب المعاصي.

ويضيف تعالى في نهاية الآية: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠٣

ومن المؤكد أن جنة بذلك الإتساع وبهذه النعم، ليس من السهل للإنسان أن يصل إليها بأعماله المحدودة، لذا فإنَّ الفضل واللفظ والرحمة الإلهية - فقط - هي التي تستطيع أن تمنحه ذلك الجزاء العظيم في مقابل السير من أعماله، إذ إنَّ الجزاء الإلهي لا يكون دائماً بمقياس العمل، بل إنه بمقياس الكرم الإلهي.

ولمزيد من التأكيد على عدم التعلق بالدنيا، وعدم الفرح والغرور عند إقبالها، أو الحزن عند إدارها، يضيف سبحانه: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ».

إنَّ المصائب التي تحدث في الطبيعة كالزلازل والسيول والفيضانات والآفات المختلفة، وكذلك المصائب التي تقع على البشر كالموت وأنواع الحوادث المؤلمة التي تشمل الإنسان، فإنَّها مقدرة من قبل ومسجلة في لوح محفوظ.

والجدير بالانتباه أنَّ المصائب المشار إليها في الآية هي المصائب التي لا يمكن التخلص منها، وتكون مقدرة وحتمية وغير قابلة للإجتنا، وليست ناتجة عن أعمال الإنسان. وإلا فإنَّ المصائب والمصاعب التي تكون بسبب ذنوب الإنسان وتسامحه في الطاعات والالتزامات الإلهية، فإنَّ لمواجهتها لابد من وضع برنامج صحيح في حياة الإنسان.

والمقصود من «اللوح المحفوظ» هو: العلم اللا-متناهي لله سبحانه، أو صحيفة عالم الخلق ونظام العلة والمعلول، والتي هي مصداق العلم الفعلي لله سبحانه.

ولنلاحظ الآن ما هي فلسفة تقدير المصائب في اللوح المحفوظ، ومن ثم بيان هذه الحقيقة في القرآن الكريم؟

الآية اللاحقة تزيح هذا الحجاب عن هذا السر المهم حيث يقول تعالى: «لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ».

هاتان الجملتان تحلان - في الحقيقة - إحدى المسائل المعقدة لفلسفة الخلق، لأنَّ الإنسان يواجه دائماً مشاكل وصعوبات وحوادث

مؤسفة في عالم الوجود، ويسأل دائماً نفسه هذا السؤال وهو: رغم أنَّ الله رحيم وكريم ..، فلماذا هذه الحوادث المؤلمة؟!

ويجب سبحانه أن هدف ذلك هو: ألا تأسركم مغريات هذه الدنيا وتنشّدوا إليها وتغفلوا عن أمر الآخرة ... كما ورد في الآية أعلاه.

هذه المصائب هي إنذار للغافلين وسوط على الأرواح التي تعيش الغفلة والسبات، ودلالة على قصر عمر الدنيا وعدم خلودها وبقائها.

إنَّ هذه المصائب تكسر حدة الغرور والتفاخر وحيث يقول سبحانه في نهاية الآية:

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠٤

«وَاللَّهُ لَمَائِحِبٌ كُلِّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ». «مختال»: من مادة «خيال» بمعنى متكبر، لأنَّ التكبر من التخييل، أي من تخيل الإنسان الفضل لنفسه،

وتصوره أنه أعلى من الآخرين؛ و «فخور»: صيغة مبالغة من مادة «فخر» بمعنى الشخص الذي يفتخر كثيراً على الآخرين.

والشخص الوحيد الذي يبتلى بهذه الحالات هو المغرور الذي أسكرته النعم، وهذه المصائب والآفات بإمكانها أن توقظه عن هذا السكر والغفلة وتهديه إلى سير التكامل.

ومن ملاحظة ما تقدم أعلاه فإنَّ المؤمنين عندما يرزقون النعم من قبل الله سبحانه فإنَّهم يعتبرون أنفسهم مؤتمنين عليها، ولا يأسفون على فقدانها وفواتها، ولا يغفلون ويسكرون بوجودها.

وفي آخر آية مورد البحث نلاحظ توضيحاً وتفسيراً لما جاء في الآيات السابقة، والذي يوضح حقيقة الإنسان المختال الفخور حيث يقول عنه تعالى: «الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ».

نعم، إنَّ الإنشداد العميق لزخارف الدنيا ينتج التكبر والغرور، ولازم التكبر والغرور هو البخل ودعوة الآخرين للبخل، أما البخل فلأنَّ التكبر والغرور كثيراً ما يكون بسبب ثراء الإنسان الذي يدفعه إلى أن يحرص عليه، وبالتالي يبخل في إنفاقه، ومن هنا فإنَّ لازمة الغرور والتكبر هو البخل.

أما دعوة الآخرين إلى البخل، فلأن سخاء الآخرين سيفضح غيرهم من البخلاء، هذا أولاً، والثاني أن البخل يحب البخل، لذا فإنه يدعو للشىء الذى يرغب فيه.

ولكى لا يتصور أن تأكيد الله سبحانه على الإنفاق وترك البخل، أو كما عبرت عنه الآيات السابقة ب (القرض لله) مصدره إحتياج ذاته المقدسه، فإنه يقول فى نهاية الآية:

«وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ».

بل نحن كلنا محتاجون إليه وهو الغنى عننا جميعاً، لأن جميع خزائن الوجود عنده وتحت قبضته، ولأنه جامع لصفات الكمال فإنه يستحق كل شكر وثناء.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠٥

الهدف الأساس من بعثه الأنبياء: ابتداء الله سبحانه وتعالى عباده بالنعم فكانت رحمته ولطفه ومغفرته، ونعمه الكثيره التى لا تحصى والتى اشير إليها فى الآيات السابقة... ولأن هذه النعم تحتاج إلى تقنين فى استعمالها، ونظم وشرائط لنيل نتائجها المرجوة، لذا فإنه يحتاج إلى قيادة تقوم بمباشرتها والإشراف عليها وإعطاء التوجيهات الإلهية بشأنها، وهؤلاء القادة يجب أن يكونوا (قادة إلهيين) والآية مورد البحث- التى تعتبر من أكثر الآيات القرآنية محتوى- تشير إلى هذا المعنى، وتبين هدف إرسال الأنبياء ومناهجهم بصورة دقيقة، حيث يقول سبحانه: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ».

وبهذه الصورة فإن الأنبياء كانوا مسلحين بثلاث وسائل وهى: «الدلائل الواضحة»، و «الكتب السماوية»، و «معيار قياس الحق من الباطل» والجيد من الردىء. ولا يوجد مانع من أن يكون القرآن (بينة) أى معجزة، وهو كذلك كتاب سماوى ومبين للأحكام والقوانين، أى أن الأبعاد الثلاثة تصب فى محتوى واحد وهى موجودة فى القرآن الكريم.

وعلى كل حال، فإن الهدف من تعبته هؤلاء الرجال العظام بهذه الأسلحة الأساسية، هو إقامة القسط والعدل. وأن هذه الآية تشير إلى أحد الأهداف العديدة لارسال الرسل.

ثم إن أى مجتمع إنسانى مهما كان مستواه الأخلاقى والاجتماعى والعقائدى والروحى عالياً، فإن ذلك لا يمنع من وجود أشخاص يسلكون طريق العتو والطغيان، ويقفون فى طريق القسط والعدل، واستمراراً لمنهج الآية هذه يقول سبحانه: «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ».

إن هذه الأسلحة الثلاثة التى وضعت تحت تصرف الأنبياء هى بهدف أن تكون الأفكار والمفاهيم التى جاء بها الأنبياء فاعله ومؤثره، وتحقق أهدافها المنشودة، فقد وضع الحديد والبأس الشديد فى خدمه رسل الله.

إن تعبير (أنزلنا) إشارة إلى الهبات التى تعطى من المقام الأعلى إلى المستوى الأدنى، وهنا حديث لأمير المؤمنين عليه السلام فى تفسيره لهذا القسم من الآية حيث قال: «فإنزله ذلك: خلقه إياه» (١).

(١) الاحتجاج، الشيخ الطبرسى ١ / ٣٧٢.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠٦

ثم يشير سبحانه إلى هدف آخر من أهداف ارسال الأنبياء وإنزال الكتب السماوية، وخلقهم وتسخيرهم الوسائل المفيدة للإنسان كالحديد مثلاً، حيث يقول تعالى: «وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ».

المقصود من (علم الله) هنا هو التحقق العينى ليتوضح من هم الأشخاص الذين يقومون بنصره الله ومبدئه، ويقومون بالقسط، ومن هم

الأشخاص الذين يتخلّفون عن القيام بهذه المسؤولية العظيمة.

ومفهوم هذه الآية يشبه ما ورد في الآية (١٧٩) من سورة آل عمران: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ».

وبهذه الصورة نلاحظ أنّ المسألة هنا مسألة إختبار وتمحيص واستخراج الصفوة التي استجابت لمسؤوليتها والقيام بواجبها الإلهي، وهذا هو هدف آخر من الأهداف الأساسية في هذا البرنامج.

ومن الطبيعي أنّ المقصود ب (نصرة الله) أنّها نصره الدين والمبدأ والحاملين وحي الرسالة، وإقامة الحق والقسط ... وإلا فإنّ الله ليس بحاجة إلى نصره أحد، بل الكل محتاج إليه.

ولتأكيد هذا المعنى تنتهي الآية بقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ».

حيث بإمكانه سبحانه أن يغيّر ما يشاء من العالم، بل يقلبه رأساً على عقب بإشارة واحدة، ويهلك أعداءه، وينصر أوليائه ... وبما أنّ الهدف الأساس له سبحانه هو التريّة وتكامل البشر، لذا فقد دعاهم عزّ وجل إلى نصره مبدأ الحق.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُؤْسِنَا وَ قَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) تعاقب الرسل واحداً بعد الآخر: للقرآن الكريم منهجه المتميز، ومن خصوصياته أنّه

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠٧

بعد بيان سلسلة من الاصول العامة يشير ويذكر بمصير الأرقام السابقة، لكي يكون ذلك شاهداً وحجّة.

وهنا أيضاً يتجسّد هذا المنهج، حيث يشير في المقدمة إلى ارسال الرسل مع البينات والكتاب والميزان والدعوة إلى الإيمان بالحق، لنيل مرضاته سبحانه والفوز بالسعادة الأبدية ... ثم يتحدث عن بعض الامم السابقة وأنبيائهم ويعكس هذه الاسس في منهج دعوتهم. ويبدأ بشيوخ الأنبياء وبداية سلسلة رسل الحق، نوح وإبراهيم عليهما السلام، حيث يقول سبحانه: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ».

ومما يؤسف له أنّ الكثيرين لم يستفيدوا من هذا الميراث العظيم، والنعم الإلهية الفياضة، والهبات والألطف العميّة، حيث يقول عزّ وجل: «فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ».

نعم، لقد بدأت النبوة بنوح عليه السلام توأماً مع الشريعة والمبدأ، ومن ثم إبراهيم عليه السلام من الأنبياء اولى العزم في إمتداد خطّ الرسالة.

ثم يشير إلى قسم آخر من سلسلة الأنبياء الكرام التي تختتم بعيسى عليه السلام آخر رسول قبل نبينا محمّد صلى الله عليه وآله حيث يقول سبحانه: «ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُؤْسِنَا».

حيث حملوا نور الهداية للناس ليضيئوا لهم الطريق، وتعاقبوا في حملها الواحد بعد الآخر، حتى وصل الدور إلى السيد المسيح: «وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ».

ثم يشير هنا إلى الكتاب السماوي للسيد المسيح عليه السلام حيث يقول: «وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ».

ويستمرّ متحدّثاً عن خصوصيات أتباعه فيقول سبحانه: «وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً».

وفي تفاوت مصطلحي «الرأفة» و «الرحمة» قالوا: إنّ «الرأفة» تعني الرغبة في دفع الضرر، و «الرحمة» تعني الرغبة في جلب المنفعة. ولهذا تذكر الرأفة قبل الرحمة غالباً، لأنّ قصد الإنسان ابتداءً هو دفع الضرر ومن ثم يفكر في جلب المنفعة.

ثم يضيف سبحانه: «وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ

وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ» (١).

(١) إنَّ الرهبانية أخذت من «الرهبنة» التي جاءت بمعنى الخوف من الله.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠٨

إنَّ الاستفادة من الآية أعلاه إجمالاً هو أنَّ الرهبانية لم تكن في شريعة السيد المسيح عليه السلام، وأنَّ أصحابه ابتدعوها من بعده، وكان ينظر إليها في البداية على أنَّها نوع من أنواع الزهد والإبداعات الخيرة لكثير من السنن الحسنة التي تشيع بين الناس. ولا تتخذ عنوان التشريع أو الدستور الشرعي، إلما أنَّ هذه السنَّة تعرّضت إلى الانحراف - فيما بعد - وتحريف التعاليم الإلهية، بل إقترنت بممارسات قبيحة على مرّ الزمن.

ومن جملة الممارسات القبيحة للمسيحيين في مجال الرهبانية تحريم الزواج للنساء والرجال بالنسبة لمن يتفرغ (للرهبنة) والإنزواء الاجتماعي، وإهمال كآفة المسؤوليات الإنسانية في المجتمع، والركون إلى الصوامع والأديرة البعيدة، والعيش في محيط منزوٍ عن المجتمع ... بالإضافة إلى جملة من المفاصد التي حصلت في الأديرة ومراكز الرهبان.

وفي أمالي الصدوق رحمه الله عن أنس بن مالك، قال: توفي ابن لعثمان بن مظعون، فاشتد حزنه عليه حتى اتخذ من داره مسجداً يتعبد فيه، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له: «يا عثمان، إنَّ الله تبارك وتعالى لم يكتب علينا الرهبانية، إنَّما رهبانية امتي الجهاد في سبيل الله».

إنَّ الإسلام ندّد للرهبانية بشدّة، حتى أنَّ الكثير من المصادر الإسلامية أوردت الحديث المعروف: «لا رهبانية في الإسلام». يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَعْفُوْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) لِنَّا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) سبب التّزول

في تفسير مجمع البيان: قال سعيد بن جبيرة: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله جعفرًا في سبعين راكبًا إلى النجاشي، يدعوه. فقدم عليه ودعاه، فاستجاب له وآمن به. فلما كان عند إنصرافه، قال ناس ممن آمن به من أهل مملكته، وهم أربعون رجلًا: ائذن لنا فئاتي هذا النبي فنسلم به.

فقدموا مع جعفر. فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة، استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وآله، وقالوا: يا

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٠٩

نبي الله! إنَّ لنا أموالًا ونحن نرى ما بالمسلمين من الخصاصة، فإن أذنت لنا انصرفنا فجننا بأموالنا فواسينا المسلمين بها. فأذن لهم فانصرفوا. فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين.

فأنزل الله تعالى فيهم: «الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ» إلى قوله «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» (١) فكانت النفقة التي واسوا بها المسلمين. فلما سمع أهل الكتاب ممن لم يؤمن به قوله: «أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا» فخرخوا على المسلمين، فقالوا: يا معشر المسلمين! أميا من آمن بكتابكم وكتابنا فله أجران، ومن آمن منا بكتابنا، فله أجر كاجوركم، فما فضلكم علينا؟ فنزل قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ» الآية، فجعل لهم أجرين، وزادهم النور والمغفرة.

التفسير

الذين لهم سهمان من الرحمة الإلهية: بما أنَّ الحديث في الآيات السابقة كان عن أهل الكتاب والمسيحيين، فإنَّ الآيات مورد البحث مكتملة لما جاء في الآيات السابقة. يقول سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ».

إنَّ المخاطب في هذه الآية هم جميع المؤمنين الذين قبلوا - بالظاهر - دعوة الرسول صلى الله عليه وآله ولكنهم لم يؤمنوا بها الإيمان

الراسخ الذي يضيء أعماق النفوس ويتجسد في أعمالهم وممارساتهم.

وتكمله للآية الكريمة يشير القرآن الكريم إلى ثلاث نعم عظيمة تحصل في ظل الإيمان العميق والتقوى، حيث يقول تعالى: «يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

«كفل»: على وزن (طفل) بمعنى الحصة التي توفر للإنسان حاجته، ويقال للضامن «كفيل» أيضاً بهذا اللحاظ، حيث يكفل الطرف المقابل ويضمنه بنفسه.

والمقصود من هاتين الحصتين أو النصيبين هو ما جاء في قوله تعالى: «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً».

وحول القسم الثاني من الجزاء والأجر يقول تعالى: «وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ».

إنّ للآية مفهوماً مطلقاً واسعاً حسب الظاهر ولا يختص بالدنيا فقط ولا بالآخرة فحسب. وبتعبير آخر: فإنّ الإيمان والتقوى هي التي تسبب زوال الحجب عن قلوب

(١) سورة القصص / ٥٢-٥٤.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١٠

المؤمنين، حيث يتبين لهم وجه الحقيقة واضحاً وبدون حجاب، وفي ظل الإيمان والتقوى هذين سيكون للإنسان وعى وبصيرة حرم غير المؤمنين منها، لأنّ أكبر حاجز عن المعرفة وأهم مانع لها هو الحجاب الذي يغطي قلب الإنسان، والذي هو هوى النفس والنزعات الذاتية والأمانى الفارغة، والآمال البعيدة، والوقوع في أسر المادة ومغريات الدنيا، حيث لا تسمح للإنسان أن يرى الحقائق بصورتها الطبيعية، وبالتالي فإنّ الحكم على الأشياء يكون بعيداً في منطق العقل والصواب.

إلّا أنّ استقرار الإيمان والتقوى في القلوب بيد هذه الحجب ويزيل عتمتها وظلامها عن صفحة القلب.

وفي الآية اللاحقة- والتي هي آخر آيات هذه السورة- بيان ودليل لما جاء في الآية الآنفه الذكر حيث يقول تعالى: «لَلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ يُقَدِّرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

إنّه جواب لهؤلاء الكتائبين الذين زعم قسم منهم: أنّ لهم أجراً واحداً كبقية المسلمين حينما رفضوا الإيمان بالرسول صلى الله عليه وآله وأقربا الذين آمنوا بالرسول منهم فلمهم أجران: أجر الإيمان بالرسول السابقين، وأجر الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله، حيث يجيبهم القرآن ويردّ عليهم بأنّ المقصود بالآية هم المسلمون.

فهؤلاء هم الذين لهم أجران، لأنّهم آمنوا جميعاً برسول الله بالإضافة إلى إيمانهم بكل الأنبياء السابقين، أمّا أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا برسول الله فليس لهم أى نصيب أو سهم من الأجر، ذلك ليعلموا أنّ الرحمة الإلهية ليست في اختيارهم حتى يهبوا ما يشاؤون منها وفق مشترياتهم، ويمنعوها عن الآخرين.

«نهاية تفسير سورة الحديد»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١١

٥٨. سورة المجادلة

محتوى السورة: نزلت هذه السورة في المدينة، وانسجماً مع موضوعات السورة المدنية فإنّها تتحدث في الغالب عن الأحكام الفقهية، ونظام الحياة الاجتماعية، والعلاقات بين المسلمين وغيرهم ... ونستطيع أن نلخص أهم أبحاثها في ثلاثة أقسام:

١- يتحدث عن حكم (الظهار) الذي كان يعتبر نوعاً من الطلاق والانفصال الدائم، حيث قومه الإسلام وجعله في الطريق الصحيح.

الثاني: يتحدث عن مجموعة من التعليمات الخاصة بأداب المجالسة، والتي منها:

«التفسح» في المجالس ومنع النجوى.

يتعرض إلى بحث واف ومفصل عن المنافقين، تلك الفئة التي تتظاهر بالإسلام، إلّا أنها تتعاون مع أعدائه، ويحذر المسلمين المؤمنين من الدخول في حزب الشيطان والنفاق، ويدعوهم إلى الحب في الله والبغض في الله والإلتحاق بحزب الله. وقد اشتق اسم هذه السورة (المجادلة) من الآية الأولى فيها.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن ابي بن كعب قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ومن قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله في يوم القيامة».

في ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الحديد والمجادلة في صلاة

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١٢

فريضة أدمنها لم يعدبه الله حين يموت أبدأ، ولا يرى في نفسه ولا في أهله سوءاً أبداً، ولا خصاصة في بدنه».

وحيث إن موضوعات هذه السورة تتناسب مع الجزاء المرتقب من الله تعالى، لذلك فإن الروايات أعلاه توضح لنا الهدف من التلاوة من أجل العمل بمحتوياتها.

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نَسَاهُمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَّ اسْمًا ذَلِكَمُ تَوْعظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصَةَ يَوْمَ شَهْرَيْنِ مُتْتَابِعِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَّ اسْمًا فَمَنْ لَمْ يَسِدْ يَطْعَامَ سِتِّينَ مِشْكِينًا ذَلِكَمُ لُتْمُ اللَّهِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)

سبب النزول

في تفسير علي بن إبراهيم: حدثنا علي بن الحسين قال: حدثنا محمد بن أبي عبد الله عن الحسن بن محبوب عن أبي ولاد عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن امرأة من المسلمات أتت النبي صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله! إن فلاناً زوجي وقد نثرت له بطني وأعنته على دنياه وآخرته، لم ير مني مكروهاً أشكوه إليك. فقال: فيم تشكينه؟ قالت: إنه قال: أنت علي حرام كظهر امي، وقد أخرجني من منزلي فانظر في أمري. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: ما أنزل الله تبارك وتعالى علي كتاباً أفضى فيه بينك وبين زوجك، وأنا أكره أن أكون من المتكلمين، فجعلت تبكي وتشتكي ما بها إلى الله عز وجل وإلى رسول الله صلى الله عليه وآله وانصرفت.

قال: فسمع الله تبارك وتعالى مجادلتها لرسول الله في زوجها وما شكت إليه وأنزل الله في ذلك قرآناً: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ إِلَى قَوْلِهِ «وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١٣

التفسير

الظهار عمل جاهلي قبيح: بالنظر إلى ما قيل في سبب النزول، وكذلك طبيعة الموضوعات التي وردت في السورة، فإن الآيات الأولى منها واضحة في دلالتها حيث يقول سبحانه: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا».

«تجادل»: من المجادلة مأخوذة من مادة «جدل» وتعني في الأصل (قتل الحبل).

ثم يضيف تعالى: «وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا».

«تحاور»: من مادة «حور» بمعنى المراجعة في الحديث أو الفكر.

«إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ». إن الله عالم بكل المسموعات والمرئيات، بدون أن يحتاج إلى حواس نظر أو سماع، لأنه حاضر وناظر في كل

مكان، يرى كل شيء ويسمع كل حديث.

ثم يستعرض تعالى حكم الظهار بجمل مختصرة وحاسمة تقضى بقوة على هذا المفهوم الخرافى حيث يقول سبحانه: «الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نَسَائِهِمْ مِمَّا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا إِلَىٰ وَلَدَنَّهُمْ».

«الام» و «الولد» ليس بالشيء الذى تصنعه الألفاظ، بل إنهما حقيقة واقعية عينيه خارجية لا يمكن أن تكون من خلال اللعب بالألفاظ. ويضيف تعالى مكملاً الآية: «وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا» (١).

وتماشياً مع مفهوم هذه الآية فإن «الظهار» عمل محرّم ومنكر، ومع أنّ التكليف الإلهية لا تشمل الممارسات السابقة، إلّا أنّها ملزمة لحظة نزول الحكم، ولا بدّ عندئذ من ترتيب الأثر، حيث يضيف الله سبحانه هذه الآية: «وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ». وبناءً على هذا فإذا كان المسلم قد ارتكب مثل هذا العمل قبل نزول الآية فلا بأس عليه لأنّ الله سيعفو عنه، وأمّا مسألة الكفارة باقية بقوتها.

إلّا أنّ مثل هذا العمل القبيح (الظهار) لم يكن شيئاً يستطيع الإسلام أن يغضّ النظر عنه، لذلك فقد جعل له كفارة ثقيلة نسبياً كي يمنع من تكراره، وذلك بقوله تعالى: «وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا». ثم يضيف تعالى: «ذَلِكَم تَوْعظونَ بِهِ».

(١) «زور»: فى الأصل بمعنى الإنحناء الموجود على الصدر وجاءت أيضاً بمعنى الانحراف، ولأنّ حدود الكذب والباطل منحرفة عن الحق، فيقال له (زور) كما يطلق على الصنم أيضاً بهذا اللحاظ. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١٤
أى يجب ألّا تتصوروا أنّ مثل هذه الكفارة فى مقابل الظهار، كفارة ثقيلة وغير متناسبة مع الفعل، إنّ المقصود بذلك هو الموعظة والإيقاظ لنفوسكم، والكفارة عامل مهم فى وضع حدّ لمثل هذه الأعمال القبيحة والمحرمه، ومن ثم السيطرة على أنفسكم وأقوالكم. وأساساً فإنّ جميع الكفارات لها جنبه روحية وتربويه، والكفارات الماليه يكون تأثيرها غالباً أكثر من التعزيرات البدنيه. ولأنّ البعض يحاول أن يتهرب من إعطاء الكفارة بأعذار واهيه فى موضوع الظهار، يضيف عزّ وجل أنه يعلم بذلك حيث يقول فى نهايه الآية: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

إنّ عالم بالظهار، وكذلك عالم بالذين يتهربون من الكفارة، وكذلك بتياتكم!

ولكن كفارة تحرير (رقبه) قد لا تيسر لجمع من يرتكب هذا الذنب كما لاحظنا ذلك فى موضوع سبب نزول هذه الآية المباركه. وقد يتعدّر وجود المملوك، ليقوم المكلف بتحرير رقبته حتى مع قدرته الماليه، كما فى عصرنا الحاضر، لهذا كله ولأنّ الإسلام دين عالمى خالد فقد عالج هذه المسأله بحكم آخر يعوّض عن تحرير الرقبه، حيث يقول عزّ وجل: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا».

وهذا اللون من الكفارة له أثر عميق على الإنسان، حيث إنّ الصوم بالإضافة إلى أنّه وسيلة لتنقيه الروح وتهذيب النفس، فإنّ له تأثيراً عميقاً وفاعلاً فى منع تكرّر مثل هذه الأعمال فى المستقبل.

ومن الواضح - كما فى ظاهر الآية - أنّ مدّة الصوم يجب أن تكون ستين يوماً متتابعاً، وكثير من فقهاء أهل السنّه أفتوا طبقاً لظاهر الآية، إلّا أنّه قد ورد فى روايات أئمه أهل البيت عليهم السلام أنّ المكلف إذا صام أيام قلائل حتى ولو يوماً واحداً بعد صوم الشهر الأوّل، فإنّ مصداق التتابع فى الشهرين يتحقق، وهذا الرأى حاكم على ظاهر الآية.

ولأنّ الكثير من الناس غير قادرين على الوفاء بالكفارة الثانيه، وهى صوم الشهرين المتتابعين، فقد ذكر لذلك بديل آخر حيث يقول سبحانه: «فَمَنْ لَمْ يَشْتَطِعْ فَأِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا».

والظاهر من الإطعام أن يعطى غذاء يشبع الشخص فى وجبه طعام، إلّا أنّ الروايات الإسلاميه ذكرت أنّ المقصود بذلك هو (مدّ)

لإطعام كل واحد (والمد يعادل ٧٥٠ غم).

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١٥

ثم يشير تعالى في تكلمة الآية مرّة اخرى إلى الهدف الأساس لمثل هذه الكفارات: «ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ».

نعم إن إزالة الذنوب بوسيلة الكفارات تقوى اسس الإيمان، وتربط الإنسان بالتعاليم الإلهية قولاً وعملاً. وفي نهاية الآية يؤكد سبحانه بصورة قاطعة على الالتزام بأوامره حيث يقول: «وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ». يقال للقوانين الإلهية إنها حدود، وذلك لحرمة تجاوزها. وقد أدان الإسلام للظهار وشرع له حكم الكفارة.

وبناءً على هذا فكلما جعل الرجل على زوجته ظهاراً فإنّ الزوجة تستطيع أن تراجع الحاكم الشرعي وتلزمه، إما أن يطلقها بصورة شرعية، أو يرجعها إلى حالتها الزوجية السابقة، بعد دفعه للكفارة بالصورة التي مرّت بنا سابقاً. إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) اولئك أعداء الله: إذا كانت آخر جملة في الآيات السابقة تحث الجميع بضرورة الالتزام بالحدود الإلهية وعدم تجاوزها، فإنّ الآيات مورد البحث لا تتحدث عن الأشخاص الذين تجاوزوا حدود الله فحسب، بل عن الذين حاربوا الله ورسوله، وتوضّح عاقبتهم ومصيرهم في هذه الدنيا والعالم الآخر كذلك. يقول سبحانه في البداية: «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ».

«يحادون»: من مادة «محادة» بمعنى الحرب المسلّحة والاستفادّة من الحديد وتقال أيضاً

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١٦

للحرب غير المسلّحة؛ و «كبتوا»: من مادة «كبت» بمعنى المنع بذلّه، و (كبتوا) إشارة إلى أنّ الله تعالى يجعل جزاء المحاربين لله ورسوله الذلّة والهوان ويمنعهم من لطفه الشامل. ثم يضيف الباري سبحانه: «وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ».

وبناءً على هذا فقد تمّت الحجة بشكل كامل، ولم يبق عذر، ووجه للمخالفه، ومع ذلك فإن خالفوا، فلا بدّ من أن يجازوا، ليس في هذه الدنيا فحسب، بل في القيامة: «وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ».

فإنّ هذا التهديد الإلهي للأشخاص الذين يقفون بوجه الرسول صلى الله عليه وآله والقرآن الكريم قد تحقّق، حيث واجهوا الذلّة والإنكسار في غزوة بدر وخيبر والخندق وغير ذلك، وأخيراً في فتح مكة حيث كسرت شوكتهم واحبط كيدهم بانتصار الإسلام في كل مكان.

والآية اللاحقة تتحدث عن إستعراض زمان وقوع العذاب الاخرى عليهم حيث يقول عزّ وجل: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا». نعم: «أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ».

وهذا بحد ذاته عذاب مؤلم، لأنّ الله تعالى يذكرهم بذنوبهم المنسيّة ويفضحهم في مشهد الحشر أمام الخلائق.

وفي نهاية الآية يقول الباري سبحانه: «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ».

إنّ حضور الله سبحانه في كل مكان وفي كل زمان وفي الداخل والخارج، يوجب ألا يحصى أعمالنا- فقط- بل نيّاتنا وعقائدنا، وفي ذلك اليوم الكبير الذي هو «يوم البروز» يُعرف كل شيء ولكي يعلم الإنسان السبب في شدة العقاب الإلهي.

ولتأكيد حضور الله سبحانه في كل مكان وعلمه بكل شيء ينتقل الحديث إلى مسألة «النجوى» حيث يقول سبحانه: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ

يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ».

ثم يضيف تعالى: «مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

المقصود من أن «الله» رابعهم أو سادسهم هو أن الله عز وجل موجود حاضر وناظر في كل مكان وعالم بكل شيء، وإلا فإن ذاته المقدسة لا مكان لها، ولا يوصف بالعدد أبداً، ووحدانيته أيضاً ليست وحدةً عدديّة، بل بمعنى أنه لا شبيه له، ولا نظير ولا مثل.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١٧

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْعُدْوَانِ وَتَقُولُوا اللَّهُ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠)

سبب النزول

نقلت روايتان حول سبب نزول الآية الاولى أعلاه، وكل واحدة منهما تخصّ قسماً من الآية الكريمة. تقول الرواية الاولى: قال ابن عباس: نزل قوله «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى الْآيَةَ، في اليهود والمنافقين، إنهم كانوا يتناجون فيما بينهم، دون المؤمنين، وينظرون إلى المؤمنين ويتغامزون بأعينهم فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل، أو مصيبة أو هزيمة. فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم، فلما طال ذلك شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أن لا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم، فنزلت الآية «١».

أما الرواية الثانية فقد نقل في صحيح مسلم والبخاري وكثير من كتب التفسير، ففي صحيح مسلم عن عائشة قالت: أتى النبي صلى الله عليه وآله من اليهود فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم. قال: «وعليكم». قالت عائشة قلت: بل عليكم السام والذام. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله «يا عائشة لا تكوني فاحشة». فقالت ما سمعت ما قالوا. فقال: «أوليس قد رددت عليهم الذي

(١) تفسير مجمع البيان ٩/٤١٣؛ وتفسير روح المعاني ٢٨/٢٥.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١٨

قالوا قلت وعليكم». فأنزل الله عز وجل «وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ...» (١).

التفسير

النجوى من الشيطان: البحث في هذه الآيات هو استمرار لأبحاث النجوى السابقة.

يقول سبحانه: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ».

ويستفاد من هذه الآية بصورة جليّة أن المنافقين واليهود قد نهوا من قبل ومنعوا من النجوى التي تولّد سوء الظن عند الآخرين وتسبب لهم القلق.

واستمراراً لهذا الحديث فإن القرآن الكريم يشير إلى مورد آخر من أعمال التجاوز والمخالفة للمنافقين واليهود، حيث يقول تعالى: «وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ».

«حيّوك»: من مادة «تحية» مأخوذة في الأصل من الحياة بمعنى الدعاء بالسلام والحياة الاخرى؛ والمقصود بالتحية الإلهية في هذه الآية

هو: (السلام عليكم) أو (سلام الله عليك) والتي وردت نماذج منها في الآيات القرآنية عن الأنبياء وأصحاب الجنة، ومن جملتها قوله تعالى في الآية (١٨١) من سورة الصافات: «سَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ».

ثم يضيف تعالى أن هؤلاء لم يرتكبوا مثل هذه الذنوب العظيمة فقط بل كانوا مغرورين متعالين وكأنهم سكارى فيقول عز وجل: «وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ».

وبهذه الصورة فإنهم قد أثبتوا عدم إيمانهم بنبوّة الرسول صلى الله عليه وآله وكذلك عدم إيمانهم بالإحاطة العلمية لله سبحانه. ويرد عليهم القرآن الكريم: «حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فِيْئَسَ الْمَصِيرُ».

والطبيعي أن هذا الكلام لا ينفي عذابهم الدنيوي، لأنّ النجوى قد تكون بين المؤمنين أحياناً وذلك للضرورة أو لبعض الميول، لذا فإنّ الآية اللاحقة تخاطب المؤمنين ستكون مناجاتهم في مأمن من التلوث بذنوب اليهود والمنافقين حيث يقول الباري عز وجل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ». يستفاد من هذا التعبير - بصورة واضحة - أن النجوى إذا كانت بين المؤمنين فيجب أن

(١) صحيح مسلم ٥/٧؛ صحيح البخارى ٥١/٨؛ وفي الكافي عن أبي جعفر عليه السلام ٢/٦٤٨.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١١٩

تكون بعيدة عن السوء وما يشير قلق الآخرين، ولا بد أن يكون مسارها التواصى بالخير والحسنى، وبهذه الصورة فلا مانع منها.

ولذلك فإنّ القرآن يحذّر منها أشدّ تحذير في آخر آية مورد البحث، حيث يقول تعالى:

«إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا». ولكن يجب أن يعلموا أنّ الشيطان لا يستطيع إلحاق الضرر بأحد إلّا أن يأذن الله بذلك «وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».

ذلك لأنّ كل مؤثر في عالم الوجود يكون تأثيره بأمر الله حتى إحراق النار وقطع السيف.

«وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ». إذ أنّهم - بالروح التوكّلية على الله، وبالاعتماد عليه سبحانه - يستطيعون أن ينتصروا على جميع هذه المشاكل.

لهذا العمل - أى النجوى - من الوجهة الفقهية الإسلامية أحكام مختلفة:

فتارةً يكون هذا العمل «حراماً» وذلك فيما لو أدّى إلى أذى الآخرين أو هتك حرمتهم كالنجوى الشيطانية حيث هدفها إيذاء المؤمنين.

وقد تكون النجوى أحياناً «واجبة» وذلك في الموضوعات الواجبة السريّة، حيث إنّ إفشاءها مضرّ ويسبب الخطر والأذى، وفي مثل هذه الحالة فإنّ عدم العمل بالنجوى يستدعى إضاعة الحقوق وإلحاق خطر بالإسلام والمسلمين.

وتتصف النجوى في صورة اخرى بالاستحباب، وذلك في الأوقات التي يتصدّى فيها الإنسان لأعمال الخير والبرّ والإحسان، ولا يرغب بالإعلان عنها وإشاعتها وهكذا حكم الكراهة والإباحة.

وأساساً، فإنّ كل حالة لا يوجد فيها هدف مهم فالنجوى عمل غير محمود، ومخالف لآداب المجالس، ويعتبر نوعاً من اللامبالاة وعدم الإكتراث بالآخرين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ ءَاتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: كان رسول الله صلى الله عليه وآله في الصفّة، وفي المكان ضيق، وذلك يوم الجمعة. وكان صلى الله عليه و

آله يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار. فجاء اناس من أهل بدر، وفيهم

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢٠

مختصر الامثل ج ٥، ص: ١٤٩

ثابت بن قيس بن شماس، وقد سبقوا في المجلس. فقاموا حيال النبي صلى الله عليه وآله فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فردّ عليهم النبي صلى الله عليه وآله. ثم سلّموا على القوم بعد ذلك، فردّوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسّع لهم، فلم يفسحوا لهم. فشقّ ذلك على النبي صلى الله عليه وآله، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: قم يا فلان، قم يا فلان، بقدر النفر الذين كانوا بين يديه من أهل بدر. فشقّ ذلك على من اقيم من مجلسه، وعرف الكراهية في وجوههم. وقال المنافقون للمسلمين: أستم تزعمون أنّ صاحبكم يعدل بين الناس، فوالله ما عدل على هؤلاء أنّ قوماً أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنهم مقامهم! فنزلت الآية.

التفسير

إحترام أهل السابقة والإيمان: تعقيباً على الموضوع الذي جاء في الروايات السابقة حول ترك (النجوى) في المجالس، يتحدث القرآن عن أدب آخر من آداب المجالس حيث يقول سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ».

جملة «يُفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ» لها مفهوماً واسعاً، وتشمل كل سعة إلهية، سواء كانت في الجنة أو في الدنيا أو في الروح والفكر أو في العمر والحياة، أو في المال والرزق.

وبما أنّ المجالس تكون مزدحمة أحياناً بحيث إنّ يتعذّر الدخول إلى المجلس في حالة عدم التفسّح أو القيام، وإذا وجد مكان فإنّه غير متناسب مع مقام القادمين واستمراراً لهذا البحث، يقول تعالى: «وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا». أى إذا قيل لكم قوموا فقوموا. ولا ينبغي أن تضجروا أو تسأموا من الوقوف، لأنّ القادمين أحياناً يكونون أحوج إلى الجلوس من الجالسين في المجلس، وذلك لشدة التعب أو الكهولة أو للإحترام الخاص لهم، وأسباب أخرى.

ثم يتطرق سبحانه إلى الجزاء والأجر الذي يكون من نصيب المؤمنين إذا التزموا بالأمر الإلهي، حيث يقول عزّ وجل: «يَزِفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ».

وذلك إشارة إلى أنّ الرسول صلى الله عليه وآله إذا أمر البعض بالقيام وإعطاء أماكنهم للقادمين، فإنّه لهدف إلهي مقدس، وإحتراماً للسابقين في العلم والإيمان.

وبما أنّ البعض يؤدّي هذه التعليمات ويلتزم بهذه الآداب عن طيب نفس ورغبة، والآخرون يؤدونها عن كراهية أو للرياء، والتظاهر... فيضيف تعالى في نهاية الآية: «وَاللَّهُ

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢١

بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ».

بالرغم من أنّ الآية نزلت في مورد خاص، إلّا أنّ لها مفهوماً عاماً، وبملاحظة أنّ ما يرفع مقام الإنسان عند الله شيان: الإيمان، والعلم. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) أَسْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت في الأغنياء، وذلك أنّهم كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وآله فيكثر من مناجاته. [وهذا العمل بالإضافة

إلى أنه يشغل الرسول صلى الله عليه وآله ويأخذ من وقته فإنه كان يسبب عدم إرتياح المستضعفين منه، وحيث يشعرون بامتنياز الأغنياء عليهم فأمر الله سبحانه بالصدقة عند المناجاة. فلما رأوا ذلك، انتهوا عن مناجاته. فنزلت آية الرخصة.

[التي لامت الأغنياء ونسخت حكم الآية الأولى وسمح للجميع بالمناجاة، حيث إن النجوى هنا حول عمل الخير وطاعة المعبود].

التفسير

الصدقة قبل النجوى (إختبار رائع): في قسم من الآيات السابقة كان البحث حول موضوع النجوى، وفي الآيات مورد البحث استمراراً وتكملة لهذا المطلب. يقول سبحانه:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيْكُمْ صَدَقَةٌ».

ثم يضيف بقوله تعالى: «ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ».

أما كون الصدقة «خير» فإنها كانت للأغنياء موضع أجر وللفقراء مورد مساعدة، وأما كونها (أطهر) فلائها تغسل قلوب الأغنياء من حب المال، وقلوب الفقراء من الغل والحقد.

ولكن لو كان التصدق قبل النجوى واجباً على الجميع، فإن الفقراء عندئذ سيحرمون من طرح المسائل المهمة كاحتياجاتهم ومشاكلهم أمام الرسول صلى الله عليه وآله فلذا جاء في ذيل الآية إسقاط هذا الحكم عن المجموعة المستضعفة مما مكنهم من مناجاة الرسول صلى الله عليه وآله والتحدث

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢٢

معه: «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». وبهذه الصورة فإن دفع الصدقة قبل النجوى كان واجباً على الأغنياء دون غيرهم.

والطريف هنا أن للحكم أعلاه تأثيراً عجبياً وامتحاناً رائعاً أفرزه على صعيد الواقع من قبل المسلمين في ذلك الوقت، حيث امتنع الجميع من إعطاء الصدقة إلا لشخص واحد، ذلك هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وهنا أتضح ما كان يجب أن يتضح، وأخذ المسلمون درساً في ذلك، لذا نزلت الآية اللاحقة ونسخت الحكم حيث يقول سبحانه: «ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيْكُمْ صَدَقَاتٍ».

حيث أتضح أن حب المال كان في قلوبكم أحب من نجواكم للرسول صلى الله عليه وآله وأتضح أيضاً أن هذه النجوى لم تكن تطرح فيها مسائل أساسية، وإلا فما المانع من أن تقدم هذه المجموعة صدقة قبل النجوى، خاصة أن الآية لم تحدد مقدار الصدقة فيمكنهم دفع مبلغ زهيد من المال لحل هذه المشكلة.

ثم يضيف تعالى: «فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولما منهم ولا يعلمون (١٤) أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون (١٥) اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين (١٦) لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (١٧) يوم يبعثهم الله جميعاً فيخلفون له كما يخلفون لكم ويحسبون أنهم على شئء إلا إنهم هم الكاذبون (١٨) استخوذ عليهم الشيطان فأنسواهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان إنما إن حزب الشيطان هم الخاسرون (١٩) حزب الشيطان: هذه الآيات توضح قسماً من تأمر المنافقين وتعرض صفاتهم للمسلمين، وذكرها بعد آيات النجوى يوضح لنا أن قسماً ممن ناجوا الرسول كانوا من المنافقين، حيث كانوا بهذا العمل يظهرون قربهم للرسول صلى الله عليه وآله ويستترون على مؤامراتهم، وهذا ما سبب أن يتعامل القرآن مع هذه الحالة بصورة عامة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢٣

يقول تعالى في البداية: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ».

ثم يضيف تعالى: «مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ». فهم ليسوا أعوانكم في المصاعب والمشاكل، ولا- أصدقاءكم وممن يكون لكم الود

والإخلاص، إنهم منافقون يغيرون وجوههم كل يوم ويظهرون كل لحظة لكم بصورة جديدة.

ويضيف - أيضاً - واستمراراً لهذا الحديث أن هؤلاء ومن أجل إثبات وفاءهم لكم فإنهم يقسمون بالأيمان المغلظة: «وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ».

وهذه طريقة المنافقين، فيقومون بتغطية أعمالهم المنفرة ووجوههم القبيحة بواسطة الأيمان الكاذبة والحلف الباطل، في الوقت الذي تكون أعمالهم خير كاشف لحقيقتهم.

ثم يشير تعالى إلى العذاب المؤلم لهؤلاء المنافقين المصيرين على الباطل والمعاندين للحق، حيث يقول تعالى: «أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا». وبدون شك فإن هذا العذاب عادل وذلك: «إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

ثم للتوضيح الأكثر حول بيان سمات وصفات المنافقين يقول سبحانه: «اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ».

يخلفون أنهم مسلمون وليس لهم هدف سوى الإصلاح، في حين أنهم منهمكون بفسادهم وتخريبهم ومؤامراتهم ... وفي الحقيقة فإنهم يستفيدون من الاسم المقدس لله للصد والتمنع عن سبيل الله تعالى ... ويضيف تعالى في النهاية: «فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ». أى مذل.

إنهم أرادوا بحلفهم الكاذب تحسين سمعتهم وتجميل صورتهم، إلا أن الله سيبتليهم بعذاب أليم مذل.

ولأن المنافقين يعتمدون في الغالب على أموالهم وأولادهم وهما (القوة الاقتصادية والقوة البشرية) في تحقيق مآربهم وحل مشاكلهم، فإن القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى بقوله تعالى: «لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا».

وهذه الأموال ستصبح لعنة عليهم وطوقاً في أعناقهم وسبباً لعذابهم المؤلم، كما يوضح الله سبحانه ذلك في الآية (١٨٠) من سورة آل عمران: «سَيَطُوقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وفي ذيل الآية يهددهم ويقول: «أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

والعجيب أن المنافقين لا يتخلون عن نفاقهم حتى في يوم القيامة أيضاً، كما يوضح الله

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢٤

سبحانه ذلك في قوله: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ». إن يوم القيامة يوم تتجلى فيه الأعمال، وحقيقته الإنسان التي كان عليها في الدنيا، ولأن المنافقين أخذوا هذه الحالة النفسية معهم إلى القبر والبرزخ، فإنها ستتضح يوم القيامة أيضاً، ومع علمهم بأن الله سبحانه لا يخفى عليه شيء وأنه علام الغيوب، إلا أنهم - إنسجماً مع سلوكهم المعهود - فإنهم يحلفون أمام الله حلفاً كاذباً.

ثم يضيف عز وجل أنهم بهذا اليمين الكاذب يظنون أنه بإمكانهم كسب منفعة أو دفع ضرر: «وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ». إن هذا التصور الواهي ليس أكثر من خيال.

وأخيراً تنتهي الآية بهذه الجملة: «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ». وبهذه الصورة سيفتضح.

وفي آخر آية مورد البحث يبين الباري عز وجل المصير النهائي للمنافقين العمى القلوب بقوله تعالى: «اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

«استحوذ»: من مادة «حوذ» بمعنى الجزء الخلفى لفخذ البعير، ولأن أصحاب الإبل عندما يسوقون جمالهم يضربونها على أفخاذها، فقد جاء هذا المصطلح بمعنى التسلط أو السوق بسرعة.

نعم، إن المنافقين المغرورين بأموالهم ومقامهم، ليس لهم مصير سوى أن يكونوا تحت سيطرة الشيطان واختياره ووساوسه بصورة تامة، وينسون الله بصورة كلية، أنهم ليسوا منحرفين فحسب، بل إنهم في زمرة الشيطان وهم أنصاره وحزبه وجيشه في إضلال

الآخرين.

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢٥

كان الحديث عن المنافقين وأعداء الله وبيان بعض صفاتهم وخصائصهم في الآيات السابقة، واستمراراً لنفس البحث - في هذه الآيات التي هي آخر آيات سورة المجادلة - تطرح خصوصيات اخرى لهم، ويتضح المصير الحتمي لهم حيث الموت والاندحار. يقول تعالى في البداية: «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ» (١). أى أذلّ الخلائق. والآية اللاحقة دليل على هذا المعنى حيث يقول سبحانه: «كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ». وبنفس القدر الذي يكون فيه الله قوياً عزيزاً فإن أعداءه يكونون ضعفاء أذلاء، وهذا بنفسه بمثابة الدليل على ما ورد في الآية السابقة من وصف الأعداء بأنهم «فِي الْأَذَلِّينَ».

ولقد اتضح على مر العصور هذا الانتصار للمرسلين الإلهيين في أوجه مختلفة، سواء في أنواع العذاب الذي أصاب أعداءهم وصوره المختلفة كطوفان نوح وصاعقه عاد وثمود والزلازل المدمرة لقوم لوط وما إلى ذلك، وكذلك في الانتصارات في الحروب المختلفة كغزوات بدر وحنين وفتح مكة، وسائر غزوات رسول الأكرم صلى الله عليه وآله. وأهم من ذلك كله إنتصارهم الفكري والمنطقي على أفكار الشيطان وأعداء الحق والعدالة.

آخر آية مورد البحث - والتي هي آخر آية من سورة المجادلة - تعد من أقوى الآيات القرآنية التي تحذّر المؤمنين من إمكانية الجمع بين حبّ الله وحبّ أعدائه، إذ لا بدّ من اختيار طريق واحد لا غير، وإذا ما كانوا حقاً مؤمنين صادقين فعليهم اجتناب حبّ أعداء الله. يقول تعالى: «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ». إنَّ حَبَّ الْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانِ وَالْعَشِيرَةِ شَيْءٌ مَمْدُوحٌ، ودليل على عمق العواطف الإنسانية، إلّا أنّ هذه المحبة حينما تكون بعيدة عن حبّ الله فإنّها ستفقد خاصيتها.

ثم يتطرق القرآن الكريم إلى الجزاء العظيم لهذه المجموعة التي سخّرت قلوبها لعشق الله تعالى، حيث يستعرض خمسة من أوصافهم والتي يمثل بعضها مدداً وتوفيقاً من الله تعالى، والآخر نتيجة العمل الخالص له سبحانه ... وفي بيان القسم الأول والثاني يقول تعالى: «أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ».

(١) «يحادون»: من مادة «محادّة» بمعنى الحرب المسلّح وغير المسلّح، أو بمعنى الممانعة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢٦

ومن الطبيعي أنّ هذا الإمداد والالطف الإلهي لا - يتنافى أبداً مع أصل حرية الارادة واختيار الإنسان، لأنّ الخطوات الاولى في ترك أعداء الله قد قرّرها المؤمنون ابتداءً، ثم جاء الإمداد الإلهي بصورة استقرار الإيمان حيث عبّر عنه ب (كتب). هذه الروح الإلهية التي يؤيد الله سبحانه المؤمنين بها هي نوع من الحياة المعنوية الجديدة التي أفاضها الله تعالى على المؤمنين. ويقول تعالى في ثالث مرحلة: «وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا». ويضيف في رابع مرحلة لهم: «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ».

إنّ أعظم ثواب معنوي وجزاء روحاني لأصحاب الجنة في مقابل النعم المادية العظيمة في القيامة من جنان وحوار وقصور هو شعورهم

وإحساسهم أن الله راضٍ عنهم وأن رضى مولاهم ومعبودهم يعنى أنهم مقبولون عنده، وفي كنف حمايته وأمنه، حيث يجلسهم على بساط قربه، وهذا أعظم إحساس ينتابهم، ونتيجته رضاهم الكامل عن الله سبحانه.

وفي آخر مرحلة يضيف تعالى بصورة إخبار عام يحكى عن نعم وهبات اخرى حيث يقول: «أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

وليس المقصود بالفلاح هنا ما يكون في عالم الآخرة ونيل النعم المادية والمعنوية في يوم القيامة فحسب، بل كما جاء في الآيات السابقة أن الله تعالى ينصرهم بلطفه في هذه الدنيا أيضاً على أعدائهم وستكون بأيديهم حكومة الحق والعدل التي تستوعب هذا العالم أخيراً.

«نهاية تفسير سورة المجادلة»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢٧

٥٩. سورة الحشر

محتوى السورة: تأخذ هذه السورة بصورة متميزة قصة حرب المسلمين مع بعض اليهود (يهود بنى النضير) والتي انتهت بإخراجهم من المدينة وتطهير هذه المدينة المقدسة منهم.

وهذه السورة من السور المهمة والمثيرة والموقظة في القرآن الكريم، ولها انسجام قريب جداً مع الآيات الأخيرة مع السورة السابقة، والتي وعدت «حزب الله» بالنصر، والنصر الوارد في هذه السورة يعدّ مصداقاً بارزاً لذلك النصر الموعود.

ويمكن تلخيص موضوعات هذه السورة في ستة أقسام هي:

- ١- تتحدث عن تسييح الله الحكيم العليم من قبل الموجودات جميعاً.
- ٢- يوضح قصة إشتباك المسلمين مع ناقضى العهد من يهود المدينة.
- ٣- يستعرض القرآن قصة منافقى المدينة مع اليهود والتعاون بينهما.
- ٤- يشمل مجموعته من التوجيهات والنصائح العامة لعموم المسلمين.
- ٥- عبارة عن وصف بليغ للقرآن الكريم وبيان أثره في تطهير الروح والنفس.
- ٦- يتناول قسماً مهماً من أوصاف جلال وجمال الذات الإلهية المقدسة، وبعض أسمائه الحسنى، وهذه الصفات تكون عوناً للإنسان في طريق معرفته الله سبحانه.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢٨

إن اسم هذه السورة مأخوذ من الآية الثانية فيها، والتي تتحدث عن «الحشر»، والذي يعنى هنا تجتمع اليهود للرحيل عن المدينة، أو حشر المسلمين اليهود لطردهم منها.

وأخيراً فإن هذه السور هي إحدى (سور المسبحات) والتي بدأت بتسييح الله، وانتهت بتسييح الله أيضاً.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن ابى بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«ومن قرأ سورة الحشر لم يبق جنة ولا نار، ولا عرش ولا كرسى ولا حجاب، ولا السموات السبع ولا الأرضون السبع، والهوام والرياح والطيور والشجر والدواب، والشمس والقمر والملائكة، إلا صلوا عليه، واستغفروا له، وإن مات من يومه أو ليلته مات شهيداً».

ومما لا شك فيه أن هذا من آثار التفكير والتدبر في محتوى هذه السورة وعند قراءتها.

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ

بِيُوتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْ لَمَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَمَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكِ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)

سبب النزول

ذكر المفسرون والمحدثون والمؤرخون بصورة مفصلة سبب نزول هذه الآيات، وخلاصة ما ذكروه هي ما يلي:

كان بالمدينة ثلاث قبائل من اليهود وهم: بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، ويذكر أنهم لم يكونوا من أهل الحجاز أصلاً، وإنما قدموا إليها واستقروا فيها، وذلك لما قرأوه في مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٢٩

كتبهم العقائدية من قرب ظهور نبي في أرض المدينة، حيث كانوا بانتظار هذا الظهور العظيم.

وعندما هاجر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله إلى المدينة عقد معهم حلفاً بعدم تعرض كل منهما للآخر، إلا أنهم كلما وجدوا فرصة مناسبة لم يألوا جهداً في نقض العهد.

ومن جملة ذلك أنهم نقضوا العهد بعد غزوة احد، التي وقعت في السنة الثالثة للهجرة.

فقد ذهب كعب بن الأشرف زعيم قبيلة بنى النضير مع أربعين فارساً إلى مكة، وهنالك عقد مع قريش حلفاً لقتال محمد صلى الله عليه وآله، وجاء أبو سفيان مع أربعين شخصاً، وكعب بن الأشرف مع أربعين نفرًا من اليهود، ودخلا معاً إلى المسجد الحرام ووثقوا العهد في حرم الكعبة، فعلم النبي صلى الله عليه وآله بذلك عن طريق الوحي.

والمؤامرة الاخرى هي أن رسول الله صلى الله عليه وآله دخل يوماً مع شيوخ الصحابة وكبارهم إلى حى بنى النضير، وذلك بحجة إستقراض مبلغ من المال منهم كدريّة لقتيلين من طائفة بنى عامر، قتلها (عمرو بن امية) أحد المسلمين، وربما كان الهدف من ذلك هو معرفة أخبار اليهود عن قرب حتى لا يباغت المسلمون بذلك.

فبينما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتحدث مع كعب بن الأشرف إذ حيك مؤامرة يهودية لإغتيال رسول الله وتنادى القوم: إنكم لا تحصلون على هذا الرجل بمثل هذه الحالة وهاهو قد جلس بالقرب من حائطكم، فليذهب أحدكم إلى السطح ويرمي بحجر عظيم ويريحنا منه، فقام عمرو بن جحاش وأبدى إستعداده لتنفيذ الأمر، وذهب إلى السطح لتنفيذ عمله الإجرامى، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله علم عن طريق الوحي بذلك، فقفل راجعاً إلى المدينة دون أن يتحدث بحديث مع أصحابه، إلا أن الصحابة تصوروا أن الرسول سيعود مرة أخرى، ولما عرفوا فيما بعد أن الرسول في المدينة عاد الصحابة إليها أيضاً.

وهنا أصبح من المسلم لدى رسول الله صلى الله عليه وآله نقض اليهود للعهد، فأعطى أمراً للإستعداد والتهيؤ لقتالهم.

وجاء في بعض الروايات أيضاً أن أحد شعراء بنو النضير هجا رسول الله صلى الله عليه وآله بشعر يتضمّن مساً بكرامة الرسول وهذا دليل آخر لنقضهم العهد.

وبدأت خطة المسلمين في مواجهة اليهود وكانت الخطوة الاولى أن أمر رسول الله (محمد بن سلمة) أن يقتل كعب بن الأشرف زعيم اليهود، إذ كانت له به معرفة، وقد نفذ هذا العمل بعد مقدمات وقتله.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣٠

إن قتل كعب بن الأشرف أوجد هزة وتخلخلاً في صفوف اليهود، عند ذلك أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله أمراً للمسلمين أن يتحرّكوا لقتال هذه الفئة الباغية الناقضة للعهد.

وعندما علم اليهود بهذا لجأوا إلى قلاعهم المحكمّة وحصونهم القوية، وأحكموا الأبواب، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله أمر أن تقلع أشجار النخيل القريبة من القلاع.

فقد إرتفع صوت اليهود عندما شعروا بالضيق، وهم محاصرون في حصونهم ... فقالوا: يا محمد، لقد كنت تنهى عن هذا، فما الذى حدا بك لتأمر قومك بقطع نخيلنا؟

فزلت الآية (٥) من الآيات محل البحث وبيئت بأن هذا العمل هو أمر من الله عز وجل.

واستمرت المحاصرة لعدة أيام، ومنعاً لسفك الدماء إقترح رسول الله صلى الله عليه وآله عليهم أن يتركوا ديارهم وأراضيهم ويرحلوا من المدينة، فوافقوا على هذا وحملوا مقداراً من أموالهم تاركين القسم الآخر ... واستقر قسم منهم في «أذرع الشام»، وقليل منهم في «خير»، وجماعة ثالثة في «الحيرة»، وتركوا بقية أموالهم وأراضيهم وبساتينهم وبيوتهم بيد المسلمين بعد أن قاموا بتخريب ما يمكن لدى خروجهم منها (١).

التفسير

بدأت هذه السورة بتزيه وتسييح الله وبيان عزته وحكمته. يقول سبحانه: «سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». وهذه مقدمة لبيان قصة يهود بنى النضير، اولئك الذين انحرفوا عن طريق التوحيد ومعرفة الله وصفاته.

التسييح العام الوارد في الآية لجميع موجودات الأرض والسماء، أعم من الملائكة والبشر والحيوانات والنباتات والجمادات يمكن أن يكون بلسان «القال» ويمكن أن يكون بلسان «حال» هذه المخلوقات حول دقة النظام المثير للعجب لها في خلق كل ذرة من ذرات هذا الوجود، وهو التسليم المطلق لله سبحانه والإعتراف بعلمه وقدرته وعظمته وحكمته.

ومن جهة اخرى فإن قسماً من العلماء يعتقدون أن كل موجود في العالم له نصيب وقدر من العقل والإدراك والشعور، بالرغم من أننا لم ندركه ولم نطلع عليه، وبهذا الدليل فإن هذه المخلوقات تسبح بلسانها، بالرغم من أن آذاننا ليس لها القدرة على سماعها.

(١) تفسير مجمع البيان ٩/ ٤٢٥؛ وتفسير على بن إبراهيم ٢/ ٣٥٨؛ وتفسير القرطبي ٢/ ١٨.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣١

وبعد بيان المقدمة أعلاه نستعرض أبعاد قصة يهود بنى النضير في المدينة حيث يقول سبحانه: «هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ».

«حشر»: في الأصل تحريك جماعة وإخراجها من مقرها إلى ميدان حرب وما إلى ذلك، والمقصود منه هنا اجتماع وحركة المسلمين من المدينة إلى قلاع اليهود، أو اجتماع اليهود لمحاربة المسلمين، ولأن هذا أول اجتماع من نوعه فقد سمي في القرآن الكريم بأول الحشر، وهذه بحد ذاتها إشارة إلى بداية المواجهة المقبلة مع يهود بنى النضير ويهود خيبر وأمثالهم.

ويضيف الباري عز وجل: «مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ». لقد كانوا مغرورين وراضين عن أنفسهم إلى حد أنهم اعتمدوا على حصونهم المنيعه، وقدرتهم المادية الظاهرية.

ولأن الله سبحانه يريد أن يوضح للجميع أن لا قوة في الوجود تقاوم إرادته، فإن إخراج اليهود من أراضيهم وديارهم بدون حرب، هو دليل على قدرته سبحانه، وتحذ لليهود الذين ظنوا أن حصونهم مانعتهم من الله.

ولذلك يضيف - استمراراً للبحث الذى ورد فى الآية - قوله تعالى: «فَأَنآأَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ». نعم، إن هذا الجيش غير المرئى هو جيش الخوف الذى يرسله الله تعالى فى كثير من الحروب لمساعدة المؤمنين، وقد خيم على قلوبهم، وسلب منهم قدرة الحركة والمقاومة، لقد جهزوا وهتأوا أنفسهم لقتال المهاجرين والأنصار غافلين عن إرادة الله تعالى، حيث يرسل لهم جيشاً من داخلهم.

وفى نهاية الآية - بعنوان استنتاج كلى - يقول تعالى: «فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصَارِ».

«اعتبروا»: من مادة «إعتبار» وفى الأصل مأخوذة من العبور، أى العبور من شىء إلى شىء آخر، ويقال لدمع العين «عبرة» بسبب عبور

قطرات الدموع من العين، وكذلك يقال «عبارة» لهذا السبب، حيث إنَّها تنقل المطالب والمفاهيم من شخص إلى آخر، وإطلاق «تعبير المنام» على تفسير محتواه، بسبب أنه ينقل الإنسان من ظاهره إلى باطنه.

وبهذه المناسبة يقال للحوادث التي فيها دروس وعظات «عبر» لأنها توضح للإنسان سلسلة من التعاليم الكليَّة وتنقله من موضوع إلى آخر.

والتعبير ب «اولى الأبصار» إشارة إلى الأشخاص الذين يتعاملون مع الحوادث بعين

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣٢

واقعية ويتوغلون إلى أعماقها.

والمقصود من العبرة والإعتبار في الآية أعلاه هو الانتقال المنطقي والقطعي من موضوع إلى آخر. يعنى مقايسة الحوادث المتشابهة من خلال إعمال العقل. وتضيف الآية اللاحقة: «وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبْتَهُمْ فِي الدُّنْيَا».

وبدون شك فإنَّ الجلاء عن الوطن وترك قسم كبير من رؤوس الأموال التي جهدوا جهداً بليغاً في الحصول عليها، هو بحد ذاته أمر مؤلم لهم، وبناءً على هذا فإنَّ مراد الآية أعلاه أنه لو لم يحلَّ بهم هذا العذاب، فإنَّ بانتظارهم عذاباً آخر هو القتل أو الأسر بيد المسلمين ...

إلما أنَّ الله سبحانه أراد لهم التيه في الأرض والتشرد في العالم، لأنَّ هذا أشدَّ ألماً وأسئ على نفوسهم، إذ كلما تذكروا أرضهم وديارهم ومزارعهم وبيساتينهم التي أصبحت بيد المسلمين، وكيف أنَّهم شردوا منها بسبب نقضهم العهد ومؤامراتهم ضدَّ رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنَّ ألمهم وحزنهم ومتاعبهم وتضاعف وخاصة على المستوى النفسى.

وكان هذا عذاباً دنيوياً لهم، إلَّا أنَّ لهم جولة أخرى مع عذاب أشدَّ وأخزى، ذلك هو عذاب الآخرة، حيث يضيف سبحانه في نهاية الآية: «وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ النَّارِ».

وبما أن ذكر هذه الحادثة مضافاً إلى تجسيد قدرة الله وصدق الدعوة المحمديَّة، فهي في نفس الوقت تمثِّل إنذاراً وتنبهاً لكل من يروم القيام بأعمال مماثلة لفعل بنى النضير، لذا ففي الآية اللاحقة يرشدنا سبحانه إلى هذا المعنى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

«شاقوا»: من مادة «شقاق» وهى فى الأصل بمعنى الشقِّ والفصل بين شيئين، وبما أنَّ العدو يكون دائماً فى الطرف المقابل، فإنَّ كلمة «شقاق» تطلق على هذا العمل.

وفى الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث نلاحظ جواباً على إعتراض يهود بنى النضير على قطع المسلمين لنخيلهم - كما ورد فى شأن النزول - بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله لتهيئة ظروف أفضل لقتال بنى النضير أو لزيادة حزنهم وألمهم، فيضطروا للنزول من قلاعهم ومنازل المسلمين خارج القلعة، وقد أثار هذا العمل غضب اليهود وحققهم، فقالوا: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفحشاء، فما بالك تقطع النخل وتحرقها؟ فنزلت الآية مبيِّنة لهم أن ذلك من أمر الله سبحانه حيث يقول البارى: «مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينِهِ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣٣

فِيَاذِنِ اللَّهُ وَلِيْحِزِي الْفَاسِقِينَ». «لينه»: من مادة «لون» تقال لنوع جيد من النخل.

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَا كِنِّ اللَّهِ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَاللِّرَّسُولِ وَ لِأَيِّ الْقُرْبَىٰ وَ لِأَيِّمَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: نزل قوله «مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى الْآيَةَ. فِي أَمْوَالِ كَفَّارِ أَهْلِ الْقُرَى، وَهُمْ قَرِيبَةٌ وَبَنُو النَّضِيرِ، وَهُمَا بِالْمَدِينَةِ. وَفِدَاكَ، وَهِيَ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ. وَخَيْرٌ، وَقُرَى عَرِينَةٌ، وَيَنْبَعُ، جَعَلَهَا اللَّهُ لِرَسُولِهِ، يَحْكُمُ فِيهَا مَا أَرَادَ. وَأَخْبَرَ أَنَّهَا كُلُّهَا لَهُ. فَقَالَ أَنَسُ: فَهَلَا قَسَمَهَا، فَزَلَتْ الْآيَةُ.

[وسنلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وآله قَسَمَ هذه الأموال بين المهاجرين الفقراء في المدينة، وعلى قسم من الأنصار من ذوى الفاقة].

التفسير

حكم الغنائم بغير الحرب: بما أن هذه الآيات تكملهُ للآيات القرآنية السابقة التي تتحدث عن إندحار يهود بنى النضير، لذا فإن هذه الآيات تبين حكم غنائم بنى النضير، كما أنها في نفس الوقت توضّح حكماً عاماً حول الغنائم التي يحصل عليها المسلمون بدون حرب، كما ذكر ذلك في كتب الفقه الإسلامى بعنوان (الفىء).

يقول الله تعالى: «وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ».

«أفاء»: من مادة «فىء» وهى فى الأصل بمعنى الرجوع، وإطلاق كلمة «فىء» على هذا اللون من الغنائم لعله باعتبار أن الله سبحانه قد خلق هذه النعم والهبات العظيمة فى عالم الوجود فى الأصل للمؤمنين، وعلى رأسهم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله الذى هو أشرف الكائنات.

وبناءً على هذا فإن الجاحدين لوجود الله والمعاصين له بالرغم من إمتلاكهم للبعض من هذه النعم بموجب القواعد الشرعية والعرفية، إلّا أنهم يعتبرون غاصبين لها، ولذلك فإن عودة

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣٤

هذه الأموال إلى أصحابها الحقيقيين (وهم المؤمنون) يسمّى (فيئاً) فى الحقيقة. «أوجفتم»: من مادة «إيجاف» بمعنى السوق السريع الذى يحدث غالباً فى الحروب.

«خيل»: بمعناه المتعارف عليه (وهى اسم جنس وجمعها خيول) «١».

«ركاب»: من مادة «ركوب» وتطلق فى الغالب على ركوب الجمال.

والهدف من مجموع الجملة أن جميع الموارد التى لم يحدث فيها قتال وفيها غنائم، فإنها لا توزّع بين المقاتلين، وتوضع بصورة تامة تحت تصرف رئيس الدولة الإسلامية وهو يصرفها فى الموارد التى سيأتى الحديث عنها لاحقاً.

ثم يضيف سبحانه أن الانتصارات لا تكون غالباً لكم «وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

نعم، لقد تحقّق الانتصار على عدو قوى وشديد كيهود (بنى النضير) وذلك بالمدد الإلهى الغيبى، ولتعلموا أن الله قادر على كل شىء.

ولابدّ للمسلمين أن يتعلّموا من ذلك دروس المعرفة الإلهية، ويلاحظوا علائم حقانية النبى صلى الله عليه وآله، ويلتزموا منهج الإخلاص والتوكل على الذات الإلهية المقدسة فى جميع ممارساتهم.

والآية اللاحقة تبين بوضوح مورد صرف (الفىء) الوارد فى الآية السابقة وتقول بشكل قاعدة كلية: «مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ».

وهذا يعنى أن هذه الغنائم ليست كباقي الغنائم الحربية التى يكون خمس منها فقط تحت تصرف الرسول صلى الله عليه وآله وسائر المحتاجين، والأربعة الأخماس الاخرى للمقاتلين.

وإذا ما صرّحت الآية السابقة برجوع جميع الغنائم لرسول الله صلى الله عليه وآله فلا يفهم من ذلك أن يصرفها جميعاً فى موارد الشخصية، وإنما اعطيت له لكونه رئيساً للدولة الإسلامية، وخاصة كونه المتصدى لتغطية حاجات المعوزين، لذا فإن القسم الأكبر يصرف فى هذا المجال.

إن الرسول صلى الله عليه وآله لا يريد الأموال لأمواره الشخصية، بل بعنوان قائد المسلمين ورئيس دولتهم يصرّفها في الأمور التي تحقّق مصلحة الدولة الإسلامية بشكل عام.

(١) يقول الراغب في المفردات: إن الخيل في الأصل من مادة (خيال) بمعنى التصوّرات الذهنية، وخيلاء بمعنى التكبر والتعالى على الآخرين لأنه ناتج من تخیل الفضيلة، ولأن ركوب الإنسان على الحصان يشعر بالإحساس بنوع من الفخر والزهو غالباً، لذلك أطلق لفظ الخيل على الحصان، والنقطة الجديرة بالملاحظة أن خيل تطلق على الحصان وكذلك على راكبه.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣٥

ومما يجدر بالملاحظة أن هذا الحق ينتقل من بعد الرسول صلى الله عليه وآله إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام ومن بعدهم إلى نوابهم. يعنى (كل مجتهد جامع للشرائط) لأن الأحكام الإسلامية لا تعطل، والحكومة الإسلامية من أهمّ المسائل التي يتعامل المسلمون معها وقسم من هذه الاسس قننت ضمن الهيكل الاقتصادي العام للمجتمع الإسلامي، كما أنها تمثّل مبدأ أساسياً في النظام الاقتصادي للدولة الإسلامية.

ثم يستعرض سبحانه فلسفه هذا التقسيم الدقيق بقوله تعالى: «كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ». فيتداول الأغنياء الثروات فيما بينهم ويحرم منها الفقراء.

والمفهوم الذي ورد في هذه الآية يوضح أصلاً أساسياً في الاقتصاد الإسلامي وهو:

وجوب التأكيد في الاقتصاد الإسلامي على عدم تمرکز الثروات بيد فئة محدودة وطبقه معينة تتداولها فيما بينها، مع كامل الإحترام للملكية الشخصية، وذلك بإعداد برنامج واضح بهذا الصدد يحرك عملية تداول الثروة بين أكبر قطاع من الامه. ويضيف سبحانه في نهاية الآية: «وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ». وبالرغم من أن هذا القسم من الآية نزل بشأن غنائم بنى النضير، إلا أن محتواها حكم عام في كل المجالات، ومدرك واضح على حجية سنّة الرسول صلى الله عليه وآله.

وطبقاً لهذا الأصل فإن جميع المسلمين ملزمون بإتباع التعاليم المحمّدية، وإطاعة أوامر رسول الله صلى الله عليه وآله، وإجتنب ما نهى عنه، سواء في مجال المسائل المرتبطة بالحكومة الإسلامية أو الاقتصادية أو العبادية وغيرها.

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيُنصِرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْحَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣٦

السمات الأساسية للأصناف والمهاجرين والتابعين: هذه الآيات- التي هي استمرار للآيات السابقة- تتحدث حول طبيعة مصارف الفيء الستة، التي تشمل الأموال والغنائم التي حصل عليها المسلمون بغير حرب، وقد أوضحت الآية المعنى باليتامى والمساكين وأبناء السبيل، مع التأكيد على المقصود من أبناء السبيل بلحاظ أنهم يشكلون أكبر رقم من عدد المسلمين المهاجرين في ذلك الوقت، حيث تركوا أموالهم ووطنهم نتيجة الهجرة، وكانوا فقراء بعد أن هجروا الدنيا من أجل دينهم. يقول تعالى: «لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيُنصِرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ».

هنا بينت الآية ثلاثة أوصاف مهمة وأساسية للمهاجرين الأوائل، تلخص ب:

«الإخلاص» و «الجهاد» و «الصدق».

وفى الآية اللاحقة يستعرض سبحانه ذكر مورد آخر من موارد صرف هذه الأموال، ومن بين ما يستعرضه فى الآية الكريمة أيضاً وصف رائع ومعبر جداً عن طائفة الأنصار، ويكمل البحث الذى جاء فى الآية السابقة حول المهاجرين، فيقول سبحانه: وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

«تبؤوا»: من مادة «بؤاء» وهى فى الأصل بمعنى تساوى أجزاء المكان. وبعبارة اخرى يقال: (بؤاء) لترتيب وتسوية مكان (ما)، هذا التعبير كناية لطيفة لهذا المعنى، وهو أن طائفة الأنصار - أهل المدينة - قد هيئوا الأرضية المناسبة للهجرة. والتعبير «تَبَوَّءُوا» يوضح لنا أن الأنصار لم يهتؤوا بيوتهم لاستقبال المهاجرين فحسب، بل إنهم فتحوا قلوبهم ونفوسهم وأجواء مجتمعهم قدر المستطاع للتكيف فى التعامل مع وضع الهجرة المرتقب.

وجملة «مِنْ قَبْلِهِمْ» يوضح لنا أن كل تلك الامور كانت قبل هجرة مسلمى مكة، وهذا أمر مهم. ثم يتطرق سبحانه إلى بيان ثلاث صفات اخرى توضح روحية الأنصار بصورة عامة، حيث يقول تعالى: «يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ». فلا فرق بين المسلمين فى وجهه نظرهم والمهم لديهم هو مسألة الإيمان والهجرة وهذا الحب كان يعتبر خصوصية مستمرة لهم. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣٧

والأمر الآخر: «وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا». فهم لا يطمعون بالغانم التى اعطيت للمهاجرين، ولا يحسدونهم عليها، ولا حتى يحسبون بحاجة إلى ما اعطى للمهاجرين منها.

ويضيف تعالى فى المرحلة الثالثة إلى وصفهم: «وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» (١).

ومن هذه السمات الثلاث: «المحبة» و «عدم الطمع» و «الايثار»، كانت تتشكل خصوصية الأنصار المتميزة.

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بنى النضير للأنصار:

«إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وتشاركونهم فى هذه الغنيمه، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم، ولم يقسم لكم شئ من الغنيمه». فقال الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمه، ولا نشاركهم فيها فنزلت الآية. وفى نهاية الآية - ولمزيد من التأكيد لهذه الصفات الكريمة، وبيان تأثيرها الإيجابى العميق - يضيف سبحانه: «وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

«الشح»: البخل مقترناً بالحرص عادة؛ و «يوق»: من مادة وقاية.

وفى الكافى عن الفضل بن أبى قره قال: قال الصادق عليه السلام: «تدرى ما الشحيح؟ قلت: هو البخيل. قال: «الشح أشد من البخل، إن البخيل يبخل بما فى يده، والشحيح يشح على ما فى أيدى الناس، وعلى ما فى يديه، حتى لا يرى مما فى أيدى الناس شيئاً إلّا تمنى أن يكون له بالحل والحرام، ولا يقنع بما رزقه الله».

وفى آخر آية مورد البحث يأتى الحديث عن آخر طائفة من المسلمين، الذين عرفوا بيننا باصطلاح القرآن الكريم ب (التابعين)، والذين يشكلون المجموعة الغالبه من المسلمين بعد المهاجرين والأنصار الذين تحدت عنهم الآيات السابقة. يقول تعالى: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ».

(١) «خصاصة»: من مادة «خصاص» بمعنى الشقوق التى توجد فى جدران البيت، ولأن الفقر فى حياة الإنسان يمثل شقاً، لذا عبر عنه بالخصاصة. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣٨

وبهذا الترتيب فإن خصوصياتهم هى: (تربية النفس) و (الإحترام للسابقين فى الإيمان) و (الإبتعاد عن الحسد والبغضاء). والتعبير ب (إخوان) والإستمداد من الرؤوف الرحيم فى نهاية الآية يحكى عن روح المحبة والصفاء والاخوة التى يجب أن تسود المجتمع الإسلامى أجمع، فكل شخص يتمنى صفة حسنة لا يتمناها لنفسه فحسب.

إنَّ الأيد أعلاه لبيان هذه الحقيقة وهي أنَّ أموال «الفيء» لا تنحصر بمحتاجي المهاجرين والأنصار فقط، بل تشمل سائر المحتاجين من المسلمين على مرَّ العصور.

بحث

الصحابة في ميزان القرآن والتاريخ: يصرُّ بعض المفسرين - بدون الإلتفات إلى الصفات التي مرّت بنا في الآيات السابقة لكل من المهاجرين والأنصار والتابعين - على إعتبار جميع الصحابة بدون استثناء متّصفين بجميع الصفات الإيجابية (للمهاجرين والأنصار والتابعين) وأنهم نموذج يقتدى بهم من حيث نزاهتهم وطهرهم والتسامح فيما بينهم، وكل خلاف صدر منهم أحياناً سواء في زمن الرسول صلى الله عليه وآله أو من بعده فإنهم يغضون النظر عنه، وبهذا اعتبروا كل مهاجر وأنصارى وتابع شخصاً محترماً ومقدساً بصورة عامة، دون الإلتفات إلى أعمالهم وتقييمها حسب الموازين الشرعية.

إلّا أنّ الملاحظ أنّ في الآيات أعلاه رفض واضح إزاء هذا الفهم، حيث تحدّد الآية التقييم وفق ضوابط وموازن دقيقة للمهاجرين الحقيقيين والأنصار والتابعين.

ففي «المهاجرين»: الإخلاص والجهاد والصدق.

وفي «الأنصار»: المحبة للمهاجرين والإيثار، والإبتعاد عن كل حرص وبخل.

وفي «التابعين»: بناء أنفسهم، والإحترام للسابقين في الإيمان، والإبتعاد عن كل بغض وحسد.

إنّنا في الوقت الذي نحترم فيه السابقين في خطّ الرسالة والإيمان، يجدر بنا أن ندقّق في سوابقهم وملفّ فعالهم، سواء على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أو المخاضات المختلفة التي حدثت بعده في التاريخ الإسلامي، وعلى أساس الضوابط والمعايير الإسلامية المستلهمة من هذه الآيات المباركات نحكم لهم أو عليهم، وعندئذ نقوى أو اصرنا مع من بقى على العهد، ونقطعها أو نحددها - بما يناسب - مع من ضعفت روابطهم أو قطعوها مع تلك الموازين والضوابط، وهذا هو المنطق الصحيح والمنسجم مع حكم القرآن والعقل.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٣٩

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأُذُنَ شَرًّا لَئِن يَنْصُرُوا (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يَقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤)

سبب النزول

في تفسير روح البيان: إنَّ قسماً من منافق المدينة - كعبد الله بن ابي وأصحابه - أرسلوا إلى بني النضير وأبلغهم بما يلي: لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصونكم فإنَّ معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون حصنكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم وتمدكم قريظة وحلفاءكم من غطفان فطمع بنو النضير فيما قاله اللعين وهو جالس في بيته حتى قال أحد سادات بني النضير وهو سلام بن مشكم لحبي بن أخطب الذي كان هو المتولى لأمر بني النضير والله يا حبي إنَّ قول ابن ابي لباطل وليس بشيء وإنما يريد أن يورطك في الهلكة حتى تحارب محمّداً فيجلس في بيته يتركك فقال حبي نأبى الاعداوة محمّد والا قتاله فقال سلام فهو والله جلاؤنا من أرضنا وذهاب أموالنا وشرفنا وسبى ذرارينا مع قتل مقاتلينا فكان ما كان كما سبق في أول السورة وفيه حجة بينة لصحة النبوة واعجاز القرآن.

التفسير

دور المنافقين في فتن اليهود: بعد بيان ما جرى ليهود بني النضير في الآيات السابقة، وبيان حالة الأصناف الثلاثة من المؤمنين، يتعرّض

القرآن الكريم الآن لشرح حالة المنافقين ودورهم في هذا الحادث، وفي البداية يتحدث مع الرسول صلى الله عليه وآله حيث يقول سبحانه: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤٠

وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ». وهكذا فإن هؤلاء المنافقين وعدوا طائفة اليهود بامور ثلاثة، وجميعها كانت كاذبة. ولهذا السبب يقول القرآن الكريم بصراحة: «وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ».

أجل، لقد كان المنافقون كاذبين دائماً، والكاذبون منافقين غالباً.

ثم ... للإيضاح والتأكيد الأكثر حول كذب المنافقين يضيف سبحانه:

«لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ». «وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ». «وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأُذُنَ». «ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ».

والآية اللاحقة تتحدث عن سبب هذا الإندحار، حيث يقول سبحانه: «لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ».

ولأنهم لا يخافون الله، فإنهم يخافون كل شيء خصوصاً إذا كان لهم أعداء مؤمنون مثلكم: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ».

ثم يستعرض دليلاً واقعياً واضحاً يعبر عن حالة الخوف والاضطراب حيث يقول سبحانه: «لَأَيُّقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ».

«قرى»: جمع قرية، أعم من المزروعة وغير المزروعة، وتأتي أحياناً بمعنى الناس المجتمعين في مكان واحد.

«محصنة»: من مادة «حصن» بمعنى مسورة، وبناءً على هذا فإن (القرى المحصنة) تعني القرى التي تكون في أمان بوسيلة أبراجها وخنادقها والمواضع التي تعيق تقدم العدو فيها.

نعم، بما أنهم خرجوا من حصن الإيمان والتوكل على الله، فإنهم بغير الإلتجاء والإتكاء على الجدران والقلاع المحكمه لا يتجرؤون على مواجهة المؤمنين.

ثم يوضح أن هذا ليس ناتجاً عن جهل بمعرفة فنون الحرب، أو قلة في عددهم وعدتهم، أو عجز في رجالهم، بل إن «بأسهم بينهم شديد».

ولهذا السبب - واستمراراً لما ورد في نفس الآية - نستعرض سبباً آخر من أسباب إندحار المنافقين، حيث يقول سبحانه: «تَحَسَّبُ بِهِمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤١

وهكذا فإن الانسجام الظاهري للعناصر غير المؤمنة والاتفاقيات العسكرية والاقتصادية يجب ألا تخدعنا أبداً، لأن وراءها قلوب متناحرة متنافرة، ودليلها واضح وهو إنهماك كل منهم بمنافعه المادية بشكل شديد، وبما أن المنافع غالباً ما تكون متعارضة، فعندئذ تبرز الاختلافات والشحناء فيما بينهم، ولن تغني عن ذلك العهود والاتفاقيات وشعارات الوحدة والانسجام الظاهري. في الوقت الذي تكون فيه وحدة وانسجام المؤمنين على قواعد واصول ربانية كأصل الإيمان والتوحيد والقيم الإلهية.

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ اكْفُرُوا فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَاتَّقُوا نَفْسَ مِمَّا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يستمر البحث في هذه الآيات حول قصة بنى النضير والمنافقين ورسم خصوصية كل منهم في تشبيهين رائعين: يقول سبحانه في البداية: «كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

تحدثنا هذه الآية عن ضرورة الاعتبار بما جرى لبني النضير والقوم الذين كانوا من قبلهم وما جرى لهم.

ويعتقد كثير من المفسرين أن المقصود بقوله «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» هو إشارة إلى قصة يهود «بنى قينقاع»، التي حدثت بعد غزوة بدر، وانتهت بإخراجهم من المدينة، لأن يهود بنى قينقاع كيهود بنى النضير كانوا ذوى ثراء ومغرورين بقدرتهم القتالية، يهددون رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمين بقوتهم وقدرتهم العسكرية إلا أن العاقبة لم تكن غير حصاد التيه والتعاسة في الدنيا والعذاب في الآخرة. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤٢

«وبال»: بمعنى (عاقبة الشؤم والمرارة) وهى فى الأصل مأخوذة من «وابل» بمعنى المطر الغزير، لأن المطر الغزير غالباً ما يكون مخيفاً. ثم يستعرض القرآن الكريم تشبيهاً للمنافقين حيث يقول سبحانه: «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ».

والمقصود بـ «الإنسان» فى هذه الآية هو مطلق الإنسان الذى يقع تحت تأثير الشيطان، وينخدع بأحاييله ووعوده الكاذبة، ويسير به فى طريق الكفر والضلال، ثم إن الشيطان يتركه ويتبرأ منهم.

نعم، هكذا حال المنافقين حيث يدفعون بحلفائهم من خلال الوعود الكاذبة والمكر والحيلة إلى اتون المعارك والمشاكل ثم يتركونهم لوحدهم، ويتخلون عنهم، لأن الوفاء لا يجتمع والنفاق.

وتتحدث الآية اللاحقة عن مصير هاتين الجماعتين (الشيطان وأتباعه، والمنافقين وحلفائهم من أهل الكفر) وعاقبتهما البائسة، حيث النار خالدتين فيها، فيقول سبحانه عنهم: «فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ».

وهذا أصل كلِّى فإن عاقبة تعاون الكفر والنفاق، والشيطان وحزبه، هو الهزيمة والخذلان، وعدم الموقفية، وعذاب الدنيا والآخرة، فى الوقت الذى تكون ثمره تعاون المؤمنين وأصدقائهم تعاون وثيق وبناء، وعاقبته الخير ونهايته الانتصار والتمتع بالرحمة الإلهية الواسعة فى عالم الدنيا والآخرة.

وتوجه الآية اللاحقة حديثها للمؤمنين بعنوان استنتاج من حالة الشؤم والبؤس التى اعترت المنافقين وبنى النضير والسياطين، حيث يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لَعَدٍ».

إن هذه الذخيرة الاخروية تمثل أكبر رأسمال حقيقى للإنسان فى مشهد يوم القيامة، لذا فإن هذا النوع من الأعمال الصالحة يلزم إعدادته وتهيئته وإرساله مسبقاً، وإلا فلا أحد يهتم له بعد وفاته وإنقضاء أجله، وإذا ارسل شيئاً فليس له شأن يذكر. ثم يضيف تعالى مرة اخرى للتأكيد بقوله: «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

نعم، التقوى والخوف من الله يدعوان الإنسان للتفكير بيوم غده (القيامة) بالإضافة إلى السعى إلى تنقيه وتخليصه وتطهير أعماله. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤٣

وأكدت الآية اللاحقة بعد الأمر بالتقوى والتوجه إلى يوم القيامة على ذكر الله سبحانه، حيث يقول تعالى: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ».

وأساساً فإن جوهر التقوى شيئان: ذكر الله تعالى، وذلك بالتوجه والإنشاد إليه من خلال المراقبة الدائمة منه واستشعار حضوره فى كل مكان وفى كل الأحوال، والخشية من محكمه عدله ودقه حسابه الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فى صحيفة أعمالنا ... ولذا فإن التوجه إلى هذين الأساسين (المبدأ والمعاد) كان على رأس البرامج التربوية للأبياء والأولياء، وذلك لتأثيرها العميق فى تطهير الفرد والمجتمع.

وأساساً فإن النسيان - بحد ذاته - من أكبر مظاهر تعاسة الإنسان وشقائه، لأن قيمة الإنسان فى قابلياته ولياقاته الذاتية وطبيعته خلقه التى تميزه عن الكثير من المخلوقات، وإذا نسيها فهذا يعنى نسيان إنسانيته، وفى مثل هذه الحالة يسقط الإنسان فى وحل الحيوانية، ويصبح همّه الأكل والشرب والنوم والشهوات.

وهذه كلها عامل أساس للفسق والفجور، بل إن نسيان الذات هو من أسوأ مصاديق الفسق والخروج عن طاعة الله، ولهذا يقول سبحانه:

«أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

وفي آخر آية- مورد البحث- يستعرض سبحانه مقارنة بين هاتين الجماعتين: الجماعة المؤمنة المتفقيه السائرة باتجاه المبدأ والمعاد، والجماعة الغافلة عن ذكر الله، التي ابتليت كنتيجة للغفلة عن الله بنسيان ذاتها، حيث يقول سبحانه: «لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ».

ليس في الدنيا، ولا في المعتقدات، وليس في طريقة التفكير والمنهج، وليس في طريقة الحياة الفردية والاجتماعية للإنسان وأهدافه، ولا- في المحصلة الاخرية والجزاء الإلهي ... إذ إنَّ خطَّ كل مجموعة من هاتين المجموعتين في اتجاه متعارض ... متعارض في كل شيء وكل مكان وكل هدف ... إحداهما تؤكد على ذكر الله والقيامة وإحياء القيم الإنسانية الرفيعة، والقيام بالأعمال الصالحة كذخيرة ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ... والاخرى غارقة في الشهوات واللذات المادية، وأسيرة الأهواء ومبتلية بالنسيان .. وبهذا فإنَّ الإنسان على مفترق طريقين، إما أن يرتبط بالقسم الأول، أو بالقسم الثاني، وليس غيرهما من سبيل آخر.

وفي نهاية الآية نلاحظ حكماً قاطعاً حيث يضيف سبحانه: «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤٤

فليس في الدار الآخرة فقط يوجد (فائزون وخاسرون) بل في هذه الدنيا أيضاً، حيث يكون الانتصار والنجاة والسكينة من نصيب المؤمنين المتقين، كما أن الهزيمة والخسران في الدارين تكون من نصيب الغافلين.

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) لو نزل القرآن على جبل: تكمله للآيات السابقة التي كانت تهدف إلى تحريك النفوس والقلوب الإنسانية، وخاصة عن طريق التذكير بالنهاية التي يكون عليها الإنسان، والمصير الذي ينتظره، والذي يجدر أن يهتئ به في أبهى وأفضل صورة ... تأتي هذه الآيات المباركات التي هي آخر آيات سورة الحشر، والتي تأخذ بنظر الاعتبار مجمل ما ورد من آيات هذه السورة، لتوضح حقيقة اخرى حول القرآن الكريم، وهي: أن هذا الكتاب المبارك له تأثير عميق جداً حتى على الجمادات، حيث إنه لو نزل على الجبال لهزها وحركها وجعلها في وضع من الإضطراب المقترن بالخشوع إلا أنه- مع الأسف- هذا الإنسان القاسي القلب يسمع آيات الله تتلى عليه ولا تتحرك روحه ولا يخشع قلبه. يقول سبحانه: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (١).

وقد حملها البعض الآخر على ظاهرها وقالوا: إنَّ كل الموجودات في هذا العالم- ومن جملتها الجبال- لها نوع من الإدراك والشعور الخاص بها، وإذا نزلت هذه الآيات عليها فإنها

(١) «متصدع»: من مادة «صدع»، بمعنى شق الأشياء القوية، كالحديد والزجاج، وإذا قيل لوجع الرأس: صداع، فإنه بسبب شعور الإنسان أن رأسه يريد أن يتشقق من الألم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤٥

ستتلاشى، ودليل هذا ما ورد في الآية (٧٤) من سورة البقرة في وصف جماعة من اليهود.

قال تعالى: «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ».

الآيات اللاحقة تستعرض قسماً مهماً من صفات جمال وجلال الله سبحانه، التي لكل واحدة منها الأثر العميق في تربية النفوس

وتهذيب القلوب، وتحوى الآيات القرآنية الثلاثة خمسة عشر وصفاً لله سبحانه. أو بتعبير آخر: فإن ثمانى عشرة صفة من صفاته العظيمة تذكرها ثلاث آيات، وكل منها تتعلق ببيان التوحيد الإلهى والاسم المقدس، وتوضح للإنسان طريق الهداية إلى العالم النورانى لأسماء وصفات الحق سبحانه. يقول تعالى: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ». هنا وقبل كل شىء يؤكد على مسألة التوحيد، التى هى أصل لجميع صفات الجمال والجلال، وهى الأصل والأساس فى المعرفة الإلهية، ثم يذكر علمه بالنسبة للغيب والشهود.

ثم يعتمد على رحمته العامة التى تشمل جميع الخلائق: (الرحمن) ورحمته الخاصة التى تخص المؤمنين، (والرحيم) لتعطى للإنسان أملاً، ولتعيّنه فى طريق بناء نفسه والتكامل بأخلاقه وسلوكه بالسير نحو الله.

أما فى الآية اللاحقة، فبالإضافة إلى التأكيد على مسألة التوحيد فإنها تذكر ثمانية صفات اخرى لله سبحانه، حيث يقول البارى عز وجل: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ». «الْمَلِكُ» الحاكم والمالك الحقيقى لجميع الكائنات. «الْقُدُّوسُ» المنزه من كل نقص وعيب.

«السَّلْمُ» لا يظلم أحد، وجميع الخلائق فى سلامة من جهته.

ثم يضيف سبحانه:

«الْمُؤْمِنُ» يعطى الأمان لأحبابه، ويتفضل عليهم بالإيمان.

«الْمُهَيِّمُ» الحافظ والمراقب لكل شىء.

«الْعَزِيزُ» القادر الذى لا يقهر.

«الْجَبَّارُ»: مأخوذ من (جبر) وقد ورد هذا المصطلح عشر مرّات فى القرآن الكريم، تسع مرّات حول الأشخاص الظالمين والمستكبرين المتسلطين على رقاب الأئمة والمفسدين فى الأرض ومرّة واحدة فقط عن الله القادر المتعال، حيث ورد بهذا المعنى فى الآية مورد البحث.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤٦

ثم يضيف سبحانه: «الْمُتَكَبِّرُ».

«المتكبر»: من مادة «تكبر» وجاءت بمعنيين:

الأول: إستعملت صفة المدح، وقد اطلقت على لفظ الجلالة، وهو إتصافه بالعلو والعظمة والسمات الحسنه بصورة عامة.

والثانى: استعملت صفة الذم وهو ما يوصف به غير الله عز وجل.

ولأنّ العظمة وصفات العلو والعزة لا تكون لائقه لغير مقام الله سبحانه، لذا استعمل هذا المصطلح هنا بمعناه الإيجابى حول الله سبحانه، وكلما إستعمل لغير الله أعطى معنى الذم.

وفى نهاية الآية يؤكد مرّة اخرى مسألة التوحيد التى كان الحديث حولها ابتداءً حيث يقول تعالى: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

وفى آخر آية مورد البحث يشير سبحانه إلى ستّ صفات اخرى حيث يقول تعالى:

«هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ». «الْبَارِئُ». «الْمُصَوِّرُ».

ولأنّ صفات الله لا تنحصر فقط بالتى ذكرت فى هذه الآية فإنه سبحانه يشير إلى صفة أساسية لذاته المقدسة اللامتناهية، حيث يقول عز وجل: «لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى».

ولهذا السبب فإنه سبحانه منزّه ومبرأ من كل عيب ونقص: «يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ». ويعتبرونه تاماً وكاملاً من كل نقص وعيب.

وأخيراً- للتأكيد الأكثر على موضوع نظام الخلقة- يشير سبحانه إلى وصفين آخرين من صفاته المقدسة، التى ذكر أحدهما فى السابق

بقوله تعالى: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

الاولى دليل كمال قدرته على كل شىء، وغلبته على كل قوة.

والثانية إشارة إلى علمه وإطلاعه ومعرفته ببرامج الخلق وتنظيم الوجود وتدبير الحياة.

إن مجموع ما ورد فى الآيات الثلاث بالإضافة إلى مسألة التوحيد التى تكررّت مرّتين، فإنّ مجموع الصفات المقدسة لله سبحانه تكون سبع عشرة صفة مرتبة بهذا الشكل: ١- عالم الغيب والشهادة، ٢- الرحمن، ٣- الرحيم، ٤- الملك، ٥- القدوس، ٦- السلام، ٧- المؤمن، ٨- المهيمن، ٩- العزيز، ١٠- الجبار، ١١- المتكبر، ١٢- الخالق، ١٣- البارىء، ١٤- المصور، ١٥- الحكيم، ١٦- له الأسماء الحسنى، ١٧- الموجود الذى تسبّح له كل موجودات العالم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤٧

إنّ هذه الآيات تأخذ بيد السائرین فى طريق معرفة الله، وتقودهم من درجة إلى درجة ومن منزل إلى منزل، حيث تبدأ الآيات أولاً بالحديث عن ذاته المقدسة، ومن ثم إلى عالم الخلق، وتارة أخرى بالسير نحو الله تعالى، حيث ترتفع روحه إلى سمو الواحد الأحد، فيتطهر القلب بالأسماء والصفات الإلهية المقدسة، ويربى فى أجواء هذه الأنوار والمعارف، حيث تنمو براعم التقوى على ظاهر أغصان وجوده، وتجعله لائقاً لقرب جواره لكى يكون وجوداً منسجماً مع كل ذرات الوجود، مردّدين معاً ترانيم التسبيح والتقدیس.

إنّ الآيات الأخيرة لهذه السورة آيات خارقة وعظيمة وملهمة، وهى درس تربوى كبير للإنسان.

فى تفسير مجمع البيان: روى سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«اسم الله الأعظم فى ستّ آيات فى آخر سورة حشر».

وعن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ آخر سورة الحشر، غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر».

«نهاية تفسير سورة الحشر»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٤٩

٦٠. سورة الممتحنة

محتوى السورة: تتكوّن موضوعات هذه السورة من قسمين:

١- يتحدث عن موضوع «الحبّ فى الله» و«البغض فى الله»، وينهى عن عقد الولاء والودّ مع المشركين، ويدعو المسلمين لكى يستلهموا من سيرة الرسول العظيم إبراهيم عليه السلام فيما يتعلّق بموقفه من أقرب الأقرين إليه (أبيه أزر) بلحاظ ما يمليه عليه الموقف المبدئى، كما تذكر بعض الخصوصيات الاخرى فى هذا المجال ويتكرّر هذا المعنى فى نهاية السورة، كما فى بدايتها.

٢- يتناول هذا القسم مسائل المرأة المهاجرة وضرورة تمحيصها، كما يبيّن أحكاماً اخرى فى هذا الصدد.

واختيار اسم (الممتحنة) لهذه السورة كان بلحاظ حالة التمحيص والإمتحان التى وردت فى الآية العاشرة من هذه السورة «١».

كما ذكر اسم آخر لهذه السورة وهو (سورة المودة) وذلك بلحاظ النهى عن عقد الولاء والودّ مع المشركين، وقد أكّدت عليه السورة كثيراً.

(١) قرأها البعض «ممتحنة» (بفتح الحاء) وذلك بسبب حالة التمحيص والإمتحان للنسوة المهاجرات، وقرأها آخرون «ممتحنة» (بكسر

الحاء) وذلك لأنّ موضوعات السورة- أجمع- كانت وسيلة للإمتحان والتمحيص.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥٠

مختصر الامثل ج ٥، ص: ١٦٩

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان: عن ابي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«ومن قرأ سورة الممتحنة، كان المؤمنون والمؤمنات له شفعا يوم القيامة».

إن هذه النعم والألطف الإلهية تكون للأشخاص الذين لا يكتفون بالتلاوة السطحية الفارغة من محتوى الروح، والبعيدة عن العلم والعمل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَتَّقِفُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْضِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفى بن هشام، أتت رسول الله صلى الله عليه وآله من مكة إلى المدينة بعد بدر بستين، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: «أسلمت جئت؟» قالت: لا. قال: «أمهاجرة جئت؟» قالت: لا. قال: «فما جاء بك؟» قالت: كنتم الأصل والعشيرة والموالي، وقد ذهب موالى واحتجت حاجة شديدة، فقدمت عليكم لتعطوني وتكسونى وتحملونى! قال: «فأين أنت من شباب مكة؟» وكانت مغنية نائحة. قالت: ما طلب منى بعد وقعة بدر [وهذا يدل على عمق النازلة التي نزلت بمشركى قريش فى بدر]؛ فحث رسول الله صلى الله عليه وآله عليها بنى عبدالمطلب، فكسوها وحملوها، وأعطوها نفقة. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتجهز لفتح مكة، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة وكتب معها كتاباً إلى أهل مكة، وأعطها عشرة دنانير وكساها برداً على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة وكتب فى الكتاب: «من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة إن رسول الله يريدكم فخذوا حذرکم!» فخرجت سارة ونزل جبرائيل فأخبر النبى صلى الله عليه وآله بما فعل، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥١

علياً وعماراً وعمر والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود، وأبا مرثد وكانوا كلهم فرساناً وقال لهم: انطلقوا حتى تأنوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها. فخرجوا حتى أدركوها فى ذلك المكان الذى ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله و آله فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحوها وفتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً، فهموا بالرجوع. فقال على عليه السلام: «والله ما كذبنا ولا كُذِّبنا»، وسل سيفه وقال لها: «أخرجى الكتاب وإلّا والله لأضربن عنقك!» فلما رأته الجدة أخرجته من ذؤابتها قد أخبأته فى شعرها.

فرجعوا بالكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فأرسل إلى حاطب فأتاه، فقال له: «هل تعرف الكتاب؟» قال: نعم. قال: «فما حملك على ما صنعت؟» قال: يا رسول الله! والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلّواه بمكة من يمنع عشيرته و كنت عريراً فيهم [أى غريباً] وكان أهلى بين ظهرانيهم فخشيت على أهلى فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه وأن كتابى لا يغنى عنهم شيئاً، فصدقه رسول الله صلى الله عليه وآله و آله وعذره. فقام عمر بن الخطاب وقال:

دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «وما يدريك يا عمر لعل الله أطلع على أهل بدر فغفر لهم فقال لهم: إعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

[وكيفية العلاقة التي يجب أن تتحكم بين المسلمين من جهة، والمشركين وأعداء الله من جهة اخرى، والتأكيد على إلغاء وتجيب أى ولاء مع أعداء الله .

التفسير

نتيجة الولاء لأعداء الله: علمنا مما تقدم أن سبب نزول الآيات السابقة هو التصرف المشين الذي صدر من أحد المسلمين (حاطب بن أبى بلتعنة) ورغم أنه لم يكن قاصداً التجسس إلا أن عمله نوع من إظهار المودة لأعداء الإسلام، فجاءت الآيات الكريمة تحذّر المسلمين من تكرار مثل هذه التصرفات مستقبلاً وتنهاهم عنها.

يقول سبحانه في البداية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ. مُؤَكِّدًا أَنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ وَحَدَهُمُ هُمُ الَّذِينَ يَضْمُرُونَ الْعَدَاءَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْحَقْدَ عَلَيْهِمْ، وَمَعَ هَذَا التَّصَوُّرِ فَكَيْفَ تَمْدُونُ يَدَ الصَّدَاقَةِ وَالْوَدِّ لَهُمْ.

ويضيف تعالى: «تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥٢

إنهم يخالفونكم في العقيدة، كما أنهم شنوا عليكم الحرب عملياً، ويعتبرون إيمانكم بالله - الذي هو أكبر فخر لكم وأعظم قداسة تجللكم - غاية الجرم وأعظم الذنب، ومع هذه الأعمال التي مارسوها معكم، هل من المناسب إظهار المودة لهم.

ثم يضيف القرآن الكريم موضحاً: «إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي». فلا تعقدوا معهم أواصر الولاء والود. فإذا كنتم ممن تدعون حب الله حقاً، وهاجرتهم من دياركم لأجله سبحانه وترغبون في الجهاد في سبيله طلباً لرضاه تعالى، فإن هذه الأهداف العظيمة لا يناسبها إظهار الولاء لأعداء الله سبحانه.

ثم يضيف عز وجل للمزيد من الإيضاح فيقول: «تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ».

وبناءً على هذا فما عسى أن يغنى الإخفاء وهو واقع بعلم الله في الغيب والشهود؟

وفي نهاية الآية نجد تهديداً شديداً لمن يجانب السبيل الذي أمر به الله سبحانه بقوله:

«وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ».

فمن جهة انحرف عن معرفة الله تعالى بظنه أن الله لا يعلم ولا يرى ما يصنع، وكذلك انحرف عن طريق الإيمان والإخلاص والتقوى، حينما يعقد الولاء وتقام أواصر المودة مع أعداء الله، وبالإضافة إلى ذلك فإنه وجه ضربة قاصمة إلى حياته حينما أفسى أسرار المسلمين إلى الأعداء، ويمثل ذلك أقبح الأعمال وأسوأ الممارسات حينما يسقط الشخص المؤمن بهذا الوحل ويقوم بمثل هذه الأعمال المنحرفة بعد بلوغه مرتبة الإيمان والقداسة.

وفي الآية اللاحقة يضيف سبحانه للتوضيح والتأكيد الشديد في تجنب موالاتهم: «إِنْ يَتَّقِفُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمُ بِالسُّوءِ» (١).

أنتم تكونون لهم الود في الوقت الذي يضمرون لكم حقداً وعداوة عميقة ومتأصلة، وإذا ما ظفروا بكم فإنهم لن يتوانوا عن القيام بأى عمل ضدكم.

والأدهى من ذلك هو سعيهم الحثيث في ردكم عن دينكم وإسلامكم، والعمل على تجريدكم من أعظم مكسب وأكبر مفخرة لكم، وهي حقيقة الإيمان: «وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ».

(١) «يتقفوكم»: من مادة: «ثقف» و«ثقافة»، بمعنى المهارة في تشخيص أو إنجاز شيء ما، ولهذا السبب تستعمل - أيضاً - بمعنى الثقافة أو التمكّن والتسلطّ المقترن بمهارة على الشيء.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥٣

وفي آخر آية من هذه الآيات يستعرض سبحانه الجواب على حاطب بن أبى بلتعنة ومن يسايره في منهجه من الأشخاص، حينما قال في جوابه لرسول الله عن السبب الذي حدا به إلى إفشاء أسرار المسلمين لمشركى مكة، حيث قال بلتعنة: أهلى وعيالى فى مكة، وأردت

أن أمنع عنهم الأذى وأصونهم بعملى هذا، (واتخذ عند أهلها يداً). يقول تعالى: «لَنْ تَنْفَعَكُم أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ». وذلك لأن الأرحام والأولاد المشركين سوف لن يجلبوا خيراً وعزة في الدنيا ولا نجاه في الآخرة. ثم يضيف تعالى: «يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ».

وهذا تأكيد على أن مقام أهل الإيمان هو الجنة، وأن أهل الكفر يساقون إلى جهنم وبئس المصير. وفي نهاية الآية يحذر الجميع مرة أخرى بقوله تعالى: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

إنه عالم بنياتكم، وعالم بالأعمال التي تصدر منكم، سواء كانت في حالة السر أو العلن، وإذا كانت المصلحة الإلهية تقتضى عدم إفشاء أسراركم أحياناً كما في حادثة حاطب بن أبي بلتعة، فلأنها لحكمة أو مصلحة يراها سبحانه، وليس لأنه لا يعلم بها أو تخفى عليه خافية.

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَعْفِفَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْنَكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفُ رُبَّنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) إن منهج القرآن (من أجل التأكيد على تعاليمه القيمة) يعتمد في كثير من الموارد طريقة الاستشهاد بنماذج أساسية في عالم الإنسانية والحياة، وبعد التشديد السابق الذي مر بنا خلال الآيات السابقة في تجب عقد الولاء لأعداء الله، يتحدث القرآن الكريم عن

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥٤

إبراهيم عليه السلام ومنهجه القدوة كنموذج رائد يحظى باحترام جميع الأقسام وخصوصاً العرب منهم. قال تعالى: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ».

والمراد من تعبير «الَّذِينَ مَعَهُ» هم المؤمنون الذين ساروا برفقته في هذا الطريق بالرغم من قلة عددهم. ثم يضيف سبحانه لتوضيح هذا المعنى: «إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

ومرة أخرى يؤكدون مضيفين: «كَفَرْنَا بِكُمْ». والكفر هنا هو كفر البراءة الذي اشير له في بعض الروايات ضمن ما ورد في تعدد أقسام الكفر الخمسة.

ويضيفون للمرة الثالثة مؤكدين بصورة أشد: «وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ».

وبهذا الإصرار وبهذه القاطعية وبدون أى تردد أو مواربة يعلن المؤمنون انفصالهم وإبتعادهم ونفرتهم من أعداء الله حتى يؤمنوا بالله وحده، وهم مستمرّون في موقفهم وإلى الأبد ولن يتراجعوا عنه أو يعيدوا النظر فيه إلا إذا غير الكفار مسارهم وتراجعوا عن خط الكفر إلى الإيمان.

ولأن هذا القانون العام كان له استثناء في حياة إبراهيم عليه السلام يتجسد ذلك بإمكانية هداية بعض المشركين، حيث يقول سبحانه معقّباً: «إِنَّ هَؤُلَاءِ قَطَعُوا كُلَّ إِرْتِبَاطٍ لَهُمْ مَعَ قَوْمِهِمُ الْكَافِرِينَ حَتَّى الْكَلَامِ الْوَدُودِ وَالْمَلَائِمِ: «إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَعْفِفَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ». وقد عمل إبراهيم عليه السلام بما وعد آزر به.

ويقول عز وجل في بيان هذا المعنى: «وَمَا كَانَ إِسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَاهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» (١).

إن إبراهيم عليه السلام وأصحابه كانوا من أشدّ المخالفين والمحاربين للشرك، ولا بد لنا من الإقتداء بهم وأخذ الدروس والعبر من سيرتهم، بما في ذلك ما يتعلق بموقفه من «آزر» إذا توفرت لنا نفس الشروط والخصوصيات.

وبما أن محاربة أعداء الله، والصرامة والشدة معهم - خصوصاً مع تمتّعهم بقدره ظاهريه - سوف لن تكون فاعله إلا بالتوكل على الله

تبارك وتعالى، يضيف سبحانه في نهاية الآية:

(١) سورة التوبة/ ١١٤.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥٥

«رَبَّنَا عَلَيْنَكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ».

وفي الآية اللاحقة يشير القرآن الكريم إلى طلب آخر مهم وحساس لإبراهيم عليه السلام وأصحابه في هذا المجال، حيث يقول تعالى:

«رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا».

من المحتمل أن يكون ما ورد في الآية إشارة إلى عمل حاطب بن أبي بلتعة واحتمال صدور شبيهه من أشخاص جهلة يكونون سبباً في تقوية الظالمين، من حيث لا يشعرون، بل يتصورون أنهم يعملون لمصلحة الإسلام.

ويضيف في نهاية الآية: «وَأَغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

فقدرتك يا الله لا تقهر، وحكمتك نافذة في كل شيء.

ومرة أخرى يؤكد سبحانه في آخر آية من هذه الآيات على نفس الأمر الذي ذكر في أول آية، حيث يقول تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ».

لقد كانوا لنا اسوة، ليس فقط في موقفهم ضد منهج الكفر وعبدة الأوثان، بل هم اسوة لنا في الدعاء بين يدي الباري عز وجل، وقدوة لنا في طلب المغفرة منه.

وبدون شك فإن هذا التأسي والإقتداء يرجع نفعه إلى المسلمين أنفسهم قبل الآخرين، لذا يضيف سبحانه في النهاية قوله: «وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ».

وذلك أن عقد الولاء مع أعداء الله يقوى عودهم وشوكتهم وبالتالي يؤدي إلى هزيمة المسلمين.

وفي الغالب فإن وجود القدوة في حياة البشر مؤثر في تربيتهم وتوجيههم، ولهذا السبب فإن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين، وبقية الأنبياء الكرام عليهم السلام كانوا موضع هداية البشرية من خلال أعمالهم والتزاماتهم.

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَمَّا يَنْهَأَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَأَكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥٦

مودّة الكفار غير الحربيين: يستمر الحديث في هذه الآيات المباركات تكملة للموضوعات التي طرحت في الآيات السابقة حول «الحب في الله والبغض في الله» وقطع العلاقة مع المشركين، بالرغم من أن قطع هذه الرابطة يولد فراغاً عاطفياً بالنسبة للبعض من المسلمين، فإن المؤمنين الصادقين، وأصحاب رسول الله المخلصين آمنوا بهذا المنهج وثبتوا عليه، والله تعالى بشّر هؤلاء ألا يحزنوا، لأن الثواب هو جزاؤهم بالإضافة إلى أن هذه الحالة سوف لن تستمر طويلاً، حيث يقول سبحانه: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً».

ويتحقق هذا الوعد وتصدق البشارة في السنة الثامنة للهجرة حيث من الله على المسلمين بفتح مكة، ودخل أهلها جماعات جماعات في دين الإسلام الحنيف، مصداقاً لقوله تعالى: «يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا». وعند ذلك تبدد غيوم الظلمة والعداء والعدا من سماء حياتهم، وتشرق نفوسهم بنور الإيمان وحرارة الودّ وأجواء المحبة والصدقة.

وعلى كل حال، إذا تباعد بعض الناس عن خط الإسلام والمسلمين وكانت تربطهم علاقات إيجابية مع المسلمين، ففي مثل هذه الحالة

لا ينبغي اليأس، لأن الله تعالى قادر على كل شيء، ويستطيع تغيير ما في قلوبهم، فهو الذي يغفر الذنوب والخطايا لعباده، حيث يضيف تعالى في نهاية الآية: «وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

وتبين الآيات اللاحقة شارحة وموضحة طبيعة علاقة المودة مع المشركين، حيث يقول سبحانه: «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

إن الاستفادة من الآيات الكريمة حول طبيعة وكيفية العلاقة بين المسلمين وغيرهم هو (أصل كلي) لا يختص بذلك الوقت فقط، بل يمثل خطأ عاماً لطبيعة هذه العلاقة في كل الأزمنة سواء اليوم أو غداً، في حياتنا المعاصرة والمستقبلية.

وواجب المسلمين وفق هذه الاسس أن يقفوا بكل صلابه أمام أيه مجموعه، أو دوله، تتخذ موقفاً عدائياً منهم أو تعين من أراد بالإسلام والمسلمين سوءاً ... وقطع كل صلّه قائمه على أساس المحبه والصدقه معهم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥٧

أما إذا كان الكفار في موقع محايد إزاء الإسلام والمسلمين، أو أنهم متعاطفون معهم، عندئذ يستطيع المسلمون أن يقيموا علاقات حسنه ويرتبطوا وإياهم بروابط الموده على أن لا تكون بالصورة التي تكون بين المسلمين أنفسهم، ولا بالشكل الذي يؤدي إلى تغلغلهم في صفوف المسلمين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا حَيَاءُكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَا تَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: صالح رسول الله صلى الله عليه وآله بالحديبيه مشركى مكه على أن من آتاه من أهل مكه، رده عليهم، ومن أتى أهل مكه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فهو لهم، ولم يردوه عليه، وكتبوا بذلك كتاباً، وختموا عليه. فجاءت سبيعه بنت الحرث الأسميه، مسلمه بعد الفراغ من الكتاب والنبى صلى الله عليه وآله بالحديبيه. فأقبل زوجها مسافر من بنى مخزوم، في طلبها، وكان كافراً. فقال: يا محمّد، اردد على امرأتى، فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك وهذه طينه الكتاب لم تجف بعد. فنزلت الآية «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ» من دار الكفر إلى دار الإسلام «فَأَمْتَحِنُوهُنَّ».

قال ابن عباس: امتحانهن أن يستحلفن ما خرجت من بغض زوج، ولا رغبه عن أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، وما خرجت إلحجاباً لله ورسوله. فاستحلفها رسول الله صلى الله عليه وآله فحلفت بالله الذى لا إله إلا هو على ذلك. فأعطى رسول الله صلى الله عليه وآله زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردّها عليه، فتزوجها عمر بن الخطاب.

فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يرد من جاءه من الرجال، ويحبس من جاءه من النساء إذا امتحن ويعطى أزواجهن مهورهن.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥٨

التفسير

تعويض خسائر المسلمين والكفار: إستعرضت الآيات السابقة موضوع «البغض فى الله» وما يترتب على ذلك من قطع أى صلّه مع أعداء الله ... أما موضوع هذه الآيات فهو عن «الحب فى الله» وعن طبيعة العلاقة مع الذين انفصلوا عن الكفر وإرتبطوا بالإيمان.

وينصب الحديث فى الآية الاولى - من هذه الآيات المباركات - عن النساء المهاجرات، حيث ضمت هذه الآية سبع نقاط تتعلق بالنساء المهاجرات، كما تناولت نقاطاً اخرى تختص بالنساء المشركات.

النقاط التي تختص بالنساء المهاجرات هي:

١- امتحان النساء المهاجرات، حيث يوجه سبحانه الحديث إلى المؤمنين فيقول تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ».

إنّ هذا الإمتحان هو أن يستحلفن أن هجرتهن لم تكن إلّا من أجل الإسلام.

كما يوجد احتمال آخر حول كيفية امتحان النسوة المهاجرات، وذلك كما ورد في الآية (١٢) من نفس السورة. قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

ومن الممكن أن يكون الكذب في الحلف أيضاً، فيقول البعض خلافاً لما يعتقد به، إلّا أنّ التزام الكثير من الناس حتى المشركين في ذلك الزمان بمسألة البيعة والحلف بالله كان سبباً في تقليص دائرة غير الصادقين.

لذا يضيف سبحانه في العبارة التالية: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ».

٢- يقول سبحانه في الأمر اللاحق: «فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ».

٣- في ثالث نقطة التي هي دليل على الحكم السابق يضيف تعالى: «لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ».

فالإيمان والكفر لا يجتمعان في مكان واحد، لأنّ عقد الزواج المقدس لا يمكن أن يربط بين محورين وخطيين متضادين (خط الإيمان) من جهة و (الكفر) من جهة اخرى.

٤- كان المتعارف بين العرب أن يدفعوا للمرأة مهرها سلفاً، ولهذا المعنى أشار سبحانه في قوله في الأمر الرابع: «وَأَنفَقُوا مِمَّا أَنفَقُوا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٥٩

بالرغم من أن أزواج المؤمنات كفار فلا بدّ من إعطائهم ما أنفقوا من مهور على زوجاتهم، وذلك لأنّ الطلاق والانفصال قد تمّ بمبادرة من المرأة بسبب إيمانها، لذا توجب العدالة الإسلامية دفع خسارة الزوج.

وطبيعي أنّ دفع المهر يكون لمن عقد معاهدة صلح من الكفار مع المسلمين، كما في صلح الحديبية.

٥- الحكم الآخر الذي يلي الحكم أعلاه، فهو قوله تعالى: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ».

ومن الضروري ملاحظة أنّ انفصال المرأة المؤمنة عن زوجها الكافر لا يحتاج إلى طلاق، إلّا أنّه لا بدّ من انتهاء العدة.

٦- أمّا إذا كان الزوج قد آمن بالإسلام، وبقيت المرأة كافرة، فهنا تنفصل الرابطة الزوجية، فتقطع صلة زواجهما، كما في قوله تعالى: «وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ».

«عصم»: جمع عصمة، وهي في الأصل بمعنى المنع، وهنا بمعنى النكاح والزوجية.

«الكوفار»: جمع كافرة، بمعنى النساء الكافرات.

٧- أمّا آخر حكم ذكر في الآية الكريمة، فهو مهور النساء اللواتي ارتددن عن الإسلام والتحقن بالكفار فإنّ لكم الحق في المطالبة بمهورهن مثلما للكفار الحق في المطالبة بمهور زوجاتهم اللاتي دخلن دائرة الإسلام والتحقن بالمسلمين، حيث يقول تعالى: «وَسَلُّوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسَلُّوا مَا أَنفَقُوا». وهذا ما توجه العدالة والإحترام المتقابل للحقوق.

وفي نهاية الآية- وتأكيذاً لما سبق- يقول سبحانه: «ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

إنّ هذه الأحكام المستلهمة من العلم الإلهي، الممتزجة بحكمته تعالى.

والإلتفات إلى حقيقة أنّ كون جميع هذه الأحكام إلهية يعدّ أكبر ضماناً إجرائية لها في قوّة التنفيذ.

وإستعرضت ثاني و آخر آية من هذه الآيات متابعاً لما تقدّم، بعض الامور في هذا الصدد.

يقول تعالى أنّه في كل مرّة ترتد امرأة متزوجة عن الإسلام وتلتحق بالكفار، ثم حدثت معركة بينكم وبين الكفار وحالفكم النصر

عليهم وغمتم منهم مغانم فاعطوا الذين ذهبت زوجاتهم إلى الكفار: «وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٦٠

وتدعو الآية الكريمة في نهايتها جميع المسلمين إلى الالتزام بالتقوى حيث يقول تعالى: «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ».

والأمر بالتقوى هنا يمكن أن يكون بمراعاة الدقة والعدل في تعيين مقدار مهر الزوجه، باعتبار أن هذا الأمر يعتمد فيه على قول الزوج في الغالب، ولا- يوجد سبيل لإثبات هذا الحق إلا أقوال الزوجين، ولاحتمال أن تسبب الوسواس الشيطانية في الإدعاء بمبلغ أكثر من المقدار الحقيقي للمهر، لذا يوصى بالتقوى.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَعْفِفْنَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) شروط بيعه النساء: استمراراً للبحث الذي تقدم في الآيات السابقة والذي استعرضت فيه أحكام النساء المهاجرات، نتحدث هذه الآية عن تفاصيل وأحكام بيعه النساء المؤمنات مع الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

لقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت يوم فتح مكة لما فرغ النبي صلى الله عليه وآله من بيعه الرجال وهو على الصفا جاءته النساء يبايعنه فنزلت هذه الآية، فشرط الله تعالى في مبايعتهم أن يأخذ عليهن هذه الشروط. يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَعْفِفْنَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وبعد هذه الآية أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله من النساء المؤمنات.

وروى أنه صلى الله عليه وآله كان إذا باع النساء، دعا بقدر ماء، فغمس فيه يده، ثم غمسن أيديهن فيه. وقيل: إنه كان يبايعهن من وراء الثوب.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَشْكُرُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبْغُوا مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣) بدأت هذه السورة بآية تؤكد على قطع كل علاقة بأعداء الله، وتختتم هذه السورة بآية

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٦١

تؤكد هي الاخرى على نفس المفهوم والموقف من أعداء الله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ».

ويحذر القرآن الكريم من أن يتخذ أمثال هؤلاء أولياء وأن تفسى لهم الأسرار فيحيطون علماً بخصوصيات الوضع الإسلامي.

إن عبارة «قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» لها مفهوماً واسعاً حيث يشمل جميع الكفار والمشركين. والتعبير بـ «الغضب» في القرآن الكريم لا ينحصر باليهود فقط، إذ ورد بشأن المنافقين أيضاً كما في الآية (٦) من سورة الفتح.

ثم تناول الآية أمراً يعتبر دليلاً على هذا النهي حيث يقول تعالى: «قَدْ يَشْكُرُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبْغُوا مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ».

ذلك أن موتى الكفار سيرون نتيجة أعمالهم في البرزخ حيث لا رجعة لهم لجبران ما مضى من أعمالهم السيئة، لذلك فإنهم يشكروا تماماً من النجاة، وهؤلاء المجرمون في هذه الدنيا قد غرقوا في آثامهم وذنوبهم إلى حد فقدوا معه كل أمل في نجاتهم، كما هو الحال بالنسبة للموتى من الكفار.

«نهاية تفسير سورة الممتحنة»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٦٣

محتوى السورة: تدور أبحاث هذه السورة حول محورين أساسيين.

الأول: فضيلة الإسلام على جميع الأديان السماوية، وضمان خلوده وبقائه.

والثاني: وجوب الجهاد في طريق حفظ المبدأ وترسيخ أركانه وتطوير العمل لتقدمه والإلتزام به.

إلا أننا حينما نتأمل في الآيات الكريمة نلاحظ إمكانية تقسيمها إلى ثلاثة أقسام أخرى:

١- الدعوة إلى الانسجام بين القول والعمل.

٢- الإشارة إلى موقف اليهود من العهود ونقضهم لها، بالإضافة إلى بشارة السيد المسيح عليه السلام بظهور الإسلام العظيم.

٣- استعراض لحياة حوارى السيد المسيح والدعوة لاستلهاام الدروس من سيرتهم.

إن إختيار إسم «الصف» لهذه السورة كان بلحاظ العبارة التى وردت فى الآية الرابعة منها، وتسمى أحياناً بسورة «عيسى»، أو سورة «الحواريين».

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان: ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة عيسى عليه السلام كان عيسى مصلياً عليه، مستغفراً له ما دام فى الدنيا، وهو يوم القيامة رفيقه».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٦٤

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُوصٌ (٤)

سبب التزل

فى تفسير مجمع البيان: قيل: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد، يقولون: وددنا لو أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعمل به، فأخبرهم الله أن أفضل الأعمال إيمان لا شك فيه والجهاد. فكره الناس، وشق عليهم، وتباطأوا عنه، فنزلت الآية.

التفسير

اعتبرت هذه السورة من السور المسبحات، ذلك لأنها تبدأ بتسبيح الله فى بدايتها:

«سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ».

ولم لا يسبحونه ولا ينزهونه من كل عيب ونقص: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» القدير الذى لا يقهر والحكيم المحيط بكل شىء علماً.

ثم يضيف البارى عز وجل فى معرض لوم وتوبيخ للأشخاص الذين لم يلتزموا بأقوالهم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ».

ثم يضيف سبحانه مواصلاً القول: «كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ».

فمفهوم الآية يشمل كل تخلف عن عمد، سواء تعلق بنقض العهود والوعود أو غير ذلك من الشؤون، حتى أن البعض قال: إنها تشمل حتى النذور.

وفى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «عدة المؤمن أخاه نذر لا كفارة له، فمن أخلف فبخلف الله بدأ، ولمقته تعرض،

وذلك قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ».

ثم طرح الآية اللاحقة مسألة مهمة للغاية فى التشريع الإسلامى، وهى موضوع الجهاد فى سبيل الله، حيث يقول تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُوصٌ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٦٥

«مرصوص»: من مادة «رصاص» بمعنى معدن الرصاص، ولأن هذه المادة توضع بعد تذويبها بين طبقات البناء من أجل استحكامه

وجعله قوياً ومتيناً للغاية، لذا اطلقت هذه الكلمة هنا على كل أمر قوى ومحكم.

والمقصود هنا أن يكون وقوف وثبات المجاهدين أمام العدو قوياً راسخاً.

إنّ من العوامل المهمة والمؤثرة في تحقيق النصر عامل الانسجام ووحدة الصفوف أمام الأعداء في ميادين القتال، وهذا المبدأ لا يجدر بنا الالتزام به في الحرب العسكرية فحسب، بل علينا تجسيده في الحروب الاقتصادية والسياسية ... وإلا فسوف لن نحقق شيئاً.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) البشارة بظهور النبي (أحمد): تأتي الآية الكريمة - أعلاه - مكتملة لمحورين أساسيين تحدثت عنهما الآيات السابقة وهما (الانسجام بين القول والعمل) و (وحدة الصف الإيماني)، لتستعرض لنا زاوية من حياة النبيين العظميين (موسى وعيسى) عليهما السلام، ومتطرفة إلى طبيعة التناقض والانفصام بين أقوال أتباعهم وأعمالهم، بالإضافة إلى (عدم انسجام صفوفهم) وأخيراً المصير السيء الذي انتهوا إليه. يقول تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ».

والمراد من هذا الإيذاء هو ما كانوا ينسبونه لموسى عليه السلام من تهم، كما بيّن ذلك في الآية (٦٩) من سورة الأحزاب: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا».

ومما لا شك فيه أنّ هذه الممارسات لم تبق بدون عقاب كما نقرأ ذلك في نهاية الآية حيث قال تعالى: «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ».

إنّ ما يستفاد من المفهوم الذي استعرضته الآية المباركة أنّ الهداية والضلالة وإن كانت من قبل الله سبحانه، إلّا أنّ مقوماتها وأرضيتها تكون من الإنسان نفسه.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٦٦

وتشير الآية اللاحقة إلى مسألة تكذيب بنى إسرائيل لرسالة عيسى عليه السلام ومخالفتهم له، حيث يضيف تعالى: «وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ».

وهذا بيان من عيسى عليه السلام أنّه يمثل همزة وصل وحلقة من الرسالة بين نبيين وكتابين وامتين، فقد سبقته رسالته موسى عليه السلام وكتابه، وستليه رسالته الإسلام على يد النبي العظيم محمد صلى الله عليه وآله.

وبالرغم من أنّ قسماً من بنى إسرائيل قد آمنوا بالرسول الموعود، إلّا أنّ الأكريّة الغالبة كان لهم موقف عدائي متشدّد تجاهه، مما دعاهم وسؤل لهم إنكار معاجزه الواضحة، وذلك ما يجسده قوله تعالى: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ».

العجيب هو أنّ اليهود كانوا قد شخصوا الرسول العظيم محمد صلى الله عليه وآله قبل مشركى العرب، إلّا أنّهم بقى على لجابتهم وإصرارهم وعنادهم وإنكارهم له.

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَمَّا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوْلَوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم: لاحظنا في الآيات السابقة موقف الإصرار والعناد لجموع أهل الكتاب من دعوة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله رغم ما بشر به المسيح عليه السلام حول ظهور رسول الإسلام، وما اقترن بذلك من بينات ودلائل ومعاجز واضحة. وتبين الآيات - مورد البحث - عاقبه هؤلاء ومصيرهم السيء ونتيجة عملهم الخائب. فيقول تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ».

نعم، إنّ أمثال هؤلاء المكذّبين لدعوة الرسول الإلهي، الذين يعتبرون ما يأتي الرسول به من إعجاز سحراً، وما يتحدث به من مبادئ

إلهية سامية ضلالاً وباطلاً... فَإِنَّ هَؤُلَاءِ هُم أَظْلَمُ النَّاسِ، لِأَنَّهُمْ يَصْدُونَ أَنفُسَهُمْ عَنِ طَرِيقِ الْحَقِّ وَالْهُدَايَةِ وَالنَّجَاةِ، وَيَصْدُونَ سَائِرَ عِبَادِ اللَّهِ عَنِ مَنَابِعِ الْفَيْضِ الْإِلَهِيِّ وَيَحْرَمُونَهُمْ مِنَ السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ.

ويضيف سبحانه في نهاية الآية: «وَاللَّهُ لَيَهْدِيَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٦٧

ثم يستعرض القرآن الكريم نقطة اخرى ويبيّن لنا أنّ أعداء الحق ليسوا بقادرين على الوقوف بوجه مبادئ السماء والأنوار الإلهية العظيمة، حيث يقول سبحانه: «يُرِيدُونَ لِيُطْفَؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ».

إنّ هذه الجهود والمؤامرات الشيطانية غير قادرة على التأثير وإطفاء شعله الوهج الرسالي الذي أتى به محمّد صلى الله عليه وآله، وبذلك تحقّق التنبؤ القرآني في الفشل الذريع الذي لحق بهؤلاء الذين أرادوا كيداً بالرسالة الإلهية... بل إنّ النور الإلهي في حالة إنتشار وإتساع يوماً بعد يوم، كما تكشف ذلك لنا الاحصائيات، حيث إنّ عدد مسلمي العالم في تزايد مستمر رغم الجهود المتظافرة من الصهاينة والصليبيين و (الماديين الشرقيين).

وهذا الأمر بحد ذاته يمثّل معجزة خالدة من معجزات القرآن الكريم وهذا الدين العظيم.

ويتوضّح التأكيد الأكثر في آخر آية- مورد البحث- حيث يعلن القرآن الكريم ذلك صراحة بقوله عز وجل: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ».

وبذلك أثبت أحداث المستقبل صدق هذا التنبؤ العظيم، وغلبة الإسلام من الناحية المنطقية على كافة المذاهب الاخرى وقد حقّق خطوات عظيمة في طريق التقدّم على الأعداء، واكتسح مناطق واسعة من العالم، وهو الآن في تقدّم مستمر، وقوة يخشى منها عالمياً.

ومن المسلم أنّ النتيجة النهائية كما نعتقد سوف تكون للإسلام، وذلك عند ظهور الإمام المهدي- أرواحنا فداء- إنّ هذه الآيات بذاتها دليل على هذا الظهور العظيم. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تَوَمَّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُجْزَوْنَهَا نَصِيبٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشْرُ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) التجارة الربحة: قلنا في بداية السورة أنّ الأهداف المهمة لهذه السورة هو الدعوة إلى الإيمان والجهاد في سبيل الله، وما الآيات مورد البحث إلّا تأكيد على هذين الأصلين، من

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٦٨

خلال مثال رائع يبعث على الحركة الإلهية في روح الإنسان، والتي هي شرط إنتصار الإسلام على كل الأديان، وقد اشير إلى هذا العامل في الآيات الماضية. يقول تعالى في البداية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ».

وقد بادر في نفس الوقت وبدون إنتظار للإجابة متحدثاً عن هذه التجارة المتعددة المنافع، حيث يضيف تعالى: «تَوَمَّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ». ومما لا شك فيه أنّ الله سبحانه غني عن هذه التجارة النافعة وأنّ جميع منافعها تعود على المؤمنين. لذا يقول في نهاية الآية: «ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

إنّ الإيمان بالرسول لا ينفصل عن الإيمان بالله تعالى، كما أنّ الجهاد بالنفس لا ينفصل عن الجهاد بالمال.

وعند التدقيق في الآية المباركة نلاحظ أنّه تعالى قد قدّم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، لا باعتباره أكثر أهمية، بل بلحاظ أنّه مقدمه للجهاد بالنفس، لأنّ مستلزمات الجهاد لا تنهياً إلّا عند توفرّ الإمكانيات المادية.

لقد تمّ تسليط الأضواء على ثلاثة عناصر أساسية في هذه التجارة العظيمة والتي لا مثيل لها.

(فالمشتري) هنا هو الله سبحانه، و (البائع) هم المؤمنون، و (البضاعة) هي الأنفس والأموال، ويأتي دور العنصر الرابع في هذه الصفقة وهو الثمن والعوض لهذه المعاملة العظيمة.

يقول تعالى: «بَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». وتستعرض الآية مرحلة الجزء الاخرى في البداية حيث غفران الذنوب باعتبارها أهم عوامل القلق وعدم الراحة الفكرية والنفسية للإنسان، وعندما يتحقق الغفران له فمن المسلم أن الراحة والهدوء والإطمئنان تنشر ظلالها عليه.

كما أننا نقرأ في الآية اللاحقة عن شعبتين من الهبات الإلهية التي تفضل بها البارئ على عباده المؤمنين في هذه الدنيا حيث يقول: «وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ».

يالها من تجارة مباركة مربحة حيث تشمل على الفتح والنصر والنعمة والرحمة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٦٩

ولهذا فإنه سبحانه يبارك للمؤمنين تجارتهم العظيمة هذه، ويزف لهم البشرى بقوله تعالى: «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ». يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) كونوا كالحواريين: في الآية الأخيرة من سورة الصف يدور الحديث مرّة أخرى حول محور (الجهاد) الذي مرّ ذكره سابقاً في هذه السورة، إلّا أن الحديث عنه يستمر هنا في هذه الآية - أيضاً بأسلوب جديد. لقد طرحت الآية الكريمة مسألة مهمة غير الجنة والنار وذلك بقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ».

نعم، أنصار الله، الله الذي هو منشأ جميع القدرات، ومرجعها.

ثم يستشهد بنموذج تاريخي رائد كى يوضح سبحانه أن هذا الطريق لن يخلو من السالكين والعشاق الإلهيين حيث يضيف تعالى: «كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ».

ويكون الجواب على لسان الحواريين بمنتهى الفخر والإعتزاز: «قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ». وساروا في هذا الدرب حاملين لواء الخير والهداية، ومتصدّين لحرب أعداء الحق والرسالة، حيث يقول سبحانه: «فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ». وهنا يأتي العون والنصر والإغاثة والمدد الإلهي للطائفة المؤمنة حيث يقول سبحانه:

«فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ».

وأنتم أيضاً يا حواريي محمّد، يشملكم هذا الفخر وتحيطكم هذه العناية والالطف الإلهي، لأنكم أنصار الله، وإن النصر على أعداء الله سيكون حليفكم أيضاً، كما انتصر الحواريون عليهم.

من هم الحواريون؟ جاء ذكر الحواريين في القرآن الكريم خمس مرّات، مرتين منها في هذه السورة المباركة.

«الحواريون»: تعبير يراد به الإشارة إلى إثني عشر شخصاً من الأنصار الخواص

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧٠

لعيسى عليه السلام وقد ذكرت أسماؤهم في الأناجيل المتداولة حالياً ك (إنجيل متى، ولوقا باب ٦).

في الدر المنثور: قال رسول الله صلى الله عليه وآله للنفر الذين لاقوه بالعقبة: «أخرجوا إلى إثني عشر رجلاً منكم يكونوا كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى بن مريم». مما يعكس أهمية هؤلاء العظام.

«نهاية تفسير سورة الصف»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧١

٦٢. سورة الجمعة

مختصر الامثل ج ٥ ١٩٩

محتوى السورة: تدور هذه السورة حول محورين أساسيين:

١- التوحيد وصفات الله والهدف من بعثه الرسول ومسألة المعاد.

٢- الأثر التربوي لصلاة الجمعة وبعض الخصوصيات المتعلقة بهذه العبادة العظيمة.

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع: ابى بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة الجمعة اعطى عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة، وبعدد من لم يأتها في أمصار المسلمين».

وقد ورد في الروايات التأكيد الكثير على قراءة سورة الجمعة والمنافقون في صلاة الجمعة، وقد ورد في بعض الروايات أن لا تترك قراءتها ما أمكن، ومع أن العدول في القراءة عن سورة «التوحيد» و«كافرون» إلى سور أخرى غير جائز، إلا أن هذه المسألة مستثناة في صلاة الجمعة، فيجوز العدول عنهما إلى سورة «الجمعة» و«المنافقون» بل عد ذلك مستحباً.

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧٢

تبدأ هذه السورة كذلك بالسيح لله عز وجل، وتشير إلى بعض صفات الجمال والجلال والأسماء الحسنى لله، ويعتبر ذلك في الحقيقة مقدمة للأبحاث القادمة، حيث يقول تعالى:

«يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ». حيث يسبحونه بلسان الحال والقال وينزهونه عن جميع العيوب والنقائص: «الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ».

وبناءً على ذلك تشير الآية أولاً إلى «المالكية والحاكمية المطلقة»، ثم «تنزهه من أى نوع من الظلم والنقص» وذلك لإرتباط اسم الملوك بأنواع المظالم والمآسى، فجاءت كلمة «قدوس» لتنفي كل ذلك عنه جل شأنه.

وبعد هذه الإشارة الخاطفة ذات المعنى العظيم لمسألة التوحيد وصفات الله، يتحدث القرآن عن بعثه الرسول والهدف من هذه الرسالة العظيمة المرتبطة بالعزیز الحكيم القدوس، حيث يقول: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ». وذلك من أجل أن يطهرهم من كل أشكال الشرك والكفر والانحراف والفساد «وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ».

«الأميين»: جمع «امى» وهو الذى لا يعرف القراءة والكتابة (ونسبته إلى الام باعتبار أنه لم يتلق تعليماً فى معهد أو مدرسه غير مدرسه الام).

إن الآية تؤكد على أن نبي الإسلام بعث من بين هؤلاء الاميين الذين لم يتلقوا ثقافة وتعليماً وذلك لبيان عظمة الرسالة وذكر الدليل على حقيقتها، لأن من المحال أن يكون هذا القرآن العظيم وبذلك المحتوى العميق وليد فكر بشرى وفى ذلك المحيط الجاهلى ومن شخص امى أيضاً، بل هو نور أشرق فى الظلمات، وهى بحد ذاتها معجزة باهرة وسنداً قاطعاً على حقيقتها.

ولخصت الآية الهدف من بعثه الرسول صلى الله عليه وآله فى ثلاثة امور، جاء أحدها كمقدمة وهو تلاوة الآيات عليهم، بينما شكّل الأمران الآخران أى (تهذيب وتزكية النفس) و (تعليمهم الكتاب والحكمة) الهدف النهائى الكبير.

نعم، جاء الرسول صلى الله عليه وآله ليعطى الإنسانية ويعلمها العلم والأخلاق، لتستطيع بهذين الجناحين (جناح العلم وجناح الأخلاق) أن تحلق فى عالم السعادة وتطوى مسيرها إلى الله لتنال القرب منه.

ويمكن أن يكون الفرق بين «الكتاب» و«الحكمة» هو أن الأول إشارة إلى القرآن والثانى إشارة إلى سنّة الرسول صلى الله عليه وآله.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧٣

وتعبير «الضلال المبين» إشارة إلى سابقه العرب وماضيهم الجاهلى فى عبادة الأصنام.

نعم لقد جاء الرسول وأنقذهم ببركة الكتاب والحكمة من هذا الضلال والتخبط وزكاهم وعلمهم. وحقاً إن تربية وتغيير مثل هذا المجتمع الضال يعتبر أحد الأدلة على عظمة الإسلام ومعجز نبينا العظيمة.

ولكن لم يكن الرسول مبعوثاً لهذا المجتمع الامى فقط، بل كانت دعوته عامة لجميع الناس، فقد جاء فى الآية التالية: «وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ».

بناءً على ذلك تكون الآية أعلاه شاملة لجميع الأقوام الذين يأتون بعد أصحاب الرسول من العرب والعجم.

وجاء فى آخر الآية: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

بعد أن يشير إلى هذه النعمة الكبيرة- أى نعمة بعث نبي الأكرم وبرنامجه التعليمى والتربوى- يضيف قائلاً: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا قَدَّمْتُ إِلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) الحمار الذى يحمل الأسفار: جاء فى بعض الروايات أن اليهود قالوا: (إذا كان محمداً قد بعث برسالة فإن رسالته لا تشملنا) فردت عليهم الآية مورد البحث فى أول بيان لها بأن رسالته قد اشير إليها فى كتابكم السماوى لو أنكم قرأتموه وعلمتم به. يقول تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا». أى نزلت عليهم التوراه وكلفوا بالعمل بها ولكنهم لم يؤدوا حقها ولم يعملوا بآياتها فمثلهم «كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا».

لقد إقتنع هؤلاء القوم بتلاوة التوراه واكتفوا بذلك دون أن يعملوا بموجبها.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧٤

هؤلاء مثلهم كمثل الحمار الذى يضرب به المثل فى الغباء والحماقة.

ثم يقول تعالى: «بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ». إذ لم يكتفوا بمخالفة القرآن عملاً، بل أنكروه بلسانهم أيضاً، حيث نصبت الآية (٨٧) من سورة البقرة وهى تصف اليهود قائلة: «أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ». ويقول تعالى فى آخر الآية فى عبارة وجيزة: «وَاللَّهُ لَإِيْهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

صحيح أن الهداية شأن إلهى، ولكن ينبغى أن تهياً لها الأرضية اللازمة، وهى الروح التوافق لطلب الحق والبحث عنه، وهى امور يجب أن يهينها الإنسان نفسه، ولا شك أن الظالمين يفتقدون مثل هذه الأرضية.

وقد حملت الروايات بشدة على مثل هؤلاء العلماء الذين لا يعملون بما يعلمون، وفى رواية عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال: «من ازداد علماً ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعداً» (١).

ومثل هؤلاء العلماء سيكونون بلاءً على المجتمع ووبالاً عليه، وسيتهى المجتمع الذى علماءه من هذا القبيل إلى مصير خطير.

يقول الشاعر:

وراعى الشاء يحمى الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب.

وأوضحنا سابقاً أن اليهود اعتبروا أنفسهم امه مختاره، أو نسيجاً خاصاً لا يشبه غيره، وذهبوا إلى أبعد من ذلك حينما ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه المنتقمون، وهذا ما أشارت إليه الآية (١٨) من سورة المائدة: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ». (رغم أنهم يقصدون الأبناء المجازيين).

ولكن القرآن شجب هذا التعالى مره اخرى بقوله: «قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

فالأحباء يتمنون اللقاء دائماً، ولا يتم اللقاء المعنوي بالله يوم القيامة.

إنَّ خوفكم وفراركم من الموت دليل قاطع على أنَّكم متعلقون بهذه الدنيا وغير صادقين في إدعائكم.

(١) المحجبة البيضاء في تهذيب الاحياء ١/ ١٢٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧٥

ثم يشير القرآن إلى سبب خوفهم من الموت بقوله: «وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ».

لأنَّ خوف الإنسان من الموت ناشئ من عاملين أساسيين:

الأول: عدم إيمان الإنسان بالحياة بعد الموت واعتقاده أنَّ الموت زوال وفناء.

والثاني: أعماله السيئة التي يعتقد أنه سيواجهها بعد مماته في عالم الآخرة عندما تقام المحكمة الإلهية.

وإنما يخاف اليهود من الموت لسوء أعمالهم إذ أنهم يعتقدون- أيضاً- بيوم الحساب.

وقد وصفهم القرآن الكريم بالظالمين، وذلك لأنَّ الظلم يتسع ليشمل جميع الأعمال السيئة والجرائم التي إرتكبوها، من قتلهم الأنبياء

وقول الزور وغصب الحقوق وتلوّثهم بمختلف المفسدات الأخلاقية.

غير أنَّ هذا الخوف وذلك الفرار لا يجدي شيئاً، فالموت أمر حتمي لا بدَّ أن يدرك الجميع، إذ يقول تعالى: «قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي

تَفْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

الموت قانون عام يخضع له الجميع بما فيهم الأنبياء والملائكة وجميع الناس: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ»

«١».

وكذلك المثل أمام محكمة العدل الإلهي لا يفلت منها أحد، إضافة إلى علم الله تعالى بأعمال عباده بدقّة وبتفصيل كامل.

وبهذا سوف لا- يكون هناك طريق للتخلّص من هذا الخوف سوى تقوى الله وتطهير النفس والقلب من المعاصي، وبعد أن يخلص

الإنسان لله تعالى فإنه لن يخاف الموت حينئذ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ

الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْيًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَ

تَرَكَوْكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)

(١) سورة الرحمن / ٢٦ و ٢٧.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧٦

سبب النزول

نقل في سبب نزول هذه الآيات وخصوصاً الآية «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً» روايات مختلفة جميعها تخبر عن معنى واحد، هو أنه في أحد

السنوات: أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر، فقدم دحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام، والنبى صلى الله عليه وآله يخطب يوم

الجمعة فلما رآه قاموا إليه بالبيع خشية أن يسبقوا إليه فلم يبق مع النبى صلى الله عليه وآله إلّا رهط، فنزلت الآية فقال صلى الله عليه وآله

آله:

«والذى نفسى بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى أحد منكم لسال بكم الوادى ناراً».

وقال المقاتلان: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله يخطب يوم الجمعة، إذ قدم دحية بن خليفة بن فروة الكلبي، ثم أحد بنى الخزرج

ثم أحد بنى زيد بن مناة من الشام بتجارة. وكان إذا قدم لم يبق بالمدينة عاتق، إلّا آتته وكان يقدم إذا قدم بكل ما يحتاج إليه من دقيق، أو بزر، أو غيره فينزل عند أحجار الزيت، وهو مكان في سوق المدينة، ثم يضرب بالطلب ليؤذن الناس بقدمه، فيخرج إليه الناس ليتبايعوا معه.

فقدم ذات جمعة وكان ذلك قبل أن يسلم ورسول الله صلى الله عليه وآله قائم على المنبر يخطب. فخرج الناس، فلم يبق في المسجد إلّا اثنا عشر رجلاً وامرأة، فقال صلى الله عليه وآله: «لولا هؤلاء لسوّمت عليهم الحجارة من السماء». وأنزل الله هذه الآية «١».

التفسير

أكبر تجمع عبادى سياسى اسبوعى: كانت الأبحاث السابقة تدور حول مسألة التوحيد والنبوة والمعاد، وكذلك ذم اليهود عبيد الدنيا، بينما انصب الحديث فى الآيات مورد البحث على الركائز الإسلامية المهمة التى تؤثر كثيراً على استقرار أساس الإيمان، وتمثل الهدف الأساس للسورة، وهى صلاة الجمعة وبعض الأحكام المتعلقة بها. فى البداية يخاطب الله تعالى المسلمين جميعاً بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

«نودى»: من مادة «نداء» وهى هنا بمعنى الأذان إذ لا نداء للصلاة غير الأذان.

فعندما يرتفع الأذان لصلاة الجمعة يكون لزاماً على الناس أن يتركوا مكاسبهم ومعايشهم، ويذهبوا إلى الصلاة وهى أهم ذكر لله.

(١) تفسير مجمع البيان ١٠ / ١١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧٧

من الواضح أن لأمر ترك البيع والشراء مفهوماً واسعاً يشمل كل عمل يمكن أن يزاحم الصلاة.

المقصود من (ذكر الله) بالدرجة الأولى هو الصلاة، ولكننا نعلم أن خطبتي صلاة الجمعة مشتملة على الأخرى ومتضمنة (لذكر الله) وهى جزء من صلاة الجمعة، وبناءً على ذلك ينبغى الإسراع لحضور الخطبتين أيضاً.

تضيف الآية التى تليها قائلة: «فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

فى آخر الآية- مورد البحث- ورد ذمّ عنيف للأشخاص الذين تركوا رسول الله صلى الله عليه وآله فى صلاة الجمعة وأسرعوا للشراء من القافلة القادمة، إذ يقول تعالى: «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا».

ولكن «قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ».

فمن المؤكد، أن الثواب والجزاء الإلهى والبركات التى يحظى بها الإنسان عند حضوره صلاة الجمعة والإستماع إلى المواعظ والحكم التى يلقيها رسول الله صلى الله عليه وآله وما ينتج عن ذلك من تربية روحية ومعنوية، لا يمكن مقارنتها بأى شىء آخر، فإذا كنتم تظنون إنقطاع الرزق فإنكم على خطأ كبير لأن «اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ».

التعبير بـ «اللهو» إشارة إلى الطبل وسائر آلات اللهو التى كانت تستعمل عند دخول قافلة جديدة إلى المدينة، فقد كانت تستعمل كإعلان وإخبار عن دخول القافلة، إضافةً إلى كونها وسيلةً للترفيه والدعاية واللهو.

بحوث

١- أول صلاة جمعة فى الإسلام: فى المجمع: قيل: قبل أن تنزل الجمعة، قالت الأنصار لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام وللنصارى يوم أيضاً مثل ذلك، فلنجعل يوماً نجتمع فيه، فنذكر الله عزّ وجل ونشكره. وكما قالوا يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة. فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلّى بهم يومئذ وذكرهم فسّموه يوم الجمعة حين اجتمعوا إليه فذبح لهم أسعد بن زرارة شاة، فتغدوا وتعشوا من شاة واحدة، وذلك لقلتهم. فأنزل الله تعالى فى ذلك: «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ» الآية. فهذه أول جمعة فى الإسلام. فأما أول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه فقيل: إنه قدم رسول الله صلى الله عليه وآله مهاجراً

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧٨

حتى نزل قبا على عمرو بن عوف، وذلك يوم الإثنين، لإثنتي عشرة ليلة، خلت من شهر ربيع الأول حين الضحى، فأقام بقبا يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسس مسجدهم ثم خرج من بين أظهرهم يوم الجمعة قاصداً المدينة فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم قد اتخذ اليوم في ذلك الموضع مسجده. وكانت هذه الجمعة أول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وآله في الإسلام. فخطب في هذه الجمعة وهي أول خطبة خطبها بالمدينة.

٢- أهمية صلاة الجمعة: إن أفضل دليل على أهمية هذه الفريضة العظيمة هو الآيات الأخيرة في هذه السورة المباركة، التي أمرت جميع المسلمين وأهل الإيمان بمجرد سماعهم لأذان الجمعة أن يسرعوا إليها ويتركوا الكسب والعمل، وكل ما من شأنه أن يزاحم هذه الفريضة.

ورد عن النبي صلى الله عليه وآله في خطبة طويلة نقلها المخالف والوالف: «إن الله تعالى فرض عليكم الجمعة، فمن تركها في حياتي أو بعد موتي إستخفافاً بها أو جحوداً لها، فلا جمع الله شمله ولا بارك له في أمره، ألا ولا صلاة له، ألا ولا زكاة له، ألا ولا حج له، ألا ولا صوم له، ألا ولا برّ له، حتى يتوب» (١).

ومن الملفت للنظر أنه قد ورد ذم شديد لتارك صلاة الجمعة، عندما تكون صلاة الجمعة واجباً عتيباً (أى في زمن حضور الإمام المعصوم) وأما في زمن الغيبة، فإنه لا يكون مشمولاً بهذا الذم والتقريع رغم عظمة صلاة الجمعة وأهميتها في هذا الوقت أيضاً.

٣- فلسفة صلاة الجمعة العبادية والسياسية: إن صلاة الجمعة - قبل كل شيء - عبادة جماعية ولها أثر العبادات عموماً، حيث تطهر الروح والقلب من الذنوب، وتزيل صداد المعاصي عن القلوب.

أما من الناحية السياسية والاجتماعية فهي أكبر مؤتمر اسبوعي عظيم بعد مؤتمر الحج السنوي، لهذا نجد الرسول صلى الله عليه وآله يقول في روايته أن الجمعة حج من لا يملك القدرة على المشاركة في الحج.

ويعطى الإسلام أهمية خاصة لثلاثة مؤتمرات كبيرة:

(١) وسائل الشيعة ٧/٥ (باب وجوب صلاة الجمعة). رسائل شهيد الثاني، رسالة الجمعة / ٦١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٧٩

التجمعات التي تتم يومياً لصلاة الجماعة.

التجمع الأسبوعي الأوسع في صلاة الجمعة.

ومؤتمر الحج الذي يعقد في كل سنة مرة.

ودور صلاة الجمعة مهم جداً خاصة وأن من واجبات الخطيب هو التحدث في الخطبتين عن المسائل السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

«نهاية تفسير سورة الجمعة»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨١

٦٣. سورة المنافقون

محتوى السورة: يمكن تقسيم مباحث هذه السورة بأربعة أقسام:

١- صفات المنافقين وتتضمن نقاطاً مهمة وحساسة.

٢- تحذير المؤمنين من خطط المنافقين ووجوب الإنتباه إلى ذلك ورصده بشكل دقيق.

٣- حثّ المؤمنين على عدم الاستغراق في الدنيا وزخرفها والإنشغال بذلك عن ذكر الله.

٤- حثّ المسلمين على الإنفاق في سبيل الله، والإنفاق من الأموال قبل الموت وقبل اشتعال الحسرة في نفوسهم.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة المنافقين برأ من النفاق».

وفي ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الواجب على كل مؤمن إذا كان لنا شيعة أن يقرأ في ليلة الجمعة بالجمعة وسبّح اسم ربّك الأعلى، وفي صلاة الظهر بالجمعة والمنافقين، فإذا فعل ذلك فكأنما يعمل بعمل رسول الله صلى الله عليه وآله وكان جزاؤه وثوابه على الله الجنة».

إنّ المرور على هذه السور دون الاستفادة منها على الصعيد العملي وجعلها برنامجاً للحياة، سوف لن يؤدّي إلى زوال روح النفاق وإجتثاث جذورها من نفس الإنسان.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨٢

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصِيدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَمَّا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمِعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهمْ خُشْبٌ مِّنْ دَعْدٍ يُحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعِدُّ فَخُذْهُمْ قَاتِلْتَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) مصدر النفاق وعلامات المنافقين: نذكر مقدمة قبل الدخول في تفسير هذه الآيات، وهي أنّ الإسلام طرح مسألة النفاق والمنافقين مع هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وأصحابه إلى المدينة، وبداية استحكام أسس الإسلام وظهور عزّه، فلم تبرز ظاهرة النفاق في مكة، لأنّ الأعداء يصعب عليهم التجاهر في عدائهم، بل قد يتعذر ذلك عليهم في بعض الأحيان، لهذا اختار أعداء الإسلام المهزومون أن يواصلوا خططهم التخريبية من خلال إظهار الإسلام وإبطان الكفر، وانخرطوا ظاهراً في صفوف المسلمين، بينما ظلّوا محافظين على كفرهم في باطنهم.

وهكذا تكون غالباً طبيعة أعداء كل ثورة ودعوة بعد إشتداد عودها وقوة ساعدها، إذ تواجه الكثير من الأعداء وكأنّهم أصدقاء.

ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا نزلت كل تلك الآيات التي تصف المنافقين وتشرح حالهم، في المدينة ولم تنزل في مكة.

ومما يجدر الإشارة إليه أنّ هذه المسألة- أي مسألة النفاق- غير محصورة بعصر الرسول، بل إنّ جميع المجتمعات- وخاصة الثورية منها- تكون عرضة للإصابة بهذه الظاهرة الخطيرة، ولذلك يجب أن يدرس القرآن الكريم وما جاء فيه من تجارب وإرشادات من خلال هذه النظرة الحيوية، لا من خلال اعتبارها مسألة تاريخية لا علاقة لها بالواقع، وبهذا يمكن إستلهام الدروس والحكم لمكافحة النفاق وخطوط المنافقين في المجتمعات الإسلامية في الوقت الحاضر.

ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً أنّ خطر المنافقين يفوق خطر باقي الأعداء، لخفائهم وعدم

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨٣

القدرة على تشخيصهم بسهولة من جهة، ولكونهم أعداء يعيشون في داخل الجسم الإسلامي وربّما ينفذون إلى قلبه نفوذاً يصعب معه فرزهم وتحديددهم من جهة أخرى.

ويأتى خطرهم ثالثاً من إرتباطاتهم مع سائر عناصر المجتمع بعلاقات بحيث تصعب مكافحتهم.

ولهذا نرى أنّ أكثر الضربات التي تلقّاها الإسلام على مدى التاريخ جاءت من هذا المعسكر، أي معسكر النفاق ولهذا نلاحظ أنّ الإسلام شنّ حملات شديدة جداً عليهم.

وبعد هذه المقدمة نرجع إلى تفسير الآيات.

إنّ أوّل صفة يذكرها القرآن للمنافقين هي: إظهار الإيمان الكاذب الذي يشكّل الظاهرة العامة للنفاق، حيث يقول تعالى: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ وَقَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ».

ويضيف: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ». لأنهم لم يريدوا الإخبار عن واقعية رسالته رسول الله وإنما أرادوا الإخبار عن إعتقادهم برسالته، وهذا من الكذب المحض.

وهذه أول علامة من علامات المنافقين، حيث اختلاف الظاهر مع الباطن، ففي الوقت الذي يظهر المنافقون الإيمان ويدعون به بألسنتهم، نرى قلوبهم قد خلت من الإيمان تماماً، وهذه الظاهرة تشكّل المحور الرئيسي للنفاق.

وتذكر الآية اللاحقة العلامة الثانية: «اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

ذلك لأنهم يضعون الموانع والعراقيل في طريق هداية الناس، وليس هناك أقبح من أن يمنع الإنسان غيره من الإهداء.

من عبارة «جُنَّةً» يتضح أنّ المنافقين في حالة حرب دائمة ضد المؤمنين، وأنّ الظواهر التي يتخفون وراءها لا ينبغي أن تخدع أحداً. وتتطرق الآية اللاحقة إلى ذكر السبب الذي يقف وراء هذه الأعمال السيئة، حيث يقول تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ».

والواقع أنّ المنافقين مجموعتان:

المجموعة الأولى: كان إيمانها منذ البداية ظاهرياً وصورياً.

والثانية: كان إيمانها حقيقياً في البداية ثم ارتدوا ولزموا طريق النفاق.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨٤

والظاهر أنّ الآية - مورد البحث - تتعرض للمجموعة الثانية.

وتشبه هذه الآية (٧٤) من سورة التوبة التي تقول: «وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ».

فإنّ عدم قدرتهم على إدراك الحقائق الواضحة تعتبر علامة ثالثة من علامات نفاقهم.

وتوضح الآية اللاحقة علامات المنافقين بشكل أكثر وضوحاً، إذ يقول تعالى: «وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ» فهم يتمتعون بظواهر جميلة وأجسام لطيفة.

«وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ» لأنه ينطوي على شيء من التحسين والعدوثة.

وفي الوقت الذي يتأثر الرسول بحديث بعضهم - كما يبدو من ظاهر التعبير - فكيف بالآخرين!؟

هذا فيما يخصّ ظاهريهم، أما باطنهم ف «كَانَتْهُمْ حُشْبٌ مُّسْنَدَةٌ».

فأجسامهم خالية من الروح، ووجوههم كالحق، وكيانهم خاوٍ منخور من الداخل، ليس لهم أنية إرادة ولا- يتمتعون بأنية استقلالية (كالأخشاب المسندة) المكسدة.

وكان هؤلاء يتميزون بالضعف والخواء في داخلهم، لا يعرفون التوكل والاعتماد على الله ولا على أنفسهم، فهم كما يصفهم القرآن الكريم في آية أخرى: «يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ».

يسيطر عليهم الخوف والرعب وسوء الظن، وتغمر أرواحهم النظرة السوداء السيئة ...

تجددهم في خوف دائم من ظلمهم وخيانتهم.

وقد تبه القرآن الكريم في نهاية الآية قائلاً: «هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ». أي: هم الأعداء الواقعيون.

ويضيف: «فَاتْلُوهُمْ اللَّهُ أُنَى يُؤْفَكُونَ». أي: كيف ينحرفون عن الحق.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسِهِمْ وَرَأَيْتَهُمْ يُصِيدُونَ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفُضُوا وَ لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَمَّا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْمَاعَزُ مِنْهَا الْمَآذِلَّ وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨٥

سبب النزول

ذكرت كتب التاريخ والتفسير سبباً مسهباً لنزول هذه الآيات، وجاء في الكامل في التاريخ: أنه بعد غزوة بني المصطلق ازدحم الناس على الماء، وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له: جهجاه، فازدحم هو وسانان الجهني حليف بني عوف من الخزرج على الماء فاقتتلا- فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين. فغضب عبد الله بن أبي سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث السن فقال: أو قد فعلوها؟ قد كاثرونا في بلادنا، أما والله «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم ببلادكم وقاسمتموهم أموالكم، والله لو أمسكنم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم، فسمع ذلك زيد فمشى به إلى النبي صلى الله عليه وآله وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وآله من غزوه، فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله مَرُّ به عبادة بن بشر فليقتله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف إذا تحدثت الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ ولكن أذن بالرحيل. فارتحل في ساعة لم يكن يرتحل فيها ليقطع ما الناس فيه، فلقية أسيد بن حضير فسلم عليه وقال: يا رسول الله، لقد رحت في ساعة لم تكن تروح فيها؟ فقال: أو ما بلغك ما قال عبد الله بن أبي؟ قال: وماذا قال؟ قال: زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال أسيد: فأنت والله تُخرجه إن شئت، فإنك العزيز وهو الدليل.

ثم قال: يا رسول الله، ارفق به فوالله لقد من الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً. وسمع عبد الله بن أبي أن زيدا أعلم النبي صلى الله عليه وآله عليه وآله قوله فمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به، وكان عبد الله في قومه شريفاً، فقالوا: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أخطأه. وأنزل الله: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ» تصديقاً لزيد، فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله باذن زيد وقال: هذا الذي أوفى الله باذنه. وبلغ عبد الله بن أبي سلول ما كان من أمر أبيه، فأتى النبي صلى الله عليه وآله عليه وآله فقال: يا رسول الله! بلغني أنك تريد قتل أبي، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، وأخشى أن تأمر غيري بقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشى في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا، فكان بعد ذلك إذا أحدث حدثاً

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨٦

عاتبه قومه وعنفوه وتوعدوه (١).

التفسير

علامات اخرى للمنافقين: تأتي هذه الآيات لتكتمل توضيح علامات المنافقين التي بدأتها الآيات التي سبقتها. يقول تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ». إن حب المنافقين لأنفسهم وعبادتهم لذواتهم، جعلتهم أبعد ما يكونون عن الإسلام الذي يعنى التسليم والرضا والاستسلام الكامل للحق.

«لَوَّوْا»: من مادة «لوى» وهى فى الأصل بمعنى برم الحبل، وتأتى أيضاً بمعنى إمالة الرأس وهزه إعراضاً واستكباراً. ومن أجل أن لا يبقى هناك أى إبهام أو التباس قال تعالى: «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَإِيْهِدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ».

إن استغفار النبي تؤثر حينما يتوبون بصدق وإخلاص، ويستسلمون للحق، هنالك يؤثر استغفار الرسول وتقبل شفاعته.

والمقصود من الفساق، هم تلك المجموعة من الفساق أو المذنبين الذين يصرون على ذنوبهم ويركبون رؤوسهم.

والشاهد الآخر الذى يذكره القرآن كعلامة لهم واضحة جداً، هو قوله تعالى: «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَأَنْتُمْ نَبِيُّونَا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى

يَنْفُضُوا». فلا تعطوا المسلمين شيئاً من أموالكم وإمكاناتكم لكي يتفرقوا عن رسول الله. «وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ».

إن هؤلاء فقدوا الوعي والبصيرة، ولم يعرفوا أن كل ما لدى الناس إنما هو من الله. وأن تقاسم الأنصار لأموالهم مع المهاجرين إنما هو من دواعي الإفتخار والإعتزاز، ولا ينبغي أن يمتوا به على أحد. ثم يقول تعالى في إشارة أخرى إلى مقالة أخرى سيئة من مقالاتهم: «يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ».

(١) الكامل في التاريخ ٢ / ٨١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨٧

وهذا نفس الكلام الذي أطلقه عبد الله بن ابي، ويريدون من ورائه أنهم أهل المدينة الأصليون الذين سيخرجون منها الرسول وأصحابه من المهاجرين، بعد عودتهم من غزوة بنى المصطلق التي مرت الإشارة إليها. ورغم أن هذا الحديث صدر عن رجل واحد، لكنه كان لسان حال المنافقين جميعاً، وهذا ما جعل القرآن يعبر عنهم بشكل جماعي «يقولون...» فيردهم رداً حازماً، إذ يقول:

«وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ».

ولم يكن منافقو المدينة وحدهم الذين رووا هذا الكلام، بل سبقهم إلى ذلك رؤساء قريش عندما قالوا: (سينتهى أمر هذه المجموعة القليلة الفقيرة من المسلمين إذا حاصرناهم إقتصادياً أو أخرجناهم من مكة).

وهكذا نرى اليوم الدول المستكبرة وهي تحذر الشعوب التي ترفض الخضوع لسيطرتها، بأنها تملك الدنيا وخزائنها، فإن لم تخضع لها تحاصرها إقتصادياً لتركيبتها.

وهؤلاء هم الذين طبع على قلوبهم واتخذوا منهجاً واحداً على مدى التاريخ، وظنوا أن ما لديهم باق، ولم يعلموا أن الله قادر على إزالته وإزهاقه بلمحة بصر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم: إن حب الدنيا والتكالب على الأموال والإنشداد إلى الأرض، من الأسباب المهمة التي تدفع باتجاه النفاق، وهذا ما جعل القرآن يحذر المؤمنين من مغبه الوقوع في هذه المصيدة الخطيرة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

ورغم أن الأموال والأولاد من النعم الإلهية التي يستعان بها على طاعة الله وتحصيل رضوانه، لكنها يمكن أن تتحول إلى سدّ يحول بين الإنسان وخالقه إذا ما تعلق به الإنسان بشكل مفرط.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨٨

بعد هذا التحذير الشديد، يأمر الله تعالى بالإنفاق في سبيله حيث يقول: «وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ».

والأمر بالإنفاق هنا يشمل كافة أنواع الإنفاق الواجبه والمستحبه.

والطريف أنه جاء في ذيل الآية «فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ» لبيان تأثير الإنفاق في صلاح الإنسان.

إن هناك عدداً كبيراً من الناس يضطربون كثيراً حينما يجدون أنفسهم على وشك الانتقال إلى عالم البرزخ، والرحيل عن هذه الدنيا، وترك كل ما بنوا فيها من أموال طائلة وملاذ واسعة، دون أن يستثمروها في تعمير الآخرة، عندئذ يتذكر هؤلاء ويطلبون العودة إلى

الحياة الدنيا مهما كان الرجوع قصيراً وعابراً، ليعوّضوا ما فات، ويأتيهم الجواب «وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا». وفي الآية (٣٤) من سورة الأعراف: «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ». ثم تنتهي الآية بهذه العبارة: «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». فقد سجل كل شيء عنكم وستجدونه محضراً من ثواب وعقاب. «نهاية تفسير سورة المنافقون»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٨٩

٦٤. سورة التغابن

محتوى السورة: إن سياق الآيات الأخيرة في هذه السورة ينسجم مع السور المدنية، وصدورها أكثر انسجاماً مع السور المكية، ولكننا نرى أنها مدنية طبقاً للمشهور.

يمكن تقسيم مباحث هذه السورة إلى عدّة أقسام:

١- بدايه السورة التي تبحث في التوحيد وصفات وأفعال الله تعالى.

٢- حثّ الناس على ملاحظة أعمالهم ظاهراً وباطناً، وأن لا يغفلوا عن مصير الأرواح السابقين.

٣- ثم يجرى الحديث عن المعاد، وأن يوم القيامة «يوم تغابن»، تغبن فيه جماعة وتفوز فيه جماعة، واسم السورة مشتق من هذا المفهوم.

٤- الأمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وآله وتحكيم قواعد النبوة.

٥- ويأمر الله تبارك وتعالى في القسم الأخير من السورة بالإنفاق في سبيله، ويحذّر من الإنخداع بالأموال والأولاد والزوجات، وتختتم السورة بذكر صفات الله تبارك وتعالى.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة التغابن في فريضة كانت شفيعة له يوم القيامة، وشاهد عدل عند من يجيز شهادتها، ثم لا تفارقه حتى يدخل الجنة».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩٠

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَاللَّهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) تبدأ هذه السورة بتسبيح الله، الله المالك المهيمن على العالمين القادر على كل شيء:

«يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ». ويضيف: «لَهُ الْمُلْكُ». والحاكمية على عالم الوجود كافيه، ولهذا السبب: «وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

ثم يشير تعالى إلى أمر الخلقة الملازم لقدرته، إذ يقول تعالى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ» وأعطاكم نعمه الحريه والاختيار «فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ».

وبناءً على هذا فإنّ الامتحان الإلهي يجد له معنى عميقاً: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

ثم يوضح مسألة الخلقة أكثر بالإشارة إلى الهدف منها، إذ يقول في الآية اللاحقة: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ».

فإنّ هذا الخلق الحق الدقيق ينطوي على غايات عظيمة وحكمة بالغة، حيث يقول تعالى في الآية (٢٧) من سورة «ص»: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا».

ثم يتحدث القرآن الكريم عن خلق الإنسان، ويدعونا بعد آيات الآفاق إلى السير في آفاق الأنفس. يقول تعالى: «وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَيْنَ صُورَكُمْ». لقد صور الإنسان بأحسن الصور وأجملها، وجعل له من المواهب الباطنية الفكرية والعقلية ما جعل العالم كله ينطوي فيه، وأخيراً تنتهي الامور إليه تعالى: «وَالِيهِ الْمَصِيرُ».

ولأن الإنسان خلق لهدف سام عظيم، فعليه أن يكون دائماً تحت إرادة الباري وضمن مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩١

طاعته، فإنه: «يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُغْلِبُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ». تجسد هذه الآية علم الله اللامتناهي في ثلاثة مستويات: علمه بكل المخلوقات، وما في السماوات والأرض. ثم علمه بأعمال الإنسان كافة، سواء أضررها أو أظهرها.

والثالث علمه بنية الإنسان وعقائده الداخلية التي تحكم قلب الإنسان وروحه. ومما لا شك فيه أن ذلك سيهيء الإنسان للحركة نحو الرقي والتكامل.

ثم يلفت القرآن الكريم الإنتباه إلى أهم عامل في تربية الإنسان وتعليمه، وهو الإتعاظ بمصارع القرون وما جرى على الأتوام السالفة حيث يقول: «أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». ألم تمرؤا على مدنهم المهدمه وآثارهم المدمره في طريقكم إلى الشام والأماكن الاخرى، فترؤا بأم أعينكم نتيجة كفرهم وظلمهم، وكان هذا عذابهم في الدنيا وفي الآخرة لهم عذاب أشد.

ثم تشير الآية اللاحقه إلى سبب هذه العاقبه المؤلمه وهو الغرور والتكبر على الأنبياء:

«ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا». وبهذا المنطق عصوا وكفروا «فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا» والله في غنى عن طاعتهم «وَاسْتَعْتَى اللَّهُ» فطاعتهم لأنفسهم وعصيانهم عليها و «اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ».

ولو كفرت كل الكائنات لما نقص من كبريائه تعالى شيء، كما أن طاعتهم لا تزيد شيئاً، نحن الذين نحتاج إلى كل هذه التعليمات والمناهج التربويه.

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا نَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّعَابِينِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدَاً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩٢

في أعقاب تلك الآيات التي بحثت مسألة الخلقه والهدف من الخلق، جاءت هذه الآيات لتكمل البحث الذي يطرح قضيه المعاد والقيامة، حيث يقول تعالى: «زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا».

فإن القرآن الكريم يأمر الرسول الأكرم في أعقاب هذا الكلام بقوله: «قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ». لأنهم في البدايه كانوا عدماً وخلقهم الله، فإعادتهم إلى الوجود مره اخرى أيسر ..

ولابد أن تكون النتيجة كما قررتها الآية اللاحقه وأنه بعد أن ثبت أن المعاد حق: «فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا نَعْمَلُونَ خَبِيرٌ».

وبناءً على ذلك يأمرهم الباري أن يعدوا أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح، ويستعدوا للبعث ويوم الجزاء.

والإيمان هنا لابد أن يرتكز على ثلاثة اصول: (الله) و (الرسول) و (القرآن) التي تتضمن الامور الاخرى جميعاً.

وتصف الآية اللاحقه يوم القيامة بقولها: «يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ».

فإن أحد أسماء يوم القيامة هو «يوم الجمع» الذي ورد كراراً بتعبيرات مختلفة في القرآن الكريم، منها ما جاء في الآية (٤٩ و ٥٠) من سورة الواقعة: «قُلْ إِنَّ الْأَوْلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ».

ثم يضيف تعالى: «ذَلِكَ يَوْمُ التَّعَابِنِ». أي اليوم الذي يعرف فيه «الغابن» بالفوز عن «المغبون» بالغلبة، وهو اليوم الذي ينكشف فيه من هم الناس الذين غبنوا وخسرت تجارتهم.

ثم يتحدث القرآن الكريم عن أحوال المؤمنين في ذلك اليوم (يوم القيامة) أو (يوم التغابن) قائلاً: «وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

وستنزل النعم الإلهية والبركات بتحقيق الشرطين الأساسيين، الإيمان والعمل الصالح.

ثم يقول تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

وهناك عاملان أساسيان للشقاء يذكرهما القرآن، هما الكفر والتكذيب بالآيات الإلهية، وهما النقيضان الواقعيان للإيمان والعمل الصالح.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩٣

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) كل ما يصيبنا بإذنه وعلمه: في أول آية مورد البحث يشير القرآن إلى أصل كلّي عن المصائب والحوادث الأليمة التي تصيب الإنسان، ولعل ذلك يعود إلى أن الكفار كانوا دائماً يتذرعون بوجود المصائب والبلايا لنفي العدالة الإلهية في هذا العالم، أو يكون المراد أن طريق الإيمان والعمل الصالح مقرون دائماً بالمشاكل، ولا يصل الإنسان المؤمن إلى مرتبة مقاومتها، وبذلك يتضح وجه الارتباط بين هذه الآية وما قبلها.

يقول تعالى أولاً: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».

فما يجري من حوادث كلها بإذن الله لا تخرج عن إرادته أبداً.

وعندما نقول يقع ذلك بإرادة الله، فإنما نعني «الإرادة التكوينية» لا الإرادة التشريعية.

من مجموع الآيات التي وردت في هذا المجال، فنلاحظ أنها عرضت المصائب على نوعين:

الأول: ما يكون جزءاً من طبيعة تكوين الإنسان كالموت والحوادث الطبيعية الأخرى، وهذه لا يستطيع الإنسان أن يدفعها عنه، فيقرّر القرآن الكريم بأن ذلك يقع بإذن الله.

الثاني: هو تلك المصائب التي تأتي من تقصير الإنسان ومن عمل يده، وله الدور الأساسي في تحققها، وهذه يقول القرآن: إنها تصيبكم بسبب أعمالكم.

ويشّر القرآن المؤمنين بقوله: «وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ».

فالمؤمن لا تهزمه المصائب ولا ييأس ولا يجزع، والله يهدي الإنسان حينما يكون شكوراً لنعمه، صابراً على بلائه، مستسلماً لقضائه.

وتقول الآية في نهاية المطاف: «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

وقد يراد من هذا التعبير الإشارة إلى الهدف من وراء هذه الامتحانات والاختبارات الصعبة، وهو إيقاظ الناس وتربيتهم وإعدادهم لمجابهة الغرور والغفلة، وسيؤثر ذلك حتماً ويدفع الإنسان إلى طاعة الله ورسوله، و«أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ».

لا يخفى أن إطاعة الرسول فرع عن إطاعة الله تعالى وطاعة الرسول تقع في طول طاعة

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩٤

الله، فهما في خط واحد، وهذا ما جعله يكرر كلمة إطاعة. وإذا ما حاولنا الذهاب أبعد من ذلك، فإن طاعة الله تتعلق باصول القوانين والتشريعات الإلهية، بينما طاعة الرسول في تفسيرها وفي المسائل التنفيذية وفي التفاصيل، فعلى هذا تكون الأولى هي الأصل، والثانية

فرع.

ثم يضيف قائلاً: «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ».

نعم، إن الرسول ملزم بتبليغ الرسالة، وسيتولى الباريء جل شأنه محاسبتكم، وهذا نوع من التهديد الخفي الجاد. ويشير القرآن الكريم في الآية اللاحقة إلى قضية التوحيد في العبودية، التي تشكل المبرر الطبيعي لوجوب الطاعة، إذ يقول تعالى: «اللَّهُ لَأَلَّهِ إِلَّا هُوَ». وبما أنه كذلك إذا: «عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

فليس غير الله يستحق العبودية، لأنه لا مالك ولا قادر ولا عالم غيره، والغنى كله له، وكل ما لدى الآخرين فممه وإليه، فيجب الرجوع له والاستعانة به على كل شيء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَضَيَّفَحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ وَاسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ وَمَنْ يُوَقِّ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تَقَرَّبُوا اللَّهَ قَرَّبْنَا أَيُّضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

سبب النزول

في تفسير على بن إبراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله تعالى:

«إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ». وذلك أن الرجل كان إذا أراد الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله تعلق به ابنه وامراته وقالوا: نشدك الله أن تذهب عنا وتدعنا فنضج بعدك، فمنهم من يطيع أهله فيقيم، فحذّرهم الله أبناءهم ونساءهم، ونهاهم عن طاعتهم، ومنهم من

مختصر الامثال، ج ٥، ص: ١٩٥

يمضى ويذرهم ويقول: أما والله لئن لم تهاجروا معي ثم يجمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة لا أنفعكم بشيء أبداً، فلما جمع الله بينه وبينهم أمره الله أن يوفى ويحسن ويصلهم فقال: «وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَضَيَّفَحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

التفسير

أولادكم وأموالكم وسيلة لامتحانكم: حذّر القرآن الكريم من مغبة الوقوع في الحب المفرط للأولاد والأموال، الذي قد يجزّ إلى عدم الطاعة لله ورسوله حيث قال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ».

إن هناك مظاهر عديدة لهذه العداوة، فأحياناً يتعلقون بشبابكم ليحرموكم خير الهجرة، واخرى ينتظرون موتكم ليسيظروا على أموالكم وثروتكم، وما إلى ذلك.

وتظهر هذه العداوة أحياناً بمظهر الصداقة وتقديم الخدمة، وحيناً آخر تظهر بسوء النية وخبث المقصد.

ومن أجل أن لا يؤدي ذلك إلى الخشونة في معاملته الأهل، نجد القرآن يوازن ذلك بقوله في ذيل نفس الآية: «وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَضَيَّفَحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

فإذا ندموا واعتذروا والتحقوا بكم فلا تتعرضوا لهم بعد ذلك، واعفوا عنهم واصفحوا كما تحبون أن يعفو الله عنكم.

«العفو»: بمعنى صرف النظر عن العقوبة؛ و«الصفح»: في مرتبة أعلى، ويراد به ترك أي توبيخ ولوم؛ و«الغفران»: الذي يعني ستر الذنب وتناسيه.

وتشير الآية اللاحقة إلى أصل كلّي آخر حول الأموال والأولاد، حيث تقول: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ». فإذا تجاوزتم ذلك كله فإن: «وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ».

وقد تقدم في الآية السابقة الكلام عن عداة بعض الأزواج والأولاد الذين يدعون الإنسان إلى الانحراف وسلوك طريق الشيطان

والمعصية والكفر، وفي هذه الآية نجد الكلام عن أن جميع الأموال والأولاد عبارة عن «فتنة»، وهذين الأمرين (الأموال والأولاد) من أهم وسائل الإمتحان والابتلاء.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن من استعاذ فليستعد من مضلات الفتن فإن الله سبحانه يقول: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩٦

وجاء في الآية اللاحقة: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ».

لقد أمر الله تعالى أولاً بإجتناّب الذنوب، ثم بإطاعة الأوامر، وتعدّ الطاعة في قضية الإنفاق مقدمة لتلك الطاعة، ثم يخبرهم أن خير ذلك يعود إليكم ولأنفسكم.

وللتأكيد على أهمية الإنفاق ختمت الآية ب «وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

«شحّ»: بمعنى «البخل المرادف للحرص»، أن هاتين الخصلتين السيئتين من أكبر الموانع أمام فوز الإنسان، وتعلق عليه سبيل الإنفاق وتصدّه عن الخير.

وفي تفسير على بن إبراهيم عن الفضل بن أبي مرة قال: رأيت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يطوف من أول الليل إلى الصباح وهو يقول: «اللهم قني شحّ نفسي!» فقلت: جعلت فداك ما سمعتك تدعو بغير هذا الدعاء. قال: «وأي شيء أشد من شحّ النفس وأن الله يقول: «وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»».

وللتشجيع على الإنفاق والتحذير من البخل، يقول تعالى: «إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ».

فالله الخالق الواهب للنعم الذي له كل شيء، يستقرض منا ثم يعدنا بأنه سيعوّضنا أضعاف ذلك، إنه لطف ما بعده لطف.

«القرض»: في الأصل بمعنى القطع، ولأنها اقترنت بكلمة «حسن» فإنها تعني فصل المال عن النفس وإنفاقه في الخير.

وعبارة «يَغْفِرْ لَكُمْ» للإشارة إلى أن الإنفاق أحد عوامل غفران الذنوب.

ويقول في آخر الآية: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». إنه مطلع على أعمال عباده ومنها النفقة والبذل في سبيل الله، وإنه غير محتاج لكي يستقرض من عباده وإنما هو إظهار لكمال لطفه ومحبته لعباده.

«نهاية تفسير سورة التغابن»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩٧

٤٥. سورة الطلاق

محتوى السورة: يمكن أن نقسم مباحث هذه السورة إلى قسمين:

١- الآيات السبع الأولى التي تتحدث عن الطلاق وما يرتبط به من امور.

٢- ويشكل الدافع الحقيقي للقسم الأول من السورة، ويدور الحديث فيه عن عظمة الله ومقام رسوله وثواب الصالحين وجزاء العاصين على شكل مجموعة منسجمة لضمان إجراء هذه المسألة الإجتماعية المهمة، ويذكر أن لهذه السورة أسماء اخرى كسورة «النساء القصرى» (على وزن صغرى) مقابل سورة «النساء» المعروفة «النساء الكبرى».

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله».

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَمَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بَيْوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩٨

شروط الطلاق والإنفصال: تقدم أن أهم بحث في هذه السورة هو بحث الطلاق، حيث يشترع القرآن فيها مخاطباً الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بصفته القائد الكبير للمسلمين، ثم يوضح حكماً عمومياً بصيغته الجمع، حيث يقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ».

إن المراد هو أن تجرى صيغة الطلاق عند نقاء المرأة من الدورة الشهرية، مع عدم المقاربة الزوجية - هذا هو أول شرط للطلاق. ثم يذكر الحكم الثاني وهو حساب العدة، حيث يقول تعالى: «وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ».

«أحصوا»: من مادة «الإحصاء» بمعنى الحساب. والجدير بالملاحظة هنا أن المخاطب في «حساب العدة» هم الرجال وليس النساء، وذلك لوقوع مسؤوليته «النفقة والسكن» على عاتق الرجال، كما أن «حق الرجوع» عن الطلاق يعود إليهم وليس إلى النساء، وإلا فهن ملزمات أيضاً في إحصاء العدة لتعيين تكليفهن. بعد ذلك يدعو الله تعالى الناس جميعاً إلى التقوى واجتناب المعاصي، حيث يقول تعالى: «وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبُّكُمْ». فهو ربكم الحريص على سعادتكم، فلا تعصوا له أمراً ولا تتركوا له طاعة، وخاصة في «حساب العدة» والتدقيق بها. ثم يذكر الحكم «الثالث» الذي يتعلق بالأزواج والحكم «الرابع» الذي يتعلق بالزوجات. يقول تعالى: «لَمَّا تَخْرَجُونَّ مِنْ بَيْوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ».

ورغم أن كثيراً من الجهلة لا يلتزمون بهذا الحكم عند الطلاق، حيث يسمح الرجل لنفسه أن يخرج المرأة بمجرد إجراء صيغة الطلاق، كما تسمح المرأة لنفسها بالخروج من بيت زوجها والرجوع إلى أقاربها بمجرد ذلك. ولكن يبقى لهذا الحكم فلسفته المهمة وحكمته البالغة، فهو بالإضافة إلى إسداء الإحترام إلى المرأة، يهيئ أرضية جيدة للانصراف والإعراض عن الطلاق، ويؤدي إلى تقوية الأواصر الزوجية.

إن عدم الالتزام بهذا الحكم الإسلامي الخطير، الذي جاء في نص القرآن الكريم، يسبب كثيراً من حالات الطلاق التي تؤدي إلى الفراق الدائم، بينما كثيراً ما يؤدي الالتزام بهذا الحكم إلى الرجوع والصلح والعودة إلى الزوجية مجدداً. ولكن قد تقتضى بعض الظروف إخراج المرأة وعدم القدرة على الاحتفاظ بها في البيت، مختصر الامثل، ج ٥، ص: ١٩٩

فيجيب الحكم الخامس الاستثنائي، إذ يقول تعالى: «إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ».

كأن يكون الزوجان غير منسجمين إطلاقاً، ويكون أحدهما مثلاً سىء الأخلاق التي لا يمكن معها البقاء معه في بيت واحد، وإلا ستنشأ مشاكل جديدة وعديدة.

بعد بيان هذه الأحكام يؤكد القرآن الكريم - مرة أخرى - بقوله: «وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ». لأن الغرض من هذه الأحكام هو إسعاد الناس أنفسهم، والتجاوز على هذه الأحكام - سواء من قبل الرجل أو المرأة - يؤدي إلى توجيه ضربة قوية إلى سعادتهم.

ويقول تعالى في لفته لطيفة إلى فلسفة العدة، والحكمة من تشريعها، وعدم السماح للنساء المعتدات بالخروج من مقرهن الأصلي البيت. يقول: «لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا».

ومع مرور الزمن يهدأ طوفان الغضب والعصبية الذي قد يسبب الطلاق، غير أن مرور الزمن وحضور الزوجة إلى جانب زوجها خلال هذه الفترة في البيت، وإظهار ندم ومحبة كل واحد منهما إلى الآخر، وكذلك التفكير ملياً في عواقب هذا العمل القبيح، خاصة مع وجود الأطفال، كل هذه الأمور قد تهيئ أرضية صالحة للرجوع عن هذا القرار المشؤوم.

في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «المطلقة تكتحل وتختضب وتطيب وتلبس ما شاءت من الثياب، لأن الله عز وجل يقول: «لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا» لعلها تقع في نفسه فيراجعها».

أبغض الحلال إلى الله الطلاق: إن أصل الطلاق من الضروريات التي لا يمكن إلغاؤها بأى وجه من الوجوه، ولكن ينبغي أن لا يصار إليها إلأى الحالات التي يتعذر فيها مواصلة العلاقة الزوجية والحياة المشتركة. ولهذا نجد أن الطلاق قد ذم في روايات إسلامية عديدة، وذكر على أنه (أبغض الحلال إلى الله).

ففي الكافي عن الإمام الصادق قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ... وما من شيء أبغض إلى الله عز وجل من بيت يخرب في الإسلام بالفرقة يعني الطلاق».

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما من شيء مما أحله الله عز وجل أبغض إليه من الطلاق».

والطلاق هو السبب وراء مآس عديدة تحل بالعوائل والرجال والنساء، وأكثر منهم

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠٠

مختصر الامثل ج ٥، ص: ٢٣٩

بالأطفال والأولاد.

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَمَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف: يشير في الآية مورد البحث، وكاستمرار للأبحاث المرتبطة بالطلاق التي وردت في الآيات السابقة، إلى عدة أحكام أخرى، إذ يقول تعالى في البداية: «فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ».

والمراد من عبارة «بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ» هو تشرف على الانتهاء، فإن الرجوع بعد نهاية العدة غير جائز، إلأ أن يكون إبقاؤهن عن طريق صيغته عقد جديدة.

فإن هذه الآية تطرح أهم الأواصر المرتبطة بالحياة الزوجية وأكثرها نضجاً، وهي: إما أن يعيش الرجل مع المرأة بإحسان ومعروف وتوافق، أو أن ينفصلاً بإحسان.

فالانفصال ينبغي أن يتم بعيداً عن الهياج والعريضة، وعلى اصول صحيحة، ويجب أن تحفظ فيه الحقوق واللباقات لكي تكون أرضية صالحة ومهيأة للعودة والرجوع إذا ما قررا الرجوع إلى الحياة المشتركة فيما بعد، فإن العودة إذا تمت في جو مظلم مليء بالخلافات والتعديتات، فسوف لا تكون عودة موفقة تستطيع الاستمرار مدّة طويلة، هذا إضافة إلى أن الانفصال بالطريقة غير اللائقة قد يترك آثاراً، ليس فقط على الزوج والزوجة، وإنما قد تتعدى إلى عشيرة وأقرباء كل منهما، وتقطع طريق المساعدة لهما في المستقبل.

ثم يذكر القرآن الكريم الحكم الثاني حيث يقول: «وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ».

وذلك لكي لا يستطيع أحد أن ينكر في المستقبل ما جرى.

وفي الحكم الثالث يبين القرآن الكريم وظيفة الشهود، حيث يقول: «وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ». حذار أن يكون ميلكم وحبكم لأحد الطرفين مانعاً عن إظهار الحق.

إن تعبير «ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ» دليل على أن الشاهدين يجب أن يكونا مسلمين عادلين ومن الذكور.

ولتأكيد الأحكام السابقة جميعاً، تقول الآية الكريمة: «ذَلِكَمَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠١

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».

وبسبب المشاكل المعيشية والحياة المستقبلية فإن الزوجين قد ينحرفان عن جادة الصواب عند الطلاق والرجوع، وقد تضغط هذه الظروف على الشاهدين فتمنعانها عن أداء الشهادة الصحيحة والعادلة، لهذا تؤكد الآية في نهايتها قائلة: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ

مَحْرَجًا». ويساعده حتماً على إيجاد الحل لمشكلاته.

«وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ». ولا يتصور تحصيله.

«وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ». وسيكفيه ما يهتمه من اموره.

«إِنَّ اللَّهَ بِأَلْعِ أَمْرِهِ». لأن الله عز وجل قادر مطلق، وأمره نافذ في كل شيء وتخضع جميع الكائنات لمشيئته وإرادته ...

ولهذا يحذر النساء والرجال والشهود أن لا يخافوا قول الحق، ويحثهم على الاعتماد عليه واللجوء إليه في تيسير الصعوبات، لأنه قد تعهد بأن ييسر للمتقين أمرهم.

إن تلاوة الآيات السابقة تبعث - أكثر من غيرها - الأمل في النفوس، وتمنح القلب صفاءً خاصاً، وتمزق حجب اليأس والقنوط، إذ تعد كل المتقين بحل مشاكلهم وتسهيل امورهم.

في الدر المنثور عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا»: «من شبهات الدنيا، ومن غمرات الموت، وشدائد يوم القيامة».

وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتنَّ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِيُضْمِئْنَ عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَمْتُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَمَسْرُوعٌ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠٢

أحكام النساء المطلقات وحقوقهن: من بين الأحكام المستفادة من الآيات السابقة لزوم إحصاء العدة بعد الطلاق، ولما كانت الآية (٢٢٨) من سورة البقرة قد بينت حكم العدة للنساء اللاتي يرين العادة الشهرية وذلك بأن تعد ثلاث دورات شهرية متتالية وبمشاهدة الثالثة تكون المرأة قد أنهت عدتها، فقد ذكرت الآيات محل البحث حكم النسوة اللواتي لا حيض لديهن لأسباب معينة، أو الحوامل لتكامل بحث العدة. يقول تعالى في بداية الأمر:

«وَالِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ».

فإذا شككنكم في وجود الحمل فمددة العدة حينئذ ثلاثة أشهر، وكذلك النسوة اللاتي لم يرين الحيض ولم تحدث لهن العادة الشهرية بعد: «وَالِي لَمْ يَحِضْنَ».

ثم يشير تعالى إلى ثالث مجموعته حيث يضيف قائلاً: «وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ».

وبهذا اتضح حكم المجاميع الثلاثة، مجموعتان يجب أن يحصين عدتهن ثلاثة أشهر، والمجموعة الثالثة - أي النساء الحوامل - تنتهي عدتهن بوضع الحمل، سواء كان بعد ساعة من الطلاق، أو بعد ثمانى أشهر مثلاً.

ومعنى عبارة «إِنْ ارْتَبْتُمْ» هو الشك في وجود «الحمل» بمعنى أنه هناك احتمال حمل بعد سنّ اليأس (خمسون سنة للنساء العاديات، وستون سنة للنساء القرشيات) فمن أجل هذا الاحتمال الضعيف الذي نادراً ما يقع، يجب أن تحتاط النساء فتحصى عدتها ثلاثة أشهر.

وأخيراً يؤكد مرة أخرى في نهاية الآية على التقوى، حيث يقول تعالى: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا».

ييسر اموره ويسهلها في هذا العالم، وكذلك في العالم الآخر، بألطفه سواء في هذه القضية أى قضية الطلاق أو في قضايا أخرى.

وللتأكيد على أحكام الطلاق والعدة فقد أضاف تعالى في الآية اللاحقة قائلاً: «ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ». «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا».

وتعطى الآية اللاحقة توضيحاً أوسع وأشمل لحقوق المرأة بعد الطلاق، من حيث «السكن» و «النفقة» وامور أخرى. يقول تعالى في

سكن النساء المطلقات: «أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ». «وجد»: على وزن (حكم)، بمعنى القدرة والتمكن.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠٣

ومن الطبيعي أنه حينما يكون الإسكان على نفقة الزوج وفي عهده، فإن الأمور الأخرى من الإنفاق ستقع هي الأخرى على عاتق الزوج، والشاهد على هذا المدعى ذيل الآية الذي يتحدث عن نفقة النساء الحوامل.

ثم يتطرق تعالى لذكر حكم آخر: «وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ».

حذار أن يغزكم البعض ويزرع بينكم البغض والعداوة والنفور، مما يؤدي إلى إخراجكم عن جادة الحق، فتحرمونهن حقوقهن الطبيعية في السكن والنفقة.

يقول تعالى في ثالث حكم حول النساء الحوامل: «وَإِنْ كُنَّ أُولِي حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ».

فما دمن حاملات فهن في حالة عدة يستحقن النفقة والسكن على الزوج.

ويقول تعالى في الحكم الرابع حول حقوق النساء المرضعات: «فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ».

اجرة تناسب مع مقدار وزمان الإرضاع، وطبقاً لما هو معروف وشائع عرفاً.

ونظراً لأن الأطفال كثيراً ما يصبحون نقطة للنزاع والخلاف بين الزوج والزوجة بعد الطلاق، فقد أوضح القرآن في الحكم الخامس هذا الأمر بشكل قاطع ولائق حيث قال:

«وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ». وتشاوروا بينكم في مصير الأولاد ومستقبلهم.

ويحذر القرآن الكريم من مغتبه أن يكون الأطفال ضحية الخلاف الواقع بين الزوج والزوجة، مما يترك عليهم آثاراً واضحة على تكوينهم الجسمي والنفسي، إذ يحرمون من حنان الأم والأب وشفقتهم فينبغي أن يتقى الأبوان الله تعالى ويحفظا حقوق الأطفال فإنهم لا يستطيعون الدفاع عنها.

وفي حالة عدم حصول التوافق والتفاهم بين الزوجين حول مصير الأطفال وقضية إرضاعهم، يقول القرآن في سادس حكم في هذا المجال: «وَإِنْ تَعَاَسَرْتُم فَاسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى .

وتبين الآية اللاحقة سابع - وآخر حكم - في هذا المجال حيث يقول تعالى: «لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لِيُكَلِّفَ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا».

إن هذا الأمر يرتبط بالنساء اللاتي يتعهدن رضاعة أطفالهن بعد الفرقة والطلاق، وأثناء العدة التي اشير إليها في الآيات السابقة.

وبناءً على هذا لا ينبغي للذين ليس لهم القدرة أن يتشددوا ويعقدوا الأمور، كما أن الذين لا يملكون القدرة المالية غير مأمورين إلا بالقدر الذي تسعه قدرتهم المالية ولا يحق

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠٤

للنساء مطالبتهم بأكثر من ذلك. وفي نهاية المطاف يبشّره الله تعالى بقوله: «سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا». أي: لا تجزعوا ولا تحزنوا ولا- يكن الضيق في المعيشة سبباً لخروجكم عن الطريق السوي، فإن الدنيا أحوال متقلّبة لا- تبقى على حال، فحذار من أن تقطع المشاكل العابرة والمرحلية جبل صبركم.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَا بِهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّبْنَا بِهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) العاقبة المؤلمة للعاصيين: في كثير من الموارد يأتي القرآن على ذكر الامم السابقة بعد إيراد سلسله من الأحكام والتكاليف، لكي يرى المسلمون بأعينهم عاقبة كل من (الطاعة والعصيان) في تجارب الماضي وتأخذ

القضية طابعاً حسياً.

ولم يخرج القرآن الكريم في هذه السورة عن هذا النهج، فبعد ذكر وظائف كل من الرجال والنساء عند الطلاق، يحذّر العاصين والمتمردين من العواقب الوخيمة التي تنتظرهم بقوله في البداية: «وَكَايُن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا».

والمقصود بـ «القرية» هو محل اجتماع الناس، وهو أعم من المدينة والقرية، والمراد هو أهلها. «عتت»: من مادة «عتو» بمعنى التمرّد على الطاعة؛ و «نكر»: يعنى العمل الصعب الذى لم يسبق له مثيل.

«حساباً شديداً» إشارة إلى عاقبة الأقسام السابقة المتمردة العاصية في هذه الدنيا. لذلك يضيف تعالى في الآية اللاحقة: «فَدَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا». وأى خسارة أفدح من خسران رأس المال الذى وهبه الله، والخروج من هذه الدنيا

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠٥

ليس فقط بعدم شراء المتاع- وإنما بالانتهاى إلى العذاب الإلهي والدمار.

ثم يشير تعالى إلى عقابهم الاخرى بقوله: «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا». عذاباً مؤلماً، مخيفاً، مذلاً، فاضحاً، دائماً أعدّه لهم منذ الآن في نار جهنم.

والآن «فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا».

إنّ الفكر والتفكير من جهة، والإيمان والآيات الإلهية من جهة اخرى، تحذركم وتدعوكم لملاحظة مصائر الأقسام السابقة المتمردة التي عصت أمر ربها، والاعتبار بذلك والحذر من أن تكونوا مثلهم.

وبعد ذلك يخاطب الله تعالى المؤمنين الذين يتفكرون في آيات الله بقوله: «قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا». وهو الشىء الذى يوجب تذكركم.

وأرسل لكم رسولاً يتلو عليكم آيات الله الواضحة: «رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ».

إنّ «الذكر» يعنى القرآن؛ و «رسولاً» تعنى شخص الرسول؛ ومعنى «الإنزال» هنا هو وجود الرسول صلى الله عليه وآله فى الامه وبعثه فيها من قبل الله تعالى.

إنّ الهدف من إرسال الرسول وإنزال هذا الكتاب السماوى، هو لإخراج الناس من الظلمات والكفر والجهل وإرتكاب الذنوب والمآثم والمفاسد الأخلاقية، إلى نور الإيمان والتوحيد والتقوى.

وفى ختام الآية يشير إلى أجر العاملين المخلصين بقوله: «وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا».

وأشار بالفعل المضارع «يؤمن» و «يعمل» إلى أنّ إيمانهم وعملهم الصالح ليسا محدودين بحدود الزمان والمكان، وإنما لهما استمرار وديمومة.

والتعبير بـ (خالدين) دليل على كون الجنة خالدة.

والتعبير بـ «رِزْقًا» يشمل كل النعم الإلهية فى الدنيا والآخرة، لأنّ الصالحين والمتقين لهم حياتهم الكريمة حتى فى الحياة الدنيا. اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠٦

الهدف من خلق العالم: هذه الآية هي آخر آية من سورة الطلاق، وفيها إشارة معبرة وصريحة إلى عظمه وقدره البارىء جل شأنه فى خلق السماوات والأرض وبيان الهدف النهائى للخلق. يقول تعالى أولاً: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ». «وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ». بمعنى أن الأرضين سبع كما السماوات سبع، وهذه هي الآية الوحيدة التى تشير إلى الأرضين السبع فى القرآن الكريم.

إن مفهوم هذه الآية مع الإلتفات إلى الآية (٦) من سورة الصفات التى تقول: «إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ». هو أن علم البشر ومعرفته مهما اتسعت فهى محدودة ومتعلقة بالسماوات الأولى التى توجد وراءها ثوابت وسيارات ستته هى عبارة عن العوالم الأخرى التى لا تتسع لها معرفتنا المحدودة ولا ينالها إدراكنا الضيق.

أما الأرضين السبع وما حولها، فربما تكون إشارة إلى طبقات الأرض المختلفة، لأن الأرض تتكون من طبقات مختلفة كما ثبت اليوم علمياً، أو لعلها تكون إشارة إلى المناطق السبع التى تقسم بها الأرض فى السابق وحالياً.

ثم يشير تعالى إلى إدارة هذا العالم الكبير وتدييره بقوله جل شأنه: «يَنْزِلُ الْأَمْرُ بِبَيْنَهُنَّ». وأخيراً يشير تعالى إلى الهدف من وراء هذا الخلق العظيم حيث يقول: «لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا».

ومن ثم يجب أن يعلم الإنسان أن الله محيط بكل أسرار وجوده، عالم بكل أعماله ما ظهر منها وما بطن، ثم يجب أن يعلم الإنسان أن وعد الله فى البعث والمعاد والثواب والعقاب وحتمية انتصار المؤمنين، كل ذلك غير قابل للتخلف والتأخر.

«نهاية تفسير سورة الطلاق»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠٧

٦٦. سورة التحريم

محتوى السورة: تتكون هذه السورة من أربعة أقسام رئيسية:

- ١- يرتبط بقصة الرسول صلى الله عليه وآله مع بعض أزواجه حينما حرم بعض أنواع الطعام على نفسه، فنزلت الآيات من (١-٥).
- ٢- خطاب لكل المؤمنين فى شؤون التربية ورعاية العائلة ولزوم التوبة من الذنوب، وهو من الآية (٦-٨).
- ٣- وهو الآية التاسعة التى تتضمن خطاباً إلى الرسول صلى الله عليه وآله بضرورة مجاهدة الكفار والمنافقين.
- ٤- يتضمن توضيحاً للأقسام السابقة بذكر نموذجين صالحين للنساء، وهما (مريم العذراء، وزوجة فرعون) ونموذجين غير صالحين (زوجة نوح، وزوجة لوط) ويحذر نساء النبى صلى الله عليه وآله من هذين النموذجين الأخيرين ويدعوهم إلى الإقتداء بالنموذجين الأولين من الآية (١٠-١٢).

فضيلة تلاوة السورة: فى ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الطلاق والتحريم فى فريضة أعاده الله من أن يكون يوم القيامة ممن يخاف أو يحزن وعوفى من النار وأدخله الله الجنة بتلاوته إياهما ومحافظة عليهما لأنهما للنبي صلى الله عليه وآله». آله».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠٨

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّغَىٰ مَرْصَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضِ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)

سبب النزول

عن عائشة: إن النبي صلى الله عليه وآله كان يمكث عند زينب ابنة جحش [إحدى أزواج الرسول ويشرب عندها عسلاً فتواصيت أنا وحفصة أن أتينا دخل عليها النبي صلى الله عليه وآله فلتقل إنني لأجد منك ريح المغاير أكلت المغاير [وهو نوع من الصمغ يترشح من بعض أشجار الحجاز يسمى عرفط ويترك رائحة غير طيبة، علماً أن الرسول كان يصبر على أن تكون رائحته طيبة دائماً]، فدخل على إحدهما فقالت له ذلك فقال: «لا بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له». [ولهذا أقسم بأنه سوف لن يتناول ذلك العسل مرة أخرى، خوفاً من أن تكون زنابير العسل هذا قد تغذت على شجر صمغ المغاير وحذرنا أن تنقل ذلك إلى أحد لكي لا يشيع بين الناس أن الرسول قد حرم على نفسه طعاماً حلالاً فيقتدون بالرسول ويحرمونه أو ما يشبهه على أنفسهم، أو خوفاً من أن تسمع زينب وينكسر قلبها وتتألم لذلك. لكنّها أفشت السرقتين أخيراً أن القصّة كانت مدروسة ومعدّة فتألم الرسول صلى الله عليه وآله لذلك كثيراً، فنزلت عليه الآيات السابقة لتوضّح الأمر وتنتهي من أن يتكرر ذلك مرة أخرى في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله]. (١)

(١) صحيح البخارى ١٦٧/٦، والتوضيحات التي ذكرت في استفاد من كتب اخرى.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٠٩

التفسير

التوبيخ لبعض زوجات الرسول: مما لا شك فيه أن رجلاً عظيماً كالرسول صلى الله عليه وآله لا يمكن أن يهّمه أمره وحده دون غيره، بل أمره يهّم المجتمع الإسلامى والبشرية جمعاء، ولهذا يكون التعامل مع أيّة دسيسه حتى لو كانت بسيطة تعاملها حازماً وقاطعاً لا يسمح بتكررها، لكي لا تتعرض حيثية الرسول واعتباره إلى أى نوع من التصدّع والخذش والآيات محل البحث تعتبر تحذيراً من ارتكاب مثل هذه الأعمال حفاظاً على اعتبار الرسول صلى الله عليه وآله. البداية كانت خطاباً إلى الرسول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ».

إنّ هذا التحريم ليس تحريماً شرعياً، بل هو - كما يستفاد من الآيات اللاحقة - قسم من قبل الرسول الكريم، ومن المعروف أن القسم على ترك بعض المباحات ليس ذنباً. وبناءً على هذا فإنّ جملة «لِمَ تُحَرِّمُ» لم تأت كتوبيخ وعتاب، وإنّما هي نوع من الإشفاق والعطف.

ثم يضيف في آخر الآية: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ». وهذا العفو والرحمة إنّما هو لمن تاب من زوجات الرسول اللاتي رتبّن ذلك العمل وأعدده.

ويضيف في الآية اللاحقة أن الله قد أوضح طريق التخلّص من مثل هذا القسم: «قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ». أى: أعط كفارة القسم وتحزّر منه.

ثم يضيف: «وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ». فقد أنجاكم من مثل هذه الأقسام ووضع لكم طريق التخلّص منها طبقاً لعلمه وحكمته. ويستفاد من بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وآله أعق رقبة بعد هذا القسم وحل ما كان قد حرّمه بالقسم.

وفى الآية اللاحقة يتعرض لهذا الحادث بشكل أوسع: «وَإِذْ أَسْرَى النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ».

إنّ هذا السر يتكوّن من أمرين:

الأول: تناول العسل عند زوجته (زينب بنت جحش).

والثاني: تحريم العسل على نفسه في المستقبل.

أما الزوجة التي أذاعت السر ولم تحافظ عليه فهي «حفصة» حيث أنها نقلت ذلك

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١٠

الحديث الذي سمعت به إلى عائشة.

وعلى كل حال فإنه: «فَلَمَّا تَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَتْبَأَكَ هَذَا قَالَ تَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَيْرُ».

ويتضح من مجموع هذه الآيات أن بعض زوجات الرسول لم يكتفين بإيذاء النبي صلى الله عليه وآله بكلامهن، بل لا يحفظن سره، وحفظ السر من أهم صفات الزوجة الصالحة الوفيّة لزوجها. ثم يتحدث القرآن مع زوجتي الرسول اللتين كانتا وراء هذا الحادث بقوله: «إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا».

وقد اتفق المفسرون الشيعة والسنة على أن تلك الزوجتين هما «حفصة بنت عمر» و«عائشة بنت أبي بكر».

ثم يضيف تعالى: «وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ».

ويتضح من هذا كم تركت هذه الحادثة من أثر مؤلم في قلب الرسول صلى الله عليه وآله وروحه العظيمة، ورغم قدرة الرسول المتكاملة نشاهد أن الله يدافع عنه إذ يعلن حماية جبرائيل والمؤمنين له.

مما لا شك فيه أن صالح المؤمنين، لها معانٍ واسعة تشمل جميع المؤمنين الصالحين الأتقياء الذين كمل إيمانهم، ولكن ما هو المصداق الأكمل والأتم لهذا المصطلح؟

يستفاد من روايات عديدة أن المقصود هو الإمام على أمير المؤمنين عليه السلام.

في آخر آية من هذه الآيات يخاطب الله تعالى جميع نساء النبي بلهجة لا تخلو من التهديد:

«عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مَسْلَمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا».

يضع القرآن الكريم عدّة صفات للمرأة الصالحة التي يمكنها أن تكون نموذجاً يقتدى به في انتخاب الزوجة اللائقة.

الأول «الإسلام» ثم «الإيمان» أي الاعتقاد الذي ينفذ ويترسخ في أعماق قلب الإنسان، ثم حالة «القنوت» أي التواضع وطاعة الزوج، بعد ذلك «التوبة» ويقصد أن الزوجة إذا ما ارتكبت ذنباً بحق زوجها فإنها سرعان ما تتوب وتعتذر عن ذلك، وتأتي بعد ذلك «العبادة» التي جعلها الله سبحانه ليظهر بها قلب الإنسان وروحه ويصنعها من جديد، ثم «إطاعة أوامر الله» والورع عن محارمه.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١١

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا: تخاطب الآيات السابقة جميع المؤمنين، وترسم لهم المنهج الصالح لتربية الزوجات والأولاد والأسرة بشكل عام، فهي تقول أولاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ».

وذلك بحفظ النفس من الذنوب وعدم الاستسلام للشهوات والأهواء، وحفظ العائلة من الانحراف بالتعليم والتربية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتهيئة الأجواء الصالحة والمحيط الطاهر من كل رذيلة ونقص.

وينبغي مراعاة هذا البرنامج الإلهي منذ اللحظات الأولى لبناء العائلة، أي منذ أول مقدمات الزواج، ثم مع أول لحظة لولادة الأولاد، ويراعى ويلاحظ بدقة حتى النهاية.

ويضيف القرآن قائلاً: «عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ».

وبهذا لا يبقى طريق للخلاص والهروب، ولن يؤثر البكاء والإلتماس والجزع والفرع.

في الآية اللاحقة يخاطب الكفار ويصف وضعهم في ذلك اليوم العصيب بقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَّعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

قد جاءت هذه الآية بعد الآية السابقة التي خاطب بها المؤمنين، ليكون واضحاً أن عدم الالتزام بأوامر الله وعدم الإهتمام بالنساء والأولاد والأهل قد تكون نتيجته وعاقبته كعاقبة الكفار يوم القيامة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١٢

ومما يجدر ذكره أن عدم قبول الإعتذار ناتج عن كونه نوعاً من التوبة، والتوبة لا تقبل في غير هذا العالم، سواء كان قبل دخول النار أو بعد دخولها.

ويلقى القرآن الضوء في الآية اللاحقة على طريق النجاة من النار حيث يقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا».

«نصوح»: من مادة «نصح»، بمعنى طلب الخير بإخلاص، ولذلك يقال للعسل الخالص بأنه «ناصح» وبما أن من يريد الخير واقعاً يجب أن يكون عمله توأماً للإتقان جاءت كلمته «نصح» أحياناً بهذا المعنى، ولذا يقال للبناء المتين بأنه «نصاح»- على وزن كتاب- ويقال للخياط «ناصح»، وكلا المعنيين- أى الخلوص والمتانة- يجب توفرهما في التوبة النصوح.

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: قال معاذ بن جبل: يا رسول الله! ما التوبة النصوح؟ قال: «أن يتوب التائب ثم لا يرجع في ذنب كما لا يعود اللبني إلى الضرع».

وبهذا التعبير اللطيف يتضح أن التوبة يجب أن تحدث إنقلاباً في داخل النفس الإنسانية، وتسدد عليها أى طريق للعودة إلى الذنب، وتجعل من الرجوع أمراً مستحيلًا كما يستحيل إرجاع اللبن إلى الضرع والثدى.

ثم يشير القرآن الكريم إلى آثار التوبة الصادقة النصوح بقوله: «عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ». «وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». «يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ». «نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ». ويضئ لهم طريقهم في المحشر ويوصلهم إلى الجنة.

وهنا يتوجهون إلى الله بطلب العفو: «يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتَمُ لَنَا نُورٌ وَغَفِرٌ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١٣

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاعْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَاهَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَاتِنِينَ (١٢) نماذج من النساء المؤمنات والكافرات: بما أن المنافقين يفرحون لإفشاء أسرار الرسول وإذاعة الأخبار الداخلية عن بيته، ويرحبون ببروز المشاجرات والاختلافات بين زوجاته- التي مضت الإشارة إليها في الآيات السابقة- بل إنهم كانوا يساهمون في إشاعة تلك الأخبار وإذاعتها بشكل أوسع، نظراً لكل ذلك فقد خاطب القرآن الكريم الرسول بأن يشدد على المنافقين والكافرين ويغلظ عليهم، حيث يقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاعْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

الجهاد ضد الكفار قد يكون مسلحاً أو غير مسلح، أما الجهاد ضد المنافقين فإنه بدون شك جهاد غير مسلح، لأن التاريخ لم يحدثنا أبداً عن أن الرسول خاض مرة معركة مسلحة ضد المنافقين.

إن المراد من الجهاد ضد المنافقين إنما هو توبيخهم وإنذارهم وتحذيرهم، بل وتهديدهم وفضحهم، أو تأليف قلوبهم في بعض الأحيان.

وذلك بعد حياة الرسول صلى الله عليه وآله حدث في خلافة أمير المؤمنين على عليه السلام حيث خاض ضدهم معركة مسلحة.

ومن أجل أن يعطى الله تعالى درساً عملياً حياً إلى زوجات الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله عاد مرة أخرى يذكر بالعاقبة السيئة لزوجتين غير تقيتين من زوجات نبيين عظيمين من أنبياء

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١٤

الله، وكذلك يذكر بالعاقبة الحسنه والمصير الرائع لامرأتين مؤمنتين مضمحيتين كانتا في بيتين من بيوت الجابرة، حيث يقول أولاً: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ».

وبناءً على هذا فإن القرآن يحذر زوجتي الرسول اللتين اشتركتا في إذاعه سره، بأنكما سوف لن تنجوا من العذاب لمجرد كونكما من أزواج النبي كما فعلت زوجتا نوح ولوط فواجهتا العذاب الإلهي.

كما تتضمن الآيات الشريفة تحذيراً لكل المؤمنين بأنّ القرب من أولياء الله والانتساب إليهم لا يكفي لمنع نزول عذاب الله ومجازاته. وعلى أية حال فإن هاتين المرأتين خانتا نبيين عظيمين من أنبياء الله. والخيانة هنا لا تعنى الانحراف عن جادة العفة والنجابة، لأنهما زوجتا نبيين ولا يمكن أن تخون زوجة نبي بهذا المعنى للخيانة، فقد جاء عن الرسول صلى الله عليه وآله قال: «ما بغت امرأة نبي قط». ثم يذكر القرآن الكريم نموذجين مؤمنين صالحين فيقول: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ».

من المعروف أن اسم زوجة فرعون (آسية) واسم أبوها (مزاحم) وقد آمنت منذ أن رأت معجزة موسى عليه السلام أمام السحرة، واستقر قلبها على الإيمان، لكنها حاولت أن تكتم إيمانها، غير أن الإيمان برسالة موسى وحب الله ليس شيئاً سهلاً كتمانها، وبمجرد أن أطلع فرعون على إيمانها نهاها مرّات عديدة وأصرّ عليها أن تتخلى عن رسالة موسى وربّه، غير أن هذه المرأة الصالحة رفضت الاستسلام إطلاقاً.

وأخيراً أمر فرعون أن تُثبّت يداها ورجلاها بالمسامير، وتترك تحت أشعة الشمس الحارقة، بعد أن توضع فوق صدرها صخرة كبيرة. وفي تلك اللحظات الأخيرة كانت امرأة فرعون بهذا الدعاء إذ قالت: «رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». وقد استجاب لها ربّها وجعلها من أفضل نساء العالم إذ يذكرها في صفّ مريم.

في الدر المنثور عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١٥

ثم يضرب الله تعالى مثلاً آخر للنساء المؤمنات الصالحات، حيث يقول جلّ من قائل:

«وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا».

فهى امرأة لا زوج لها أنجبت ولداً صار نبياً من أنبياء الله العظام (من اولى العزم).

ويضيف تعالى قائلاً: «وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِيمَانٌ مِنْ رَبِّهَا وَكَانَتْ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ».

كانت فى القميه من حيث الإيمان، إذ آمنت بجميع الكتب السماوية والتعاليم الإلهية، ثم إنها كانت قد أخضعت قلبها لله، وحملت قلبها على كفها وهى على أتم الإستعداد لتنفيذ أوامر البارى جلّ شأنه.

«نهاية تفسير سورة التحريم»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١٧

٦٧. سورة الملك

محتوى السورة: تسمى سورة الملك أيضاً ب (المنجية)، وكذلك تسمى ب (الواقية) أو (المانعة) بلحاظ أنّها تحفظ الإنسان الذى

يتلوها من العذاب الإلهي أو عذاب القبر، وهي من السور التي لها فضائل عديدة. وقد طرحت في هذه السورة مسائل قرآنية مختلفة، إلّا أنّ الأصل فيها يدور حول ثلاثة محاور هي:

١- أبحاث حول المبدأ، وصفات الله سبحانه، ونظام الخلق العجيب، خصوصاً خلق السماوات والنجوم والأرض وما فيها من كنوز عظيمة... وكذلك ما يتعلق بخلق الطيور والمياه الجارية والحواس كالاذن والعين، بالإضافة إلى وسائل المعرفة الأخرى.

٢- ثم تتحدث الآيات الكريمة عن المعاد وعذاب الآخرة، والحوار الذي يدور بين ملائكة العذاب الإلهي وأهل جهنم، بالإضافة إلى أمور أخرى في هذا الصدد.

٣- وأخيراً تتحدث عن التهديد والإنذار الإلهي بألوان العذاب الدنيوي والأخروي للكفار والظالمين.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «سورة المُلْك هي المانعة، تمنع من عذاب القبر، وهي مكتوبة في التوراة سورة الملك، ومن قرأها في ليلة فقد أكثر وأطاب ولم يكتب من الغافلين».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١٨

ومن الطبيعي أنّ جميع هذه الآثار العظيمة لا تكون إلّا من خلال التدبر في قراءة آيات هذه السورة والعمل بها، والإستلها من محتوياتها في الممارسات الحياتية المختلفة.

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصِيرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصِيرُ خَاسِتًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) تبدأ آيات هذه السورة بمسألة مالكيه وحاكمية الله سبحانه، وخلود ذاته المقدسه، وهي في الواقع مفتاح جميع أبحاث هذه السورة المباركة. يقول تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

«تبارك»: من مادة «بركة» في الأصل من «برك» على وزن (ترك) بمعنى (صدر البعير)، واطلقت كذلك على كل نعمه باقية ودائمة. ثم يشير سبحانه في الآية اللاحقة إلى الهدف من خلق الإنسان وموته وحياته، وهي من شؤون مالكيته وحاكميته تعالى فيقول: «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

«الموت»: حقيقته الانتقال من عالم إلى عالم آخر، وهذا الأمر وجودي يمكن أن يكون مخلوقاً، لأنّ الخلقه ترتبط بالأمور الوجودية، وهذا هو المقصود من الموت في الآية الشريفة، أما الموت بمعنى الفناء والعدم فليس مخلوقاً، لذا فإنّه غير مقصود.

أما الهدف من الإمتحان فهو تربية الإنسان كي يجسد الاستقامه والتقوى والطهر في الميدان العملي ليكون لائقاً للقرب من الله سبحانه، وقد بحثنا ذلك مفصلاً فيما سبق.

ومن هنا نعلم أنّ العالم ميدان الإمتحان الكبير لجميع البشر، ووسيلة هذا الإمتحان هو الموت والحياء، والهدف منه هو الوصول إلى حسن العمل الذي مفهومه تكامل المعرفة، وإخلاص النيّة، وإنجاز كل عمل خيّر.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢١٩

وبما أنّ الإنسان يتعرّض لأخطاء كثيرة في مرحلة الإمتحان الكبير الذي يمرّ به، فيجدد به إلّا يكون متشائماً ويائساً من عون الله سبحانه ومغفرته له، وذلك من خلال العزم على معالجة أخطائه ونزواته النفسية وإصلاحها، حيث يقول تعالى: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ».

وبعد إستعراض نظام الموت والحياء الذي تناولته الآية السابقة، تتناول الآية اللاحقة النظام الكلي للعالم، وتدعو الإنسان إلى التأمل في عالم الوجود، والتهيؤ لمخاض الإمتحان الكبير عن طريق التدبّر في آيات هذا الكون العظيم. يقول تعالى: «الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا».

ثم يضيف سبحانه: «مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ».

إِنَّ الْآيَةَ أَعْلَاهُ تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ عَالَمَ الْوُجُودِ - بِكُلِّ مَا يَحِيطُهُ مِنَ الْعِظْمَةِ - قَائِمٌ وَفْقَ نِظَامٍ مُسْتَحْكَمٍ، وَقَوَانِينٍ مُنْسَجَمَةٍ، وَمَقَادِيرٍ مُحَسَّبَةٍ، وَدَقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ، وَلَوْ وَقَعَ أَيُّ خَلَلٍ فِي جُزْءٍ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ الْفَسِيحِ لَأَدَّى إِلَى دِمَارِهِ وَفَنَائِهِ.

ثُمَّ يَضِيفُ تَعَالَى مُؤَكِّدًا: «فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ».

«فطور»: مِنْ مَادَّةٍ «فَطَرَ» عَلَى وَزْنِ (سَطَرَ) بِمَعْنَى الشَّقِّ مِنَ الطُّولِ، كَمَا تَأْتِي بِمَعْنَى الْكُسْرِ (كَإِفْطَارِ الصِّيَامِ) وَالخَلَلِ وَالْإِفْسَادِ، وَقَدْ جَاءَتْ بِهَذَا الْمَعْنَى فِي الْآيَةِ مُورِدَ الْبَحْثِ.

وَيَقْصِدُ بِذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ كُلَّمَا دَقَّقَ وَتَدَبَّرَ فِي عَالَمِ الْخَلْقِ وَالْوُجُودِ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَى أَيُّ خَلَلٍ أَوْ اضْطِرَابٍ فِيهِ. لِذَا يَضِيفُ سُبْحَانَهُ مُؤَكِّدًا هَذَا الْمَعْنَى فِي الْآيَةِ الْآخِرَةِ اللاحقة حيث يقول: «ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسًا وَهُوَ حَسِيرٌ».

«كَرَّتَيْنِ»: مِنْ مَادَّةٍ «كَرَّ» عَلَى وَزْنِ (شَرَّ) بِمَعْنَى التَّوَجُّهِ وَالرُّجُوعَ إِلَى شَيْءٍ مُعَيَّنٍ.

وَبِنَاءٍ عَلَى هَذَا فَإِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَأْمُرُ النَّاسَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ أَنْ يَتَطَلَّعُوا وَيَتَأَمَّلُوا وَيَدَقِّقُوا النَّظَرَ فِي عَالَمِ الْوُجُودِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - كَحَدِّ أَدْنَى - وَيَتَدَبَّرُوا أَسْرَارَ الْخَلْقِ.

وَعِنْدَمَا لَا يَجِدُ أَيُّ خَلَلٍ أَوْ نَقْصٍ فِي هَذَا النِّظَامِ الْعَجِيبِ وَالْمُحْتَبَرِ لِخَلْقِ الْكُونِ، فَإِنَّ ذَلِكَ سَيُؤَدِّي إِلَى مَعْرِفَةِ خَالِقِ هَذَا الْوُجُودِ الْعَظِيمِ وَوَمَدَى عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ اللَّامْتَنَاهِيَةِ، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى عَمَقِ الْإِيمَانِ بِهِ سُبْحَانَهُ وَالقَرَبِ مِنْ حَضْرَتِهِ الْمُقَدَّسَةِ.

«خَاسِيءٌ»: مِنْ مَادَّةٍ «خَسَأَ» وَ«خَسَوْا» عَلَى وَزْنِ (مَدَحَ، وَخَشَوْا) وَإِذَا كَانَ مُورِدَ إِسْتِعْمَالِهَا الْعَيْنَ، فَيَقْصِدُ بِهِمَا التَّعَبَ وَالْعَجْزَ، أَمَّا إِذَا اسْتَعْمَلَتْ لِلْكَلْبِ فَيَقْصِدُ مِنْهَا طَرْدَهُ وَإِبْعَادَهُ؛ وَ«حَسِيرٌ»: مِنْ مَادَّةٍ «حَسَرَ»، عَلَى وَزْنِ (قَصَرَ) بِمَعْنَى جَعَلَ الشَّيْءَ عَارِيًّا، وَإِذَا مَا

مُخْتَصِرُ الْاِمْتِلِ، ج ٥، ص: ٢٢٠

فَقَدْ الْإِنْسَانَ قُدْرَتَهُ وَاسْتَطَاعَتَهُ بِسَبَبِ التَّعَبِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ عَارِيًّا مِنْ قَوَاهِ، لِذَا فَإِنَّهَا جَاءَتْ بِمَعْنَى التَّعَبِ وَالْعَجْزِ. وَبِنَاءٍ عَلَى هَذَا فَإِنَّ كَلِمَتِي (خَاسِيءٌ) وَ (حَسِيرٌ) اللَّتَيْنِ وَرَدَتَا فِي الْآيَةِ أَعْلَاهُ، تَعْطِيَانِ مَعْنَى وَاحِدًا فِي التَّأَكِيدِ عَلَى عَجْزِ الْعَيْنِ، وَبَيَانِ عَدَمِ مَقْدَرَتِهَا عَلَى مَشَاهِدَةِ أَيُّ خَلَلٍ أَوْ نَقْصٍ فِي نِظَامِ عَالَمِ الْوُجُودِ. إِنَّ لِهَذِهِ الْآيَاتِ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى دَقَّةِ النِّظَامِ الْكُونِيِّ، حَيْثُ مَعْنَاهَا أَنَّ وَجُودَ النِّظَامِ فِي كُلِّ شَيْءٍ دَلِيلٌ عَلَى وَجُودِ الْعِلْمِ وَالقُدْرَةِ عَلَى خَلْقِ ذَلِكَ الشَّيْءِ.

ثُمَّ تَتَنَاوَلُ الْآيَةُ التَّالِيَةُ صَفْحَةَ السَّمَاءِ الَّتِي يَتَجَسَّدُ فِيهَا الْجَمَالَ وَالرُّوعَةَ، حَيْثُ النُّجُومُ الْمُتَلَأَلَةُ فِي جَوْ السَّمَاءِ، الْمَشْعَعَةُ بِضُوئِهَا السَّاحِرِ فِي جَمَالَ وَلَطَافِهِ، حَيْثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ: «وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ».

وَتُؤَكِّدُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ - مَرَّةً أُخْرَى - الْحَقِيقَةَ الْقَائِلَةَ أَنَّ جَمِيعَ النُّجُومِ الَّتِي نَشَاهِدُهَا مَا هِيَ إِلَّا جُزْءٌ مِنَ السَّمَاءِ الْأُولَى، وَالَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَيْنَا مِنْ أَيِّ سَمَاءٍ أُخْرَى مِنَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، لِذَا أُطْلِقَ عَلَيْهَا اسْمُ (السَّمَاءِ الدُّنْيَا) أَيُّ السَّمَاءِ الْقَرِيبَةِ وَالَّتِي هِيَ أَسْفَلَ جَمِيعِ السَّمَاوَاتِ الْأُخْرَى.

وَاللَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير (١١) كَانَ الْحَدِيثُ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ عَنْ مَعَالِمِ الْعِظْمَةِ وَالقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَدَلَالَتِهَا فِي عَالَمِ الْوُجُودِ، أَمَّا فِي الْآيَاتِ مُورِدَ الْبَحْثِ فَإِنَّهُ تَعَالَى يَتَحَدَّثُ عَنِ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَعْضُونَ وَيَتَنَكَّبُونَ عَنْ أَدْلَتِهِ الْحَقِّ، وَيَكَابِرُونَ فِي تَحْدِي الْبِرَاهِينِ الدَّامِغَةِ، وَيَسْلُكُونَ طَرِيقَ الْكُفْرِ وَالشَّرْكِ، وَيَقْدِفُونَ أَنْفُسَهُمْ كَالشَّيَاطِينِ فِي اتُونَ الْعَذَابِ الْإِلَهِيِّ. يَقُولُ تَعَالَى فِي الْبَدَايَةِ:

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

ثُمَّ يَسْتَعْرِضُ تَوْضِيحًا لِهَذَا اللَّوْنِ مِنَ الْعَذَابِ الرَّهيبِ يَقُولُ تَعَالَى: «إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ».

مُخْتَصِرُ الْاِمْتِلِ، ج ٥، ص: ٢٢١

إنهم عندما يلقون فيها بمنتهى الذلّ والحقارة تقترب حالة إلقائهم بصدور صوت مرعب وشديد من جهنم، حيث يسيطر الرعب والخوف على جميع وجودهم.

ثم يضيف تعالى مستعرضاً شدة غضب (جهنم) وشدة هيجانها وإنزعاجها بقوله تعالى: «تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ» (١).

إنها حرارة هائلة جداً و نار حارقة مزمجرة كما لو وضعنا إناء كبير على نار محتدمة فإنه لا يلبث أن يفور ويغلي بشكل يكاد فيه أن يتلاشى ويدوب.

ثم يستمرّ تعالى بقوله: «كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ».

فلماذا إذن أوقعتم أنفسكم في هذا المصير البائس، وهذا البلاء العظيم والساعة الرهيبة، إنّ الملائكة (خزنة جهنم) يستغربون ويكادون أن يصعقوا لما أصابكم وما أوقعتم به أنفسكم، في مثل هذه الداهية مع الوعي الذي حباكم به الله سبحانه وما تفضل به عليكم من نعمة الرسل الإلهيين والقادة من الأنبياء والمرسلين ... فكيف اخترتم لأنفسكم مقراً كهذا؟

«قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ».

وهكذا يأتي الاعتراف: نعم قد جاءنا الرسل إلّا أننا كذبناهم ولم نسمع نداءهم المحيي للنفوس بل خالفناهم وعارضناهم واعتبرناهم ضالين، وأخرجناهم من بين صفوفنا، وأبعدناهم عنا ..

ثم يذكر القرآن الدليل الأصلي على شقائهم وتعاستهم ولكن على لسانهم فيقول:

«وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ». أجل هكذا يأتي إعترافهم بذنوبهم بعد فوات الأوان: «فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ».

فمن جهة أعطاهم الله تعالى الاذن السامعة والعقل، ومن جهة اخرى بعث إليهم الرسل والأنبياء بالدلائل الواضحة فلو اقترن هذان الأمران فالنتيجة هي ضمان سعادة الإنسان.

«سحق»: على وزن (قفل) وهي في الأصل بمعنى طحن الشيء وجعله ناعماً كما تطلق على الملابس القديمة، إلّا أنها هنا بمعنى البعد عن رحمة الله. وبناءً على هذا فإن مفهوم قوله تعالى «فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ» هو: فبعداً لأصحاب النار عن رحمة الله، ولأنّ لعنة وغضب الله تعالى يكون توأمًا مع التجسيد الخارجي له، فإنّ هذه الجملة بمثابة الدليل على أنّ هذه المجموعة بعيدة عن رحمة الله بشكل كلي.

(١) «تميّز»: بمعنى التلاشى والتشتت وكانت في الأصل (تتميّز).

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢٢

ملاحظة

المقام السامي للعقل: ليست هذه هي المرّة الاولى التي يشير فيها القرآن الكريم إلى مقام العقل السامي، كما أنّها ليست المرّة الاولى التي يصرّح فيها بأنّ العامل الأساسي لتعاسة الإنسان ودخوله عوالم الخسران والضياع والعاقبة التعيسة، وسقوطه وفي وحل الذنوب وجهنم ... هو عدم الاستفادة من هذه القوة الإلهية العظيمة، وإغفال هذه القدرة الجبارة، وعدم استثمار هذه الجوهرية والنعمة الربانية. فإنّ الإسلام قد وضع أساس معرفة الله تعالى وسلوك طريق السعادة والنجاة، ضمن مسؤوليته العقل.

لذا فإنّ القرآن الكريم يوجّه نداءته بصورة مستمرة وفي كل مكان إلى (اولوا الأبواب) و (اولوا الأبصار) وأصحاب الفكر من العلماء والمتعمقين في شؤون المعرفة.

في الكافي عن الإمام على عليه السلام قال: «هبط جبرئيل على آدم عليه السلام، فقال: يا آدم! إنني امرت أن أخيرك واحدة من ثلاث

فاخترها ودع إثنين، فقال له آدم: يا جبرئيل وما الثلاث؟ فقال: العقل والحياء والدين. فقال آدم: إني قد اخترت العقل، فقال جبرئيل للحياء والدين: إنصرفا ودعاه.

فقالا: يا جبرئيل، إنا امرنا أن نكون مع العقل حيث كان، قال: فشأنكما وعرج».

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) بعد ما بينا- في الأبحاث التي تناولتها الآيات السابقة- مصير الكفار يوم القيامة، فإن القرآن الكريم يتناول في الآيات مورد البحث حالة المؤمنين وجزاءهم العظيم عند الله سبحانه .. يقول في البداية: «إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ».

«الغيب» هنا إشارة لمعرفة الله تعالى غير المرئية، أو الإشارة إلى المعاد غير المشاهد، أو يقصد به الأمران معاً.

كما يحتمل أن يكون إشارة إلى الخوف من الله تعالى بسبب ما عمل الإنسان من خطايا وذنوب في السر، ذلك أن الإنسان إذا لم يقترف ذنوباً في السر، فإنه لن يجراً عليها في العلانية.

ويحتمل أن يكون هذا التعبير إشارة إلى خلوص التوبة في الإبتعاد عن الذنوب والمعاصي، والالتزام بالأوامر الإلهية، إذ إن العمل السرى يكون أبعد عن الرياء.

كما لا مانع من الجمع بين هذه الآراء.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢٣

ثم يضيف للتأكيد: «وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

قال ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من رسول الله صلى الله عليه وآله فيخبره جبرائيل بما قالوا فيقول بعضهم (أسروا قولكم)، حتى لا يسمع إله محمد. فأنزل الله هذه الآية «١» [ف قيل لهم أسروا ذلك أو اجهروا به فإن الله يعلمه وأسرار الأقوال واعلانها مستويان عنده تعالى في تعلق علمه .

وتأتى الآية اللاحقة دليلاً وتأكيداً على ما ورد في الآية السابقة، حيث يقول تعالى: «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ».

«اللطيف»: مأخوذ في الأصل من (اللفظ) ويعنى كل موضوع دقيق وظريف، وكل حركة سريعة وجسم لطيف، وبناءً على هذا فإن وصف الله تعالى ب (اللطيف) إشارة إلى علمه عز وجل بالأسرار الدقيقة للخلق.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) بعد الأبحاث التي إستعرضناها في الآيات السابقة بالنسبة لأصحاب النار وأصحاب الجنة، والكافرين والمؤمنين، يشير تعالى في الآيات مورد البحث إلى بعض النعم الإلهية، ثم إلى أنواع من عذابه، وذلك للترغيب والتشويق بالجنة لأهل الطاعة، والإنذار بالنار لأهل المعصية. يقول تعالى: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا». «فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ».

«ذلول»: بمعنى (مطيع) وهو أجمل تعبير يمكن أن يطلق على الأرض، لأن هذا المركب السريع السير جداً، مع حركته المتعددة، يلاحظ هادئاً إلى حد يبدو وكأنه ساكناً بصورة مطلقة.

يقول بعض العلماء: إن للأرض أربع عشرة حركة مختلفة، ثلاث منها هي:

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٨ / ٦٠، والتفسير الكبير ٣٠ / ٦٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢٤

الاولى: حركتها حول نفسها.

والثانية: حول الشمس.

والثالثة: مع مجموعة المنظومة الشمسية في وسط المجرة.

هذه الحركات التي تكون سرعتها عظيمة، هي من التناسب والانسجام إلى حدّ لم يكن ليصدق أحد أنّ للأرض حركة لولا إقامة البراهين القطعية على حركتها.

ومن جهة اخرى، فإنّ قشرة الأرض ليست قويّة وقاسية إلى حدّ لا يمكن معه العيش فوقها، ولا ضعيفة لئنه لا قرار لها ولا هدوء، وبذلك فإنّها مناسبة لحياة البشر تماماً.

ومن جهة ثالثة فإنّ بعدها عن الشمس ليس هو بالقرب منها إلى حدّ يؤدّي بحرارة الشمس إلى أن تحرق كل شيء على وجهها، ولا هو ببعيد عنها بحيث يتجمّد كل شيء على سطحها.

وكذلك بالنسبة لضغط الهواء على الكرة الأرضية، فإنّه متناسب بما يؤدّي إلى هدوء الإنسان وراحته.

والأمر نفسه يقال في الجاذبية الأرضية، هي ليست شديدة إلى حدّ تهشم فيها عظام الإنسان، ولا بالضعيفة التي يكون فيها معلقاً لا يستطيع الاستقرار في مكان.

والخلاصة: إنّ الأرض (ذلول) ومطبعة ومسخرة لخدمة الإنسان في جميع المجالات.

كما تحمل في نفس الوقت إشارة إلى ضرورة السعي في الأرض في طلب الرزق والحصول عليه، وإلّا فسيكون الحرمان نصيب القاعدين والمتخلفين عن السعي.

ويجب الالتفات إلى أنّ هذا ليس هو الهدف الأساس لخلقكم، إذ إنّ كل ذلك وسائل في طريق (نشوركم) وبعثكم وحياتكم الأبدية. وبعد هذا الترغيب والتشويق يستعرض تعالى اسلوب التهديد والإنذار فيقول سبحانه: «أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ».

إنّ الباري تعالى إذا أمر أو أراد فإنّ هذه الأرض الذلول الهادئة تكون في حالة هيجان وطغيان كدابة جموح، تبدأ بالزلازل، وتتسقق وتدفنكم وبيوتكم ومدنكم تحت ترابها وحجرها، وتبقى راجفة مضطربة مزمجرة بعد أن تقضى عليكم وعلى مساكنكم التي متعم فيها برهه من الزمن.

ثم يضيف سبحانه: «أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا». فلا يلزم حتماً

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢٥

حدوث زلزله لتدميركم، بل يكفي أن نأمر عاصفه رملية لتدفنكم تحت رمالها ... وحينئذ ستعلمون حقيقة إنذارى وتهديدي: «فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ».

إنّ الآيات أعلاه تؤكد أنّ عذاب العاصين والمجرمين لا ينحصر في يوم القيامة فقط، حيث يستطيع الباري عز وجل أن يقضى على حياتهم في هذه الدنيا بحركة بسيطة للأرض، أو بحركة الرياح، وإنّ أفضل دليل على هذه الإمكانية الإلهية هو وقوع مثل هذه الامور في الامم السابقة.

لذا فإنّ الله تعالى يقول في آخر آية من هذه الآيات: «وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» (١).

نعم، فلقد عاقبنا قسماً من هؤلاء بالزلازل المدمرة، وأقواماً آخرين بالصواعق، وبالطوفان، وبالرياح ... وبقيت مدنهم المدمرة موضع درس واعتبار لمن كان له قلب واع.

أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي عُرُورٍ (٢٠) أَمْ هَذَا الَّذِي يَزُقُّكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) انظروا إلى الطير فوقكم: في الآيات الاولى لهذه السورة كان البحث عن قدرة الله سبحانه ومالكيته، وعن السماوات السبع والنجوم والكواكب ...

ويستمر هذا اللون من الحديث في أول آية- مورد البحث- وذلك بذكر مفردة اخرى من كائنات هذا الوجود، والتي تبدو في ظاهرها صغيرة ويقول تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ».

هذه الأجسام بالرغم من قانون الجاذبية الأرضية تنطلق من الأرض وتحلق ساعات في السماء بكل راحة، وأحياناً أياماً وأسابيع وشهوراً، وتستمر بحركتها السريعة المرنة وبدون أى مشاكل.

فمن يا ترى خلق أجسام هذه الطيور بهذه الصورة التي جعلها تستطيع السير في الهواء بكل سهولة وراحة؟

(١) «نكير»: بمعنى (الإنكار) وجاءت هنا كناية عن العقوبة، لأن إنكار الله تعالى مقابل أفعال هؤلاء القوم جاءت عن طريق مجازاتهم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢٦

لذا يقول في ختام الآية: «مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ».

إنه الله تعالى الذى وضع باختيارها الوسائل والقوى والإمكانات المختلفة للطيران، وحافظ عليها فى السماء، هو بذاته المقدسة يحفظ

الأرض والكائنات الاخرى، وعندما يشاء غير ذلك فلن يكون عندئذ للطيور قدرة الطيران ولا للأرض حالة الهدوء والاستقرار.

ثم يشير تعالى فى الآية اللاحقة إلى أن الكافرين ليس لهم أى عون أو مدد مقابل قدرة الله عز وجل حيث يقول: «أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ

جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ».

إن هؤلاء الذين هم (جند لكم) ليسوا عاجزين عن مساعدتكم ونصرتكم فحسب، بل إذا شاء الرحمن جعلها سبب عذابكم ودماركم.

ألا «إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ». فلقد أعمت عقولهم حجب الجهل والغرور، ولا يعتبرون أو يتعظون بما حصل للأقوام البائدة السابقة،

ولا لما يصيب الآخرين فى حياتنا المعاصرة.

ثم يضيف سبحانه مؤكداً ما سبق: «أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَزُزُّكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ».

فاذا أمر الله السماء أن تمتنع عن المطر، والأرض عن الإنبات، وأمر الآفات الزراعية بالفتك بالمحاصيل ... فمن القادر غيره أن

يطعمكم الطعام؟

وإذا ما قطع الله الرزق المعنوى عنكم والوحي السماوى من الوصول إليكم، فمن القادر غيره على إرشادكم وإنقاذكم من براثن

الضلال؟ إنها لحقائق واضحة وأدلة دامغة، إلا أن العناد هو الذى يشكل حاجباً للإدراك وللشعور الحق: «بَلْ لَّجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ».

السائر سويًا على جادة التوحيد: تعقياً لما ورد فى الآيات السابقة بالنسبة إلى أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ

وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً

سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢٧

الكافرين والمؤمنين، فإن الله تعالى يصور لنا- فى أول آية من هذه الآيات- حالة هاتين المجموعتين ضمن تصوير رائع ولطيف، حيث

يقول تعالى: «أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

فهنا شبه المعاندين والمغرورين كمن يسير فى جادة متعرجة غير مستوية كثيرة المنعطفات وقد وقع على وجهه، يحرك يديه ورجليه

للإهتداء إلى سبيله، لأنه لا يبصر طريقه جيداً، وليس بقادر على السيطرة على نفسه، ولا بمطلع على العقبات والموانع، وليست لديه

القوة للسير سريعاً، وبذلك يتعثّر فى سيره ... يمشى قليلاً ثم يتوقف حائراً.

كما شبه المؤمنين برجال منتصبى القامات، يسرون فى جادة مستوية ومستقيمة ليس فيها تعرجات واعوجاج، ويمشون فيها بسرعة

ووضوح وقدرة ووعى وعلم وراحة تامة.

إنه - حقاً - لتشبيهه لطيف فذ، حيث إن آثار هذين السيلين واضحة تماماً، وإنعكاساتها جلية في حياة هذين الفريقين، وذلك ما نلاحظه بأم أعيننا.

ثم يوجه الله تعالى الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وآله في الآية اللاحقة فيقول: «قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ».

إن الله تعالى جعل لكم وسيلة للمشاهدة والإبصار (العين) وكذلك وسيلة وقناة للإطلاع على أفكار الآخرين ومعرفة وجهات نظرهم من خلال الاستماع (الإذن) ثم وسيلة أخرى للتفكير والتدبير في العلوم والمحسوسات واللامحسوسات (القلب).

وخلاصة الأمر إن الله تعالى قد وضع جميع الوسائل اللازمة لكم لتعرفوا على العلوم العقلية والنقلية، إلا أن القليل من الأشخاص من يدرك هذه النعم العظيمة ويشكر الله المنعم، حيث إن شكر النعمة الحقيقي يتجسد بتوجيه النعمة نحو الهدف الذي خلقت من أجله، تُرى من هو المستفيد من هذه الحواس (العين والاذن والعقل) بصورة صحيحة في هذا الطريق؟

ثم يخاطب الرسول مرة أخرى حيث يقول تعالى: «قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

إن الآيات أعلاه تؤكد على أن السير يجب أن يكون في الطريق المستقيم، والصراف الواضح المتمثل بالإسلام والإيمان، وبذل الجهد للاستفادة من جميع وسائل المعرفة بهذا الإتجاه، والتحرك نحو الحياة الخالدة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢٨

ثم يستعرض سبحانه قول المشركين في هذا المجال والرد عليهم، فيقول تعالى: «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

ويجيهم الله سبحانه على تساؤلهم هذا بقوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

ولابد أن يكون الجواب بهذه الصورة، حيث إن تحديد تاريخ يوم القيامة إن كان بعيداً فإن الناس سيغفون بالغفلة، وإن كان قريباً فإنهم سيعيشون حالة الهلع والاضطراب، وعلى كل حال فإن الأهداف التربوية تتعطل في الحالتين.

ويضيف في آخر آية من هذه الآيات بأن الكافرين حينما يرون العذاب والوعد الإلهي من قريب تسود وجوههم: «فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا». فسيماهم طافحة بآثار الحزن والندم: «وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ».

«تدعون»: من مادة «دعاء» يعني أنكم كنتم تدعون وتطلبون دائماً أن يجيء يوم القيامة، وها هو قد حان مواعده، ولا سبيل للفرار منه.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمْنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَضْرَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠) إن الآيات أعلاه، التي هي آخر آيات سورة الملك، تبدأ جميعها بكلمة (قل) مخاطبة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث أنها تمثل استمراراً للأبحاث التي مرت في الآيات السابقة حول الكفار، وتعكس هذه الآيات الكريمة جوانب أخرى من البحث.

يخاطب الباري عز وجل - في البداية - الأشخاص الذين يرتقبون وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه، ويتصورون أن بوفاته سوف يمحي دين الإسلام وينتهي كل شيء، وهذا الشعور كثيراً ما ينتاب الأعداء المخذولين إزاء القيادات القوية والمؤثرة. يقول تعالى مخاطباً إياهم:

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمْنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ».

ورد في بعض الروايات أن كفار مكة، كانوا دائماً يستبون الرسول صلى الله عليه وآله والمسلمين، وكانوا يتمنون موته ظناً منهم أن رحيله سينهي دعوته كذلك، لذا جاءت الآية أعلاه رداً عليهم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٢٩

واستمراراً لهذا البحث، يضيف تعالى: «قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

وهذا يعني أننا إذا آمننا بالله، واتخذناه ولياً ووكيلاً لنا، فإن ذلك دليل واضح على أنه الرب الرحمن، شملت رحمته الواسعة كل شيء،

وغمر فيض لطفه ونعمه الجميع (المؤمن والكافر)، أما الذين تعبدونهم من دون الله فماذا عملوا؟ وماذا صنعوا؟ ويقول تعالى في آخر آية، عارضاً لمصداق من رحمته الواسعة، والتي غفل عنها الكثير من الناس: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَضَيَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ».

جاء في الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المراد من الآية الأخيرة من هذه السورة هو ظهور الإمام المهدي عليه السلام وعدله الذي سيعم العالم.

ومما يجدر الإنتباه له أن هذه الروايات هي من باب (التطبيق).
وبعبارة أخرى: فإن ظاهر الآية مرتبط بالماء الجاري، والذي هو علمه حياة الموجودات الحية، أما باطن الآية فإنه يرتبط بوجود الإمام عليه السلام وعلمه وعدالته التي تشمل العالم، والتي هي الاخرى تكون سبباً لحياة وسعادة المجتمع الإنساني.
«نهاية تفسير سورة الملك»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣١

محتوى السورة: إن نسق السورة ومحتوى آياتها ينسجم تماماً مع السور المكية، لأن المحور الأساسي فيها يدور حول مسألة نبوة رسول الإسلام صلى الله عليه وآله ومواجهه الأعداء الذين كانوا يعتونونه بالجنون وغيره، والتأكيد على الصبر والاستقامة وتحدي الصعاب، وإنذار وتهديد المخالفين لهذه الدعوة المباركة بالعذاب الأليم.

وبشكل عام يمكن تلخيص مباحث هذه السورة بسبعة أقسام:
١- في البداية تستعرض السورة بعض الصفات الخاصة لرسول الإنسانية محمد صلى الله عليه وآله وخصوصاً أخلاقه البارزة الرفيعة، ولتأكيد هذا الأمر يقسم الباري عز وجل في هذا الصدد.

٢- ثم تتعرض بعض الآيات الواردة في هذه السورة إلى قسم من الصفات السيئة والأخلاق الذميمة لأعدائه.

٣- كما يبين قسم آخر من الآيات الشريفة قصة (أصحاب الجنة) والتي هي بمثابة توجيه إنذار وتهديد للسالكين طريق العناد من المشركين.

٤- ثم ذكرت عدّة امور حول القيامة والعذاب الأليم للكفار في ذلك اليوم.

٥- كما جاء في آيات اخرى جملة إنذارات وتهديدات للمشركين.

٦- ونلاحظ في آيات اخرى من السورة الأمر الإلهي للرسول العظيم محمد صلى الله عليه وآله بأن يواجه الأعداء بصبر واستقامة وقوة وصلابة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣٢

٧- وأخيراً تختتم السورة موضوعاتها بحديث حول عظمة القرآن الكريم، وطبيعة المؤامرات التي كان يحوكمها الأعداء ضد الرسول محمد صلى الله عليه وآله.

إنتخاب (القلم) اسماً لهذه السورة المباركة، كان بلحاظ ما ورد في أول آية منها.

ويستفاد من بعض الروايات التي وردت في فضيلة هذه السورة أن اسمها «ن والقلم».

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان قال النبي صلى الله عليه وآله: «ومن قرأ سورة ن والقلم أعطاه الله ثواب الذين حسن أخلاقهم».

كما عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة ن والقلم في فريضة أو نافلة، آمنه الله أن يصيبه في حياته فقر أبداً، وأعاده إذا مات من ضمة القبر، إن شاء الله».

وهذا الأجر والجزاء يتناسب تناسباً خاصاً مع محتوى السورة، والهدف من التأكيد على هذا النوع من الأجر من تلاوة السورة هو أن

تكون التلاوة مقرونة بالوعى والمعرفة ومن ثم العمل بمحتواها.

ن وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيْكُمْ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) هذه السورة هي السورة الوحيدة التي تبدأ بحرف (ن) حيث يقول تعالى: «ن». ثم يقسم تعالى بموضوعين يعتبران من أهم المسائل في حياة الإنسان، فيقول تعالى: «وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ».

وقد يتصور أن القسم هنا يتعلق ظاهراً بمواضيع صغيرة، أى قطعته من القصب - أو شىء يشبه ذلك - وبقليل من مادة سوداء، ثم السطور التي تكتب وتخط على صفحة صغيرة من الورق.

إلا أننا حينما نتأمل قليلاً فيه نجد مصدراً لجميع الحضارات الإنسانية فى العالم أجمع، إن تطور وتكامل العلوم والوعى والأفكار وتطور المدارس الدينية والفكرية، وبلورة الكثير من المفاهيم الحياتية ... كان بفضل ما كُتب من العلوم والمعارف الإنسانية فى الحقول المختلفة،

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣٣

مما كان له الأثر الكبير فى يقظة الامم وهداية الإنسان ... وكان ذلك بواسطة (القلم).

لقد قسّمت حياة الإنسان إلى عصرين: (عصر التاريخ) و (عصر ما قبل التاريخ) وعصر تاريخ البشر يبدأ منذ أن اخترع الإنسان الخط واستطاع أن يدون قصة حياته وأحداثها على الصفحات.

وتتضح عظمه هذا القسم بصورة أكثر عندما نلاحظ أن هذه الآيات المباركة حينما نزلت لم يكن هنالك كتاب ولا أصحاب قلم، وإذا كان هنالك أشخاص يعرفون القراءة والكتابة، فإن عددهم فى كل مكة - التى تمثل المركز العبادى والسياسى والاقتصادى لأرض الحجاز - لم يتجاوز ال (٢٠) شخصاً، ولذا فإن القسم ب (القلم) فى مثل ذلك المحيط له عظمه خاصة. ثم يتطرق سبحانه لذكر الأمر الذى أقسم من أجله فيقول تعالى: «مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ». إن الذين يتهمون صاحب هذا العقل الجبار بالجنون هم المجانين فى الحقيقة، إن إبتعادهم عن دليل الهداية وموجه البشرية لهو الحقم بعينه.

ثم يضيف تعالى بعد ذلك: «وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ». أى غير منقطع.

«ممنون»: من مادة (من) بمعنى (القطع) ويعنى الأجر والجزاء المستمر الذى لا ينقطع أبداً.

وتعرض الآية اللاحقة وصفاً آخر لرسول الله صلى الله عليه وآله وذلك بقوله تعالى: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ».

تلك الأخلاق التى لا نظير لها، ويحار العقل فى سموها وعظمتها من صفاء لا يوصف، ولطف منقطع النظير، وصبر واستقامه وتحمل لا مثيل لها، وتجسيد لمبادئ الخير حيث يبدأ بنفسه أولاً فيما يدعو إليه، ثم يطلب من الناس العمل بما دعا إليه والالتزام به. عندما دعوت - يا رسول الله - الناس لعبادة الله، فقد كنت أعبد الناس جميعاً، وإذ نهيتهم عن سوء أو منكر فإنك الممتنع عنه قبل الجميع، تقابل الأذى بالنصح، والإساءة بالصفح، والتضرع إلى الله بهدايتهم، وهم يؤلمون بدنك الطاهر رميةً بالحجارة، واستهزاءً بالرسالة، وتقابل وضعهم للرماد الحار على رأسك الشريف بدعائك لهم بالرشد.

فى تفسير مجمع البيان عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وجاء فى حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله قال: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجةً قائم الليل وصائم النهار».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣٤

«خُلُقٍ»: من مادة «الخلق» بمعنى الصفات التى لا تنفك عن الإنسان، وهى ملازمة له، كخلق الإنسان.

فإن تأصل هذا (الخلق العظيم) فى شخصيه الرسول صلى الله عليه وآله هو دليل واضح على رجاحة العقل وغزارة العلم له ونفى جميع

التهم التى تنسب من قبل الأعداء إليه.

ثم يضيف سبحانه بقوله: «فَسْتَبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ». «بِأَيْتِكُمُ الْمُفْتُونُ». أى: من منكم هو المجنون.

«مفتون»: اسم مفعول من (الفتنة) بمعنى الإبتلاء، وورد هنا بقصد الإبتلاء بالجنون.

كما أن مواقفك وتحركاتك المستقبلية المقرونة بالتقدم السريع لانتشار الإسلام، ستؤكد بصورة أعمق أنك منبع العلم والعقل الكبيرين، وأن هؤلاء الأقزام الخفافيش هم المجانين، لأنهم تصدوا لمحاربة نور هذه الشمس العظيمة المتمثلة بالحق الإلهي والرسالة المحمدية.

ومن الطبيعي فإن هذه الحقائق ستتوضح أمامهم يوم القيامة بصورة دامغة، ويخسر هنالك المبطلون، حيث تتبين الامور وتظهر الحقيقة. وللتأكيد على المفهوم المتقدم يقول سبحانه مرة اخرى: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».

وبلحاح معرفة الباري عز وجل بسبيل الحق وبمن سلكه ومن جانبه وتحلف أو إنحرف عنه، فإنه يطمئن رسوله الكريم صلى الله عليه وآله بأنه والمؤمنون فى طريق الهداية والرشد، أما أعداؤه فهم فى متاه الضلالة والغواية.

فَلَا تُطْعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تَدَّهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَمَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ (١٦) اجْتَنَبَ أصحاب هذه الصفات: بعد أن تعرضت الآيات السابقة إلى الأخلاق السامية لرسول الله صلى الله عليه وآله، تلتها الآيات أعلاه مستعرضة أخلاق أعدائه ليوضح لنا الفرق بين الأخلاقيتين، وذلك من خلال المقارنة بينهما. يقول تعالى فى البداية: «فَلَا تُطْعِ الْمُكَذِّبِينَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣٥

ثم يشير تعالى إلى جهد هؤلاء المتواصل فى إقناع الرسول صلى الله عليه وآله بمصالحتهم والإعراض عن آلهتهم وضلالهم فيقول: «وَدُّوا لَوْ تَدَّهِنُ فَيُدْهِنُونَ».

«يدهنون»: من مادة «مداهنه» مأخوذة فى الأصل من (الدهن) وتستعمل الكلمة فى مثل هذه الموارد بمعنى إظهار اللين والمرونة، وفى الغالب يستعمل هذا التعبير فى مجال إظهار اللين والميل المذموم كما فى حالة النفاق.

ثم ينهى سبحانه مرة اخرى عن اتباعهم وطاعتهم، حيث يسرد الصفات الذميمة لهم، والتى كل واحدة منها يمكن أن تكون وحدها سبباً للإبتعاد عنهم والصدود عن الإستجابة لهم. يقول تعالى: «وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ».

تقال كلمة «حلاف» على الشخص الكثير الحلف، والذى يحلف على كل صغيرة وكبيرة.

«مهين»: من «المهانة» بمعنى الحقارة والضعف.

ثم يضيف عز وجل: «هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ».

«همّاز»: من مادة «همز»، (على وزن رمز) ويعنى: الغيبة وإستقصاء عيوب الآخرين.

«مشاء بنميم» تطلق على الشخص الذى يمشى بين الناس بإيجاد الإفساد والفرقة، وإيجاد الخصومة والعداء فيما بينهم.

ثم يسرد تعالى أوصافاً اخرى لهم، حيث يقول فى خامس وسادس وسابع صفة ذميمة لأحلاقهم: «مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ».

ومن صفاتهم أيضاً أنهم ليسوا فقط مجانين لعمل الخير، ولا يسعون فى سبيله، ولا يساهمون فى إشاعته والعون عليه ... بل إنهم يقفون سداً أمام أى ممارسة تدعو إليه، ويمنعون كل جهد فى الخير للآخرين، وبالإضافة إلى ذلك فإنهم متجاوزون لكل السنن والحقوق التى منحها الله عز وجل لكل إنسان ممّا تطف به من خيرات وبركات عليه.

وفوق هذا فهم مدنسون بالذنوب، محتطبون للآثام، بحيث أصبح الذنب والإثم جزءاً من شخصياتهم وطباعهم التى هى مناعة للخير، معتدية وآثمة.

وأخيراً يشير إلى ثامن وتاسع صفة لهم حيث يقول تعالى: «عُتِلَّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ». «عتل»: تطلق على الشخص الذي يأكل كثيراً ويحاول أن يستحوذ على كل شيء، ويمنع الآخرين منه. وفَسِّرَ البعض الآخر كلمة (عتل) بمعنى الإنسان السيء الطبع والخلق، الذي تتمثل فيه الخشونة والحقد، أو الإنسان سيء الخلق عديم الحياء.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣٦

«زنيماً»: تطلق على الشخص المجهول النسب، والذي ينتسب لقوم لا نسبة له معهم. والتعبير بشكل عام إشارة إلى أن هاتين الصفتين هما أشد قبحاً وضعة من الصفات السابقة. وبهذه الصورة يوضح لنا أن الأشخاص الذين وقفوا بوجه الإسلام والقرآن، وعارضوا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله كانوا من أخص الناس وأكثرهم كذباً وإنحطاطاً وخسئاً، فهم يتبعون عيوب الآخرين، نمامون، معتدون، آثمون، ليس لهم أصل ونسب. ويحذر سبحانه في الآية اللاحقة من الإستجابة لهم والتعامل معهم بسبب كثرة أموالهم وأولادهم، بقوله: «أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَيْنَ». ومما لا شك فيه أن الرسول صلى الله عليه وآله لم يكن ليستسلم لهؤلاء أبداً، وهذه الآيات ما هي إلا تأكيد على هذا المعنى، كي يكون خطه الرسالي وطريقته العملية واضحة للجميع، ولن تنفع جميع الاغراءات المادية في عدوله عن مهمته الرسالية. وتوضح الآية اللاحقة ردود فعل هؤلاء الأشخاص ذوي الصفات الأخلاقية المريضة إزاء الآيات الإلهية، حيث يقول تعالى: «إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ». وبهذا المنطق السقيم والحجج الواهية يعرض عن آيات الله عز وجل.

وتوضح لنا آخر آية - من هذه الآيات - مفردة من مفردات الجزء الذي سيلاقيه أمثال هؤلاء فيضيف سبحانه: «سَنَسِئُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ». وهذا التعبير كاشف ومعبر عن سوء النهاية المدللة لهؤلاء، إذ جاء التعبير أولاً بالخرطوم الذي يستعمل للفيل وللخنزير فقط، وهو دلالة واضحة في تحقيرهم.

وثانياً: أن الأنف في لغة العرب غالباً ما يستعمل كناية عن العزة والعظمة، كما يقال للفارس حين إذلاله: مرغوا أنفه بالتراب، كناية عن زوال عزته.

وثالثاً: أن وضع العلامة تكون عادة للحيوانات فقط، بل حتى بالنسبة إلى الحيوانات فإنها لا تعلم في وجوها - خصوصاً انوفها - أضف إلى ذلك أن الإسلام قد نهى عن مثل هذا العمل.

ومع كل ما تقدم تأتي الآية الكريمة ببيان معبر وافٍ وواضح أن الله تعالى سيدل هؤلاء الطغاة الذين امتلأوا عجباً بذواتهم، المتمادين في عنادهم وإصرارهم على الباطل، وتجاوزهم على الرسول والرسالة ... سيدلهم بتلك الصورة التي تحدثت عنها الآية ويفضحهم على رؤوس الأشهاد ليكونوا موضع عبرة للجميع.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣٧

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَشْتُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنْ اغْدُوا عَلَيَّ حَزْزُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٢) فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (٢٤) وَغَدُوا عَلَيَّ حَزْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) قصة (أصحاب الجنة): في الآيات أعلاه يستعرض لنا القرآن الكريم - بما يتناسب مع البحث الذي ورد في الآيات السابقة - قصة أصحاب الجنة ... فالآيات الكريمة تذكر لنا قصة مجموعة من الأغنياء كانت لهم جنة (بستان مثمر) إلا أنهم فقدوها فجأة. يقول تعالى: «إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ».

وموضوع القصة هو: أن شيخاً مؤمناً طاعناً في السن كان له بستان عامر، يأخذ من ثمره كفايته ويوزع ما فضل من ثمرته للفقراء والمعوزين، وقد ورثه أولاده بعد وفاته، وقالوا:

نحن أحق بحصاد ثمار هذا البستان، لأن لنا عيالاً وأولاداً كثيرين، ولا طاقة لنا باتباع نفس الاسلوب الذي كان أبونا عليه ... ولهذا فقد صمّموا على أن يستأثروا بثمار البستان جميعاً، ويحرموا المحتاجين من أى عطاء منها، فكانت عاقبتهم كما تحدّثنا الآيات الكريمة عنه ..

يقول تعالى: «إِذِ اقْسَمُوا لِيَصْرُمُوهَا مُصْبِحِينَ».

«يصرمن» من مادة «صرم» بمعنى حصد الفاكهة، وبمعنى القطع المطلق.

«وَلَا يَسْتَشْتُونَ». أى: لا يتركون منها شيئاً للمحتاجين.

إنّ تصميمهم هذا ناشىء عن البخل وضعف الإيمان، لأنّ الإنسان مهما اشتدّت حاجته، فإنّه يستطيع أن يترك للفقراء شيئاً ممّا أعطاه الله.

ثم يضيف تعالى استمراراً لهذا الحديث: «فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ».

لقد سلط الله عليها ناراً حارقة، وصاعقه مهلكة، بحيث أنّ جنّتهم صارت متفحمة سوداء: «فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ». ولم يبق منها شيء سوى الرماد.

«طائف»: من مادة «طواف» وهى فى الأصل بمعنى الشخص الذى يدور حول شيء معين، كما تستعمل أحياناً كناية عن البلاء والمصيبة التى تحلّ فى الليل، وهذا المعنى هو المقصود هنا.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣٨

«صريم»: من مادة «صرم» بمعنى (القطع) وهنا بمعنى (الليل المظلم) أو (الشجر بدون الثمار) أو (الرماد الأسود). والمقصود بذلك هو: البلاء السماوى الذى تمثّل بصاعقه عظيمة- فيما يبدو- أحوال البستان إلى فحم ورماد أسود.

فإنّ أصحاب البستان بقوا على تصوّرهم لأشجار جنّتهم المملوءة بالثمر، جاهزة للقطف:

«فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ».

وقالوا: «أَنْ اغْدُوا عَلَيَّ حَزُونُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ».

«اغدوا»: من مادة «غدوة» بمعنى بداية اليوم.

وعلى ضوء المقدمات السابقة: «فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ». «أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مُشْكِينَ».

ويرتقب الفقراء يوم الحصاد بفارغ الصبر فى مثل هذه الأيام، لأنّهم تعودوا فى كل سنة أن ينالهم شيء من الفاكهة كما كان يفعل ذلك الشيخ المؤمن، إلّا أنّ تصميم الأبناء البخلاء على حرمان الفقراء من العطاء، والسريرة التى غلفوا بها تحرّكاتهم، لم تدع أحداً يتوقع

أنّ وقت الحصاد قد حان ... حيث يطّلع الفقراء على الأمر بعد انتهائه، وبهذا تكون النتيجة:

«وَعَدُوا عَلَيَّ حَزْدٍ قَادِرِينَ».

«حرد»: على وزن «فرد» بمعنى الممانعة التى تكون توأمًا مع الشدة والغضب.

فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ (٢٦) بَيْلٌ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالِ أَوْ سَيَطُطُهُمْ أَلَمَ أَقْلٌ لَكُمْ لَوْ لَا تَسْتَجِبُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ

(٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْأَخْرَجَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) الآيات الشريفة- أعلاه- استمرار لقصة أصحاب الجنة. يقول القرآن الكريم: «فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ».

ثم أضافوا: «بَيْلٌ نَحْنُ مَحْرُومُونَ». أى أردنا أن نحرم الفقراء والمحتاجين من العطاء إلّا أنّنا حرمانا أكثر من الجميع، حرمانا من الرزق المادى، ومن البركات المعنوية التى تحصل عن

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٣٩

طريق الإنفاق في سبيل الله للفقراء والمحتاجين.

«قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ».

ويستفاد مما تقدم أن أحدهم كان شخصاً مؤمناً ينهاهم عن البخل والحرص، إلّا أنّهم كانوا لا يسمعون كلامه.

وتستيقظ ضمائرهم في تلك اللحظة ويعترفون بخطئهم وذنوبهم و «قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ».

إلّا أن المسألة لم تنته إلى هذا الحد، حيث يقول تعالى: «فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلُونَ».

والملاحظ من منطوق الآية أن كل واحد منهم في الوقت الذي يعترف بذنبه، فإنه يلقى بأصل الذنب على عاتق الآخر، ويوبّخه بشدة.

نعم، هكذا تكون عاقبة كل الظالمين عندما يصبحون في قبضة العذاب الإلهي، ومع الإقرار بالذنب فإنّ كلّاً منهم يحاول التنصل ممّا

لحق بهم، ويسعى جاهداً لتحويل مسؤولية البؤس والدمار على الآخرين.

ثم يضيف تعالى: «قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ».

لقد اعترفوا في المرحلة السابقة بالظلم، وهنا اعترفوا بالطغيان، والطغيان مرحلة أعلى من الظلم.

وأخيراً- بعد عودة الوعي إلى ضمائرهم وشعورهم، بل وإعترافهم بالذنب والإنابة إلى الله- توجهوا إلى الباري عزّ وجل داعين،

وقالوا: «عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ». فقد توجهنا إليه ونريد منه انقاذنا ممّا تورطنا فيه ..

ويقول تعالى في آخر آية من هذه الآيات، بلحاظ الاستفادة من هذا الدرس والإعتبار به: «كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْأَحْزَرُ أَكْبَرُ لَوْ

كَانُوا يَعْلَمُونَ».

وهكذا توجه الآية خطابها إلى كل المغرورين، الذين سحرهم المال وأبترتهم الثروة والإمكانات المادية، وغلب عليهم الحرص

والاستئثار بكل شيء دون المحتاجين ... بأنه لن يكون لكم مصير أفضل من ذلك.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٠

مختصر الامثل ج ٥، ص: ٢٨٠

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ

(٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْعَقَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلِّمُوا لِيهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠)

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) إنّ طريقة القرآن الكريم في الكشف عن الحقائق، واستخلاص المواقف،

تكون من خلال عملية مقارنة يعرضها الله سبحانه في الآيات الكريمة، وهذا الأسلوب مؤثر جداً من الناحية التربوية ... فمثلاً تستعرض

الآيات الشريفة حياة الصالحين وخصائصهم وميزاتهم ومعاييرهم ... ثم كذلك بالنسبة إلى الطالحين والظالمين، ويجعل كلّاً منهما في

ميزان، ويسلّط الأضواء عليهما من خلال عملية مقارنة، للوصول إلى الحقيقة.

وتماشياً مع هذا المنهج وبعد استعراض النهاية المؤلمة ل (أصحاب الجنة) في الآيات السابقة، يستعرض الباري عزّ وجل حالة المتقين

فيقول: «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ».

«جَنّات»: من «الجنة» حيث كل نعمة متصورة على أفضل صورة لها تكون هناك، بالإضافة إلى النعم التي لم تخطر على البال.

ولأنّ قسماً من المشركين والمترفين كانوا يدعون علو المقام وسموّه في يوم القيامة كما هو عليه في الدنيا، لذا فإنّ الله يوبّخهم على

هذا الإدعاء بشدة في الآية اللاحقة، بل يحاكمهم فيقول: «أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ».

ثم يضيف تعالى أنه لو لم يحكم العقل بما تدعون، فهل لديكم دليل نقلي ورد في كتبكم يؤيّد ما تزعمون: «أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ

تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمِمَّا تَخَيَّرُونَ». أي: ما اخترتم من الرأي ... إنّ توقعكم في أن تكون العناصر المجرمة من أمثالكم مع صفوف

المسلمين وعلى مستواهم ...، حديث هراء لا يدعمه العقل، ولم يأت في كتاب يعتدّ به ولا هو موضع اعتبار.

ثم تضيف الآية اللاحقة أنه لو لم يكن لديكم دليل من العقل أو النقل، فهل أخذتم عهداً من الله أنه سيكون معكم إلى الأبد: «أَمْ

لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْعَهَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤١

وتتساءل الآية الكريمة عن هؤلاء مستفسرة عمن يستطيع الإدعاء منهم بأنه قد أخذ عهداً من الله سبحانه في الاستجابة لميوله وأهوائه. ويضيف سبحانه - استمرراً لهذه التساؤلات - كى يسد عليهم جميع الطرق ومن كل الجهات، فيقول: «سَلُّهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ». فمن منهم يضمن أن المسلمين والمجرمين سواء، أو يضمن أن الله تعالى سيؤتيه كل ما يريد؟! وفي آخر مرحلة من هذا الاستجواب العجيب يقول تعالى: أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين».

فالآية تطلب من المشركين تقديم الدليل الذى يثبت أن هذه الأصنام المنحوتة من الحجارة، والتي لا قيمة لها ولا شعور، تكون شريكة الله تعالى وتشفع لهم عنده.

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتِطِيعُونَ (٤٢) حَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) العجز عن السجود: تعقياً للآيات السابقة التى استجوب الله تعالى فيها المشركين والمجرمين استجواباً موضوعياً، تكشف لنا هذه الآيات جانباً من المصير البائس فى يوم القيامة لهذه الثلة المغرمة فى حبها لذاتها، والمكثرة للادعاءات، هذا المصير المقترن بالحقارة والذلة والهوان. يقول تعالى: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتِطِيعُونَ».

وفى ذلك اليوم العظيم يدعى الجميع إلى السجود للبارى عز وجل، فيسجد المؤمنون، ويعجز المجرمون عن السجود.

وتعكس الآية اللاحقة صورة جديدة لحالتهم، حيث يقول سبحانه: «حَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ».

هذه الآية الكريمة تصف لنا حقيقة المجرمين عندما يدانون فى إجرامهم ويحكم عليهم، حيث نلاحظ الذلّة والهوان تحيط بهم، وتكون رؤوسهم مطأطئة تعبيراً عن هذه الحالة المهينة.

ثم يضيف تعالى: «وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ». إنهم لن يسجدوا أبداً، لقد صحبوا روح التغررس والعتوّ والكبر معهم فى يوم القيامة فكيف سيسجدون؟

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٢

ثم يوجه البارى عز وجل الخطاب لنبيه الكريم ويقول: «فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ». وهذه اللهجة تمثل تهديداً شديداً من الواحد القهار لهؤلاء المكذبين المتمردين، حيث يخاطب الرسول صلى الله عليه وآله بقوله: لا تتدخل، واطركنى مع هؤلاء، لأعاملهم بما يستحقونه.

ثم يضيف سبحانه: «سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ».

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا أحدث العبد ذنباً، جدّد له نعمه فيدع الاستغفار فهو الاستدراج».

إذا أذنب عبد فإنه لا يخرج من واحدة من الحالات الثلاث التالية:

إما أن ينتبه ويرجع عن خطئه ويتوب إلى ربه.

أو أن ينزل الله عليه العذاب ليعود إلى رشده.

أو أنه غير أهل للتوبة ولا للعودة للرشد بعد التنبه له، فيعطيه الله نعمه بدل البلاء وهذا هو: (عذاب الاستدراج). لذا يجب على الإنسان المؤمن أن يكون يقظاً عند إقبال النعم الإلهية عليه، وليحذر من أن يكون ما يمنحه الله من نعم ظاهريه يمثّل فى حقيقته (عذاب الاستدراج). ولذلك فإن المسلمين الواعين يفكرون فى مثل هذه الامور ويحاسبون أنفسهم باستمرار، ويعيدون تقييم أعمالهم دائماً، كى يكونوا قريبين من طاعة الله، ويؤدّون حق الألفاف والنعم التى وهبها الله لهم.

فى الكافى عن عمر بن يزيد قال: قلت لأبى عبد الله عليه السلام: إننى سألت الله عز وجل أن يرزقنى مالاً فرزقنى، وإننى سألت الله أن

يرزقني ولداً فرزقني، وسألته أن يرزقني داراً فرزقني، وقد خفت أن يكون ذلك استدراجاً، فقال: «أما- والله- مع الحمد فلا». أم تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّعْرَمٍ مُتَّقِلُونَ (٤٦) أم عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْ لِمَا أَنْ تَدَارِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) استمراراً للاستجاب الذي تم في الآيات السابقة للمشركين والمجرمين، يضيف الباري عز وجل سؤالين آخرين، حيث يقول في البداية: «أم تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّعْرَمٍ مُتَّقِلُونَ».

أى: إذا كانت حجتهم أن الاستجابة لدعوتك تستوجب أجراً مادياً كبيراً، وأنهم غير

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٣

قادرين على الوفاء به، فإنه كذب، حيث أنك لم تطالبهم بأجر، كما لم يطلب أى من رسل الله أجراً.

ثم يضيف واستمراراً للحوار بقوله تعالى: «أم عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ».

ولأن العناد واللامنطقية التي كان عليها أعداء الإسلام تؤلم رسول الله صلى الله عليه وآله وتدفعه إلى أن يدعو الله عليهم، لذا فإنه تعالى أراد أن يخفف شيئاً من آلام رسوله الكريم، فطلب منه الصبر وذلك قوله تعالى: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ». أى انتظر حتى يهيب الله لك ولأعدائك أسباب النصر، ويكسر شوكة أعدائك، واعلم بأن الله مهملهم وغير مهملهم، وما المهلة المعطاة لهم إلا نوع من عذاب الإستدراج.

ثم يضيف تعالى: «وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ».

والمقصود من هذا النداء هو ما ورد في قوله تعالى: «فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَإِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ».

وبذلك فقد اعترف النبي يونس عليه السلام بترك الأولى وطلب العفو والمغفرة من الله تعالى.

ويضيف سبحانه في الآية اللاحقة: «لَوْ لِمَا أَنْ تَدَارِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ».

إن المقصود من (النعمه) في الآية أعلاه هو توفيق التوبة وشمول الرحمة الإلهية لحاله عليه السلام حسب الظاهر. لذا يقول الباري عز وجل في الآية اللاحقة: «فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ».

وبذلك فقد حمّله الله مسؤوليه هداية قومه مرّة أخرى، وعاد إليه يبلّغهم رسالته، مما كانت نتيجته أن آمن قومه جميعاً.

وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢) يريدون قتلك ... لكنهم عاجزون: هاتان الآيتان تشكّلان نهاية سورة القلم، وتتضمّنان تعقيباً على ما ورد في بداية السورة من نسبة الجنون إليه صلى الله عليه وآله من قبل الأعداء.

يقول تعالى: «وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ». «ليزلقونك»: من مادة «زلق» بمعنى الترحل والسقوط على الأرض، وهى كناية عن الهلاك والموت.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٤

إنهم يعجبون ويتأثرون كثيراً عند سماعهم الآيات القرآنية بحيث يكادون أن يصيبوك بالعين (لأن الإصا به بالعين تكون غالباً فى الامور التى تثير الإعجاب كثيراً) إلّا أنهم فى نفس الوقت يتهمونك بالجنون، وهذا يمثل التناقض حقاً، إذ أين الجنون ولغو الكلام

وأين هذه الآيات المثيرة للإعجاب والنافذة فى القلوب؟

وفى آخر آية يضيف تعالى: «وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ».

حيث إن معارف القرآن الكريم واضحة، وإنذاراته موقظة، وأمثاله هادفة، وترغيباته وبشائره مرّية، وبالتالي فهو عامل وسبب ليقظة النائم وتذكّره للغافلين، ومع هذا فكيف يمكن أن ينسب الجنون إلى من جاء به؟

بحث

هل أن إصابة العين لها حقيقة: يعتقد الكثير من الناس أن لبعض العيون آثاراً خاصة عندما تنظر لشيء بإعجاب، إذ ربما يترتب على ذلك الكسر أو التلف، وإذا كان المنظور إنساناً فقد يمرض أو يجنّ ..

إنّ هذه المسألة ليست مستحيلة من الناحية العقلية، كما جاء في بعض الروايات الإسلامية- أيضاً- ما يؤيد وجود مثل هذا الأمر بصورة إجمالية.

في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: رقى النبي صلى الله عليه وآله حسناً وحسيناً فقال: "اعيد كما بكلمات الله التامات وأسمائه الحسنى كلها عامه، من شرّ السامة والهامة، ومن شرّ كل عين لامة، ومن شرّ حاسد إذا حسد" ثم التفت النبي صلى الله عليه وآله إلينا فقال: هكذا كان يعوذ إبراهيم إسماعيل وإسحاق».

«نهاية تفسير سورة القلم»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٥

٦٩. سورة الحاقّة

محتوى السورة: تدور موضوعات سورة الحاقّة حول ثلاثة محاور:

الأول: وهو أهمّ محاور هذه السورة، يرتبط بمسائل يوم القيامة وبيان خصوصياتها، وقد وردت فيه ثلاثة أسماء من أسماء يوم القيامة وهي: (الحاقّة) و (القارعة) و (الواقعة).

أمّا المحور الثاني: فتدور أبحاثه حول مصير الأقسام الكافرين، خصوصاً قوم عاد و ثمود وفرعون، وتشتمل على إنذارات شديدة لجميع الكفار ومنكرى يوم البعث والنشور.

والمحور الثالث تتحدث حول عظمة القرآن الكريم، ومقام الرسول صلى الله عليه وآله وجزاء المكذّبين.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة الحاقّة حاسبه الله حساباً يسيراً».

الحاقّة (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودٌ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صِرَعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٦

تبدأ هذه السورة بعنوان جديد ليوم القيامة. يقول تعالى: «الْحَاقَّةُ* مَا الْحَاقَّةُ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ». والمراد من الحاقّة هو اليوم الذي سيتحقق حتماً.

ذهب أغلب المفسرين إلى أن (الحاقّة) اسم من أسماء يوم القيامة، باعتباره قطعي الوقوع، كما هو بالنسبة ل (الواقعة) في سورة (الواقعة).

«ما الحاقّة»: تعبير لبيان عظمة ذلك اليوم؛ والتعبير ب «ما أدريكَ ما الحاقّة» للتأكيد مرّة اخرى على عظمة الأحداث في ذلك اليوم العظيم حتى أن الباري عزّ وجل يخاطب رسوله الكريم صلى الله عليه وآله بأنك لا تعلم ما هو ذلك اليوم.

ثم تستعرض الآيات الكريمة اللاحقة مصير الأقسام الذين أنكروا يوم القيامة، وكذلك نزول العذاب الإلهي في الدنيا، حيث يضيف تعالى: «كَذَّبَتْ ثَمُودٌ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ* فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ».

لقد كان (قوم ثمود) يسكنون في منطقة جبلية بين الحجاز والشام، فبعث الله النبي صالح عليه السلام إليهم، ودعاهم إلى الإيمان بالله ... إلّا أنّهم لم يستجيبوا له، بل حاربوه وتحذّوه في إنزال العذاب الذي أوعدهم به إن كان صادقاً، وفي هذه الحالة من التمرد الذي هم عليه، سلط الله عليهم (صاعقة مدمرة) أنهت كل وجودهم في لحظات، فخربت بيوتهم وقصورهم المحكمة، وتهاوت أجسادهم على

الأرض.

ثم تتطرق الآية اللاحقة لتحدثنا عن مصير (قوم عاد) الذين كانوا يسكنون في أرض الأحقاف الواقعة (في شبه جزيرة العرب أو اليمن) وكانوا ذوى قامات طويلة، وأجساد قوية، ومدن عامرة، وأراض خضراء خصبة، وحدائق نضرة وكان نبيهم (هود) عليه السلام يدعوهم إلى الهدى والإيمان بالله... إلّا أنهم أصروا على كفرهم وتمادوا في طغيانهم وتمردوا على الحق، فانتقم الله منهم شرّ إنتقام، وأقبرهم تحت الأرض بعد أن سلط عليهم عذاباً شديداً مؤلماً، سنوضح شرحه في الآيات التالية. يقول تعالى: «وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بَرِيحٍ صَرْصِرٍ عَاتِيَةٍ».

«صرصر»: تقال للرياح الباردة، أو المقترنة بصوت وضوضاء، أو المسمومة، وقد ذكر المفسرون هذه المعانى الثلاث في تفسيرها، والجمع بين جميع هذه المعانى ممكن أيضاً.

«عاتية»: من مادة «عتو» بمعنى التمرد على القانون الطبيعي للرياح وليست على أمر الله.

ثم تبين الآية التالية وصفاً آخر لهذه الرياح المدمرة، حيث يقول تعالى: «سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٧

«حسوماً»: من مادة «حسم» بمعنى إزالة آثار شيء ما، ويقال: (حسم) أحياناً لوضع الشيء الحارّ على الجرح للقضاء عليه من الأساس. لقد حطمت وأفتت هذه الرياح المدمرة في الليالي السبع والأيام الثمانية جميع معالم حياة هؤلاء القوم، والتي كانت تتميز بالبهة والجمال، واستأصلتهم من الجذور.

ويصور لنا القرآن الكريم مآل هؤلاء المعاندين بقوله تعالى: «فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَخَلٍ حَاوِيَةٍ».

إنه لتشبيه رائع يصور لنا ضخامة قامتهم التي إقتلعت من الجذور، بالإضافة إلى خواء نفوسهم، حيث إنّ العذاب الإلهي جعل الرياح تتقاذف أجسادهم من جهة إلى أخرى.

«حاوية»: من مادة «خواء» في الأصل بمعنى كون الشيء خالياً، ويطلق هذا التعبير أيضاً على البطون الجائعة، وتطلق كذلك على الجوز الأجوف الفارغ من اللب.

ويضيف في الآية التالية: «فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مَن بَاقِيَةٍ».

نعم، لم يبق اليوم أى أثر لقوم عاد، بل حتى مدنهم العامرة، وعماراتهم الشامخة ومزارعهم النضرة لم يبق منها شيء يذكر أبداً. وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) أين الآذان الواعية: بعد ما استعرضت الآيات الكريمة السابقة الأحداث التي مرت بقومى عاد وشمود، وتستمّر هذه الآيات في التحدّث عن الأقوام الاخرى كقوم (نوح) وقوم (لوط) لتكون درساً وعبرة لمن وعى وكان له قلب سليم... يقول تعالى: «وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ».

ال «خاطئة»: بمعنى الخطأ و (لكليهما معنى مصدرى) والمراد من الخطأ هنا هو الشرك والكفر والظلم والفساد وأنواع الذنوب.

«المؤتفكات»: جمع (مؤتفكة) من مادة (اتنفاك) بمعنى الانقلاب، وهى هنا إشارة إلى ما حصل فى مدن قوم لوط، حيث إنقلبت بزلزلة عظيمة.

والمقصود ب «وَمِن قَبْلِهِ» هم الأقوام الذين كانوا قبل قوم فرعون، كقوم شعيب، وقوم نمرود الذين تناولوا على رسولهم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٨

ثم يضيف تعالى: «فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً».

لقد خالف الفراعنة (موسى وهارون) عليهما السلام وواجهوهما بمنتهى العنف والتشكيك والملاحقة... وكذلك كان موقف أهل مدينة (سدوم) من لوط عليه السلام الذى بعث لهدايتهم وإنقاذهم من ضلالهم... وهكذا كان- أيضاً- موقف أقوام آخرين من

رسلهم حيث التطاول، والتشكيك والإعراض والتحدى ..

إن كل مجموعة من هؤلاء الأقوام المتمردين قد ابتلاهم الله بنوع من العذاب، وأنزل عليه رجزاً من السماء بما يستحقون، فالفراغنة أغرقهم الله سبحانه في وسط النيل الذي كان مصدراً لخيراتهم وبركة بلدهم وإعمار أراضيهم وديارهم، وقوم لوط سلط الله عليهم (الزلال) الشديد ثم (مطر من الحجارة) مما أدى إلى موتهم وفنائهم من الوجود.

وأخيراً تعرض بإشارة موجزة إلى مصير قوم نوح والعذاب الأليم الذي حل بهم. قال تعالى: «إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ». إن طغيان الماء كان بصورة غطى فيها السحاب، ومن هنا جاء تعبير (طغى) حيث هطل مطر غزير جداً وكأنه السيل ينحدر من السماء، وفاضت عيون الأرض، والتقت مياهها بحيث أصبح كل شيء تحت الماء (القوم وبيوتهم وقصور أكابرهم ومزارعهم وبساتينهم ...) ولم تنج إلا مجموعة المؤمنين التي كانت مع نوح عليه السلام في سفينته.

جملة (حملناكم) كناية عن حمل وإنقاذ أسلافنا وأجدادنا من الغرق، وإلا فنحن لم نكن في عالم الوجود حينذاك.

ثم بيّن الله سبحانه الغاية والهدف من هذا العقاب، حيث يقول تعالى: «لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ».

إننا لم نرد الانتقام منكم أبداً، بل الهداية والخير والسعادة، كئنا نروم أن تكونوا في طريق الكمال والنضج التربوي والوصول إلى ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان المكرم.

«تعيها»: من مادة «وعى» في الأصل بمعنى الإحتفاظ بشيء معين في القلب، وقد ذكرت هذه الصفة (الوعى) للآذان في الآيات مورد البحث، وذلك بلحاظ أنها تسمع الحقائق وتحتفظ بها.

تعقيب

فضيلة اخرى من فضائل الإمام على عليه السلام جاء في كثير من الكتب الإسلامية المعروفة أن

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٤٩

النبى صلى الله عليه وآله قال عند نزول هذه الآية «وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ»: «سألت ربي أن يجعلها اذن على».

فكان على عليه السلام يقول: «ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً قط فنسيته، إلا وحفظته» (١).

وهذه فضيلة عظيمة لقائد الإسلام العظيم الإمام على عليه السلام حيث يكون موضع أسرار الرسول صلى الله عليه وآله، ووارث علمه، ولهذا السبب فإن الجميع كانوا يرجعون إليه -الموافق له والمخالف- بعد النبى صلى الله عليه وآله وذلك عندما يواجهون المشاكل الاجتماعية والعلمية المختلفة، ويطلبون منه التدخل في حلها، كما تحدثنا بذلك كتب التواريخ بشكل تفصيلي.

فإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةَ (١٧) الصيحة العظيمة: استمراراً لما تعرضت له الآيات الاولى من هذه السورة، والتي كانت تتعلق بمسألة الحشر والقيامة، تعرض لنا هذه الآيات صورة عن الحوادث العظيمة في ذلك اليوم الرهيب بأسلوب محرّك ومؤثر في النفوس كى تحيط الإنسان علماً بما ينتظره من حوادث ذات شأن كبير فى ذلك الموقف الرهيب. يقول تعالى فى البداية: «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ».

لقد بينا فيما سبق أن مما يستفاد من القرآن الكريم أن نهاية عالم الدنيا وبداية عالم الآخرة تكون بصوت مفاجىء عظيم، وذلك ما عبّر عنه ب (نفخة الصور).

نفخة الصور فهى نفختان: (نفخة الموت)، و (نفخة الحياة الجديدة)، لكن المقصود فى هذه الآية الكريمة هو (النفخة الاولى) التى تحصل فيها نهاية عالم الدنيا.

ثم يضيف تعالى: «وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً».

«دك»: بمعنى (الأرض المستوية) ولأن الأرض غير المستوية تحتاج إلى الدك حتى تستوى، لذا استعمل هذا المصطلح فى الكثير من

الموارد بمعنى «الدق الشديد».

والمقصود في الآية مورد البحث هو الدق الشديد للجبال والأراضي اللامستوية بعضها ببعض بحيث تستوى وتتلاشى فيها جميع التلججات.

(١) تفسير القرطبي ١٨ / ٢٤٤، وتفسير مجمع البيان ١٠ / ١٠٧.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥٠

ثم يضيف تعالى: «فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ».

في ذلك اليوم العظيم لا- تتلاشى في الأرض والجبال فحسب، بل يقع حدث عظيم آخر، وذلك قوله تعالى: «وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ». وذلك بيان لما تتعرض له الأجرام السماوية العظيمة من انفلاقات وتناثر وتلاشى.

«وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا». «أرجاء»: جمع «رجا» بمعنى جوانب وأطراف شيء معين.

ثم يقول تعالى: «وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ».

المقصود ب (العرش) هو (مجموعه عالم الوجود) حيث أنه عرش حكومه الله سبحانه، ويدبر حكومته تعالى من خلاله بواسطة الملائكة الذين هم جاهزون لتنفيذ أمره سبحانه.

وفي تفسير على بن إبراهيم أن حملة العرش ثمانية؛ أربعة من الأولين وأربعة من الآخرين، فأما الأربعة من الأولين فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى، والأربعة من الآخرين:

محمد وعلى والحسن والحسين عليهم السلام.

وهذا الحديث من الممكن أن يكون إشارة إلى مقام شفاعتهم للأوليين والآخرين، والشفاعة- عادة- تكون لمن هم أهل لها، وممن لهم لياقة لنيلها، ومع ذلك فإنه يوضح المفهوم الواسع للعرش.

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْتَابِيَه (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَه (٢٠)

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَه (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَه (٢٢) قُطُوفُهَآ دَانِيَه (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَه (٢٤) يَا أَهْلَ الْمَحْشَرِ:

اقرأ صحيفه أعمالى: قلنا فى تفسير الآيات السابقة أن (نفخ الصور) يحدث مرتين، وكما ذكرنا فإن بداية الآيات تخبرنا عن النفخة

الاولى ولم تستعرض تفاصيل النفخة الثانية، واستمراراً للحديث فى هذا الصدد، وخصوصيات العالم الجديد الذى سيكون عند النفخة

الثانية، تحدثنا هذه الآيات عن شيء من ذلك حيث يقول تعالى:

«يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ».

«تعرضون»: من مادة «عرض» بمعنى عرض شيء معين، بضاعة أو غيرها.

ومما لا شك فيه أن جميع ما فى الوجود- بشراً وغيره- هو بين يدى الله سبحانه، سواء فى

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥١

هذه الدنيا أو فى عالم الآخرة، إلا أن هذا الأمر يظهر ويتضح بصورة أشد فى يوم القيامة.

فى ذلك اليوم لن يقتصر الوضوح والظهور على أعمال البشر الخفية فحسب، بل على صفات وروحيات وأخلاقيات ونبات الجميع

فإنها هى الاخرى تبرز وتظهر، وهذا أمر عظيم جداً، بل إنه أعظم من انفجار الأجرام السماوية وتلاشى الجبال- كما يقول البعض-

حيث الفضيحة الكبرى للطالحين، والعزة والرفعة للمؤمنين بشكل لا نظير له.

لذا يقول سبحانه بعد ذلك: «فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْتَابِيَه».

ثم يعلن بافتخار عظيم فيقول: «إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَقٍ حِسَابِيَه».

«ظن»: في مثل هذه الموارد تكون بمعنى (اليقين) إنه يريد أن يقول: إن ما تفضل به الله تعالى عليّ كان بسبب إيماني بهذا اليوم، والحقيقة أن الإيمان بالحساب والكتاب يمنح الإنسان روح التقوى، والتعهد والإحساس بالمسؤولية، وهذا من أهم عوامل تربية الإنسان.

ثم يبين الله تعالى في الآيات اللاحقة جانباً من جزاء وأجر هؤلاء الأشخاص حيث يقول: «فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ».

وبالرغم من أن الجملة أعلاه تجسد كل ما يستحق أن يقال في هذا الموضوع، إلا أنه سبحانه يضيف للتوضيح الأكثر: «فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ».

إن الجنة تكون عالية ورفيعة بشكل لم ير أحد مثلها قط، ولم يسمع بها، ولم يتصور مثلها.

«قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ» (١). حيث لا جهد مكلف ولا مشقة في قطف الثمار، ولا عائق يحول من الإقتراب للأشجار المحملة بالثمار، وجميع هذه النعم في تناول الأيدي بدون إستثناء.

وفي آخر آية- مورد البحث- يوجه الباري عز وجل خطابه المملوء بالحب والموودة والإعتزاز إلى أهل الجنة بقوله: «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ».

وهكذا كانت هذه النعمة العظيمة التي منحها الله لهؤلاء المتقين جزاء أعمالهم الصالحة وإن الأعمال الخيرة والمحدودة هي التي أثمرت هذه الثمار الكبيرة حيث ظل الرحمة الإلهية واللفظ الرباني.

والسؤال المطروح هو: هل أن دعوة المؤمنين لأهل المحشر لقراءة كتاب حسابهم وصحيفة أعمالهم- طبقاً لما جاء في الآية الكريمة: «فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ»- تعني أن صحيفة أعمالهم خالية من أي ذنب؟

(١) «قطوف»: جمع «قطف» بمعنى أن الثمر قد اقتطف، و تأتي أحياناً بمعنى الثمار المهينة للإقتطاف أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥٢

وفي مقام الجواب يمكن أن نستفيد من بعض الأحاديث منها حديث عن النبي صلى الله عليه وآله حيث يقول: «يدني الله العبد يوم القيامة، فيقرره بذنوبه كلها، حتى إذا رأى أنه قد هلك. قال الله تعالى: إنني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه» (١).

وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَعْنَى عَنِّي مَالِيَةَ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ (٢٩) كان الحديث في الآيات السابقة عن (أصحاب اليمين) حيث صحائف أعمالهم بأيديهم اليمنى، ويوجهون نداءهم إلى أهل المحشر بكل فخر للإطلاع على صحيفة أعمالهم وقراءتها، ثم يدخلون جنات الخلد حيث تكون مستقرهم الأبدى. أما هذه الآيات فتستعرض الطرف المقابل لأصحاب اليمين وهم (أصحاب الشمال) وتقدم مقارنة بين المجموعتين، حيث يقول تعالى: «وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ». «وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ».

نعم، في ذلك اليوم العظيم، وعندما يواجهها يبدأ يجأر ويصرخ ويطلق الزفرات الساخنة المتلاحقة من الأعماق على المصير السيء الذي أوصل نفسه إليه، والشّر الذي جلبه عليها، ويتمنى أن يقطع علاقته بماضيه الأسود تماماً، ويتمنى أن يموت ويفنى ويتخلص من هذه الفضيحة الكبيرة المهلكة، ويعبر عن هذا الشعور قوله تعالى: «وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا» (٢).

ثم يضيف تعالى مستعرضاً إعتراف المجرمين بذنوبهم فيقول: «مَا أَعْنَى عَنِّي مَالِيَةَ».

فالأموال التي كنت أجمعها في الدنيا لم تنقذني الآن ولم تعني ولم تدفع عني الأهوال أو تحلّ مشاكلي.

«هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ» فليست أموالى لم تسعفنى فى هذه الشدة فحسب، بل إن قدرتى ومقامى وسلطتى هى الاخرى هلكت وزالت عني.

القصة المثيرة: نقلت في هذا المجال قصص كثيرة تؤكد على المفاهيم العامة التي احتوتها الآيات الكريمة أعلاه، كموضع شاهد وعبرة

وتأيد لما ذهب إليه الآيات المباركات،

(١) في ظلال القرآن ٨ / ٢٥٦.

(٢) سورة النبأ / ٤٠.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥٣

لتكون درساً لأولئك الذين جعلوا (المال والسلطان) همهم الأول، وانغمسوا حتى الأذقان في الغفلة والغرور والذنوب من أجلهما، ومن جملتها ما يلي:

في سفينة البحار عن كتاب النصائح لابن ظفر أنه لما اشتد مرض الرشيد بطوس، احضر طبيباً طوسياً فارسياً وأمر أن يعرض عليه مائه مع مياه كثيرة لمرضى وأصحاء فجعل يستعرض القوارير حتى رأى قارورة الرشيد فقال: قولوا لصاحب هذه الماء يوصى فإنه قد انحلت قواه وتداعت بنيته فاقم وأمر بالذهاب فذهب ويئس الرشيد من نفسه وتمثل قائلاً:

إِنَّ الطَّيِّبَ يَمُوتُ بِالذَّاءِ الَّذِي قَدْ كَانَ يُبْرئُ مِثْلَهُ فِيمَا مَضَى

وبلغه أن الناس أرجفوا بموته فاستدعى بحمار وأمر فحمل عليه فاسترخت فخذاه فقال:

انزلوني صدق المرجفون ثم استدعى بأكفان فتخير منها ما أعجبه وأمر فشق له قبر أمام فراشه ثم أطلع فيه فقال: «مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ» فتوفى في يومه.

خُذُوهُ فَعَلُوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَمَّا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَشْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَشِيلِينَ (٣٦) لَمَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧) خذوه فغلوه: استمراراً للآيات السابقة التي كانت تتحدث عن (أصحاب الشمال) الذين يستلمون صحائف أعمالهم بأيديهم اليسرى، فتنتقل الآهات والأنات، ويتمنى أحدهم الموت، يشير تعالى في الآيات أعلاه إلى قسم من العذاب الذي يلاقونه يوم القيامة فيقول:

«خُذُوهُ فَعَلُوهُ». «غلوه»: من مادة (غل)، والمراد هو السلسلة التي كانوا يربطون بها أيدي وأرجل المجرمين إلى أعناقهم مقترن بالكثير من المشقة والألم.

«ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ».

«السلسلة»: في الأصل مأخوذة من مادة «تسلسل» بمعنى الإهتزاز والإرتعاش، لأن حلقات السلسلة الحديدية تهتز وتتحرك.

إن هذه السلاسل الطويلة ليست لشخص واحد، بل لمجاميع يربط كل منها بسلسلة.

«ذراع»: بمعنى الفاصلة بين الساعد ونهاية الأصابع، (وقياسها بحدود نصف متر) وكانت وحدة الطول المستعملة عند العرب، وهي قياس طبيعي.

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَدْكُرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥٤

وقال البعض: إن (الذراع) الوارد في الآية الكريمة هو غير الذراع المتعارف عليه، حيث إن كل وحدة منه تمثل فواصل عظيمة، ويربط بهذا الزنجير جميع أهل جهنم.

وتتطرق الآيتان التاليتان لبيان السبب الرئيسي لهذا العذاب العسير، فيقول تعالى: «إِنَّهُ كَانَ لَأَيُّمُنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ».

وكُلَّمَا كَانَ الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَوْلِيَاءُ وَرَسَلُ اللَّهِ تَعَالَى يَدْعُونَهُ لِلتَّوَجُّهِ إِلَى (الواحد الأحد) لم يكن ليُقبل، ولذا فإن إرتباطه بالخالق كان مقطوعاً

بصورة تامة.

«وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ».

وبهذا الشكل فإن هؤلاء قد قطعوا علاقتهم مع (الخلق) أيضاً.

ويستفاد من التعبير السابق - بصورة واضحة - أنه يمكن تلخيص أهم الطاعات والعبادات وأوامر الشرع بهذين الأساسين: (الإيمان) و (إطعام المسكين) وهذا يمثل إشارة إلى الأهمية البالغة لهذا العمل الإنساني العظيم.

ثم يضيف تعالى: «فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنًا حَمِيمٌ». أى: صديق مخلص وحميم.

«وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلِينَ». أى: القيح والدم.

والجدير بالملاحظة هنا هو أن (الجزاء) و (العمل) لهؤلاء الجماعة متناسبان تماماً، فبسبب قطع علاقتهم بالله، فليس لهم هنالك من صديق ولا - حميم، كما أن سبب إمتناعهم عن إطعام المحتاجين فإن طعامهم فى ذلك اليوم لن يكون إلا القيح والدم، لأنهم حرموا المساكين من الإطعام وتركوهم نهياً للجوع والألم فى الوقت الذى كانوا يتمتعون لسنين طويلة بالذ وأطيب الأعمه.

ويضيف سبحانه فى آخر آية مورد البحث فى قوله تعالى للتأكيد: «لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطُونَ».

إن (خاطيء) تقال للشخص الذى يرتكب خطأ عمداً. وبناءً على ما تقدم فإن طعام أهل جهنم خاص للأشخاص الذين سلكوا درب الشرك والكفر والبخل والطغيان تمرذاً وعصيانياً وعمداً.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥٥

القرآن كلام الله قطعاً: بعد الأبحاث التى مرّت بنا فى الآيات السابقة حول القيامة وما أعدّه الله سبحانه للمؤمنين والكفار، يبين البارى عزّ وجل فى هذه الآيات بحثاً وافياً حول القرآن والنبوة، ليكون البحثان (النبوة) و (المعاد) كلياً منهما مكتملاً للآخر. يقول تعالى فى البداية: «فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ». وهذه الجملة لها معنى واسع، حيث تشمل كل ما يراه البشر وما لا يراه. وبعبارة اخرى: تشمل كل عالم (الشهود) و (الغيب).

ثم تستعرض الآية اللاحقة جواب هذا القسم العظيم، حيث يقول تعالى بأنّ هذا القرآن هو قول رسول كريم: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ». والمقصود من الرسول هنا - بدون شك - هو الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وليس جبرائيل.

والآية ذكرت كلمة «رسول» وهذا يعنى أن كل ما يقوله الرسول فهو قول مرسله.

ثم يضيف تعالى: «وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَدْكُرُونَ».

تنفى هاتان الآيتان ما نسبه المشركون والمخالفون من تهم باطله لرسول الله صلى الله عليه وآله إذ كانوا يقولون أحياناً: إنّه (شاعر) وإنّ هذه الآيات من شعره، كما كانوا يقولون أحياناً: إنّه (كاهن) وإنّ الذى يقوله هو (كهانة).

الشعر فى الغالب وليد الخيال، ومعتبر عن الأحاسيس الجياشة فى النفوس، ولهذا فإنه يجسد حالة عدم الإستقرار وعدم التوازن صعوداً ونزولاً، شدة وإنخفاضاً، فى الوقت الذى نلاحظ أن القرآن الكريم، وهو يمثل قمة الروعة والجدبية، فإنه كتاب استدلالى ومنطقى فى عرضه للمفاهيم، وعقلانى فى محتواه، وما فيه من التنبؤ المستقبلى لا يشكل قاعدة أساسية للقرآن الكريم، بالإضافة إلى أنّها صادقة جميعاً بخلاف ما عليه تنبؤ الكهنة.

ويقول سبحانه فى آخر آية - مورد البحث - كتأكيد على هويّة القرآن الربانية: «تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ». وبناءً على هذا فإن القرآن الكريم ليس بشعر ولا - كهانة، وليس هو إنتاج فكر الرسول، ولا قول جبرائيل ... بل إنه كلام الله سبحانه، حيث نزل بواسطة الوحي على القلب الطاهر لرسول الله صلى الله عليه وآله.

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكُرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمَنَّ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسِيرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ

العظيم (٥٢)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥٦

استمراراً للأبحاث المتعلقة بالقرآن الكريم، تستعرض الآيات التالية دليلاً واضحاً يؤكد يقينيه كون القرآن من الله سبحانه، حيث يقول: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ».

ويذكر سبحانه مرة أخرى في الآية اللاحقة مؤكداً ما سبق عرضه في الآيات السابقة «وَإِنَّهُ لَتَذَكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ». إن كتاب الله هذا أنزله للأشخاص الذين يريدون أن يطهروا أنفسهم من الذنوب، ويسيروا في طريق الحق، ويبحثوا عن الحقيقة، ويسعوا للوصول إليها، أما من لم يصل إلى هذا الحد من صفاء النظرة وتقوى النفس، فمن المسلم أنه لن يستطيع أن يستلهم تعاليم القرآن الكريم ويتذوق حلاوة معرفة الحق المبين.

إن التأثير العميق الفد للقرآن الكريم الذي يحدثه في نفوس سامعيه وقارئيه، هو بحد ذاته علامة على إعجازه وحقانيته. ثم يضيف تعالى: «وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ».

إن وجود المكذبين المعاندين لم يكن مانعاً أبداً من الدليل على عدم حقانيتهم.

إن المتقين وطلاب الحق يتعظون به، ويرون فيه سمات الحق، وإنه عون لهم في الوصول إلى طريق الله سبحانه.

ويضيف في الآية اللاحقة: «وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ».

إن هؤلاء الكفرة الذين يتحدثون القرآن الكريم اليوم ويكذبونه، فإنهم غداً حيث (يوم الظهور) و (يوم البروز) وهو في نفس الوقت (يوم الحسرة) يدركون مدى عظمة النعمة التي فرطوا بها بسبب لجارتهم وعنادهم، وما جلبوه لأنفسهم من أليم العذاب. ولكي لا يتصور أحد أن التكذيب والتشكيك كان بلحاظ غموض وإبهام مفاهيم القرآن الكريم، يضيف في الآية اللاحقة: «وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ».

يعنى أن القرآن الكريم هو (يقين خالص). أو بتعبير آخر: أن لليقين مراحل مختلفة، حيث يحصل أحياناً بالدليل العقلي كما في حصول اليقين بوجود النار من خلال مشاهدة دخان من بعيد، لذا يقال لمثل هذا الأمر (علم اليقين).

وحيثما تقترب أكثر ونرى إشتعال النار بأم أعيننا، فعند ذلك يصبح اليقين أقوى ويسمى عندئذ ب (عين اليقين).

وعندما يكون اقترابنا أكثر فأكثر ونصبح في محاذاة النار أو في داخلها ونلمس حرارتها

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥٧

بأيدينا، فإن من المسلم أن هذه أعلى مرحلة من مراحل اليقين، وتسمى ب (حق اليقين).

والآية أعلاه تقول: إن القرآن الكريم في مثل هذه المرحلة من اليقين، ومع هذا فإن عديمي البصيرة ينكرونه ويشككون فيه.

وأخيراً يقول سبحانه في آخر آية من سورة الحاقة: «فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ».

والجدير بالملاحظة - هنا - أن مضمون هذه الآية والآية السابقة قد جاء بتفاوت يسير مع ما ورد في سورة الواقعة، وهذا التفاوت هو أن الآية وصفت القرآن الكريم هنا بأنه (حق اليقين) أمياً في نهاية سورة (الواقعة) فكان الحديث عن المجاميع المتباينة للصالحين والطالحين في يوم القيامة.

«نهاية تفسير سورة الحاقة»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٥٩

٧٠. سورة المعارج

محتوى السورة: المعروف بين المفسرين هو أن سورة المعارج من السور المكّية، ولكن بعض آياتها مدنية؛ وهناك روايات تدل على

أن الآيات الأولى من هذه السورة هي آيات مدنية. فإن لهذه السورة أربعة أقسام:

١- يتحدث عن العذاب السريع الذي حلّ بأحد الأشخاص ممن أنكر أقوال النبي صلى الله عليه وآله وقال: لو كان هذا القول حقاً فلينزل على العذاب. فنزل الآيات (١-٣).

٢- ذكر الكثير من خصوصيات يوم القيامة ومقدماتها وحالات الكفار في ذلك اليوم.

٣- توضّح هذه السورة بعض الصفات الإنسانية الحسنة والسيئة والتي تعين هذا الشخص من أهل الجنان أم من أهل النار.

٤- يشمل إنذارات تخصّ المشركين والمنكرين وتبيان مسألة المعاد وينهى السورة بذلك.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سأل سائل أعطاه الله ثواب الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون».

من البديهي أن الإنسان يحصل على مثل هذا الثواب العظيم إذا كانت قراءته بإيمان وعقيدة، وثم يقترن ذلك بالعمل.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٦٠

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: الحاكم أبو القاسم الحسكاني عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: «لما نَصَّبَ رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام يوم غدیر خم وقال: "من كنت مولاه فعلي مولاه." طار ذلك في البلاد، فقدم على النبي صلى الله عليه وآله و آلہ النعمان بن الحرث الفهري فقال: أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله، وأمرتنا بالجهاد والحج والصوم والصلاة والزكاة فقبلناها. ثم لم ترض حتى نَصَّبْتَ هذا الغلام فقلت: من كنت مولاه فعلي مولاه، فهذا شيء منك أو أمر من عند الله؟ فقال: "والله، الذي لا إله إلا هو إن هذا من الله." فولى النعمان بن الحرث وهو يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء! فرماه الله بحجر على رأسه فقتله، وأنزل الله تعالى: «سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ».

التفسير

العذاب العاجل: من هنا تبدأ سورة المعارج حيث تقول: «سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ».

هذا السائل كما قلنا في سبب النزول هو النعمان بن الحرث أو النضر بن الحرث.

ثم يضيف بأن هذا العذاب خاص بالكفار ولا يستطيع أحد دفعه عنهم: «لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ».

وتصف الآية الأخرى من ينزل العذاب منه، وهو الله ذى المعارج فتقول الآية: «مَنْ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ». أى صاحب السماء التى يعرج إليها الملائكة.

«المعارج»: جمع «معرج» بمعنى المصعد أو المكان الذى منه يصعدون، إذ إن الله جعل للملائكة مقامات مختلفة يتوجهون بها إلى قربه بالتدريج، وقد وصف الله تعالى بذي المعارج.

نعم، الملائكة المأمورون بتعذيب الكفار والمجرمين، والذين هبطوا على إبراهيم عليه السلام، وأخبروه بأنهم قد امروا بإبادة قوم لوط.

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَتَرَاهُ قَرِيبًا (٧)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٦١

يوم مقداره خمسين ألف سنة: بعد إيراد قصة العذاب الدنيوى الذى أصاب من طلب العذاب، تبحث الآيات أمر المعاد والعذاب الأخرى للمجرمين فى ذلك اليوم. فى البداية يقول تعالى: «تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ أَى إِلَى اللَّهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ».

المشهور أن المراد من عروج الملائكة هو العروج الروحى، وليس العروج الجسمى، يعنى أنهم يسرعون فى التقرب إلى المقام الإلهى

وهم مهيتون لإستلام الأوامر في ذلك اليوم الذي يراد به يوم القيامة.

والمراد بالروح هو (الروح الأمين) وهو أكبر الملائكة، وهذا ما اشير إليه أيضاً في سورة القدر، حيث يقول تعالى: «تَنْزِيلُ الْمَلَكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ».

وأما المراد بكون (خمسين ألف سنة) هو ذلك اليوم الذي بحيث لو وقع في الدنيا كان مقداره خمسين ألف سنة من سنى الدنيا، وهذا لا- ينافي ما جاء في الآية (٥) من سورة السجدة من أن ذلك يوم مقداره ألف سنة، ولأجل ذلك ذكر في الروايات أن في القيامة خمسين موقفاً، وكل موقف مثل ألف سنة مما تعدون «١».

فقد كان هذا ما يخص المجرمين والظلمة والكفار. روى أبو سعيد الخدرى قال: قيل يا رسول الله! ما أطول هذا اليوم؟ فقال: «والذي نفس محمد بيده! إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلها في الدنيا» «٢».

ثم يخاطب الله تعالى رسوله الأكرم صلى الله عليه و آله في الآية الاخرى ويقول: «فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا».

المراد ب (الصبر الجميل) هو ما ليس فيه شائبة الجزع والتأوه والشكوى، وفي غير هذا الحال لا يكون جميلاً.

ثم يضيف: «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا» وَنَرِيَهُ قَرِيْبًا». إنهم لا- يصدقون بوجود مثل ذلك اليوم الذى يحاسب فيه جميع الخلائق حتى أصغر حديث وعمل لهم، وذلك في يوم مقداره خمسون ألف سنة، ولكنهم فى الواقع ما عرفوا الله وفى قلوبهم ريب بقدره الله.

(١) أمالى الطوسى / ٣٦.

(٢) تفسير مجمع البيان ١٠ / ١٢٠؛ تفسير القرطبي ١٣ / ٢٣.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٦٢

يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَ لَمَّا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئذٍ بِنَبِيهِ (١١) وَ صَاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ (١٢) وَ فَصَّةٍ يَلْتَهُ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَأَنْزَاةٌ لِلشَّوْىِ (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى (١٧) وَ جَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) تضيف هذا الآيات على البحوث السابقة حول القيامة إيضاحات أكثر، حيث يقول الله تعالى: «يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ». «وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ».

«المهل»: على وزن (فقل) وهو المذاب من المعدن كالنحاس والذهب وغيرهما.

«العهن»: مطلق الصوف المصبوغ ألوناً.

فى مثل ذلك اليوم تتلاشى السماوات وتذوب، تتكدك الجبال ثم تتناثر فى الهواء كالصوف فى مهب الريح، وبما أن الجبال ذات ألوان مختلفة فإنها شبهت بالصوف المصبوغ بالألوان، ثم يتحقق عالم جديد وحياء جديدة للبشرية بعد كل هذا الخراب.

وعندما يحل يوم القيامة فى ذلك العالم الجديد فسيكون فيه الحساب عسيراً ومرعباً بحيث ينشغل كل بنفسه، ولا يفكر بالآخر حتى لو كان من خلص اصدقائه وأحبائه: «وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا» «١».

ولا يعنى ذلك أن الأصدقاء والأقرباء ينكر بعضهم بعضاً، بل إنهم يعرفونهم ويقول تعالى: «يُبْصِرُونَهُمْ». غاية الأمر هو أن هول الموقف ووحشته لا يدعه يفكر بغيره.

وإكمالاً للحديث وتوضيحاً لذلك الموقف الموحش، يضيف تعالى: «يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئذٍ بِنَبِيهِ». وليس بنيه فحسب بل، يود أن يفتدى العذاب بزوجه وأخيه أيضاً «وَ صَاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ». «وَ فَصَّةٍ يَلْتَهُ الَّتِي تُؤْوِيهِ». أى عشيرته وأقربائه الذين كان يأوى إليهم فى الدنيا: «وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ».

«يود»: من (الود) على وزن (حب) أى يحب ويتمنى

(١) «الحميم»: في الأصل يعني الماء المغلى والمحرق، ثم اطلق كذلك على الأصدقاء المخلصين والحقيين.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٦٣

«يفتدى»: من (الفداء) أى حفظ النفس من المصائب والمشاكل بوسيلة تسديد أو دفع شىء ما.

«الفصلة»: هي العشيرة والعائلة التى انفصل وتولد منها الإنسان.

«تويه»: من «الإيواء» من الشدائد واللجوء إليها وأوى إليها فى النسب.

ولكنه يجيب على كل هذه الأمانى والآمال فى قوله: «كلًا». أى لا تقبل الفدية والإفتداء.

«إِنَّهَا لَطَى نَارَ مَلْتَهَبَةٍ تَحْرَقُ كُلَّ مَنْ بَجَانِبِهَا وَفِي مَسِيرِهَا.

نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى تَقْلَعُ الْيَدَ وَالْقَدَمَ وَجِلْدَ الْوَجْهِ.

«لَطَى»: تعنى لهيب النار الخالص، وهى اسم من أسماء جهنم أيضاً.

«نزاعه»: أى أنها تقتلع وتفصل بالتوالى

و «شوى»: الأطراف كاليد والرجل، وتأتى أحياناً بمعنى الشواء، ولكن المراد هنا هو المعنى الأول.

ثم يشير إلى من يكون فريسة لمثل هذه النار، فيقول: «تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعَى .

وبهذا فإن هذه النار المحرقة تدعو اولئك المجرمين إلى نفسها سواء بلسان حالها وجاذبيتها الخاصة المودعة فيها تجاه المجرمين، أو

بلسان مقالها الذى أعطاها الله إياها، إنها تدعو اولئك المتصفين بهاتين الصفتين: الإعراض عن الإيمان وعدم طاعة الله ورسوله.

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣)

وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِللسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ

مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) أوصاف المؤمنين: بعد ذكر أوصاف الطالحين وجوانب من أنواع العذاب فى يوم

القيامة، يأتى هنا وصف المؤمنين للتعرف عن سبب انقسام الناس إلى صنفين، المعذبون والناجون. يقول أولاً: «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٦٤

«إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا».

ثم تذكر الآيات الكريمة صفات الأشخاص الجيدين على شكل استثناء، وتبين لهم تسع صفات ايجابية بارزة، فيقول تعالى: «إِلَّا

الْمُصَلِّينَ». «الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ».

هذه هى الخصوصية الاولى لهم وأنهم مرتبطين بالله بشكل دائم، وهذه الرابطة تتوثق بالصلاة، الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر،

والصلاة التى تربي روح الإنسان وتذكره دائماً بالله تعالى، والسير بهذا الإتجاه سوف يمنعه من الغفلة والغرور، والغرق فى بحر

الشهوات، والوقوع فى قبضة الشيطان وهوى النفس.

والمراد من الإدامة على الصلاة هو المحافظة على أوقات الصلاة المعينة.

بعد توضيح أهمية الصلاة وأنها من أهم الأعمال ومن أهم أوصاف المؤمنين تنتقل الآيات إلى ذكر الصفة الثانية فيضيف تعالى:

«وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِللسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ».

وبهذا سوف يحافظون على إرتباطهم بالخالق من جهة، وعلاقتهم بخلق الله من جهة أخرى.

والمراد من الحق المعلوم هو شىء غير الزكاة والذى يجب على الإنسان منحه للمحتاجين.

والفرق بين «السائل» و «المحروم» هو أن السائل يفصح عن حاجته ويسأل، والمحروم هو الذى لا يسأل لتعففه وحيائه.

الآية الاخرى أشارت إلى الخصوصية الثالثة لهم فيضيف: «وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ».

والخصوصية الرابعة هى: «وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ». «إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ».

وصحيح البخارى أن الرسول صلى الله عليه وآله كان يقول: «لن يدخل أحداً عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمته».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٦٥

وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥) فى الآيات السابقة ذكرت أربعة أوصاف من الأوصاف الخاصة بالمؤمنين الصادقين من أهل الجنان، وفى الوصف الخامسة يقول الله عز وجل: «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ» (١).

لا شك فى أن الغريزة الجنسية من غرائز الإنسان الشديدة والطاغية، والكثير من الجرائم الكبيرة سببها هى هذه الغريزة، ولذا كانت السيطرة على هذه الغريزة وحفظ حدودها من العلامات المهمة للتقوى وبهذا ذكرت أهمية السيطرة على هذه الغريزة بعد تبيان أهمية الصلاة وإعانة المحتاجين والإيمان بيوم القيامة والإشفاق من عذاب الله.

وفى الآية الأخرى يؤكد بشكل أكثر على نفس الموضوع فيضيف: «فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ». وبهذه الطريقة فإن الإسلام يخطط لمجتمع يحافظ على غرائزه الفطرية، ولا يؤدي به إلى الغرق بالفحشاء والفساد الجنسى والمضار الناتجة منه.

عندئذ يشير إلى الصفات السادسة والسابعة، فيقول: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ».

من الطبيعى أن للأمانة معنىً واسعاً وليست هى الأمانات المادية المتنوعة للناس فحسب، بل إنها تشمل الأمانات الإلهية وأمانات الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام.

إن كل نعمه من النعم الإلهية هى من أماناته تعالى، منها المقامات الاجتماعية وبالخصوص المسؤولين فى الدولة فإنها تعتبر من أهم الأمانات.

والأهم من ذلك كله هو الدين والشريعة الإلهية وكتاب الله، وهو من الأمانات الكبيرة التى يجب الحفاظ عليها بالسعى.

(١) «فروج»: جمع «فروج» وهو كناية عن الآلة التناسيلة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٦٦

«العهد»: وله مفهوم واسع أيضاً، يشمل العهود الإنسانية وكذلك العهود الإلهية.

ويضيف فى الوصف الثامن: «وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ». لأن القيام بالشهادة العادلة وترك كتمانها من أهم بنود إقامة العدل فى المجتمع البشرى.

وفى الوصف الأخير، وهو الوصف التاسع من هذه المجموعة، يعود مرة أخرى إلى موضوع الصلاة، كما كان البدء بالصلاة. يقول تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ».

والصلاة هى المدرسة العالية للتربية، وأهم وسيلة لتهديب النفوس.

ومن الطبيعى أن الوصف الأول كان إشارة إلى المداومة، ولكن الخطاب هنا حول حفظ آداب وشروط الصلاة وخصائصها، والآداب التى تكمن فى ظاهر الصلاة والتى تنهى عن الفحشاء والمنكر من جهة، وتقوى روح الصلاة بحضور القلب من جهة أخرى وتمحو الأخلاق الرذيلة التى تكون كحجر عثرة أمام قبولها، ولهذا لا يعتبر ذكرها مرة أخرى من قبيل التكرار.

وفى النهاية تبين الآية الأخيرة عاقبة المتصفين بهذه الأوصاف، كما بينت فى الآيات السابقة المسير النهائى للمجرمين، فيقول تعالى:

«أولئك في جناتٍ مُكرَّمُونَ».

لماذا لا يكونوا مكرمين! وهم ضيوف الله، وقد وفر الله القادر الرحمن لهم جميع وسائل الضيافة.

فَمِمَّا لِلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الِّيمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيْطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَمَّا أَقْسَمَ رَبُّ الْمَسَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) الطمع الواهي في الجنة: جاء البحث في الآيات السابقة من هذه السورة حول علامات المؤمنين والكفار، ومصير كل من المجموعتين، في الآيات يعود ليوضح أحوال الكفار واستهزاءهم بالمقدسات.

قال البعض: إنَّ هذه الآيات نزلت في جماعة من المشركين فعندما كان الرسول صلى الله عليه وآله يتلو على المسلمين آيات المعاد، كان هؤلاء الكفار يقدمون من كل صوب وحذب ويقولون: إذا كان هناك معاد فإنَّ حالنا في الآخرة أحسن من حال من آمن بك، كما أنَّ حالنا في هذه الدنيا أحسن منهم!

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٦٧

يقول القرآن الكريم في جوابهم: «فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مُهْطِعِينَ». أي: يقبلون نحوك من كل جانب مسرعين.

«عَنِ الِّيمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ». أي جماعات متفرقين.

«أَيْطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ». بأي إيمان وبأي عمل يستحقون ذلك؟!

«مهطعين»: جمع مهطع، وتعنى الذى يمدَّ عنقه مقبلاً على شىء بسرعة للبحث عنه، وأحياناً تأتي - فقط - بمعنى مدَّ العنق لاستطلاع الأمر.

«عزِينَ»: جمع عزة، على وزن «هبة» وتعنى جماعات متفرقين.

وهنا يجيبهم القرآن المجيد فيقول: «كَلَّا». ليس الأمر كذلك وليس لهم حق الدخول إلى الجنة: «إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ».

في الحقيقة أن الله يريد بهذه الجملة أن يحطم غرورهم، لأنه يقول: إنكم تعلمون جيداً مم خلقناكم؟ من نطفة قدرة، من ماء آسن مهين.

ويجب ثانياً على المستهزئين بالمعاد فيقول: إذا كنتم في شك من المعاد فتمعنوا في حال هذه النطفة، وانظروا كيف خلقنا موجوداً بديعاً من قطرة ماء قدرة يتطور فيها الجنين كل يوم يتخذ شكلاً جديداً، ألا يقدر خالق الإنسان من هذه النطفة أن يعيد إليه الحياة بعد دفنه؟

ثم يقول تعالى مؤكداً ذلك: «فَلَمَّا أَقْسَمَ رَبُّ الْمَسَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ».

لعل هذه الجملة إشارة إلى أننا لسنا قادرين على أن نعيد لهم الحياة بعد الموت فحسب، بل إننا نستطيع أن نبدله إلى أكمل الموجودات وأفضلها، ولا يمنعنا من ذلك شىء.

أو هو إشارة إلى أننا نهلككم جزاءً لأعمالكم ولا يمنعنا من ذلك شىء، ونستبدل بكم مؤمنين واعين، ليكونوا أنصاراً للنبي صلى الله عليه وآله ولا يضرنا ذلك شيئاً.

فَلَدَرُّهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَدَّاهُمْ إِلَى نُصَبٍ يُفْضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذُلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) هذه الآيات وهى آخر آيات سورة المعارج جاءت لتنذر وتهدد الكفار المعاندين

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٦٨

والمستهزئين. يقول سبحانه: «فَلَدَرُّهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ» «١».

لا يلزم الاستدلال والموعظة أكثر من هذا، فإنهم لا يتعضون وليس لهم الإستعداد للإستيقاظ، دعهم يخوضوا فى أباطيلهم وأراجيفهم

كما يلعب الأطفال حتى يحين يومهم الموعود، يوم البعث ويرون كل شىء بأعينهم.

ثم تبين الآية التالية اليوم الموعود، وتذكر بعض علامات ذلك اليوم المرعب فيقول تعالى: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصَبٍ يُوفِضُونَ».

إن هذا التعبير فى الحقيقة استهزاء بعقائدهم التافهة التى كانوا يعتقدون بها فى الدنيا.

«الأجداث»: جمع جدث - على وزن (عبث) - وتعنى القبر.

«سراع»: جمع سريع، تعنى الحركة السريعة للشىء أو الإنسان.

«نصب»: جمع نصيب، والمراد منه هو ما ينصب كعلامة، وتطلق على الأصنام الحجرية إذ كانوا ينصبونها فى مكان ما ليعبدوها ويُقدّم لها القرابين ثم يلطخون دماءها عليها.

«يوفضون»: من «إفاضة» وتعنى الحركة السريعة المشابهة لحركة الماء المنحدر من العين.

ثم تذكر الآيات حالات اخرى لهؤلاء فتضيف: «حَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ» (٢).

من شدة الهول والوحشة وقد غرقوا فى ذلة مهينة.

وفى آخر الآية يتابع قوله: «ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ».

«نهاية تفسير سورة المعارج»

(١) «يخوضوا»: من أصل خوض - على وزن حوض - وتعنى فى الأصل الحركة فى الماء، ثم جاءت بصيغة الكناية فى موارد يغطس فيه الإنسان فى الباطل.

(٢) «ترهقهم»: من أصل «رهق» على وزن (سقف) ويراد به غشيان الشىء بقهر.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٦٩

٧١. سورة نوح

محتوى السورة: هذه السورة، كما هو واضح من اسمها، تشير إلى قصة نوح عليه السلام، واشير إلى قصة هذا النبى العظيم كذلك فى سور متعددة فى القرآن المجيد، منها: سورة الشعراء، والمؤمنون، والأعراف، والأنبياء، وبشكل أوسع فى سورة هود.

وما جاء فى سورة نوح عن قصته عليه السلام هو مقطع خاص من حياته، وهو أقل مما ذكر فى بقية السور، وهذا القسم يرتبط بدعوته المستمرة والمتابعة إلى التوحيد، وترتبط بكيفيتها وعناصرها.

بلحاظ أن هذه السورة نزلت فى مكة، وأن النبى صلى الله عليه وآله والمسلمين القلائل فى ذلك الزمان كانوا يعيشون ظروفًا مشابهة لظروف عصر نوح عليه السلام وأعوانه، فإنها تعلمهم أموراً كثيرة، وكانت هذه واحدة من أهداف إيراد هذه القصة، ومنها:

١- أنها تذكرهم كيف يبلغون الرسالة للمشركين عن طريق الإستدلال المنطقى المقترن بالمحبة والمودة، واستخدام كل طريقة تكون مفيدة ومؤثرة فى الدعوة.

٢- أنها تعلمهم الثبات والنشاط فى طريق الدعوة إلى الله وعدم التكاثر مهمما طالأت الأعوام، ومهما وضع الأعداء العوائق.

٣- أنها تعلمهم كيف يرغبونهم ويشجعونهم تارةً، وتكون لديهم عوامل الإنذار

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧٠

والرهبة تارةً اخرى والإستفادة من كلا الطريقتين فى الدعوة إلى الله جلّ وعلا.

٤- الآيات الأخيرة من هذه السورة هى تحذير للمشركين المعاندين، بأن عاقبتهم وخيمة إذا لم يستسلموا للحق، وتخلّفوا عن أمر الله.

فإن هذه السورة ترسم أبعاد الكفاح الدائم بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل، ترسم منهج أصحاب الحق الذي يجب عليهم إتباعه. فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدرّكهم دعوة نوح».

ولا يخفى أن الهدف من قراءة السورة هو الإقتباس من منهج وسلوك هذا النبي العظيم، من صبره واستقامته في طريق الدعوة إلى الله تعالى ليدرّكوا دعوة النبي.

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قلنا: إن هذه السورة تبين من أحوال نوح عليه السلام وما يرتبط بأمر دعوته، وتبدأ أولاً بذكره في بعثته عليه السلام فيقول تعالى: «إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

من الممكن أن يكون هذا العذاب الأليم هو عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، والأنسب أن يكون الإثنان معاً، وإن كانت القرائن في آخر آيات هذه السورة تشير إلى أن هذا العذاب هو عذاب الدنيا.

نوح عليه السلام الذي كان هو من اولي العزم، وصاحب أول شريعته إلهية، وله دعوة عالمية، جاء إلى قومه بعد صدور هذا الأمر إليه قال: «قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ».

الهدف هو أن تعبدوا الله الذي لا إله إلا هو، وتتركوا من دونه، وتتقوا وتطيعوا أمرى الذي هو أمر الله: «أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا اللَّهَ».

ثم ذكر النتائج المهمة المترتبة على استجابتهم الدعوة في جملتين لترغيبهم فقال: «يَغْفِرْ

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧١

لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ».

ثم يضيف: «وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

يستفاد جيداً من هذه الآية أن «الأجل» وموعد عمر الإنسان قسماً، هما: الأجل المسمى والأجل النهائي. أو بعبارة أخرى: الأجل المعلق، والأجل الحتمي. القسم الأول للأجل قابل للتغير والتبديل، فقد يتدنى ويقل عمر الفرد كثيراً بسبب الذنوب والأعمال السيئة وهذا نوع من أنواع العذاب الإلهي، وبالعكس فإن التقوى وحسن العمل والتدبير يمكن أن تكون سبباً لتأخير الأجل، ولكن الأجل النهائي لا يتغير بأى حال من الأحوال.

وفي الروايات الإسلامية أيضاً تأكيد على هذا المعنى، منها ما ورد- في الأمالي الشيخ الطوسي - عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من يموت بالذنوب أكثر ممّن يموت بالأجل، ومن يعيش بالإحسان أكثر ممّن يعيش بالأعمار».

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرَبُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) استخدام مختلف الوسائل لهدايتهم، ولكن: تتحدث هذا الآيات عن استمرار مهية نوح في دعوته قومه ولكن هذه المرة جاء الحديث على لسانه مخاطباً ربه وشاكياً إليه أمره معهم بعبارة مؤثرة بليغة. خطاب نوح عليه السلام في هذا الإطار يمكن أن يعيّد الطريق لكل المبلغين الرساليين: «قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا».

وإنتى لم أتوانى لحظة واحدة في إرشادهم وإبلاغ الرسالة لهم، ثم يقول: «فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا».

ومن العجيب أن تكون الدعوة سبباً لفرارهم، ولكن بما أن كل دعوة تحتاج إلى نوع من الاستعداد وصفاء القلب والتجاذب المتبادل فليس عجباً أن يكون هنا أثر معاكس في القلوب الخاملة.

ثم إن نوحاً عليه السلام يضيف: «وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧٢

ولكى لا يسمعون صوت الحق كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم، ويلفون ثيابهم حول أنفسهم أو يضعونها على رؤوسهم لئلا تصل أمواج الصوت إلى أدمغتهم! وربما كانوا يتقنعون لئلا تقع أعينهم على الهيئة الملكوتية لهذا النبي العظيم، وكانوا يصرون على أن تتوقف الآذان عن السماع والعيون عن النظر.

هذه الآية يشير إلى أحد الأسباب المهمة لتعاستهم وهو الغرور والتكبر، فكان هذا الغرور والكبر أحد الموانع المهمة والدائمة في طريق الحق، ونحن نشاهد النتائج المشؤومة لذلك على طول التاريخ في حياة اناس لا إيمان لهم.

واستمر نوح عليه السلام في حديثه عند المقام الإلهي، فيقول: «ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا».

ثم لم أكتفى بهذا: «ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا».

كان صبره عجيبياً، والأعجب ما فيه رأفته، وكانت همته واستقامته الفريدة رأس ماله في السير في طريق الدعوة إلى دين الحق.

والأعجب من ذلك هو أن طيله دعوته التي دامت (٩٥٠) عاماً لم يؤمن به إلا ثمانون شخصاً.

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَّا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) ثمرة الإيمان في الدنيا: يستمر نوح عليه السلام في تبليغه المؤثر لقومه المعاندين العصاة، ويعتمد هذه المرة على عامل الترغيب والتشجيع، ويوعدهم بانفتاح أبواب الرحمة الإلهية من كل جهة إذا ما تابوا من الشرك والخطايا، فيقول: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا».

ولا يطهركم من الذنوب فحسب بل: «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا» (١).

ثم يضيف: «وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا». وبهذا فإنه وعدهم بنعمة معنوية كبيرة، وبخمس نعم

اخرى مادية كبيرة، والنعمة المعنوية الكبيرة هي

(١) «مدراراً»: من أصل «در» وتعني في الأصل انسكاب الحليب من ثديي الام ويعطى معنى هطول الأمطار.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧٣

غفران الذنوب والتطهير من درن الكفر والعصيان، وأما النعم المادية فهي هطول الأمطار المفيدة والمباركة في حينها، كثرة الأموال، كثرة الأولاد (الثروات الإنسانية)، الحقائق المباركة والأنهار الجارية.

نعم، إن الإيمان والتقوى يعثان على عمران الدنيا والآخرة بشهادة القرآن المجيد.

ويعود نوح عليه السلام مرة اخرى لينذرهم، فيقول: «مَا لَكُمْ لَّا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا» (١). ولا تخافون عقابه وقد خلقكم في مراحل مختلفة. ويقول أيضاً: «وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا».

كنتم في البداية نطفة لا قيمة لها، ثم صوركم علقه ثم مضغه، ثم وهبكم الشكل الإنساني، ثم ألبسكم لباس الحياة، فوهب لكم الروح والحواس والحركة.

وليست أجسامكم هي المتغيرة فقط بل إن الروح هي أيضاً في تغير مستمر، لكل منكم استعداد خاص. وعلى هذا فإنه معكم في كل مكان هو يهديكم في كل خطوة ويشملكم بلطفه وعنايته، فلم كل هذا الكفران والاستهانة.

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) كان نوح عليه

السلام يبين للمشركين المعاندين حقائق عميقة ومستدلة، إذ كان يأخذ بهم إلى أعماق وجودهم ليشهدوا حقائق هذه الآيات (كما مر في الآيات السابقة) ودعاهم إلى ما خلق الله من علامات في هذا العالم الكبير، فكان يسير بهم إلى تلك الآفاق. يبدأ أولاً بالسماء فيقول: «أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا». «طباقاً»: مصدر من باب (مفاعلة) بمعنى «مطابقة»، وأحياناً تأتي بمعنى وضع الشيء فوق شيء آخر، وتأتي أحياناً أخرى بمعنى مطابقتها ومماثلة شيئين أحدهما مع الآخر، والمعنيان يصدقان هنا.

(١) «الوقار»: الثقل والعظمة؛ و «ترجون»: من أصل رجاء بمعنى الأمل وهو ملازم للخوف، ومعنى الآية لماذا لا تخضعون لعظمة الله تعالى.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧٤

وعلى الإحتمال الثاني فإن القرآن يشير إلى مطابقتها وتناسق السماوات السبع في النظم والعظمة والجمال. ثم يضيف: «وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا».

التعبير بالسراج للشمس وبالنور للقمر هو أن نور الشمس ينشأ من ذاتها كالسراج، وأما نور القمر فإنه ليس من باطنه بل انعكاس لنور الشمس.

ثم يعود ذلك إلى الإنسان فيقول: «وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا».

التعبير «الإنبات»، في شأن الإنسان لأسباب؛ أولاً: خلق الإنسان الأول من التراب.

ثانياً: إن المواد الغذائية التي يتناولها الإنسان وبها ينمو ويحيى، هي من الأرض، فهو إما يتناول الخضار والحبوب الغذائية أو الفواكه مباشرة، أو بطريق غير مباشر كلحوم الحيوانات.

ثالثاً: هناك تشابه كثير بين الإنسان والنبات، وهناك كثير من القوانين التي يسرى حكمها على نمو وتغذية النباتات هي سارية أيضاً على الإنسان.

ثم يمضي إلى مسألة المعاد والتي كانت من المسائل المعقدة عند المشركين فيقول: «ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا».

كنتم في البدء تراباً، ثم تعودون إلى التراب ثانية، ومن كانت له القدرة على أن يخلقكم من التراب هو قادر على أن يحييكم بعد الموت.

ثم يعود مرة أخرى إلى آيات الآفاق وعلامات التوحيد في هذا العالم الكبير، ويتحدث عن نعم وجود الأرض فيقول: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطًا».

ليست هي بتلك الخشونة بحيث لا يمكنكم الانتقال والاستراحة عليها، وليست بتلك النعومة بحيث تغطسون فيها، وتفقدون القدرة على الحركة، مضافاً إلى ذلك فهي كالبساط الواسع الجاهز المتوفر فيه جميع متطلباتكم المعيشية.

وليست الأراضي المسطحة كالبساط الواسع فحسب، بل بما فيها من الجبال والوديان والشقوق المتداخلة بعضها فوق بعض والتي يمكن العبور من خلالها.

«لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا». «فجاج»: على وزن (مزاج)، وهو جمع فج، وبمعنى

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧٥

الوادي الفسيح بين الجبلين، وقيل الطريق الواسعة.

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَّمَدَهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَنْزِلُنَّا إِلَيْكُمْ وَلَا تَنْزِلُنَّا وَلَا سَوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسِيرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا

نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥) لطف الله معك: عندما رأى نوح عليه السلام عناد قومه وقد بذل في سبيل هدايتهم منتهى مساعيه التي طالت مئات السنين، وما كانوا يزدادون فيها إلفساداً وضلالاً، يئس منهم وتوجه إلى ربه ليناجيه ويطلب منه أن يعاقب قومه، كما نقرأ في هذه الآيات محل البحث:

«قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا».

تشير هذه الآية إلى أن رؤساء هؤلاء القوم يمتازون بكثرة الأموال والأولاد، ولكنها لا تستخدم لخدمة الناس بل للفساد والعدوان، ولا يخضعون لله تعالى، وهذه الإمتيازات الكثيرة سببت في طغيانهم وغيهم.

ثم يضيف في قوله تعالى: «وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا».

إنهم كانوا يضعون خططاً شيطانية واسعة لتضليل الناس، ورفض دعوة نوح عليه السلام، ومن المحتمل أن يكون عبادة الأصنام واحدة من هذه الخطط والأساليب، وذلك طبقاً للروايات التي تشير إلى عدم وجود عبادة الأصنام قبل عصر نوح عليه السلام وأن قوم نوح هم الذين أوجدوها.

وتدل الآية الاخرى على هذا الأمر، إذ أنها تضيف بعد الإشارة إلى خفاء هذا المكر في قوله تعالى: «وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ أَهْلَ الْهَيْكَلِكُمْ».

ولا تقبلوا دعوة نوح إلى الله الواحد، وغير المحسوس، وأكدوا بالخصوص على خمسة أصنام، وقالوا: «وَلَا تَدْرُنَّ وُدًّا وَلَا سَوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا».

ويستفاد من القرائن أن هذه الأصنام الخمسة لقيت عناية بالغه من القوم الظالمين، ولهذا كان رؤسائهم المستغلون لهم يعتمدون على عبادتهم لها.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧٦

ثم يضيف عن لسان نوح عليه السلام: «وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا».

المراد من زيادة الضلال للظالمين هو الدعاء بسلب التوفيق الإلهي منهم ليكون سبباً في تعاستهم، أو أنه دعاء منه أن يجازيهم الله بكفرهم وظلمهم ويسلبهم نور الإيمان، ولتحل محل ظلمة الكفر. وبالتالي فإن الآية الأخيرة في البحث، يقول الله تعالى فيها: «مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا».

تشير الآية إلى ورودهم النار بعد الطوفان، ومما يثير العجب هو دخولهم النار بعد الدخول في الماء! وهذه النار هي نار البرزخ، لأن بعض الناس يعاقبون بعد الموت، وذلك في عالم البرزخ كما هو ظاهر في سياق بعض الآيات القرآنية، وكذا ذكرت الروايات أن القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران.

وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨) على الفاسدين والمفسدين أن يرحلوا: هذه الآيات تشير إلى استمرار نوح عليه السلام في حديثه ودعائه عليهم فيقول تبارك وتعالى: «وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا».

دعا نوح عليه السلام بهذا الدعاء عندما يئس من هدايتهم بعد المشقة والعناء في دعوته إياهم، فلم يؤمن إلا قليل منهم.

والتعبير بـ «على الأرض» يشير إلى أن دعوة نوح عليه السلام كانت تشمل العالم، وكذا مجيء الطوفان والعذاب بعده.

ثم يستدل نوح عليه السلام للعهنة القوم فيقول: «إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا». وهذا يشير إلى أن دعاء الأنبياء ومن بينهم نوح عليه السلام لم يكن ناتجاً عن الغضب والانتقام والحقد، بل إنه على أساس منطقي.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧٧

«الفاجر»: يراد به من يرتكب ذنباً قبيحاً وشنيعاً.

«كفار»: المبالغ في الكفر.

والإختلاف بين هذين اللفظين هو أن أحدهما يتعلق بالجوانب العملية، والآخر بالجوانب العقائدية.

ثم يدعو نوح عليه السلام، لنفسه ولمن آمن به فيقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا».

طلب المغفرة هذا من نوح عليه السلام كأنه يريد أن يقول إنني وإن دعوت قومي مئات السنين ولقيت ما لقيت من العذاب والإهانة، ولكن يمكن أن يكون قد صدر مني الترك الأولى، فلذا أطلب العفو والمغفرة لا أبرئ نفسي أمام الله تعالى.

«نهاية تفسير سورة نوح»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٧٩

٧٢. سورة الجن

محتوى السورة: تتحدث هذه السورة حول نوع من الخلائق المستورين عن حواسنا وهم الجن، كما سميت السورة باسمهم، وأنهم يؤمنون بنبينا الأكرم صلى الله عليه وآله، وعن خضوعهم للقرآن وإيمانهم بالمعاد، وأن فيهم المؤمن والكافر وغير ذلك، وفي هذا القسم من السورة (١٩) آية من (٢٨) آية تصحح ما حُرّف من معتقدات حول الجن.

وهناك قسم آخر من السورة يشير إلى التوحيد والمعاد، والقسم الأخير يتحدث عن العلم الذي لا يعلمه إلا من شاء لله.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من أكثر قراءة «قُلْ أُوحِيَ» لم يصبه في الحياة الدنيا شيء من أعين الجن، ولا من نفثهم، ولا من سحرهم، ولا من كيدهم، وكان مع محمد صلى الله عليه وآله فيقول: يا رب، لا أريد بهم بدلاً، ولا أريد بدرجتى حولاً».

وطبعاً التلاوة مقدمة وتمهيد لمعرفة محتوى السورة والتدبر بها، ثم العمل بما فيها.

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرَكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَ أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَ أَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَ أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨٠

سبب النزول

ما جاء في سبب نزول سورة الأحقاف في تفسير الآيات (٢٩-٣٢) مطابق لسبب نزول هذه السورة، ويدل على أن السورتين يتعلقان بحادثه واحدة، ونوضح سبب النزول باختصار كما يلي:

١- إن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج من مكة إلى سوق عكاظ ومعه زيد بن حارثة يدعو الناس إلى الإسلام، فلم يجبه ولم يجد من يقبله، ثم رجع إلى مكة فلما بلغ موضعاً يقال له وادي مجنة تهجد بالقرآن في جوف الليل فمر به نفر من الجن فلما سمعوا قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله ... فأسلموا وآمنوا وعلمهم رسول الله صلى الله عليه وآله شرائع الإسلام «١».

٢- عن ابن عباس قال: انطلق رسول الله صلى الله عليه وآله في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ. وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء، فاضربوا في مشارق الأرض ومغاربها، فانطلقوا يضربون في مشارق الأرض ومغاربها، فانصرف أولئك نفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو بنخله عامداً إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء.

فهناك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا: يا قومنا «إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا» يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا» (٢). ولكن جاء في سبب نزول هذه السورة ما يخالف هذا المعنى، وهو أن علقمة بن قيس قال: قلت لعبدالله بن المسعود: من كان منكم مع النبي صلى الله عليه وآله ليلة الجن؟ فقال: ما كان منّا معه أحد، فقدناه ذات ليلة ونحن بمكة فقلنا: اغتيل رسول الله صلى الله عليه وآله أو استطير. فانطلقنا نطلبه من الشعاب، فلقيناه مقبلاً من نحو حراء، فقلنا: يا رسول الله! اين كنت لقد أشفقنا عليك؟ وقلنا له: بتنا الليلة بشر ليلة بات بها قوم حين فقدناك! فقال لنا: «إِنَّهُ أَتَانِي دَاعِيَ الْجِنِّ فَذَهَبَتْ أَقْرَبُهُمُ الْقُرْآنَ» (٣).

(١) تفسير على بن ابراهيم ٢/ ٢٩٩ و ٣٨٨.

(٢) في ظلال القرآن ٧/ ٤٢٩.

(٣) تفسير مجمع البيان ١٠/ ١٤٥.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨١

مختصر الامثل ج ٥ ٢٩٩

التفسير

القرآن العجيب: يقول الله تعالى: «قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا».

يعلم من مفهوم الآية أن للجن عقلاً وشعوراً وفهماً وإدراكاً، وأنهم مكلفون ومسؤولون، ولهم المعرفة باللغات ويفرقون بين الكلام الخارق للعادة بين الكلام العادي، وبين المعجز وغير المعجز، ويجدون أنفسهم مكلفين بإيصال الدعوة إلى قومهم، وأنهم هم المخاطبون في القرآن المجيد.

إنّ لهم الحق في أن يحسبوا هذا القرآن عجباً، لِحِنه العجيب، ولجاذبيته محتواه، ولتأثيره العجيب، ولمن جاء به والذي لم يكن قد درس شيئاً وقد ظهر من بين الاميين.

لقد تحدثوا لقومهم بحديث آخر تبينه السورة في (١٢) آية، وكل منها تبدأ ب (أن) وهي دلالة على التأكيد.

فيقول أولاً بأنهم قالوا: «يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا».

وبعد إظهار الإيمان ونفى الشرك بالله تعالى ينتقل كلامهم إلى تبيان صفات الله تعالى:

«وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا».

«جد»: لها معانٍ كثيرة في اللغة، منها: العظمة، والشدة، والجد، والقسمه، والنصيب. وأما المعنى الحقيقي فهو «القطع»، وتأتي بمعنى

«العظمة» إذا كان هناك كائن عظيم منفصل بذاته عن بقية الكائنات.

ثم قالوا: «وَأَنَّهُ كَمَا نَقُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا». أى أن سفهاءنا قالوا: إن لله زوجة وأطفالاً، واتخذ لنفسه شريكاً وشبيهاً، وإنه قد انحرف عن الطريق، وكان يقول شططاً.

واحتمل بعض المفسرين أن «السفيه» هنا له معنى انفرادى، والمقصود به هو «ابليس» الذي نسب إلى الله نسب ركيكه، وذلك بعد مخالفته لأمر الله.

ولما كان ابليس من الجن، وكان قد بدا منه ذلك، اشمأز منه المؤمنون من الجن واعتبروا ذلك منه شططاً، وإن كان عالماً وعابداً.

«شطط»: على وزن وسط، وتعنى الخروج والإبتعاد عن قول الحق.

ثم قالوا: «وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨٢

لعل هذا الكلام اشارة إلى التقليد الأعمى للغير، حيث كانوا يشركون بالله وينسبون إليه الزوجه والأولاد، فهم يقولون: لقد كنا

نصدقهم بحسن ظننا بهم ونقول بمقاتلتهم الخاطئة، وما كنا نظنهم يتجرؤون على الله بهذه الأكاذيب، ولكننا الآن نخطيء هذا التقليد المزيف لما عرفنا من الحق والإيمان بالقرآن، ونقرّ بما التبس علينا، بانحراف المشركين من الجن. ثم ذكروا إحدى الانحرافات للجن والإنس وقالوا: «وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا».

«رهق»: على وزن (شفق) ويعنى غشيان الشيء بالقهر والغلبة، وفُسّر بالضلال والذنب والطغيان والخوف الذي يسيطر على روح الإنسان وقلبه ويغشيه.

فإنّ لآية مفهومًا واسعًا، يشمل جميع أنواع الإلتجاء إلى الجن، والخرافة المذكورة هي مصداق من مصايقها، وكان في أوساط العرب كهنة كثيرين يعتقدون أنّ الجن باستطاعتهم حلّ الكثير من المشاكل وإخبارهم بالمستقبل.

يشير سياق الآية إلى استمرار حديث المؤمنين من الجن، وتبيان الدعوة لقومهم، وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مِثْلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَا لَأَنْدَرِي أَشَرُّ أَرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) ودعوتهم إلى الإسلام بالطرق المختلفة، فيقولون: «وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا».

لذا تبادروا لإنكار القرآن وتكذيب نبوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ولكننا عند سماعنا لآيات القرآن أدركنا الحقائق، فلا تكونوا كالإنس وتتخذوا طريق الكفر فتبتلوا بما ابتلوا به.

وهذا تحذير للمشركين ليفيقوا عند سماعهم لكلام الجن وتحكيمهم ولتمسكوا بالقرآن وبالنبى الأكرم صلى الله عليه وآله. ثم يشيرون إلى علامة صدق قولهم وهو ما يدركه الجن في عالم الطبيعة، فيقولون: «وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مِثْلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا» (١).

(١) «لمسنا»: من لمس، وتعنى هنا الطلب والبحث؛ و«حرس»: على وزن قفص، جمع حارس، وقيل اسم جمع لحارس، وتعنى الشديد الحفاظ.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨٣

وكنا في السابق نسترق السمع من السماء ونحصل على أخبار الغيب ونوصلها إلى أصدقائنا من الإنس ولكننا منعنا من ذلك الآن: «وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا». أليس هذا الوضع الجديد دليل على حقيقة التغيير العظيم الحاصل في العالم عند ظهور الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وكتاب الله السماوى، لماذا كانت لكم القدرة على استراق السمع والآن سلبت منكم هذه القدرة؟ أليس معنى هذا انتهاء عصر الشيطنة والكهانة والخداع، وانتهاء ظلمة الجهل بشروق شمس الوحي والنبوة. ثم قالوا: «وَأَنَا لَأَنْدَرِي أَشَرُّ أَرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا». أى: مع كل هذا فإننا لا ندرى أكان هذا المنع من استراق السمع دليل على مكيدة تراد بأهل الأرض، أم أراد الله بذلك المنع أن يهديهم، وبعبارة أخرى أننا لا ندرى هل هذا هو مقدمة لنزول البلاء والعذاب من الله، أم مقدمة لهديتهم، ولكن لا يخفى على مؤمنى الجن أنّ المنع من استراق السمع الذى تزامن مع ظهور نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله هو مقدمة لهداية البشرية، وانحلال جهاز الكهانة والخرافات الاخرى، وليس هذا إلاّ انتهاء لعصر الظلام، وابتداء عصر النور.

ومع هذا، فإنّ الجن ولعلاقتهم الخاصة بمسألة استراق السمع لم يكونوا يصدقون بما فى ذلك المنع من خير وبركة، وإلاّ فمن الواضح أنّ الكهنة فى العصر الجاهلى كانوا يستغلون هذا العمل فى تضليل الناس.

وَأَنَا مِمَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا (١١) وَأَنَا ظَنُّنَا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُعْجِزُهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَا مِمَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤)

وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) في هذه الآيات يستمر مؤمنو الجن في حديثهم وهم يبلغون قومهم الضالين فيقولون: «وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا».

ويحتمل أن يكون المراد من قولهم هذا هو أن وجود إبليس فيما بينهم قد أوجد شبهة لبعضهم، بأن الجن متطبع على الشر والفساد والشیطنه، ومحال أن يشرق نور الهداية في قلوبهم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨٤

ولكن مؤمنى الجن يوضحون في قولهم هذا أنهم يملكون الإختيار والحرية، وفيهم الصالح والطالح، وهذا يوفز لهم الأرضية للهداية. ولهذه الآية تأثير في إصلاح ما اشتبه علينا نحن البشر في عقائدنا حول الجن، لأن كثير من الناس يتصورون أن لفظه الجن تعنى الشیطنه والفساد والضلال والانحراف، وسياق هذه الآية يشير إلى أن الجن فصائل مختلفة، صالحون وطالحون.

وفي إدامة حديثهم يحذرون الآخريين فيقولون: «وَأَنَا ظَنَّنَا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبِيًّا». وإذا كنتم تتصورون أنكم تستطيعون الفرار من الجزاء وتلتجئون إلى زاوية من زوايا الأرض أو نقطة من نقاط السماوات فإنكم في غاية الخطأ.

وأضاف مؤمنو الجن في حديثهم قائلين: «وَأَنَا لَمَّا سَجِعْنَا الْهُدَىءَ آمَنَّا بِهِ». وإذ ندعوكم لهدى القرآن فإننا ممن عمل بذلك أولاً، ولذا نحن لا ندعو الآخريين إلى أمر لم نكن فاعليه.

ثم بينوا عاقبة الإيمان فقالوا: «فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا».

إن المؤمنين مهما يعملوا من عمل كبيراً كان أو صغيراً فإنهم يستوفون اجور ذلك بلا نقص أو قلة.

وفي الآية الاخرى توضيح أكثر حول عاقبة المؤمنين والكافرين فيقولون: «وَأَنَا مِنَّا الْمُشْرِكُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا» (١).

«وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا».

والتعبير بـ «تَحَرَّوْا رَشَدًا» يشير إلى أن المؤمنين إنما يتوجهون إلى الهدى بالتحقيق والتوجه الصادق، وجزاءهم الأوفى هو نيلهم الحقائق التي بظلمها ينالون النعم الإلهية.

وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) الفتنة باغداق النعمة: إن سياق الآيات السابقة يشير إلى ثواب المؤمنين في يوم القيامة،

(١) «القاسط»: من أصل «قسط» وتعنى التقسيم العادل؛ فإن أتت على وزن (أفعال)، (أقساط) فإنها تعنى إجراء العدالة، وإذا استعملت بصورة الثلاثى المجرد كما فى هذه الآية فإنها تعطى معنى الظلم والانحراف عن سبيل الحق؛ و «تحرروا»: من أصل «تحرى وتعنى توخاه وقصده.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨٥

وفى هذه الآيات يتحدث عن ثوابهم الدنيوى فيقول: «وَأَلْوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا».

نزل عليهم مطر رحمتنا، ونذلل لهم منابع وعيون الماء الذى يهب الحياة وبوجود الماء يوجد كل شىء وعلى هذا فإننا نسلمهم بأنواع النعم.

القرآن المجيد أكد ولعدة مرات على أن الإيمان والتقوى ليست فقط منبعاً للبركات المعنوية، بل تودى إلى زيادة الأرزاق والنعم وال عمران، أى (البركة المادية).

الملاحظ حسب هذا البيان أن سبب زيادة النعمة هو الإستقامة على الإيمان، وليس أصل الإيمان، لأن الإيمان المؤقت لا يستطيع أن

يظهر هذه البركات.

والآية الاخرى إشارة إلى حقيقة اخرى بنفس الشأن، فيضيف: «لَنفَتْنَهُمْ فِيهِ».

ومن هنا يتضح أن وفور النعمة من إحدى الأسباب المهمة في الإمتحان الإلهي، وما يتفق عليه هو أن الإختبار بالنعمة أكثر صعوبة وتعقيداً من الإختبار بالعذاب، لأن طبيعة ازدياد النعم هو الإنحلال والكسل والغفلة، والغرق في الملذات والشهوات، وهذا ما يبعد الإنسان عن الله تعالى ويهيب الأجرء لمكائد الشيطان، والذين يستطيعون أن يتخلصوا من شرك النعم الوافرة هم الذاكرون لله على كل حال، غير الناسين له تعالى.

ولذا يضيف تعقيماً على ذلك: «وَمَنْ يُفْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا».

«صعداً»: على وزن (سفر) وتعنى الصعود إلى الأعلى، وأحياناً الشعب المتعرجة في الجبل، وبما أن الصعود من الشعب المتعرجة عمل شاق، فإن هذه اللفظة تستعمل بمعنى الامور الشاقة.

ولكن، مع أن التعبير أعلاه يبين كون هذا العذاب شاقاً شديداً فإنه يحتمل أن يشير إلى اليوم الطويل، وعلى هذا الأساس فإنه يبين في الآيات أعلاه رابطة الإيمان والتقوى بكثرة النعم من جهة، ورباطة كثرة النعم بالاختبارات الإلهية من جهة اخرى ورباطة الإعراض عن ذكر الله تعالى بالعذاب الشاق الطويل من جهة ثالثة.

وقال مؤمنو الجن في الآية الاخرى وهم يدعون إلى التوحيد: «وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا».

المراد بالمساجد هي المواطن التي يسجد فيها لله تعالى كالمسجد الحرام وبقية المساجد، وبشكل أعم هي الأرض التي يصلى فيها ويسجد عليها، وهو مصداق قول الرسول

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨٦

الأكرم صلى الله عليه و آله: «جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً» (١). وهذا رد لمن اتخذ الأصنام والأوثان للعبادة فأشرك بالله، ومن اتخذ الكعبة معبداً للأصنام، أو انصرف إلى إحياء الطقوس المسيحية حيث (التثليث) أو عبد الأرباب الثلاثة فى الكنائس والله تعالى يقول: «وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا».

ويضيف فى إدامه الآية بياناً عن التأثير غير العادى للقرآن المجيد وقيام الرسول للدعاء فيقول: «وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا». أى: عندما كان رسول الله صلى الله عليه و آله يقوم للصلاة، فإن طائفة من الجن كانوا يجتمعون عليه بشكل متراحم.

«البد»: على وزن (فعل) وتعنى الأشياء المجتمعة المتراكمة، وهذا التعبير بيان لتعجب الجن مما يشاهدونه من عبادته وقرائه صلى الله عليه و آله قرآنًا لم يسمعوا كلاماً يماثله.

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) فى هذه الآيات يأمر الله تعالى نبيه أن يقول: «قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا».

وذلك لتقوية قواعد التوحيد، ونفى كل أنواع الشرك، كما مرّ فى الآيات السابقة.

ثم يأمره أن: «قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا».

ثم يضيف: قل لهم بأنى لو خالفت أمر الله تعالى فسوف يحق بى العذاب أيضاً ولن يستطيع أحد أن ينصرنى أو يدفع عني عذابه: «قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا».

وعلى هذا الأساس لا يستطيع أحد أن يجيرنى منه تعالى ولا شىء يمكنه أن يكون لى ملجأ وهذا الخطاب يشير من جهة إلى الإقرار

الكامل بالعبودية لله تعالى، وإلى نفى كل أنواع الغلو في شأن النبي صلى الله عليه وآله من جهة أخرى، ويشير من جهة ثالثة إلى أن الأصنام ليس

(١) وسائل الشيعة ٢ / ٩٧٠ / ٣.

مختصر الامثال، ج ٥، ص: ٢٨٧

فقط لا- تنفع ولا- تحمي، بل إن نفس الرسول أيضاً مع ما له من العظمة لا يمكنه أن يكون له ملجأ من عذاب الله، وينهى من جهة الذرائع والآمال للمعاندين الذين كانوا يطلبون من النبي صلى الله عليه وآله أن يريهم المعاجز الإلهية، ويثبت أن التوسل والشفاعة أيضاً لا يتحققان إلا بإذنه تعالى.

ويضيف في الآية الأخرى: «إِلَّا بَلَّغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ».

وقد مر ما يشابه هذا التعبير مراراً في آيات القرآن الكريم، كما في الآية (٩٢) من سورة المائدة: «أَتَمَّا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلِّغِ الْمُبِينِ». وكذا في الآية (١٨٨) من سورة الأعراف: «قُلْ لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

ويحذر في نهاية الآية فيقول: «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا».

الواضح أن المراد فيها ليس كل العصاة، بل المشركون والكافرون لأن مطلق العصاة لا يخلدون في النار.

ثم يضيف: «حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا».

إن سياق هذه الآية يشير إلى أن أعداء الإسلام كانوا يتبجحون بقدرات جيوشهم وكثرة جنودهم أمام المسلمين ويستضعفونهم، لهذا كان القرآن يواسيهم- المسلمين- ويبشرهم بأن العاقبة ستكون بانتصارهم وخسران عدوهم.

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨) اللَّهُ عَالِمِ الْغَيْبِ: لقد تبين في الآيات السابقة حقيقة أن العصاة يقون على عنادهم واستهزائهم حتى يأتي وعد الله بالعذاب، وهنا يطرح السؤال، وهو: متى يتحقق وعد الله؟

وقد أجاب القرآن على ذلك فقال: «قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا».

مختصر الامثال، ج ٥، ص: ٢٨٨

هذا العلم يخص ذاته المقدسة تعالى شأنه، وأراد أن يبقى مكتوماً حتى عن عباده المؤمنين، ليتحقق الاختبار الإلهي للبشرية، وإلا فلن يؤثر الاختبار.

فإننا كثيراً ما نواجه مثل هذه المعاني في آيات القرآن، وعندما يسأل الرسول صلى الله عليه وآله عن يوم القيامة يجب بأنه ليس له علم بذلك، وأن علمه عند الله. ولما تبدى له جبريل في صورة أعرابي كان فيما سأله أن قال: يا محمد أخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جهوري فقال: يا محمد، متى الساعة؟ قال: «ويحك، إنها كائنه فما أعددت لها؟ قال: أما إنني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام، ولكنني أحب الله ورسوله، قال صلى الله عليه وآله: «فأنت مع من أحببت». قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث «١».

ثم يبين في هذا الحديث قاعدة كلية بشأن علم الغيب فيقول: «عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا».

ثم يضيف مستثناً: «إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ». أي يبلغه ما يشاء عن طريق الوحي الإلهي: «فَأِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا». «رصد»: في الأصل مصدر، ويراد به الاستعداد للمراقبة من شيء؛ ويراد به هنا الملائكة الذين يبعثهم الله مع الوحي إلى رسول الله

صلى الله عليه وآله ليحيطوه من كل جانب، ويحفظوا الوحي من شرّ شياطين الجن والإنس ووساوسهم ومن كل شيء يخدش أصالة الوحي، ليوصلوا الرسالات إلى العباد، وهذا هو دليل من الأدلة على عصمة الأنبياء عليهم السلام المحفوظين من الزلات والخطايا بالإمداد الإلهي والقوة الغيبية، والملائكة.

في بحثنا للآية الأخيرة التي تنهى السورة تبيان لدليل وجود الحراس والمراقبين فيقول:

«لِيُعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا».

المراد من العلم هنا هو العلم الفعلي، وبعبارة أخرى ليس معنى الآية أن الله ما كان يعلم عن أنبيائه شيئاً ثم علم، لأن العلم الإلهي أزلي وأبدى وغير منتهى، بل إن المراد هو تحقق العلم الإلهي في الخارج، ويتخذ لنفسه صورة عينيه واضحة، أي ليتحقق إبلاغ الأنبياء ورسالات ربهم ويتمموا الحجة بذلك.

(١) تفسير المراغي ٢٩ / ١٠٥.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٨٩

بحثان

١- تحقيق موسّع حول علم الغيب: من خلال التمعن في الآيات المختلفة للقرآن الكريم يتضح لنا أن الآيات المتعلقة بعلم الغيب قسمان:

القسم الأول: ما يتعلق بذاته جلّ شأنه ولا يعلمه إلا هو، كما في الآية (٥٩) من سورة الأنعام: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ». والآية (٥٠) من سورة الأنعام: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ».

القسم الثاني: يطرح بوضوح إطلاع أولياء الله على الغيب، كما في الآية (١٧٩) من سورة آل عمران: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ».

ونقرأ في معاجز المسيح عليه السلام كما في الآية (٤٩) من سورة آل عمران: «وَأُتَيْنُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ».

والآية السابقة مورد البحث أيضاً تشير إلى أن الله تعالى يهب العلم لمن يرتضيه من رسله، ومن جهة أخرى فإن الآيات التي تشمل الأخبار الغيبية ليست بقليلة. كآيات (٢-٤) من سورة الروم: «غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعِيدٍ عَابَهُمْ سَيَّغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ».

ومن المعروف أن الوحي السماوي الذي يهبط على الرسل هو نوع من الغيب الذي أطلعهم الله عليه، فكيف يمكن أن ننفي إطلاعهم بالغيب في الوقت الذي يهبط عليهم الوحي.

بالإضافة إلى ذلك كله فإن هناك روايات كثيرة تدل على أن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام مطلعون على الغيب، ويخبرون به أحياناً.

وكذلك إخباره صلى الله عليه وآله بحوادث معركة مؤتة، واستشهاد جعفر الطيار رضى الله عنه وبعض القادة المسلمين، في الوقت الذي كان الرسول صلى الله عليه وآله يطلع الناس على ذلك في المدينة «١». والأمثلة على ذلك ليست قليلة في حياة النبي صلى الله عليه وآله.

وورد في نهج البلاغة أيضاً أخبار كثيرة سابقة لأوانها تشير إلى حوادث مستقبلية، أخبر عنها أمير المؤمنين عليه السلام، مما يدل على اطلاعه بأسرار الغيب، كما جاء في الخطبة (١٣) في

(١) الكامل في التاريخ ٢ / ١١٢ (ذكر غزوة مؤتة).

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩٠

ذمه أهل البصرة حيث يقول: «كأننى بمسجدكم كجؤجؤ لسفينه قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من فى ضمنها». وما قاله كميل بن زياد للحجاج أن أمير المؤمنين عليه السلام قد أخبرنى بأنك قاتلى «١». أما كيف نجمع بين هذه الآيات والروايات التى ينفى بعضها علم الغيب لغير الله وإثبات البعض الآخر لغيره تعالى؟ هناك طرق مختلفة للجمع بينها:

١- أشهر طرق الجمع هو أن المراد من اختصاص علم الغيب بالله تعالى هو العلم الذاتى والإستقلالى، ولهذا لا يعلم الغيب إلهو، وما يعلمونه فهو من الله، وذلك بلطفه وعنايته.

٢- أسرار الغيب قسمان: قسم خاص بالله عز وجل لا يعلمه إلهو كقيام الساعة، وغيرها مما يشابه ذلك، والقسم الآخر علمه الأنبياء والأولياء، كما جاء فى الخطبة (١٢٨) نهج البلاغه حيث يقول على عليه السلام: «وإنما علم الغيب علم الساعة، وما عدده الله سبحانه بقوله: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّا إِذَا تَكْسَبُ عَدًّا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ» الآية. ثم أضاف الإمام عليه السلام فى شرح هذا المعنى:

«فيعلم الله سبحانه ما فى الأرحام من ذكر أو انثى وقبيح أو جميل، وسخى أو بخيل، وشقى أو سعيد، ومن يكون فى النار حطباً، أو فى الجنان للنبين مرافقاً فهذا علم الغيب الذى لا يعلمه أحد إلا الله وما سوى ذلك فعلم علمه الله نبيه فعلمنيه».

يمكن لبعض الناس أن يعلموا بزمان وضع الحمل أو نزول المطر ومثل ذلك علماً إجمالياً، وأما العلم التفصيلى والتعرف على هذه الامور فهو خاص بذات الله تعالى المقدسه وإن علمنا بشأن يوم القيامة هو علم إجمالى ونجهل جزئيات وخصوصيات يوم القيامة. وإذا كان النبى صلى الله عليه وآله أو الأئمة المعصومون عليهم السلام قد أخبروا البعض فى أحاديثهم عن يولد أو عمن ينقضى عمره، فذلك يتعلق بالعلم الإجمالى.

٣- والطريق الآخر هو أن الله تعالى يعلم بكل أسرار الغيب، وأما الأنبياء والأولياء فإنهم لا يعلمونها كلها، ولكنهم إذا ما شاءوا ذلك أعلمهم الله تعالى بها، وبالطبع هذه الإرادة لا تتم إلا بإذن الله تعالى. ومحصله ذلك أن الآيات والروايات التى تقول إنهم لا يعلمون بالغيب هى إشارة إلى

(١) الإصابة لابن حجر ٥/ ٤٨٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩١

عدم المعرفة الفعلية، التى تقول إنهم يعلمون تشير إلى إمكان معرفتهم لها.

٢- تحقيق حول خلق الجن: الجن كما جاء فى المفهوم اللغوى هو نوع من الخلق المستور، وقد ذكرت له مواصفات كثيرة فى القرآن؛ منها:

١- إنهم مخلوقون من النار، بعكس الإنسان المخلوق من التراب؛ كما نقرأ فى الآية (١٥) من سورة الرحمن: «وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ».

٢- إنهم يمتلكون الإدراك والعلم والتمييز بين الحق والباطل والقدرة على المنطق والإستدلال؛ كما هو واضح من آيات سورة (الجن).

٣- إنهم مكلفون ومسؤولون؛ كما فى آيات سورة الجن والرحمن.

٤- وفيهم المؤمنون والصالحون والظالمون؛ كما نقرأ فى الآية (١١) من سورة الجن: «وَأَنَا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ».

٥- إنهم يحشرون وينشرون؛ كما نقرأ فى الآية (١٥) من سورة الجن: «وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا».

- ٦- لهم القدرة على النفوذ في السماوات وأخذ الأخبار واستراق السمع، ولكنهم منعوا من ذلك فيما بعد؛ كما نقرأ في الآية (٩) من سورة الجن: «وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا».
- ٧- كانوا يوجدون ارتباطاً مع بعض الناس لإغوائهم بما لديهم من العلوم المحدودة التابعة إلى بعض الأسرار الروحية؛ كما نقرأ في الآية (٦) من سورة الجن: «وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا».
- ٨- ويوجد فيهم من يتمتع بالقدرة الفائقة، كما هو موجود في أوساط الإنس؛ كما نقرأ في الآية (٣٩) من سورة النمل: «قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ».
- ٩- لهم القدرة على قضاء بعض الحوائج التي يحتاجها الإنسان؛ كما نقرأ في الآيتان (١٢ و ١٣) من سورة سبأ: «وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ يَعْمَلُونَ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبٍ وَتَمَاثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ».
- ١٠- إن خلقهم كان قبل خلق الإنسان؛ كما نقرأ في الآية (٢٧) من سورة الحجر: «وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ». ولهم خصائص اخرى.

إلى هنا كان الحديث عن امور تستفاد من القرآن المجيد حول هذا الخلق المستور والخالية

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩٢

من كل الخرافات والمسائل غير العلمية، ولكننا نعلم أن السذج والجهلاء ابتدعوا خرافات كثيرة فيما يخص هذا الكائن بما يتنافى مع العقل والمنطق، منها ما نسب إليهم الأشكال الغريبة والعجيبة والمرعبة، وأنهم موجودات سامة وذوات أذنان مؤذية، ومبغضة، سيئة التصرف والسلوك، وأوهام اخرى من هذا القبيل، في حين أن أصل الموضوع إذا تم تطهيره من هذه الخرافات يكون قابلاً للقبول. ومن جهة اخرى، ليس هناك دليل عقلي على عدم وجود الجن، ولهذا لا بد من الاعتقاد بهم، وتجنب الأقوال التي لا تليق بهم كما في خرافات العوام.

ومما يلاحظ أيضاً أن لفظ الجن يطلق أحياناً على مفهوم أوسع يشمل أنواعاً من الكائنات المستورة أعم من الكائنات ذوات العقل والإدراك والفاقدة لهما، وحتى مجاميع الحيوانات التي ترى بالعين والمختفية في الأوكار أيضاً، والدليل على ذلك روايات وردت عن النبي صلى الله عليه وآله حيث قال: «خلق الله الجن خمسة أصناف: صنف كالريح في الهواء، وصنف حيات، وصنف عقارب، وصنف حشرات الأرض، وصنف كبنى آدم عليهم الحساب والعقاب» (١).

«نهاية تفسير سورة الجن»

(١) بحار الأنوار ٦٠ / ٢٦٧.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩٣

٧٣. سورة المزمل

محتوى السورة: يمكن أن نقسم مباحث السورة في خمسة أقسام:

- ١- الآيات الاولى للسورة والتي تأمر النبي صلى الله عليه وآله بقيام الليل والصلاة فيه، ليستعد بذلك لنقل ما سيلقى عليه من القول الثقيل.
- ٢- يأمره صلى الله عليه وآله بالصبر والمقاومة ومداراة المخالفين.
- ٣- بحوث حول المعاد، وإرسال موسى بن عمران إلى فرعون وذكر عذابه الأليم.
- ٤- فيه تخفيف لما ورد في الآيات الاولى من الأوامر الشديدة عن قيام الليل، وذلك بسبب محنة المسلمين والشدائد المحيطة بهم.

٥- والقسم الأخير من السورة يعود ليدعو إلى تلاوة القرآن وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والإنفاق في سبيل الله والإستغفار.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة المزمل رفع عنه العسر في الدنيا والآخرة».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ومن قرأ سورة المزمل في العشاء الآخرة، أو في آخر الليل كان له الليل والنهار شاهدين مع السورة، وأحياه الله حياة طيبة وأماته ميتة طيبة».

ومن الطبيعي أن هذه الفضائل لا بد أن تكون ملازمة مع قيام الليل وقراءة القرآن والصبر والإستقامة والإيثار والإنفاق العملي، وليس بالتلاوة الخالية من العمل.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩٤

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥)

يشير سياق الآيات كما بينا إلى دعوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله للإستقامة والإستعداد لقبول مهمة كبيرة وثقيلة، وهذا لا يتم إلا بالبناء المسبق للذات، فيقول: «يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا» (١). إن هذا ليس زمان التزمل والإنزواء، بل زمان القيام والبناء الذاتي والإستعداد لأداء الرسالة العظيمة.

واختيار الليل لهذا العمل أولًا: لأن أعين الأعداء نائمة؛ وثانيًا: تتعطل الأعمال والمكاسب، ولهذا فإن الإنسان يستعد للتفكير ولتربية النفس.

وكذلك اختيار القرآن لأن يكون المادة الأولى في البرنامج العبادي في الليل إنما هو لإقتباس الدروس اللازمة في هذا الباب، وهو يعد من أفضل الوسائل لتقوية الإيمان والإستقامة والتقوى وتربية النفوس.

والتعبير بالترتيل الذي يراد به التنظيم والترتيب الموزون هنا هو القراءة بالتأني والإنتظام اللازم، والأداء الصحيح للحروف، وتبيين الحروف، والتأمل في مفاهيم الآيات، والتفكير في نتائجها. والروايات التي وردت في تفسير الترتيل كلها تشير إلى ضرورة التمعن في كلمات القرآن، والتدبر فيها وتذكر بأن القرآن هو خطاب الله تعالى للإنسان.

ولكن وللأسف إن الكثير من المسلمين ابتعدوا عن هذا الواقع، واكتفوا بالتلفظ وغدا همهم ختمه، من دون الإهتمام بمعرفة سبب نزوله ومحتواه! صحيح أن ألفاظ القرآن عظيمة ولقراءتها فضيلة، ولكن لا ينبغي أن ننسى أن هذه الألفاظ وتلاوتها هي مقدمة لبيان المحتوى.

في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها وسل الله عز وجل الجنة، وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوذ بالله من النار».

ثم يبين الهدف النهائي لهذا الأمر المهم والشاق فيقول: «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا».

(١) «مزمل»: أصلها متزمل، وهي من التزمل، وتعني لف الثوب على نفسه، ولهذا جاء لفظ الزميل، أي المصاحب والرفيق.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩٥

إن ثقل القول يراد به القرآن المجيد بأبعاده المختلفة ... ثقل بلحاظ المحتوى ومفاهيم الآيات.

ثقل بلحاظ حمل القلوب له لما يقوله القرآن: «لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» (١).

ثقل بلحاظ التبليغ ومشاكل طريق الدعوة.

وثقل في ميزان العمل وفي عرصه القيامة.

ولكن الرسول صلى الله عليه وآله وأصحابه القلائل استطاعوا أن يتغلبوا على كل تلك هذه المشاكل باستمدادهم من تربية القرآن،

والإستعانة بصلاة الليل، وبلاستفادة من قربهم من ذات الله المقدسة، واستطاعوا بذلك حمل هذا القول الثقيل والوصول إلى مرادهم.

بحث

فضيلة صلاة الليل: هذه الآيات تبين أهمية إحياء الليل بالعبادة وقراءة القرآن عندما يكون الغافلون نياماً، فإنَّ العبادة في الليل وبالخصوص عند السحر لها الأثر البالغ في تصفية الروح وتهذيب النفوس والتربية المعنوية للإنسان وطهارة القلب وإيقاظه، وكذا في تقوية الإيمان والإرادة، وتوكيد أركان التقوى في الروح والقلب، ويمكن لمس ذلك بمجرد الاختبار مرّة واحدة، وقد أكّدت الروايات على ذلك بالإضافة إلى ما ذكرته الآيات القرآنية. منها ورد- في أمالي الطوسي- عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنَّ من روح الله تعالى ثلاثة: التهجد بالليل، وإفطار الصائم، ولقاء الإخوان».

تأثير الدعاء والمناجاة في أعماق الليل: تستمر هذه الآيات في البحث حول عبادة الليل والتعاليم المعنوية الموجودة قراءة القرآن في الليل، وهي بمنزلة بيان الدليل على ما جاء في الآيات السالفة، فيقول تعالى: «إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً».

(١) سورة الحشر / ٢١. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩٦

«الناشئة»: من مادة «نشأ» وتعني الحادثة، وقد ذكر هنا ثلاثة تفاسير لما يراد منها.

الأول: المراد به ساعات الليل الحادثة بالتوالي.

والثاني: إنَّ المراد هو إحياء الليل بالصلاة والعبادة وقراءة القرآن.

والثالث: الحالات المعنوية والروحية والنشاط والجدوة الملكوتية التي تحصل في القلب الإنسان وروحه في هذه الساعات الخاصية بالليل، والتي تكون آثارها في روح الإنسان أعمق واستمرارها أكثر، والتفسيران الثاني والثالث متلازمان، ويمكن جمعها في ما يراد بمعنى الآية.

والتعبير ب «أشدُّ وَطْأً»: التأثيرات الثابتة والراسخة الحاصلة من شعاع هذه العبادات في روح الإنسان.

«أقوم»: من القيام، ويراد بكونها أثبت للقول وأصوب لحضور القلب.

«قيلاً»: تعني القول، وتشير هنا إلى ذكر الله وقراءة القرآن.

إنَّ هذه الآية من الآيات التي تحتوي على أبلغ الأحاديث حول العبادة الليلية، ورمز إظهار المحبة مع المحبوب في ساعات يختلي فيها الحبيب بحبيبه وأكثر من غيرها.

ويضيف في الآية الاخرى: «إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا».

أى إنَّك مشغول بهداية الخلق وإبلاغ الرسالة وحل المشاكل المتنوعة، ولا مجال لك بالتوجه التام إلى ربك والإنقطاع إليه بالذكر، فعليك بالليل والعبادة فيه.

وهناك معنى أدق وتفسير يناسب الآيات السابقة أيضاً هو: إنَّك تتحمل في النهار مشاغل ثقيلة ومساعي كثيرة، فعليك بعبادة الليل لتقوى بها روحك وتستعد للفعاليات والنشاطات الكثيرة في النهار.

وبعد الإشارة إلى العبادة الليلية، والإشارة الإجمالية إلى الآثار العميقة يذكّر القرآن بخمسة أوامر اخرى مكمله لتلك فيقول: «وَأذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ».

والطبيعي أنَّ المراد ليس ذكر الإسم فحسب، بل التوجه إلى المعنى، لأنَّ الذكر اللفظي مقدمه للذكر القلبي، والذكر القلبي يبعث على صفاء القلب والروح ويروى منه المعرفة والتقوى في القلب.

ويقول في الأمر الثاني: «وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً».

«التبتل»: من «البتل» على وزن (حتم)، وتعني في الأصل الإنقطاع، ولهذا سميت «مريم

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩٧

العذارء عليها السلام» بالبتول، لأنها لم تتخذ لنفسها زوجاً وسميت الزهراء عليها السلام بالبتول لأنها كانت أفضل نساء عصرها في السيرة والسلوك، وكانت بالغة درجة الإنقطاع إلى الله تعالى.

فالتبتل هو التوجه القلبي التام إلى الله تعالى، والإنقطاع عن غيره إليه تعالى، والإتيان بالأعمال الخالصة لله، وكذا الخلوص له تعالى. ثم ينتهي إلى الأمر الثالث فيقول: «رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا».

وهنا تأتي مسألة إيداع الامور إلى الله، وذلك بعد مرحلة ذكر الله والإخلاص، إيداع الامور للرب الذي بيده الحاكمية والربوبية على المشرق والمغرب والمعبود الوحيد المستحق للعبادة، وهذا التعبير في الحقيقة هو بمنزلة الدليل على موضوع التوكل على الله، فكيف لا يتوكل الإنسان عليه، ولا يودعه أعماله، وليس في العالم الواسع من حاكم وأمر ومنعم ومولى ومعبود غيره؟ وبالتالي يقول في الأمر الرابع والخامس: «وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا».

ويأتي هنا مقام الصبر والهجران، لكثرة إتهامات الأعداء وإيذاءهم له في طريق الدعوة إلى الله، فالفلاح إذا أراد قطف الورد، عليه أن يصبر ويتحمل أذى الأشواك، مضافاً إلى ذلك يلزم الإبتعاد عنهم وهجرانهم أحياناً، وليبقى في مأمن من شرهم، ويعطيهم بذلك درساً بالغاً، ولا يعنى ذلك قطع سبل التربية والتبليغ والدعوة إلى الله.

يقول الطبرسي رحمه الله في تفسير مجمع البيان في ذيل الآية مورد البحث: وفي هذا دلالة على وجوب الصبر على الأذى لمن يدعو إلى الدين والمعاشرة بأحسن الأخلاق، واستعمال الرفق ليكونوا أقرب إلى الإجابة.

وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩٨

أشارت الآية الأخيرة من الآيات السابقة إلى أقوال المشركين البذيئة، وعذائهم وإيذائهم للنبي صلى الله عليه وآله، أما في هذه الآيات فإن الله تعالى يهددهم بالعذاب الأليم، ويدعوهم إلى ترك ما هم عليه، ويواسى المؤمنين الأوائل، فيقول تعالى شأنه: «وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا». أى دعنى وإياهم، واترك عقابهم لى ومهلهم قليلاً. لتتم الحجة عليهم ولتظهر ماهيتهم الحقيقية، ويثقلوا ظهورهم بالخطايا فعندها يحل عليهم غضبى.

ولم يمض كثير حتى ازدادت شوكة المسلمين، ووجهوا ضرباتهم القوية لأعداء الرسالة، وذلك في معارك بدر وحنين والأحزاب، وبالتالي كان العذاب الإلهى ينتظرهم فى البرزخ، حتى يخلدوا بعد ذلك فى النار فى يوم القيامة.

ثم يقول مصرحاً: «إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا».

«الأنكال»: جمع (نكل)، على وزن (فكر) وهى السلاسل الثقال، وأصلها من نكول الضعف والعجز، أى أن الإنسان يفقد الحركة بتقييد أعضائه بالسلاسل.

نعم، لقد تنعموا فى الدنيا وأخذوا حريتهم المطلقة، ولهذا لا بد لهم من القيود والنار.

وكذا يضيف: «وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا».

هذا مصير من كان يتلذذ بالطعام بعكس ما كان طعامهم فى الدنيا الحرام، حيث العذاب الأليم، ولما تمتع به المغرورون والمستكبرون من الراحة غير المشروعة فى هذه الدنيا، والطعام الموصوف بالغصة هو بحد ذاته عذاب أليم، ثم يتبع ذلك بذكر العذاب الأليم على إنفراد، وهذا يشير إلى أن أبعاد العذاب الاخرى لا يعلم شدته وعظمته إلا الله تعالى، ولهذا ورد فى حديث أن النبى صلى الله عليه و

آله سمع قارئاً يقرأ هذه فصعق «١».

ثم يشرح ما يجرى في ذلك اليوم الذى يظهر فيه هذا العذاب فيقول: «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا». «الكثيب»: يراد به الرمل المتراكم؛ و «المهيل»: من هيل - على وزن كيل - هو صب شىء ناعم كالرمل على شىء، ويراد بالمعنى هنا الرمل الناعم وما لا يستقر، والمعنى أن الجبال تتلاشى بحيث تظهر بهيئة الرمل الناعم، وإذا ما ديست بالأقدام فإنها تطمس فيها. ثم يقارن بين بعثه النبي صلى الله عليه وآله ومخالفة الأشداء العرب، وبين نهوض موسى بن عمران بوجه الفراعنة فيقول تعالى: «إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا».

(١) تفسير مجمع البيان ١٠/١٦٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٢٩٩

إن هدف النبي صلى الله عليه وآله هدايتكم والإشراف على أعمالكم كما كان هدف موسى عليه السلام هداية فرعون وأتباعه والإشراف على أعمالهم.

لم يكن جيش فرعون مانعاً من العذاب الإلهي، ولم تكن سعة مملكتهم وأموالهم وثراؤهم سبباً لرفع هذا العذاب، ففي النهاية اغرقوا في أمواج النيل المتلاطمة إذ أنهم كانوا يتباهون بالنيل، فبماذا تفكرون لأنفسكم وأنتم أقل عدّة وعداداً من فرعون وأتباعه وأضعف؟ وكيف تغترون بأموالكم وأعدادكم القليلة؟!

«الويل»: من «الوبل» ويراد به المطر الشديد والثقيل، وكذا يطلق على كل ما هو شديد وثقيل بالخصوص في العقوبات، والآية تشير إلى شدة العذاب النازل كالمطر.

ثم وجه الحديث إلى كفار عصر نبي الأكرم صلى الله عليه وآله ويحذرهم بقوله: «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا». فى الآية الاخرى يبين وصفاً أدقّ لذلك اليوم المهول فيضيف: «السَّمَاءُ مُنْفِطِرَةٌ بِهِ كَانَتْ وَعَدُهُ مَفْعُولًا».

فما حيلة الإنسان الضعيف العاجز عندما يرى تفضير السماوات بعظمتها لشدة ذلك اليوم؟!

وفى النهاية يشير القرآن إلى جميع التحذيرات والإنذارات السابقة فيقول تعالى: «إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ». إنكم مخيرون فى اختيار السبيل «فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا». ولا - فضيلة فى اتخاذ الطريق إلى الله بالإجبار والإكراه، بل الفضيلة أن يختار الإنسان السبيل بنفسه وبمحض إرادته.

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فِتْيَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَأُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠٠

مختصر الامثل ج ٥ ٣٣٢

فاقروا ما تيسر من القرآن: هذه الآية هي من أطول آيات هذه السورة وتشتمل على مسائل كثيرة، وهي مكملة لمحتوى الآيات السابقة، فيقول تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

الآية تشير إلى نفس الحكم الذى أمر به الرسول صلى الله عليه وآله فى صدر السورة من قيام الليل والصلاة فيه، وما اضيف فى هذه الآية هو اشتراك المؤمنين فى العبادة مع النبي صلى الله عليه وآله (بصيغة حكم استحبابى أو باحتمال حكم وجوبى)، لأن ظروف صدر الإسلام كانت تتجاوز مع بناء ذواتهم والاستعداد للتبليغ والدفاع عنه بالدروس العقائدية المقتبسة من القرآن المجيد، وكذا

بالعمل والأخلاق وقيام الليل، ولكن يستفاد من بعض الروايات أن المؤمنين كانوا قد وقعوا في إشكالات ضبط الوقت للمدة المذكورة (الثلث والنصف والثلثين) ولذا كانوا يحتاطون في ذلك، وكان ذلك يستدعى إستيقاظهم طول الليل والقيام حتى تتورم أقدامهم، ولذا بُنى هذا الحكم على التخفيف، فقال: «عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ». ثم يبين دليلاً آخرًا للتخفيف فيضيف تعالى: «عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَءَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وءَاخِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

وهذا تخفيف آخر كما قلنا في الحكم، ولذا يكرر قوله: «فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ».

والواضح أن المرض والأسفار والجهاد في سبيل الله ذكرت بعنوان ثلاثة أمثلة للأعذار الموجهة ولا تعنى الحصر، والمعنى هو أن الله يعلم أنكم سوف تلاقون كثيراً من المحن والمشاكل الحياتية، وبالتالي تؤدي إلى قطع المنهج الذي امرتم به، فلذا خفف عليكم الحكم.

إن وجوب القراءة في صدر الإسلام لوجود الظروف الخاصة لذلك، واعطى التخفيف بالنسبة للمقدار والحكم، وظهر الإستجاب بالنسبة للمقدار الميسر.

يستفاد من الروايات الإسلامية إن فضائل قراءة القرآن في حسن القراءة والتدبر والتفكير فيها. وفي تفسير مجمع البيان: روى عن الإمام الرضا عليه السلام عن أبيه عن جده صلى الله عليه وآله قال:

«ما تيسر منه لكم فيه خشوع القلب وصفاء السر».

ثم يشير إلى أربعة أحكام أخرى، وبهذه الطريقة يكمل البناء الروحي للإنسان فيقول:

«وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠١

والمراد من «الصلاة» هنا الصلوات الخمس المفروضة، والمراد من «الزكاة» الزكاة المفروضة، ومن إقراض الله تعالى هو إقراض الناس، وهذه من أعظم العبارات المتصورة في هذا الباب، فإن مالك الملك يستقرض بمن لا يملك لنفسه شيئاً، ليرغبهم بهذه الطريقة للإنفاق والإيتار واكتساب الفضائل منها ولتربى ويتكامل بهذه الطريقة.

وذكر «الإستغفار» في آخر هذه الأوامر يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى: وإيّاكم والغرور إذا ما أنجزتم هذه الطاعات، وبأن تتصوروا بأن لكم حقاً على الله، بل اعتبروا أنفسكم مقصرين على الدوام واعتذروا لله.

«نهاية تفسير سورة المزمل»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠٣

٧٤. سورة المدثر

محتوى السورة: إن سورة العلق هي أول سورة نزلت في صدر البعثة، والمدثر هي السورة الأولى التي نزلت بعد الدعوة العلنية. فإن سياق السور المكية التي تشير إلى الدعوة وإلى المبدأ والمعاد ومقارعة الشرك وتهديد المخالفين وإنذارهم بالعذاب الإلهي واضح الوضوح في هذه السورة.

يدور البحث في هذه السورة حول سبعة محاور، وهي:

١- يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله بإعلان الدعوة العلنية، ويأمر أن ينذر المشركين، والتمسك بالصبر والإستقامة في هذا الطريق والإستعداد الكامل لخوض هذا الطريق.

٢- تشير إلى المعاد وأوصاف أهل النار الذين واجهوا القرآن بالتكذيب والإعراض عنه.

٣- الإشارة إلى بعض خصوصيات النار مع إنذار الكافرين.

٤- التأكيد على المعاد بالأقسام المكررة.

٥- إرتباط عاقبة الإنسان بعمله، ونفى كل أنواع التفكير غير المنطقي في هذا الإطار.

٦- الإشارة إلى قسم من خصوصيات أهل النار وأهل الجنة وعواقبهما.

٧- كيفية فرار الجهلة والمغرورين من الحق.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠٤

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ في الفريضة سورة المدثر كان حقاً على الله أن يجعله مع محمد صلى الله عليه وآله في درجته، ولا يدركه في حياة الدنيا شقاء أبداً».

وبديهي أن هذه النتائج العظيمة لا تتحقق بمجرد قراءة الألفاظ فحسب، بل لابد من التمعن في معانيها وتطبيقها حرفياً.

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمُنْ بِتَشْتِكِرِ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نَقَرْنَا فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكِ يَوْمِئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرٌ يَسِيرٌ (١٠)

سبب النزول

إنّ نفر الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وآله وهم أبو جهل وأبو لهب وأبو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث وامية بن خلف والعاص بن وائل اجتمعوا وقالوا: إنّ وفود العرب يجتمعون في أيام الحج ويسألوننا عن أمر محمد، فكل واحد منا يجيب بجواب آخر، فواحد يقول مجنون، وآخر يقول كاهن، وآخر يقول شاعر، فالعرب يستدلون باختلاف الأجوبة على كون هذه الأجوبة باطلة، فتعالوا نجتمع على تسمية محمد باسم واحد، فقال واحد إنّه شاعر، فقال الوليد: سمعت كلام عبيد بن الأبرص وكلام امية بن أبي الصلت، وكلامه ما يشبه كلامهما، وقال آخر كاهن، قال الوليد ومن الكاهن؟ قالوا اللّذي يصدق تارة ويكذب اخرى، قال الوليد ما كذب محمد قط، فقال آخر إنّه مجنون، قال الوليد ومن يكون المجنون؟

قالوا مخيف الناس، فقال الوليد ما أخيف بمحمد أحد قط، ثم قام الوليد وانصرف إلى بيته، فقال الناس صبأ الوليد بن المغيرة، فدخل عليه أبو جهل، وقال ما لك يا أبا عبد الشمس؟

هذه قريش تجمع لك شيئاً، زعموا أنّك احتججت وصبأت، فقال الوليد: ما لي إليه حاجة ولكني فكرت في محمد، فقلت إنّه ساحر، لأنّ الساحر هو اللّذي يفرق بين الأب وابنه وبين الأخوين، وبين المرأة وزوجها، ثم إنهم اجتمعوا على تلقيب محمد صلى الله عليه وآله بهذا اللقب، ثم إنهم خرجوا فصرخوا بمكته والناس مجتمعون، فقالوا: إنّ محمداً لساحر، فوقعت الضجة في الناس أنّ محمداً ساحر، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك اشتد عليه، ورجع إلى بيته محزوناً فتدثر بثوبه،

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠٥

فأنزل الله تعالى «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ» (١).

التفسير

قم وانذر الناس: لا شك من أنّ المخاطب في هذه الآيات هو النبي صلى الله عليه وآله وإن لم يصرح باسمه، ولكن القرائن تشير إلى ذلك، فيقول أولاً: «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ». فلقد ولي زمن النوم والإسترخاء، وحين زمن النهوض والتبليغ.

ثم يعطى للنبي صلى الله عليه وآله خمسة أوامر مهمة بعد الدعوة إلى القيام والإنذار، تعتبر منهاجاً يحتذى به الآخرون، والأمر الأوّل هو في التوحيد، فيقول: «وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ».

ذكر كلمة (رب) وتقديمها على (كبر) الذي هو يدل على الحصر، فليس المراد من جملة «فكبر» هو (الله أكبر) فقط، مع أنّ هذا القول

هو من مصاديق التكبير كما ورد في الروايات، بل المراد منه أنسب ربيك إلى الكبرياء والعظمة اعتقاداً وعملاً، قولاً فعلاً وهو تنزيهه تعالى من كل نقص وعيب، ووصفه بأوصاف الجمال، بل هو أكبر من أن يوصف، ولذا ورد في الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في معنى الله أكبر: «الله أكبر من أن يوصف».

ثم صدر الأمر الثاني بعد مسألة التوحيد، ويدور حول الطهارة من الدنس فيضيف:

«وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ». التعبير بالثوب قد يكون كناية عن عمل الإنسان، لأنَّ عمل الإنسان بمنزلة لباسه، وظاهره مبين لباطنه.

ويمكن أن يكون المعنى هو اللباس الظاهر، لأنَّ نظافة اللباس دليل على حسن التريئة والثقافة، خصوصاً في عصر الجاهلية حيث كان الإجتنا من النجاسة قليلاً وإنَّ ملابسهم وسخة غالباً، وكان الشائع عندهم تطويل أطراف الملابس بحيث كان يسحل على الأرض، وما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في معنى أنه: «ثيابك فقصر» (٢)، ناظر إلى هذا المعنى.

والحقيقة أنَّ الآية تشير إلى أنَّ القادة الإلهيين يمكنهم إبلاغ الرسالة عند طهارة جوانبهم من الأدران وسلامتهم تقواهم، ولذا يستتبع أمر إبلاغ الرسالة والقيام بها أمر آخر، هو النقاء والطهارة.

ويبين تعالى الأمر الثالث بقوله: «وَالرَّجَزَ فَاهْجُرْ».

(١) التفسير الكبير ٣٠ / ١٨٩.

(٢) تفسير مجمع البيان ١٠ / ١٧٥. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠٦.

والأصل أنَّ معنى «الرجز» يطلق على الإضطراب والتزلزل، وفي القرآن الكريم غالباً ما استعمل لفظ «الرجز» بمعنى العذاب.

فإنَّ للآية مفهوماً جامعاً، وهو الإنحراف والعمل السيء، وتشمل الأعمال التي لا ترضى الله عزَّ وجل، والباعثة على سخط الله في الدنيا والآخرة، ومن المؤكَّد أنَّ النبي صلى الله عليه وآله قد هجر واتقى ذلك حتى قبل البعثة، وقد جاء هذا الأمر هنا ليكون العنوان الأساس في مسير الدعوة إلى الله، وليكون للناس اسوة حسنة.

ويقول تعالى في الأمر الرابع: «وَلَا تَمُنَّ بِتَشْتَكِيهِ».

هنا المتعلق محذوف أيضاً، ويدل على سعة المفهوم وكليته، ويشمل المنية على الله والخلايق، أي فلا تمنن على الله بسعيك واجتهادك.

وبعبارة أخرى: لا تمنن على الله بقيامك بالإنذار ودعوتك إلى التوحيد وتعظيمك لله وتطهيرك ثيابك وهجرك الرجز، ولا تستعظم كل ذلك، بل أعلم أنه لو قدمت خدمته للناس سواءً في الجوانب المعنوية كالإرشاد والهداية، أم في الجوانب المادية كالإنفاق والعتاء فلا ينبغي أن تقدمها مقابل منية، أو توقع عوض أكبر ممَّا أعطيت، لأنَّ المنية تحبط الأعمال الصالحة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى (١)».

ويشير في الآية الأخرى إلى الأمر الأخير في هذا المجال فيقول: «وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ».

أي: اصبر في طريق أداء الرسالة، واصبر على أذى المشركين الجهلاء، واستقم في طريق عبودية الله وطاعته، واصبر في جهاد النفس وميدان الحرب مع الأعداء.

والمعروف أنَّ الصبر هو الثروة الحقيقية لطريق الإبلاغ والهداية.

ثم إنَّ الآيات الشريفة وفي تعقيب الأمر ورد في الآيات السابقة في إطار القيام وإنذار المشركين، تؤكد مرّة أخرى على الإنذار والتحذير، فيقول تعالى: «فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكِ يَوْمِ عَسِيرٍ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ».

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (١٢) وَبَيَّنَّ شُهُوداً (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (١٦) سَأَرْهَقُهُ صُعُوداً (١٧)

(١) سورة البقرة / ٢٦٤.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠٧

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت الآيات في الوليد بن المغيرة المخزومي، وذلك أن قريشاً اجتمعت في دارالندوة، فقال لهم الوليد: إنكم ذوو أحساب، وذوو أحلام، وإن العرب يأتونكم فينظلون من عندكم، على أمر مختلف. فاجمعوا أمركم على شيء واحد ما تقولون في هذا الرجل؟ قالوا: نقول إنه شاعر. فعبس عندها وقال: قد سمعنا الشعر فما يشبه قوله الشعر.

فقالوا: نقول إنه كاهن. قال: إذا تأتونه فلا تجدونه يحدث بما تحدث به الكهنة. قالوا: نقول إنه لمجنون. فقال: إذا تأتونه فلا تجدونه مجنوناً. قالوا: نقول إنه ساحر. قال: وما الساحر؟ فقالوا:

بشر يحبون بين المتباغضين ويبغضون بين المتحابين. قال: فهو ساحر، فخرجوا. فكان لا يلقى أحد منهم النبي صلى الله عليه وآله إلا قال: يا ساحر، يا ساحر. واشتد عليه ذلك فأنزل الله تعالى «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ» إلى قوله «إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ».

التفسير

الوليد بن المغيرة... الثرى المغرور: تواصل هذه الآيات انذار الكفار والمشركين كما في الآيات السابقة مع فارق، وهو أن الآيات السابقة كانت تنذر الكافرين بشكل عام، وهذه تنذر أفراداً معينين بتعايير قوية وبلغته بأشد الإنذارات، فيقول تعالى: «ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا». والآيات الآتية نزلت في الوليد بن المغيرة كما قلنا.

ثم يضيف تعالى: «وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا».

وقيل: إن أمواله بلغت حداً من الكثرة بحيث ملك الإبل والخيول والأراضي الشاسعة ما بين مكة والطائف، وقيل إنه يملك ضياع ومزارع دائمة الحصاد، وله مائة ألف دينار ذهب، وكل هذه المعاني تجتمع في كلمة «الممدود».

ثم أشار تعالى إلى قوته في قوله: «وَيَبِينُ شُھُودًا».

إذ كانوا يعينونه على حياته، وحضورهم انس وراحة له، إذ كان له عشرة بنين، كما في الروايات.

ثم يستطرد بذكر النعم التي وهبها له. يقول تعالى: «وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا».

ولم يهبه ما ينفع من المال والأولاد فحسب، بل أغدق عليه ما يريد من جاه وقوة.

«التمهيد»: من «المهد» وهو ما يستخدم لنوم الطفل، ويطلق على ما يتهيأ من وسائل الراحة والمقام وانتظام الامور.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠٨

ولكنه كفر بما أنعم الله عليه وهو بذلك يريد المزيد: «ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ». وليس هذا منحصراً بالوليد، بل إن عبيد الدنيا على هذه الشاكلة أيضاً، فلن يروى عطشهم مطلقاً، ولو أعطوا الأقاليم السبعة لما اكتفوا بذلك.

والآية الاخرى تردع الوليد بشدة، يقول تعالى: «كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا».

ومع أنه كان يعلم أن هذا القرآن ليس من كلام الجن أو الإنس، بل متجذر في الفطرة، وله جاذبية خاصة وأغصان مثمرة، فكان يعاند ويعتبر ذلك سحراً ومظهره ساحراً.

«العنيد»: من «العناد» وقيل هو المخالفة والعناد مع المعرفة، أي أنه يعلم بأحقية الشيء ثم يخالفه عناداً، والوليد مصداق واضح لهذا المعنى.

وأشار في آخر آية إلى مصيره المؤلم، فيقول تعالى: «سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا».

«سارقه»: من «الإرهاق» وهو غشيان الشيء بالعنف، وتعني أيضاً فرض العقوبات الصعبة، جاء بمعنى الإبتلاء بأنواع العذاب، والصعود،

إشارة إلى ما سيناله من سوء العذاب، ويستعمل في العمل الشاق.

ويحتمل أن يراد به العذاب الدنيوي للوليد بن المغيرة. قال مقاتل: ما زال الوليد بعد نزول الآية في نقص من ماله وولد حتى هلك «١». إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) «فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ»: في هذه الآيات توضيحات كثيرة عمن أعطاه الله المال والبنين وخالف بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله. أي الوليد بن المغيرة. يقول تعالى: «إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ».

«قَدَّرَ»: من التقدير، وهو التهيؤ لنظم أمر في الذهن والتصميم على تطبيقه.

ثم يضيف في مدمته: «فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ».

بعدئذ يؤكد ذلك فيضيف: «ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ». وهذا إشارة لما قيل في سبب النزول حيث كان يرى توحيد الأقوال فيما يقذف به الرسول صلى الله عليه وآله.

فإن تكرار المعنى في الآيتين دليل على دهاء الوليد في تفكره الشيطاني، ولذا كانت شدته تفكره سبباً للتعجب.

(١) تفسير المراغي ٢٩ / ١٣١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٠٩

بعدئذ يضيف الله تعالى: «ثُمَّ نَظَرَ». أي نظر بعد التفكير والتقدير نظره من يريد أن يقضى في أمر مهم ليطمئن من استحكامه وانسجامه: «ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ* ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ* فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ* إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ».

بهذه الأقوال يظهر عداؤه للقرآن المجيد، وذلك بعد تفكره الشيطاني، وبقوله هذا صار يمدح القرآن من حيث لا يدري، إذ أشار إلى جاذبية القرآن الخارقة وتسخيره للقلوب.

على كل حال هو إقرار ضمنى بإعجاز القرآن. وليس للقرآن أي علاقة وتشبيه بأعمال السحرة، فهو كلام رصين عميق المعاني وجذاب لا نظير له كما يقول الوليد، فإنه ليس من كلام البشر، وإن كان كذلك لكانوا قد أتوا بمثله، وهذا ما دعا إليه القرآن كراراً. سَأْضَلِيهِ سَقَرٌ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَاحٍ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) المصير المشؤوم: في هذه الآيات بيان للعقوبات المؤلمة لمن أنكر القرآن والرسالة، وكذب النبي صلى الله عليه وآله وهو ما أشارت إليه الآيات السابقة فيقول الله تعالى: «سَأْضَلِيهِ سَقَرٌ».

«سقر»: في الأصل من «سقر» على وزن فقر، بمعنى التغير والذوبان من أثر حرارة الشمس، هو من أحد أسماء جهنم، كثير ما ذكر في القرآن.

ثم يبين عظمه وشدته عذاب النار فيقول: «وَمَا أَدْرِيكَ مَا سَقَرٌ». أي إن العذاب يكون شديداً إلى حد يخرج عن دائرة التصور، ولا يخطر على بال أحد، كما هو الحال في عدم إدراك عظمه النعم الإلهية في الجنان.

«لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ». قد تكون هذه الآية إشارة إلى أن نار جهنم بخلاف نار الدنيا التي ربما تركت بعض ما ألقى فيها ولم تحرقه، وإذا نالت إنساناً مثلاً نالت جسمه وصفاته الجسمية وتبقى روحه وصفاته الروحية في أمان منها، وأما «سقر» فلا تدع أحداً ممن ألقى فيها إلّا نالته واحتوته بجميع وجوده، فهي نار شاملة تستوعب جميع من ألقى فيها.

ثم ينتقل إلى بيان وصف آخر للنار المحرقة فيضيف: «لَوَاحٍ لِّلْبَشَرِ».

إنها تجعل الوجه مظلماً أسود أشد سواداً من الليل.

«بشر»: جمع بشرة، وتعني الجلد الظاهر للجسد.

«لَوَاحٍ»: من مادة «لوح» وتعني أحياناً الظاهر، وأحياناً بمعنى التغير، ويكون المعنى

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١٠

بمقتضى التفسير الأول: (أنَّ جهنم ظاهرة للعيان). كما جاء في الآية (٣٦) من سورة النازعات: «وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى . وبمقتضى التفسير الثانى يكون المعنى: أنَّها تغير لون الجلود.

وفى آخر آية من آيات مورد البحث يقول تعالى: «عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشْرَ».

إنَّهم ليسوا مأمورين بالرحمة والشفقة، بل إنَّهم مأمورين بالعذاب والغلظة، وأمَّا الآية الاخرى التى تليها فإنَّها تشير إلى أنَّ هذا العدد هم ملائكة العذاب.

ومن هنا يتضح ضعف وعجز أفكار اناس من قبيل أبى جهل. فى تفسير مجمع البيان:

قالوا: ولما نزلت هذه الآية قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم امهاتكم أستمعون ابن أبى كبشة يخبركم أنَّ خزنة النار تسعة عشر وأنتم اللّهم الشجعان أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ فقال أبو الأسد الجمحى: أنا أكفيكم سبعة عشر: عشرة على ظهرى وسبعة على بطنى فاكفونى أنتم اثنين.

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَزْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ (٣١) لِمَ هذا العدد من أصحاب النار: ذكر الله سبحانه وتعالى كما قرأنا فى الآيات السابقة عدد خزنة جهنم ومأموريها وهم تسعة عشر نفراً (أو مجموعة)، وكذا قرأنا أنَّ ذكر هذا العدد صار سبباً للحديث بين أوساط المشركين والكفار، واتخذ بعضهم ذلك سخرية، وظنَّ القليل منهم أنَّ الغلبة على اولئك ليس أمراً صعباً، الآية أعلاه التى هى أطول آيات هذه السورة تجيب عليهم وتوضح حقائق كثيرة فى هذا الصدد. فيقول تعالى أولاً: «وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً» (١). ملائكة أقوياء مقتدرون وكما يعبر القرآن غلاظ، شداد، قساء، فى مقابل المذنبين بجمعهم الغفير وهم ضعفاء عاجزون.

(١) أصحاب النار: ذكرت هذه العبارة فى كثير من آيات القرآن وكلَّها تعنى الجهنميين، إلآفى هذا الموضع فإنَّها بمعنى خزنة جهنم، وذكر هذه العبارة يشير إلى أنَّ كلمة «سقر» فى الآيات السابقة تعنى جهنم بكاملها وليس قسماً خاصاً منها.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١١

ثم يضيف تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا».

وهذا الإختبار من وجهين:

الأول: لأنَّهم كانوا يستهزئون بالعدد تسعة عشر، ويتساءلون عن سبب اختيار هذا العدد، فى حين لو وضع عدد آخر لكانوا قد سألوا السؤال نفسه.

والوجه الثانى: أنَّهم كانوا يستقلون هذا العدد ويسخرون من ذلك بقولهم: لكل واحد منهم عشرة منّا، لتكسر شوكتهم.

فى حين أنَّ ملائكة الله وصفوا فى القرآن بأنَّ نفراً منهم يؤمرون بإهلاك قوم لوط عليه السلام ويقبلون عليهم مدينتهم.

ثم يضيف تعالى أيضاً: «لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ».

وسكوت هؤلاء اليهود وعدم اعتراضهم على هذا الجواب يدلُّ على أنَّه موافق لما هو مذكور فى كتبهم، وهذا مدعاة لإزدياد يقينهم بنبوَّة النبى صلى الله عليه وآله، وصار قبولهم هذا سبباً فى تمسك المؤمنين بإيمانهم وعقائدهم. لذا تضيف الآية فى الفقرة الاخرى: «وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا».

ثم تعود مباشرة بعد ذكر هذه الآية إلى التأكيد على تلك الأهداف الثلاثة، إذ يعتمد مجدداً على إيمان أهل الكتاب، ثم المؤمنين، ثم

على اختبار الكفار والمشركين، فيقول: «وَلَا يَزْتَابُ الَّذِينَ أَتَوْا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا».

عبارة: «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» أطلقت على جميع الكفار والمعاندين والمحاربين لآيات الحق.

ثم يضيف حول كيفية استفادة المؤمنين والكفار والذين في قلوبهم مرض من كلام الله تعالى؛ فيقول تعالى: «كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ».

إنّ الجمل السابقة تشير بوضوح إلى أنّ المشيئة والإرادة الإلهية لهداية البعض وازلال البعض الآخر ليس اعتباطاً، فإنّ المعاندين

والذين في قلوبهم مرض لا يستحقون إلاّ الضلال، والمؤمنون والمسلمون لأمر الله هم المستحقون للهدى

ويقول في نهاية الآية: «وَمَا يَغْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ».

فالحديث عن التسعة عشر من خزنة النار، ليس لتحديد ملائكة الله تعالى، بل إنّهم

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١٢

كثيرون جداً أنّ الروايات تصفهم أنّهم يملؤون السماوات والأرض. أوّل خطبة في نهج البلاغة للإمام على عليه السلام حول هذا

الموضوع حيث يقول: «ثم فتق ما بين السماوات العلاء فملاهنّ أطواراً من ملائكته، منهم سجود لا- يركعون، وركوع لا- ينتصبون،

وصافون لا يتزايلون، ومسبحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم العيون، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، ولا غفلة النسيان، ومنهم أمناء

على وحيه، وألسنة إلى رسله، ومختلفون بقضائه وأمره، ومنهم الحفظة لعباده والسدنة لأبواب جنانه، ومنهم الثابتة في الأرضين السفلى

أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم، ناكسة دونه أبصارهم،

متلفعون تحته بأجنحتهم، مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزة، وأستار القدرة، لا- يتوهمون ربهم بالتصوير ولا- يجرون عليه

صفات المصنوعين، ولا يحدونه بالأماكن، ولا يشيرون إليه بالنظائر».

كَلَّا وَالْقَمَرَ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَأِخْدَى الْكُبْرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ

يَتَأَخَّرَ (٣٧) استمراراً للبحث مع المنكرين لنبوّة الرسول صلى الله عليه وآله واليوم الآخر تؤكد الآيات التالية في أقسام عديدة على

مسألة القيامة والجحيم وعذابها، فيقول تعالى: «كَلَّا وَالْقَمَرَ».

وأقسم بالقمر لأنه إحدى الآيات الإلهية الكبرى، لما فيه من الخلقة والدوران المعظم والنور والجمال والتغيرات التدريجية الحاصلة فيه

لتعيين الأيام باعتباره تقوياً حياً كذلك.

ثم يضيف: «وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ». «وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ» (١).

والليل وإن كان باعثاً على الهدوء والظلام وعنده سرّ عشاق الليل، ولكن الليل المظلم يكون جميلاً عندما يدبر ويتجه العالم نحو الصبح

المضىء وآخر السحر، وطلوع الصبح المنهى لليل المظلم أصفى وأجمل من كل شيء حيث يثير في الإنسان النشاط ويجعله غارقاً في

النور والصفاء.

هذه الأقسام الثلاثة تتناسب ضمناً مع نور الهداية (القرآن) واستدبار الظلمات

(١) «أسفر»: من مادة «سفر» على وزن (قفر) ويعنى انجلاء الملابس وانكشاف الحجاب، ولذا يقال للنساء المتبرجات (سافرات) وهذا

التعبير يشمل تشبيهاً جميلاً لطلوع الشمس.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١٣

الصبح (التوحيد)، ثم ينتهي إلى تبيان ما أقسم من أجله فيقول تعالى: «إِنَّهَا لَأِخْدَى الْكُبْرِ».

ثم يضيف تعالى: «نَذِيرًا لِلْبَشَرِ». لينذر الجميع ويحذرهم من العذاب الموحش الذي ينتظر الكفار والمذنبين وأعداء الحق.

وفى النهاية يؤكد مضيفاً أن هذا العذاب لا يخص جماعة دون جماعة، بل: «لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ». فهنيئاً لمن يتقدم، وتعساً وترحاً لمن يتأخر.

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ (٤٧) فَمَا تَتَّعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) لِمَ صرتم من أصحاب الجحيم: إكمالاً للبحث الذى ورد حول النار وأهلها فى الآيات السابقة، يضيف تعالى فى هذه الآيات: «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ».

«رهينة»: من مادة «رهن» وهى وثيقة تعطى عادةً مقابل القرض، وكأن نفس الإنسان محبوسة حتى تؤدى وظائفها وتكليفها، فإن أدت ما عليها فكت وأطلقت، وإلا فهى باقية رهينة ومحبوسة دائماً. لذا يضيف مباشرة: «إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ».

إنهم حطموا أغلال وسلاسل الحبس بشعاع الإيمان والعمل الصالح ويدخلون الجنة بدون حساب.

وأصحاب اليمين هم الذين يحملون كتبهم بيمينهم، فهم ذوو إيمان وعمل صالح، وإذا كانت لهم ذنوب صغيرة فإنها تمحى بالحسنات وذلك بحكم: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» (١).

فحينئذ تغطى حسناتهم سيئاتهم أو يدخلون الجنة بلا حساب، وإذا وقفوا للحساب فسيخفف عليهم ذلك ويسهل، كما جاء فى الآية (٧) و (٨) من سورة الإنشقاق: «فَأَمَّا مَنْ

(١) سورة هود/ ١١٤.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١٤

أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا».

فى تفسير القرطبي: قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «نحن وشيعتنا أصحاب اليمين، وكل من أبغضنا أهل البيت فهم المرتنون». ثم يضيف مبيناً جانباً من أصحاب اليمين والجماعة المقابلة لهم: «فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ».

يستفاد من هذه الآيات أن الرابطة غير منقطعة بين أهل الجنان وأهل النار، فيمكنهم مشاهدة أحوال أهل النار والتحدث معهم، ولكن ماذا سيجيب المجرمون عن سؤال أصحاب اليمين؟ إنهم يعترفون بأربع خطايا كبيرة كانوا قد ارتكبوها:

الاولى: «قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ». لو كنا مصليين لذكرنا الصلاة بالله تعالى، ونهتينا عن الفحشاء والمنكر ودعتنا إلى صراط الله المستقيم.

والثانية: «وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ». وهذه الجملة وإن كانت تعطى معنى إطعام المحتاجين، ولكن الظاهر أنه يراد بها المساعدة والإعانة الضرورية للمحتاجين عموماً بما ترتفع بها حوائجهم كالمأكل والملبس والمسكن وغير ذلك.

وصرح المفسرون أن المراد بها الزكاة المفروضة، لأن ترك الإنفاق المستحب لا يكون سبباً فى دخول النار.

والثالثة: «وَكَُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ». «نخوض»: من مادة «خوض» على وزن (حوض)، وتعنى فى الأصل الغور والحركة فى الماء، ويطلق على الدخول والتلوث بالامور، والقرآن غالباً ما يستعمل هذه اللفظة فى الإشتغال بالباطل والغور فيه.

(الخوض فى الباطل) له معان واسعة فهو يشمل الدخول فى المجالس التى تتعرض فيها آيات الله للإستهزاء أو ما تروج فيها البدع، أو المزاح الوقح، أو التحدث عن المحارم المرتكبة بعنوان الإفتخار والتلذذ بذكرها، وكذلك المشاركة فى مجالس الغيبة والإتهام واللهو واللعب وأمثال ذلك، ولكن المعنى الذى انصرفت إليه الآية هو الخوض فى مجالس الإستهزاء بالدين والمقدسات وتضعيفها وترويج الكفر والشرك.

وأخيراً يضيف: «وَكَُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ».

من الواضح أن إنكار المعاد ويوم الحساب والجزاء ينزل جميع القيم الإلهية والأخلاقية، ويشجع الإنسان على ارتكاب المحارم. على كل حال فإن ما يستفاد من هذه الآيات أن

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١٥

الكفار هم مكلفون بفروع الدين، كما هم مكلفون بالاصول، وكذلك تشير إلى أن الأركان الأربعة، أى الصلاة والزكاة وترك مجالس أهل الباطل، والإيمان بالقيامة لها الأثر البالغ فى تربيته وهداية الإنسان، وبهذا لا يمكن أن يكون الجحيم مكاناً للمصلين الواقعيين، والمؤتئين الزكاة، والتاركين الباطل والمؤمنين بالقيامة.

وفى الآية الأخيرة محل البحث إشارة إلى العاقبة السيئة لهذه الجماعة فيقول تعالى: «فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ». فلا تنفعهم شفاعته الأنبياء ورسول الله والائمة، ولا الملائكة والصدّيقين والشهداء والصالحين، ولأنها تحتاج إلى عوامل مساعده وهؤلاء أبادوا كل هذه العوامل، فالشفاعة كالماء الزلال الذى تسقى به النبتة الفتية، وبديهي إذا ماتت النبتة الفتية، لا يمكن للماء الزلال أن يحييها.

وهذه الآية تؤكد مرة أخرى مسألة الشفاعة وتنوع وتعدد الشفعاء عند الله، وهى جواب قاطع لمن ينكر الشفاعة، وكذلك تؤكد على أن للشفاعة شروطاً وأنها لا تعنى اعطاء الضوء الأخضر لإرتكاب الذنوب، بل هى عامل مساعد لتربيته الإنسان وايصاله على الأقل إلى مرحلة تكون له القابلية على التشفع، بحيث لا تنقطع وشائج العلاقة بينه وبين الله تعالى والأولياء.

فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَزَتْ مِنْ قَسِيْرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صِيْحْفًا مُنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ (٥٦) يفرون من الحق كما نفر الحمر من الأسد: تتابع هذه الآيات ما ورد فى الآيات السابقة من البحث حول مصير المجرمين وأهل النار، وتعكس أوضح تصوير فى خوف هذه الجماعة المعاندة ورعبها من سماع حديث الحق والحقيقة. فيقول الله تعالى أولاً: «فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ». «كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ» فَزَتْ مِنْ قَسِيْرَةٍ».

«حمر»: جمع (حمار) والمراد هنا الحمار الوحشى.

«قسورة»: من مادة «قسر» أى القهر والغلبة، وهى أحد أسماء الأسد.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١٦

فإن هذه الآية تعبير بالغ عن خوف المشركين وفرارهم من الآيات القرآنية المربية للروح، فشبهم بالحمار الوحشى لأنهم عديمو العقل والشعور، وكذلك لتوحشهم من كل شىء، فى حين أنه ليس مقابلهم سوى التذكرة.

«بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صِيْحْفًا مُنَشَّرَةً». وذلك لتكبرهم وغرورهم الفارغ بحيث يتوقعون من الله تعالى أن ينزل على كل واحد منهم كتاباً.

وهذا نظير ما جاء فى الآية (٩٣) من سورة الإسراء: «وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ».

ولذا يضيف فى الآية الاخرى: «كَلَّا». ليس كما يقولون ويزعمون، فإن طلب نزول مثل هذا الكتاب وغيره هى من الحجج الواهية، والحقيقة: «بَلْ لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ».

والحق يقال إن الإيمان بعالم البعث والجزاء وعذاب القيامة يهب للإنسان شخصية جديدة يمكنه أن يغير إنساناً متكبراً ومغروراً وظالماً إلى إنسان مؤمن متواضع ومتقٍ عادل.

ثم يؤكد القرآن على أن ما يفكرون به فيما يخص القرآن هو تفكر خاطيء: «كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ» فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ».

وفى الوقت نفسه لا يمكن ذلك إلا بتوفيق من الله وبمشيئته تعالى: «وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ». يعنى أن الإنسان لا يمكنه الحصول على طريق الهداية إلا بالتوسل بالله تعالى وطلب الموقية منه.

وفى النهاية يقول: «هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ». فهو أهل لأن يخافوا من عقابه وأن يتقوا فى اتخاذهم شريكاً له تعالى شأنه، وأن

يأملوا مغفرته، وفي الحقيقة، أن هذه الآية إشارة إلى الخوف والرجاء والعذاب والمغفرة الإلهية، وهي تليح لما جاء في الآية السابقة. وهناك احتمالاً آخر، وهو أن تؤخذ التقوى بمعناها الفاعلي، أي أن الله أهل للتقوى من كل أنواع الظلم والقبح ومن كل ما يخالف الحكمة، وما عند العباد من التقوى هو قبس ضعيف من ما عند الله. إن الآية قد بدأت بالإنذار والتكليف، وانتهت بالدعوة إلى التقوى والوعد بالمغفرة. «نهاية تفسير سورة المدثر»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١٧

٧٥. سورة القيامة

محتوى السورة: كما هو واضح من اسم السورة فإن مباحثها تدور حول مسائل ترتبط بالمعاد ويوم القيامة إلبعض الآيات التي تتحدث حول القرآن والمكذبين، وأما الآيات المرتبطة بيوم القيامة فإنها تجتمع في أربعة محاور:

- ١- المسائل المرتبطة بأشراط الساعة.
 - ٢- المسائل المتعلقة بأحوال الصالحين والظالمين في ذلك اليوم.
 - ٣- المسائل المتعلقة باللحظات العسيرة للموت والانتقال إلى العالم الآخر.
 - ٤- الأبحاث المتعلقة بالهدف من خلق الإنسان ورابطه ذلك بمسألة المعاد.
- فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة القيامة شهدت أنا وجبريل له يوم القيامة أنه كان مؤمناً بيوم القيامة، وجاء ووجهه مسفر على وجوه الخلائق يوم القيامة». وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من أذمن قراءة لا أقسم وكان يعمل بها، بعثها الله يوم القيامة معه في قبره، في أحسن صورة تبشر وتضحك في وجهه حتى يجوز الصراط والميزان». والجدير بالملاحظة أن ما كنا نستوحيه من الروايات الواردة في فضائل تلاوة السور القرآنية قد صرح بها الإمام هنا في هذه الرواية حيث يقول: «من أذمن قراءة لا أقسم وكان يعمل بها»، ولذا فإن كل ذلك هو مقدمة لتطبيق المضمون.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١٨

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامِيَةِ (٢) أَيْحَسْبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ (٦) قَسَمًا بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالنَّفْسِ اللَّوَّامِيَةِ: تبدأ هذه السورة بقسمين غزيرين بالمعاني، فيقول تعالى: «لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ* وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامِيَةِ».

وفي العلاقة والرابطه الموجودة بين القسمين؛ الحقيقة أن أحد دلائل وجود «المعاد» هو وجود «محكمة الوجدان» الموجودة في أعماق الإنسان، والتي تنشط وتسرع عند الإقدام لإنجاز عمل صالح، وبهذه الطريقة تثيب صاحبها وتكافئه، وعند ارتكاب الأعمال السيئة والرديلة فإنها سوف تقوم بتقريع صاحبها وتأثبه وتعذبه إلى حد أنه قد يقدم على الانتحار للتخلص مما يمر فيه من عذاب الضمير. عندما يكون (العالم الصغير) أي وجود الإنسان محكمة في قلبه، فكيف يمكن للعالم الكبير أن لا يملك محكمة عدل عظمى فمن هنا نفهم وجود البعث والقيامة بواسطة وجود الضمير الأخلاقي، ومن هنا تتضح الرابطة الظرفية بين القسمين. وبعبارة أخرى: فإن القسم الثاني هو دليل على القسم الأول.

ثم يستفهم تعالى في الآية الأخرى للتوبيخ فيضيف: «أَيْحَسْبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ* بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ».

ويمكن أن يكون ذلك إشارة لطيفة إلى الخطوط الموجودة في أطراف الأصابع والتي نادراً ما تتساوى هذه الخطوط عند شخصين. وفي الآية الأخرى إشارة إلى أحد العلل الحقيقة لإنكار المعاد فيقول: «بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ». إنهم يريدون أن يكذبوا بالبعث

وينكروا المعاد، ليتسنى لهم الظلم وارتكاب المحارم والتتصل عن المسؤولية أمام الخلق.

ثم يضيف بعد ذلك: «يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

أجل، إنه يستفهم مستكراً عن وقوع يوم القيامة ويهرب مما كلف به لكي يفسح لنفسه طريق الفجور أمامه.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣١٩

بحث

محكمة الضمير أو القيامة الصغرى نستفيد من آيات القرآن المجيد أن للنفس الإنسانية ثلاث مراحل:

١- النفس الأمارة: وهي النفس العاصية التي تدعو الإنسان إلى الرذائل والقبايح باستمرار، وتزين له الشهوات.

٢- النفس اللوامة: وهي ما اشير إليها في الآيات التي ورد البحث فيها، وهي نفس يقطه وواعية نسبياً، فهي تنزل أحياناً لعدم حصولها

على حصانة كافية مقابل الذنوب، وتقع في شبك الآثام إلا أنها تستيقظ بعد فترة لتتوب وترجع إلى مسير السعادة.

وهذا هو ما يذكرونه تحت عنوان (الضمير الأخلاقي) ويكون هذا قوياً جداً عند بعض الأفراد، وضعيفاً وعاجزاً عند آخرين، ولكن

النفس اللوامة لا تموت بكثرة الذنوب عند أي إنسان.

٣- النفس المطمئنة: وهي النفس المتكاملة المنتهية إلى مرحلة الإطمئنان والطاعة والمنتهية إلى مقام التقوى والإحساس بالمسؤولية

وليس من السهل انحرافها.

إن النفس اللوامة هي كالقيامة الصغرى في داخل الروح والتي تقوم بمحاسبة الإنسان، ولذا تحس أحياناً بالهدوء والإستقرار بعد القيام

بالأعمال الصالحة وتمتلىء بالسرور والفرح والنشاط.

هذه المحكمة الداخلية العجيبة لها شبه عجيب بمحكمة القيامة.

أ) إن القاضي والشاهد والمنفذ للأحكام واحد، كما في يوم القيامة: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ» (١).

ب) إن هذه المحكمة ترفض كل توصية ورشوة وواسطة، كما هو الحال في محكمة يوم القيامة، فيقول تعالى: «وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي

نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» (٢).

ج) إن محكمة الضمير تحقق وتدقق في الملفات المهمة بأقصر مدّة وتصدر الحكم بأسرع وقت، وهذا هو ما نقرأه أيضاً في محكمة

البعث: «وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَأَمْعَقَبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» (٣).

(١) سورة الزمر / ٤٦.

(٢) سورة البقرة / ٢٤٨.

(٣) سورة الرعد / ٤١. مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢٠

د) مجازاتها وعقوباتها ليست كعقوبات المحاكم الرسمية العالمية، فإن شرر النيران تتقد في الوهله الاولى في أعماق القلب والروح، ثم

تسرى إلى الخارج، فتعذب روح الإنسان أولاً، ثم تظهر آثارها في الجسم وملامح الوجه وطبيعته النوم والأكل، فيعبر تعالى عن ذلك

في قوله:

«نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ* الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ» (١).

ه) عدم إحتياج هذه المحكمة إلى شهود، بل إن المعلومات التي يعطيها الإنسان المتهم بنفسه والذي يكون شاهداً على نفسه هي التي

تقبل منه، نفعه كانت له أم ضاره؛ كما تشهد ذرات وجود الإنسان حتى يداه وجلده على أعماله في محكمة البعث، فيقول تعالى:

«حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ» (٢).

وهذا التشبيه العجيب بين المحكمتين دليل آخر على فطرية الاعتقاد بالمعاد، لأنه كيف يمكن أن يكون في الإنسان الذي يعتبر قطرة

صغيرة في محيط الوجود العظيم هكذا حساب ومحاكم مليئة بالرموز والأسرار في حين لا- يوجد حساب ومحاكم في هذا العالم الكبير؟ فهذا ما لا يصدق.

فَإِذَا بَرِقَ الْبَصِيرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ (١٠) كَلَّا لَأَوْزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥) أنهت الآيات السابقة بسؤال كان قد وجهه المنكرون للبعث يوم القيامة، وهو يوم القيامة متى يأتي ذلك اليوم؟ وهذه الآيات هي التي تجيب عن هذه السؤال.

فتشير أولاً إلى الحوادث السابقة للبعث، أي إلى التحول العظيم وإنعدام القوانين في الأنظمة الكونية فيقول تعالى: «فَإِذَا بَرِقَ الْبَصِيرُ». بمعنى اضطراب العين ودورانها من شدة الخوف والرعب: «وَحَسَفَ الْقَمَرُ* وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ». وفي ما يراد بالجمع بين الشمس والقمر، فيحتمل أن ينجذب القمر تدريجياً بواسطة الشمس باتجاهها ثم اجتماعهما معاً بعد ذلك، وينتهي بالتالي ضياؤهما.

(١) سورة الهزلة / ٦ و ٧.

(٢) سورة فصلت / ٢٠.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢١

فيقول تعالى في سورة التكوير: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ». أي إذا أظلمت الشمس، ونعلم أن ضوء القمر من الشمس، وعندما يزول نور الشمس يزول بذلك نور القمر، وبالتالي تدخل الكرة الأرضية في ظلام دامس وعمته مرعبة. وبهذه الطريقة والتحول العظيم ينتهي العالم، ثم يبدأ بعث البشرية بتحول عظيم آخر (بنفخة الصور الثانية والتي تعتبر نفخة الحياة)، فيقول الإنسان في ذلك اليوم: «يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ». أجل، الكفرة والمذنبون الذين كذبوا بيوم الدين يبحثون عن ملجأ في ذلك اليوم لشدة خجلهم، ويطلبون سبل الفرار لثقل خطاياهم وخوفهم من العذاب.

ولكن سرعان ما يقال لهم: «كَلَّا لَأَوْزَرَ» (١).

فلا ملجأ إلّا إلى الله تعالى: «إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ».

عندئذ يضيف في إدامه هذا الحديث: «يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ».

والمراد من هاتين العبارتين هو ما قدم من الأعمال في حياته، أو الآثار الباقية منه بعد موته، مما ترك بين الناس من السنن الصالحة والسيئة والتي يعملون ويسيرونها بها ووصول حسناتها وسيئاتها إليه، أو الكتب والمؤلفات والأبنية القائمة على الخير والشر، والأولاد الصالحين والطلحين التي تصل آثارهم إليه.

في تفسير على بن إبراهيم: في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله «يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ» قال: «بما قدم من خير وشر وما أخر مما سن من سنة ليستن بها من بعده فإن كان شراً كان عليه مثل وزرهم، ولا ينقص من وزرهم شيء، وإن كان خيراً كان له مثل اجورهم، ولا ينقص من اجورهم شيء».

ثم يضيف في الآية الاخرى ويقول: إن الله وملائكته يطلعون العباد على أعمالهم، وإن كان لا يحتاج إلى ذلك، لأن نفسه وأعضاءه هم الشهود عليه في ذلك اليوم، فيقول تعالى: «بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ* وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ».

سياق هذه الآيات هو نفس سياق الآيات التي تشير إلى شهادة الأعضاء على أعمال الإنسان، كآية (٢٠) من سورة فصلت، حيث يقول الله تعالى: «شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

(١) «وزر»: تعنى فى الأصل الملاجىء الجبلية وأمثالها، وتعنى فى هذه الآية كل نوع من الملجأ والمخبا.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢٢

وعلى هذا فإن أفضل شاهد على الإنسان فى تلك المحكمه الإلهية للقيامه هو نفسه، لأنه أعرف بنفسه من غيره. «معاذير»: جمع (معدرة) وتعنى فى الأصل البحث عما تمحى به آثار الذنوب، وقد تكون أحياناً أعماراً واقعية، واخرى صورية وظاهرية. إن الآيات مفهومها واسع، ولذا فإنها تشمل عالم الدنيا، وتعلم الناس بأحوال أنفسهم وإنه كان فيهم من يكتتم ويغضى وجهه الحقيقى بالكذب والإحتيال والتظاهر والمراء.

لما تُحَرِّكَ بِهٖ لِسَانَكَ لِتُعْجَلَ بِهٖ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتَهُ (١٩) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ: هذه الآيات بمثابة الجملة الاعتراضية التى تتداخل أحياناً فى كلام المتحدث، حيث يترك الله تعالى الحديث عن القيامه وأحوال المؤمنين والكفرة مؤقتاً، ليعطى تذكرة مختصرة للنبي صلى الله عليه وآله حول القرآن فيقول: «لَا تُحَرِّكَ بِهٖ لِسَانَكَ لِتُعْجَلَ بِهٖ». فى تفسير هذه الآية نقل عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله كان إذا نزل عليه الوحي ليقراً عليه القرآن، تعجل بقراءته ليحفظه وذلك لحبه الشديد للقرآن، فنهاه الله عن ذلك وقال: «إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتَهُ».

ثم يضيف: «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ».

وبالتالى لا تعلق على جمع القرآن، نحن نجمعه ونتلوه عليك بواسطة الوحي.

ثم يقول تعالى: «فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ». ثم يضيف: «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتَهُ».

فيكون جمع القرآن وقراءته لك وتبينه وتفصيل معانيه بعهدتنا، فلا تعلق على شىء، فالذى أنزل الوحي هو الذى يحفظه.

وهذه الآيات تبين ضمناً أصله القرآن، وحفظه من أى تغيير وتحريف، لأن الله تعالى تعهد بجمعه وقراءته وتبينه.

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٍ (٢٤) تَطَّئُونَ أَنفُسَهُنَّ يَوْمَئِذٍ بِمَا كَانُوا عَلَىٰهَا يَفْتَرُونَ (٢٥) ترجع هذه الآيات مرّة اخرى لتكمل البحوث المتعلقة بالمعاد، وخصوصيات اخرى من

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢٣

القيامه، وكذلك تبين علل إنكار المعاد فيقول تعالى: «كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ». فليس الأمر كما يتصور من أن دلائل المعاد خفية ولا يمكنكم الاطلاع عليها، بل إنكم عشقتم الدنيا. ولهذا السبب تركتم الآخرة: «وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ».

إن الشك فى قدرة الله تعالى وجمع العظام وهى رميم ليس هو الدافع لإنكار المعاد، بل إن حبكم الشديد للدنيا والشهوات والميول المغرية هى التى تدفعكم إلى رفع الموانع عن طريق ملذاتكم، وبما أن المعاد والشريعة الإلهية توجد موانع وحدوداً كثيرة على هذا الطريق، لذا تتمسكون بإنكار أصل الموضوع، وتتركون الآخرة بتمامها.

وهاتان الآيتان تؤكدان ما ورد فى الآيات السابقة والتى قال فيها تعالى شأنه: «بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ». وقال أيضاً: «يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

ثم ينتهى إلى تبيان أحوال المؤمنين الصالحين والكفار المسيئين فى ذلك اليوم، فيقول تعالى: «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ».

«ناصره»: من مادة «نصره» وتعنى البهجة الخاصة التى يحصل عليها الإنسان عند وفور النعمة والرفاه، ووفورها يلازم السرور والجمال والنورانية.

هذا من ناحية العطايا المادية، وأما عن العطايا الروحية فيقول تعالى: «إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ». نظرة بعين القلب وعن طريق شهود الباطن، نظرة تجذبهم إلى الذات الفريدة وإلى ذلك الكمال والجمال المطلقين، وتبهيم اللذة الروحانية والحال الذى لا يوصف.

فى صحيح مسلم عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إذا دخل أهل الجنة، الجنة قال الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً

أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟

قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل».

وفي النقطة المقابلة لهذه الجماعة المؤمنة، هناك جماعة تكون وجوههم مقطبة. «وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ».

فعندما ينظر الكافرون إلى علامات العذاب وصحائف أعمالهم الخالية من الحسنات والمملوءة بالسيئات، يصيبهم الندم والحسرة والحزن ويعبسون وجوههم لذلك. «تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ».

إن هذا التعبير كناية للعقوبات الثقيلة والتي تنتظر هذه الجماعة في جهنم، لكن إن الجماعة السابقة منتظرون لرحمة الله تعالى ومستعدون للقاء المحبوب. هؤلاء لهم أسوأ العذاب.

وأولئك لهم أسمى النعم الجسمانية والمواهب واللذات الروحانية.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢٤

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالتَّفْتِ السَّاقِ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) إتماماً للأبحاث المرتبطة بالعالم الآخر ومصير المؤمنين والكفار يأتي الحديث في هذه الآيات عن لحظة الموت المؤلمة والتي تعتبر باباً إلى العالم الآخر فيقول تعالى: «كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ». أي كلاً إنّه لا يؤمن حتى تصل روحه التراقي.

هو ذلك اليوم الذي تنفتح فيه عينه البرزخية، وتزال عنها الحجب، ويرى فيها علامات العذاب والجزاء، ويوقف على أعماله، ففي تلك اللحظة يقرّ بالإيمان ولكن إيمانه لا ينفعه ولا يفيد حاله أبداً.

«تراقى»: جمع «ترقوة»، وهي العظام المكتنفة للنحر عن يمين وشمال، وبلوغ الروح إلى التراقي كناية عن اللحظات الأخيرة من عمر الإنسان.

وفي هذه الفترة يسعى أهله وأصدقائه مستعجلين قلقين لانقاذه. يقول تعالى: «وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ». أي هل هناك من منقذ يأتي لإنقاذ هذا المريض؟

ويقولون هذا الحديث عن وجه العجز واليأس، والحال أنهم يعلمون أنه قد فات الآوان ولا ينفع معه طبيب.

«راق»: من مادة «رقي» على وزن (نهي) و (رقيه) على وزن (خفيه) وهو الصعود، ولفظة (رقيه) تطلق على الأوراد والأدعية التي تبعث على نجاه المريض.

وفي الآية التالية إشارة إلى اليأس الكامل للمحتضر فيقول تعالى: «وَوَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ».

أي: في هذه الحالة يصاب باليأس من الحياة واليقين بالفراق. ثم: «وَالْتَفَتِ السَّاقِ بِالسَّاقِ».

وهذا الالتفات إمّا لشدة الأذى لخروج الروح، أو لتوقف عمل اليدين والرجلين وتعطيل الروح منها.

ثم يقول تعالى في آخر آية من آيات البحث: «إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ». أجل، إلى الله تعالى المرجع حيث يحضر الخلائق عند محكمة العدل الإلهية، وهكذا ينتهي المطاف إليه، وهذه الآية أيضاً تأكيد على مسألة المعاد والبعث الشامل للعباد، ويمكن أن تكون إشارة إلى الحركة التكاملية للخلائق وهي متجهة نحو الذات المقدسة واللامتناهية.

لحظة الموت المؤلمة: يستفاد من القرآن أن لحظة الموت لحظة صعبة ومؤلمة، والمستفاد

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢٥

من الروايات أن هذه اللحظة سهلة على المؤمنين، وصعبة ومؤلمة على فاقدي الإيمان.

في عيون أخبار الرضا عليه السلام عن موسى بن جعفر عليه السلام قال: «قيل للصادق عليه السلام: صف لنا الموت. فقال: للمؤمن كأطيب ريح يشمه فينعس لطيبه وينقطع التعب والألم كله عنه، وللكافر كلسع الأفاعي ولدغ العقارب أو أشد».

فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٥)

أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكْ نُطْفَئَهُ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠) استمراراً للبحوث المتعلقة (بالموت) الذي يعتبر الخطوة الأولى في السفر إلى الآخرة يتحدث القرآن في هذه الآيات عن خواء أيدي الكفار من الزاد لهذا السفر. فيقول أولاً:

«فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى . أَى إِنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ الْمُنْكَرَ لِلْمَعَادِ لَمْ يَأْمَنْ إِطْلَاقًا وَلَمْ يَصَدَّقْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَلَمْ يَصَلِّ لَهُ .

وقال تعالى: «وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى .

المراد من جملة «فَلَا صَدَقَ» عدم التصديق بالقيامة والحساب والجزاء والآيات الإلهية والتوحيد ونبوة النبي صلى الله عليه وآله. ويضيف تعالى في الآية الأخرى: «ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى .

إنه يظن بعدم اهتمامه للنبي صلى الله عليه وآله وتكذيبه إياه وللآيات الإلهية قد حقق نصراً باهراً، إنه كان ثملاً من خمرة الغرور، واتجه إلى أهله لينقل لهم كالعادة ما كان قد حدث وليفتخر بما صدر منه، وكان سيره وحركته تشيران إلى الكبر والغرور.

«يتمطى : من مادة «مطأ» وأصله الظهر، و (تمطى مد الظهر عن غرور ولا مبالاة، أو عن كسل، والمراد هنا هو المعنى الأول.

ثم يخاطب القرآن أفراداً كهؤلاء ويهددهم فيقول تعالى: «أُولَى لَكَ فَأُولَى ثُمَّ أُولَى لَكَ فَأُولَى .

في المجمع: وجاء الرواية أن رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ بيد أبي جهل ثم قال له: «أولى لك فأولى

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢٦

ثم أولى لك فأولى . فقال أبو جهل: بأى شيء تهددنى لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلابى شيئاً، وإنى أعز أهل هذا الوادى، فأنزل الله سبحانه كما قال له رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثم ينتهى القرآن في هذا البحث إلى استدلالين لطيفين حول المعاد وأحدهما عن طريق (الحكمة الإلهية وهدف الخلق)، والآخر عن طريق بيان قدرة الله في تحول وتكامل نطفة الإنسان في المراحل المختلفة لعالم الجنين، فيقول تعالى عن المرحلة الأولى: «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى». «سدى : على وزن (هدى وهو المهمل الذى لا هدف له.

والمراد من (الإنسان) فى هذه الآية هو المنكر للمعاد والبعث، فيكون معنى الآية: كيف يخلق الله هذا العالم العظيم للإنسان ولا يكون له هدف ما؟ كيف يمكن ذلك والحال أن كل عضو من أعضاء الإنسان خلق لهدف خاص. ولكن يحسب أن لا هدف فى خلق كل ذلك.

ثم إنتهى إلى تبيان الدليل الثانى، فيضيف تعالى: «أَلَمْ يَكْ نُطْفَئَهُ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى . وبعد هذه المرحلة واستقرار المنى فى الرحم يتحول إلى قطعة متخثرة من الدم، وهى العلقه، ثم إن الله تعالى يخلقها بشكل جديد ومتناسب وموزون: «ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . ولم يتوقف على ذلك: «فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى .

أليس من يخلق النطفة الصغيرة القدره فى ظلمة رحم الام ويجعله خلقاً جديداً كل يوم، ويلبسه من الحياة لباساً جديداً ويهبه شكلاً مستحدثاً ليكون بعد ذلك إنساناً كاملاً ذكراً أو أنثى ثم يولد من أمه، بقادر على إعادته: «أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى . وهذا البيان فى الواقع هو لمن ينكر المعاد الجسمانى ويعده محالاً، وينفى العوده إلى الحياة بعد الموت والدفن، ولإثبات ذلك أخذ القرآن بيد الإنسان ليرجعه إلى التفكير ببداية خلقه، والمراحل العجيبة للجنين ليريه تطورات هذه المراحل، وليعلم أن الله قادر على كل شىء.

«نهاية تفسير سورة القيامة»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢٧

محتوى السورة: يمكن تقسيم مباحث السورة إلى خمسة أقسام:

- ١- يتحدث عن إيجاد الإنسان وخلق من نطفة أمشاج (مختلطة)، وكذلك عن هدايته وحرية إرادته.
- ٢- يدور الحديث فيه عن جزاء الأبرار والصالحين، وسبب النزول الخاص بأهل البيت عليهم السلام.
- ٣- تكرار الحديث عن دلائل استحقاق الصالحين لذلك الثواب في عبارات مؤثرة.
- ٤- يشير إلى أهمية القرآن وسبيل إجراء أحكامه ومنهج تربية النفس الشاق.
- ٥- جاء الحديث فيه عن حاكمية المشيئة الإلهية (مع حاكمية الإنسان).

ولهذه السورة أسماء عديدة؛ أشهرها: (الإنسان) و (الدهر) و (هل أتى)، وهذه الكلمات وردت في أوائل السورة، وإن كانت الروايات الواردة في فضيلتها والتي سوف يأتي ذكرها، قد ذكرت اسم (هل أتى لهذه السورة. فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة هل أتى كان جزاؤه على الله جنّة وحريراً».

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «من قرأ سورة هل أتى في كل غداة خميس زوجته الله من الحور العين مائة عذراء وأربعة آلاف ثيب وكان مع محمد صلى الله عليه وآله».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢٨

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكَورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤) تتحدث الآيات الأولى عن خلق الإنسان بالرغم من أن أكثر بحوث هذه السورة هي حول القيامة ونعم الجنان، فتحدثت في البدء عن خلق الإنسان، لأن التوجه والإلتفات إلى هذا الخلق يهيب الأرضية للتوجه إلى القيامة والبعث كما شرحنا ذلك سابقاً في تفسير سورة القيامة. فيقول تعالى: «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكَورًا».

والمراد من الإنسان هنا هو نوع الإنسان، ويشمل بذلك عموم البشر.

ثم يأتي خلق الإنسان بعد هذه المرحلة، واعتبار ذكره، فيقول تعالى: «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا». ولعل ذكر خلق الإنسان من النطفة المختلطة إشارة إلى اختلاط ماء الذكور والإناث، وقد اشير إلى ذلك في روايات المعصومين عليهم السلام بصورة إجمالية؛ أو أنها إشارة إلى القابليات المختلفة الموجودة داخل النطفة من ناحية العوامل الوراثية عن طريق الجينات؛ أو أنها إشارة إلى اختلاط المواد التركيبية المختلفة للنطفة، لأنها تتركب من عشرات المواد المختلفة، أو اختلاط جميع ذلك مع بعضها البعض، والمعنى الأخير أجمع وأوجه.

«نبتليه»: إشارة إلى وصول الإنسان إلى مقام التكليف والتعهد وتحمل المسؤولية والاختبار والإمتحان.

وبما أن الاختبار والتكليف لا يتم إلا بعد الحصول على المعرفة والعلم فقد أشار في آخر الآية إلى وسائل المعرفة، العين والاذن التي أودعها سبحانه وتعالى في الإنسان وسخرها له.

إن اختبار الإنسان بحاجة إلى عاملين آخرين، هما: «الهداية» و «الاختبار» بالإضافة إلى المعرفة ووسائلها، فقد أشارت الآية التالية إلى ذلك: «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا». إن للهداية هنا معنى واسعاً، فهي تشمل «الهداية التكوينية» و «الهداية الفطرية» وكذلك «الهداية التشريعية» وإن كان سياق الآية يؤكد على الهداية التشريعية.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٢٩

وأشارت الآية الأخيرة من آيات البحث إلى الذين سلكوا طريق الكفر والكفران فتقول:

«إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا».

«سلاسل»: جمع (سلسلة)، وهي القيد الذي يقاد به المجرم؛ و «الأغلال»: جمع (غل)، وهي الحلقة التي توضع حول العنق أو اليدين وبعد ذلك يُقفل بالقيد.

إن ذكر الأغلال والسلاسل ولهيب النيران المحرقة تبيان للعقوبات التي يعاقب بها المجرمون، وهو ما اشير إليه في كثير من آيات القرآن ويشمل ذلك العذاب والذل.

إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُيُوبًا قَمَطِرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١)

سبب النزول

البرهان العظيم على فضيلة أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله: قال ابن عباس: إن الحسن والحسين مرضا فعادهما الرسول صلى الله عليه وآله في ناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك، فندر على وفاطمة وفضة جارية لهما إن برئا مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيا وما كان معهم شيء، فاستقرض على عليه السلام من شمعون الخبيري اليهودي ثلاث أصواع من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم، فوضعها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل، فقال: السلام عليكم، أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة، فأثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فأثروه، ووقف عليهم أسير في الثالثة عند الغروب، ففعلوا مثل ذلك، فلما أصبحوا أخذ على بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع، قال: «ما أشد ما يسوؤني ما أرى بكم». وقام فانطلق معهم، فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها بطنها، وغارت عيناها، فسأه ذلك، فنزل جبرئيل وقال: خذها يا محمد، هنأك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣٠

وقيل: إن الذي نزل من الآيات يبدأ من: «إِنَّ الْأَبْرَارَ» حتى «كَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا» ومجموعها (١٨) آية.

ما أوردنا هو نص الحديث الذي جاء في كتاب «الغدير» بشيء من الإختصار كقدر مشترك وهذا الحديث من بين أحاديث كثيرة نقلت في هذا الباب، وذكر في الغدير أن الرواية المذكورة قد نقلت عن طريق (٣٤) عالماً من علماء أهل السنة المشهورين. وعلى هذا، فإن الرواية مشهورة، بل متواترة عند أهل السنة (١).

واتفق علماء الشيعة على أن السورة أو ثمان عشرة آية من السورة قد نزلت في حق علي وفاطمة عليهما السلام، وأوردوا هذه الرواية في كتبهم العديدة واعتبروها من مفاخر الروايات الحاكية عن فضائل أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

التفسير

جزاء الأبرار العظيم: أشارت الآيات السابقة إلى العقوبات التي تنتظر الكافرين بعد تقسيمهم إلى جماعتين وهي «الشكور» و «الكفور»، والآيات في هذا المقطع تتحدث المكافآت التي أنعم الله بها على الأبرار وتذكر بأمور ظريفة في هذا الباب. فيقول تعالى: «إِنَّ الْأَبْرَارَ يُشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا».

«الأبرار»: جمع (بر) وأصله الإتساع، واطلق البر على الصحراء لاتساع مساحتها، وتطلق هذه المفردة على الصالحين الذين تكون نتائج أعمالهم واسعة في المجتمع.

«كافور»: له معان متعددة في اللغة، وأحد معانيها المعروفة الرائحة الطيبة كالنبته الطيبة الرائحة.

فإن الآية تشير إلى أن هذا الشراب الطهور معطر جداً فيلتذ به الإنسان من حيث الذوق والشم.

ثم يشير إلى العين التي يملؤون منها كؤوسهم من الشراب الطهور فيقول: «عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا».

هذه العين من الشراب الطهور وضعها الله تعالى تحت تصرفهم، فهي تجرى أينما شاءوا، والظريف هو ما نقل - في أمالي الصدوق - عن أبي جعفر الباقر عليه السلام إذ قال في وصفها: «هي

(١) نقلت هذه الرواية في كتاب الغدير ٣/ ١٠٧ - ١١١؛ وفي كتاب إحقاق الحق ٣/ ١٥٧ - ١٧١ عن (٣٦) نفر من علماء أهل السنة مع ذكر المأخذ.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣١

عين في دار النبي تفجر إلى دور الأنبياء والمؤمنين».

نعم، فكما تتفجر عيون العلم والرحمة من بيت النبي صلى الله عليه وآله وتجرى إلى قلوب عباد الله الصالحين، كذلك في الآخرة حيث التجسم العظيم لهذا المعنى تتفجر عين الشراب الطهور الإلهي من بيت الوحي، وتنحدر فروعها، إلى بيوت المؤمنين! ثم تتناول الآيات الاخرى ذكر أعمال «الأبرار» و «عباد الله» مع ذكر خمسة صفات توضح سبب استحقاقهم لكل هذه النعم الفريدة فيقول تعالى: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا».

جملة (يوفون) و (يخافون) والجمل التي تليها جاءت بصيغة الفعل المضارع وهذا يشير إلى استمراره وديمومه منهجهم.

وخوفهم من شر ذلك اليوم، وآثار هذا الإيمان ظاهرة في أعمالهم بصورة كاملة.

ثم يتناول الصفة الثالثة لهم فيقول: «وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مَشَكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا».

لم يكن مجرد اطعام، بل اطعام مقرون بالإيتار العظيم عند الحاجة الماسية للغذاء، ومن جهة اخرى فهو إطعام في دائرة واسعة حيث يشمل أصناف المحتاجين من المسكين واليتيم والأسير، ولهذا كانت رحمتهم عامة وخدمتهم واسعة.

فإن ما يستفاد من الآية أن أفضل الأعمال إطعام المحرومين والمعوزين، ولا يقتصر على اطعام الفقراء من المسلمين فحسب بل يشمل حتى الأسرى المشركين أيضاً وقد اعتبر إطعامهم من الخصال الحميدة للأبرار.

والخصلة الرابعة للأبرار هي الإخلاص، فيقول: «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَنُرِيدَ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا».

إن هذا المنهج ليس منحصراً بالإطعام، إذ إن جميع أعمالهم خالصة لوجه الله تعالى، ولا يتوقعون من الناس شكراً وتقديراً. وأساساً فإن قيمة العمل في الإسلام بخلوص النية وإلا فإن العمل إذا كان بدوافع غير الهية، فليس لذلك ثمن معنوي وإلهي.

ويقول في الوصف الأخير للأبرار: «إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا». (أى الشديد) من المحتمل أن يكون هذا الحديث لسان حال الأبرار، أو قولهم بألسنتهم.

وجاء التعبير عن يوم القيامة بالعبوس والشديد للإستعارة، إذ أنها تستعمل في وصف

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣٢

الإنسان الذي يقبض وجهه وشكله ليؤكد على هول ذلك اليوم، أى أن حوادث ذلك اليوم تكون شديدة إلى درجة أن الإنسان لا يكون فيه عبوساً فحسب، بل حتى ذلك اليوم يكون عبوساً أيضاً. وأشارت الآية الأخيرة في هذا البحث إلى النتيجة الإجمالية للأعمال الصالحة والنيات الطاهرة للأبرار فيقول: «فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا».

«نضرة»: بمعنى البهجة وحسن اللون والسرور الخاص الذي يظهر عند وفور النعمة والرفاه على الإنسان. وبما أنهم كانوا يحسون بالمسؤولية ويخافون من ذلك اليوم الرهيب، فإن الله تعالى سوف يعوضهم بالسرور وبالبهجة.

وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَخَرِيرًا (١٢) مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلُّلاً (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا (١٥) قَوَارِيرٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيَسْقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَدَانٍ مَزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا (١٩) وَإِذَا

رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُوسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢) مكافئات الجنان العظيمة: بعد الإشارة الإجمالية في الآيات السابقة إلى نجات الأبرار من العذاب الأليم يوم القيامة، ووصولهم إلى لقاء المحبوب والغرق بالسرور والبهجة، تتناول هذه الآيات شرح هذه المواهب الإلهية في الجنان، وعددها في هذه على الأقل خمسة عشرة نعمه، فتحدث في البدء عن المسكن والملبس فتقول: «وَجَزَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا».

وليس فقط في هذه الآية، بل صرح بهذه الحقيقة في آيات أخرى من القرآن، وهو أن مكافآت القيامة إنما تعطى للإنسان لصبره (صبر في الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر عند المصائب). فوجد سلام الملائكة لأهل الجنان في الآية (٢٤) من سورة الرعد: «سَلِّمُ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ».

مختصر الامثل ج ٥ ص ٣٦٩

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣٣

ثم يضيف سبحانه في الآية التالية: «مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا».

ولا يعنى هذا انعدام الشمس والقمر في الجنان، بل بسبب ظلال أشجار الجنان لا تكون أشعة الشمس مؤذية.

«زمهرير»: من مادة «زمهر» وهو البرد الشديد، أو شدة الغضب أو احمرار العين من أثر الغضب، والمراد هنا هو المعنى الأول.

«أرائك»: جمع «أريكه»، وتطلق في الأصل على الأسرة التي توضع في غرفة العروس، والمراد هنا الأسرة الجميلة والفاخرة.

عن ابن عباس: بينا أهل الجنة في الجنة إذ رأوا ضوءاً كضوء الشمس، وقد أشرقت الجنان به فيقول أهل الجنة يا رضوان ما هذا؟ وقد قال ربنا «لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا»، فيقول لهم رضوان: ليس هذا بشمس، ولا قمر، ولكن على وفاطمة ضحكا، فأشرقت الجنان من نور ثغريهما (١).

وتضيف الآية الأخرى متممة لهذه النعم: «وَدَائِنِيَّ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلُّلاً».

ليست هنا من مشكلة لقطف الثمار، ولا شوكة لتدخل في اليد، ولا تحتاج ذلك إلى مشقة أو حركة.

ثم توضح الآية الأخرى كيفية استضافته أصحاب الجنان، وأدوات الضيافة، والمستقبلين لهم، فيقول: «وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأَنِيَّةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا» قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا».

تحتوي هذه الآية على أنواع الأغذية والأشربة المتعددة الأصناف واللذيذة والباعثة على النشاط، بالقدر الذي يشاؤون ويحبونه، والولدان المخلدون يطوفون عليهم ليعرضوا عليهم الآنية والأكواب المليئة بما وعدهم الله بها.

ثم يضيف تعالى: «وَيُشْفَوْنَ فِيهَا كَأَسَا كَانَ مَرَاجُهَا زَنْجَبِيلًا».

صرح الكثير من المفسرين بأن عرب الجاهلية كانوا يتلذذون بالشراب الممزوج بالزنجبيل، لأنه كان يعطى قوة خاصة للشراب.

(١) روح المعاني ١٥٩/٢٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣٤

ويتحدث القرآن هنا عن الشراب الطهور الممزوج بالزنجبيل، ومن البديهي أن الفرق بين هذا الشراب وذلك الشراب كالفرق بين الدنيا والآخرة.

ثم يضيف تعالى: «عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا».

«سلسيلا»: هو الشراب الهنيء واللذيذ جداً الذي ينحدر بسهولة في الحلق.

ثم يتحدث عن المستقبلين في هذا الحفل البهيج المقام بجوار الله في النعيم الأعلى فيقول تعالى: «وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ وَلُدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا

رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا».

إنهم مخلدون في الجنان، وطراوة شبابهم ونشاطهم خالد أيضاً، وكذا استقبالهم للأبرار، لأن عبارة (مخلدون) وعبارة (يطوف عليهم) من جهة أخرى تبيان لهذه الحقيقة.

«لؤلؤاً منثوراً»: يراد به الإشارة إلى جمالهم وصفائهم وإشراق وجوههم وكذلك حضورهم في كل مكان من المحفل الإلهي والروحاني.

وبما أن من المحال وصف النعم والمواهب للعالم الآخر مهما بلغ الكلام من البيان والبلاغة، ولذا يقول تعالى في الآية الاخرى كلاماً مطلقاً: «وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا».

إلى هنا اشير إلى قسم من نعم الجنان، وحن الآن دور زينه أهل الجنان فيقول تعالى:

«عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ».

«سندس»: ثوب رقيق من الحرير؛ و «الإستبرق»: ثوب غليظ من الحرير.

ثم أضاف تعالى: «وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ».

وهي الفضة الشفافة اللامعة كالبلور وأجمل من الياقوت والدر واللؤلؤ.

«اساور»: جمع «أسورة» وهي بدورها جمع (سوار) على وزن (غبار)، أو «سوار» على وزن (حوار) وأخذ في الأصل من الكلمة الفارسية، (دستوار) وعند انتقالها إلى العربية تغيرت واختصرت وجاءت بصورة (سوار).

ثم يقول تعالى في نهاية الآية مشيراً إلى آخر نعمة وأهمها من سلسلة النعم: «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا».

في المجمع عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «يظهرهم عن كل شيء سوى الله».

وفي روضة الكافي روى عن النبي صلى الله عليه وآله حول عين مطهرة مزكية المستقرة على باب الجنة، قال: «فيسقون منها شربة فيطهر الله بها قلوبهم من الحسد، ويسقط من أبقارهم الشعر وذلك قول الله عز وجل: «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا»».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣٥

وفي آخر آية من آيات البحث يتحدث حديثاً أخيراً في هذا الإطار فيقول: إنه يقال لهم من قبل رب العزة بأن هذه النعم العظيمة ما هي إلا جزاء أعمالكم في الدنيا: «إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا». لثلاث تصور أحد أن هذا الجزاء وهذه المواهب العظيمة تعطى من دون مقابل، إن كل ذلك جزاء السعي والعمل، وثمره الرياضات وجهاد النفس وبناء الذات وترك المعاصي.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤) وَادْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْكُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦) خمسة مبادئ مهمة في تنفيذ حكم الله: شرعت السورة منذ البداية وحتى هذه الآية في تبيان خلق الإنسان ثم المعاد والبعث، وفي هذه الآيات مورد البحث يتوجه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وآله باصدار أوامر مؤكدة لهداية الناس والصبر والثبات في هذا الطريق، وفي الواقع إن هذه الآيات تشير إلى أن نيل كل تلك النعم والمواهب الاخروية لا يتم إلا بالتمسك بالقرآن وإتباع النبي واطاعة أوامره. يقول في البدء: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا».

ثم يأمر النبي صلى الله عليه وآله بأمر خمسة، أولها الدعوة إلى الصبر والإستقامة فيقول: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ». أي لا تخف من المشاكل ومن موانع الطريق وكثرة الأعداء وعنادهم واستقم في سيرك على الصراط المستقيم.

والأمر الثاني الموجه للنبي صلى الله عليه وآله هو تحذيره من أي توافق مع المنحرفين، فيقول تعالى:

«وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا».

في الحقيقة أن هذا الحكم هو تأكيد ثان على الحكم الأول، لأن جموع الأعداء كانوا يسعون بطرق مختلفة للتوافق مع النبي وجزه إلى طريق الباطل، كما نقل أن عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة قالا لرسول الله: إن تركت دعوتك، فإننا سنغنيك حتى ترضى، ونزوّجك

أجمل بنات العرب، وعروض اخرى من هذا القبيل، فما كان على الرسول صلى الله عليه وآله هنا باعتباره المرشد الحقيقي والعظيم إلّا أن يقف أمام هذه الوسوس الشيطانية والتهديدات التي صدرت منهم بعد ذلك، ولا يستسلم للترغيب أو الترهيب.

ولكن بما أنّ الصبر والإستقامة في مقابل هذه المشكلات العظيمة ليس بالأمر اليسير،

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣٦

كان من الضروري لسلوك هذا الطريق التّرد بنوعين من الزاد، لذا يضيف القرآن في الآية الاخرى: «وَأذْكَرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا». أى فى كل صباح ومساءً. ويقول تعالى أيضاً: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا». لتتوفر لديك فى ظل ذلك الذكر وهذا السجود والتسبيح قوّة كافية وقدرة معنوية لمواجهة مشاكل هذا الطريق.

فإنّ هاتين الآيتين تأكيداً لضرورة التوجه الدائم والمستمر لذات الله المقدسة.

ويجب هنا الإلتفات إلى أنّ الأوامر الخمسة المذكورة فى الآيات أعلاه وإن ذكرت بصورة منهج للنبي صلى الله عليه وآله، فهى فى الحقيقة دستوراً يحتذى به كل من يخطو فى مسير قيادة المجتمع البشرى، إنهم يجب أن يعلموا بعد الإيمان الكامل بأهدافهم ورسالتهم بضرورة احترام الصبر والإستقامة، وأن لا يستوحشوا من كثرة مشاكل الطريق، لأنّ هداية المجتمع من المشاكل العظيمة.

وفى المرحلة الاخرى يجب الثبات التام أمام الوسوس الشيطانية والتي تعتبر مصداقاً للآثم والكفور، والثبات أمام سعيهم فى حرف القادة والأئمة بأنواع الحيل والمكائد، وأن لا ينخدعوا بالتطميع ولا يتأثروا بالتهديد، ويذكروا الله تعالى فى كل المراحل لاكتساب القدرة الروحية وقوّة الإرادة والعزم الراسخ، والاستمداد من العبادات الليلية، والمناجات مع الله، فإذا ما روعيت هذه الامور فالنصر حتمى، وحتى لو عرضت مصيبة أو هزيمة فإنّه يمكن إصلاحها من خلال هذه الاصول، ومنهج الرسول صلى الله عليه وآله وسلوكه فى دعوته نموذج مؤثر لجميع السالكين فى هذا الطريق.

إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١) تحذير مع بيان السبيل: رأينا فى الآيات السابقة تحذيراً للنبي صلى الله عليه وآله لكى لا يقع تحت تأثير كل آثم أو كفور من المجرمين. الآيات اعلاه عزّفت الأعداء بشكل أكثر وقالت: «إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣٧

لا تعدى افق أفكارهم دائرة الطعام والنوم والشهوة، وتمثل هذه اللذائذ المادية الرخيصة أسمى غاية لهم فى الحياة. والعجيب أنّهم قاسوا روح النبي العظيمة بهذا المقياس.

الآية التالية تحذّرهم من الاعتراض بقوّتهم وقدرتهم، إذ إنّ الله الذى أعطاهم إيّاها قادر على أن يستردها بسرعه متى شاء، فيقول تعالى: «نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا».

هنا يشير القرآن إلى نقطة حساسة، وهى جهاز الأعصاب الصغيرة والكبيرة التى تشدّ العضلات فيما بينها كالحبال الحديدية وترتبط بعضها ببعض الآخر، وحتى المفاصل والعضلات المختلفة وقطع العظام الصغيرة والكبيرة وأعضاء الإنسان بحيث يتكون من مجموع ذلك إنسان كامل الخلقه مهياً للقيام بأية فعالية، وعلى كل حال فهذه الجملة كناية عن القدرة والقوّة.

وتوضّح هذه الآية ضمناً استغناء ذات الله المقدسة، عنهم، وعن طاعتهم وإيمانهم، ليعلموا أنّ الإصرار على دعوتهم للإيمان فى الحقيقة هو من رحمة الله بهم.

ثم أشار تعالى إلى جميع البحوث الواردة فى هذه السورة والتي تشكل بمجموعها برنامجاً متكاملًا للحياة السعيدة، فيقول تعالى: «إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا».

إن علينا إيضاح الطريق، لا اجباركم على اختيار الطريق، وعليكم تمييز الحق من الباطل بما لديكم من العقل والإدراك، واتخاذ القرار بإرادتكم واختياركم، وهذا تأكيداً على ما جاء في صدر السورة في قوله: «إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا».

وقد يتوهم بعض السذج من العبارة أعلاه أنها تعنى التفويض المطلق للعباد، فجاءت الآية التالية لتنفى هذا التصور وتضيف: «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا».

وهذا في الحقيقة إثبات لأصل مشهور هو (الأمر بين الأمرين)، إذ يقول من جهة: «إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ». فعليكم أن تختاروا ما تريدون، ويضيف من جهة أخرى: «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ». أى ليس لكم الإستقلال الكامل، بل إن قدرتكم واستطاعتكم وحريةكم لا تخرج عن دائرة المشيئة الإلهية، وهو قادر على أن يسلب هذه القدرة والحرية متى شاء.

من هذا يتضح أنه لا جبر ولا تفويض فى الأوامر، بل إنها حقيقة دقيقة وظريفة بين

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣٨

الأمرين. أو عبارة أخرى: إنها نوع من الحرية المرتبطة بالمشيئة الإلهية، إذ يمكن سلبها متى يشاء ليتسنى للعباد تحمل ثقل المسؤولية الذى يعتبر رمزاً للتكامل من جهة، ومن جهة أخرى أن لا يتوهموا استغنائهم عن الله تعالى.

ولعل آخر الآية: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا». يشير حكمه إلى هذا المعنى، لأنَّ حكمه الله تستوجب إعطاء الحرية للعباد فى سلوك طريق التكامل، وإلما فإنَّ التكامل الإجبارى لا يعدُّ تكاملاً، بالإضافة إلى أنَّ حكمه الله لا تتفق مع فرض الأعمال الخيرة على اناس وفرض الأعمال الشريرة على اناس آخرين، ثم إنه يثيب الجماعة الاولى ويعاقب الثانية.

ثم تشير الآية الاخرى بعد ذلك إلى مصير الصالحين والطالحين، إذ تقول الآية: «يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

والظريف أن صدر الآية يقول: «يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ»، ويقول ذيلها:

«وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا»، وهذا يشير إلى أنَّ مشيئته تعالى يعقوبه الإنسان تتبع مشيئة الإنسان للظلم والمعاصى، وبقرينه المقابلة يتضح أنَّ مشيئته تعالى فى الرحمة تتبع إرادة الإنسان فى الإيمان والعمل الصالح وإقامة العدل، ولا يمكن أن يكون هذا الأمر إلأمن حكيم.

«نهاية تفسير سورة الإنسان»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٣٩

٧٧. سورة المرسلات

محتوى السورة: إن أكثر محتويات هذه السورة تدور حول المسائل المرتبطة بالقيامة وتهديد وإنذار المشركين والمنكرين، ومن خصائص هذه السورة تكرار الآية: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» عشر مرات بعد كل موضوع جديد، وتنبىء السورة بعد ذكر الأقسام عن القيامة والحوادث الصعبة للبعث، ثم تذكر عقب ذلك هذه الآية: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ».

وتتحدث السورة أولاً عن الوقائع المؤسفة للأقوام المذنبين الأوائل.

ثم تتحدث ثانياً عن جانب من خصوصيات خلق الإنسان.

وفى المرحلة الثالثة عن بعض المواهب الإلهية فى الأرض.

وفى الرابعة تشرح السورة جانباً من عذاب المكذبين، وفى كل من هذه المراحل إشارة إلى مواضيع موقظة ومحركة، ثم تأكيد تلك الآية بعد ذكر كل موضوع من هذه المواضيع، وحتى أنه أشار فى قسم من ذلك إلى نعم الجنان للمتقين ليمزج الإنذار بالبشارة والترهيب بالترغيب.

فإن هذا التكرار يذكر بتكرار بعض الآيات في سورة الرحمن باختلاف أن الكلام هناك يدور عن النعم، أما في هذه السورة فغالبًا ما تحدث عن عذاب المكذبين.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤٠

اختيار اسم (المرسلات) لهذه السورة، هو لتناسبه مع الآية الاولى لهذه السورة.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأها عَرَفَ الله بينه وبين محمد صلى الله عليه و آله».

لا شك أن الثواب والفضيلة تكون لمن يقرأها ويتفكر ويعمل بها.

في الخصال للصدوق عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله! أسرع إليك الشيب؟ قال صلى الله عليه و آله: «شيبتي هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون».

والملاحظ أن جميع هذه السور تعكس أحوال القيامة والمسائل المهولة لتلك المحكمة العظيمة، وهذه هي التي تركت أثراً في روح النبي المقدسة.

من البديهي أن القراءة بدون تدبر وتصميم على العمل لا يمكن أن تترك مثل هذا الأثر.

والمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَ النَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقْتَتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفُضَيْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفُضَيْلِ (١٤) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥) ذكرت في صدر السورة ابتداءً خمسة أقسام، وذلك في خمس آيات. وهناك كلام كثير في تفسير معانيها. يقول تعالى: «وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا» (١). أي قسمًا بالتي تُرسل تبعًا.

«فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا» التي تُسرع في حركتها كالعاصفة.

«وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا» ... التي توسع وتنشر ما وكلت به.

«فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا» ... التي تفرق وتفصل.

«فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا» التي تلقى بالآيات الموقظة والمذكّرة.

«عُذْرًا أَوْ نُذْرًا» إما لاتمام الحجّة أو للانذار.

القسم الأول والثاني ناظر إلى الرياح والأعاصير، والقسم الثالث والرابع والخامس

(١) «عرفًا»: بمعنى متتابعًا، وأصله بمعنى (عرف الفرس) المتساقط بعضها على البعض الآخر، وفُسر أحياناً بالعمل الحسن والمعروف.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤١

يتعلق بنشر آيات الحق بواسطة الملائكة، ثم فصل الحق عن الباطل، وبعد ذلك إلقاء الذكر والأوامر الإلهية على الأنبياء بقصد إتمام الحجّة والإنذار.

والآن لابد أن نرى الغرض من هذه الأيمان، الآية التالية ترفع الستار عن هذا المعنى، فتقول: «إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ».

إنّ البعث والنشور، والثواب والعقاب والحساب والجزاء كلّها حق لا ريب فيه.

ثم ينتهي إلى تبيان علامات ذلك اليوم الموعود، فيقول: إذا تحقق ذلك اليوم الموعود فإنّ النجوم سوف تنطفئ وتمحى «فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ». «وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ» أي انشقت.

«وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ». أي زالت وانقلعت من مكانها.

«طمست»: من مادة «طمس» وهو محو وزوال آثار الشيء؛ وهنا إشارة إلى محو نور النجوم.

«نسفت»: من مادة «نسف»- على وزن حذف- وفي الأصل، بمعنى وضع حبوب الغذاء في الغرابل وتحريكه لعزل القشور عن الحبوب، ويعنى هنا تفتيت الجبال ثم نسفها في الريح، ونستوحى من بعض آيات القرآن المجيد أن انقراض العالم يلازم وقوع حوادث مهولة بحيث يتلاشى نظام العالم بكامله، وحلول نظام الآخرة الجديد مكان ذلك النظام.

ثم أشار القرآن بعد ذلك إلى ما يجرى في البعث، فيضيف: وفي ذلك الوقت يتم تعيين وقت للأنبيا والرسل ليأتوا إلى ساحه المحشر ويدلوا بشهادتهم: «وَإِذَا الرُّسُلُ أُقْتَّتْ» (١).

وهو كقوله: «فَلَنَسَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ» (٢).

ثم يضيف تعالى: «لَأَيُّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ». أى لماذا تم تأخير هذه الشهادة ولأى وقت؟

ثم يقول: «لِيَوْمِ الْفُضْلِ». يوم فصل الحق عن الباطل، فصل صفوف المؤمنين عن الكافرين، والأبرار عن الأشرار، ويوم حكم الله المطلق على الجميع.

ثم يبين عظمه ذلك اليوم أيضاً، فيقول تعالى: «وَمَا أَدْرِيكَ مَا يَوْمُ الْفُضْلِ».

إن الرسول صلى الله عليه وآله بعلمه الواسع وبنظره الحاد الذى كان يرى من خلاله أسرار الغيب لم يكن مطلعاً بصورة كاملة على أبعاد عظمه ذلك اليوم، فكيف بسائر الناس.

(١) «أقَّتت» أصلها «وقَّتت» من مادة «وقت»، ويعنى توقيت الوقت لرسول الله تعالى.

(٢) سورة الأعراف / ٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤٢

وفى آخر آية من آيات بحثنا هدد الله تعالى المكذبين بيوم القيامة تهديداً شديداً وقال: «وَيْلٌ لِّيَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ».

«ويل»: قيل هو الهلاك، وقيل المراد به العذاب المتنوع، وقيل هو وادٍ فى جهنم ملئ بالعذاب؛ وتستخدم هذه الكلمة عادة فيما يخص الحوادث المؤسفة، وهنا تحكى الآية عن مصير المكذبين المؤلم فى ذلك اليوم. المراد بالمكذبين هنا هم المكذبون بيوم القيامة.

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ لِّيَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ لِّيَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيًا شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ لِّيَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) هذه الآيات أيضاً تحذّر وبطرق مختلفة المنكرين للبعث، وتوظفهم ببيانات مختلفة من نوم الغفلة العميق؛ فتأخذ بأيديهم أولاً إلى ما مضى من التاريخ لتريهم الأراضي المترامية الأطراف التى كانت ملكاً للأقوام السابقين، فيقول تعالى: «أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ».

إن آثارهم واضحة على صفحات البسيطة. وليس على صفحات التاريخ فحسب.

«ثُمَّ نُنَبِّئُهُمُ الْآخِرِينَ». لأنها سنه مستمره لا- تبعض فيها ولا- استثناء، وهل يمكن أن يعاقب جماعة لجرم ما، ويقبل ذلك الجرم من آخرين؟!

ولذا يضيف تعالى فى الآية الاخرى: «كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ».

هذه الآية هى بمنزلة بيان الدليل على هلاك الامم الاولى ويستتبعه هلاك الامم الاخرى، لأن العذاب الإلهي ليس فيه جانب الثأر ولا الإنتقام الشخصى. بل إنه تابع لأصل الإستحقاق ومقتضى الحكمة.

ثم يضيف مستتجاً: «وَيْلٌ لِّيَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ».

«يومئذ»: إشارة إلى يوم البعث الذي يعاقب فيه المكذبون بالعقوبات الشديدة، والتكرار هو لتأكيد المطلب.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤٣

ثم يمسك القرآن بأيديهم ليأخذهم إلى عالم الجنين ويربهم عظمة الله وقدرته وكثرة مواهبه في هذا العالم الملىء بالأسرار، ليفهموا قدرة الله تعالى على المعاد والبعث من جهة وأنهم غارقون في نعمه اللامتناهية من جهة أخرى، فيقول تعالى: «أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ». أى تافه وحقير: «فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ».

مقرّ فيه ضمان لجميع ظروف الحياة والتربية والنمو والمحافظة على نطفة الإنسان، فهو عجيب وظريف وموزون بحيث يثير إعجاب كل إنسان.

ثم يضيف تعالى: إن بقاء النطفة في ذلك المكان المكين والمحفوظ إنما هو لمدة معينة: «إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ».

مدة لا يعلمها إلا الله تعالى، مدة مملوءة بالتغيرات والتحويلات الكثيرة بحيث ترتدى النطفة في كل يوم لباساً جديداً من الحياة يؤدي به إلى التكامل في داخل ذلك المنخبأ.

ثم يستنتج من قدرته تعالى على خلق الإنسان الكامل والشريف من نطفة حقيرة بأن الله تعالى نعم القادر: «فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ». وهذا الدليل اعتمده القرآن مرات عديدة لإثبات مسألة المعاد منها قوله تعالى في أول سورة الحج: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لَّيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ذَلِكُمْ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

ثم يعود في النهاية ليكرر تلك الآية وهو قوله: «وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ». الويل لأولئك الذين يرون آثار قدرة الله تعالى ثم ينكرونها. ثم يقول تعالى: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا* أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا».

«كفات»: على وزن (كتاب)، و «كفت» على وزن (كشف) هو جمع وضم الشيء للآخر، ويقال أيضاً لسرعة طيران الطيور «كفات» لجمعه لأجنحته حال الطيران السريع حتى يتمكن من شق الهواء والتقدم أسرع.

والمراد هو أن الأرض مقر لجميع البشر، إذ تجمع الأحياء على ظهرها وتهيب لهم جميع ما يحتاجونه، وتضم أمواتهم في بطنها، فلو أن الأرض لم تكن مهيئة لدفن الأموات لسببت العفونة والأمراض الناتجة منها فاجعة لجميع الأحياء.

ثم يشير تعالى إلى إحدى النعم الإلهية العظيمة في الأرض، فيضيف: «وَجَعَلْنَا فِيهَا

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤٤

رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ» (١). هذه الجبال التي قاربت بارتفاعها السماء، واتصلت اصولها ببعض الآخر قد لزمت الأرض كالدرع من جهة لحفظها من الضغط الداخلي والضغط الناتجة من الجزر والمد الخارجي، ومن جهة أخرى تمنع اصطكاك الرياح مع الأرض حيث تمدد قبضتها في الهواء لتحركه حول نفسها وكذلك تنظم حركة الأعاصير والرياح من جهة ثالثة، ولهذا تكون الجبال باعثة على استقرار أهل الأرض.

وفي آخر الآية إشارة إلى إحدى البركات الأخرى للجبال فيضيف تعالى: «وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَّاءً فُرَاتًا». ماءً سائغاً وبعثاً للحياة، لكم ولحيواناتكم ولبساتينكم.

فإن كثيراً من العيون والقنوات هي من الجبال، ومصدر الأنهار العظيمة هو من الجليد المتراكم على قمم الجبال، حيث تعتبر من الذخائر المائية المهمة للإنسان.

ثم يقول في نهاية هذا القسم: «وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ».

اولئك الذين ينكرون كل هذه الآيات وعلامات قدرة الله التي يرونها بأعينهم، وكذلك يشاهدون النعم الإلهية التي غرقوا فيها، ثم ينكرون البعث ومحكمة القيامة التي هي مظهر العدل والحكمة الإلهية.

انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَزِمِي بِشَرِّهِ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيُلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيُلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفُضْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا (٣٩) وَيُلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَبَيَّنَ لِمَصِيرِ الْمُكَذِّبِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْمُنْكَرِينَ لَتِلْكَ الْمَحْكَمَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْعَادِلَةِ، تَبَيَّنَ يَدْخُلُ الرَّعْبَ وَالرَّهْبَةَ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ، وَيُوضِحُ أبعادَ الْفَاجِعَةِ. يَقُولُ تَعَالَى:

«انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ». انْطَلِقُوا إِلَى جَهَنَّمَ الَّتِي طَالَمَا كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ بِهَا، تَوَجَّهُوا

(١) «رواسي»: جمع راسية، وهي الثابتات؛ و «شامخات»: جمع شامخ، أي عال، وتأتي بعض العبارات كالكقول (شامخ بأنفه) كناية عن التكبر (مفردات الراغب).

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤٥

إلى أنواع العذاب التي هيتموها بأعمالكم السيئة.

ثم يعمد إلى مزيد من التوضيح حول هذا العذاب، فيقول سبحانه: «انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ». تَوَجَّهُوا نَحْوَ ظِلِّ مَنْ دَخَانَ خَانَقَ لَهُ ثَلَاثُ شُعَبٍ: شُعْبَةٌ مِنَ الْأَعْلَى، وَشُعْبَةٌ مِنَ الْجِهَةِ الْيَمْنَى، وَشُعْبَةٌ مِنَ الْجِهَةِ الْيُسْرَى، وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ فَإِنَّ دَخَانَ النَّارِ الْمَمِيَّتِ هَذَا يَحِيطُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَيَحَاصِرُهُمْ.

ثم يقول تعالى: «لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ». فليس في هذا الظل راحة، ولا يمنع من الإحترق بالنار لأنه نابع من النار. ثم يضيف وصفاً آخر لتلك النار المحرقة: «إِنَّهَا تَزِمِي بِشَرِّهِ كَالْقَصْرِ». ليس كشر نار هذه الدنيا التي لا تكون أحياناً إلا بمقدار رأس الإبرة.

ثم ينتهي في الآية الأخرى إلى وصف آخر من أوصاف هذه النار المحرقة، فيقول تعالى:

«كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ».

وإذا كان الشرر هكذا، فكيف بالنار المحرقة نفسها، وما جعل من العذاب الأليم في تلك النار؟!

ويعود مرة أخرى في آخر قسم من الآيات ليتبه بذلك التنبيه المكرر، فيقول: «وَيُلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ».

ثم يبدأ فضلاً آخر من علامات ذلك اليوم المهول، فيضيف تعالى: «هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ».

نعم، إن الله يختم في ذلك اليوم على أفواه المجرمين والمذنبين كقوله في الآية (٦٥) من سورة يس: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ».

ثم يضيف تعالى في القول: «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ». ليس لهم الرخصة في الكلام، ولا في الاعتذار والدفاع عن أنفسهم، لأن الحقائق واضحة هناك، وليس لديهم ما يقولوه، نعم يجب أن يعاقب هذا اللسان الذي أساء الاستفادة من الحرية وسعى في تكذيب الأنبياء، والإستهزاء بالأولياء، وإبطال الحق وإحقاق الباطل.. يجب أن يعاقب على أعماله بالإفقال والختم، لإبطال مفعوله، وهذا عذاب شديد وأليم بحد ذاته أن لا يتمكن الإنسان هناك من الدفاع عن نفسه أو الاعتذار.

في روضة الكافي عن حماد بن عثمان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول في قول الله تبارك

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤٦

وتعالى «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ»: «اللَّهُ أَجَلٌ وَأَعْدَلٌ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِعَبْدِهِ عَذْرٌ لَا يَدْعُهُ يَعْتَذِرُ بِهِ، لَكِنَّهُ فَلَاحٌ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَذْرٌ». ثم يكرر تعالى في نهاية هذا المقطع قوله: «وَيُلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ».

في المقطع الآخر يوجه الخطاب إلى المجرمين ليحكي عما يجري في ذلك اليوم فيقول تعالى: «هَذَا يَوْمُ الْفُضْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولِينَ». جمعنا في هذا اليوم جميع البشر من دون استثناء للحساب، وفصل الخصام في هذه العرصة والمحكمة العظمى.

ويقول: والآن إذا كان لكم قدرة على الفرار من العقاب فاعملوا ما بدا لكم: «فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا».

هل تستطيعون دفع الفدية لتحرروا؟

أو هل يمكنكم الهرب من دائرة نفوذ حكومتى؟

أو أن لكم القدرة على أن تخذعوا الملائكة الموكلين بكم وبحسابكم؟

اعملوا ما بدا لكم ولكن اعلّموا أنّكم لا تستطيعون!

ثم أنه تعالى أعاد تلك الجملة المهددة والمتبّهة مرّة أخرى، وقال: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ».

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

(٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ

(٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠) من المعلوم في منهج القرآن أنه يمزج الإنذار بالبشارة، والتهديد

بالتريغيب، وكذلك يذكر مصير المؤمنين في مقابل مصير المجرمين لفهم المسائل بصورة أكثر بقرينة المقابلة، وعلى أساس هذه السنته

المتبّعة في القرآن، فإنّ هذه الآيات وبعد بيان العقوبات المختلفة للمجرمين في القيامة، أشارت إلى وضع المتقين في ذلك اليوم

فيقول تعالى: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ». ثم يضيف: «وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ».

والظريف أنّهم في هذا المضيف الإلهي يستضافون بأحسن الوجوه، كما هو الحال في الآية

مختصر الامثال، ج ٥، ص: ٣٤٧

التالية إذ يقول لهم: «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

عبارة «بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» إشارة إلى أنّ هذه المواهب لا تعطى لأى كان من دون عمل، ولا يمكن حصولها بالإدعاء والتخيل والتصوّر،

وإنّما يمكن نيلها والحصول عليها بالأعمال الصالحة فقط.

«هنىء»: على وزن (صبيح) هو كل شيء ليس فيه مشقة ولا يستتبعه قلق.

وهذا إشارة إلى أنّ فواكه الجنة وأغذيتها وأشربتها ليست كأغذية الدنيا وأشربتها التي تترك أحياناً آثاراً سيئة في البدن، أو تترك

أعراضاً غير مرضية.

ثم تؤكد الآية الأخرى على مسألة النعم وأنّها لا تمنح اعتباراً فيضيف: «إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ».

وفي نهاية هذا المقطع يعيد تلك الآية: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ». الويل لمن يُحرّم من كل هذه النعم والألطاف، إذ إنّ عذاب حسرات

هذا الحرمان ليس بأقل من نيران الجحيم المحرقة!

وبما أنّ إحدى عوامل إنكار المعاد الإهتمام بلذات الدنيا الزائلة والميل إلى الحرية المطلقة للإنّتفاع بهذه اللذات، يتوجه بالحديث في

الآية التالية إلى المجرمين بلحن تهديدي فيقول:

كُلُوا وَتَمَتَّعُوا بِالْمِلذَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ القَلَاتِلِ، وَلَكِنْ اَعْلَمُوا أَنَّ الْعَذَابَ الْإِلَهِيَّ يَنْتَظِرُكُمْ، لِأَنَّكُمْ مُجْرِمُونَ: «كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا

إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ».

عبارة «إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ» تشير إلى أنّ مصدر العذاب الإلهي هو عمل الإنسان وذنبه، الناشئ من عدم الإيمان أو الأسر في قبضة

الشهوات.

ثم يكرر التهديد بجملة: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ». هم اولئك الذين غرّروا وخذعوا بزخارف الدنيا ولذاتها وشهواتها واشتروا عذاب

الله.

وأشار في الآية الأخرى إلى عامل آخر من عوامل الانحراف والتعاسة والتلوث، وقال:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ».

إنهم لم يأبوا الركوع والسجود فحسب، بل إن روح الغرور والكبر هذه كانت منعكسه على جميع أفكارهم وحياتهم، فما كانوا يسلّمون لله، ولا لأوامر النبي صلى الله عليه وآله، ولا يقرون بحقوق الناس، ولا يتواضعون لله تعالى وللناس. ثم يعيد هذه الآية للمرة العاشرة والأخيرة إذ يقول: «وَيْلٌ لِّمُكذِّبِينَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤٨

وفي آخر آية من آيات البحث- وهي آخر آية من السورة- يأتي السياق ممزوجاً بالعتاب ومليئاً بالملائمة، فجاءت الآية بصيغته الاستفهام التعجبي، إذ يقول (فَبِأَيِّ حَيْدِثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ). إن من لم يؤمن بالقرآن الذي لو انزل على الجبال لتصدعت وارتجفت، فسوف لن يسلم ولن يؤمن بأى كتاب سماوى، ولا يقبل بأى منطق عقلائى، وهذا يدل على روح العناد والتعصب.

«نهاية تفسير سورة المرسلات»
مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤٩

٧٨. سورة النبأ

محتوى السورة: تمتاز أغلب السور القرآنية في الجزء الأخير من القرآن بأنها نزلت في مكة، وتؤكد في مواضعها على مسألة: المبدأ، المعاد، البشارة والإنذار.

ويمكننا تلخيص محتوى السورة بما يلي:

- ١- السؤال عن «النبأ العظيم» وهو يوم القيامة كحدث بالغ الخطورة.
- ٢- الاستدلال على أمكانية المعاد والقيامة، من خلال الاستدلال بمظاهر القدرة الإلهية في: السماء، الأرض، الحياة الإنسانية والنعم الربانية.
- ٣- بيان بعض علامات بدء البعث.
- ٤- تصوير جوانب من عذاب الطغاة الأليم.
- ٥- التشويق للجنة، بوصف أجوائها الفياضة بالنعم.
- ٦- وتختتم السورة بالإنذار الشديد من عذاب قريب، بالإضافة لتصوير حال الذين كفروا. واشتق اسم السورة من الآية (٢)، ويطلق عليها أيضاً اسم سورة (عم) نسبة إلى أول كلمة وردت في السورة بعد البسملة. فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة عم يتسائلون سقاه الله برد الشراب يوم القيامة».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥٠

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ عم يتسائلون لم يخرج سنته إذا كان يدمنها في كل يوم حتى يزور البيت الحرام». عمّ يَسْأَلُونَ (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) خبر هام: تأتي الآية الاولى لتستفهم بتعجب: «عمّ يَسْأَلُونَ». ودون انتظار للجواب، تجيب الآية الثانية ما سئل عنه في الآية الاولى: «عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ». ذلك الخبر: «الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ».

أورد المفسرون آراءً متباينة في المقصود من «النبأ العظيم»، فمنهم من اعتبره إشارة إلى يوم القيامة، ومنهم من قال بأنه إشارة إلى القرآن الكريم، ومنهم من اعتبره إشارة إلى اصول الدين من التوحيد حتى المعاد.

بنظرة دقيقة إلى مجموع آيات السورة وسياق طرحها، وما ذكرته الآيات اللاحقة من ملامح القدرة الإلهية بعرض بعض مصاديقها في السماء والأرض، وبعد هذا العرض تؤكد إحدى الآيات: «إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتًا». ثم مخالفة وعدم تقبل المشركين لمبدأ «المعاد»،

كل ذلك يدعم التفسير الأول القائل: بأن النبا العظيم هو يوم القيامة.

«النبيا العظيم» كمفهوم قرآني - مثل سائر المفاهيم القرآنية - له من السعة ما يشمل كل ما ذكر من معان، وإذا كانت قرائن السورة تدل على أن المقصود منه «المعاد»، فهذا لا يمنع من أن تكون له مصاديق أخرى.

ولذا نجد في روايات أهل البيت عليهم السلام وفي بعض روايات أهل السنة أن «النبيا العظيم» بمعنى إمامه أمير المؤمنين على عليه السلام، حيث كانت مثار جدال ونقاش بين جمع من المسلمين، وهناك من فسّر «النبيا العظيم» بالولاية بشكل عام. ويضيف القرآن قائلاً: «كَلَّا سَيَعْلَمُونَ». فليس الأمر كما يقولون أو يظنون. ويجدد التأكيد: «ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ».

فسيعلمون في ذلك اليوم الواقع حتماً: «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي مَخْتَصِرِ الْأَمْتَلِ، ج ٥، ص: ٣٥١

جَنبِ اللَّهِ» (١). يوم ينهال العذاب الإلهي على الكافرين فيقولون بصرخات مستغيثة: «هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ» (٢).

بل وإن طلب العودة إلى الحياة لجبران خطيئاتهم سيطرح في اولى لحظات الموت، حين تزال الحجب عن عين الإنسان فيرى بام عينيه حقيقة عالم الآخرة، فيستيقن حياة البرزخ والمعاد، ولا يبقى عنده إلا أن يقول: «رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ» (٣). أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٤) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٥) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٦) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٧) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا (٨) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (٩) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٠) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا (١١) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَّجَّاجًا (١٢) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٣) وَجَنَّتِ الْأَنْفَاءُ (١٤) كل شيء بأمرك يا رب... تجيب الآيات المذكورة على أسئلة منكري المعاد والمختلفين في هذا «النبيا العظيم» لأنها تستعرض جوانب معينة من نظام الكون وعالم الوجود الموزون، مع تبيانها لبعض النعم الإلهية الواسعة ذات التأثير الفعال في حياة الإنسان، وذلك من جهة دليل على قدرة الباري عز وجل المطلقة، ومنها قدرته على إعادة الحياة إلى الإنسان بعد موته. ومن جهة أخرى إشارة إلى أن الكون وما فيه من دقة تنظيم، لا يمكن أن يُخلق لمجرد العبث واللهو، بل لابد من وجود حكمة بالغة لهذا الخلق. في حين أنه لو كان الموت يعني نهاية كل شيء، فمعنى ذلك أن وجود العالم عبث وخالٍ من أية حكمة. وبهذا فقد استدلل القرآن الكريم على حقيقة «المعاد» بطريقتين:

١- برهان القدرة.

٢- برهان الحكمة.

وقد عرضت الآيات الإحدى عشر، اثنتي عشر نعمة إلهية، بأسلوب ملؤه اللطف والمحبة، مصحوباً بالاستدلال.

(١) سورة الزمر / ٥٦.

(٢) سورة الشورى ٤٤.

(٣) سورة المؤمنون / ٩٩ و ١٠٠.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥٢

وتشرع الآيات بالإشارة إلى نعمة الأرض، فتقول: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا».

«المهاد»: المكان الممهّد الموطأ؛ واختيار هذا الوصف للأرض ينم عن مغزى عميق ..

فمن جهة: نجد في قسم واسع من الأرض الإستواء والسهولة، فتكون مهيئة لبناء المساكن والزراعة.

ومن جهة ثانية: اودع فيها كل ما يحتاجه الإنسان لحياته من المواد الأولية إلى المعادن الثمينة، سواء كان ذلك على سطحها أم في باطنها.

ومن جهة ثالثة: تحلل الأجساد الميتة التى تودع فيها، وتبيد كل الجراثيم الناشئة عن هذه العملية بما أودع فيها البارى من قدرة على ذلك.

ومن جهة رابعة: ما لحركتها السريعة المنظمة ولدورانها حول الشمس وحول نفسها من أثر على حياة البشرية خاصة، بما ينجم عنها الليل والنهار والفصول الأربعة.

وبما أن نعمة استواء الأرض وسهولتها قد تهمش نعمة الجبال، فقد جاءت الآية التالية لتبين أهمية الجبال ودورها المهم فى حياة الإنسان: «وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا».

تشكل الجبال آيةً ربانيةً زاخرةً بالعطاء، وتؤدى وظائف كثيرة، منها أنها تحفظ القشرة الأرضية من الإنهيار أمام الضغط الحاصل من المواد المذابة داخلها، وذلك لعمق تجذرها المترابط داخل الأرض ... وتحافظ عليها من تأثيرات جاذبية القمر فى عملية المد والجزر ...

وتشكل جدران الجبال سداً منيعاً للتقليل من آثار الرياح الشديدة والعواصف المدمرة ...

وتقوم بخزن المياه وادخار أنواع المعادن الثمينة فى باطنها ..

بالإضافة لكل ما ذكر، فتوزيع الجبال على الأرض بالشكل الموجود وتعاملها مع حركة الأرض يعمل على تنظيم حركة الهواء المحيط بالكرة الأرضية بالشكل الذى يؤثر إيجابياً على الحياة فوق الأرض. وفى هذا المجال، يقول العلماء: لو كان سطح الكرة الأرضية مستويًا كله، لتولدت عواصف شديدة لا يمكن السيطرة عليها جراء حركة الأرض وسكون الغلاف الجوى، ولفقدت الأرض صلاحيتها بتوفير مستلزمات السكن للإنسان، لأن استمرار الاحتكاك الحاصل من حركة الأرض الدائمة وسكون الغلاف الجوى سيؤدى بلا شك إلى زيادة حرارة القشرة الأرضية مما يجعل الأرض غير صالحة لسكنى الإنسان.

وبعد أن بين القرآن هذين النموذجين من النعم الإلهية والآيات الآفاقية، عرج إلى ذكر ما أنعم البارى على الإنسان من النعم والآيات الأنفسية فقال: «وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥٣

«الأزواج»: جمع زوج، المتشكل من الذكر والانثى ويخرج الإنسان إلى حياة الوجود من هذين الجنسين، ويستمر وجوده فى الحياة من خلال عملية التناسل التى تساهم فى استقرار الإنسان من الناحيتين الجسمية ولنفسية، كما تشير إلى هذا الآية (٢١) من سورة الروم: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً».

ويشير بعد ذلك إلى نعمة النوم، فيقول: «وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا».

«السبات»: من السبت، بمعنى القطع، ثم استعملت بمعنى (تعطيل العمل) لأجل الإستراحة.

وبالرغم من أن النوم يشكّل ثلث حياة الإنسان، ولكن الإنسان لا زال يجهل الكثير من خفاياه، بل ولا زال الإنسان (منذ القديم وحتى الآن) لا يعرف سبب تعطيل بعض فعاليات الدماغ فى مدة معينة وتغمض العين أجفانها وتسكن جميع أعضاء البدن.

ومع أن ذكر النوم فى الآية قد جاء باعتباره إحدى النعم الإلهية، إلّا أنّ الآية المباركة قد تشير بذلك إلى الموت، لما للنوم من شبه بالموت، والإستيقاظ بالبعث.

وبعد الإنتهاء من ذكر نعمة النوم، ينتقل القرآن الكريم لذكر نعمة الليل، فيقول:

«وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا».

وتضيف الآية التالية مباشرة: «وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا».

وشبّهت الآية الليل باللباس والغطاء الذى يلقى على الأرض ليشمل كل من على الأرض، وليجبر فعاليات الموجودات الحيّة المتعبة على الأرض بالتعطل عن الحركة وممارسة النشاطات، ويخيم الظلام والسكون ليضفى على الأرض الهدوء ليستريح الناس من رحلة العمل

والمعاناة خلال النهار، ولتتمكنوا من مواصلة نشاطهم لليوم التالي لأنّ النوم المريح لا يتيسر للانسان إلّا في أجواء مظلمة. وبالإضافة لكل ما ذكر، فحلول الليل يعني زوال نور الشمس وإلّا لانعدمت الحياة واحترقت جميع النباتات والحيوانات في حال استمرار شروق الشمس.

وخاتمة المقال: إنّ تعاقب الليل والنهار وما فيهما من نظام دقيق آية بينة من آيات خلقه سبحانه وتعالى، إضافة إلى أنّه تقويم طبيعي لتفصيل الزمن في حياة الإنسانية على مرّ التاريخ.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥٤

وتأتى الآية التالية لتتقلنا من عالم الأرض إلى عالم السماء حين تقول: «وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا».

قد يراد من العدد المذكور بالآية «الكثرة»، للإشارة إلى كثرة الأجرام السماوية والمنظومات الشمسية والمجرات والعوالم الواسعة لهذا الوجود، والتي تتمتع بخلق محكم وبناء رصين لا خلل فيه ... ويمكن أن يراد منه العدد، للإشارة إلى أنّ الكواكب وما يبدو لنا منها إنّما تعود إلى السماء الاولى، كما أشارت الآية (٦) من سورة الصافات إلى ذلك: «إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ بَرِيئَةَ الْكَوَاكِبِ». وثمة سماوات ستة وعوالم اخرى وراء السماء الاولى «الدنيا» خارجة عن حدود معرفتنا.

وبعد أن أشار القرآن إجمالاً إلى السماوات، يشير إلى نعمة الشمس، فيقول: «وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا».

«الوهّاج»: من الوهّج، بمعنى النور والحرارة التي تصدر من النار.

وإطلاق هذه الصفة على الشمس، للإشارة إلى نعمتين كبيرتين وهما: (النور) و (الحرارة) ويتفرع عنهما نعم وعطايا كثيرة يزخر بها عالمانا.

ولا تتحدد فوائد نور الشمس بإضاءة الدنيا للإنسان، بل لها أثر كبير في نمو سائر الكائنات الحيّة.

وإضافة لكل ما تقدم، فلحرارة الشمس أثر أساس في: تكوّن الغيوم، حركة الهواء، نزول الأمطار، وسقي الأراضي اليابسة.

ولأشعة الشمس كذلك الأثر البالغ في مكافحة الجراثيم، لاحتوائها على الأشعة ما وراء الحمراء التي تقتل الجراثيم.

وأشعة الشمس في واقعها: نور صحي مجاني دائم، يصلنا بكيفية لا هي بالشديدة المحرقة، ولا هي بالقليلة العديمة التأثير.

وبعد ذكر نعمة النور والحرارة يتناول القرآن نعمة حياتية اخرى لها ارتباط بأشعة الشمس، ويقول: «وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا».

«المعصرات»: جمع «معصر»، من العصر بمعنى الضغط .. والكلمة تشير إلى أنّ الغيوم تقوم بعملية وكأنّها تعصر نفسها عصرًا لكي ينهمر منها الماء على شكل أمطار.

«الثجاج»: من الثج، بمعنى سيلان الماء بكمية كبيرة، و «ثجاج» صيغة مبالغة، ويراد بها هنا غزارة الأمطار المنهمرة نتيجة العصر الحاصل للغيوم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥٥

وبالإضافة لكون المطر منبعاً لكثير من مصادر الخير والبركة، فهو: ملطف للجو، مزيل للتلوثات الموجودة في الجو، مخفض للحرارة ومعدل للبرودة، مقلل لأسباب الأمراض، يمنح الإنسان روحاً متجددة ونشاطاً، ومع كل ذلك .. فقد ذكر القرآن ثلاث فوائد اخرى له: «لَتُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا». «وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا». «أَلْفَافًا»: أى إلتف بعضها ببعض لكثرة الشجر.

والآيتان تشيران إلى ما يستفيد منه الإنسان والحيوان من المواد الغذائية التي تخرج من الأرض، فالحبوب الغذائية تشكل قسماً مهماً من المواد الغذائية (حباً)، والخضر تشكل القسم الآخر (ونباتاً)، وتأتى الفاكهة لتشكل القسم الثالث (وجنّات).

إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) سيأتي اليوم الموعود: الآية الاولى من الآيات أعلاه بمثابة نتيجة لما تعرضت له الآيات السابقة ... «إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتًا».

والتعبير ب «يوم الفصل» يحمل بين ثناياه إشارات كثيرة، فسيحدث فى ذلك اليوم:
فصل الحق عن الباطل.

فصل المؤمنين الصالحين عن المجرمين.

فصل الوالدين عن أولادهم، والأخ عن أخيه ...

و «الميقات»: من الوقت، الميعاد من الوعد، بمعنى الوقت المعين والمقرر، وإثما سميت الأماكن التى يحرم منها حجاج بيت الله الحرام ب «المواقيت» لأن الاجتماع فيها يكون فى وقت معين.

ويتناول القرآن الكريم بعض خصائص ذلك اليوم العظيم، فيقول: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا».

ويستفاد من آيات القرآن أن ثمة نفختان عظيمتان ستحدثان باسم (نفخ الصور) .. ففي النفخة الاولى سينهار كل عالم الوجود، ويخز ميتاً كل من فى السماوات والأرض، وفى النفخة الثانية يتجدد عالم الوجود وتعود الحياة إلى الأموات مرة اخرى، ليقوم بعدها يوم القيامة وأما ما ورد فى الآية فيختص بنفخة الصور الثانية.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥٦

وتأتى الآية الاخرى لتقول: «وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا». فاتصل به عالم الإنسان بعالم الملائكة «١».

وتأتى الآية الأخيرة لتخبرنا عن حال الجبال فى ذلك اليوم الحق: «وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا».

بملاحظة ما جاء فى القرآن الكريم بخصوص مصير الجبال ليوم القيامة تظهر لنا أن الجبال ستطويها مراحل متعاقبة، تبدأ حركتها من: «وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا» «٢».

ثم تُحمل وتُدك: «وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً» «٣».

فتكون تلالاً من الرمال المتراكمة: «وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا» «٤».

فتصبح كأصواف منفوشة: «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ» «٥».

فتتحول غباراً متناثراً فى الفضاء: «وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا* فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبَثًا» «٦».

ولا يبقى منها أخيراً إلا الأثر، كما أشارت لذلك الآية المبحوثة.

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَابًا (٢٢) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) جهنم ... المرصاد الرهيب: بعد أن بين القرآن الكريم فى الآيات السابقة بعض أدلة المعاد وتناول قسماً من حوادث يوم القيامة، يذكر فى هذه الآيات ما يؤول إليه حال المجرمين، فيقول: «إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا». وهى: «لِلطَّاغِينَ مَابًا». وأنهم: «لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا».

«المرصاد»: اسم مكان يختفى فيه للمراقبة؛ و «المآب»: هو محل الرجوع، ويأتى أحياناً بمعنى المنزل والمقر، وهو المقصود فى هذه الآية.

(١) الميزان فى تفسير القرآن ٢٠/١٦٦ ذيل الآية مورد البحث.

(٢) سورة طور / ١٠.

(٣) سورة الحاقة / ١٤.

(٤) سورة المزمل / ١٤.

(٥) سورة القارعة / ٥.

(٦) سورة الواقعة / ٥ و ٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥٧

و «الأحقاب»: جمع (حقب) على وزن (قفل)، بمعنى برهة زمنية غير معينة.

وتشير الآيات - بعد ذلك - إلى جانب صغير من عذاب جهنم الأليم، بالقول: «لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا». «إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا»، إلّا ظل من الدخان الغليظ الخائق كما أشارت إلى ذلك الآية (٤٣) من سورة الواقعة: «وَوَظِلٌّ مِّنْ يَّحْمُومٍ». «الحميم»: هو الماء الحار جدًا؛ و «الغساق»:

هو ما يقطر من جلود أهل النار من الصديد والقيح.

في حين أن أهل الجنة يسقيهم ربهم جلّ شأنه بالأشربة الطاهرة، كما جاء في الآية (٢١) من سورة الإنسان: «وَسَيَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا».

ولكن، لِمَ هذا العذاب الأليم؟ فتأتى الآية التالية: إنّما هو: «جَزَاءٌ وَفَاقًا».

ولِمَ لا يكون كذلك .. وقد أحرقوا في دنياهم قلوب المظلومين، وتجاوزوا بتسلطهم وظلمهم وشَرهم على رقاب الناس دون أن يعرفوا للرحمة معنى، فجزائهم يناسب ما اقترفوا من ذنوب عظام.

ويذكر القرآن سبب الجزاء فيقول: «إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا».

وبعبارة اخرى: إنّ عدم الإيمان بالحساب سبب للطغيان، فيكون الطغيان سبباً لذلك الجزاء الأليم.

لأنهم تناسوا حساب يوم القيامة بالكلية: ولم يفرزوا له مكاناً في كل حياتهم.

ومباشرة يضيف القرآن القول: «وَكَذَّبُوا بآيَاتِنَا كَذَابًا».

فقد أحكمت الأهواء النفسانية قبضتها عليهم حتى جعلتهم يكذبون بآيات الله تكديباً شديداً، وأنكروها إنكاراً قاطعاً ليواصلوا أمانيتهم الإجرامية باتباعهم المفرط لأهوائهم النفسانية ونوازعهم الدنيوية.

ينبه القرآن الطغاة على وجود الموازنة بين الجرم والعقاب في العدل الإلهي، فيقول:

«وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا».

فلا تظنوا أنّ شيئاً من أعمالكم سيقى بلا حساب أو عقاب، ولا تساوركم الشكوك بعدم عدالة العقوبات المقررة لكم.

وفي هذا المجال، يقول القرآن: «وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ* وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥٨

مُسْتَطَرٌّ» (١) .. وفي موضع آخر يقول: «وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَرَهُمْ» (٢). ولذلك يصرخ المجرمون بالقول: «يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا» (٣).

حينما يستلمون كتابهم الحاوي على كل ما فعلوه في الحياة الدنيا. ومما لا شك فيه، أنّ إدراك حقيقة الآيات الربانية بكامل القلب، سوف يدفع الإنسان لأن يكون دقيقاً في جميع أعماله، وسيكون اعتقاده الجازم بمثابة السد المنيع بينه وبين ارتكاب الذنوب، ومن العوامل المهمة والمؤثرة في العملية التربوية.

ويتغيّر لحن الخطاب في الآية الأخيرة من الآيات المبحوثة، فينتقل من التكلم عن الغائب إلى مخاطبة الحاضر: ويهدد القرآن بنبرات غاضبة أولئك المجرمين، ويقول: «فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا».

وهذا هو جزاء أولئك الذين يواجهون دعوات الأنبياء الداعية إلى الله والإيمان والتقوى، بقولهم: «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الْوَاعِظِينَ» (٤).

حتى روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار» (٥).

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حِدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا (٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) مِمَّا وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ: كان الحديث في الآيات السابقة منصباً حول خاتمة المجرمين والطغاة وما يلاقونه من أليم العذاب وموجباته، وينتقل الحديث في الآيات أعلاه لتفصيل

(١) سورة القمر / ٥٢ و ٥٣.

(٢) سورة يس / ١٢.

(٣) سورة الكهف / ٤٩.

(٤) سورة الشعراء / ١٣٦.

(٥) تفسير الكشاف / ٢١٠ / ٤؛ وتفسير الصافي / ٥ / ٢٧٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٥٩

بعض ما وعد الله المؤمنين والمتقين من النعم الخالدة والثواب الجزيل، عسى أن يعرعى الإنسان ويتبع طريق الحق من خلال مقياسه لما يعيشه كل من الفريقين، على ضوء تفكيره بمصيره الأبدى. فيقول مبتدئ الحديث: «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا». ومن مفردات الفوز والسعادة: «حِدَائِقَ وَأَعْنَابًا».

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله في خصوص العنب أنه قال: «خير فواكهكم العنب».

ويتطرق القرآن إلى نعمة أخرى مما وعد الله به المتقين في الجنة، فيقول: «وَكوَاعِبَ أَتْرَابًا».

«الكواعب»: جمع «كاعب»، وهى البنت حديثه الثدى، للإشارة إلى شباب زوجات المتقين فى الجنة؛ و «الأتراب»: جمع «ترب»، ويطلق على مجموعة الأفراد المتساوين فى العمر. قيل: إنها من «الترائب» وهى: اضلاع الصدر، وذلك لما بينهما من شبه من حيث التساوى والتماثل.

وتأتى النعمة الرابعة: «وَكَأْسًا دِهَاقًا».

وهو مُدَّك للعقل، منشط للروح ومنعش للقلب.

ودفعاً لما يتبادر إلى الأذهان من تبعات شراب الدنيا الشيطانية، يقول القرآن: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا».

فالجنة خالية من: الأكاذيب، الهديان، التهم، الإفتراءات، تبرير الباطل، بل وكل ما كان يؤذى قلوب المتقين فى الحياة الدنيا .. إنها الجنة! وخير تصوير لها ما جاء فى الآية (٦٢) من سورة مريم: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا».

وفى آخر المطاف يذكر القرآن الكريم تلك النعمة المعنوية التى تفوق كل النعم علواً:

«جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا».

وأية بشارة ونعمة أسمى وأجل، من أن أكون وأنا العبد الضعيف، موضع أطفاف وإكرام الله جلّ وعلا.

وفى آخر آية من الآيات المبحوثة، يضيف: «رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ».

وبما أن صفة «الرحمن» تشمل رحمة الله العامية لكل خلقه، فيمكن حمل إشارة الآية إلى أن الله تبارك وتعالى يشمل برحمته أهل السماوات والأرض فى الحياة الدنيا، إضافة لما وعد به المؤمنين من عطاء دائم فى الجنة.

وذيل الآية يقول: «لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦٠

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صِيْفًا لِمَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءً

(٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠) رأينا في الآيات السابقة أنها تحدث عن بعض عقوبات الظالمين والطواغيت، وبعض المواهب والنعم المتعلقة بالصالحين في يوم القيامة، وتتناول الآيات أعلاه بعض صفات وحوادث يوم القيامة، وتشعر بالقول ب «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا». وبلا شك فإن قيام الروح والملائكة صفاً يوم القيامة، وعدم تكلمهم إلا بإذنه سبحانه، إنما هو مثولاً للأوامر الإلهية وطاعته، كما هو حالهم قبل قيام القيامة، فهم بأمره يعملون ولكن في يوم القيامة سيتجلى أمتثالهم لله أكثر وبشكل أوضح.

والمراد من «الروح» في الآية المبحوثة هو كونه أحد ملائكة الله العظام، والذي يبدو من بعض الآيات أنه أعظم من جبرائيل وبدلالة ما روى على بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «هو ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل».

وعلى أية حال، فسواء كان «الروح» من الملائكة أو من غيرهم، فإنه سيقف يوم القيامة مع الملائكة صفاً بانتظار أوامر الخالق سبحانه، وسيكون هول المحشر بشكل بحيث لا يقوى أي من الخلق للتحديث معه.

في تفسير مجمع البيان: روى معاوية بن عمار عن الإمام الصادق عليه السلام قال سئل عن هذه الآية، فقال: «نحن والله المأذون لهم يوم القيامة والقائلون».

قال: جعلت فداك ما تقولون؟

قال: «نمجد ربنا، ونصلي على نبينا صلى الله عليه وآله ونشفع لشيئتنا، فلا يردنا ربنا».

ونستفيد من هذه الرواية: أن الأنبياء والأئمة عليهم السلام سيقفون صفاً يوم القيامة مع الملائكة والروح، وسيكونون من المأذون لهم في الكلام والشفاعة، وسيكون حديثهم منصباً حول الذكر والثناء والتسبيح للباري عز وجل.

ويشير القرآن واصفاً ذلك اليوم الذي يقوم فيه الناس والملائكة أجمعون يوم الفصل،

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٤١

يوم عقاب العاصين وثواب المتقين، يشير بقوله: «ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ».

«الحق»: هو الأمر الثابت واقعاً، والذي تحققه قطعي. وهذا المعنى ينطبق تماماً على يوم القيامة، لأنه سيعطى كل إنسان حقه، إرجاع حقوق المظلومين من الظالمين، وتكشف كل الحقائق التي كانت مخفية على الآخرين .. فإنه بحق: يوم الحق، وبكل ما تحمل الكلمة من معنى.

وإذا ما التفت الإنسان إلى هذه الحقيقة (حقيقته يوم القيامة) فستتحرك بدافع قوى نحو الله عز وجل للحصول على رضوانه سبحانه بإمتثال أوامره تعالى .. ولهذا يقول القرآن مباشرة: «فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءً».

فجميع مستلزمات التوجه والحركة نحو الله متوفرة بعد أن بين طريق الحق وأشار إلى معالم سبل الشيطان، بلغ الله أوامره بواسطة الأنبياء والرسول وبالقدر الكافي، أودع في الإنسان العقل (النبي الباطن)، رغب المتقين بالمفاز، أنذر المجرمين عذاباً أليماً، عيّن يوماً لمحكمة العدل الإلهي بين اسلوب المحاكمة، ولم يبق للإنسان سوى اختيار ما يتخذه إلى ربه ما بآء، وبمحض إرادته.

ثم يؤكد القرآن على مسألة عقاب المجرمين الذين يتوهمون أنه يوم بعيد أو نسيته، يقول القرآن ... إنَّ عقاب المجرمين لواقع، ويوم القيامة لقریب: «إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا».

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة (١٠٣) نهج البلاغة: «كل آت قريب دان».

ولم لا- يكون قريباً ما دام الأساس في العذاب الإلهي هو نفس أعمال الإنسان والتي هي معه على الدوام: «وإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ» (١).

وبعد أن وجه الإنذار للناس، يشير القرآن إلى حسرة الظالمين والمذنبين في يوم القيامة، حين لا ينفع ندم ولا حسرة، إلّا من أتى الله بقلب سليم: «يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا».

وأساساً فإنَّ تجسّم الأعمال ومرافقتها للإنسان من أفضل المكافآت للمطيعين وأشدّ عقوبة للعاصين. نعم، فقد يصل الأمر بالإنسان، وعلى الرغم من كونه أشرف المخلوقات، لأنَّ يتمنى أن يكون والجمادات بدرجته واحدة، لما بدر منه من كفر وذنوب.

(١) سورة العنكبوت / ٥٤.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦٢

وتصور لنا الآيات القرآنية أحوال الكافرين والمجرمين، وشدة تأثرهم وتأسفهم وندمهم على ما فعلوا في دنياهم، يوم الفزع الأكبر، فتقول الآية (٥٦) من سورة الزمر: «يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ».

وتقول الآية (١٢) من سورة السجدة: «فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا».

أو ما يقوله كل فرد منهم - كما جاء في الآية المبحوثة -: «يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا».

«نهاية تفسير سورة النبأ»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦٣

٧٩. سورة النازعات

محتوى السورة: تلخص مواضيع هذه السورة بستة أقسام:

١- التأكيد مراراً على مسألة المعاد وتحققه الحتمي.

٢- الإشارة إلى أهوال يوم القيامة.

٣- عرض سريع لقصة موسى عليه السلام مع الطاغى فرعون، تسلياً للنبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين، وإنذاراً للمشركين الطغاة، وإشارة إلى ما يترتب على إنكار المعاد من سقوط في مستنقع الرذيلة.

٤- طرح بعض النماذج والمظاهر لقدرة الباري سبحانه في السماء والأرض، للاستدلال على إمكان المعاد والحياة بعد الموت.

٥- تعود الآيات مرة أخرى، لتعرض بعض حوادث اليوم الرهيب، وما سيصيب الطغاة من عقاب وما سينال الصالحون من ثواب.

٦- وفي النهاية، يأتي على خفاء تاريخ وقوع يوم القيامة، والتأكيد على حتمية وقوعه وقربه.

سميت السورة ب (النازعات) لورود هذه الكلمة في أول آية منها.

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع: ابى بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦٤

والنازعات لم يكن حسبه وحسابه يوم القيامة إلا كقدر صلاة مكتوبة حتى يدخل الجنة».

وليس غريباً أن ينال الإنسان بكل ما ذكر جزاءً من عند الله، إذا ما أمعن في محتوى السورة وتدبر إشاراتها الموقظة للنفوس الغافلة، والمعرفة بوظائف الإنسان في حياته، فمن لم يكتف بترديد ألفاظ السورة، وعمل بها بعد الإمعان والتدبر فحري أن يجزى بما وعد الحق.

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَ النَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَ السَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) القسم بالملائكة: جاء القسم القرآني بخمسة أشياء مهمة، لتبيان حقيقة وحتمية تحقق يوم القيامة (المعاد)، فيقول: «وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا...».

«النازعات»: من «الترع»، ونزع الشيء جذبه من مقره.

«الغرق»: هو الرسوب في الماء، ويأتي كذلك فيمن غمره البلاء؛ والمقصود في هذه الآية ليس الغرق في الماء، بل هو القيام بعمل ما

إلى أقصى حد ممكن.

«النشاطات»: من «النشط»، هي العُقد التي يسهل حلها، فيكون المعنى عموماً: هو التحرك بسهولة.

«السباحات»: من «السبح»، وهو الحركة السريعة في الماء أو الهواء.

«السباقات»: من «السبق»، وهو التقدم في السير.

«المدبرات»: من «التدبير»، وهو التفكير في عاقبة الامور، وأرادت الآية القيام بالأعمال على أحسن وجه.

وبعد هذه التعريفات الموجزة نشرح بالتفسير:

إن القسم المذكور يتعلق بالملائكة الموكلة بقبض أرواح الكفار والمجرمين، ولكون تلك الأرواح قد رفضت التسليم للحق، فيكون فصلها عن أجسادها بشدة.

ويتعلق كذلك، بالملائكة الموكلة بقبض أرواح المؤمنين برفق ويسر، وسرعة في إتمام الأمر.

والملائكة التي تسرع في تنفيذ الأوامر الإلهية.

ثم الملائكة التي تتسابق في تنفيذ الأوامر الإلهية.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦٥

وأخيراً، يتعلق القسم بالملائكة التي تدبر شؤون العالم بأمره سبحانه وتعالى.

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتَّبِعَهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يُومِئِدُ وَاجِفَةً (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤) صيحة الموت المرعبة: بعد أن أكد القرآن الكريم على حقيقة القيامة وحمية وقوعها في الآيات السابقة، تتعرض الآيات أعلاه لبعض ما يصاحب يوم القيامة من علامات وأحداث، فتقول: «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ». أي: يوم تحدث الزلزلة العظيمة المهولة.

ثم: «تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ».

«الراجفة»: من «الرجف»، بمعنى الإضطراب والتزلزل.

«الرادفة»: من «الردف»، وهو الشخص أو الشيء الذي يأتي بعد نظيره تتابعاً.

إنّ «الراجفة» هي الصيحة ونفخة الصور الاولى التي تعلن عن موت جميع الخلائق، و «الرادفة» هي الصيحة ونفخة الصور الثانية التي يبعث فيها الخلق مرة اخرى ليعيشوا يوم القيامة.

وتأتى الآية الاخرى لتقول: «قُلُوبٌ يُومِئِدُ وَاجِفَةً».

فقلوب العاصين شديدة الإضطراب خوفاً من الحساب والجزاء.

ويكون التزلزل الداخلي من الشدة بحيث يظهر على وجوه كل المذنبين، ولذا يقول القرآن: «أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ».

فيبدو الإضطراب والخوف ظاهراً على أعين المذنبين، وتتوقف حركتها وكأنها قد فقدت حاسة النظر لما أصابها من خوف شديد.

وفي الآية التالية ينتقل الحديث من أخبار يوم القيامة إلى الحياة الدنيا: «يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ».

«الحافرة»: من «الحفر» بمعنى شق الأرض، وما ينتج من ذلك يسمى (حفرة).

و «الحافرة»: كناية لمن يُرد من حيث جاء، كما لو سار إنسان على أرض، فيتترك فيها حفراً لتحمل آثار قدمه، ثم يعود إلى نفس تلك الحفر، فالحافرة: تعنى الحالة الاولى.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦٦

وتستمر الآية في سرد كلامهم: «أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً». فهكذا هو حال ودأب منكرى المعاد وعلى الدوام باستفسارهم الدائم حول المعاد، ويقولهم المعروف: كيف للعظام البالية النخرة والتي تحولت إلى ذرات تراب أن تعود مرة اخرى جسماً كاملاً، والأكثر من هذا

.. أن تسرى فيه الحياة؟ ولكنهم لم يفقهوا إلى أنهم خلقوا من ذلك التراب، فكيف أصبحوا بهذه الهيئة الحيّة بعد أن لم يكونوا شيئاً؟ ولا يكفي منكرو المعاد بحال الاعتراض على ما وعدهم به الباري سبحانه، بل وتحولوا إلى حال الاستهزاء بأحد اصول دين الله: «قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ».

وفي آخر آية من الآيات المبحوثة يعود القرآن الكريم إلى مسألة القيامة، وبلسان قاطع، يقوق: «فَأَنبَيَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ* فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ».

فالأمر ليس بمستصعب على الخالق القادر، فما أن يصدر الأمر الإلهي لنفخة الصور الثانية حتى تعود الحياة ثانية إلى جميع الخلائق، نعم .. فتشرع كل تلك العظام النخرة وما صار منها تراباً للتجمع على الهيئة الاولى، وليخرج الناس من قبورهم بعد أن تسرى فيهم روح الحياة.

«الزجرة»: بمعنى صحيحة بشدة وانتهار، ويراد بها: نفخة الصور الثانية.

«السااهرة»: من «السهر»، وهو الأرق، وقيل: لأرض القيامة «السااهرة» لذهاب النوم عن العيون لما سيصابون به من أهوال مرعبة. هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكْ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى (٢٦) يشير القرآن الكريم بهذه المقاطع البيانية إلى بعض مشاهد قصة موسى عليه السلام وفرعون، والتي تناول عاقبة الطغاة عبر التاريخ، وما حدى بفرعون من مصير أسود، ليستذكر مشركو قريش وطغاتهم تلك الواقعة، وليعلموا أن من كان أقوى منهم لم يتمكن من مقاومة العذاب الإلهي.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦٧

ويشير البيان القرآني كذلك، إلى المؤمنين بأن لا يخافوا من قوة الأعداء الظاهرية، لأن دمارهم وهلاكهم على الله أسهل من أن يتصور .. فهذا البيان القرآني إذاً، تسلياً لقلوب المؤمنين وترطيباً لخواطرهم.

فيتوجه الحديث إلى النبي صلى الله عليه وآله بصيغة الإستفهام: «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى . ليشوق السامع ويهيئه لاستماع القصة ذات العبر.

ثم يقول: «إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى».

«طوى»: يمكن أن يكون اسماً لأرض مقدسة، تقع في الشام بين (مدين) و (مصر)، وهو الوادي الذي كلم الله تعالى فيه موسى عليه السلام أول مرة.

ثم أشار القرآن إلى تعليمات الله عز وجل إلى موسى عليه السلام في الواد المقدس: «اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى . وبعد التزكية وتطهير الذات تصبح لائقاً للقاء الله، وسوف أهديك إليه عسى أن تخشع وتترك ما أنت عليه من المنكرات: «وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى .

ولما كانت كل دعوة تحتاج إلى دليل صحتها، يضيف القرآن القول: «فَأَرِيهِ الْآيَةَ الْكُبْرَى .

ولكن، ما الآية الكبرى؟ هل هي عصا موسى عليه السلام التي تحولت إلى أفعى عظيمة، أو إخراج يده بيضاء، أم كليهما؟ وعلى أية حال، فالمهم في المسألة إن موسى عليه السلام استند في بدء دعوته على معجزة «الآية الكبرى».

وتبين لنا هذه الملاحظة: إن من جملة الأهداف المهمة في حركة الأنبياء هي هداية الطغاة أو مجاهدتهم.

لكن فرعون المتجبر قابل كل تلك المحبة، اللطف، الدعوة بالحسنى والآية الكبرى، قابل كل ذلك بالتجبر الأعمى والغرور الأبله: «فَكَذَّبَ وَعَصَى .

وكما يظهر من الآية المباركة فإن التكذيب مقدمة العصيان ومرحلة سابقة له، كما هو حال التصديق والإيمان باعتباره مقدمة للطاعات.

وازداد فرعون عتوّاً: «ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى .

وقد هددت معجزة موسى عليه السلام كل وجود فرعون الطاغوتى، مما دعاه لأن يبذل كل ما يملك من قدرة لأجل إبطال مفعول المعجزة، فتراه وقد أمر أتباعه وجنوده لجمع كل سحره

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦٨

البلاد- على كثرتهم فى تلك الحقبة الزمنية- ونودى فى الناس بأمره ليشاهدوا مشهد إبطال المعجزة من قبل السحرة، وليظهروا مثلها: «فَحَشَرَ فَنَادَى . ولم يكتف فرعون بكذبه وعصيانه، ومقاومته لدعوة الحق والوقوف أمامها، بل وتعدى حدود المخلوق بصورة مفرطة جداً، وافترى على الله وعلى نفسه بأقبح ادعاء، حينما ادعى لنفسه الربوبية على شعبه وأمرهم بطاعته: «فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى .

فادّعاءه بأنه (الرب الأعلى) قد سرى حكمه حتى على آلهته لتكون من عبيده! .. نعم، فهكذا هو هذيان الطواغيت.

وعلى أئمة حال، فقد حلّ بفرعون منتهى التكبر والطيغان، فأخذ جبار السماوات والأرض سبحانه أخذ عزيز مقتدر: «فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَخْرَةِ وَالْأُولَى .

«النكال»: لغة: العجز والضعف. ويقال لمن يتخلف عن دفع ما استحق عليه (نكل).

و (النكل)- على وزن فكر- القيد الشديد الذى يعجز معه الإنسان على عمل أى شىء.

و «نكال»: فى الآية يقال للعذاب الإلهى الذى يؤدى إلى عجز الإنسان، ويخيف الآخرين، فيعجزهم عن ارتكاب الذنب.

«نكال الآخرة»: عذاب جهنم الذى سينال فرعون وأصحابه ومن سار على خطوه؛ و «عذاب الاولى»: إشارة إلى إغراق فرعون وأصحابه فى نهر النيل.

وتقديم «نكال الآخرة» على عذاب الدنيا، لأهميته وشدة بطشه.

وقيل: «الاولى»: تشير إلى كلمة فرعون الاولى فى مسير طغيانه حين ادعى (الالوهية)، كما جاء فى الآية (٣٨) من سورة القصص.

و «الآخرة»: إشارة إلى آخر كلمة نطق بها فرعون حين ادعى (الربوبية العليا)، فعذبه الله بالغرق فى الحياة الدنيا نتيجة ادعائه الباطلين.

ويوافق هذا المعنى صيغة الفعل الماضى الواردة فى الآية «أخذ» والذى يفهم منه تنفيذ كل العقاب فى الدنيا، وتعضده الآية التالية التى تعدّ العذاب عبرة للآخرين.

ويستخلص القرآن نتيجة القصة: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى .

فتبين الآية إن وسائل سلك طريق الإعتبار مهينة لمن سرى فى قلبه الخوف والخشية من الله، واعترفته مشاعر الإحساس بالمسؤولية، ومن رأى العبرة بعين معتبرة اعتبر.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٦٩

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَ أَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَ الْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) اللمسات الربانية فى عالم الطبيعة ونظام الكون:

ينتقل البيان القرآنى مرّة اخرى إلى عالم القيامة، بعد ذكر تلك اللمحات البلاغية فى قصة موسى عليه السلام مع فرعون. وابتدأ الخطاب باستفهام توبيخى (لمنكرى المعاد) هل أن خلقكم (وإعادتكم إلى الحياة بعد الموت) أصعب من خلق السماء: «ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا».

والآية فى واقعها جواب لما ذكر من قولهم فى الآيات السابقة: «أءَنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ»- أى هل يمكن أن نعود إلى حالتنا الاولى- فكل إنسان ومهما بلغت مداركه ومشاعره من مستوى، ليعلم أن خلق السماء وما يسبح فيها من نجوم وكواكب ومجرات، لهو أعقد وأعظم من خلق الإنسان ... وإذا فمن له القدرة على خلق السماء وما فيها من حقائق، أيعقل أن يكون عاجزاً عن إعادة الحياة مرّة اخرى إلى الناس!؟

ويضيف القرآن في بيان خلق السماء، فيقول شارحاً بتفصيل: «رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيَهَا».

وقيل: إن الآية تشير إلى ارتفاع السماء والأجرام السماوية وبعدها الشاسع عن الأرض، بالإضافة لإشارتها للسقف المحفوظ، والغلاف الجوى الذى حَفَّ وأحاط بالكرة الأرضية.

ثم تنتقل بنا الآية التالية إلى إحدى الأنظمة الحاكمة في هذا العالم الكبير، (نظام النور والظلمة): «وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا».

فلكل من النور والظلمة دور أساس ومهم جداً في حياة الإنسان وسائر الأحياء من حيوان ونبات، فلا يتمكن الإنسان من الحياة دون النور، لما له من إرتباط وثيق في حركة وإحساس ورزق وأعمال الإنسان، وكذا لا يتمكن من تكمله مشوار حياته من غير الظلمة، والتي تعتبر رمز الهدوء والسكينة.

«أغطش»: من «الغطش»، بمعنى الظلام.

«الضحى»: إنبساط الشمس وإمتداد النهار.

وتنتقل بنا الآية الاخرى من السماء إلى الأرض، فتقول: «وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧٠

مختصر الامثل ج ٥، ص: ٣٩٩

«دحاها»: من «الدحو» بمعنى الإنبساط، وفَسَّرَها بعضهم بتحريك الشيء و نقله من مكانه. وللمعنيين أصل واحد، لوجود التلازم بينهما. ويقصد بدحو الأرض، إنها كانت في البداية مغطاة بمياه الأمطار الغزيرة التي انهمرت عليها من مدّة طويلة، ثم استقرت تلك المياه تدريجياً في منخفضات الأرض، فشكلت البحار والمحيطات، فيما علت اليابسة على أطرافها، وتوسعت تدريجياً، حتى وصلت لما هي عليه الآن من شكل، (وحدث ذلك بعد خلق السماء والأرض).

وبعد دحو الأرض، وإتمام صلاحيتها لسكنى وحياة الإنسان، يأتي الحديث في الآية التالية عن الماء والنبات معاً: «أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا».

ويظهر من التعبير القرآني، إن الماء قد نفذ إلى داخل الأرض بادية ذى بدء، ثم خرج على شكل عيون وأنهار، حتى تشكلت منها البحيرات والبحار والمحيطات.

«المرعى»: اسم مكان من (الرعى)، وهو حفظ ومراقبة امور الحيوان من حيث التغذية وما شابهها. ولهذا، تستعمل كلمة (المراعاة) بمعنى المحافظة والمراقبة وتدير الامور.

ثم ينتقل البيان القرآني إلى «الجبال»، حيث ثبته عوامل تلعب الدور المؤثر في استقرار وسكون الأرض، مثل: الفيضانات، العواصف العاتية، المدّ والعجز، والزلازل.. فكل هذه العوامل تعمل على خلخله استقرار الأرض، فجعل الله عزّ وجل «الجبال» تثبيتاً للأرض، ولهذا تقول الآية: «وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا».

«أرسي»: من «رسو»، بمعنى الثبات، وأرسي: فعل متعد؛ أى، ثبتت الجبال في مواقعها.

وتلخص الآية التالية ما جاء في الآيات السابقة: «مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ».

كل ذلك، ليغرف الإنسان من نعم الله.

وما جاء في الآيات يبرز قدرته سبحانه على المعاد من جهه، ويدلل من جهه اخرى على وجود الله تعالى وعظمه شأنه، ليدفع المخلوق إلى الإذعان بسلامه سلك طريق معرفة الله وتوحيده.

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرَزَّتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧١

التنزه عن الهوى: وتتجه عدسة آيات القرآن الكريم لتعرض لنا جوانباً من صور عالم القيامة، وتبدأ بتصوير تلك الداهية المذهلة التي تصيب من عبد أهواه في الحياة الدنيا: «فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى .

«الطامة»: من «الطم» وهو في الأصل بمعنى ملء الفراغ والحفر، ويطلق بالطامة على كل شيء بلغ حدّه الأعلى، ولهذا فقد اطلقت على الحوادث المرّة والصعاب الكبار، وهي في الآية تشير إلى يوم القيامة لما فيها من دواهي تغطي بهولها كل هول، واتبعت ب «الكبرى» زيادة في التأكيد على أهميته وخطورة يوم القيامة.

ويضيف: حال حلول الحدث ... سيستيقظ الجميع من غفلتهم، ويتذكروا ما زرعووا لحياتهم: «يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى . وأنى للتذكر بعد فوات الأوان!

وإذا طلبوا الرجوع إلى الدنيا لإصلاح ما أفسدوا ويتداركوا الأمر، فسيقرعون ب «كلاً».

وإذا ما اعتذروا تائبين، فلا محيص عن ردّهم، بعد أن أوصدت أبواب التوبة بأمر الجبار الحكيم.

نعم، وقد ازيلت الحجب عن قلبه وروحه، سيرى الحقائق بعينها شاخصة أمامه، ولا ينسى حينها ما اكتسبت يده من أعمال. وتتحرك الآية التالية لوصف ما سيقع: «وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى .

فالجحيم موجودة، كما تشير إلى ذلك الآية (٥٤) من سورة العنكبوت: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ». ولكن حجب الدنيا تمنعنا من رؤيتها، وأما في يوم الفصل، يوم البروز، فسيبرز كل شيء ولا يستثنى من ذلك جهنم.

وفي الآيات الثلاثة التالية، يشير القرآن إلى حال المجرمين والطغاة يوم القيامة: «فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى .

والآية الاولى تشير إلى فساد عقائد الطغاة، لأن الطغيان ينشأ من الغرور، والغرور من نتائج عدم معرفة الباري جل شأنه.

وبمعرفة عظمه وجلال الله يتصاغر الإنسان حتى يكاد لا يرى لنفسه أثراً، وعندها سوف لن تزل قدمه عن جادة العبودية الحقّة، مادام سلوكه يصب في رافد معرفة الله.

والآية الثانية تشير إلى فسادهم العملي، لأن الطغيان يوقع الإنسان في شرك اللذائذ الوقتية الفانية ذروة الطموح ومنتهى الأمل، فينساق واهماً لأن يجعلها فوق كل شيء.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧٢

والأمران في واقعهما كالعلمة والمعلول، فالطغيان وفساد العقيدة مفتاح فساد العمل وحب الدنيا المفرط، ولا يجران إلإلى سوء عقبي الدار، نار جهنم خالدين فيها أبداً.

ويأتى الدور في الآيتين التاليتين لوصف أهل الجنة: «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى .

فالشرط الأول للحصول على نعم الجنة والاستقرار بها هو الخوف من الله من خلال معرفته (معرفة الله والخوف من التمرد والعصيان على أوامره)، والشرط الثاني هو ثمره ونتيجة الشرط الأول أي الخوف والمعرفة ويتمثل في السيطرة على هوى النفس وكبح جماحها، فهوى النفس من أقبح الأصنام المعبودة من دون الله.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا (٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرُوزِهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) تتعرض الآيات أعلاه لإجابة المشركين ومنكري المعاد حول سؤالهم الدائم عن وقت قيام الساعة (يوم القيامة)، فتقول أولاً: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا».

والقرآن في مقام الجواب يسعى إلى إفهامهم بأنه لا أحد يعلم بوقت وقوع القيامة، ويوجه الباري خطابه إلى حبيبه الأكرم صلى الله عليه وآله، بأنك لا تعلم وقت وقوعها، ويقول: «فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِيهَا».

فما خفى عليك (يا محمّد)، فمن باب أولى أن يخفى على الآخرين، والعلم بوقت قيام القيامة من الغيب الذي اختصه الله لنفسه، ولا سبيل لمعرفة ذلك سواء إطلاقاً.

وتقول الآية التالية: «إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا».

ويؤكد القرآن هذا المعنى في الآية (٣٤) من سورة لقمان: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ».

وفي الآية (١٨٧) من سورة الأعراف: «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي».

وتسهم الآية التالية في التوضيح: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا».

إنما تكليفك هو دعوة الناس إلى الدين الحق، وإنذار من يأبى بعقاب اخروي أليم، وما عليك تعيين وقت قيام الساعة.

وتأتى آخر آية من السورة لتبين أن ما تبقى من الوقت لحلول الوعد الحق ليس بالكثير:

«كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا».

«نهاية تفسير سورة النازعات»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧٣

٨٠. سورة عبس

محتوى السورة: يمكن ادراج محتويات السورة في خمسة مواضيع أساسية:

١- عتاب إلهي شديد لمن واجه الأعمى الباحث عن الحق بأسلوب غير لائق.

٢- أهمية القرآن الكريم.

٣- كفران الإنسان بالنعم والمواهب الإلهية.

٤- بيان جانب من النعم الإلهية في مجال تغذية الإنسان والحيوان لاثارة حس الشكر في الإنسان.

٥- الإشارة إلى بعض الحوادث الرهيبة ومصير المؤمنين والكفار في ذلك اليوم العظيم.

وتسمية السورة ب (عبس) لورود هذه الكلمة في أول آية منها.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة عبس جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر».

عَبَسَ وَ تَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَعْجَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى

(٦) وَمَا عَلَيْكَ أَنْ يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧٤

سبب النزول

تبيّن الآيات المباركة عتاب الله تعالى بشكل إجمالي، لشخص قدّم المال والمكانة الإجتماعية على طلب الحق ... أمّا من هو المعاتب؟ فقد اختلف فيه المفسرون، لكن المشهور بين عامّة المفسرين وخاصتهم، ما يلي:

إنّها نزلت في عبد الله بن ام مكتوم، وذلك أنّه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يناجى عتبه بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وابتاً واميّة ابنى خلف، يدعوهم إلى الله، ويرجو إسلامهم. فقال: يا رسول الله! أقرئني وعلمني ممّا علمك الله، فجعل يناديه ويكرر النداء، ولا يدرى أنّه مشغول مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله صلى الله عليه وآله لقطع كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد، إنّما أتباعه العميان والعييد، فأعرض عنه، وأقبل على القوم الذين يكلمهم، فنزلت الآيات. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك يكرمه «١».

والآية لم تدل صراحة على أن المخاطب هو شخص النبي الكريم صلى الله عليه وآله، وعلى فرض صحة شأن النزول آنفه الذكر، فإن فعل النبي صلى الله عليه وآله والحال هذه لا يخرج من كونه (تركا للأولى)، وهذا ما لا ينافي العصمة.

التفسير

عتاب رباني: بعد أن تحدثنا حول شأن نزول الآيات، نتقل إلى تفسيرها:

يقول القرآن أولاً: «عَبَسَ وَتَوَلَّى .

لماذا؟: «أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ، وَيَطْلُبُ الْإِيمَانَ وَالتَّقْوَى وَالتَّزَكِيَّةَ .

«أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، فَإِنْ لَمْ يَحْصِلْ عَلَى التَّقْوَى ، فَلَا أَقْلَ مِنْ أَنْ يَتَذَكَّرَ وَيَسْتَيْقِظَ مِنَ الْغَفْلَةِ ، فَيَنْفَعَهُ ذَلِكَ .

ويستمر العتاب ...: «أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى ، مَنْ عَتَبَ نَفْسَهُ غَنِيًّا وَلَا يَحْتَاجُ لِأَحَدٍ .

«فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ، تَتَوَجَّهْ إِلَيْهِ ، وَتَسْعَى فِي هِدَايَتِهِ ، فِي حِينِ أَنَّهُ مَغْرُورٌ لِمَا أَصَابَهُ مِنَ الثَّرْوَةِ ، وَالْمَغْرُورُ يُولِّدُ الطَّغْيَانَ وَالتَّكْبَرَ .

(١) تفسير مجمع البيان ١٠/٢٦٥ .

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧٥

«وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى . أَى فِي حِينِ لَوْ لَمْ يَسْلُكْ سَبِيلَ التَّقْوَى وَالإِيمَانَ ، فَلَيْسَ عَلَيْكَ شَيْءٌ .

فوظيفتك البلاغ، سواء آمن السامع أم لم يؤمن، وليس لك أن تهمل الأعمى الذى يطلب الحق، وإن كان هدفك أوسع ويشمل هداية كل اولئك الأغنياء المترفين أيضاً.

ويأتى العتاب مرة أخرى تأكيداً: «وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ، فِي طَلْبِ الْهَدَايَةِ ...

«وَهُوَ يَخْشَى . فَخَشِيَّتُهُ مِنَ اللَّهِ هِيَ الَّتِي دَفَعَتْهُ لِلْوَصُولِ إِلَيْكَ ، كَى يَسْتَمِعَ إِلَى الْحَقَائِقِ لِيَزَكَّى نَفْسَهُ فِيهَا ، وَيَعْمَلُ عَلَى مَقْتَضَاهَا .

«فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى «١» .

فالعتاب سواء كان موجه إلى النبي صلى الله عليه وآله أو إلى غيره، فقد جاء ليكشف عن اهتمام الإسلام أو القرآن بطالبي الحق، والمستضعفين منهم بالذات.

وعلى العكس من ذلك حدة وصرامة موقف الإسلام والقرآن من الأثرياء المغرورين إلى درجة أن الله لا يرضى بإيذاء رجل مؤمن مستضعف لغرض هدايتهم.

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) قَتَلَ الْإِنْسَانَ

مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢)

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) تأتي هذه الآيات المباركة لتشير إلى أهمية القرآن وطهارته وتأثيره فى النفوس، بعد أن تناولت الآيات التى

سبقته موضوع (الإعراض عن الأعمى الذى جاء لطلب الحق)، فتقول: «كَلَّا»، فلا ينبغى لك أن تعيد الكرة ثانية.

«إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ». إنما الآيات القرآنية تذكرة للعباد، فلا ينبغى الإعراض عن المستضعفين من ذوى القلوب النقية الصافية والتوجه إلى

المستكبرين، اولئك الذين ملأ الغرور نفوسهم المريضة.

ويحتمل أيضاً، كون الآيات «كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ» جواب لجميع التهم الموجهة ضد القرآن من قبل المشركين وأعداء الإسلام.

(١) «التلهى»: من «اللهو» ويأتى هنا بمعنى الغفلة عنه والإستغفال بغيره، ليقف فى قبال «التصدى».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧٦

تقول الآية: إن الأباطيل والتهم الزائفة التى افترت بها على القرآن من كونه شعر أو سحر أو نوع من الكهان، لا يمتلك من الصحة

شيئاً، وإنما الآيات القرآنية آيات تذكرة وإيمان، ودليلها فيها.

وتشير الآية التالية إلى اختيارية الهداية والتذكّر: «فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ».

نعم، فلا إكراه ولا إجبار، فلا إكراه في تقبل الهدى الرباني، فالآيات القرآنية مطروحة وأسمعت كل الآذان، وما على الإنسان إلّا أن يستفيد منها أو لا يستفيد.

ثم يضيف: أن هذه الكلمات الإلهية الشريفة مكتوبة في صحف (ألواح وأوراق): «فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ».

إنّ تعبير «الصحف» يوضح لنا أن القرآن قد كُتِبَ على ألواح من قبل أن يُنزل على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ووصلت إليه بطريق ملائكة الوحي، والألواح بطبيعتها جليّة القدر وعظيمة الشأن.

وهذه الصحف المكرمة: «مَرْفُوعَةٌ مُّطَهَّرَةٌ». فهي مرفوعة القدر عند الله، وأجلّ من أن تمتد إليها أيدي العابثين وممارسات المحرّفين، ولكونها خالية من قذارة الباطل، فهي أظهر من أن تجد فيها أثراً لأيّ تناقض أو تضاد أو شك أو شبهة.

وهي كذلك: «بِأَيْدِي سَفَرَةٍ»، سفراء من الملائكة.

وهؤلاء السفراء: «كِرَامٌ بَرَرَةٌ».

«سفرة»: جمع (سَافِرٍ) من (سَافَرَ)، ولغته: بمعنى كشف الغطاء عن الشيء، ولذا يطلق على الرسول ما بين الأقوام (السفير) لأنه يزيل ويكشف الوحشة فيما بينهم، ويطلق على الكاتب اسم (السافر)، وعلى الكتاب (سِفر) لما يقوم به من كشف موضوع ما ... فالسفرة هنا، بمعنى:

الملائكة الموكلين بإيصال الوحي الإلهي إلى النبي، أو الكاتبين لآياته.

في تفسير مجمع البيان: روى فضيل بن يسار عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الحافظ للقرآن العامل به مع السفرة الكرام البررة».

يجعل الحافظين للقرآن العاملين به في درجة السفرة الكرام البررة، فليسوا هم السفرة بل في مصافهم، لأنّ جلاله مقام حفظهم وعملهم، يماثل ما يؤديه حملة الوحي الإلهي.

«كرام»: جمع «كريم»، بمعنى العزيز المحترم، وتشير كلمة «كرام» في الآية إلى عظمة ملائكة الوحي عند الله وعلو منزلتهم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧٧

«بررة»: جمع «بار»، من «البرّ»، بمعنى التوسع، ولذا يطلق على الصحراء الواسعة اسم (البرّ)، كما يطلق على الفرد الصالح اسم (البار) لوسعه خيره وشمول بر كاته على الآخرين.

و «البررة»: في الآية، بمعنى إطاعة الأمر الإلهي، والطهارة من الذنوب.

وعلى الرغم من توفير مختلف وسائل الهداية إلى الله، ومنها ما في الصحف المكرمة من تذكير وتوجيه .. ولكن الإنسان يبقى عنيداً متمرداً: «قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ».

«الكفر»: في هذا الموضوع قد يحتمل على ثلاثة معانٍ ... عدم الإيمان، الكفران وعدم الشكر ... جحود الحق وستره بأيّ غطاء كان وعلى كل المستويات.

«قُتِلَ الْإِنْسَانُ»: كناية عن شدة غضب الباري جلّ وعلا، وزجره لمن يكفر بآياته.

ثم يتعرض البيان القرآني إلى غرور الإنسان الواهي، والذي غالباً ما يقع صاحبه في هاوية الكفر والجحود السحيقة: «مَنْ أَى شَيْءٍ خَلَقَهُ».

لقد خلقه من نطفة قذرة حقيرة، ثم صنع منه مخلوقاً موزوناً مستويّاً قدر فيه جميع اموره في مختلف مراحل حياته: «مَنْ نُطِفَهُ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ».

فالنظرة الفاحصة الممعنة في خلق الإنسان من نطفة قذرة وتحويله إلى هيئته التامة المقدره من كافة الجهات، ومع ما منحه الله من

مواهب وإستعدادات ... لأفضل دليل يقودنا بيسر إلى معرفته جلّ اسمه.

«قَدْرُهُ»: من «التقدير»، وهو الحساب في الشيء.

والتقدير بمعنى إيجاد القدرة في هذه النطفة المتناهية في الصغر.

فما أجلّ الإله الذى جعل في موجود ضعيف كل هذه القدرة والإستطاعة، فترى النطفة بعد أن تتحول إلى الإنسان تسيير

وتتحرك بين أقطار السماوات والأرض، وتغوص في أعماق البحار وقد سخرت لها كل ما يحيط بها من قوى

ويستمر القرآن في مشوار المقال: «ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ» ... يَسِرُّ له طريق تكامله حينما كان جنيناً فى بطن أمه، يَسِرُّ له سبيل خروجه إلى

الحياة من ذلك العالم المظلم.

ومن عجيب خلق الإنسان أنه قبل خروجه من بطن أمه يكون على الهيئة التالية: رأسه إلى الأعلى ورجليه إلى الأسفل، ووجهه متجهاً

صوب ظهر أمه، وما أن تحين ساعة الولادة حتى تنقلب هيئته فيصبح رأسه إلى الأسفل كى تسهل وتيسر ولادته.

وبعد ولادته يمرّ الإنسان فى مرحلة الطفولة التى تتميز بنموه الجسمى، ثم مرحلة نمو

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧٨

الغرائز، فالرشد فى مسير الهداية الإيمانية والروحية، ويساهم العقل ودعوة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام فى تركيز معالم شخصيته

وبناء الإنسان روحياً وإيمانياً. وتشير الآية التالية إلى الأمر الحتمى الذى به تطوى آخر صفحات مشوار الحياة الدنيا:

«ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ».

وحكم دفن الأموات (بعد الغسل والتكفين والصلاة)، يبين لنا ... أنه ينبغى على الإنسان أن يكون طاهراً محترماً فى موته، فكيف به يا

تُرى وهو حيّ؟!

وينتقل البيان القرآنى إلى يوم القيامة: «ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ».

«أنشره»: من «النشر»، بمعنى الإنبساط بعد الجمع، فالكلمة تشير بأسلوب بلاغى رائع إلى جمع كل حياة الإنسان عند الموت لتنتشر فى

محيط أكبر وأعلى (يوم القيامة).

وتأتى الآية الأخيرة من الآيات المبحوثة لتبين لنا ما يؤول إليه الإنسان من ضياع فى حال عدم اعتباره بكل ما أعطاه الله من المواهب،

فبالرغم من حتمية تسلسل حياة الإنسان من نطفة حقيرة، مروراً بما يطويه من صفحات الزمن العابرة، حتى يموت ويقبر، لكنه .. «كَلَّا

لَمَّا يَفْضُ مَا أَمَرَهُ».

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبْنًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَ

نَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فلينظر الإنسان إلى طعامه: تحدثت الآيات السابقة حول

مسألة المعاد، والآيات القادمة تتناول نفس الموضوع بشكل أوضح، ويبدو أن الآيات المبحوثة- وانسياقاً مع ما قبلها وما بعدها- تنطرق

لذات البحث وتبين مفردات قدرة البارى جلّ شأنه على كل شىء كدليل على إمكان تحقق المعاد، فما يقرب إمكانية القيامة إلى

الأذهان هو إحياء الأراضى الميتة بإنزال المطر عليها، العملية تمثل إحياء بعد موت مختصة بعالم النبات.

ثم إن البيان القرآنى فى الآيات أعلاه قد طرح بعض مفردات الأغذية التى جعلها الله تحت تصرف الإنسان والحيوان، لتشير عند

الإنسان الإحساس بضرورة شكر المنعم الواهب، وهذا الإحساس بدوره سيدفع الإنسان ليتقرب فى معرفة بارئه ومصوره.

وشرعت الآيات بقولها: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ»، كيف خلقه الله تعالى؟!

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٧٩

الغذاء من أقرب الأشياء الخارجية من الإنسان وأحد العوامل الرئيسية فى بناء بدنه، ولولاه لتقطعت أنفاس الإنسان وأسدلت ستارة

نصيبه من الحياة، ولذلك جاء التأكيد القرآنى على الغذاء وبالذات النباتى منه دون بقية العوامل المسخرة لخدمته هذا المخلوق الصغير

فى حجمه.

ومن الجلى أن «النظر» المأمور به فى الآية جاء بصيغة المجاز، وارىد به التأمل والتفكير فى بناء هذه المواد الغذائية، وما تحويه من تركيبات حياتية، وما لها من تأثيرات مهمة وفاعلة فى وجود الإنسان، وصولاً إلى حال التأمل فى أمر خالقها جلّ وعلا. وهكذا النظر إلى كيفية حصوله ... فهل كان من حلال أم من حرام؟ هل هو مشروع أم غير مشروع؟ أى ينظر إلى طعامه من جانبه الأخلاقى والتشريعى.

وقد ذكر فى بعض روايات أهل البيت عليهم السلام إن المراد ب «الطعام» فى الآية هو (العلم) لأنه غذاء الروح الإنسانية. فى الكافى: زيد الشحام عن أبى جعفر الباقر عليه السلام فى قول الله عزّ وجل «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ» قال: قلت ما طعامه؟ قال: «علمه الذى يأخذه عمن يأخذه».

نعم ... ينبغى على الإنسان أن يكون دقيقاً فى متابعة مصدر ومنبع علمه ليطمئن لغذائه الروحى، وليأمن بالنتيجة من مدلهمات الخطوب التى تؤدى لمرض الروح أو هلاكها.

ثم يدخل القرآن فى شرح تفصيلى لماهىة الغذاء ومصدر تشكيله، فىقول «أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا».

«الصب»: إراقة الماء من أعلى، وجاء هنا بمعنى هطول المطر. نعم .. فالماء مصدر رئيسى للحياة، وهو على الدوام ينزل من السماء وبغزارة ليجسد لطف الله تعالى على خلقه.

كيف لا، وكل العيون والآبار والقنوات والأنهار قد استمدت أساس وجودها من الأمطار.

وبعد ذكر نعمة الماء وما له من أثر حيوى ومهم فى نمو النباتات، ينتقل البيان القرآنى إلى الأرض، فىقول: «ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا».

إن الآية تشير إلى عملية شقّ الأرض بواسطة النباتات التى تبدأ بالظهور على سطح الأرض بعد عملية بذر الحبوب، والعلمية بحدّ ذاتها مدعاة للتأمل، إذ كيف يمكن لهذا العشب الصغير الناعم أن يفتت سطح التربة مع ما لها من صلابة وخشونة، بل ونرى فى

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨٠

المناطق الجبلية أن سويقات نباتاتها قد ظهرت من بين حافات صخورها الصلدة. وثمة تفسير اخرى يقول: إن شقّ الأرض فى الآية إشارة إلى تفتت الصخور التى كانت على سطح الأرض.

فالآية تمثل إحدى مفردات الإعجاز العلمى للقرآن، لأنها تناولت موضوع الأمطار وتشقق الأرض لتضحى قابلة للزراعة، بشكل علمى دقيق، والآية لم تتحدث عن شىء قد حدث، بل حدث ولا زال. يبدو أن هذا التفسير ينسجم مع ما طرحه الآية التالية بخصوص عملية الإنبات.

وبعد ذكر ركنين أساسيين فى عملية الإنبات - أى الماء والتراب - ينتقل القرآن بالإشارة إلى ثمانية مصادر لغذاء الإنسان أو الحيوان: «فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا».

تعتبر الحبوب من الأغذية الرئيسية للإنسان والحيوان معاً، وتتوضح أهميتها فيما لو عمّ الجفاف - على سبيل المثال - فمدّة عام واحد، حيث يعمّ القحط وتنتشر المجاعة فى كل مكان.

ثم يضيف: «وَعَبَبًا وَقَصَبًا».

وقد اختارت الآية العنب دون البقية لما اودع فيه من مواد غذائية غنية بالمقويات، حتى قيل عنه بأنه غذاء كامل.

ومع أن «العنب» يطلق على الشجرة والثمرة، وبالرغم من ورود كلا- الإستعمالين فى الآيات القرآنية، لكن المناسب هنا الثمرة دون الشجرة.

«قصباً»: هو الخضراوات التى تؤكل طرية والنباتات الزاحفة وكذا الأرضية.

ثم يضيف: «وَرَبِيْثًا وَنَخْلًا».

ومن الواضح أن ذكر هاتين الفاكهتين لما لهما من الأهمية الغذائية للإنسان، حيث يعتبر الزيتون والتمر من أهم الأغذية المقوية والصحية والمفيدة للإنسان.

وتأتي المرحلة التالية: «وَحَدَاتِقٌ عُلبًا».

«الحدائق»: جمع (حديقة)، وهي الأرض المزروعة والمحاطة بسور يحفظها، وهي في الأصل بمعنى: قطعة الأرض التي تحتوي على الماء، وسميت حديقة تشبيهاً بحديقة العين من حيث الهيئة وحصول الماء فيها.

ويحتمل إشارة الآية إلى أنواع الفواكه، باعتبار أن الحدائق غالباً ما تزرع بأشجار الفاكهة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨١

«غلب»: على وزن (قفل)، جمع (أغلب) و (غلباء)، بمعنى غليظ الرقبه، فلاية إذن ترمز إلى الأشجار الشاهقة المتينة. ثم يضيف: «وَفَاكِهَةٌ وَأَبًا».

«الأب»: (بتشديد الباء)، هو المرعى المهيأ للرعى والحصد، وهو في الأصل بمعنى «التهيو»، اطلق على المرعى لما فيه من أعشاب يكون بها مهيناً لاستفادة الحيوانات منه.

ويواجهنا سؤال: إذا كانت الآيات السابقة ذكرت بعض أنواع الفاكهة، والآية المبحوثة تناولت الفاكهة بشكل عام، هذا بالإضافة إلى ذكر ال «حدائق» في الآية السابقة والتي قيل أن ظاهرها يشير إلى الفاكهة ... فلم هذا التكرار؟

الجواب: إن تخصيص ذكر العنب والزيتون والتمر (بقريته ذكر النخل)، إنما جاء ذكرها لأهميتها المميزة على بقية الفاكهة.

أما لماذا ذكرت الحدائق بشكل منفصل عن الفاكهة؟ فيمكن حمله على ما للحدائق من منافع خاصة بها، ولا تشترك الفاكهة فيها، كجمالية منظرها وعدوبه نسيما وما شابه ذلك، بالإضافة إلى استعمال أوراق الأشجار وجذورها وقشورها جذوعها كمواد غذائية (كالشاي والزنجبيل وأمثالها)، أما بالنسبة للحيوانات، فأوراق الأشجار المختلفة من أفضل أغذيتها عموماً ... فالآيات إذن كانت في صدد الحديث عن غذاء الإنسان والحيوان.

ولذلك ... جاءت الآية التالية لتوضح هذا المعنى: «مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ».

و «المتاع»: هو كل ما يستفيد منه الإنسان ويتمتع به.

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ (٤٢)

صيحته البعث ...: وينتقل الحديث في هذه الآيات إلى يوم القيامة وتصوير حوادثه، وما سيؤول إليه أحوال المؤمنين الكافرين، كل بما كسبت يدها وقدم.

فمتاع الحياة الدنيا وإن طال فهو قليل جداً في حساب حقيقة الزمن، وأن خالق كل شيء لعظيم في خلقه وشأنه، وأن المعاد حق ولا بد من حتمية وقوعه.

ويقول القرآن الكريم: «فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨٢

«الصَّاحَّةُ»: من «صَحَّ» وهو الصوت الشديد الذي يكاد يأخذ بسمع الإنسان، ويشير في الآية إلى نفخة الصور الثانية، وهي الصيحة الرهيبة التي تعيد الحياة إلى الموجودات بعد موتها جميعاً ليبدأ منها يوم الحشر.

ولذا تأتي الآية التالية، ولتقول مباشرة: «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ».

ذلك الأخ الذي ما كان يفارقه وقد ارتبط به بوشائج الاخوة الحققة!

وكذلك: «وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ».

حتى: «وَصَاحِبَيْهِ وَبَيْنِهِ».

فوحشة ورهبة يوم القيامة لا تُنسى الأخ والام والأب والزوجة والأولاد فحسب، بل وتتعدى إلى الفرار منهم، وعندما ستتقطع كل روابط وعلاقات الإنسان الفرد مع الآخرين.

ولكن ... لم الفرار؟ ... «لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ».

«يغنيه»: كناية لطيفة عن شدة انشغال الإنسان بنفسه فى ذلك اليوم، ولما سبرى من حادث مذهلة، تأخذه كاملاً، فكراً وقلباً.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال له بعض أهله: يا رسول الله! هل يذكر الرجل يوم القيامة حميمه؟ فقال صلى الله عليه وآله: «ثلاثة مواطن لا يذكر أحد أحداً: عند الميزان حتى ينظر أثقل ميزانه أم يخفّ، وعند الصراط حتى ينظر أيجوزه أم لا، وعند الصحف حتى ينظر بيمينه يأخذ الصحف أم بشماله، فهذه ثلاثة مواطن لا يذكر فيها أحد حميمه ولا حبيبه ولا قريبه ولا صديقه، ولا بنيه ولا والديه، وذلك قول الله تعالى: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» «١».

ويتنقل البيان القرآنى ليعبر لنا حال العباد بقسميهم فى ذلك اليوم، فتقول:

«وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ». أى مشرقة وصبيحة.

«ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ». «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبْرَةٌ». «تَرَهَّقَهَا قَتْرَةٌ». أى تغطيها ظلمات ودخان.

«أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ».

«مسفرة»: من «الأسفار»، بمعنى الظهور بياض الصباح بعد ظلام الليل.

(١) البرهان فى تفسير القرآن ٥/ ٥٨٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨٣

«غبرة»: على وزن (غَلَبَةٌ)، من «الغبار».

«قتره»: من «القتار»، وهو شبه دخان يغشى من الكذب.

«الكفرة»: جمع (كافر)، والوصف يشير إلى فاسدى العقيدة.

«الفجر»: جمع (فاجر)، والوصف يشير إلى فاسدى العمل.

ونستخلص من كل ما تقدّم، أن آثار فساد العقيدة لدى الإنسان وأعماله السيئة ستظهر على وجهه يوم القيامة.

وقد اختير الوجه، لأنه أكثر أجزاء الإنسان تعبيراً عما يخالجه من حالات الغبطة والسرور أو الحزن والكآبة.

«نهاية تفسير سورة عبس»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨٥

٨١. سورة التكوير

محتوى السورة: هذه السورة تدور حول محورين أساسيين:

الأول: هو ما شرعت به السورة من تبيان علائم يوم القيامة، وما يواجهه العالم من تغييرات قبيل يوم القيامة.

الثانى: الحديث عن عظمة القرآن ومن جاء به، وأثره على النفس الإنسانية، بالإضافة إلى تكرار اليمين والقسم فى آيات عدّة لإيقاظ الإنسان من غفلته.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان: ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ سورة إذا الشمس كوّرت أعاده الله تعالى أن يفضحه حين تنشر صحيفته».

وروى أبو بكر قال: قلت لرسول الله: يا رسول الله! أسرع إليك الشيب؟ قال: «شيبتي هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون وإذا الشمس كورت».

وتلاوة القرآن المقصودة في الحديث أعلاه، ينبغي أن يكون بشروطها من: التأمل، الإيمان والعمل.

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨٦

يوم تطوى الكائنات فيه: نواجه في بداية السورة إشارات قصيرة، مثيرة ومرعبة لما سيجرى لنهاية العالم المذهلة، فقد تحدثت هذه الآيات عن ثمانية علائم من ويوم القيامة.

وأول مشهد عرضته عدسة العرض القرآني، هو: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ».

«كورت»: من «التكوير» بمعنى الطي والجمع واللف (مثل لف العمامة على الرأس).

فالمقصود هو: خمود نور الشمس وذهابه، وتغير نظام تكوينها.

وكما بات معلوماً... فالشمس في وضعها الحالي، عبارة عن كرة مشتعلة، على هيئة غازية ملتهبة، وتتفجر الغازات على سطحها بصورة شعلات هائلة محرقة، قد يصل ارتفاعها إلى مئات الآلاف من الكيلو مترات.

ولو قُدِّر وضع الكرة الأرضية وسط شعلة منها، فإنها تستحيل فوراً إلى رماد وكتلة من الغازات.

ولكن... عند حلول وقت نهاية العالم، والإقتراب من يوم القيامة، سيخمد ذلك اللهب المروع، وستجمع تلك الشعلات، فيطفأ نور الشمس، ويصغر حجمها... وهو ما اشير إليه بالتكوير.

وقد أيد العلم الحديث هذه الحقيقة، من خلال اعتقاده وبعد دراسات علمية كثيرة، بأن الشمس تسير تدريجياً نحو الظلام والإنطفاء.

ويأتي المشهد الثاني: «وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ».

«انكدرت»: من «الإنكدار»، بمعنى السقوط والتناثر، واشتق من (الكدورة)، وهي السواد والظلام.

ويمكن جمع المعنيين في الآية، لأنّ النجوم في يوم القيامة ستفقد إشعاعها وتتناثر وتسقط في هاوية الفناء.

والمشهد الثالث: «وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ».

وقد ذكرنا مراحل فناء الجبال، ابتداءً من السير والحركة وانتهاءً بتحولها إلى غبار متناثر (فراجع تفسير الآية ٢٠ من سورة النبا).

وتم يأتي دور المشهد الرابع: «وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ».

«العشار»: جمع (عشراء)، وهي الناقة التي مرّ على حملها عشرة أشهر، فأضحت على أبواب الولادة، بعدما امتلأت أنداؤها باللبن.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨٧

وهي من أحبّ وأثمن النوق لدى العرب زمن نزول الآية المباركة.

«عطلت»: تركت لا راعي لها. فهول ووحشة القيامة، سينسى الإنسان أحبّ وأثمن ما يمتلكه.

ويتنقل المشهد الخامس إلى الوحوش: «وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ».

فالحوانات الوحشية التي تراها في الحالات العادية تتبعد الواحدة عن الاخرى خوفاً من الإقتراس والبطش، سترها وقد جمعت في محفل واحد، وكل منها لا يلتفت إلى ما حوله لما سيصاب به من رهبة وأهوال ذلك اليوم الخطير، وكأنّها تقصد من اجتماعها هذا التخفيف عن شدّة خوفها وفزعها.

ونقول: إذا اضمحلت كل خصائص الوحشية للحيوانات غير الأليفة نتيجة لأهوال يوم القيامة، فما سيكون مصير الإنسان حينئذ؟!

وتُصوّر البحار في المشهد السادس: «وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ».

«سجرت»: من «التسجير»، بمعنى إضرام النار.

وإذا خالغ القدماء التعجب والإستغراب لهذا الوصف القرآني، فقد بات اليوم من البديهيات الكسبية، لما يتركب منه الماء من عنصري الأوكسجين والهيدروجين، القابلات للإشتعال بسرعة، ولا يستبعد أن يوضع الماء- في إرهاصات يوم القيامة- تحت ضغط شديد ممّا يؤدّي إلى تجزئته وتفكيك عناصره، وعندها سيتحول إلى كتلة ملتهبة من النار.

ويأتى درو المشهد السابع: «وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ».

فتبدأ المآلفة بخلاف حال الدنيا... فالصالحون مع الصالحين، والمسيئون مع المسيئين، وأصحاب اليمين مع أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال مع أصحاب الشمال، فإذا ما جاور المؤمن مشركاً، أو تزوج الصالح من غير الصالحة في الحياة الدنيا، فتصنيف يوم لقيامة غير ذلك، فهو يوم الفصل الحق.

ونصل إلى المشهد الثامن: «وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سَلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ».

«الموءودة»: من «الوأة» على وزن (وعد)، بمعنى دفن البنت حيّة بعد ولادتها.

وأطلق الأئمة الأطهار عليهم السلام مفهوم الوأة، ليشمل كل قطع رحم وقطع مودة... حينما سئل

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨٨

الإمام الباقر عليه السلام عن معنى الآية، قال: «هو من قتل في مودتنا ولايتنا» «١». ولا شك أن التفسير الأول ينسجم مع ظاهر الآية، ولكن المفهوم والملاك قابلان للتوسع والشمول.

وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا الْجَبَلِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْضِرَتْ (١٤) يوم يرى الإنسان ما قدّم: فبعد مرحلة الفناء العام، تأتى مرحلة الظهور الجديد للعالم، لتقام محكمة العدل الإلهي، ومن معالم هذه المرحلة: «وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ».

فستنشر الصحف التي دوّنت فيها أعمال الناس من قبل الملائكة وكل سيعرف جزاءه بعد الإطلاع على صحيفه أعماله، كما تشير إلى ذلك الآية (١٤) من سورة الإسراء: «أَفْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَسِيًّا».

وسيكون نشر الصحف أمام الملاء العام لتقرّ عيون المحسنين سروراً، ويقاسى المسيئون العذاب النفسى.

ثم يضيف: «وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ».

«كشطت»: من «الكشط» على وزن (كشف)، بمعنى قلع جلد الناقة.

وما يراد من «كشطت» فى الآية، هو: رفع الحجب الفاصلة بين العالمين الدنيوى والعلوى، التى تمنع رؤية الناس للملائكة أو الجنة والنار، فيرى الإنسان حينها عالم الوجود شاخصاً أمام ناظره شخصاً حقيقياً.

فالأية قد تحدثت عن المرحلة الثانية للقيامة؛ مرحلة ما بعد البعث.

ويتأكد ذلك بوضوح من خلال الآية: «وَإِذَا الْجَبَلِيمُ سُعِّرَتْ».

فجهنم موجودة فى كل الأوقات، ولكن حجب الدنيا هى المانعة من رؤيتها، فالآية على سياق الآية (٤٩) من سورة التوبة: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ». وكما أن جهنم

(١) تفسير على بن إبراهيم ٢/ ٤٠٧.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٨٩

موجودة فالجنة كذلك بدلالة آيات قرآنية كثيرة.

ويبين البيان القرآنى بذات السياق السابق: «وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ».

وهذا المعنى هو تكرار لما جاء في الآية (٩٠) من سورة الشعراء: «وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ».

«ازلقت»: من «زلف» على وزن (حرف) .. و «زلفى»: على وزن (كبرى)، بمعنى القرب، فيمكن أن يكون المراد هو: القرب المكاني، أو القرب الزماني، أو القرب من حيث الأسباب والمقدمات، ويمكن أيضاً أن تحمل الكلمة جميع ما ذكر من معانٍ. وتأتى الآية الأخيرة- من الآيات المبحوثة- لتتم ما جاء قبلها من جمل، حيث تمثل جزء الشرط للجمل السابقة والتي وردت في (١٢) آية: «عَلِمْتُ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتُ».

فستحضر أعمال الإنسان كاملة، ولا من محيص من العلم والإطلاع بها في عالم الشهود والمشاهدة.

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة مرات عديدة في آيات مباركات، منها: الآية (٤٩) من سورة الكهف: «وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا»، والآيتان (٧ و ٨) من سورة الزلزلة: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ».

فَلَا أُفْسِمُ بِالْخُنُوسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) بعد أن تناولت الآيات السابقة مواضيع: المعاد، مقدمات يوم القيامة، وحوادث يوم القيامة ... تأتي الآيات أعلاه لتتحدث عن أحقية القرآن وصدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله، والآيات في حقيقتها تؤكد على ما جاء في الآيات السابقة لموضوع «المعاد»، إضافةً لذكرها صور بيانية منبهة على هذه الحقيقة.

وتشرع الآيات ب: «فَلَا أُفْسِمُ بِالْخُنُوسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ».

«الخنس»: جمع (خانسة)، من (خنس) وهو الإختباء والإختفاء، ويقال للشيطان:

«الخناس»، لأنه إذا ذكر الله تعالى يخنس، وكما ورد في الحديث الشريف: «الشيطان يوسوس إلى العبد فإذا ذكر الله خنس».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩٠

«الجوار»: جمع (جارية)، وهي الشئ الذي يتحرك بسرعة.

«الكنس»: جمع (كانسة)، من (كنس)، وهو الإختفاء، و «كناس» الطير والوحش: بيت يتخذه.

والمقصود بهذا القسم كما روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال في تفسير الآيات المذكورة: «هي خمسة أنجم: زحل، والمشتري، والمريخ، والزهرة، وعطارد» «١». والتي يمكن رؤيتها بالعين المجردة.

ونقول توضيحاً: لو تأملنا السماء عدّة ليالٍ، لرأينا أنّ نجوم السماء أو القبة السماوية تظهر وتغيب بشكل جماعي من دون أن تتغير الفواصل والمسافات فيما بينها، وكأنّها لثالئ خيطة على قطعة قماش داكن اللون، وهذه القطعة تتحرك من المشرق إلى المغرب، إلّا خمسة كواكب قد خرجت عن هذه القاعدة، فراها تتحرك وليس بينها وبين بقية النجوم فواصل ثابتة، وكأنّها لثالئ قد وضعت على تلك القطعة وضعتاً، من دون أن تخطبها.

وهذه الكواكب الخمس هي المقصودة في هذا التفسير، وما نلاحظه من حركتها إنّما تكون لقربها منا ولا تتمكن من تمييز حركات بقية النجوم لعظم المسافة فيما بيننا وبينها.

ومن جهة أخرى: ينبغي التنويه إلى أنّ علماء الفلك يطلقون على هذه الكواكب اسم (الكواكب المتحيرة)، لأنها لا تتحرك على خط مستقيم ثابت، فراها تسير باتجاه معين من الزمن ثم تعود قليلاً ومن ثم تتابع مسيرها الأول وهكذا ... ولهؤلاء العلماء بحوث علمية كثيرة في تحليل هذه الظاهرة.

وعليه ... يمكن حمل إشارة الآيات إلى الكواكب السيارة «الجوار»، التي في سيرها لها رجوع «الخنس»، ثم تختفي عند طلوع الفجر وشروق الشمس ... فهي تشبه غزلاً يتصيد طعامه في الليل وما أن يحل النهار حتى يختفي عن أنظار الصيادين والحيوانات المفترسة فيذهب إلى «كناسه»، ولذا وصفت الكواكب ب «الكنس».

فكان القرآن الكريم يريد بهذا القسم الملىء بالمعاني الممتزجة بنوع من الإبهام، كأنه يريد إثارة الفكر الإنساني، وتوجيهه صوب الكواكب السيارة ذات الوضع الخاص على القبة السماوية، ليتأمل أمرها وقدره وعظمة خالقها سبحانه وتعالى.

(١) تفسير مجمع البيان ١٠ / ٢٨٠.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩١

ويعرض لنا القرآن لوحة اخرى: «وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ».

«عسس»: من «العسوسة»، وهي رقة الظلام في طرفي الليل (أوله وآخره). وبالرغم من اطلاق هذه المفردة على معنيين متفاوتين، ولكن المراد منها في هذه الآية هو آخر الليل فقط بقربنه الآية التالية لها، وهو ما يشابه القسم الوارد في الآية (٣٣) من سورة المدثر: «وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ».

ويأتي القسم الثالث والأخير من الآيات: «وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ».

ويأتي هذا الوصف في سياق ما ورد في سورة المدثر، فبعد القسم بإدبار الليل، قال:

«وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ»، فكان الليل ستارة سوداء قد غطت وجه الصبح، فما أن أدبر الليل حتى رفعت تلك الستارة فبان وجه الصبح مشرقاً، وأسفر للحياة من جديد.

وتجسد الآية التالية جواب القسم للآيات السابقة: «إِنَّهُ لَقَوْلِ رَسُولٍ كَرِيمٍ».

فالجواب موجه لمن اتهم النبي صلى الله عليه وآله باختلاق القرآن ونسبته إلى الباري جل شأنه.

وقد تناولت هذه الآية وما بعدها خمسة أوصاف لأمين وحى الله جبرائيل عليه السلام، وهي الأوصاف التي ينبغي توفرها في كل رسول جامع لشرائط الرسالة ...

فالصفة الاولى: إنه «كريم»: إشارة إلى علو مرتبته وجلاله شأنه.

ومن صفاته أيضاً: «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ».

«ذِي الْعَرْشِ»: ذات الله المقدسة.

مع أن الله مالك كل عالم الوجود، فقد وصف «بذِي الْعَرْشِ» لما للعرش من أهمية بالغة على غيره (سواء كان العرش بمعنى عالم ما وراء الطبيعة، أو بمعنى مقام العلم المكنون).

أما وصفه ب «ذِي قُوَّةٍ» (أى: صاحب قدرة)، لما للقدرة العظيمة والقوة الفائقة من دور مهم وفعال في عملية حمل وإبلاغ الرسالة.

«مَكِينٍ»: صاحب منزلة ومكانة.

والتعبير ب «عِنْدَ» هو الحضور المقامي والقرب المعنوي.

وتتناول الآية التالية الصفة الرابعة والخامسة: «مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ».

ويستفاد من الروايات: إن جبرائيل ينزل أحياناً وبصحبه جمع كبير من الملائكة في حال ابلاغه للآيات القرآنية المباركة، وهو ما يوحى بأنه مطاع بينهم، وهو ما ينبغي أن يكون في كل أمة تتبع رسولاً، فلا بد من إطاعتها له.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩٢

في تفسير مجمع البيان: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لجبرائيل عليه السلام: «ما أحسن ما أثنى عليك ربك! ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ الْعَرْشِ مَكِينٍ، مطاعٌ ثم أمين، فما كانت قوتك وما كانت أمانتك؟ فقال: أما قوتي فإني بعثت إلى مدائن لوط، وهي أربع مدائن في كل مدينة أربعمئة ألف مقاتل سوى الذراري، فحملتهن من الأرض السفلى حتى سمع أهل السماوات أصوات الدجاج، ونباح الكلاب، ثم هويت بهن فقلبتهن. وأما أمانتي، فإني لم أوامر بشيء فعدوته إلى غيره».

وينفى القرآن ما تُنسب إلى النبي: «وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ».

«الصاحب»: هو الملازم والرفيق والجليس؛ والوصف هذا مضافاً إلى أنه يحكى عن تواضع النبي صلى الله عليه وآله مع جميع الناس ... فلم يرغب يوماً في الإستعلاء على أحد منكم، فإنه قد عاش بينكم حقبة طويلة، وجالسكم، فلمستم عن قرب رجاحة عقله وحسن درايته وأمانته، فكيف تنسبون له الجنون؟!!

ويؤكد القرآن على الارتباط الوثيق ما بين النبي صلى الله عليه وآله وجبرائيل: «وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ». وهو «الأفق الأعلى» الذى تظهر فيه الملائكة، حيث شاهد رسول الله جبرائيل.

وتأتى الصفة الخامسة: «وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ».

«ضنين»: من «ضنّة» على وزن (منّة)، أى: البخل بالأشياء الثمينة والنفيسة، فالأنبياء عليهم السلام منزّهون عن ذلك، وإذا ما بخل الآخرون بما صار فى حوزتهم من علم محدود، فالتبى فوق ذلك وأنزه مع ما له من منبع علم إلهى.

وتقول آخر الآيات المبحوثة: «وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ».

فالآيات القرآنية ليست كحديث الكهنة الذى يأخذه من الشياطين، ودليلها معها، حيث إن حديث الكهنة محشو بالكاذب والتناقضات، ويدور حول محور ميولهم ورغباتهم، فى حين لا يشاهد ذلك فى الآيات القرآنية إطلاقاً.

فَأَيُّنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) إلى أين ... أيها الغافلون: أكدت الآيات السابقة بيان جلى حقيقة كون القرآن كلام الله ... فمحتواه ينطق عن كونه كلاماً رحمانياً وليس شيطانياً، وقد نزل به رسول كريم مقتدر وأمين، وقام بتبليغه النبي الصادق الأمين صلى الله عليه وآله الذى لم يبخل فى البلاغ فى شىء، وما تهاون عن تعليم الناس فيما ارسل به.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩٣

فيما توبخ الآيات أعلاه اولئك الذين عادوا القرآن وانحرفوا عن خط سير الرسالة الربانية الهادية، فتقول لهم بصيغة الإستفهام التوبيخى: «فَأَيُّنَ تَذْهَبُونَ».

وتأتى الآية الثانية لتقول: «إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ».

فالآية تتحدث بلسان الوعظ والتذكير، عسى أن يستيقظ من تملكه نوم غفلته.

لا يمكن للهداية والتربية أن تؤدى فعلها بوجود المرشد الناحج فقط، بل لابد من توفر عنصر الإستعداد وتقبل الهداية من قبل الطرف الآخر، ولذلك ... فبعد الوعظ والتذكير جاءت الآية التالية لتبين هذه الحقيقة: «لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ».

فالآية الاولى قد ذكرت عمومية الفيض الإلهى فى القرآن الكريم، فيما خصصت الآية التالية عملية الإستفادة من هذا الفيض الجزيل وحددته بشرط الإستقامة.

وهذه القاعدة جارية فى جميع النعم والمواهب الإلهية فى العالم، فإنها عامة التمكين، خاصة الإستفادة، فمن لا يملك الإرادة والتصميم على ضوء الهدى القرآنى لا يستحق فيض رحمة الله ونعمه.

ولكى لا يتصور بأن مشيئة وإرادة الإنسان مطلقه فى سيره على الطريق المستقيم، ولكى يربط الإنسان مشيئته بمشيئته وتوفيق الله عز وجل، جاءت الآية التالية لتقول: «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

والآيتان السابقتان تبينان فلسفة «أمر بين الأمرين» التى أشار إليها الإمام الصادق عليه السلام؛ فمن جهه، إن الإرادة والقرار بيدكم، ومن جهة اخرى، يلزم تلك الإرادة وذلك القرار ما يشاء الله رب العالمين ... وإن خلقتم أحراراً مختارين، فالحرية والاختيار منه جل اسمه، ولولا إرادته ذلك لما كان.

فالإنسان ليس بمجبور على أعماله مطلقاً، ولا هو بمختار بكل معنى الاختيار، ولكن ...

كما روى عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين». فكل ما للإنسان من: عقل، فهم، قدرة بدنية، وقدرة على اتخاذ القرار، كل ذلك من الله عز وجل، فهو من جهة في حالة الحاجة الدائمة للاتصال به جل شأنه، ولو شاء الله لتوقف كل شيء وانتهى، وهو من جهة أخرى مسؤول عن أعماله لما له من حرية واختيار على تنفيذها.

«نهاية تفسير سورة التكوير»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩٥

٨٢. سورة الإنفطار

محتوى السورة: لا- تشذ السورة عن سياق سور الجزء الأخير من القرآن الكريم، وتدور حول محور المسائل المتعلقة بيوم القيامة. تتضمن مجموع آياتها المواضيع التالية:

- ١- أشراف الساعة، وهي الحوادث الهائلة التي سيشهدها العالم أواخر لحظات عمره وعند قيام الساعة.
- ٢- التذكير بالنعم الإلهية الداخلة في كل وجود الإنسان، وكسر حالة غرور الإنسان، وتهيته للمعاد.
- ٣- الإشارة إلى ملائكة تسجيل أعمال الإنسان.
- ٤- بيان عاقبة المحسنين والمسيئين في يوم القيامة.
- ٥- لمحات سريعة عما سيجرى في ذلك اليوم العظيم.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ومن قرأ هاتين السورتين: إذا السماء انفطرت؛ وإذا السماء انشقت، وجعلهما نصب عينه في صلاة الفريضة والنافلة، لم يحجبه من الله حجاب، ولم يحجزه من الله حاجز، ولم يزل ينظر إلى الله وينظر الله إليه حتى يفرغ من حساب الناس».

ولا- شك أن حصول ثواب السورتين إنما يتم لمن وضعهما في أعماق روحه، وبني على أساسهما شخصيته وعمله، وليس لمن يلو كهما في لسانه ولا غير.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩٦

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) عندما يحلّ الحدث المروع: تقدم لنا الآيات - مرة أخرى - مشاهدًا مروعة من يوم القيامة، فتخبر عن تفطّر السماء من هول الكارثة: «إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ».

ثم تنتقل إلى ما سيصيب الكواكب ونظامها: «وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَثَرَتْ».

فسينهدم العالم العلوي، وستحدث الانفجارات العظيمة المهيبة في كل النجوم السماوية، وسيتدخل نظام المنظومات الشمسية، فتخرج النجوم من مساراتها لتضطدم الواحدة بالآخرى وتتلاشى فينتهي عمر العالم ويتناثر كل شيء ليبنى على أنقاضه عالم جديد آخر.

«انفطرت»: من «الإنفطار»، بمعنى الإنشقاق.

«انتثرت»: من «الثر» على وزن (نصر)، بمعنى نشر الشيء وتفريقه، و «الإنثثار»: هو الإنتشار والتفرق. وباعتبار أن انتشار النجوم يؤدي إلى تفرقها في السماء (كحبات العقد المنفرد) فقد فسرّها الكثير من المفسرين ب (سقوط النجوم)، وهو من لوازم معنى الإنثثار.

«الكواكب»: جمع (كوكب)، وله معان كثيرة ولكن أن المعنى الحقيقي هو (النجم المتأليء)، وما دون ذلك معان مجازية استعملت لعلاقتها المشابهة.

إنّ هذه الامور تهدف إلى تعريف الإنسان بما سيحدث بالمستقبل الآت، وتدعوه لخلاص نفسه من أهوالها، وهو الكائن الضعيف وسط تلك الحوادث الجسام.

وينتقل البيان القرآني من السماء إلى الأرض، فيقول: «وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ». أى اتصلت.

مع أن البحار متصلة فيما بينها قبل حلول ذلك اليوم (ما عدا البحيرات)، لكن اتصالها سيكون بشكل آخر، حيث ستفيض جميعها وتمزق حدودها وتصير بحراً واحداً لتشمل كل الأرض، بسبب الزلازل المرعبة وتحطم الجبال وسقوطها في البحار ... هذا أحد تفاسير الآية (٦) من سورة التكوير (الآنفه الذكر): «وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ».

وتتناول الآية التالية عرضاً لمرحلة القيامة الثانية، مرحلة تجديد الحياة وإحياء الموتى، فتقول: «وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ» ... واخرج الموتى للحساب.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩٧

وبعد ذكر كل تلك العلامات لما قبل البعث ولما بعده، تأتي النتيجة القاطعة: «عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ».

نعم، فستتجلى حقائق الوجود، وسيصير كل شىء بارزاً لأنه «يوم البروز» وسيرى الإنسان كل أعماله محضرة بخيرها وشرها، لأنه يوم إزالة الحجب، ورفع مبررات الغرور والغفلة، وعندها ... سيعلم الإنسان ما قدم لآخرته، وما ترك بعده من آثار حسننها وسيئها، مثل: الصدقة الجارية، فعل الخير، عمارة الأبنية، الكتب التي ألفها، ما سنّ من السنن ... فإن كان ما خلفه خالصاً لله فسينال حسناته، وإن كانت تيته في أفعاله غير خالصة لله، فسيلقى لتبعات أعماله.

وهذه نماذج من الأعمال التي ستصل نتائجها إلى الإنسان بعد الموت، وهو: المراد من «وأخرت».

في الكافي عن هشام بن سالم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلّا ثلاث خصال: صدقة أجزاها في حياته، فهي تجرى بعد موته، وسنة هدى سنّها، فهي يعمل بها بعد موته، أو ولد صالح يدعو له».

وفي أمالي الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ستّ خصال ينتفع بها المؤمن بعد موته:

ولد صالح يستغفر له، ومصحف يقرأ منه، وقلب [بئر] يحفره، وغرس يغرسه، وصدقة ماء يجريه، وسنة حسنة يؤخذ بها بعده».

فتعكس هذه الآيات والروايات أبعاد مسؤولية الإنسان أمام أعماله، وتبين عظم المسؤولية، فأثار فعل الخيرات أو المنكرات يصل إليه وإن امتدت آلاف السنين بعد موته.

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) لا داعى للغرور: تنتقل الآيات أعلاه من المعاد إلى الإنسان، بيان يقاظى عسى أن ينتبه الإنسان من غفلة ما فى عنقه من حق وما على عاتقه من مسؤوليات جسام أمام خالقه سبحانه وتعالى، فتخاطب الآية الاولى الإنسان باستفهام توبيخى محاط بالحنان والرافة الربانية: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩٨

فبمقتضى ربوبيته هو الحامى والمدبر لأمر تربية وتكامل الإنسان، وبمقتضى كرمه أجلس الإنسان على مائدة رحمته، ورعاه بما أنعم عليه مادياً ومعنوياً ودون أن يطلب منه أى مقابل، بل ويعفو عن كثير من ذنوب الإنسان بفضل كرمه ...

وفى المجمع: أن النبى صلى الله عليه و آله لما تلا هذه الآية قال: «غره جهله».

ومن هنا يتقرّب لنا هدف الآية، فهي تدعو الإنسان لكسر حاجز غروره وتجاوز حالة الغفلة، وذلك بالاستناد على مسألة الربوبية والكرم الإلهي.

وتعرض لنا الآية التالية جانباً من كرم الله ولطفه على الإنسان: «الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ».

فالآيات المبحوثة، إضافة لآيات اخر كثيرة تهدف وبشكل دقيق إلى تعريف الإنسان المغرور بحقيقته، منذ كان نطفة قدرة، مروراً بتصويره وتكامله فى رحم امه، حتى فى أتم حالات نموه وتكامله، وتؤكد على أن حياة الإنسان فى حقيقتها مرهونة بنعم الله، وكل حى يفعم برحمه الله فى كل لحظات حياته، ولا بد لكل حى ذى لبّ وبصيرة من أن يترجل من مطية غروره وغفلته، ويضع طوق

عبودية المعبود الأحد في رقبته، وإلا فالهلاك الحتمي.

وتتناول الآية التالية منشأ الغرور والغفلة: «كَلَّا بَلْ تُكذَّبُونَ بِالذِّينِ».

فالكرم الإلهي، ولطف الباري ونعمه ليست بمحفز لغروركم، ولكنكم آليتم على عدم إيمانكم بالقيامة، فوقعتم بتلك الهاوية المظلمة. وتأتى الآيات التالية لتوضح أن حركات وسكنات الإنسان كلها مراقبه ومحسوبة ولا بد من الإيمان بالمعاد وإزالة عوامل الغفلة والغرور، فتقول: «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ».

وهؤلاء الحفظة لهم مقام كريم عند الله تعالى ودائبن على كتابه أعمالكم: «كِرَامًا كَاتِبِينَ». «يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ».

و «الحافظين»: هم الملائكة المكلفون بحفظ وتسجيل أعمال الإنسان من خير أو شر، كما سمّتهم الآية (١٨) من سورة (ق) بالرقيب العتيد: «مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ».

كما وذكرتهم الآية (١٧) من نفس السورة: «إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ».

وفى الاحتجاج للشيخ الطبرسي عن الصادق عليه السلام حديث طويل وفيه يقول السائل: فما

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٣٩٩

عله الملائكة الموكلين بعباده يكتبون عليهم ولهم والله عالم السر وما هو أخفى؟

قال: «استعبدهم بذلك، وجعلهم شهوداً على خلقه، ليكون العباد لملازمتهم إياهم أشد على طاعة الله مواظبة، وعن معصيته أشد انقباضاً، وكم من عبد يهيم بمعصية فذكر مكانهما فارعوى وكف، فيقول ربى يرانى، وحفظتى على ذلك تشهد، وأن الله برأفته ولطفه أيضاً وكلهم بعباده، يذوبون عنهم مردة الشيطان، وهوام الأرض، وآفات كثيرة من حيث لا يرون بإذن الله، إلى أن يجيء أمر الله».

ويستفاد من هذه الرواية أن للملائكة وظائف اخرى إضافة لتسجيلهم لأعمال الإنسان كحفظ الإنسان من الحوادث والآفات ووساوس الشيطان.

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَأَلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩) بعد ذكر الآيات السابقة لتسجيل أعمال الإنسان من قبل الملائكة، تاتى الآيات أعلاه لتتطرق إلى نتائج تلك الرقابة، وما سيصل إليه كل من المحسن والمسيء من عاقبه، فتقول الآية الاولى: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ».

والثانية: «وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ».

«الأبرار»: جمع (بار) و «بَرٌّ» على وزن (حق)، بمعنى: المحسن؛ و «البرّ» بكسر الباء- كل عمل صالح ... والآية تريد العقائد السليمة، والنيات والأعمال الصالحة.

«نعيم»: وهى مفرد بمعنى النعمة، ويراد به هنا «الجنة».

«الفجار»: جمع (فاجر) من (فجر)، وهو الشقّ الواسع، و «الفجور»: شقّ ستر الديانة والعفة، والسير فى طريق الذنوب.

«جحيم»: من «الجحمة»، وهى تأجج النار، وتطلق الآيات القرآنية (الجحيم) على جهنم عادة.

ويمكن أن يراد بقوله تعالى: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ». الحال الحاضر، أى: إِنَّ الْأَبْرَارَ يَعِيشُونَ فِي نَعِيمِ الْجَنَّةِ حَالِيًا، وَإِنَّ الْفُجَّارَ قَابِعُونَ فِي أودية النار، كما

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠٠

مختصر الامثل ج ٥ ٤٤٠

يفهم من إشارة الآية (٥٤) من سورة العنكبوت: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ».

وتدخل الآية التالية فى تفصيل أكثر لمصير الفجار: «يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ».

فإذا كانت الآية السابقة تشير إلى أن الفجار هم فى جهنم حالياً، فسيكون إشارة هذه الآية، إلى أن دخولهم جهنم سيتعمق، وسيحسون بعذاب نارها، بشكل أشد.

«يصلون»: من «صلى» على وزن (سعى)، و «صلى النار»: دخل فيها.

ولزيادة التفصيل، تقول الآية التالية: «وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ».

اعتبر كثير من المفسرين كون الآية دليلاً على خلود الفجار فى العذاب، وخلصوا إلى أن المراد ب «الفجار» هم «الكفار»، لكون الخلود فى العذاب يختص بهم دون غيرهم.

ف «الفجار»: إذن: هم الذين يشقون ستر التقوى والعفة بعدم إيمانهم وتكذيبهم بيوم الدين، ولا يقصد بهم- فى هذه الآيات- اولئك الذى يشقون الستر المذكور بغلبة هوى النفس مع وجود حالة الإيمان عندهم.

وتبين الآية أيضاً: إن عذاب أهل جهنم عذاب دائم ليس له انقطاع، ولا يغيب عنهم ولو للحظة واحدة.

ولأهمية خطب ذلك اليوم العظيم، تقول الآية التالية: «وَمَا أَدْرِيكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ». «ثُمَّ مَا أَدْرِيكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ».

فإذا كانت وحشة وأهوال ذلك اليوم قد اخفيت عن النبى صلى الله عليه وآله- وهو المخاطب فى الآية- مع كل ما له من علم ب: القيامة، المبدأ، المعاد.. فكيف يا ترى حال الآخرين.

وينتقل البيان القرآنى للتعبير عن إحدى خصائص ذلك اليوم، وبجملة وجيزة، لكنّها متضمنة لحقائق ومعان كثيرة: «يَوْمَ لَاتَمِلِكُ نَفْسٌ لَّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ».

فستجلى حقيقة أن كل شىء فى هذا العالم هو بيد الله العزيز القهار، وستبان حقيقة حاكمية الله المطلقة ومالكته على كل من تنكر لهذه الحقيقة الحققة، وستندم تلك التصورات الساذجة التى حكمت أذهان المغفلين بكون فلان أميراً ورئيساً أو حاكماً، وسينهار اولئك البسطاء الذين اعتبروا أن قدراتهم مستقلة بعد أن أكل الغرور نفوسهم وتكالب التكبر على تصرفاتهم فى الحياة الدنيا الفانية.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠١

٨٣. سورة المطففين

محتوى السورة: بحوث هذه السورة تدور حول محاور خمس، هى:

١- تحذير وإنذار شديد للمطففين.

٢- الإشارة إلى أن منشأ الذنوب الكبيرة إنما يأتى من عدم رسوخ الإيمان بالبعث والمعاد.

٣- عرض لجوانب من عاقبة «الفجار» فى ذلك اليوم العظيم.

٤- عرض لجوانب ما ينتظر المحسنين فى الجنة من نعم إلهية وعطاء ربانى جليل.

٥- الإشارة لآثار استهزاء الكفار بالمؤمنين فى الحياة الدنيا، وانعكاس الحال فى يوم القيامة.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع: ابى بن كعب قال: قال النبى صلى الله عليه وآله: «ومن قرأها سقاه الله من الرحيق المختوم».

وفى ثواب الأعمال روى صفوان الجمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ فى الفريضة ويل للمطففين، أعطاه الله الأمن يوم القيامة من النار، ولم تره، ولا يراها ولم يمر على جسر جهنم ولا يحاسب يوم القيامة».

إن كل هذا الفضيلة والبركة، سينالها من جعل قراءتها مقدمة للعمل على هديها.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠٢

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَمْ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)
سبب النزول

قال ابن عباس: لما قدم نبي الله المدينة، كانوا من أبخس الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأحسنوا الكيل بعد ذلك. وقيل: كان أهل المدينة تجاراً يطففون، وكانت بياعاتهم المنابذة والملاسة والمخاطرة، فنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله فقراها عليهم وقال: «خمس بخمس». قيل يا رسول الله، وما خمس بخمس؟ قال: «ما نقض قوم العهد إلا سلب الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات واخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم المطر» (١).

التفسير

ويل للمطففين: بدأ الحديث في هذه السورة بتهديد شديد للمطففين: «وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ». وتمثل الآية في حقيقة توجيهها، إعلان حرب من الله عز وجل على هؤلاء الظالمين، الذين يأكلون حق الناس بهذه الطريقة القذرة. «المطففين»: من «التطفيف» وأصله من «الطف» وهو جوانب الشيء وأطرافه، و«التطفيف»: الشيء النزر، و«التطفيف»: البخس في الكيل والوزن، ونقص المكيال، وهو أن لا تملأه إلى أصباره. «ويل»: تأتي بمعاني: حلول الشر، الحزن، الهلاك، المشقة من العذاب، واد مهيب في نار جهنم، وتستعمل عادة في اللعن وبيان قبح الشيء، ورغم صغر الكلمة إلا أنها تستبطن

(١) التفسير الكبير ٣١ / ٨٨.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠٣

مفاهيم كثيرة.

وفي الكافي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «ولم يجعل الويل لأحد حتى يسميه كافراً. قال الله عز وجل: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

وما نستفيدة من هذه الرواية هو: إن التطفيف فيه وجه من الكفر.

وتتطرق الآيتين التاليتين إلى طريقة عمل المطففين، فتقول الآية الأولى: «الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ».

وتقول الآية الثانية: «وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ».

ومما ينبغي الالتفات إليه ... أن الآيات وإن تحدثت عن التطفيف في الكيل والوزن، ولكن لا ينبغي حصر مفهومها بهما، فالتطفيف يشمل حتى العدد، وليس من البعيد أن تكون الآيات قد أشارت إلى إنقاص ما يؤدي من خدمة مقابل أجر، كما لو سرق العامل أو الموظف من وقت عمله، فإنه والحال هذه سيكون في حظيرة «المطففين» المذمومين بشدة في الآيات المباركة المذكورة. ولا تخلوا من مناسبة أن يجعل أي تجاوز لحدود الله، وأي إنقاص أو إخلال في الروابط الاجتماعية أو انحلال في الضوابط الأخلاقية، إنما هو مفردات ومصاديق لهذا المفهوم.

ويهدد القرآن الكريم المطففين، باستفهام توبيخي: «أَلَمْ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ». «لِيَوْمٍ عَظِيمٍ».

يوم عظيم في: عذابه، حسابه وأهواله.

«يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ». أي: إنهم لو كانوا يعتقدون بالبعث والحساب: وأن أعمالهم مسجلة وستعرض كاملة في محكمة العدل الإلهي بخيرها وشرها، وكبيرها وحقيرتها، لو كانوا يعتقدون ذلك، لما ظلموا أحداً، ولأعطوا الناس حقوقهم كاملة.

وفى الكافي عن جابر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «كان أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة عندكم يغتدى كل يوم بكره من القصر، فيطوف في أسواق الكوفة سوقاً سوقاً، ومعه الدرّة على عاتقه وكان لها طرفان وكانت تسمى السبيبة فيقف على أهل كل سوق، فينادى: يا معشر التجار اتقوا الله عزّ وجل، فإذا سمعوا صوته عليه السلام ألقوا ما بأيديهم، وأرعوا إليه بقلوبهم، وسمعوا بأذانهم، فيقول عليه السلام: قدموا الإستخارة، وتبركوا بالسهولة، واقربوا من المبتاعين، وتزینوا بالحلم، وتناهوا عن اليمين، وجانبوا الكذب، وتجافوا عن الظلم، وانصفوا المظلومين، ولا تقربوا الربا، وأوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، فيطوف عليه السلام

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠٤

في جميع أسواق الكوفة ثم يرجع فيقع للناس».

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) وما أدراك ما سجين: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن المطففين، وعن إرتباط الذنوب بعدم الإيمان الراسخ بالمعاد ويوم القيامة، تشير الآيات أعلاه إلى ما ستؤول إليه عاقبة المسيئين والفجار يوم حلول اليوم المحتوم، فتقول: «كَلَّا» فليس الأمر كما يظن هؤلاء عن المعاد وأنه ليس هنا حساب وكتاب، بل «إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ». «وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ». «كِتَابٌ مَرْقُومٌ».

وتوجد نظرتان في تفسير الآية أعلاه:

الاولى: المراد من «كتاب» هو صحيفة الأعمال، التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة، من أفعال الإنسان إلّا وأحصتها.

والمراد ب «سجين»: هو الكتاب الجامع لكل صحائف أعمال الإنسان عموماً.

و «سجين»: من «السجن»، وهو (الحبس). وأطلق عليه هذا الإسم باعتبار أن ما فيه يؤدي إلى حبس أصحابه في جهنم، أو أن هذا الديوان موجود في قعر جهنم.

على عكس كتاب الأبرار فإنه في أعلى عليين .. في الجنة.

الثانية: إن «سجين» هي «جهنم» ... وهي سجن كبير لجميع المذنبين، أو هي محل شديد من جهنم.

و «كتاب» الفجار، أي: ما قرر لهم من عاقبة ومصير.

فيكون التقدير على ضوء هذا التفسير: إن جهنم هي المصير المقرر للمسيئين.

فلا مانع من الجمع بين التفسيرين، لأن «سجين» حسب التفسير الأول بمعنى الديوان الجامع لكل أعمال المسيئين، وحسب التفسير الثاني بمعنى: «جهنم» أو قعرها، فالأمران على صورة علمه ومعلول، فإذا كانت صحيفة أعمال الإنسان السيئة في ذلك الديوان الجامع، فإن مقام الديوان هو قعر جهنم.

وتأتى الآية التالية لتقول: «وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠٥

التكذيب الذي يوقع الإنسان في ألوان من الذنوب، ومنها التطيف والظلم.

الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) بعدما ذكرت آخر آية من الآيات السابقة مصير المكذبين، تأتي الآيات أعلاه لتشرح حالهم، فتقول: «الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ»، وهو يوم القيامة.

وتقول أيضاً: «وَمَا يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ».

فإنكار القيامة لا يستند على المنطق السليم والتفكير الصائب والإستدلال العقلي، بل هو نابع من حبّ الإعتداء وارتكاب الذنوب والآثام

(الصفة المشبهة «أثيم» تدل على استمرار الشخص في ارتكاب الذنوب).

وتشير الآية التالية للصفة الثالثة لمنكرى المعاد، فتقول: «إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ».

فبالإضافة لكون منكر المعاد معتدٍ وأثيم، فهو من الساحرين والمستهزئين بآيات الله، ويصفها بالخرافات البالية، وما ذلك إلا مبرر واهٍ لتغطية تهربه من مسؤوليته آيات الله عليه.

ولم تختص الآية المذكورة بذكر المبررات الواهية لأولئك الضالين المجرمين فراراً من الإستجابة لنداء الدعوة الربانية، بل ثمة آيات أخرى تناولت ذلك؛ منها الآية (٥) من سورة الفرقان: «وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا».

ويعزى القرآن مرةً أخرى جذر طغيانهم وعنادهم، بالقول: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

فازيل عنها ما جعل الله فيها من نور الفطرة الاولى وذهب صفائها، ولذا.. فلا يمكن لتلك القلوب التعسة من أن تتقبل نفوذ أنوار الوحي الإلهي إلى دواخلها.

«ران»: من «الرين» على وزن (عين)، وهو: الصدأ يعلو الشيء الجليل.

وفي الدر المنثور عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذِنَ ذَنْبًا نَكَتَ فِي قَلْبِهِ نَكْتَهُ سُودَاءَ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صَقَلَ قَلْبَهُ، وَإِنْ عَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠٦

القرآن: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»». ويستمر البيان القرآني: «كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ».

وهو أشد ما سيعاقبون به، مثلما منزلة اللقاء بالله ودرجة القرب منه هي من أعظم نعم الأبرار والصالحين وأكثرها لذةً واستثناساً. و: «ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ».

فدخلهم جهنم نتيجة طبيعية لاحتجابهم عن الله تعالى وأثر لازم له، ومما لا شك فيه إن لهيب الحرمان من لقاء الله أشد إيلاماً وإحراقاً من نار جهنم.

وتقول الآية التالية: «ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ».

يقال لهم ذلك توبيخاً ولو ما لزيادة تعذيبهم روحياً، وهو ما ينتظر كل من عاند الحق وتخطى في متاهات الضلال.

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظَرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِمَّا جُئِهِمْ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يُشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) عِلِّيُونَ فِي انتِظَارِ الْأَبْرَارِ: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن الفجار وكتابهم وعاقبة أمرهم، ينتقل الحديث في هذه الآيات للطرف المقابل لهؤلاء، فتحدثت عن الأبرار الصالحين وما سيؤولون إليه من حسن مآب، ويبدأ الحديث بالقول: «كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنَ».

«عليين»: جمع (علئ) على وزن (ملى)، وهو المكان المرتفع، أو الشخص الجالس في مكان مرتفع، ويطلق أيضاً على ساكني قمم الجبال.

فما عرضناه بخصوص تفسير «سجين» يصدق على «عليين» أيضاً، بقولين:

الأول: أن المقصود من «كتاب الأبرار» هو صحيفة أعمال الصالحين والمؤمنين، فجميع الأعمال تجمع في هذا الديوان العام، وهو ديوان عالي المقام وشريف القدر.

الثاني: أن صحيفة أعمال الأبرار تكون في أشرف مكان، أو في أعلى مكان في الجنة،

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠٧

وهذا يكشف عن علو شأنهم ورفعة كرامتهم عند الله عز وجل.

وذهب قسم من المفسرين إلى أن ال «كتاب» هنا يرمز لمعنى (المصير)، أو (الحكم القطعى الإلهى) بخصوص نيل الصالحين درجات الجنة العلى.

ولا يضّر من الجمع بين التفسيرين، فأعمال الأبرار مجموعة في ديوان عام، ومحل ذلك الديوان فى أعلى نقطة من السماء، ويكون الحكم والقضاء الإلهى كذلك مبنى على كونهم فى أعلى درجات الجنة.

ولأهمية وعظمة شأن «عليين» .. تأتي الآية التالية لتقول: «وَمَا أَدْرِيكَ مَا عَلَيُونَ»؛ إنه مقام من المكانة بحيث يتجاوز حدود التصور والخيال والقياس والظن، بل وحتى أن النبى صلى الله عليه وآله وعلى ما له من علو شأن ومرتبته مرموقه، فلا يستطيع من تصور حجم أبعاد عظمتة.

ويبدأ البيان القرآنى بتقريب ال «عليين» إلى الأذهان: «كتاب مرقوم».

وهذا على ضوء تفسير «عليين» بالديوان العام لأعمال الأبرار، أما على ضوء التفسير الآخر فسيكون معنى الآية: إنه المصير الحتمى الذى قرره الله وسجله لهم، بأن يكون محلهم فى أعلى درجات الجنة.

وكذلك: «يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ». أى يشاهدونه، أو عليه يشهدون عليه.

والآيات التالية تظهر بوضوح بأن المقربين، هم نخبة عالية من المؤمنين لهم مقام مرموق، وبامكانهم مشاهدة صحيفة أعمال الأبرار والصالحين.

فبين الأبرار والمقربين عموم وخصوص مطلق، حيث كل المقربين أبرار، وليس كل الأبرار مقربين.

ويتنقل الحديث إلى عرض بعض جوانب جزاء الأبرار: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ».

وينقلنا البيان القرآنى لجوانب من نعيم الأبرار: «عَلَى الْأَرَْائِكِ يَنْظُرُونَ».

ثم يضيف: «تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ».

إشارة إلى أن ما يبدى على وجوههم من علائم النشاط والسرور والغبطة، إن هو إلّا انعكاس لسعادتهم الحقة.

وبعد ذكر نعيم: «الأرائك»، «النظر»، «الإطمئنان والسعادة» .. تذكر الآية التالية نعمة شراب الجنة، فتقول: «يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠٨

إنه ليس كشراب أهل الدنيا الشيطانى، بما يحمل من خبث دافع إلى المعاصى والجنون، بل هو شراب طاهر يذكى العقول ويدب النشاط والصفاء فى شاربه. و «الرحيق» هو الشراب الخالص الذى لا يشوبه أى غش أو تلوث؛ و «مختوم»: إشارة إلى أنه أصلى ويحمل كل صفاته المميزة عن غيره من الأشربة ولا يجاربه شراب قط، وهذا بحد ذاته تأكيد آخر على خلوص الشراب وطهارته.

وتقول الآية التالية: «خِتَامُهُ مِسْكٌ».

هو شراب طاهر مختوم، وإذا ما فتح ختمه فتفوح رائحة المسك منه.

«وَفِي ذَلِكَ فَلَيْتَنَّافِسِ الْمُتَنَافِسُونَ». «التنافس»: تمنى كل واحد من النفسين مثل الشىء النفس الذى للنفس الاخرى أن يكون له.

وجاء مضمون الآية فى الآية (٢١) من سورة الحديد: «سَابِقُوا إِلَىٰ مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

ونصل لآخر وصف شراب الأبرار فى الجنة: «وَمَزَاجُهُ مِّن تَسْنِيمٍ». أى: أنه ممزوج بالتسنيم: «عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ».

ومن خلال الآيتين أعلاه، يتضح لنا بأن «التسنيم» هو أشرف شراب فى الجنة، وموجود فى الطبقات العليا من الجنة .. ويجرى فى الهواء فينصب فى أوانى أهل الجنة و «المقربون» يشربون منه بشكل خالص، فيما يشربه «الأبرار» ممزوجاً بالرحيق المختوم.

وتؤكد الأحاديث والروايات على أن تلك الأشربة خالصة لمن تنزه عن الولوج فى خمور الدنيا الخبيثة.

ففى وصية النبى صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام: «ومن ترك الخمر لله سقاه الله من الرحيق المختوم» (١).

وروى عن على بن الحسين عليه السلام قال: «من أطعم مؤمناً من جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، ومن سقى مؤمناً من ظمأ سقاه الله

من الرحيق المختوم» (٢).

وجاء في حديث آخر: «من صام لله في يوم صائف، سقاه الله على الظمأ من الرحيق

(١) تفسير مجمع البيان ١٠/ ٢٩٧.

(٢) الكافي ٢/ ٢٠١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٠٩

المختوم» (١).

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)

سبب النزول

ذكر المفسرون سببين لنزول هذه الآيات: الأول: روى أن علياً عليه السلام كرم الله تعالى وجهه وجمعاً من المؤمنين معه مروا بجمع من كفار مكة فضحكوا منهم واستخفوا بهم فنزلت الآية «إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا» قبل أن يصل على عليه السلام كرم الله تعالى وجهه إلى النبي صلى الله عليه وآله.

الثاني: إنها حكاية لبعض قبائح مشركي قريش؛ أبي جهل والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل وأشياعهم، كانوا يستهزئون بفقرائهم كعمار وصهيب وخباب وبلال وغيرهم من الفقراء» (٢).

التفسير

بالأمس كانوا يضحكون من المؤمنين ... أما: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن النعم التي تنتظر الأبرار والصالحين في الحياة الآخرة، تبدأ الآيات أعلاه بتبيان جوانب مما يعانونه من مصائب ومشاكل في الحياة الدنيا بسبب إيمانهم وتقواهم ... فالآيات تنقل لنا أساليب الكفار القذرة التي كانوا يتعاملون بها مع المؤمنين البررة، وقد صنفتها في أربعة أساليب: الاسلوب الأول: «إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ».

فأصل الطغيان والتكبر والغرور والغفلة الذي زرع في نفوسهم، يدفعهم للضحك على المؤمنين والإستهزاء بهم والنظر إليهم بسخرية واحتقار.

والاسلوب الثاني: «وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ». فحينما يمرّ المشركون على مجموعة من

(١) تفسير مجمع البيان ١٠/ ٢٩٧.

(٢) روح المعاني ٣٠/ ٧٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤١٠

المؤمنين يغمزون بأعينهم ويشيرون إليهم بالقول:

انظروا إلى هؤلاء الفقراء المعدمين ... إنهم أصبحوا مقربين عند الله.

انظروا إلى هؤلاء الحفاة العراء ... إنهم يدعون نزول الوحي الإلهي لهم.

انظروا إليهم ... فإنهم يعتقدون بأنّ العظام البالية ستعود إلى الحياة مرة أخرى! وما شابه ذلك، من الكلمات الرخيصة والموهنة ...

ويبدو أنّ ممارسة الضحك من قبل المشركين يكون حينما يمرّ المؤمنون من أمامهم وهم متجمعون، في حين يمارسون الاسلوب

الثاني وهو الإشارات الساخرة والغمز واللمز حين مرورهم أمام جمع من المؤمنين، لعدم تمكنهم من الضحك العلني أمام جمع المؤمنين.

«يتغامزون»: من «الغمز» وهو الإشارة بالجنف أو اليد مع قصد ما في الطرف الآخر من عيوب، وعبرت الآية بهذا اللفظ «التغامز» للإشارة إلى اشتراكهم جميعاً في ذلك الفعل.

ولكنهم لم يكتفوا بالنيل من المؤمنين في حضورهم من خلال الضحك والتغامز، بل تعدوا إلى حال غيابهم أيضاً، حيث تنقل لنا الآية التالية، الاسلوب الثالث بقولها: «وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ».

وكانهم في ضحكهم وتغامزهم قد نالوا فتحاً كبيراً! فتأخذهم نشوة تصور الغفلة والجهل لأن يتباهوا فيما قاموا به من فعل قبيح، ويبقون على حالة السخرية والإستهزاء بالمؤمنين رغم غياب المؤمنين عنهم ...

«فكهيين»: جمع (فكه)، وهي صفة مشبهة من (الفكاهة) بمعنى التمازح والضحك، مأخوذة من (الفكاهة)، وكأنّ لذة الخوض في هكذا حديث وسخرية كلذة أكل الفكاهة، كما ويطلق على حديث مفرح اسم (فكاهة).

والاسلوب الرابع: «وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ».

لماذا؟ لأنهم تركوا ما كان شائعاً من عبادة الأصنام، والخرافات التي يعتبرونها هداية! واتجهوا نحو الإيمان بالله والتوحيد الخالص. ولأنهم باعوا لذة الدنيا الحاضرة بنعيم الآخرة الغائبة ...

وغالباً ما لا يكون المؤمنون من أثرياء أو وجهاء القوم، ولذلك يُنظر إليهم باحتقار ويهزأ بدينهم وإيمانهم، في مجتمع يسوده التمايز الطبقي بشكل راسخ وظاهر. فيقول القرآن الكريم في الآية التالية: «وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤١١

فجواب نوح عليه السلام عام يشمل حتى اولئك المغرورين في صدر الإسلام ... فما شأنكم وهؤلاء؟! وعليكم أن تنظروا إلى هذا الدين، وإلى النبي الذي جاء بهذا الدين، ولا تنظروا إلى من آمن به واتبعه ...

وتبقى أساليب الذين يعادون الحق محدودة في إطار الحياة الدنيا، ولكن إذا كان يوم القيامة، فستختلف الحال تماماً: «فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ».

فيوم القيامة، يوم مجازات الأعمال وإجراء العدالة الإلهية، والعدالة تقتضي بأن يستهزأ المؤمنون بالكافرين المعاندين للحق، والإستهزاء في ذلك اليوم أحد ألوان عذاب الآخرة الأليم الذي ينتظر اولئك المغرورين والمستكبرين.

في الدر المنثور عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالنَّاسِ فِي الدُّنْيَا يَرْفَعُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَابَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يُقَالُ: هَلَمْ هَلَمْ، فَيَجِيءُ بِكَرْبِهِ وَغَمِّهِ، فَإِذَا أَتَاهُ أُغْلِقَ دُونَهُ، فَمَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ أَنَّهُ لِيَفْتَحَ لَهُ الْبَابَ فَيَقُولُ: هَلَمْ هَلَمْ، فَلَا يَأْتِيهِ مِنْ أَيَّاسِهِ». [وهنا يضحك المؤمنون الذين يطلعون عليه وعلى بقية الكفار من جنّتهم .

وتقول الآية التالية: «عَلَى الْأَرَْائِكِ يَنْظُرُونَ».

ماذا ينظرون؟ إنهم ينظرون إلى: نعم الله التي لا توصف ولا تنفذ في الجنة، وإلى كل ما فازوا به من الألطاف الإلهية والكرامة، وإلى ما أصاب الكفار والمجرمين من العذاب الأليم خاسئين ...

وفي آخر آية السورة يقول القرآن مستفهماً (باستفهام تقريرى): «هَلْ تُؤْتُونَ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ».

فهذا القول سواء صدر من الله، أو من الملائكة، أو من المؤمنين، فهو في كل الحالات يمثل طعناً واستهزاءً بأفكار وادعاءات اولئك المغرورون، الذين كانوا يتصورون أنّ الله سيثيبهم على أعمالهم القبيحة، ويأتيهم النداء رداً على خطئ تفكيرهم.

«نهاية تفسير سورة المطففين»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤١٣

٨٤. سورة الانشقاق

محتوى السورة: لا- تخرج السورة عن الإطار العام لسور الجزء الأخير من القرآن الكريم، فتبدأ بوصف علامات أشراط القيامة وما سيحدث من أحداث مروعة في نهاية العالم وبداية يوم القيامة، ثم تتحدث ثانياً عن القيامة والحساب وما ستؤول إليه عاقبة كل من الصالحين والمجرمين، ثم تعطف السورة في المرحلة الثالثة لتوضح ماهية الأعمال والعقائد التي تجر الإنسان إلى سخط الله وخلوده بالعذاب مهاناً، وفي الرابعة تنتقل السورة لعرض مراحل سير الإنسان في حياته (الدنيا والآخرة)، وفي آخر مطاف السورة يدور الحديث خامساً عن جزاء الأعمال الحسنه والسيئة.

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع: ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ سورة انشقت، أعاده الله أن يعطيه كتابه وراء ظهره».

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَمَا مَأْمَأَمٌ مِنْ أَوْتَى كِتَابَهُ يَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤١٤

تبدأ السورة في ذكرها لأحداث نهاية العالم المهولة بالإشارة إلى السماء فتقول: «إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ». (فتلاشت نجومها وأجرامها واختل نظام الكواكب فيها)، كإشارة الآيتين (١ و ٢) من سورة الانفطار التي أعلنت عن نهاية العالم بخرابه وفنائه: «إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ* وَإِذَا الْكُوكَبَاتُ انشَترَتْ».

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن علي عليه السلام قال: «تنشق السماء من المجرة». فإنَّ النجوم التي نراها في السماء اليوم، ستفصل عن المجرة، وبها تنشق السماء.

وتحكي الآية التالية حال السماء: «وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ». فلا يتوهم أن السماء بتلك العظمة بامكانها اظهار أدنى مقاومة لأمر الله .. بل ستستجيب لأمر الله خاضعة طائعة، لأن إرادته سبحانه في خلقه هي الحاكمة، ولا يحق لأي مخلوق أن يعصى أمره جلّ وعلا.

«أذنت»: من «الاذن» على وزن (افق)، وهي آلة السمع وتستعار لمن كثر استماعه، وفي الآية: كناية عن طاعة أمر الأمر والتسليم له. «حُقَّت»: من «الحق»، أي: وحق لها أن تنقاد لأمر ربها.

وكيف لها لا تسلّم لأمره عزّ وجل، وكل وجودها وفي كل لحظة من فيض لطفه، ولو انقطع عنها بأقل من رمشة عين لتلاشت. وفي المرحلة التالية تمتد الكارثة لتشمل الأرض أيضاً: «وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ».

فالجبال- كما تقول آيات قرآنية اخرى- ستندك وتتلاشى وستستوى الأرض في كافة بقاعها، لتلم جميع العباد في عرصتها، كما أشارت الآيات (١٠٥-١٠٧) من سورة طه إلى ذلك: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا* لَاتَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا».

وفي ثالث مرحلة تقول الآية التالية: «وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ».

والمعروف بين المفسرين أن الآية تشير إلى إلقاء الأرض بما فيها من موتى فيخرجون من باطن القبور إلى ظاهر الأرض، مرتدين لباس الحياة من جديد.

وقال بعض المفسرين: إنَّ المعادن والكنوز المودعة في الأرض ستخرج مع الأموات أيضاً.

وثمة احتمال آخر في تفسير الآية، يقول: إن المواد المذابة التي في باطن الأرض ستخرج

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤١٥

نتيجة الزلازل الرهيبة التي تقذفها إلى الخارج، فتملاً الحفر والمنخفضات الموجودة على سطح الأرض، وستهدأ الأرض بعد أن يخلو باطنها من هذه المواد.

و...: «وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ».

فتسليم الموجودات لما سيحدث من كوارث كونية مدمرة ينم عن جملة امور، فمن جهة:

إنّ الفناء سيعم الدنيا بكاملها بأرضها وسماؤها وإنسانها وكل شيء آخر، ومن جهة اخرى:

فالفناء المذكور يمثل انعطافه حادة في مسير عالم الخليقة، ومقدمة للدخول في مرحلة وجود جديدة، ومن جهة ثالثة، فكل ما سيجرى ينبيء بعظمة قدرة الخالق المطلقة، وخصوصاً في مسألة المعاد.

نعم، فسيرضخ الإنسان، بعد أن يرى بام عينيه وقوع تلك الحوادث العظام، وسيرى حصيلة أعماله الحسنه والسيئه.

وتبين الآية التالية معالم طريق الحياة للإنسان مخاطبة له: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْئِ بِهِ».

«الكدح»: السعي والعناء الذي يخلق أثراً على الجسم والروح.

والآية تشير إلى أصل أساسى في الحياة البشرية، فالحياة دوماً ممزوجة بالتعب والعناء، وإن كان الهدف منها الوصول إلى متاع الدنيا،

فكيف والحال إذا كان الهدف منها هو الوصول إلى رضوان الله ونيل حسن مآب الآخرة!؟

فالحياة الدنيا قد جبلت على المشقة والتعب والألم، حتى لمن يرفل بأعلى درجات الرفاه المادى.

وما ذكر «لقاء الله» في الآية إلتئبان أن حالة التعب والعناء والكدح حالة مستمرة إلى اليوم الموعود، ولا يتوقف إلبانتها عجلة الحياة

الدنيا، ولا فرق في توجيه معنى «اللقاء» سواء كان لقاء يوم القيامة والوصول إلى عرسه حاكمية الله المطلقة، أو بمعنى لقاء جزاء الله

من عقاب أو ثواب، أو بمعنى لقاء ذاته المقدسة عن طريق الشهود الباطنى.

نعم، فراحة الدنيا لا تخلو من تعب، والراحة الحقة .. هناك، حيث ينعم الإنسان بين فيافي جنان الخلد.

واستعمال كلمة «رب» فيه إشارة إلى ثمة إرتباط ما بين سعى وكدح الإنسان من جهة، وذلك البرنامج التربوى الذى أعدّه الخالق

لمخلوقه فى عملية توجيه الإنسان نحو الكمال المطلق من جهة اخرى.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤١٦

وإلى ذلك المطاف، ستفصل البشرية إلى فريقين: «فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا* وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ

مَسْرُورًا».

فالذين ساروا على هدى المخطط الربانى لحركة الإنسان على الأرض، وكان كل عملهم وسعيهم لله دائماً، وكدحوا فى السير للوصول

إلى رضوانه سبحانه، فسيعطون صحيفة أعمالهم يمينهم، للدلالة على صحة إيمانهم وقبول أعمالهم والنجاه من وحشة ذلك اليوم

الرهيبة، وهو مدعاة للتفاخر والإعتزاز أمام أهل المحشر.

أما ما المراد من «الحساب اليسير»؟ فذهب بعض إلى أنه العفو عن السيئات والثواب على الحسنات وعدم المداقة فى كتاب الأعمال.

وفى المجمع: «ثلاث من كنّ فيه حاسبه الله حساباً يسيراً، وأدخله الجنة برحمته». قالوا: وما هى يا رسول الله؟ قال: «تعطى من حرمك،

وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك».

وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ

(١٤) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) الذين يستلمون كتابهم من وراء ظهرهم: بعد أن عرضت الآيات السابقة أحوال فريق أصحاب

اليمين، تأتى الآيات أعلاه لتعرض لنا أحوال الفريق الآخر، وتوصف لنا كيفية إعطاء كتاب كل منهم مشرعة لتقديم المشاهد الاخرى:

«وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَأَى ظَهْرَهُ»... فيصرخ وينادى الويل لى لقد هلكت: «فَسَوْفَ يَدْعُو بُتُورًا». «وَيَصْلَى سَعِيرًا».

وسياخذ أصحاب اليمين كتبهم بافتخار ومباهاة فى يدهم اليمنى، وكل منهم يقول:

«هِيَ أُوْمٌ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهٗ» (١). ولكن المجرمين سياخذون كتبهم بأيديهم اليسرى وبسرعة ويضعونها وراء ظهورهم خجلاً وذلًا، ولكى لا يطلع أحد على ما فيها، ولكن، هيهات ..

فكل شىء حينئذ بارز، كيف لا وهو «يوم البروز» ...

وتبين الآية التالية علة تلك العاقبة المخزية: «إِنَّهٗ كَانَ فِى أَهْلِهٖ مَسْرُورًا».

سروراً ممتزجاً بالغرور، وغروراً احتوشته الغفلة والجهل برّب الأرباب سبحانه

(١) سورة الحاقة / ١٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤١٧

وتعالى، فالسرور المقصود فى الآية، هو ذلك السرور المرتبط بشدة بالدنيا والمنسى لذكر الآخرة.

ويتقرب لنا المعنى من خلال الآية التالية: «إِنَّهٗ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ».

فاعتقاده الفاسد وظنه الباطل الدائر على نفى المعاد، مصدر سروره وغروره وهو ما سيوصله إلى الشقاء الأبدى، لأنه ابتعد عن ساحة رضوانه سبحانه وتعالى بعد أن أوقعته شهواته فى هاوية الإستهزاء بدعوة الأنبياء عليهم السلام الربانية، حتى أوصلته حالته المرضية تلك لأن يستمر فى استهزائه وسخريته حتى فى حال عودته إلى أهله، كما أشارت الآية (٣١) من سورة المطففين: «وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ».

ولنفى العقائد الضالة، تقول الآية: «بَلَىٰ إِنْ رَّبُّهٗ كَانَ بِهِ بَصِيرًا».

فكل أعمال الإنسان تسجل وتحصى عليه لتعرض يوم الحساب فى صحيفته.

والآية تشارك الآية السابقة: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيَهٗ». فى كونها دليلاً على المعاد أيضاً. فتأكيد الآيتين على كلمة «رب» يدل على أن الإنسان فى سيرة التكامل صوب ربه لا ينتهى بالموت، وأن الحياة الدنيا لا يمكنها أن تكون هدفاً وغاية لهذا الخلق العظيم وهذا المسار التكاملى ...

وكذلك كون الله «بصيراً» بأعمال الإنسان وتسجيلها لا بد من اعتباره مقدماً للحساب والجزاء وإلا لكان عبثاً، وهذا ما لا يكون.

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٤) وَ اللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقِ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥) لمزيد من إيضاح ما ورد فى الآيات السابقة بخصوص سير الإنسان التكاملى نحو خالقه سبحانه وتعالى .. تأتى الآيات لتقول: «فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ». «وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ». أى: وما جمع.

«وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ». أى: إذا اكتمل.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤١٨

«لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقِ».

«الشفق»: اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس. ف «الشفق» هو وقت الغروب.

فقد جاء القسم بالشفق للفت الأنظار إلى ما فى هذه الظاهرة السماوية الجميلة من معان، فمنه تُعلن حالة التحول العام من النهار إلى الليل، إضافة لما يتمتع به من بهاء وجمال، وكونه وقت صلاة المغرب.

وأما القسم بالليل، فلما فيه من آثار كثيرة وأسرار عظيمة (وقد تناولنا ذلك مفصلاً).

«ما وسق»: إشارة إلى عودة الإنسان والحيوانات والطيور إلى مساكنها عند حلول الليل (بلحاظ كون الوسق بمعنى جمع المتفرق)، فيكون عندها سكوناً عاماً للكائنات الحية، وهو من أسرار وآثار الليل المهمة.

وينبغى الإلتفات إلى الصلة الموجودة فيما أقسمت الآيات بهن: (الشفق، الليل، ما اجتمع فيه، والقمر فى حالة البدر) وجميعها موضوعات مترابطة ويكمل بعضها البعض الآخر، وتشكل بمجموعها لوحة فنية طبيعية رائعة، وتحرك عند الإنسان التأمل والتفكير فى عظمتهم ودقة وقدره الخالق فى خلقه، ويمكن للإنسان العاقل بتأمل هذه التحولات السريعة من التوجه إلى قدرته جل شأنه على المعاد ما يحمل بين طياته من تغيرات فى عالم الوجود.

ثم يأتى جواب القسم الوارد فى الآيات أعلاه: «لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ».

إشارة إلى المراحل والتحويلات التى يمر بها الإنسان فى حياته؛ منها:

تلك الحالات المختلفة التى يمر بها الإنسان فى كدحه وسيره المضنى نحو الله جلّ وعلا، فيبدأ بحالة الدنيا، ثم ينتقل إلى عالم البرزخ ومنه إلى القيامة والآخرة.

ومن كل ما سبق .. يخرج القرآن الكريم بنتيجة: «فَمَا لَهُمْ لَأُؤْمِنُونَ».

فمع وضوح أدلة الحق؛ مثل أدلة: التوحيد، معرفه الله، المعاد، بالإضافة إلى ما من الآفاق فى آيات، وكذلك الآيات التى فى نفس الإنسان.

وينتقل بنا العرض القرآنى من كتاب (التكوين) إلى كتاب (التدوين)، فيقول: «وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ».

القرآن تتلألأ- أنوار الإعجاز من بين جنباته، ويشهد محتواه على أنه من الوحي الإلهى وكل منصف يدرك جيداً لدى قراءته له أنه فوق نتاجات عقول البشر ولا يمكن أن يصدر من إنسان مهما كان عالماً.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤١٩

وتأتى الآية التالية لتقول: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ».

والتعبير عن ممارسة تكذيب الكافرين فى الآية بصيغة المضارع المستمر، للإشارة إلى تكذيبهم المتعنت المستمر واصرارهم ولجاجتهم وليس تكذيبهم بسبب ضعف أدلة الحق.

وبيان جدى وتهديد جدى، تقول الآية التالية: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ».

فالله تعالى أعلم بدافع وتية وهدف ذلك التكذيب، ومهما تستروا على ما فعلوا فلا يجزون إلّابما كسبت أيديهم.

ثم «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

عادة ما تستعمل «البشارة» للأخبار السارة، وجاءت هنا لتتم عن نوع من الطعن والتوبيخ.

والحال، إن البشارة الحقة للمؤمنين خالصة بما ينتظرهم من نعيم، وما للكافرين إلّاللعرق فى بحر من الحسرة والندم، وما هم إلّالفى عذاب جهنم يخلدون.

ويستثنى المؤمنون من تلك البشرى المخزية: «إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ».

«ممنون»: من «المن» وهو القطع والنقصان، (ومنه «المنون» بمعنى الموت).

وإذا ما جمعنا كل هذه المعانى، فستكون النعم الاخرية على عكس الدينوية الناقصة والمنقطعة والمقترنة بمئة هذا وذاك، حيث إنها لا تنقطع ولا تنقص وليس فيها مئة.

أما الإستثناء الذى ورد فى الآية السابقة، ففيه بحث: هل أنه «متصل» أو «منقطع»؟

والأقرب لسياق الآيات أن يكون الإستثناء متصلاً، وفى هذه الحال يكون هدفه فتح الطريق أمام الكفار للعودة وتشجيعهم على ذلك، لأن الآية تقول: إن العذاب الأليم المذكور فى الآية السابقة سوف لا يصيب من يؤمن منهم ويعمل صالحاً وعلاوة على ذلك، سيكون

له أجر غير ممنون.

«نهاية تفسير سورة الإنشاق»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٢١

٨٥. سورة البروج

محتوى السورة: بملاحظة كون السورة مكية، فيظهر إنها نزلت لتقوية معنويات المؤمنين لمواجهة تلك الظروف الصعبة، ولترغيبهم على الصمود أمام الصعاب والثبات على الإيمان وترسيخه فى القلوب.

وتناولت السورة قصة أصحاب الاخدود، الذين حفروا خندقاً وسجّروه بالنيران، وهددوا المؤمنين بإلقائهم فى تلك النار إن لم يعودوا إلى كفرهم! وأحرقوا مجموعة منهم بالنار وهم أحياء، ومع ذلك لم يرجعوا عن دينهم.. وتعدت السورة فى بعض آياتها بعذاب جهنم الأليم لأولئك الذين يؤذون المؤمنين ويعذبونهم على إيمانهم، وتذمهم ذمّاً شديداً، فى حين تبشر المؤمنين الصابرين بالجنة والفوز بنعيمها.

وفى جانب آخر من السورة، تُعرض لنا مقتطفات من قصتي فرعون وثمود وقوميهما الجناة الطغاة، وما آلوا إليه من ذلّ وهلاك، كل ذلك تذكيراً لكفار مكة الذين هم أضعف قوّة وأقل جنداً من أولئك، فعسى أن يرجعوا عمّا هم فيه من جهة، وتسليّة لقلب الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله ومن كان معه من المؤمنين من جهة اخرى.

وتختم السورة فى آخر مقاطعها بالإشارة إلى عظمة القرآن الكريم، وإلى الأهمية البالغة لهذا الوحي الإلهي.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٢٢

وسميت بسورة «البروج» بلحاظ ذكر الكلمة فى أول آية من السورة بعد ذكر البسملة.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير البرهان: روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من قرأ هذه السورة أعطاه الله من الأجر بعدد كل من اجتمع فى جمعة وكل من اجتمع يوم عرفة عشر حسنات، وقرأتها تنجى من المخاوف والشدائد».

وبملاحظة أن أحد تفاسير «وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ»- من آيات السورة- هو يومى الجمعة وعرفة من جهة، وأن السورة حكاية مقاومة وبسالة المؤمنين السابقين أمام الشدائد والضغوط من جهة اخرى، وبملاحظة ذلك سيّضح لنا التناسب الموجود ما بين هذا الثواب الجزيل لمن يقرأها وبين محتوى السورة، وأن الأجر والثواب إنّما يحصل لمن قرأها بتأمل معانيها، وعمل على ضوء هديها.

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قَاتِلِ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُجُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) ابتدأت السورة ب: «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ».

والأبراج السماوية: إما أن يكون المراد منها النجوم الزاهرة والكواكب المنيرة فى السماء، أو المجموعات من النجوم تتخذ مع بعضها شكل شىء معروف فى الأرض، وتسمى ب «الصور الفلكية» وهى اثنا عشر برجاً، وفى كل شهر تحاذى الشمس أحد هذه البروج، (طبيعى أن الشمس لا- تتحرك تلك الحركة، وإنما الأرض تدور حول الشمس فيبدو لنا تغيير موضع الشمس بالنسبة إلى الصور الفلكية أو الأبراج).

وتقول الآية الثانية: «وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ».

اليوم الذى وعد به جميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام والذى تحدثت عنه مئات الآيات القرآنية المباركة.

وفى القسم الثالث والرابع يقول: «وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٢٣

وقد تعرض المفسرون للآية بمعان متباينة، وصلت إلى ثلاثين معنى وأدناه أهم ما ذكر منها:

١- إن «الشاهد»: محمد صلى الله عليه وآله؛ و «المشهود»: يوم القيامة.

٢- «الشاهد»: ما سيشهد على أعمال الناس، كأعضاء بدنه؛ و «المشهود»: الناس وأعمالهم.

٣- «الشاهد»: يوم الجمعة؛ و «المشهود»: يوم عرفة.

٤- «الشاهد»: عيد الأضحى؛ و «المشهود»: يوم عرفة.

٥- «الشاهد»: الأيام والليالي؛ و «المشهود»: بنو آدم، حيث تشهد على أعمالهم.

٦- «الشاهد»: الملائكة؛ و «المشهود»: القرآن.

٧- «الشاهد»: الحجر الأسود؛ و «المشهود»: الحاج.

٨- «الشاهد»: الخلق؛ و «المشهود»: الحق.

٩- «الشاهد»: هذه الأمة؛ و «المشهود»: سائر الامم.

١٠- «الشاهد»: الأنبياء عليهم السلام؛ و «المشهود»: محمد صلى الله عليه وآله.

١١- «الشاهد»: النبي صلى الله عليه وآله؛ و «المشهود»: أمير المؤمنين عليه السلام.

وإذا ما أدخلنا الآية في سياق الآيات السابقة لها، فنصل إلى أن «الشاهد» هو كل من سيقوم بالشهادة يوم القيامة؛ كشهادة: النبي صلى الله عليه وآله وكل نبي على أمته، الملائكة، بالإضافة إلى شهادة: أعضاء بدن الإنسان، الليل والنهار ... إلخ؛ و «المشهود»: الناس أو أعمالهم.

وبهذا يُدغم الكثير من التفاسير المذكورة مع بعضها لتشكيل مفهوماً واسعاً للآية المباركة، لأن «الشاهد» ينطبق على كل من وما يشهد، وكذا «المشهود» ينطبق على كل من وما يشهد عليه، وما ورودهما بصيغة النكرة إلتعظيمهما.

فالسماء وما فيها من بروج تحكى عن نظام وحساب دقيق، و «اليوم الموعود» يوم حساب وكتاب دقيق أيضاً، و «شاهد ومشهود» أيضاً وسيلة للحساب الدقيق على أعمال الإنسان، وكل ذلك لتذكير الظالمين الذين يعدّون المؤمنين، عسى أن يكفوا عن فعلتهم السيئة، ولإعلامهم بأن كل ما يفعله الإنسان يسجل عليه وبحساب دقيق جداً وسيواجه بها في اليوم الموعود بين عتبات ساحة العدل الإلهي. وبعد هذه الأقسام الأربع، تقول الآية التالية: «قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٢٤

والمقصود هم الظالمين لا من القى في النار، فالجملة إنشائية والمراد هو اللعن والدعاء عليهم.

والاخذود ملء بالنار الملتهبة: «النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ».

وكان الظالمون جالسون على حافة الاخذود يشاهدون المعذبين فيها: «إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ». «وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ». «الاعخذود»: شق في الأرض مستطيل غائص، والجمع أخاديد، وأصل ذلك من «خذ» الإنسان، وهو تقعر بسيط يكتنف الأنف من اليمين والشمال (وعند البكاء تسيل الدموع من خلاله) ثم اطلق مجازاً على الخنادق والحفر في الأرض، ثم صار معنى حقيقياً لها. أمّا من هم الذين عدّبو المؤمنين؟ ومتى؟ إنهم حفروا خندقاً عظيماً ووجروه بالنيران، وأوقفوا المؤمنين على حافة الخندق وطلبوا منهم واحداً واحداً بترك إيمانهم والرجوع إلى الكفر، ومن رفض القى بين أسنة النيران حياً ليذهب إلى ربّه صابراً محتسباً!

«الوقود»: ما يجعل للاشتعال، و «ذات الوقود»: إشارة إلى كثرة ما فيها من الوقود، وشدة اشتعالها، فالنار لا تخلو من وقود، ولعل ما قيل من أن «ذات الوقود» بمعنى ذات اللهب الشديد، يعود للسبب المذكور.

والآيتان: «إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ* وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ»، تشيران إلى ذلك الجمع من الناس الذين حضروا الواقعة، وهم ينظرون إلى ما يحدث بكل تلذذ وبرود وفي منتهى قساوة القلب (سادية).

وتقول الآية التالية: «وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ».

وذكر «العزیز الحمید» جواب لما اقترفوا من جريمة بشعة، واحتجاج على اولئك الكفرة، إذ كيف يكون الإيمان بالله جرم وذنوب؟! وهو أيضاً تهديد لهم بأن يأخذهم الله العزیز الحمید جزاء ما فعلوا، أخذ عزيز مقتدر.

وتأتى الآية الاخرى لتبين صفتين اخرتين للعزیز الحمید: «الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ».

فالصفات الأربعة المذكورة، تمثل رمز معبوديته جلّ وعلا، فالعزیز والحمید .. ذو الكمال المطلق، ومالك السماوات والأرض والشهيد على كل شيء .. أحق أن يُعبد وحده دون غيره، لا شريك له.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٢٥

إضافه إلى كونها بشاره للمؤمنين، بحضور الله سبحانه وتعالى ورؤيته لصبرهم وثباتهم على الإيمان، فيدفع فيهم الحيوية والنشاط والقوة.

ومن جهة اخرى تهديد للكفار، وإفهامهم بأن عدم منع ارتكاب مثل هذه الجرائم الخبيثة، ليس لعجز أو ضعف منه جلّ شأنه، وإنما ترك العباد يفعلون ما يرونه هم، امتحاناً لهم، وسيرهم في عاقبه أمرهم جزاء ما فعلوا، وما للظالمين إلا العذاب المهين.

بحث

من هم أصحاب الاخدود؟ إن «الاخدود» هو الشق العظيم فى الأرض، أو الخندق .. وهو فى الآية إشارة إلى تلك الخنادق التى ملأها الكفار ناراً ليردعوا فيها المؤمنین بالتنازل عن إيمانهم والرجوع إلى ما كانوا عليه من كفر وضلال.

وكان سببهم أن الذى هيج الحبشة على غزوة اليمن ذونواس وهو آخر من ملك من حمير «١» تهوّد، واجتمعت معه حمير على اليهودية، وسمى نفسه يوسف، وأقام على ذلك حيناً من الدهر، ثم اخبر أن بنجران [شمال اليمن بقايا قوم على دين النصرانية، وكانوا على دين عيسى عليه السلام وعلى حكم الإنجيل، ورأس ذلك الدين عبدالله بن بريا فحملة أهل دينه على أن يسير إليهم ويحملهم على اليهودية، ويدخلهم فيها، فسار حتى قدم نجران، فجمع من كان بها على دين النصرانية، ثم عرض عليهم دين اليهودية والدخول فيها، فأبوا عليه، فجادلهم وعرض عليهم وحرص الحرص كله، فأبوا عليه وامتنعوا من اليهودية والدخول فيها، واختاروا القتل، فخذ لهم اخدوداً جمع فيه الحطب، وأشعل فيه النار، فممنهم من احرق بالنار، ومنهم من قُتل بالسيف، ومثّل بهم كل مثله. فبلغ عدد من قُتل واحرق بالنار عشرين ألفاً «٢».

وأضاف بعض آخر: إن رجلاً من نصارى نجران تمكّن من الهرب، فالتحق بالروم وشكا ما فعل (ذو نواس) إلى قيصر.

فقال قيصر: إن أرضكم بعيدة، ولكنى سأكتب كتاباً إلى ملك الحبشة النصرانى وأطلب منه مساعدتكم.

ثم كتب رسالته إلى ملك الحبشة، وطلب منه الانتقام لدماء المسيحيين التى اريقت فى

(١) حمير: إحدى قبائل اليمن المعروفة.

(٢) تفسير على بن ابراهيم القمى ٢/ ٤١٣.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٢٦

نجران، فلما قرأ الرسالة تأثر جداً، وعقد العزم على الانتقام لدماء شهداء نجران.

فأرسل كتابه إلى اليمن والتقت بجيش (ذو نواس)، فهزمته بعد معركة طاحنة، وأصبحت اليمن ولاية من ولايات الحبشة «١».

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَلَّ لِمَا يُرِيدُ (١٦) العذاب الإلهي للمجرمين: بعد ذكر عظم جريمة أصحاب الاخدود التى ارتكبت ضد

المؤمنين بحرقهم وهم أحياء، يشير القرآن الكريم في هذه الآيات إلى ما ينتظر اولئك الجناة من عذاب إلهي شديد، ويشير أيضاً إلى ما أعدّ للمؤمنين من ثواب ونعيم جراء صبرهم وثباتهم على إيمانهم بالله. فتقول الآية الاولى: «إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ».

«فتنوا»: من مادة «فتن» وهو إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، وقد استعملت «الفتنة» بمعنى (الاختبار)، وبمعنى (العذاب والبلاء)، وبمعنى (الضلال والشرك) أيضاً؛ وهي في الآية بمعنى (العذاب).

«ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا»: تدلّ على أنّ باب التوبة مفتوح حتى لأولئك الجناة المجرمين، وتدلّ أيضاً على مدى لطف الباري جلّ وعلا على الإنسان حتى وإن كان مذنباً، وفي الجملة تنبيه لأهل مكة ليسارعوا في ترك تعذيب المؤمنين ويتوبوا إلى الله توبة نصوح. وقد ورد في الآية لونين من العذاب الإلهي: «عَذَابُ جَهَنَّمَ» و «عَذَابُ الْحَرِيقِ»، للإشارة إلى أنّ لعذاب جهنم ألوان عديدة، منها (عذاب النار)، وتعيين «عذاب الحريق»، للإشارة أيضاً إلى أنّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات وأحرقوهم بالنار، سوف يجازون بذات أساليبهم، ولكن أين هذه النار من تلك؟!

(١) قصص القرآن، للبلاغي / ٢٨٨.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٢٧

وتعرض لنا الآية التالية ما سيناله المؤمنون من ثواب: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ».

وأى فوز أرقى وأسمى من الوصول إلى جوار الله، والتمتع في نعيمه الذي لا- يوصف! نعم، ممفتاح ذلك الفوز العظيم هو (الإيمان والعمل الصالح)، وما عداه فروع لهذا الأصل.

ويعود القرآن مرة أخرى لتهديد الكفار الذين يفتنون المؤمنين، فيقول: «إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ».

ولا تظنوا بأنّ القيامة أمر خيالي، أو إنّ المعاد من الامور التي يشك في صحة تحققها، بل: «إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّئُ وَيُعِيدُ».

«البطش»: تناول الشيء بصولة وقهر، وباعتباره مقدمة للعقاب، فقد استعمل بمعنى العقاب والمجازاة؛ «رَبِّكَ»: تسليّة للنبي صلى الله عليه وآله، وتأكيد دعم الله اللامحدود له.

ثم يعرض لنا القرآن الكريم خمسة أوصاف للباري جلّ شأنه: «وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ».

الذي يغفر للتائبين ويحب المؤمنين.

«ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ». صاحب الحكومة المقنطرة على عالم الوجود وذو المجد والعظمة.

«فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ».

فذكر هذه الأوصاف بعد ما تضمنته الآيات السابقة من تهديد ووعيد، يبين أنّ طريق العودة إلى الله سالك وأنّ باب التوبة مفتوح لكل من ولغ في الذنوب، فالباري جلّت عظمته في الوقت الذي هو شديد العقاب فهو الغفور الرحيم أيضاً.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) يَلِيْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ (١٩) وَاللَّهُ مَرْنٌ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) يَلِيْلِ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢) ألم تر ما حلّ بجيش فرعون وثمود: فيما تعرضت الآيات السابقة لقدرة الله المطلقة وحاكميته،

ولتهديد الكفار الذين يفتنون المؤمنين .. تتعرض الآيات أعلاه لما يؤكّد هذا التهديد، فتخاطب النبي صلى الله عليه وآله قائلة: «هَلْ أَتَيْكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ». تلك الكتاب الجرارة التي وقفت بوجه أنبياء الله بتصورها الساذج بأنّها ستقف أمام قدرة الله عزّ وجلّ.

وتشير إلى نموذجين واضحين، أحدهما من غابر الزمان، والآخر في زمن قريب من صدر دعوة الإسلام: «فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٢٨

فأحدهما ملك الشرق والغرب، والآخر وصلت مدنيته لأن يحفر الجبال لبناء البيوت والقصور الفخمة، ولهما من الجبروت ما لم يستطع أحد من الوقوف بوجههم، ولكن العزيز الجبار أهلكهم بالماء والهواء، مع ما لهاتين المادتين من الوسائل المهمة المستلزمة لأساسيات حياة الإنسان.

وتقول الآية التالية: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ».

فآيات ودلائل الحق ليست بخافية على أحد، ولكن العناد واللجاجه هما اللذان يحجبان عن رؤية طريق الحق والإيمان. وكأن «بل» تشير إلى أن عناد وتكذيب أهل مكة أشد وأكثر من قوم فرعون وثمود وهم مشغولون دائماً بتكذيب الحق وانكاره ويستخدمون كل وسيلة فى هذا الطريق.

وعليهم أن يعلموا بقدره الله: «وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ».

فلا يدل الإمهال على الضعف أو العجز، ولا يعنى عدم تعجيل إنزال العقوبة الإلهية بأنهم قد خرجوا عن قدرته جل شأنه.

وتقول الآية التالية: «بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ، ذُو مَكَانَةٍ سَامِيَةٍ وَمَقَامٍ عَظِيمٍ».

«فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ». لا تصل إليه يد العبث، والشيطنة، ولا يصيبه أى تغيير أو تبديل، أو زيادة أو نقصان.

فلا تبتس يا محمد بما ينسبونه إليك افتراءً، كأن يتهموك بالشعر، السحر، الكهانة والجنون ... فاصولك ثابتة، وطريقك تير، والقادر المتعال معك.

«لَوْحٍ»: هو الصفحة العريضة التى يكتب عليها، ويراد هنا: الصفحة التى كتب فيها القرآن، لكنّها ليست كالألواح المتعارفة عندنا، بل

(وعلى قول ابن عباس): إن اللوح المحفوظ طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب.

ويبدو أن اللوح المحفوظ، هو «علم الله» الذى يملأ الشرق والغرب، ومصان من أى اختلاق أو تحريف.

«نهاية تفسير سورة البروج»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٢٩

٨٦. سورة الطارق

محتوى السورة: تدور مواضع السورة حول محورين:

١- المعاد والقيامة.

٢- القرآن الكريم وأهميته القيمة.

تبتدأ السورة بجملة أقسام تبعث على التأمل والتفكير، ثم تشير إلى المراقبين الإلهيين على الإنسان.

وتنتقل السورة لإثبات إمكانية المعاد من خلال الإشارة إلى كيفية خلق الإنسان من نطفة. فالقادر على خلق الإنسان من نطفة تنته لقادر على إعادة حياته بعد موته.

وتعرض لنا السورة بعد ذلك معالم المرحلة التالية من خلال تبيان بعض ملامح يوم القيامة، ثم تذكر جملة أقسام اخرى للتأكيد على أهمية القرآن، ومن ثم نختم بإنذار الكفار بالعذاب الإلهي.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان: ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها أعطاه الله بعدد كل نجم فى السماء عشر حسنات».

إن التأمل بمحتوى السورة والعمل على ضوئها هو الذى يضمن حصول ثوابها، وحركة اللسان الفارغة عن كل محتوى وتطبيق، لا تغنى عن الحق شيئاً.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣٠

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) تبدأ السورة - كمثلاثتها من سور الجزء الأخير من القرآن الكريم - بعدة أقسام بليغة تبعث على التأمل، وهي مقدمة لبيان أمر مهم. «وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ» .. «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ» .. «النَّجْمُ الثَّاقِبُ».

«الطارق»: من (الطرق) وهو الضرب، ولهذا قيل (الطريق) لما تطرقه أرض المشاة.

ويفسر القرآن الكريم «الطارق» بقوله: «النَّجْمُ الثَّاقِبُ». النجم اللامع الذي مع علوه الشاهق وكأنه يريد أن يثقب سقف السماء، وكأن نوره المتشعشع يريد أن يثقب ستار الليل الحالكة، فيجلب الأنظار بميزته هذه. ولنرى لأي شيء كان هذا القسم: «إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ». يحفظ عليه أعماله، وتسجل كل أفعاله، ليوم الحساب.

فلا تظنوا بأنكم بعيدون عن الأنظار، بل أينما تكونوا فتمه عليكم ملائكة مأمورين يسجلون كل ما يبدر منكم .. وهذا ما له الأثر البالغ في عملية إصلاح وتربية الإنسان.

ثم يستدل القرآن الكريم على المعاد في مقابل من يقول باستحالة المعاد: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ».

وبهذا ... أخذ القرآن الكريم بأيدي الجميع وأرجعهم إلى أول خلقهم، مستفهماً عما خلق منه الإنسان.

وبدون أن ينتظر الجواب من أحد يجيب القرآن على استفهامه: «خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ».

وهو ماء الرجل الذي تسبح فيه الحيامن، ويخرج بدفق.

ويستمر في تقريب المراد: «يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ».

«الصلب»: الظهر؛ و «الترائب»: جمع (تريبة)، وهي عظام الصدر العليا وضلوعه.

فالآيات تشير إلى ماء الرجل دون المرأة، بقرينه «ماء دافق»، وهذا لا يصدق إلا على

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣١

الرجل، وعليه يعود الضمير في «يخرج».

و «الصلب والترائب» هما ظهر الرجل وقسمه الأمامي، لأن ماء الرجل إنما يخرج من هاتين المنطقتين.

وهذا التفسير واضح، ينسجم مع ما ورد في كتب اللغة بخصوص المصطلحين.

كما ويمكن أن تكون الآية قد أشارت إلى حقيقة علمية مهمة لم يتوصل إلى اكتشافها بعد، وربما المستقبل سيكشف ما لم يكن بالحسبان.

ونصل مع القرآن إلى نتيجة ما تقدم من الذكر الحكيم: «إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ».

فالإنسان تراباً قبل أن يكون نطفة، ثم مرّ بمراحل عديدة مذهشة حتى أصبح إنساناً كاملاً، وليس من الصعوبة بحال على الخالق أن يعيد حياة الإنسان بعد أن نخرت عظامه وصار تراباً، فالذي خلقه من التراب أول مرة قادر على إعادته مرة أخرى.

وتصف لنا الآية التالية ذلك اليوم الذي سيرجع فيه الإنسان: «يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ».

«تبلى»: من «البلوى»، بمعنى الإختبار والإمتحان، وهو هنا الظهور والبروز، لأن الإمتحان يكشف عن حقيقة الأشياء ويظهرها.

«السرائر»: جمع (سريرة)، وهي صفات ونوايا الإنسان الداخلية.

نعم، فأسرار الإنسان الدفينة ستظهر في ذلك اليوم، يوم البروز ويوم الظهور، فسيظهر على الطبيعة كل من: الإيمان، الكفر، النفاق، نية

الخير، نية الشر، الإخلاص، الرياء ...

وسيكون ذلك الظهور مدعاة فخر ومزيد نعمة للمؤمنين، ومدعاة ذلّ ومهانة وحسرة للمجرمين ...

وما أشد ما سيلقى من قضى وطراً من عمره بين الناس بظاهر حسن ونوايا خبيثة. وما أتعه حينما تهتك أقنعتة المزيفة فيظهر على حقيقته أمام كل الخلائق.

ولكن أشدّ صعاب ذلك اليوم على الإنسان: «فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ».

فلا يملك تلك القوة التي تخفى أعماله ونياتة، وليس له ذلك الظهير الذي يعينه عن الخلاص من عذاب الله سبحانه وتعالى. وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوَيْدًا (١٧)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣٢

بعد أن تضمّنت الآيات السابقة استدلالاً على المعاد، بطريق توجيه الإنسان إلى بداية خلقه، تعود هذه الآيات إلى المعاد مرة أخرى، لتشير إلى بعض الأدلة الاخرى عليه فتقول:

«وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ» ... «وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ» ... «إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ» ... «وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ».

«الرجع»: من «الرجوع» بمعنى العود، ويطلق على الأمطار اسم (الرجع) لأنها تبدأ من مياه الأرض والبحار، ثم تعود إليها تارة أخرى عن طريق الغيوم.

فالقسمان يشيران إلى إحياء الأراضي الميتة بالأمطار، وهذا ما تكرر ذكره في القرآن الكريم كدليل على إمكانية المعاد، كما في قوله تعالى في الآية (١١) من سورة «ق»:

«وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ».

وتسلّى الآيات التالية قلب النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين من جهة، وتتوعد أعداء الإسلام من جهة أخرى: «إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا». فالكفار يخططون من جهة، وأنا أخطط لإحباط تلك الخطط من جهة أخرى .. «وَأَكِيدُ كَيْدًا». «فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوَيْدًا»، حتى يروا عاقبتهم.

نعم، إنهم دوماً يكيدون في حربك والحرب ضد دينك.

فتارة بالإستهزاء ...

واخرى بالحصار الإقتصادي ...

ومرة بتعذيب المؤمنين ...

ويقولون عنك: ساحراً، كاهناً، مجنوناً ...

ويقولون لك: أبعد الفقراء والمستضعفين عنك حتى تتبعك

ومراد الآية هو كيد الأعداء، وقد تعرضنا لبعض نماذجه أعلاه.

والمقصود بالكيد الإلهي إنّه تلك الألفاظ الإلهية التي غمرت النبي صلى الله عليه وآله ومن معه من المؤمنين، وما كان يصيب أعداء الإسلام من فشل مخططاتهم وخيبة مساعيهم.

هذه الآية درس للمسلمين في الكيفية التي ينبغي العمل بها عند مواجهة أعداءهم، وخصوصاً ما إذا كانوا أعداءً أقوياء، فلا بدّ من الصبر والتأني والدقة في حساب خطوات المواجهة، وينبغي عدم التسرع في العمل، وكذا عدم تنفيذ القرارات غير المدروسة.

«نهاية تفسير سورة الطارق»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣٣

محتوى السورة: تحتوي السورة على قسمين من المواضع:

١- يحوى خطاباً إلى النبي صلى الله عليه وآله، يأمره البارى سبحانه فيه بالتسبيح وأداء الرسالة، ثم ذكر سبعا من صفات الله عز وجل، لها صلة ربط بالأمر الربانى إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

٢- يتحدث عن المؤمنين الخاشعين، والكافرين الأشقياء، ويتناول باختصار العوامل التي تؤدي إلى كل من السعادة والشقاء الحق. وفى آخر السورة، يأتي التأكيد على أن ما جاء فى هذه السورة ليس هو حديث القرآن الكريم فقط، بل وتناولته كتب وصحف الأولين أيضاً، كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان ابى بن كعب قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «من قرأها أعطاه الله من الأجر عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله الله على إبراهيم وموسى ومحمد عليهم السلام».

وعن أبى بصير عن الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سَبَّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى فى فريضة أو نافله قيل له يوم القيامة: ادخل الجنة من أى أبواب الجنة شئت».

فيبدو أن السورة من الأهمية بحيث روى عن على بن أبى طالب عليه السلام قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحب هذه السورة «سَبَّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣٤

سَبَّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) تسبيح الله: تبدأ السورة بخلاصة دعوة الأنبياء عليهم السلام، حيث التسبيح والتقديس أبداً لله الواحد الأحد، فتخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالقول: «سَبَّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى».

فمراد الآية أن لا يوضع اسمه جل شأنه فى مصاف أسماء الأصنام، ويجب تنزيه ذاته المقدسة من كل عيب ونقص، ومن كل صفات المخلوق وعوارض الجسم، أى أن لا يحد.

«الأعلى»: أى الأعلى من كل: أحد، تصوّر، تخيل، قياس، ظن، وهم، ومن أى شرك بشقيه الجلى والخبفى.

«رَبِّكَ»: إشارة إلى أنه غير ذلك الرب الذى يعتقد به عبدة الأصنام.

وبعد ذكر هاتين الصفتين (الرب والأعلى)، تذكر الآيات التالية خمس صفات تبين ربوبية الله العليا...: «الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى .

فنظام عالم الخليقة، بدءاً من أبسط الأشياء، كبصمات الأصابع التى أشارت إليها الآية (٤) من سورة القيامة: «بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّى بَنَانَهُ». وانتهاءً بأكبر منظومة سماوية كلها شواهد ناطقة على ربوبية الله سبحانه وتعالى، وأدلة إثبات قاطعة على وجوده عز وجل.

وبعد ذكر موضوعى الخلق والتنظيم، تنتقل بنا الآية التالية إلى حركة الموجودات نحو الكمال: «وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى .

والمراد ب (قَدَّرَ)، هو: وضع البرامج، وتقدير مقادير الامور اللازمة للحركة باتجاه الأهداف المرسومة التى ما خلقت الموجودات إلا لأجلها.

والمراد ب (هدى هنا، هو: الهداية الكونية، على شكل غرائز و سنن طبيعية حاكمة على كل موجود (ولا فرق فى الغرائز والدوافع سواء كانت داخلية أم خارجية).

فمثلاً، إن الله خلق ثدى المرأة وجعل فيه اللبن لتغذية الطفل، وفى ذات الوقت جعل عاطفة الامومة شديدة عند المرأة، ومن الطرف الآخر جعل فى الطفل ميلاً غريزياً نحو ثدى امه، فكل هذه الإستعدادات والدوافع وشدة العلاقة الموجودة بين الام والإبن والتدى

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣٥

مقدّر بشكل دقيق، كى تكون عملية السير نحو الهدف المطلوب طبيعياً وصحيحة.

وهذا التقدير الحكيم ما نشاهده بوضوح في جميع الكائنات.

وقد اختص الإنسان بهداية تشريعية إضافة للهداية التكوينية يتلقاها عن طريق الوحي وإرسال الأنبياء عليهم السلام لتكتمل أمامه معالم الطريق من كافة جوانبه.

وتشير الآية التالية إلى النباتات، وما يخصّ غذاء الحيوانات منها: «وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى .
ثُمَّ: «فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى .

«الغشاء»: هو ما يطفح ويتفرق من النبات اليابس على سطح الماء الجارى، ويطلق أيضاً على ما يطفح على سطح القدر عند الطبخ، ويستعمل كناية عن: كل ضائع ومفقود، وجاء في الآية بمعنى: النبات اليابس المتراكم.
«أحوى»: من (الحوء)- على زنة قوّة- وهى شدّة الخضرة، أو شدّة السواد.

فللغشاء الأحوى منافع كثيرة .. فهو يشير بشكل غير مباشر إلى فناء الدنيا، وكذا غذاء جيد للحيوانات فى الشتاء، ويستعمل كسماد طبيعى للأرض، وكذا يستعمله الإنسان كوقود.

سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكَرْ إِنَّ نَفْعَ الذِّكْرِ (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَبَّبَهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصِلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَمَّا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣) فيما كان الحديث فى الآيات السابقة عن ربوبيّة الله وتوحيده جلّ شأنه، والهداية العامّة للموجودات، وكذا عن تسييح الرب الأعلى .. تأتى الآيات أعلاه لتتحدث عن: القرآن والتبوء، وهداية الإنسان، وكذا البيان القرآنى للتسييح. فتقول الآية الاولى مخاطبة النبى صلى الله عليه وآله: «سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنسَى . فلا تتعجل نزول القرآن، ولا تخف من نسيان آياته، فالذى أرسلك بهذه الآيات لهداية البشرية كفيل بحفظها، وبخطها على قلبك الطاهر بما لا يمكن لآفة النسيان من قرض ولو حرف واحد منها أبداً.

وتدخل الآية فى سياق الآية (١١٤) من سورة طه: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣٦

يُقَضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا». وكذا الآية (١٦ و ١٧) من سورة القيامة: «لَمَّا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتُخْبِرَ بِهِ إِنْ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ» تدخل فى سياقهما.

ولإثبات قدرته سبحانه وتعالى، وأنّ كل خير منه، تقول الآية: «إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى . ولا يعنى هذا الإستثناء بأنّ النسيان قد أخذ من النبى صلى الله عليه وآله وطراً، وإنّما هو لبيان أنّ قدره حفظ الآيات هى موهبة منه سبحانه وتعالى، ومشيتته هى الغالبة أبداً، وإلّا لترزعزت الثقة بقول النبى صلى الله عليه وآله.

فمن معاجز النبى الأكرم صلى الله عليه وآله، قابليته على حفظ الآيات والسور الطوال بعد تلاوة واحدة من جبرائيل عليه السلام، دون أن ينسى منها شيئاً أبداً.

وتخاطب الآية التالية النبى الكريم صلى الله عليه وآله مسلياً له: «وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى . أى: إخبار النبى بصعوبة الطريق فى كافة محطاته، من تلقى الوحي وحفظه حتى البلاغ والنشر والتعليم والعمل به، وتطمئنه بالرعاية والعناية الربانية، بتذليل صعبه من خلال تيسيرها له صلى الله عليه وآله.

وبعد أن تبين الآيات العناية الربانية للنبى الأكرم صلى الله عليه وآله، تنتقل إلى بيان مهمته الرئيسية:

«فَذَكَرْ إِنَّ نَفْعَ الذِّكْرِ .

قيل: الإشارة هنا إلى أنّ التذكير بحدّ ذاته نافع، وقليل اولئك الذين لا ينتفعون به، والحد الأدنى للتذكير هو إتمام الحجة على المنكرين، وهذا بنفسه نفع عظيم.

وتقسم الآيات التالية الناس إلى قسمين، من خلال مواقفهم تجاه الوعد والإنذار الذى مارسه النبى صلى الله عليه وآله ...: «سَيَذَكِّرُ مَنْ

يُخَشَى .

نعم، فإذا ما فقد الإنسان روح «الخشية» والخوف مما ينبغي أن يخاف منه، وإذا لم تكن فيه روحية طلب الحق - والتي هي من مراتب التقوى - فسوف لا تنفع معه المواعظ الإلهية، ولا حتى تذكيرات الأنبياء ستنتفعه، على هذا الأساس كان القرآن «هدى للمتقين».

وتذكر الآية التالية القسم الثاني، بقولها: «وَيَتَجَبَّبُهَا الْأَشْقَى».

ويعرض لنا القرآن عاقبة القسم الثاني: «الَّذِي يَصِلَى النَّارَ الْكُبْرَى .. «ثُمَّ لَآيَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَخْيَى . أَى، لا يموت ليخلص من العذاب، ولا يعيش حياة خالية من العذاب، فهو أبدأ يتقلقل بالعذاب بين الموت والحياة.

إنّ وصف نار جهنم ب «الكبرى» مقابل (النار الصغرى) فى الحياة الدنيا.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣٧

فى تفسير على بن إبراهيم عن الصادق عليه السلام قال: «إنّ ناركم هذه جزءاً من سبعين جزء من نار جهنم، وقد اطفئت سبعين مرة بالماء ثم التهبت ولولا ذلك ما استطاع آدمى أن يطفئها».

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩) بعد أن عرضت الآيات السابقة صورة العذاب ومعاناة أهله، يأتي الحديث عن الذين نفعتهم الذكري، ممن استمعوا إلى دعوة الهدى فطهروا أنفسهم من المعاصى والآثام، وخشعت قلوبهم لذكر الله .. ويقول القرآن: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . «وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى .

فأساس الفلاح بالنجاة من العذاب والفوز بالنعيم الخالد، يعتمد على ثلاثة أركان رئيسية: «التركية»، «ذكر اسم الله» و «الصلاة».

إنّ «التركية» ذات مداليل واسعة تشمل: تطهير الروح من الشرك، تطهير القلب من الرذائل الأخلاقية، تطهير الأعمال من المحرمات والرياء، تطهير الأموال والأبدان بإعطاء الزكاة والصدقات فى سبيل الله: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا».

ويشير البيان القرآنى إلى العامل الأساس فى عملية الإنحراف عن جادة الفلاح: «بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» .. «وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى .

فى عوالى اللثالى عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «حبّ الدنيا رأس كل خطيئة».

وعليه ... فلا سبيل لقطع جذور المعاصى إلّا بإخراج حبّ الدنيا وعشقها من القلب.

ينبغى علينا أن ننظر إلى الدنيا بواقعية وعقلانية، فالدنيا ليست أكثر من مرحلة إنتقالية أو معبر أو مزرعة الآخرة.

وتختم السورة ب: «إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى .. «صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى .

و «الصحف الاولى»: مقابل «الصحف الأخيرة» التى انزلت على المسيح عليه السلام وعلى النبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

ونستدل بالآية الأخيرة بأنّ لإبراهيم وموسى عليهما السلام كتباً سماوية.

وفى تفسير مجمع البيان عن أبى ذر أنه قال: قلت يا رسول الله! كم الأنبياء؟ فقال: «مائة ألف نبى وأربعة وعشرون ألفاً». قلت: يا رسول الله! كم المرسلون منهم؟ قال: «ثلاثمائة»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣٨

وثلاثة عشر، وبقيتهم أنبياء». قلت: كان آدم عليه السلام نبياً؟ قال: «نعم، كلمه الله وخلقته بيده. يا أباذر! أربعة من الأنبياء عرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك». قلت: يا رسول الله! كم أنزل الله من كتاب؟ قال: «مائة واربعه كتب، أنزل الله منها على آدم عليه السلام عشر صحف، وعلى شيث خمسين صحيفه، وعلى أخنوخ وهو إدريس ثلاثين صحيفه، وهو أول من خط بالقلم، وعلى إبراهيم عشر صحائف، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان».

«نهاية تفسير سورة الأعلى»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٣٩

٨٨. سورة الغاشية

محتوى السورة: تدور محتويات السورة على ثلاثة محاور:

١- بحث «المعاد»، وبيان حال المجرمين بما فيه من شقاء وتعاسة، ووصف حال المؤمنين وهم يرفلون بنعيم لا ينضب.

٢- بحث «التوحيد»، ويتناول موضوع خلق السماء والجبال والأرض، ونظر الإنسان إليها.

٣- بحث «النبوة»، مع عرض لبعض وظائف النبي صلى الله عليه وآله.

وعموماً، فالسورة تسيير على منهج السور المكية في تقوية اسس الإيمان والاعتقاد.

فضيلة السورة: في تفسير مجمع البيان ابى بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها حاسبه الله حساباً يسيراً».

وأبو بصير عن الصادق عليه السلام قال: «من أدمن قراءة هل أتاك حديث الغاشية في فرائضه أو نوافله، غشاه الله برحمته في الدنيا والآخرة، وأعطاه الأمن يوم القيامة من عذاب النار».

وبديهي أن الثواب المذكور لا يحصل إلّا لمن تلاها بتأمل وعمل.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤٠

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ (٦) لَمَا يُشْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) المتعبون ... الأخرسون: تبدأ السورة بذكر اسم جديد ليوم القيامة: «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ». «الغاشية»: من «الغشاوة» وهي التغطية، وسميت القيامة بذلك لأن حوادثها الرهيبة ستغطي فجاءة كل شيء. وتصف الآيات التالية، حال المجرمين في يوم القيامة، فتقول أولاً: «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ».

لا شك أن الوضع النفسي والروحي، تنعكس آثاره على وجه صاحبه، لذا فسترى تلك الوجوه وقد علتها علائم الخسران والخشوع لما أصابها من ذلّ وخوف ووحشة وهم بانتظار ما سيحل بهم من عذاب مهين أليم. وتصف حال تلك الوجوه ثانياً: «عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ».

فكل ما سعوا وكدوا فيه في الحياة الدنيا سوف لا يجنون منه إلّا التعب والنصب، وذلك:

لأن أعمالهم غير مقبولة عند الله، وما جمعوه من أموال وثروات قد ذهبت لغيرهم، ولا يملكون من ذكر صالح يعقبهم في الدنيا ولا ولد صالح يدعو ويستغفر الله لهم.

وخاتمة مطاف تلك الوجوه التعب الذليلة أن: «تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً».

ولن يقف عذابهم عند هذا الحد، بل أنهم وبسبب حرارة النيران يصيبهم العطش الشديد وحينئذ: «تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ».

«آتية»: مؤنث آنى من «الأنى» وهو التأخير، ويستعمل لما يقرب وقته، وجاء في الآية بمعنى: الماء الحارق الذى بلغ أقصى درجة حرارته؛ وجاء في الآية (٢٩) من سورة الكهف:

«وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا».

وتحكى لنا الآية التالية عن طعام المجرمين: «لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ».

جاء في الحديث النبوي الشريف: «الضريح شيء يكون في النار يشبه الشوك، أشد مرارة

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤١

مختصر الامثل ج ٥، ص: ٤٩٠

من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأحر من النار، سمّاه الله ضريعاً.

وتصف لنا الآية التالية ذلك الطعام: «لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ».

فالذين شرهوا فى تناول ألد المأكولات فى دنياهم، على حساب ظلم الناس والتجاوز على حقوقهم، ومنعوا لقمه العيش عن كثير من المحرومين، فليس فى طعام آخرتهم سوى العذاب الأليم.

وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَآغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) صور من نعيم الجنة: بعد ذكر ما سيتعرض له أهل النار، تنتقل عدسه السورة لتتقل لنا مشاهد رائعة لنعيم أهل الجنة.. ليتوضح لنا الفرق ما بين القهر الإلهي والرحمة الإلهية، وما بين الوعيد والبشارة. فتقول الآية الأولى: «وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ». على عكس وجوه المذنبين المكسوة بعلائم الذلة والخوف.

«ناعمة»: من «النعمة» وتشير هنا إلى الوجوه الغارقة فى نعمة الله، وجوه طرية، مسرورة ونورانية كما فى الآية (٢٤) من سورة المطففين: «تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ». وترى الوجوه: «لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ».

على عكس أهل جهنم، فوجوههم «عاملة ناصبة»، أما أهل الجنة، فقد حان وقت حصادهم لما زرعوا فى دنياهم، وحصلوا على أحسن ما يتمنون، فتراهم فى غاية الرضى والسرور.

وما زرعوا سيتضاعف ناتجه بإذن الله ولطفه أضعافاً مضاعفة، فتارة عشرة أضعاف، وأخرى سبعمائه ضعف، وثالثة يجازون على ما عملوا بغير حساب، كما أشارت الآية (١٠) من سورة الزمر إلى ذلك بقولها: «إِنَّمَا يُؤَفِّقِي الصَّابِرِينَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

ويدخل البيان القرآنى فى التفصيل أكثر: «فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ».

وكذا...: «لَأَتَسْمَعُ فِيهَا لَعِينَةً».

فهل يوجد مكان أهدأ وأجمل من ذلك؟!

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤٢

ولو تأملنا حقيقة مشاكلنا فيما بيننا، لرأينا أن الغالب منها ما كان ناشئاً عن سماع هكذا أحاديث، والتي تؤدى إلى عدم الاستقرار النفسى، وإلى تهديم أركان الترابط الاجتماعى فينهار النظام وتشتعل نيران الفتن لتأكل الأخضر واليابس معاً. وبعد ذكر القرآن لما يتمتع به أهل الجنة من نعمة روحية، يبين بعض النعم المادية فى الجنة: «فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ».

تلك الأنهار أنها تجرى حسب رغبة أهل الجنة فلا داعى معها لشقّ أرض أو وضع سد.

وينهل أهل الجنة أشربة طاهرة ومتنوعة، فتلك العيون وعلى ما لها من رونق وروعة، فلكلّ منها شراب معين له مواصفاته الخاصة به.

ويتنقل الوصف إلى أسرة الجنة: «فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ». «سرر»: جمع (سرير)، وهو من (السرور)، بمعنى المقاعد التى يجلس عليها فى مجالس الانس والسرور.

وجعلت تلك الأسرة من الإرتفاع بحيث يتمكن أهل الجنة من رؤية كل ما يحيط بها والتمتع بذلك.

ولما كان شرب الشراب يستلزم ما يشرب به، فقد قالت الآية التالية: «وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ».

ومتى ما أرادوا الشرب ارتفعت تلك الأكواب لتصل بين أيديهم وقد ملئت من شراب تلك العيون، فيستلذون بما لا وصف له عند أهل الدنيا.

«أكواب»: جمع (كوب)، وهو القدح، أو الظرف الذى له عروة.

ويستمر الحديث عن جزئيات نعيم الجنة: «وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ».

«نمارق»: جمع (نمرقة)، وهى الوسادة الصغيرة التى يتكأ عليها.

«مصفوفة»: إشارة إلى تعددها بنظم خاص، ليظهر أن لأهل الجنة جلسات انس جماعية، التى لا يتخللها أى لغو وباطل، ويدور الحديث فيها حول الألفاظ الإلهية ونعمه الخالدة، وعن الفوز الحقيقى الذى أبعدهم عن عذاب الآخرة.

ثم تكون الإشارة إلى فرش الجنة الفاخرة: «وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ».

«زرايبية»: جمع (زرب) أو (زريبة)، وهي الفرش والبسط الفاخرة ذات المتكأ.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤٣

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦) الإبل ... من آيات خلق الله: بعد أن تحدثت الآيات السابقة بتفصيل عن الجنة ونعيمها، تأتي هذه الآيات لتوضح معالم الطريق الموصل إلى الجنة ونعيمها.

مفتاح المعرفة «معرفة الله»، ووصولاً لهذا المفتاح تذكر الآيات أربعة نماذج لمظاهر القدرة الإلهية وبديع الخلق، داعية الإنسان للتأمل، عسى أن يصل إلى ما ينبغي له أن يصل إليه.

وتشير أيضاً إلى أن قدرة الله المطلقة هي مفتاح درك المعاد ..

فتقول الآية الأولى: «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ».

إن الآيات في أول نزولها كانت تخاطب أهل مكة قبل غيرهم، والإبل أهم شيء في حياة أهل مكة في ذلك الزمان، فهي معهم ليل نهار وتنجز لهم ضروب الأعمال وتدر عليهم الفوائد الكثيرة. أضف إلى ذلك أن لهذا الحيوان خصائص عجيبة قد تفرد بها عن بقية الحيوانات، ويعتبر بحق آية من آيات خلق الله الباهرة.

ولابد من التذكير، بأن «النظر» الوارد في الآية، يراد به النظر الذي يصحبه تأمل ودراسة.

ويتنقل بنا البيان القرآني في الإبل إلى السماء: «وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ».

فكيف أصبحت تلك الكواكب في مساراتها المحدودة، وما هو سر استقرارها في أماكنها وبكل هذه الدقة، ولم لم يتغير محور حركتها بالرغم من مرور ملايين السنين عليها.

مع كل هذا وذاك، ألا يكون أمر خلق السماء مدعاة للتأمل والتفكير، والخضوع والتسليم لربوبيه الخالق الواحد الأحد؟!

وينقلنا إلى الجبال: «وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤٤

الجبال التي تشمخ بتعمق جذورها في باطن الأرض، وتحيط بالأرض على شكل حلقات وسلاسل لتقلل من شدة الزلازل الناشئة من ذوبان المواد المعدنية في باطن الأرض، وكذا ما لها من دور في حفظ الأرض من عملية المد والجزر الناشئة من تأثيرات الشمس والقمر ..

«نصبت»: من «النصب»، وهو التثبيت، وربما رمز هذا التعبير إلى بداية خلق الجبال أيضاً.

فقد توصل العلم الحديث إلى أن تكون الجبال يعتمد على عوامل عديدة وقسمها إلى عدة أنواع:

فمنها: ما تكون نتيجة للتراكبات الحاصلة على الأرض.

ومنها: ما تكون من الحمم البركانية.

ومنها: ما تكون نتيجة لتفتت الأرض بواسطة الأمطار.

وكذا منها: ما تكون نتيجة للترسبات الحاصلة في أعماق البحار ومن بقايا الحيوانات (كالجبال والجزر والمرجانية).

نعم، فالجبال وبكل ما فيها ولها تعدد آية من آيات القدرة الإلهية، لمن رآها بعين بصيرة ولب شغول.

ثم إلى الأرض: «وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ».

فلينظر الإنسان إلى كيفية هطول الأمطار على الجبال لتسهيل من بعدها محملة الأتربة كي تتكون بها السهول الصافية، لتكون صالحه

للزراعة من جهة ومهيئة لما يعمل بها الإنسان من جهة أخرى .. ولو كانت كل الأرض عبارة عن جبال ووديان، فما أصعب الحياة على سطحها والحال هذه.

ولابد لنا من التأمل والتفكير فى من جعلها تكون على هذه الهيئة الملائمة تماماً لحياة الإنسان؟ ..

إنّ هذه الأشياء الأربع (الإبل، السماء، الجبال والأرض) تدخل فى حياة الإنسان بشكل رئيسى، حيث من السماء مصدر النور والأمطار والهواء، والأرض مصدر نمو أنواع النباتات

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤٥

وما يتغذى به، وكذا الجبال فبالإضافة لكونها رمز الثبات والعلو ففيها مخازن المياه والمواد المعدنية بألوانها المتنوعة، و ما الإبل إلّا نموذج بارز متكامل لذلك الحيوان الأهلئ الذى يقدم مختلف الخدمات للإنسان.

وعليه، فقد تجمعت فى هذه الأشياء الأربع كل مستلزمات «الزراعة» و «الصناعة» و «الثروة الحيوانية»، وحرىّ بالإنسان والحال هذه أن يتأمل فى هذه النعم المعطاءة، كى يندفع بشكل طبيعى لشكر المنعم سبحانه وتعالى، وبلا شك فإنّ شكر المنعم سيدعوه لمعرفة خالق النعم أكثر فأكثر.

وبعد هذا البحث التوحيدي، يتوجه القرآن الكريم لمخاطبة النبئ الأكرم صلى الله عليه و آله: «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ... «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ».

نعم، فخلق السماء والأرض والجبال والحيوانات ينطق بعدم عبثية هذا الوجود، وأن خلق الإنسان إنّما هو لهدف ...

فذكرهم بهدفيه الخلق، وبيّن لهم طريق السلوك الربانى، وكن رائدهم وقدوتهم فى مسيرة التكامل البشرى.

وليس باستطاعتك إجبارهم، وإن حصل ذلك فلا- فائدة منه، لأنّ شوط الكمال إنّما يقطع بالإرادة والإختيار، وليس ثمة من معنى للتكامل الإجبارى.

وفى الآيتين التاليتين يأتئ الاستثناء ونتيجته: «إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ» .. «فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ».

ويراد ب «الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ» «عذاب الآخرة» الذى يقابل عذاب الدنيا الصغير نسبة لحجم وسعة عذاب الآخرة، بقريته الآية (٢٦) من سورة الزمر: «فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ».

وكذلك يحتمل إرادة نوع شديد من عذاب الآخرة، لأنّ عذاب جهنم ليس بمتساو للجميع.

وبحدية قاطعة، تقول آخر آيتين فى السورة: «إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ» .. «ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤٦

والآيتان تتضمّنان التسليء لقلب النبئ صلى الله عليه و آله فى مواجهته لأساليب المعاندين، لكى لا- يبتئس من أفعالهم، ويستمر فى دعوته.

وهما أيضاً، تهديد عنيف لكل من تسول له نفسه فيقف فى صف الكافرين والمعاندين، فيخبرهم بأنّ حسابهم سيكون بيد جبار شديد.

بدأت سورة الغاشية بموضوع القيامة وختمت به أيضاً، كما تمّت الإشارة فيما بين البدء والختام إلى بحث التوحيد والنبوءة، وهما دعامة المعاد.

«نهاية تفسير سورة الغاشية»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤٧

٨٩. سورة الفجر

محتوى السورة: تقدّم لنا الآيات الاولى أقساماً نادرة فى نوعها لتهديد الجبارين بالعذاب الإلهئ.

وتنقل لنا بعض آياتها ما حلَّ ببعض الأقوام السالفة ممن طغوا في الأرض وعاثوا فساداً (قوم عاد، ثمود وفرعون)، وجعلهم عبرة لأولى الأبصار، ودرسا قاسياً لكل من يرى في نفسه القوة والإقتدار من دون الله.

ثم تشير باختصار إلى الإمتحان الرباني للإنسان، وتلومه على تقصيره في فعل الخيرات ..

وآخر ما تتحدث عنه السورة هو «المعاد» وما سينتظر المؤمنون ذوى النفوس المطمئنة من ثواب جزيل، وأيضاً ما سينتظر المجرمين والكافرين من عقاب شديد.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان ابى بن كعب عن النبي صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأها في ليال عشر، غفر الله له، ومن قرأها سائر الأيام، كانت له نوراً يوم القيامة».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «اقرأوا سورة الفجر في فرائضكم ونوافلكم، فإنها سورة الحسين بن علي عليه السلام، من قرأها كان مع الحسين بن علي عليه السلام يوم القيامة في درجته من الجنة».

يمكن أن يكون وصف السورة بسورة الإمام الحسين عليه السلام بلحاظ أنه أفضل مصاديق ما

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤٨

جاء في آخر آياتها، حيث فيما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية الأخيرة من السورة: إن «النفوس المطمئنة» هو الحسين بن علي عليهما السلام.

وعلى أية حال، فتوابها إنما هو لمن تبصر في قراءتها وعمل على ضوئها.

وَالْفَجْرِ (١) وَ لَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَ الشَّفَعِ وَ الْوَتْرِ (٣) وَ اللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرِ (٥) بدأت السورة بخمسة أقسام: الأول: «وَالْفَجْرِ» ... والثاني: «وَلَيَالٍ عَشْرٍ».

«الفجر»: بمعنى الشقّ الواسع، وقيل للصبح «الفجر» لأنّ نوره يشقّ ظلمة الليل.

وقيل: هو كل نور يشع وسط ظلام .. وعليه، فبزوغ نور الإسلام ونور المصطفى صلى الله عليه و آله في ظلام عصر الجاهلية هو من مصاديق الفجر، وكذا بزوغ نور قيام المهدي عليه السلام في وسط ظلام العالم (كما جاء في بعض الروايات) «١».

ومن مصاديقه أيضاً، ثورة الحسين عليه السلام في كربلاء الدامية، لشقها ظلمة ظلام بنى أمية، وتعريه نظامهم الحاكم بوجهه الحقيقي أمام الناس.

ويكون من مصاديقه، كل ثورة قامت أو تقوم على الكفر والجهل والظلم على مرّ التاريخ.

وحتى انقذاح أول شرارة يقظة في قلوب المذنبين المظلمة تدعوهم إلى التوبة، فهو «فجر».

ومما لا شك فيه أن المعاني هي توسعة لمفهوم الآية، أمّا ظاهرها فيدل على «الفجر» المعهود.

والمشهور عن «ليال عشر»: إنهن ليالي أول ذى الحجة، التي تشهد أكبر اجتماع عبادى سياسى لمسلمى العالم من كافة أقطار الأرض.

وقيل: ليالي أول شهر محرم الحرام.

وقيل أيضاً: ليالي آخر شهر رمضان، لوجود ليلة القدر فيها.

والجمع بين كل ما ذكر ممكن جداً.

وذكر في بعض الروايات التي تفسّر باطن القرآن: إن «الفجر» هو المهدي المنتظر عليه السلام ...

(١) راجع تفسير البرهان ٤/٤٥٧/١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٤٩

و «ليال عشر» هم الأئمة العشر قبله عليهم السلام ..؛ و «الشفع»: - في الآية - هما على وفاطمة عليهما السلام.

ويأتى القَسَم الثالث والقسم الرابع: «وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ».

للمفسرين آراء كثيرة فيما اريد ب «الشفع والوتر» حتى ذكر (٣٦) قولاً في ذلك «١». أما سيكون تفسيران من التفاسير المذكورة أكثر من غيرهما مناسبة وقرباً مع مراد الآيه، وهما:

الأول: المراد بهما يومى العيد وعرفه، وهذا ما يناسب ذكر الليالى العشر الاولى من شهر ذى الحجة، وفيهما تؤدى أهم فقرات مناسك الحج.

الثانى: أنهما يشيران إلى «الصلاة» (ركعتى الشفع وركعة الوتر فى آخر صلاة الليل)، بقرينه ذكر «الفجر»، وهو وقت السحر ووقت الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل.

وقد ورد هذان التفسيران فى روايات عن أئمة أهل البيت المعصومين عليهم السلام.

ونصل هنا إلى القسم الخامس: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَّ».

وكأن الوصف يقول: بأن الليل موجود حسى، له حس وحركة، وهو يخطو فى ظلمته وصولاً لنور النهار.

اختلف المفسرون فى مراد الآيه من «الليل»، هل هو مطلق الليل أم ليلة مخصوصة، فإن كانت الألف واللام للتعميم فجميع الليالى، كآيه من آيات الله ومظهر من مظاهر الحياة المهمة.

وإن كانت الألف واللام للتعريف، فليلة عيد الأضحى، بلحاظ الآيات السابقة، حيث يتجه حجاج بيت الله الحرام من (عرفات) إلى (المزدلفة) - المشعر الحرام - ويقضون ليلهم فى ذلك الوادى المقدس، وعند الصبح يتجهون نحو (منى).

(وقد ورد فى هذا روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام) «٢».

فالليل سواء كان بمعناه المطلق أم المحدد فهو من آيات عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وهو من الضرورات الحياتية فى عالم الوجود.

فالليل يكتيف حرارة الجو، ويعم على جميع الكائنات الإستقرار والسكون بعد جهد الحركة والتنقل، وفوق هذا وذاك ففيه أفضل أوقات الدعاء والمناجات مع الله جل وعلا.

(١) نقل ذلك كل من: العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان عن بعض المفسرين فى الجزء ٢٠ / ٢٨٦؛ وفى تفسير روح المعانى عن كتاب التحرير والتحجير ٣٠ / ١٢٠.

(٢) راجع تفسير نور الثقلين ٥ / ٥٧١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥٠

وتتجسد تلك العلاقة الموجودة بين الأشياء الخمس التى أقسم بها (الفجر، ليال عشر، الشفع، الوتر، الليل إذا يسر) إذا ما اعتبرناها ضمن أيام ذى الحجة ومراسم الحج العظيمة. وفى غير هذا فسيكون إشارة إلى مجموعة من حوادث عالم التكوين والتشريع المهمة، والتى تبين جلال وعظمة الخالق سبحانه وتعالى.

ثم تأتى الآيه التالية لتقول: «هَيْلٌ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِمَدَى حِجْرِ». «الحجر»: هنا بمعنى العقل، وفى الأصل بمعنى (المنع). اطلق على العقل (حجر) لمنعه الإنسان عن الأعمال السيئة.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لِبَلْمُرْصَادِ (١٤)

إمهال الظالمين ... والإنتقام: بعد أن تضمّنت الآيات الاولى خمسة أقسام حول معاقبة الطغاة، تأتى هذه الآيات لتعرض لنا نماذج من طواغيت الأرض، وتبين لنا الآيات المباركة ما حلّ بهم من عاقبة أليمة، محذرة المشركين فى كل عصر ومصر على أن يرعوا ويعودوا إلى رشدهم، لأنهم مهما تمتعوا بقوة وقدره فلن يصلوا لما وصل إليه الأقوام السالفة، وينبغى الإعتاظ بعاقبتهم، وإلا فالهلاك والعذاب

الأبدى ولا غير سواه.

وتبتدأ الآيات ب: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ».

المراد «بالرؤية» هنا، العلم والمعرفة لما وصلت إليه تلك الأقوام من الشهرة بحيث أصبح من جاء بعدهم يعرف عنهم الشيء الكثير وكأنه يراهم بام عينيه.

«عاد»: هم قوم نبي الله هود عليه السلام، وكانت تعيش فى أرض الأحقاف أو اليمن.

ويضيف القرآن قائلاً: «إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ».

«عماد»: بمعنى العمود تشير إلى عظمة أبنيتهم وعلو قصورهم وما فيها من أعمدة كبيرة.

ولذا تقول الآية التالية: «الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ».

والآية تبين أن المراد ب «إرم» المدينة.

وتذكر الآية التالية جمع آخر من الطغاة السابقين: «وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ».

وصنعوا منها البيوت والقصور.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥١

«تمود»: من أقدم الأقوام، ونبينهم صالح عليه السلام، وكانوا يعيشون فى (وادي القرى) بين المدينة والشام، وكانوا يعيشون حياة مرفهة، ومدنهم عامرة.

«جابوا»: من «الجوبة» - على زنة توبة - وهى الأرض المقطوعة، ثم استعملت فى قطع كل أرض. فمراد الآية: قطع أجزاء الجبال وبناء البيوت القوية، كما أشارت إلى ذلك الآية (٨٢) من سورة الحجر - حول تمود أنفسهم: «وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ».

«واد»: فى الأصل (وادي)، وهو الموضع الذى يجرى فيه النهر، ومنه سمي المفرج بين الجبلين وادياً، لأن الماء يسيل فيه.

والمعنى الثانى أكثر مناسبة بقرينه ما ورد فى القرآن من آيات تتحدث عن هؤلاء القوم، وما ذكرناه آنفاً يظهر بأنهم كانوا ينحتون بيوتهم فى سفوح الجبال.

وتتحرك الآية التالية لتستعرض قوماً آخرين: «وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأُوتَادِ».

أى: ألم تر ما فعل ربك بفرعون الظالم المقتدر؟!

«أوتاد»: جمع (وتد)، وهو ما يثبت به.

ولم وصف فرعون بذي الأوتاد؟ وثمة تفاسير مختلفة:

الأول: لأنه كان يملك جنوداً وكتائباً كثيرة، وكانوا يعيشون فى الخيم المثبته بالأوتاد.

الثانى: لما كان يستعمل من أساليب تعذيب من يغضب عليهم، حيث غالباً ما كان يدق على أيديهم وأرجلهم بأوتاد ليشتها على الأرض، أو يضعهم على خشبة ويشتهم بالأوتاد، أو يدخل الأوتاد فى أيديهم وأرجلهم ويتركهم هكذا حتى يموتوا.

وينتقل القرآن لعرض ما كانوا يقومون به من أعمال: «الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبَلَدِ» ..

فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ».

الفساد الذى يشمل كل أنواع الظلم والإعتداء والانحراف، والذى هو نتيجة طبيعية من نتائج طغيانهم، فكل من يطغى سيؤول أمره إلى الفساد لا محال.

ويذكر عقابهم الأليم وبعبارة موجزة: «فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ».

«السوط»: هو الجلد المضفور الذى يضرب به، وأصل السوط: خلط الشيء بعضه ببعض، وهو هنا كناية عن العذاب، العذاب الذى يخلط لحم الإنسان بدمه فيؤذيه أشد الإيذاء. أما أنسب معانى «السوط» فهو المعروف بين الناس به.

«صَبَّ عَلَيْهِمْ»: تستعمل في الأصل لانسكاب الماء، وهنا إشارة إلى شدة واستمرار نزول العذاب.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥٢

فعلى إيجاز الآية، لكنّها تشير إلى أنواع العذاب الذى أصابهم، فعاد اصبوا بريح باردة، كما تقول الآية (٦) من سورة الحاقة: «وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ». واهلك قوم ثمود بصيحة سماوية عظيمة، كما جاء فى الآية (٥) من سورة الحاقة أيضاً: «فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ». والآية (٥٥) من سورة الزخرف تنقل صورة هلاك قوم فرعون: «فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ».

وتحذر الآية التالية كل من سار على خطى اولئك الطواغيت: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ».

«المرصاد»: من «الرصد» وهو الإستعداد للترقب، وهو فى الآية يشير إلى عدم وجود أى ملجأ أو مهرب من رقابة الله وقبضته، فمتى شاء سبحانه أخذ المذنبين بالعقاب والعذاب.

«رَبِّكَ»: إشارة إلى أن هذه السنّة الإلهية لم تقف عند حدّ الذين خلوا من الأرقام السالفة، بل هى سارية حتى على الظالمين من امتك يا محمد صلى الله عليه وآله .. وفى ذلك تسلية لقلب النبى صلى الله عليه وآله وتطمينا لقلوب المؤمنين، فالوعد الإلهى قد أكد على عدم انفلات الأعداء المعاندين من قبضة القدرة الإلهية أبداً أبداً، وفيه تحذير أيضاً لأولئك الذين يؤذون النبى صلى الله عليه وآله ويظلمون المؤمنين، تحذير بالكف عن ممارساتهم تلك وإلا سيصيبهم ما أصاب الأكثر منهم قدرة وقوة، وعندها فسوف لن تقوم لهم قائمة إذا ما أتتهم ريح عاصفه أو صيحة مرعبة أو سيل جارف يقطع دابرههم.

فى تفسير على بن إبراهيم عن أبى جعفر عليه السلام قال: «لما نزلت هذه الآية «وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ» [الفجر: ٢٣] سئل رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: بذلك أخبرنى الروح الأمين أن الله لا إله غيره، إذا أبرز الخلائق وجمع الأولين والآخرين، أتى بجهنم تقاد بألف زمام، مع كل زمام مائة ألف ملك من الغلاظ الشداد، لها هدة وغضب وزفير، وشهيق، وإنها لتزفر الزفرة، فلولا أن الله عز وجل أخرهم للحساب لأهلكت الجميع ثم يخرج منها عنق [أى طائفة منها] فيحيط بالخلائق البر منهم والفاجر فما خلق الله عز وجل عبداً من عباد الله ملكاً ولا نبياً إلا ينادى نفسى نفسى وأنت يا نبى الله تنادى: امتى امتى ثم يوضع عليها الصراط أدق من حدّ السيف، عليها ثلاث قناطر:

أما واحدة فعليها الأمانة والرحم، والثانية فعليها الصلاة، وأما الثالثة فعليها عدل رب العالمين لا إله غيره، فيكلفون الممر عليها، فيحبسهم الرحم والأمانة، فإن نجوا منهما حبستهم الصلاة، فإن نجوا منها كان المنتهى إلى رب العالمين عز وجل، وهو قوله: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥٣

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَمَّا تَخَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) موقف الإنسان من تحصيل النعمة وسلبها: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن عقاب الطغاة، وتحذيرهم وإنذارهم، تأتى هذه الآيات لتبين مسألة الإبتلاء والتمحيص وأثرها على الثواب والعقاب الإلهى، وتعتبر مسألة الإبتلاء من المسائل المهمة فى حياة الإنسان.

وتشرع الآيات ب: «فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ».

وكأنه لا يدري بأن الإبتلاء سنّة ربانية تارة يأتى بصورة اليسر والرخاء واخرى بالعسر والضراء.

«وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ».

فيأخذة اليأس، ويظن إن الله قد ابتعد عنه، غافلاً عن سنّة الإبتلاء فى عملية التربية الربانية لبنى آدم، والتي تعتبر رمزاً للتكامل الإنسانى، فمن خلال نظرة ومعايشة الإنسان للإبتلاء يرسم بيده لوحة عاقبته، فأما النعيم الدائم، وأما العقاب الخالد.

وتأتى الآية (٥١) من سورة فصلت فى سياق الآيتين: «وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ». وكذا الآية (٩) من سورة هود: «وَلَيْسَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكُفُورٌ».

وتوجه الآيتان التاليتان نظر إلى الإنسان والأعمال التى تؤدى بحق للبعد عن الله، وتوجب عقابه: «كَلَّا». فليس الأمر كما تظنون من أن أموالكم دليل على قربكم من الله، لأن أعمالكم تشهد ببعدهم عنه، «بَلْ لَأَتُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ» .. «وَلَا تَحَاضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ». والملاحظ أن الآية لم تخصص اليتيم بالإطعام بل بالإكرام، لأن الوضع النفسى والعاطفى لليتيم أهم بكثير من مسألة جوعه. فلا ينبغى لليتيم أن يعيش حالة الإنكسار والذلة بفقدان أبيه، وينبغى الإعتناء به

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥٤

وإكرامه لسد الثغرة التى تسببت برحيل أبيه، وقد أولت الأحاديث الشريفة والروايات هذا الجانب أهمية خاصة، وأكدت على ضرورة رعايته وإكرام اليتيم. «تحاضون»: من «الحض» وهو الترغيب، فلا يكفى إطعام المسكين بل يجب على الناس أن يتواصوا ويحث بعضهم البعض الآخر على ذلك لتعم هذه السنّة التربوية كل المجتمع.

وتعرض الآية التالية ثالث أعمالهم القبيحة: «وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا».

مما لا شك فيه أن الاستفادة من الميراث المشروع عمل غير مذموم، ولذا فيمكن أن يكون المذموم فى الآية أحد الامور التالية: الأول: الجمع بين حق الإنسان وحق الآخرين فى الميراث.

وكانت عادة العرب فى الجاهلية أن يحرموا النساء والأطفال من الإرث لاعتقادهم بأنه نصيب المقاتلين (لأن أكثر أموالهم تأتيهم عن طريق السلب والإغارة).

الثانى: عدم الإنفاق من الإرث على المحرومين والفقراء من الأقرباء وغيرهم، فإن كنتم تبخلون بهذه الأموال التى وصلت إليكم بلا عناء، فأنتم أبخل فيما تكّدون فى تحصيله، وهذا عيب كبير فيكم.

الثالث: هو أكل إرث اليتامى والتجاوز على حقوق الصغار، وذلك من أقبح الذنوب، لأن فيه استغلال فاحش لحق من لا يستطيع الدفاع عن نفسه.

والجمع بين هذه التفاسير الثلاث ممكن.

ثم يأتى الذم الرابع: «وَتُجْبُونَ أَمْالَ حُبًّا جَمًّا».

فأنتم .. عبدة دنيا، طالبى ثروة، عشاق مال ومتاع .. ومن يكون بهذه الحال فمن الطبيعى أن لا يعتنى فى جمعه للمال، أكان من حلال أم من حرام، ومن الطبيعى أيضاً أن يتجاوز على الحقوق الشرعية المترتبة عليه، بأن لا ينفقها أو ينقص منها .. ومن الطبيعى كذلك إن القلب الذى امتلأ بحب المال والدنيا سوف لا يبقى فيه محل لذكر الله عز وجل.

ولذا نجد القرآن الكريم بعد ذكره لمسألة امتحان الإنسان، يتعرض لأربعة اختبارات يفشل فيها المجرمين.

والملاحظ أن الاختبارات المذكورة إنما تدور حول محور الأموال، للإشارة ما للمال من مطبات مهلكة، ولو تجاوزها الإنسان لسهلت عليه بقيه العقبات فى طريقه نحو التكامل والرقى والسمو.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥٥

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذُّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَأُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدًا (٢٥) وَلَا يُؤْتِقُ وَثَاقَهُ أَحَدًا (٢٦) يوم لا تنفع الذكرى: بعد أن ذمت الآيات السابقة الطغاة وعبدة الدنيا والغاصبين لحقوق الآخرين، تأتى هذه الآيات لتحذرهم وتهددهم بوجود القيامة والحساب والجزاء. فتقول أولها: «كَلَّا». فليس الأمر كما تعتقدون بأن لا حساب ولا جزاء، وأن الله قد أعطاكم المال تكريماً وليس امتحاناً .. «إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا».

«الدك»: الأرض اللينة السهلة، ثم استعملت في تسوية الأرض من الإرتفاعات والتعرجات.

فالآية تشير إلى الزلازل والحوادث المرعبة التي تعلن عن نهاية الدنيا وبداية يوم القيامة، حيث تتلاشى الجبال وتستوى الأرض، كما أشارت لذلك الآيات (١٠٥-١٠٧) من سورة طه: «وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا».

وبعد أن تنتهي مرحلة القيامة الاولى (مرحلة الدمار)، تأتي المرحلة الثانية، حيث يعود الناس ثانية للحياة ليحضرُوا في ساحة العدل الإلهي: «وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا».

نعم، فسيفف الجميع في ذلك المحشر لإجراء الأمر الإلهي وتحقيق العدالة الربانية، وقد بينت لنا الآيات ما لعظمة ذلك اليوم، وكيف أن الإنسان لا سبيل له حينها إلا الرضوخ التام بين قبضة العدل الإلهي.

وتقول الآية التالية: «وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى .

وما نستنبطه من الآية، إن جهنم قابله للحركة، فتقرب للمجرمين، كما هو حال حركة الجنة للمتقين: «وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ» (١).

في تفسير مجمع البيان عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت هذه الآية، تغير وجه رسول الله صلى الله عليه وآله، وعرف في وجهه، حتى اشتد على أصحابه ما رأوا من حاله، وانطلق بعضهم إلى

(١) سورة الشعراء / ٩٠.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥٦

على بن أبي طالب عليه السلام فقالوا: يا على! لقد حدث أمر قد رأيناه في نبي الله صلى الله عليه وآله، فجاء على عليه السلام فاحتضنه من خلفه، وقيل بين عاتقيه، ثم قال: «يا نبي الله بأبي أنت وامى، ما الذى حدث اليوم؟ قال: جاء جبرائيل فأقرأنى «وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ». قال فقلت: كيف يجاء بها؟ قال:

يجىء بها سبعون ألف ملك، يقودونها بسبعين ألف زمام، فتشرد شرده لو تركت لأحرق أهل الجمع، ثم أتعرض لجهنم فتقول: ما لى ولك يا محمّد، فقد حرّم الله لحمك علىّ، فلا يبقى أحد إلا قال: نفسى نفسى، وإنّ محمّداً يقول ربّ أمّتى أمّتى». نعم، فحينما يرى المذنب كل تلك الحوادث تهتز فرائصه ويتزلزل رعباً، فيستيقظ من غفلته ويعيش حالة الهَمّ والغم، ويتحسر على كل لحظة مرّت من حياته بعد ما يرى ما قدّمت يده، ولكن هل للحسرة حينها من فائدة؟! وعندنا ... يصرح بملء كيانه: «يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي».

وتشير الآية التالية إلى شدة العذاب الإلهي: «فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ».

نعم، فمن استخدم في دنياه كل قدرته فى ارتكاب أسوء الجرائم والذنوب، فلا يجنى فى آخرته إلا أشد العذاب ...

فيما سينعم المحسنون والصالحون فى أحسن الثواب، ويخلدون بحال ما لا عين رأت ولا اذن سمعت.

وتكمل الآية التالية تصوير شدة العذاب: «وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ».

فوثاقه ليس كوثاق الآخرين، وعذابه كذلك، كل ذلك بما كسبت يده حينما أوثق المظلومين فى الدنيا بأشدّ الوثاق، ومارس معهم التعذيب بكل وحشية، متجرد عن كل ما وهبه الله من إنسانية.

يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) الشرف العظيم:

وتنتقل السورة فى آخر مطافها إلى تلك النفوس المطمئنة ثقة بالله وبهدف الخلق، بالرغم من معاشتها فى خضم صخب الحياة الدنيا، فتخاطبهم بكل لطف ولين ومحبة، حيث تقول: «يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ» .. «ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً» .. «فَادْخُلِي فِي عِبَادِي»

.. «وَادْخُلِي جَنَّتِي».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥٧

فهل ثمة أجمل وألطف من هذا التعبير ... تعبير يحكى دعوة الله سبحانه وتعالى لتلك النفوس المؤمنة، المخلصة، المحبة والواثقة بوعده جلّ شأنه.

ويراد بالنفوس هنا: الروح الإنسانية.

«المطمئنة»: إشارة إلى الإطمئنان الحاصل من الإيمان، بدلالة الآية (٢٨) من سورة الرعد: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ».

ويعود اطمئنان النفس، لإطمئنانها بالوعود الإلهية من جهة، ولإطمئنانها لما اختارت من طريق ..

وهي مطمئنة فى الدنيا سواء أقبلت عليها أم أدبرت، ومطمئنة عند أهوال حوادث يوم القيامة الرهيبة أيضاً.

أما (الرجوع إلى الله)، فهو رجوع إلى جواره وقربه بمعناه الروحي المعنوي، وليس بمعناه المكاني والجسماني.

«راضية»: لما ترى من تحقق الوعود الإلهية بالثواب والنعيم بأكثر مما كانت تتصور.

«مرضية»: لرضا الله تبارك وتعالى عنها.

فى الكافى عن سدير الصيرفى قال: قلت لأبى عبد الله عليه السلام: جعلت فداك يا بن رسول الله! هل يكره المؤمن على قبض روحه؟

قال: «لا- والله، إنه إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك، فيقول له ملك الموت: يا ولئى الله، لا تجزع، فوالذى بعث

محمدًا صلى الله عليه وآله وأنا أبرّ بك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك، افتح عينك فانظر، قال: ويمثل له رسول الله صلى

الله عليه وآله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذريتهم عليهم السلام، فيقال له: هذا رسول الله وأمير المؤمنين

وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام رفقًاؤك، قال: فيفتح عينه فينظر، فينادى روحه مناد من قبل ربّ العزة فيقول: "يا أيتها

النفس المطمئنة (إلى محمد وأهل بيته) ارجعى إلى ربك راضية (بالولاية) مرضية (بالثواب) فادخلى فى عبادى (يعنى محمدًا وأهل

بيته) وادخلى جنتى. "فما شئ أحبّ إليه من استلال روحه واللحوق بالمنادى».

«نهاية تفسير سورة الفجر»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٥٩

٩٠. سورة البلد

محتوى السورة: هذه السورة المباركة على قصرها تحمل حقائق كبرى:

١- فى بداية هذه السورة، بعد قسم ذى محتوى عميق، تُقرّر الآية أنّ حياة الإنسان فى هذه الدنيا مقرونة بمشاكل وأتعاب؛ وبذلك تُعدّ

الإنسان من جهة ليصارع العقبات، ومن جهة أخرى تبعده عن طلب الراحة المطلقة فى هذا العالم.

٢- ثم تشير إلى أهم النعم الإلهية، ثم ذكر جحود الإنسان بهذه النعم.

٣- وفى آخر هذه السورة تقسيم الناس إلى: «أصحاب الميمنة» و «أصحاب المشئمة».

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان أبى بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرأها أعطاه الله الأمن من

غضبه يوم القيامة».

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَ أَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَ الْوَالِدِ وَ مَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يُقَدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ

(٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦) أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦٠

فى مواضع كثيرة يبدأ القرآن بالقسم عند تعرّضه للحقائق الهامة ... بالقسم الذى يؤدى بدوره إلى حركة فى الفكر والعقل .. بالقسم

المرتبط إرتباطاً خاصاً بالموضوع المطروح.

وفى هذا الموضوع تبدأ الآية بالقسم: قسماً بهذه المدينة المقدسة مكة: «لَأَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ». لتقرر حقيقة من حقائق حياة الإنسان هي إن هذه الحياة مقرونة بالآلام والأسقام.

«وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ».

أرض مكة مشرفة ومعظمة، لأن فيها أول مركز للتوحيد ولعبادة الله سبحانه، وكان هذا المركز مطاف أنبياء الله العظام ... ولذلك أقسم الله بها ... ولكن السورة تشير إلى عامل آخر أضفى على هذه المدينة شرفاً وكرامة: «وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ» ... فالبلد استحق أن يقسم به الله لوجودك أنت أيها النبي الكريم فيه.

«وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ».

إن الوالد إبراهيم الخليل والولد إسماعيل الذبيح.

ونعلم أن إبراهيم وابنه رفعا القواعد من البيت، وبذلك وضعوا حجر أساس البلد الأمين.

والعرب في الجاهلية كانوا يجلون إبراهيم وابنه ويفخرون في الانتساب إليهما.

«لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ».

إن «كبد» ألم يصيب الكبد، ثم اطلق على كل ألم ومشقة.

هذه طبيعة الحياة، ومن توقع منها غير ذلك خيب ظنه. يقول الشاعر:

طبعت على كدر وأنت تريد هاصفواً من الأقدار والأقدار

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جدوة نار

وهذه الحالة تشمل كل أبناء البشر دونما استثناء، بمن فيهم أنبياء الله وأوليائه الصالحون.

ثم إذا كان هناك استثناءات مكانية وزمانية محدودة من هذه الحالة العامة فلا ينتقض القانون العام للحياة: «أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ».

فما يحيط بالإنسان من مكابدة يدل على ضعف قدرته، هذه الحقيقة ترد على أولئك الذين يمتطون مركب الغرور، ويخالون أنهم في مأمن من العقاب الإلهي.

«يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا».

إشارة إلى قول الذين يطلب منهم أن ينفقوا أموالهم في الخيرات، فيأبون ويقولون بغرور:

إننا أنفقنا في هذا السبيل كثيراً من الأموال، بينما لم ينفق هؤلاء شيئاً، وإن أعطوا لأحد شيئاً فللرياء ولتحقيق هدف شخصي.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦١

وقيل إنها نزلت في نفر أنفقوا الأموال الطائلة في معاداة الرسول والرسالة، وتباهوا بذلك.

والجمع بين التفسير المذكورة جائز، وإن كان التفسير الأول أكثر انسجاماً مع سياق الآيات التالية.

والفعل «أهلك» يوحى إبادة الأموال وعدم الحصول على عائد منها.

و «لبد»: تعنى الشيء المتراكم، وهنا تعنى المال الوفير.

«أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ». إنه غافل عن هذه الحقيقة ... حقيقة اطلاع الباري تعالى على كل الامور وعلى ظواهر الأعمال، بل على ما

يختلج في أعماق النفس والقلب، وما يدور في الخلد والنية ... عليم بالطريق غير المشروع للحصول على هذه الأموال، وعلیم بأهداف

الرياء والذاتية في إنفاق هذه الأموال.

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِلسَانِ وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) نعمة العين واللسان والهداية: استتباعاً للآيات السابقة وما دار فيها

من حديث عن الغرور والغفلة في حالات الطاعين، تذكر هذه الآيات الكريمة جانباً من أهم ما أنعم الله به على الإنسان من نعم مادية

ومعنوية ... كى تكسر فيه روح الغرور، وتدفعه إلى التفكير فى خالق هذه النعم، وتحرك روح الشكر فى نفس الكائن البشرى ومن ثم تسوقه إلى معرفة الخالق: «أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ». ويكفى أن نذكر فى النعم السابقة أن:

«العين»: أهم وسيلة لإرتباط الإنسان بالعالم الخارجى، عجائب العين تدفع الإنسان حقاً إلى الخضوع أمام خالقه، الطبقات السبع للعين وهى المسماة بالقرنية، والمشمية، والعينية، والجلدية، والزلاية، والزجاجية، والشبكية، لكل منها تركيب عجيب دقيق مدهش، روعيت فيها القوانين الفيزيائية والكيميائية المتعلقة بالنور وانعكاساته على أدق وجه، حتى إن أعقد أجهزة التصوير تعتبر تافهه مقارنة بهذا العضو.

لو لم يكن فى الكون سوى الإنسان، ولم يكن من وجود الإنسان سوى العين، لكانت مطالعة هذا العضو كافية وحدها لمعرفة علم الله الواسع وقدرته الجبارة جلّ وعلا.

و «اللسان»: فهو أهم وسائل إرتباط الإنسان بغيره من أبناء جلدته، ونقل المعلومات وتبادلها بين أبناء البشر فى الجيل الواحد وفى الأجيال المتعاقبة، وبدون هذه الوسيلة الهامة

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦٢

من وسائل الإرتباط ما كان بإمكان الإنسان اطلاقاً أن يرتقى إلى ما ارتقى إليه فى العلم والمعرفة. و «الشفان»: تلعبان دوراً هاماً فى النطق، إذ أن الشفتين مخرج لكثير من الحروف، والشفان تقومان بدور أيضاً فى هضم الطعام والمحافظة على رطوبة الفم، وشرب الماء، ترى لو انعدمت الشفتان فماذا كان وضع الإنسان فى أكله وشربه ونطقه والمحافظة على ماء فمه وحتى جمال وجهه وشكله؟! وحقاً ما قاله أمير المؤمنين على عليه السلام فى نهج البلاغة: «اعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشحم ويتكلم بلحم، ويسمع بعظم، ويتنفس من خرم!».

عبارة «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ» إضافة لما لها من مدلول على مسألة الإختيار وحرية الإنسان، تدلّ أيضاً على ما يتطلبه طريق الخير من جهد وعناء، لأن «النجد» مكان مرتفع وتسلق المكان المرتفع يتطلب كدّاً وسعيّاً وجهداً، غير أن طريق الشرّ له مشاكلة ومصاعبه أيضاً، فأولى بالإنسان أن يبذل الجهد والسعى على طريق الخير.

مع ذلك، فانتخاب الطريق بيد الإنسان ... الإنسان هو الذى يتحكم فى عينه ولسانه فيم يستعملها ... فى الحلال أو الحرام، وهو الذى يختار إحدى الجادتين «الخير» أو «الشر».

وفى تفسير مجمع البيان عن أبى حازم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا بَنِي آدَمَ! إِنَّ نَازِعَكَ لَسَانَكَ فِيمَا حَرَمْتَ عَلَيْكَ، فَقَدْ أَعْنَتَكَ عَلَيْهِ بِطَبَقَتَيْنِ، فَأَطِيقْ. وَإِنَّ نَازِعَكَ بِصِرْكَ إِلَى بَعْضِ مَا حَرَمْتَ عَلَيْكَ، فَقَدْ أَعْنَتَكَ عَلَيْهِ بِطَبَقَتَيْنِ فَأَطِيقْ...».

وهذه الهداية يحصل عليها الإنسان من ثلاثة طرق: من الإدراكات العقلية والإستدلال، ومن طريق الفطرة والوجدان دون الحاجة إلى الإستدلال، ومن طريق الوحي وتعاليم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وكل ما يحتاجه البشر ليطوى مسيرة تكامله قد بينه الله سبحانه له بواحد من هذه الطرق أو فى كثير من الحالات بالطرق الثلاثة معاً.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦٣

العقبة: بعد ذكر النعم الكبيرة فى الآيات السابقة، تنحى هذه الآيات باللائمة على اولئك الذين يكفرون بهذه النعم، ولا يسخرونها على طريق النجاة، يقول سبحانه: «فَلَا أَفْتَحَمِ الْعُقَبَةَ».

وما المقصود من العقبة؟ الآيات التالية تفسرها: «وَمَا أَدْرِيكَ مَا الْعُقَبَةُ * فَكَ رَقَبَةٌ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ

مَشْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ».

من هنا فالعقبة التى لم يتهبأ الكافرون لاجتيازها هى: فك رقبه عبد وتحريره من الرق، أو إطعام فى يوم الضائقة الإقتصادية والمجاعة، يتيماً ذا قربي أو فقيراً قد لصق بالتراب من شدة فقره، العقبة هى مجموعة أعمال الخير التى تتجه لخدمه الناس والأخذ بيد الضعفاء والمعوزين، كما إنها أيضاً مجموعة من المعتقدات الصحيحة الخالصة تشير إليها الآيات التالية. نعم، إن اجتياز هذه العقبة ليس بالأمر اليسير لما لأغلب الناس من التصاق بالمال والثروة.

١- «اقتحم»: من «الإقتحام» وهو الدخول فى عمل صعب مخيف (مفردات الراغب)، أو الولوج والعبور بشدة ومشقة (تفسير الكشاف) وهذا يعنى أن اجتياز هذه العقبة ليس بالأمر اليسير، كما أنه تأكيد على ما ورد فى أول السورة بشأن ما يكابد الإنسان فى حياته: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ».

٢- «المسغبة»: من «سغب» على وزن (غضب) وهو الجوع؛ و «يوم ذى مسغبة» أى وقت المجاعة، والجياح موجودون فى المجتمع عادة، والآية إنما تؤكد على إطعامهم فى زمان المجاعة لأهمية الموضوع، وإلا فإن اشباع الجياح هو دائماً من أفضل الأعمال.

٣- «المقربة»: بمعنى القرابة والرحم، والتأكيد على الأقرباء من اليتامى فى الآية إنما هو لمراعاة الاولوية وللتأكيد على تصاعد المسئولية تجاههم، لا لحصص الإطعام بهذا القسم من اليتامى.

٤- «المتربة»: مصدر ميمي من «ترب» وساكن التراب من شدة فقره هو ذو المتربة، والتأكيد على هذا النمط من المساكين لأولويتهم أيضاً.

وفى الكافى عن معمر بن خلاد قال: كان أبو الحسن الرضا عليه السلام إذا أكل أتى بصفحة فتوضع بقرب مائدته، فيعمد إلى أطيب الطعام مما يؤتى به فيأخذ من كل شىء شيئاً فيضع فى تلك الصفحة ثم يأمر بها للمساكين، ثم يتلو هذه الآية: «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ». ثم يقول: «علم الله

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦٤

عز وجل أنه ليس كل إنسان يقدر على عتق رقبه فجعل لهم السبيل إلى الجنة».

ثم تواصل الآية التالية بيان طبيعة هذه العقبة، وسبل اجتيازها فتقول: «ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ».

فالقادرون على اجتياز هذه العقبة متحلون بالإيمان ومتواصون بالصبر والاستقامة على الطريق، ومتواصون بالرحمة والعطف.

وبهذا السياق القرآنى لبيان طبيعة العقبة نفهم أن القادرين على اجتيازها هم المتحلون بالإيمان والخلق الكريم كالتواصى بالصبر والرحمة، وذوو أعمال البرّ والإحسان كتحرير العبيد وإطعام الأيتام والمساكين، إنهم بعبارة اولئك الذين يلجون ميادين الإيمان والأخلاق والعمل ويخرجون منها ظافرين منتصرين.

وفى خاتمة هذه الأوصاف تذكر السورة مكانة المتحلين بها فتقول: «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ».

ثم تتعرض الآية لتصوير حالة الفاشلين فى اجتياز «العقبة» فتقول: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ».

و «المشئمة»: من «الشؤم» تقابل «الميمنة» من «اليمن». أى إن هؤلاء الكافرين مشؤومون لا-يمن فيهم ولا-بركة، بل هم عامل شقاء لأنفسهم ولمجتمعهم ثم إن علامة شؤم الفرد يوم القيامة تسلّمه صحيفه أعماله بيده اليسرى، ومن هنا ذهب بعض المفسرين إلى أن «المشئمة» هى اليسار مقابل اليمين. أى إن الذين كفروا بآيات الله الذين يتسلمون صحائف أعمالهم بيدهم اليسرى خاصة وأن مادة «شؤم» جاءت فى اللغة بمعنى اليسار أيضاً.

وفى الآية الأخيرة من السورة إشارة قصيرة ذات دلالة عميقة إلى جزاء هذه الفئة الأخيرة: «عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ».

و «الإيصاد»: إحكام الغلق، وواضح أن الإنسان- حين يكون فى غرفة حارة الجوّ- يتوق إلى فتح أبوابها، ليهبّ عليه نسيم يطفئ الهواء، فما بالك إذا كان فى محرقة جهنم والأبواب كلّها موصدة عليه!؟

«نهاية تفسير سورة البلد»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦٥

٩١. سورة الشمس

محتوى السورة: هذه السورة هي في الواقع سورة تهذيب النفس، وتطهير القلوب من الأدران، ومعانيها تدور حول هذا الهدف، وفي مقدمتها قسم بأحد عشر مظهراً من مظاهر الخليفة وبذات البارئ سبحانه، من أجل التأكيد على أن فلاح الإنسان يتوقف على تركية نفسه، والسورة فيها من القسم ما لم يجتمع في سورة اخرى.

وفي المقطع الأخير من السورة ذكر لقوم «ثمود» باعتبارهم نموذجاً من أقوام طغت وتمردت، وانحدرت - بسبب ترك تركية نفسها - إلى هاوية الشقاء الأبدى، والعقاب الإلهي الشديد.

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها فكأنما تصدق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر».

ومن المؤكد أن هذه الفضيلة الكبرى لا ينالها إلا من استوعب محتواها بكل وجوده، ووضع مهمة تهذيب النفس نصب عينيه دائماً.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦٦

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا (٢) وَالتَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا (٣) وَالتَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالتَّارِضِ وَمَا طَحَّاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) أكبر عدد من القسم القرآني تتضمنه هذه السورة، هو في حساب «أحد عشر»، وفي حساب آخر «سبعة» أقسام ... ويبين أن السورة تتعرض لموضوع خطير هام .. موضوع عظيم كعظمة السماء والأرض والشمس والقمر ... موضوع حياتي مصيري.

لنبدأ أولاً بشرح ما جاء في السورة من قسم، لتعرض بعد ذلك إلى موضوع الآية الأولى تقول: «وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا».

ولقد ذكرنا آنفاً أن القسم في القرآن يستهدف مقصدين:

الأول: بيان أهميته ما جاء القسم من أجله.

والثاني: أهمية ما أقسم به القرآن، لأنَّ القسم عادة يكون بالمهم من الامور.

«الشمس»: ذات دور هام وبنء جداً في الموجودات الحية على ظهر البسيطة فهي إضافة إلى كونها مصدراً للنور والحرارة - وهما عاملان أساسيان في حياة الإنسان - تعتبر مصدراً لغيرهما من المظاهر الحياتية، حركة الرياح، وهطول الأمطار، ونمو النباتات، وجريان الأنهار والشلالات، بل حتى نشوء مصادر الطاقة مثل النفط والفحم الحجري ... كل واحد منها يرتبط - بنظرة دقيقة - بنور الشمس.

ولو قدر لهذا المصباح الحياتي أن ينطفئ يوماً لساد الظلام والسكوت والموت في كل مكان.

«الضحى»: في الأصل انتشار نور الشمس، وهذا ما يحدث حين يرتفع قرص الشمس عن الافق ويغمر النور كل مكان، ثم يطلق على تلك البرهة من اليوم اسم «الضحى».

والقسم الثالث بالقمر: «وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا». وهذا التعبير إشارة إلى القمر حين يكتمل ويكون بداراً كاملاً في ليلة الرابع عشر من كل شهر، ففي هذه الليلة يطل القمر من افق المشرق متزامناً مع غروب الشمس. فيسطع بجماله الثير ويهيمن على جو السماء، ولجماله

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦٧

وبهائه في هذه الليلة أكثر من أية ليلة اخرى جاء القسم به في الآية الكريمة.

والقسم الرابع بالنهار: «وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا». و «التجليه»: هي الإظهار والإبراز.

والقسم بهذه الظاهرة السماوية الهامة، يبين أهميتها الكبرى في حياة البشر وفي جميع الأحياء، فالنهار رمز الحركة والحياة، وكل الفعاليات والنشاطات ومساعي الحياة تتم عادة في ضوء النهار.

والقسم الخامس بالليل: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا».

بالليل بكل ما فيه من بركة وعطاء ... إذ هو يخفف من حرارة شمس النهار، ثم هو مبعث راحة جميع الموجودات الحية واستقرارها. وفي القسمين السادس والسابع تحلق بنا الآية إلى السماوات وخالق السماوات: «وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا».

أصل خلقه السماوات بما فيها من عظمة مدهشة من أعظم عجائب الخليفة. وبناء كل هذه الكواكب والأجرام السماوية وما يحكمها من أنظمة أعجوبة أخرى ... وأهم من كل ذلك ... خالق هذه السماوات. القسم الثامن والتاسع بالأرض وخالق الأرض: «وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا». بالأرض التي تحتضن حياة الإنسان وجميع الموجودات الحية ... الأرض بجميع عجائبها: بجبالها، وبحارها، وسهولها، ووديانها، وغاباتها، وعيونها، وأنهارها، ومناجمها، وذخايرها ... وبكل ما فيها من ظواهر يكفى كل واحد منها لأن يكون آية من آيات الله ودلاله على عظمته.

وأعظم من الأرض وأسمى منها خالقها الذي «طحاها» و«الطحو» بمعنى البسط والفرش، وبمعنى الذهاب بالشيء وإبعاده أيضاً. وهنا بمعنى «البسط»، لأن الأرض كانت مغمورة بالماء، ثم غاض الماء في منخفضات الأرض، وبرزت اليابسة، وانبسطت، ويعبر عن ذلك أيضاً بدحو الأرض.

وأخيراً القسم الحادي عشر والقسم الثاني عشر بالنفس الإنسانية وبارئها: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيَاهَا».

قيل إن المراد بالنفس هنا روح الإنسان، وقيل إنه جسمه وروحه معاً.

ولو كان المراد من النفس الروح فقط، فإن «سواها» تعني إذن نظمها وعدل قواها ابتداء من الحواس الظاهرة وحتى قوة الإدراك، والذاكرة، والانتقال، والتخيل، والابتكار،

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦٨

والعشق، والإرادة، والعزم ونظائرها من الظواهر المندرجة في إطار «علم النفس». ولو كان المراد من النفس الروح والجسم معاً، فالتسوية تشمل أيضاً ما في البدن من أنظمة وأجهزة يدرسها علم التشريح وعلم الفلسفة. وفي القرآن الكريم وردت «نفس» بكلا المعنيين.

والأنسب هنا أن يكون معنى النفس هنا شاملاً للمعنيين لأن قدرة الله سبحانه تتجلى في الإثنين معاً.

الآية التالية تتناول أهم ظاهرة في الخليفة وتقول: «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا».

إن الله سبحانه قد منح الإنسان قدرة التشخيص والعقل، والضمير اليقظ بحيث يستطيع أن يميز بين «الفجور» و«التقوى» عن طريق العقل والفطرة.

نعم، حين اكتملت خلقه الإنسان وتحقق وجوده، علمه الله سبحانه الواجبات والمحظورات. وبذلك أصبح كائناً مزيجاً في خلقته من «الحمأ المسنون» و«نفخة من روح الله»، ومزيجاً في تعليمه من «الفجور» و«التقوى». أصبح بالتالي كائناً يستطيع أن يتسلق سلم الكمال الإنساني ليفوق الملائكة، ومن الممكن أن ينحط لينحدر عن مستوى الأنعام ويبلغ مرحلة «بَلْ هُمْ أَضَلُّ». وهذا يرتبط بالمسير الذي يختاره الإنسان عن إرادة.

«ألهمها»: من الإلهام، وهو في الأصل بمعنى البلع والشرب، ثم استعمل في إلقاء الشيء في روح الإنسان من قبل الله تعالى.

«الفجور»: من مادة «فجر» وتعني الشق الواسع؛ ولما كانت الذنوب تهتك ستار الدين فإنها سميت بالفجور.

المقصود بالفجور في الآية طبعاً الأسباب والعوامل والطرق المؤدية إلى الذنوب.

و«التقوى»: من «الوقاية» وهي الحفظ، وتعني أن يصون الإنسان نفسه من القبائح والآثام والسيئات والذنوب.

بعد هذه الأقسام المهمة المتتالية يخلص السياق القرآني إلى النتيجة فيقول: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا».

و «التركية»: تعنى النمو، و «الزكاة» فى الأصل بمعنى النمو والبركة؛ ثم استعملت الكلمة بمعنى التطهير، وقد يعود ذلك إلى أن التطهير من الآثام يؤدى إلى النمو والبركة، والآية الكريمة تحتمل المعنيين.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٦٩

نعم، الفلاح لمن ربى نفسه ونمّاها، وطهرها من التلوث بالخصائل الشيطانية وبالذنوب والكفر والعصيان. والمسألة الأساسية فى حياة الإنسان هى هذه «التركية»، فإن حصلت سعد الإنسان وإلا شقى وكان من البائسين. ثم يعرج السياق القرآنى على المجموعة المخالفة فيقول: «وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا».

«خاب»: من الخيبة، وهى فوت الطلب، كما يقول الراغب فى المفردات والحرمان والخسران. «دسّها»: من مادة «دس» وهى فى الأصل بمعنى إدخال الشىء قسراً.

وبهذا المعيار يتم تمييز الفائزين عن الفاشلين فى ساحة الحياة: «تركية النفس وتنميتها بروح التقوى وطاعة الله» أو «تلوثها بأنواع المعاصى والذنوب».

فى المجمع: وجاءت الرواية عن سعيد بن أبى هلال قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا قرأ هذه الآية «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا» وقف ثم قال: «اللهم آت نفسى تقواها، أنت وليها ومولاها، وزكّها وأنت خير من زكّاها». كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) عاقبه مرة للطغاة: عقب التحذير الذى اطلقته الآية السابقة بشأن عاقبه من ألقى بنفسه فى أحوال العصيان، قدمت هذه الآيات مصداقاً تاريخياً واضحاً لهذه السنّة الإلهية، وتحدثت عن مصير قوم «ثمود» بعبارات قصيرة قاطعة ذات مدلول عميق.

«الطغوى و «الطغيان» بمعنى واحد وهو تجاوز الحد، وفى الآية تجاوز الحدود الإلهية والعصيان أمام أوامره.

«قوم ثمود» من أقدم الأقوام التى سكنت منطقة جيلية بين «الحجاز» و «الشام». كانت لهم حياة رغدة مرفهة، وأرض خصبة، وقصور فخمة، غير أنهم لم يؤدوا شكر هذه النعم، بل طغوا وكذبوا نبيهم صالحاً، واستهزأوا بآيات الله، فكان عاقبه أمرهم أن أبيدوا بصاعقة سماوية.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٧٠

ثم تستعرض السورة مقطعاً بارزاً من طغيان القوم وتقول: «إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا». و «أشقى» ثمود، هو الذى عقر الناقة التى ظهرت باعتبارها معجزة بين القوم.

وفى المجمع: عن عثمان بن صهيب عن أبىه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلى بن أبى طالب عليه السلام:

«من أشقى الأولين؟ قال: عاقر الناقة. قال: صدقت. فمن أشقى الآخرين؟ قال: قلت لا أعلم يا رسول الله. قال: الذى يضربك على هذه- وأشار إلى يافوخه».

وثمة تشابه بين قاتل ناقة صالح، قدار بن سالف، وقاتل أمير المؤمنين عليه السلام، عبد الرحمن بن ملجم المرادى؛ لم يكن الإثنان يحملان عداً شخصياً، بل كان هدف الإثنين اطفاء نور الله والقضاء على معجزة وآية من آيات الله.

فى الآية التالية تفاصيل أكثر عن طغيان قوم ثمود: «فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا».

المقصود من «رسول الله» نبي قوم ثمود صالح عليه السلام؛ وعبارة «ناقة الله» إشارة إلى أن هذه الناقة لم تكن عادية، بل كانت معجزة، تثبت صدق نبوة صالح، ومن خصائصها- كما فى الرواية المشهورة- أنها خرجت من قلب صخرة فى جبل لتكون حجة على المنكرين.

الآية التالية تقول: «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا». و «العقر»: - على وزن كفر- معناه الأساس والأصل والجذر؛ و «عقر الناقة» قطع أساسها وإهلاكها.

ويلاحظ أن قاتل الناقة شخص واحد أشارت إليه الآية بأشقاها، بينما نسب العقر إلى كل طغاة قوم ثمود: «فَعَقَرُوهَا»، وهذا يعني أن كل هؤلاء القوم كانوا مشاركين في الجريمة.

وعقب هذا التأكيد أنزل الله عليهم العقاب فلم يترك لهم أثراً: «فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّيْهَا».

«دمدم»: تعنى أهلكك، وتأتى أحياناً بمعنى عذب وعاقب وأحياناً بمعنى سحق واستأصل، وبمعنى سخط أو أحاط.

و «سَوَّاهَا»: من التسوية وهى تسوية الأبنية بالأرض نتيجة صيحة عظيمة وصاعقة وزلزلة، أو بمعنى إنهاء حالة هؤلاء القوم، أو تسويتهم جميعاً فى العقاب والعذاب، حتى لم يسلم أحد منهم.

ومن الممكن أيضاً الجمع بين هذه المعانى.

وتختتم السورة الحديث عن هؤلاء القوم بتحذير قارح لكل الذين يتجهون فى نفس هذه

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٧١

المسيرة المنحرفة فتقول: «وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا».

كثيرون من الحكام قادرين على انزال العقاب لكنهم يخشون من تبعات عملهم، ويخافون ردود الفعل التي قد تحدث نتيجة فعلهم، ولذلك يكفون عن المعاقبة. قدرتهم - إذن - محفوفة بالضعف وعلمهم ممزوج بالجهل. لا يعلمون مدى قدرتهم على مواجهة التبعات. بينما الله سبحانه قادر متعال، علمه محيط بكل الامور وعواقبها، وقدرته على مواجهة النتائج لا يشوبها ضعف، فهو سبحانه وتعالى لا يخاف عقباها، ولذلك فإن مشيئته فى العقاب نافذة حازمة.

«نهاية تفسير سورة الشمس»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٧٣

٩٢. سورة الليل

محتوى السورة: بعد القسم بثلاث ظواهر فى بداية السورة يأتى تقسيم الناس إلى منفيين متقين، وبخلاء منكرين، وتذكر عاقبة كل مجموعة؛ اليسر والسعادة والهناء للمجموعة الاولى، والعسر والضنك والشقاء للمجموعة الثانية.

وفى مقطع آخر من السورة إشارة إلى أن الهداية من الله سبحانه لعباده هى انذارهم من النار يوم القيامة.

ثم تذكر السورة فى نهايتها من يدخل هذه النار ومن ينجو منها، مع ذكر أوصاف الفريقين.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها أعطاه الله حتى يرضى، وعافاه من العسر ويسر له اليسر».

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى (٤) فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٧٤

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان روى عن ابن عباس أن رجلاً كانت له نخلة فرعها فى دار رجل فقير ذى عيال، وكان الرجل إذا جاء فدخل الدار وصعد النخلة ليأخذ منها التمر، فربما سقطت التمرة فأخذها صبيان الفقير، فينزل الرجل من النخلة حتى يأخذ التمر من أيديهم، فإن وجدها فى فم أحدهم أدخل إصبعه حتى يأخذ التمرة من فيه. فشكا ذلك الرجل إلى النبى صلى الله عليه وآله، وأخبره بما يلقى من صاحب النخلة. فقال له النبى صلى الله عليه وآله: «إذهب». ولقى رسول الله صلى الله عليه وآله صاحب النخلة فقال: «تعطينى

نخلتك المائلة التي فرعها في دار فلان ولك بها نخلة في الجنة». فقال له الرجل: إن لي نخلاً كثيراً، وما فيه نخلة أعجب إليّ تمره منها. قال: ثم ذهب الرجل، فقال رجل كان يسمع الكلام من رسول الله صلى الله عليه وآله يا رسول الله! أتعطيني ما أعطيت الرجل نخلة في الجنة إن أنا أخذتها؟ قال: «نعم». فذهب الرجل ولقي صاحب النخلة فساومها منه فقال له: أشعرت أن محمداً أعطاني بها نخلة في الجنة فقلت له: يعجبني تمرتها وإن لي نخلاً كثيراً فما فيه نخلة أعجب إليّ تمره منها. فقال له الآخر: أتريد بيعها؟ فقال: لا إلا أن أعطى ما لا أظنه اعطى. قال: فما مُناك؟ قال: أربعون نخلة. فقال الرجل: جئت بعظيم، تطلب بنخلتك المائلة أربعين نخلة؟! ثم سكت عنه. فقال له: أنا أعطيك أربعين نخلة. فقال له:

أشهد إن كنت صادقاً، فمّر إلى اناس فدعاهم، فأشهد له بأربعين نخلة، ثم ذهب إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله! إن النخلة قد صارت في ملكي، فهي لك. فذهب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى صاحب الدار، فقال له: «النخلة لك ولعيالك». فأنزل الله تعالى: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى السُّورَةَ وَعَنْ عَطَاءٍ قَالَ: اسْمُ الرَّجُلِ (أَبُو الدَّحْدَاحِ).
التفسير

التقوى والإمداد الإلهي: هذه السورة المباركة أيضاً تبتدىء بثلاثة أقسام تثير التفكير في المخلوقات وفي الخالق. تقول: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى .

فالقسم الأول بالليل حين يغطى ... يغطى بظلامه نصف الكرة الأرضية ... أو يغطى قرص الشمس، وهذا القسم تأكيد على أهمية الليل ودوره الفاعل في حياة الأفراد، من تعديله لحرارة الشمس، ونشره السكينة على كل الموجودات الحية، وتوفير الجو لعبادة المتجهدين ومناجاة الصالحين.

ويستمر السياق القرآني في القسم بالقول: «وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى .

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٧٥

والنهار يبدأ من اللحظة التي يطلع فيها الفجر، فيشق قلب ظلام الليل، ثم يمتد ليملاء كل السماء، ويغمر كل شيء بالنور. ثم القسم الأخير في السورة بالخالق المتعال: «وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى .

فوجود الجنسين في عالم «الإنسان» و «الحيوان» و «النبات» ... والمراحل التي تمرّ بها النطفة منذ انعقادها حتى الولادة ... والخصائص التي يمتاز بها كل جنس متناسبة مع دوره ونشاطه ... والأسرار العميقة المخبوءة في مفهوم الجنسية ... كلها من دلالات وآيات عالم الخليفة الكبير ... وبها يمكن الوقوف على عظمة الخالق.

ثم يأتي الهدف النهائي من كل هذه الأقسام بقوله سبحانه: «إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى .

اتجاهات سعيتكم مختلفة، ونتائجها مختلفة أيضاً، هذا يعني أن أفراد البشر لا يستقرون في حياتهم على حال ... بل هم في سعي مستمر ... وفي استثمار دائم للطاقة التي أودعها الله في نفوسهم ... فانظر أيها الإنسان في أي مسير تبذل هذه الطاقة التي هي رأس مال وجودك ...

في أي اتجاه ... وفي سبيل أيّة غاية؟!

حذار من تبديد كل هذه الطاقات في سبيل نتيجة تافهة ... وحذار من بيعها بثمن بخس!

«شتى : جمع «شتيت» من مادة «شت» أي فرّق الجمع، وهنا بمعنى التفرق والتشعب في المساعي من حيث الكيفية والهدف والنتيجة.

ثم يأتي تقسيم الناس على قسمين، ويبيّن خصائص كل قسم. يقول سبحانه: «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى .
وأساساً أن الإيمان بالمعاد وبثواب الآخرة يهون المشاكل والصعاب، ويجعل بذل المال بل النفس ميسوراً، ويخلق الدافع نحو طلب الشهادة في ميادين الجهاد عن رغبة مقرونة بحساس باللذة والنشوة.

وفي الجهة المقابلة تقف المجموعة الأخرى التي تتحدث عنها الآيات التالية: «وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَيَسِّرُهُ

لِلْعُسْرَى .

«من بخل» في هذه المجموعة مقابل «من أعطى» في تلك.

«استغنى: أى طلب الغنى، قد تكون إشارة إلى ذريعتهم لبخلهم، ووسيلتهم لإكتناز المال.

وهؤلاء البخلاء الخاؤون من الإيمان يشقّ عليهم فعل الخير وخاصة الإنفاق، بينما هو للمجموعة الاولى مقرون باللذة والإنشراح.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٧٤

ثم يأتي التحذير لهؤلاء البخلاء المغفلين بالآية: «وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى .

لا يستطيع أن يصطحب ماله من هذه الدنيا، ولا يستطيع هذا المال- إذا اصطحبه- أن يقيه من السقوط في نار جهنم.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَ

سَيَجْزِيهَا الْأُنْتَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَ لَسَوْفَ

يَرْضَى (٢١) عقب الآيات الكريمة السابقة التي قسمت الناس على مجموعتين: مؤمنه سخيّه، وعديمه الإيمان بخيله، وبيئت مصير كل

منهما، تبدأ هذه الطائفة من الآيات بالتأكيد أنّ على الله الهداية لا- الإلزام والإلزام، ويبقى الإنسان هو المسؤول عن اتخاذ القرار

اللازم، وأنّ انتخاب الطريق المستقيم يعود بالنفع على الإنسان نفسه ولا حاجة لله سبحانه بعمل خير يقدمه الفرد. يقول تعالى: «إِنَّ عَلَيْنَا

لَلْهُدَى . الهدى عن طريق التكوين (الفطرة والعقل) أو عن طريق التشريع (الكتاب والسنة) ... فقد بينا ما يلزم وأدينا الأمر حقّه.

وبعد: «وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى . فلا حاجة بنا لإيمانكم وطاعتكم، ولا طاعتكم تجدينا نفعاً ولا معصيتكم تصيبنا ضرراً، وكل منهج

الهداية لصالحكم أنفسكم.

الإندار والتحذير من سبل الهداية، ولذلك قال سبحانه: «فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى .

«تلظى: من اللظى، وهو الشعلة المتوهجة الخالصة والشعلة الخالصة من الدخان ذات حرارة أكبر، وتطلق «لظى» أحياناً على جهنم.

ثم تشير الآية إلى المجموعة التي ترد هذه النار المتلظية الحارقة وتقول: «لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى».

وفي وصف الأشقى تقول الآية: «الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى .

معيار الشقاء والسعادة- إذن- هو الكفر والإيمان وما ينبثق عنهما من موقف عملي، إنّه لشقى حقاً هذا الذي يعرض عن كل معالم

الهداية وعن كل الإمكانيات المتاحة للإيمان والتقوى ... بل إنّه أشقى الناس.

ثم تتحدث السورة عن مجموعة قد جُنبت النار وأبعدت عنها، تقول الآية: «وَسَيَجْزِيهَا الْأُنْتَى».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٧٧

ومن هو هذا الأنقى؟ تقول الآية الكريمة: «الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى .

وعبارة «يتزكى تشير إلى قصد القربة، وخلوص النية، سواء أريد منها معنى النمو الروحي والمعنوي، أم قصد بها تطهير الأموال، لأنّ

التركية جاءت بمعنى «التمنية»، وبمعنى «التطهير».

وللتأكيد على خلوص النية في إنفاقهم تقول الآية: «وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى .

فلا أحد قد أنعم على هذا «الأنقى» ليكون إنفاقه جزاء على هذه النعمة.

بل هدفه رضا الله لا غير: «إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى .

إنّ إنفاق المؤمنين الأنقياء ليس رياء ولا رداً على خدمات سابقة قدمت إليهم، بل دافعها رضا الله لا غير، ومن هنا كان إنفاقهم ذا قيمة

كبيرة.

وفي خاتمة السورة ذكر بعبارة موجزة لما ينتظر هذه المجموعة من أجر عظيم تقول الآية:

«وَلَسَوْفَ يَرْضَى .

نعم، ولسوف يرضى، فهو قد عمل على كسب رضا الله، والله سبحانه سوف يرضيه، إرضاءً واسعاً غير محدود ... إرضاءً عميق المعنى يستوعب كل النعم.

«نهاية تفسير سورة الليل»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٧٩

٩٣. سورة الضحى

محتوى السورة: هذه السورة نزلت في مكة، وحسب بعض الروايات أنها نزلت حين كان الرسول صلى الله عليه وآله متألماً بسبب تأخر نزول الوحي، وتقول الأعداء نتيجة هذا الإنقطاع المؤقت، نزلت السورة كغيث على قلب النبي صلى الله عليه وآله. هذه السورة تبدأ بقسمين، ثم تبشر النبي بأن الله لا يتركه أبداً. ثم تبشّره بعباء رباني تجعله راضياً.

ثم تعرض له صوراً من حياته السابقة تتجسد فيها الرحمة الإلهية التي كانت تشملته دائماً وتحميه وتسندته في أشد اللحظات.

وفي نهاية السورة تتكرر الأوامر الإلهية برعاية اليتيم والسائل، وبإظهار النعم الإلهية (شكراً لهذه النعم).

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع ابى بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأها كان ممن يرضاه الله، ولمحمد صلى الله عليه وآله أن يشفع له، وله عشر حسنات بعدد كل يتيم وسائل».

وفضيلة التلاوة هذه هي طبعاً من نصيب من يقرأ ويعمل بما يقرأ.

جدير بالذكر أن الروايات تذكر هذه السورة والسورة التي تليها: (شرح) على أنها سورة واحدة، ولذلك لا بد من قرائتهما معاً بعد سورة الحمد في الصلاة (لوجوب قراءة سورة كاملة بعد الحمد في الصلاة حسب مذهب أهل البيت عليهم السلام).

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٨٠

وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَاللَّآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥)

سبب النزول

في المجمع: قال ابن عباس: احتبس الوحي عنه صلى الله عليه وآله خمسة عشر يوماً، فقال المشركون:

إنَّ محمداً قد ودعه ربه وقلاه، ولو كان أمره من الله تعالى لتتابع عليه. فنزلت السورة.

وروى أنه لما نزلت السورة قال النبي صلى الله عليه وآله لجبرائيل عليه السلام: «ما جئت حتى اشتقت إليك!» فقال جبرائيل: وأنا كنت أشد إليك شوقاً، ولكنى عبد مأمور وما نتزل إلا بأمر ربك.

التفسير

في بداية السورة المباركة قسمان: الأول بالنور، والثاني بالظلمة. يقول سبحانه:

«وَالضُّحَى وهو قسم بالنهار - حين تغمر شمس كل مكان.

«وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . أى إذا عمّت سكينته كل مكان.

«الضحى»: يعنى أوائل النهار، أى حين يرتفع قرص الشمس فى كبد السماء، ويعم نورها الأرض، وهو أفضل ساعات النهار.

«سجى»: من السَّجُو أو السُّجُو، أى سكن وهدأ.

والمهم فى الليل هدؤه وسكينته ممّا يضىء على روح الإنسان واعصابه هدوءً وارتياحاً، ويُعدّه لممارسته نشاط يوم غد، وهو لذلك نعمة مهمة استحققت القسم بها.

بين القسامين ومحتوى السورة تشابه كبير وإرتباط وثيق. النهار مثل نزول نور الوحي على قلب النبي صلى الله عليه وآله، والليل كانقطاع الوحي المؤقت، وهو أيضاً ضروري في بعض المقاطع الزمنية. وبعد القسمين، يأتي جواب القسم، فيقول سبحانه: «مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . «قلى»: من «قلا» - على وزن صدا- وهو شدة البغض.

في هذا التعبير سكن لقلب النبي صلى الله عليه وآله وتسلل له، ليعلم أن التأخير في نزول الوحي إنما يحدث لمصلحة يعلمها الله تعالى، وليست - كما يقول الأعداء - لترك الله نبيه أو لسخطه عليه فهو مشمول دائماً بلطف الله وعنايته الخاصة، وهو دائماً في كنف حماية الله سبحانه.

مختصر الامثال، ج ٥، ص: ٤٨١

«وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى .

أنت في هذه الدنيا مشمول بالطف الله تعالى، وفي الآخرة أكثر وأفضل.

وتأتى البشرى للنبي الكريم لتقول له: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى .

وهذا أعظم أكرام وأسمى احترام من رب العالمين لعبده المصطفى محمد صلى الله عليه وآله. فالعطاء الرباني سيغدق عليه حتى يرضى ... حتى ينتصر على الأعداء ويعم نور الإسلام الخافقين، كما أنه سيكون في الآخرة أيضاً مشمولاً بأعظم الهبات الإلهية. النبي الأعظم صلى الله عليه وآله باعتباره خاتم الأنبياء، وقائد البشرية، لا يمكن أن يتحقق رضاه في نجاته فحسب، بل إنه سيكون راضياً حين تقبل منه شفاعته في امته.

عن حرب بن شريح قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين: جعلت فداك! رأيت هذه الشفاعة التي يتحدث بها بالعراق أحق هي؟ قال: «شفاعة ماذا؟» قلت: شفاعة محمد صلى الله عليه وآله قال: «حق والله، لحدثنى عمي محمد بن علي بن الحنفية عن علي بن أبي طالب عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أشفع لأمتي حتى يناديني ربي عز وجل أرضيت يا محمد، فأقول: نعم رضيت». ثم أقبل علي عليه السلام فقال: إنكم تقولون يا معشر العراق إن أرحم آية في كتاب الله «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ» الآية. قلت إننا لنقول ذلك، قال: ولكننا أهل البيت نقول إن أرحم آية في كتاب الله «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى وهي الشفاعة» (١).

وفي المجمع عن الصادق عليه السلام قال: «دخل رسول الله صلى الله عليه وآله على فاطمة عليها السلام وعليها كساء من ثلث الإبل وهي تطحن بيدها وترضع ولدها، فدمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله لما أبصرها، فقال: يا بنتاه! تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة فقد أنزل الله علي «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى».

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) الشكر على كل هذه النعم الإلهية: ذكرنا أن هدف هذه السورة المباركة تسليئة قلب النبي صلى الله عليه وآله وآله وبيان الطاف الله التي شملته، وهذه الآيات المذكورة أعلاه تجسد للنبي ثلاث هبات من الهبات الخاصة التي أنعم الله بها على النبي، ثم تأمره بثلاثة أوامر.

(١) كنز العمال ١٤ / ٦٣٦؛ المعجم الأوسط، الطبراني ٢ / ٣٠٧؛ وتفسير مجمع البيان ١٠ / ٣٨٢.

مختصر الامثال، ج ٥، ص: ٤٨٢

«أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى .

فقد كنت يا محمد في رحم امك حين توفي والدك فأويتك إلى كنف جدك عبد المطلب (سيد مكة).

وكنت في السادسة حين توفيت والدتك، فزاد يتمك، لكنني زدت حبك في قلب «عبد المطلب».

وكنت في الثامنة حين رحل جدك «عبدالمطلب»، فسخرت لك عمك «أبا طالب»، وليحافظ عليك كما يحافظ على روحه. نعم، كنت يتيماً فأويتك.

ثم يأتي ذكر النعمة الثانية: «وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى .

نعم، لم تكن أيها النبي على علم بالنبوة والرسالة، ونحن أنزلنا هذا النور على قلبك لتهدى به الإنسانية، وهذا المعنى ورد في الآية (٥٢) من سورة الشورى أيضاً: «مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا». من هنا فإن المقصود من الضلالة في كلمة «ضالاً» في الآية ليس نفى الإيمان والتوحيد والطهر والتقوى عن النبي، بل بقرينة الآيات التي أشرنا إليها تعنى نفى العلم بأسرار النبوة وأحكام الإسلام، وتعنى عدم معرفة هذه الحقائق، كما أكد على ذلك كثير من المفسرين.

لكنه صلى الله عليه وآله بعد البعثة اهتدى إلى هذه الامور بعون الله تعالى.

ثم يأتي ذكر النعمة الثالثة: «وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (١)».

لقد جعلناك تستأثر باهتمام «خديجة» هذه المرأة المخلصة الوفية لتضع كل ثروتها تحت تصرفك ومن أجل تحقيق أهدافك، وبعد ظهور الإسلام رزقك مغنم كثيرة في الحروب ساعدتك في تحقيق أهدافك الرسالية الكبرى. في الآيات التالية ثلاثة أوامر تصدر إلى الرسول باعتبارها نتيجة الآيات السابقة... والخطاب، وإن كان متجهاً إلى الرسول صلى الله عليه وآله، فإنه يشمل أيضاً كل المسلمين. «فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ».

كَأَنَّ اللَّهَ يَخَاطَبُ نَبِيَّهُ قَائِلًا: لقد كنت يتيماً أيضاً وعانيت من آلام اليتيم، والآن عليك أن

(١) «العائل»: في الأصل كثير العيال، وجاءت أيضاً بمعنى الفقير، وهي في الآية بهذا المعنى.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٨٣

تهتم باليتام كل اهتمام وأن تروى روحهم الظمأى بحبك وعطفك.

وهذا يدل على أن هناك مسألة أهم من الإطعام والإنفاق بشأن الأيتام، وهي اللطف بهم والعطف عليهم وإزالة إحساسهم بالنقص العاطفي. في المجمع عن عبدالله بن مسعود قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر على يده نور يوم القيامة».

«وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ».

«نَهَرْ»: بمعنى ردّ بخشونة.

وفي معنى «السائل» عدّة تفاسير.

الأول: أنه المتجه بالسؤال حول القضايا العلمية والعقائدية والدينية.

والثاني: هو الفقير في المال والمتاع، والأمر يكون عندئذ ببذل الجهد في هذا المجال، وبعدم ردّ هذا الفقير السائل يائساً.

والثالث: أن المعنى يشمل الفقير علمياً والفقير مادياً، والأمر بتلبية احتياجات السائل في المجالين، وهذا المعنى يتناسب مع الهداية الإلهية لنبيه صلى الله عليه وآله، ومع إيوائه حين كان يتيماً.

«وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ». والحديث عن النعمة قد يكون باللسان، وبتعابير تنم عن غاية الشكر والإمتنان، لا عن التفاخر والغرور. وقد تكون بالعمل عن طريق الإنفاق من هذه النعمة في سبيل الله، انفاقاً يبين مدى هذه النعمة.

إِنَّ النِّعْمَةَ فِي الْآيَةِ شَامِلًا لِلنِّعَمِ الْمَادِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ. فِي الْمَجْمَعِ: قَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعْنَاهُ: «فَحَدَّثَ بِمَا أَعْطَاكَ اللَّهُ، وَفَضْلِكَ، وَرِزْقِكَ، وَأَحْسَنَ إِلَيْكَ وَهَدَاكَ».

«نَهَايَةُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الضُّحَى»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٨٥

٩٤. سورة الضحى الشرح

محتوى السورة: المعروف أن هذه السورة نزلت بعد سورة «الضحى» ومحتواها يؤيد ذلك، لأنها تسرد أيضاً قسماً من الهبات الإلهية للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

في سورة «الضحى» عرض ثلاث هبات إلهية بعضها مادية وبعضها معنوية، وفي هذه السورة ذكر ثلاث هبات أيضاً غير أن جميعها معنوية، وتدور السورة بشكل عام حول ثلاثة محاور: الأول: بيان النعم الثلاث؛ والثاني: تبشير النبي بزوال العقبات أمام دعوته؛ والثالث: الترغيب في عبادة الله الواحد الأحد.

ولذلك ورد عن أهل البيت عليهم السلام ما يدل أن هاتين السورتين سورة واحدة ووجب قراءتهما معاً في الصلاة لوجوب قراءة سورة كاملة بعد الحمد.

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع ابى بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها أعطى من الأجر كمن لقي محمداً صلى الله عليه وآله مغتماً ففرج عنه».

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٨٦

نعم إلهية: سياق الآيات ممزوج بالحب والحنان وبالطاف رب العالمين لنبية الكريم.

أهم هبة إلهية تشير إليها الآية الأولى: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ».

«الشرح»: في الأصل توسعة قطع اللحم بتحويلها إلى شرائح أرق؛ و«شرح الصدر»:

سعته بنور إلهي وبسكينه واطمئنان من عند الله، ولهذه التوسعة مفهوم واسع، تشمل السعة العلمية للنبي عن طريق الوحي والرسالة، وتشمل أيضاً توسعة قدرة النبي في تحمله واستقامته أمام تعنت الأعداء والمعارضين.

في المجمع: روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لقد سألت ربي مسألة وددت أنني لم أسأله؛ قلت: أي رب! إنه قد كان أنبياء قبلي منهم من سخرت له الريح ومنهم من كان يحيى الموتى. قال، فقال: ألم أجدك يتيماً فأوتيتك. قال: قلت بلى. قال: ألم أجدك ضالاً فهديتك. قال: قلت بلى أي رب. قال: ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك قال: قلت: بلى أي رب».

وهذا يعني أن نعمة شرح الصدر تفوق معجزات الأنبياء. والتمتع في دراسة حياة الرسول صلى الله عليه وآله، وما فيها من مظاهر تدل على شرح عظيم لصدوره تجاه الصعاب والمشاق يدرك بما لا يقبل الشك أن الأمر لم يتأت لرسول الله بشكل عادي، بل إنه حتماً تأييد إلهي رباني.

وبسعة الصدر هذه إجتاز الرسول صلى الله عليه وآله العقبات والحواجز والصعاب على أفضل وجه، وأدى رسالته خير أداء.

ثم يأتي ذكر الموهبة الثانية: «وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ». أي ألم نضع عنك الحمل الثقيل؟

«الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ».

وأى حمل وضعه الله عن نبيه؟ القرائن في الآيات تدل على أنه مشاكل الرسالة والنبوة والدعوة إلى التوحيد وتطهير المجتمع من ألوان الفساد، وليس نبي الإسلام وحده بل كل الأنبياء في بداية الدعوة واجهوا مثل هذه المشاكل الكبرى وتغلبوا عليها بالإمداد الإلهي وحده، مع فارق في الظروف، فبيئته الدعوة الإسلامية كانت ذات عقبات أكبر ومشاكل ...
وفي الموهبة الثالثة يقول سبحانه: «وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ».

فاسمك مع اسم الإسلام والقرآن قد ملأ- الآفاق، وأكثر من ذلك اقترن اسمك باسم الله سبحانه في الأذان يرفع صباح مساء على المآذن. والشهادة برسالتك لا تنفك عن الشهادة بتوحيد الله في الإقرار بالإسلام وقبول الدين الحنيف.
مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٨٧

وروى عن الرسول صلى الله عليه وآله في تفسير هذه الآية قال: «قال لي جبرائيل قال الله عز وجل: إذا ذكرتُ ذكرتُ معي». [وكفى بذلك منزلة].

شاعر النبي «حسان بن ثابت» ضمن معنى الآية الكريمة في أبيات جميلة، وقال:

وضمَّ الإله اسم النبي إلى اسمه إذ قال في الخمس المؤذن أشهد

وشقَّ له من اسمه ليجلَّه فذو العرش «محمود» وهذا «محمد»

الآية التالية تبشّر النبي صلى الله عليه وآله بأعظم بشرى، وتقول: «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا».

ويأتى التأكيد الآخر: «إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا».

لا تغتم أيها النبي، فالمشاكل والعقبات لا تبقى على هذه الحالة، ودسائس الأعداء لن تستمر، وشظف العيش وفقر المسلمين سوف لا يظل على هذا المنوال.

إن أسلوب الآيتين يجعلهما لا تختصان بشخص النبي صلى الله عليه وآله وبزمانه، بل بصورة قاعدة عامة مستنبطة مما سبق، وتبشّر كل البشرية المؤمنة المخلصه الكادحة، وتقول لها: كل عسر إلى جانبه يسر.

في من لا يحضره الفقيه بإسناده إلى النبي صلى الله عليه وآله قال: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأنّ الفرج مع الكرب وإنّ مع العسر يسراً، إنّ مع العسر يسراً».

«فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ». أى إذا انتهيت من أداء أمر مهم فابدأ بمهمّة أخرى، فلا مجال للبطالة والعطل. كن دائماً فى سعى مستمر ومجاهدة دائمة، واجعل نهاية أية مهمّة بداية لمهمّة أخرى.

«وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ». أى فاعتمد على الله فى كل الأحوال.

اطلب رضاه، واسع لقربه.

الآيتان - حسب ما ذكرناه - لهما مفهوم واسع عام يقضى بالبداية بمهمّة جديدة بعد الفراغ من كل مهمّة. وبالتوجه نحو الله فى كل المساعى والجهود.

إنّ هذه السورة تبين بمجموعها عناية ربّ العالمين الخاصّة للنبي الأعظم صلى الله عليه وآله، وتسليّة قلبه أمام المشاكل، ووعدّه بالنصر أمام عقبات الدعوة، وهى فى الوقت ذاته تحيى الأمل والحركة والحياة فى جميع البشرية المهتديّة بهدى القرآن.

«نهاية تفسير سورة الشرح»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٨٩

محتوى السورة وفضلتها: هذه السورة تدور آياتها حول حسن خلقه الإنسان ومراحل تكامله ونموه وانحطاطه، وتبدأ بقسم عميق المعنى، تذكر عوامل انتصار الإنسان ونجاته وتنتهي بالتأكيد على مسألة المعاد وحاكمة الله المطلقة.

وفي المجمع عن ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها أعطاه الله خصلتين: العافية واليقين مادام في دار الدنيا، فإذا مات أعطاه الله من الأجر بعدد من قرأ هذه السورة صيام يوم».

وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨) تبدأ السورة بالقسم أربع مرات ليبيان أمر مهم:

«وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩٠

«وَطُورِ سِينِينَ» (١).

«وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ».

«التين» و «الزيتون» ثمرتان معروفتان، واختلف المفسرون في المقصود بالتين وبالزيتون، هل هما الفاكهتان المعروفتان أم شيء آخر؟ بعضهم ذهب إلى أنهما الفاكهتان بما لهما من خواص غذائية وعلاجية كبيرة، وبعض آخر قال: المقصود منهما جبلان واقعان في مدينتي «دمشق» و «بيت المقدس» لأنَّ المكانين مثبتق كثير من الرسل والأنبياء .. وبذلك ينسجم هذان القسمان مع ما يليهما من قسمين بأراض مقدسة.

«وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ». والبلد الأمين مكة، الأرض التي كانت في عصر الجاهلية أيضاً بلداً آمناً وحرماً إلهياً، ولا يحق لأحد فيها أن يتعرض لأحد.

إذا حملنا كلمتي «التين» و «الزيتون» على معناهما الظاهر الإبتدائي، فالقسم بها ذو دلالة عميقة أيضاً، لأنَّ «التين» فاكهة ذات مواد غذائية ثرة، ولقمة مغذية ومقوية لمختلف الأعمار، وخالية من القشر والنواة والزوائد.

وفي الكافي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: «التين يذهب بالبخر ويشدّ الفم والعظم، وينبت الشعر، ويذهب بالداء، ولا يحتاج معه إلى دواء».

وقال عليه السلام: «التين أشبه شيء بنبات الجنة».

وحول الزيتون، فإنَّ العلماء الذين قضوا عمرهم في دراسة خواص النباتات يعيرون أهمية بالغة للزيتون وزيته. ويعتقدون أن الفرد إن أراد أن يعيش في سلامة دائمة فلا بد له أن يستفيد من هذا الأكسير الحياتي.

زيت الزيتون صديق حميم لكبد الإنسان، وله تأثير فعال في معالجة عوارض الكلى، وحصى الصفراء، والتشنجات الكلوية والكبدية، وإزالة الإمساك.

وزيت الزيتون مفعم أيضاً بأنواع الفيتامينات وفيه الفوسفور والكبريت والكلسيوم

(١) قيل: إنَّ «سينين» جمع بمعنى شجرة، واحدته «سينة»، فكأنه قيل طور الأشجار. وقيل: إنَّ سينين، اسم للبقعة التي فيها الجبل. وعن عكرمة بزيادة بلسان أهل الحبشة؛ وعن قتادة أنه قال: سينين مبارك حسن ذو شجر (روح المعاني ٣٠ / ١٧٣).

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩١

مختصر الامثل ج ٥ ٥٣٣

والحديد والبوتاسيوم والمنغنيز.

وفى المكارم الأخلاق للطبرسى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام قال: «نعم الطعام الزيت، يطيب النكهة، ويذهب بالبغم، ويصفي اللون، ويشد العصب، ويذهب بالوصب [المرض والألم والضعف ويطفىء الغضب].»

ثم يأتي جواب القسم: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ».

«تقويم»: يعنى تسوية الشيء بصورة مناسبة، ونظام معتدل وكيفية لائقة، وسعة مفهوم الآية يشير إلى أن الله سبحانه خلق الإنسان بشكل متوازن لائق من كل الجهات، الجسمية والروحية والعقلية، إذ جعل فيه ألوان الكفاءات، وأعدّه لتسليق سلم السمّ، وهو - وإن كان جرماً صغيراً - وضع فيه العالم الأكبر، ومنحه من الكفاءات والطاقات ما جعله لائقاً لوسام: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» (١).

وهذا الإنسان بكل ما فيه من امتيازات، يهبط حين ينحرف عن مسيرة الله إلى «أسفل سافلين».

لذلك تقول الآية التالية: «ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ».

ولم لا يكون كذلك وهو الموجود الملىء بالكفاءات الثرة التي إن سخرها على طريق الصلاح يبلغ أسمى قمم الفخر وإن استعملها على طريق الفساد يخلق أكبر مفسدة، ويتزلق طبعاً إلى «أسفل سافلين».

ولكن الآية التالية تقول: «إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ».

«ممنون»: من «المن» وتعنى هنا القطع أو النقص، من هنا فالأجر غير مقطوع ولا منقوص، وقيل: إنه خال من المنّة، لكن المعنى الأوّل أنسب.

الآية التالية تخاطب هذا الإنسان الكافر بأنعم ربّه والمعرض عن دلائل المعاد وتقول له:

«فَمَا يَكْذُوبُكَ بَعْدُ بِالْدينِ».

تركيب وجودك من جهة، وبيان هذا العالم الواسع من جهة اخرى يؤكّدان أن هذه الحياة الخاطفة لا يمكن أن تكون الهدف النهائى من خلقتك وخلقته هذا العالم الكبير.

هذه كلّها مقدمات لعالم أوسع وأكمل، وبالتعبير القرآنى، هذه «النشأة» الاولى «تنبىء عن «النشأة الاخرى» فلم لا يتذكر الإنسان! «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ» (٢).

(١) سورة الإسراء / ٧٠.

(٢) راجع أدلة المعاد فى تفسير سورة الواقعة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩٢

واتضح أيضاً أن المقصود من «الدين» ليس هو الشريعة بل هو يوم الجزاء، و الآية التالية تؤيد ذلك: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ» فى تفسير مجمع البيان: قال قتادة: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ختم هذه السورة قال: «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين» «نهاية تفسير سورة التين»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩٣

٩٦. سورة العلق

محتوى السورة: المشهور بين المفسرين أنها أول ما نزل من القرآن، ومحتواها يؤيد ذلك أيضاً.

هذه السورة تبدأ بأن تأمر النبى صلى الله عليه وآله بالقراءة، ثم تتحدث عن خلقه الإنسان بكل عظمته من قطعة دم تافهة.

وفى المرحلة التالية تتحدث السورة عن تكامل الإنسان فى ظل لطف الله وكرمه، وعن تعليمه وتمكينه من القلم.

ثم تتطرق إلى طغيان الإنسان رغم كل ما توفرت له من هبات إلهية وإكرام ربانى.

وتشير بعد ذلك إلى ما ينتظر اولئك الصادقين عن طريق الهداية والمانعين لأعمال الخير من عقاب. وفي ختام السورة أمر بالسجود والإقتراب من رب العالمين.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «من قرأ في يومه أو في ليلته إقرأ باسم ربك ثم مات في يومه أو في ليلته، مات شهيداً وبعثه الله شهيداً، وأحياه كمن ضرب بسيفه في سبيل الله مع رسول الله صلى الله عليه وآله».

هذه السورة المباركة سميت سورة «العلق» و «إقرأ» و «القلم» لمناسبة هذه الكلمات فيها.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩٤

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)
سبب النزول

جاء في الروايات أن محمداً صلى الله عليه وآله كان في غار حراء حين نزل عليه جبرائيل وقال له: إقرأ يا محمّد. قال: ما أنا بقارىء، فاحتضنه جبرائيل وضغطه وقال له: إقرأ يا محمّد وتكرر الجواب. ثم أعاد جبرائيل عمله ثانية وسمع نفس الجواب. وفي المرة الثالثة قال: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» إلى آخر الآيات الخمس الأولى من السورة.

قال ذلك واختفى عن أنظار النبي صلى الله عليه وآله.

رسول الله أحس بتعب شديد بعد هبوط أولى أشعة الوحي عليه فذهب إلى خديجة وقال: «زملوني ودثروني» (١).

في تفسير مجمع البيان: أكثر المفسرين على أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن وأول يوم نزل جبرائيل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو قائم على حراء، علمه خمس آيات من أول هذه السورة. وقيل: أول سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله فاتحة الكتاب.

رواه الحاكم أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لخديجة: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء». فقالت: ما يفعل الله بك إلا خيراً.

فوالله إنك لتؤدى الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث. قالت خديجة: فانطلقنا إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وآله بما رأى، فقال له ورقة: إذا أتاك فاثبت له حتى تسمع ما يقول، ثم اتنتني فأخبرني. فلما خلا ناداه يا محمّد! قل له ذلك. فقال له: أبشر ثم أبشر، فأنا أشهد أنك الذى بشر به ابن مريم، وأنتك على مثل ناموس موسى، وأنتك نبي مرسل، وإنتك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولئن أدركنى ذلك لأجاهدن معك. فلما توفي ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بى وصدقنى». يعنى ورقة.

جدير بالذكر أن فى بعض كتب التفسير والتاريخ كلاماً حول حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله،

(١) تفسير روح الجنان ١٢/٩٦؛ وهذا المعنى أوردته كثير من المفسرين بإضافات وزوائد لا يمكن قبول بعضها.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩٥

فى هذه البرهه الزمنية لا- تتناسب أبداً مع شخصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وتستند حتماً إلى أحاديث مختلفة أو إلى اسرئيليات. ويبدو أن أعداء الإسلام دسوا هذه الروايات للطعن فى الإسلام وللحط من شخصية النبي صلى الله عليه وآله.

التفسير

الآية الأولى فيها خطاب للنبي صلى الله عليه وآله تقول له: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ».

ويلاحظ هنا قبل كل شىء التركيز على مسألة الربوبية، ونعلم أن «الرب» يعنى «المالك المصلح»، أى الشخص الذى يملك شيئاً،

ويتعهد إصلاحه وتربيته أيضاً.

ولإثبات ربوبية الله جاء ذكر الخلق... خلقه الكون، إذ إن أفضل دليل على ربوبيته خالقيته، فالذى يُدبر العالم هو خالقه. وهذا ردّ على مشركى العرب الذين قبلوا خالقيته الله، وأوكلوا الربوبية والتدبير إلى الأوثان، ثم إن ربوبية الله وتدييره لنظام الكون أفضل دليل على إثبات ذاته المقدسة.

ثم اختارت الآية التالية «الإنسان» باعتباره أهم مظاهر الخلق وقالت: «خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ».

«العلق»: فى الأصل الإلتصاق بشيء، والنطفة بعد أن تطوى المراحل الجنينية الأولى تتحول إلى قطعة دم متلاصقة هى العلق، وهى مع تفاهتها الظاهرية تعتبر مبدأ خلقه الإنسان، والآية تركز على هذه الظاهرة لتبين قدرة الرب العظيمة على خلق هذا الإنسان العجيب من هذه العلقة التافهة.

وقيل: إن العلق فى الآية يعنى الطين الذى خلق منه آدم، وهو أيضاً مادة متلاصقة، وبديهي أن الرب الذى خلق آدم من طين لازب يستحق كل تمجيد وثناء.

وقيل أيضاً: أن العلق يعنى «صاحب العلاقة»، وفيه إشارة إلى الروح الإجتماعية للإنسان، والعلاقة الموجودة بين أفراد البشر هى أساس تكامل البشر وتطور الحضارات.

وقال آخرون: إن العلق إشارة إلى نطفة الرجل (الحيمن)، وهى تشبه دودة العلق إلى حد كبير، وهذا الموجود المجهرى يسبح فى ماء النطفة، ويتجه إلى بويضة المرأة فى الرحم، ويلقحها ويكون منها النطفة الكاملة للإنسان.

والقرآن الكريم بطرحه هذه المسألة يسجل معجزة علمية أخرى من معجزه، إذ لم تكن هذه الامور معروفة أبداً فى عصر نزوله.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩٦

ومن بين التفاسير الأربعة، يبدو أن التفسير الأول أوضح، وإن كان الجمع بين التفاسير الأربعة ممكن أيضاً.

وللتأكيد، تقول الآية مرة أخرى: «اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ».

وهذه الآية جواب على قول الرسول صلى الله عليه وآله لجبرائيل: ما أنا بقارىء، وهذه الآية تقول: إنك قادر على القراءة بكرم الرب وفضله ومثته.

ثم تصف الآيتان التاليتان الرب الأكرم:

«الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ». «عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ».

وهاتان الآيتان أيضاً تتجهان إلى الجواب على قول رسول الله صلى الله عليه وآله: ما أنا بقارىء، أى إن الله الذى علم البشر بالقلم وكشف لهم المجاهيل، قادر على أن يعلم عبده الأمين القراءة والتلاوة.

جملة «الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ» تحتل معنيين.

الأول: أن الله علم الإنسان الكتابة، وأعطاه هذه القدرة العظيمة التى هى منبتق تاريخ البشر، ومنطلق جميع العلوم والفنون والحضارات.

والثانى: المقصود أن الله علم الإنسان جميع العلوم عن طريق القلم وبوسيلة الكتابة.

وهو تعبير عميق المعنى فى تلك اللحظات الحساسة من بداية نزول الوحي

إن أساس الإسلام أقيم منذ البداية على أساس العلم والقلم... ولذلك استطاع قوم متخلفون أن يتقدموا فى العلم والمعرفة حتى تأهلوا- باعتراف الأعداء والأصدقاء- لتصدير علومهم إلى العالم! إن علم المسلمين ومعارفهم هو الذى مزق ظلام القرون الوسطى فى أوروبا وأدخلها عصر الحضارة. وهذا ما يعترف به علماء أوروبا أنفسهم فيما كتبوه فى حقل تاريخ الحضارة الإسلامية وفى تراث الإسلام.

وما أشبع وأفزع أن تكون أخلاق امية كتلك تمتلكك بين ظهرانيها ديناً كهذا متخلفه فى ميادين العلم والمعرفة ومحتاجة إلى الآخرين

بل وتابعه لهم.

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَى (٦) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩٧

استتباعاً للآيات السابقة التى تحدثت عن النعم المادية والمعنوية الإلهية على الإنسان ... والنعم التى تستلزم شكر الإنسان وتسليمه أمام الله، هذه الآيات تبدأ بالقول: ليست نعم الله تحيى روح الشكر فى الإنسان دائماً، بل إنه يطغى:

«كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَى . ومتى يكون ذلك؟ فيما لو رأى نفسه مستغنياً وغير محتاج.

«أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى . هذه طبيعة أغلب أفراد البشر ... الأفراد الذين لم يتربوا فى مدرسة العقل والوحي، حين يرون أنفسهم مستغنين غير محتاجين يعمدون إلى الطغيان، وينسلخون من عبودية الله، ويرفضون الإعراف بأحكامه، ويصمّون أذانهم عن نداءه، ولا يراعون حقاً ولا عدلاً.

إن الهدف من الآية الفات نظر الرسول صلى الله عليه وآله بمنعطفات الطبيعة البشرية كى لا يتوقع قولاً سريعاً من الناس لدعوته، وليعد نفسه لإنكار المنكرين ومعارضة الطغاة المستكبرين، وليعلم أن الطريق أمامه وعمر مليء بالمصاعب.

ثم يأتى التهديد لهؤلاء الطغاة المستكبرين وتقول الآية التالية: «إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى .

وهو الذى يعاقب الطغاة على ما اقترفوه، وكما أن رجوع كل شىء إليه، وميراث السماوات والأرض له سبحانه: «وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» «١». فكل شىء فى البداية منه، ولا مبرر للإنسان أن يشعر بالإستغناء ويطغى

ثم تتحدث الآيات التالية عن بعض أعمال الطغاة المغرورين، مثل صدهم عباد الله عن السير فى طريق الحق.

«أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى . «عَبْدًا إِذَا صَلَّى .

وفى تفسير مجمع البيان: فقد جاء فى الحديث أن أبا جهل قال: هل يعقر محمد وجهه بين أظهركم قالوا: نعم. قال: فبالذى يحلف به لئن رأيتك يفعل ذلك لأطأن على رقبته. فقيل له: ها هو ذاك يصلّى، فانطلق ليطأ على رقبته، فما فاجأهم إلأوهو ينكص على عقبيه، ويتقى بيديه. فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بنى وبينه خندقاً من نار، وهولاً، وأجنحة. وقال نبي الله: «والذى نفسى بيده لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً». فأنزل الله سبحانه:

«أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى إِلَى آخِر السورة.

(١) سورة آل عمران / ١٨٠.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩٨

الآيات التالية تأكيد على نفس المفاهيم.

«أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى . «أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى . أى أرايت إن كان هذا العبد المصلى على الهدى أو أمر بالتقوى فهل يصح نهيته؟ ألا يستحق من ينهاه النار؟

«أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى . ولو كذب هذا الطاغية بالحق وتولى وأعرض عنه فماذا سيكون مصيره؟

«أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى وَيُثَبِّتُ كُلَّ شَيْءٍ لِيَوْمِ الْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ.

كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَه لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطْعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)

بعد الحديث فى الآيات السابقة عن الطغاة الكافرين الصادقين عن سبيل الله، توجه هذه الآيات أشد التهديد لهم وتقول: «كَلَّا» لا يكون

ما يتصور (لأنه تصور أن يصدّ عن عبادة الله بوضعه قدمه على رقبته النبي).

«كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَه لَنَشْفِ فَعَا بِالنَّاصِيَةِ». نعم، إذا لم ينته من إثمه وطغيانه سنجزه بالقوة من شعر مقدمه رأسه (وهي الناصية)، و ثم وصف الناصية هذه بأنها كاذبة خاطئة وهو وصف لصاحبها: «نَاصِيَةٌ كَاذِبَةٌ خَاطِئَةٌ».

«لنسفعا»: من السفع، وله معاني متعددة: الجرز بالشدّة، السفع على الوجه، تسويد الوجه (الأثافي الثلاثة التي يوضع عليها القدر تسمى «سفع» لأنها تسود بالدخان)، ووضع العلامة للإذلال.

والأنسب المعنى الأوّل، وإن كانت الآية تحتمل معاني أخرى أيضاً.

روى أنه لما نزلت سورة الرحمن، علّم القرآن ... قال النبي صلى الله عليه وآله لأصحابه: «من يقرؤها منكم على رؤوساء قريش؟ فتثاقلوا مخافة أذيتهم، فقام ابن مسعود وقال: أنا يا رسول الله.

فأجلسه صلى الله عليه وآله، ثم قال: «من يقرؤها عليهم؟» فلم يبق إلا ابن مسعود، ثم ثالثاً كذلك إلى أن أذن له، وكان صلى الله عليه وآله يبقّى عليه لما كان يعلم من ضعفه وصغر جثته، ثم إنّه وصل إليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبة، فافتتح قراءة السورة، فقام أبو جهل فطمه فشقّ أذنه وأدماه، فانصرف وعيناه تدمع، فلما رآه النبي صلى الله عليه وآله رق قلبه وأطرق رأسه مغموماً، فإذا جبريل عليه السلام

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٤٩٩

يجيء ضاحكاً مستبشراً، فقال: «يا جبريل تضحك وابن مسعود يبكي!» فقال: ستعلم.

فلما ظفر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ في الجهاد، فقال: خذ رمحك والتمس في الجرحى من كان به رمق فاقتله فإنّك تنال ثواب المجاهدين، فأخذ يطالع القتلى، فإذا أبو جهل مصروع يخور ... فصعد على صدره، فلما رآه أبو جهل قال: يا رويى الغنم لقد ارتقيت مرتقى صعباً، فقال ابن مسعود: الإسلام يعلو ولا يعلى عليه. فقال أبو جهل: بلغ صاحبك أنه لم يكن أحد أبغض إلى منه في حياتي، ولا أحد أبغض إلى منه في حال مماتي.

فروى أنه صلى الله عليه وآله لما سمع ذلك قال: «فرعوني أشدّ من فرعون موسى فإنّه قال آمنت وهو قد زاد عتواً».

ثم قال [أبو جهل لابن مسعود: اقطع رأسى بسيفى هذا، لأنه أحدّ وأقطع، فلما قطع رأسه لم يقدر على حمله، فراح يجزّه على ناصيته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وبذلك تحقق قوله سبحانه: «لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ» في هذه الدنيا أيضاً (١).

«الناصية»: شعر مقدم الرأس، و (السفع بالناصية) يراد به الإذلال والإرغام، لأنّ أخذ الشخص بناصرته يفقده كل حركة ويجبره على الإستسلام.

ولقد وردت بعض الروايات الصحيحة بأنّ السورة - عدا المقطع الأوّل منها - قد نزلت في أبي جهل إذ مرّ برسول الله صلى الله عليه وآله وهو يصلى عند المقام فقال (يا محمّد ألم أنهك عن هذا؟

وتوعده. فاغلظ له رسول الله صلى الله عليه وآله وانتهره ... ولعلها هي التي أخذ فيها رسول الله صلى الله عليه وآله بخناقه وقال له: (أولى لك ثم أولى). فقال: يا محمّد بأى شيء تهددنى؟ أما والله إننى لأكثر هذا الوادى نادياً (٢). وهنا نزلت الآية التالية تقول لأبى جهل: فليدع هذا الجاهل المغرور كل قومه وعشيرته وليستنجد بهم: «فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ».

ونحن سندع أيضاً زبانية جهنم: «سَيَدْعُ الزَّبَانِيَةَ». ليعلم هذا الجاهل الغافل أنه عاجز عن فعل أى شيء وإنه فى قبضه خزنة جهنم كقشته فى مهبّ الريح.

وفى آخر آية من السورة وهى آية السجدة يقول سبحانه: «كَلَّا». أى ليس الأمر كما

(١) التفسير الكبير ٣٢ / ٢٣.

(٢) في ظلال القرآن ٨ / ٦٢٤.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٠٠

يتصور بأنه قادر على أن يمنع سجودك: «لَمَّا تَطَعُهُ وَأَسْبِجْدُ وَأَقْتَرِبْ». فأبو جهل أقل من أن يستطيع منع سجودك أو الوقوف بوجه دينك، فتوكل على الله وأعبده واسجد له، وبذلك تقترب منه سبحانه على هذا المسير أكثر فأكثر.

ويستفاد ضمناً من هذه الآية أن «السجود» عامل اقتراب من الله، ولذا ورد في الحديث عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجداً».

وفي روايات أهل البيت عليهم السلام أن القرآن يتضمّن أربعة مواضع فيها سجود واجب وهي في «السجدة» و «فصلت» و «النجم» وفي هذه السورة «العلق» وبقية المواضع السجدة فيها مستحبة.

«نهاية تفسير سورة العلق»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٠١

٩٧. سورة القدر

محتوى السورة وفضيلتها: محتوى السورة كما هو واضح من اسمها بيان نزول القرآن الكريم في ليلة القدر، وبيان أهميته هذه الليلة وبركاتها.

في المجمع: ابى بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها اعطى من الأجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر».

إن هذه الفضائل في التلاوة لا تعود على من يقرأها دون أن يدرك حقيقتها، بل إنها نصيب من يقرأها ويفهمها ويعمل بها ... من يقدر القرآن حق قدره ويطبق آياته في حياته.

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا يَأْتِي رَبُّهُمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ (٥) ليلة القدر ليلة نزول القرآن: يستفاد من آيات الذكر الحكيم أن القرآن نزل في شهر رمضان: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» (١). وظاهر الآية يدل على أن كل القرآن نزل

(١) سورة البقرة / ١٨٥.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٠٢

في هذا الشهر.

والآية الاولى من سورة القدر تقول: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ».

عبارة «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» فيها إشارة اخرى إلى عظمة هذا الكتاب السماوي، فقد نسب الله نزوله إليه، وبصيغة المتكلم مع الغير أيضاً، وهي صيغة لها مفهوم جمعي وتدل على العظمة.

نزول القرآن في ليلة «القدر» وهي الليلة التي يقدر فيها مصير البشر وتعين بها مقدراتهم، دليل آخر على الأهمية المصيرية لهذا الكتاب السماوي (١).

لو جمعنا بين هذه الآية وآية سورة البقرة لاستنتجنا أن «ليلة القدر» هي إحدى ليالي شهر رمضان، ولكنها أية ليلة؟ القرآن لا يبين لنا ذلك، ولكن المشهور في الروايات أنها في العشر الأخيرة من شهر رمضان، وفي الليلتين الحادية والعشرين أو الثالثة والعشرين.

وثمة روايات متعددة عن أهل البيت عليهم السلام تركز على الليلة الثالثة والعشرين.

في الكافي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «التقدير في ليلة تسع عشرة، والإبرام في ليلة إحدى وعشرين، والإمضاء في ليلة ثلاث وعشرين».

في الآيتين التاليتين يبين الله تعالى عظمه ليلة القدر ويقول سبحانه:

«وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ». «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ».

والتعبير هذا يوضح أن عظمه ليلة القدر كبيرة إلى درجة خفيت على رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً قبل نزول هذه الآيات، مع ما له من علم واسع.

وفي الدر المنثور عن مجاهد أن النبي صلى الله عليه وآله ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك فأنزل الله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ» التي لبس فيها ذلك الرجل السلاح في سبيل الله ألف شهر.

لماذا كانت خيراً من ألف شهر؟ ... الظاهر لأهميته العبادة والإحياء فيها. وما جاء من

(١) هذه المسألة طبعاً لا تتنافى مع حرية إرادة الإنسان ومسألة الاختيار، لأن التقدير الإلهي عن طريق الملائكة إنما يتم حسب لياقة الأفراد وميزان إيمانهم وتقواهم وطهر نيتهم وأعمالهم. أي يقدر كل فرد ما يليق له. وبعبارة أخرى: أرضية التقدير يوفرها الإنسان نفسه، وهذا لا يتنافى مع الاختيار بل يؤكد.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٠٣

روايات بشأن فضيلة ليلة القدر وفضيلة العبادة فيها في كتب الشيعة وأهل السنة كثير، ويؤيد هذا المعنى. أضيف إلى ذلك، فإن نزول القرآن في هذه الليلة، ونزول البركات والرحمة الإلهية فيها يجعلها خيراً من ألف شهر.

ولمزيد من وصف هذه الليلة تقول الآية التالية: «تَنْزِيلُ الْمَلَكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ».

و «تنزل» فعل مضارع يدل على الاستمرار (والأصل تنزل) مما يدل على أن ليلة القدر لم تكن خاصة بزمن النبي، وبنزول القرآن، بل هي ليلة تتكرر في كل عام باستمرار.

والمقصود ب «الروح» هو مخلوق عظيم يفوق الملائكة.

وفي الكافي أن الإمام الصادق عليه السلام سئل عن الروح وهل هو جبرائيل؟ قال: «الروح هو أعظم من جبرئيل، إن جبرئيل من الملائكة، وإن الروح هو خلق أعظم من الملائكة، أليس يقول تبارك وتعالى: تنزل الملائكة والروح».

«مَنْ كُلُّ أَمْرٍ». أي: لكل تقدير وتعيين للمصائر، ولكل خير وبركة، فالهدف من نزول الملائكة في هذه الليلة إذن هو لهذه الامور. «سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَّلَعَ الْفَجْرِ».

والآية الأخيرة هذه تصف الليلة بأنها مفعمة بالخير والسلامة والرحمة حتى الصباح.

القرآن نزل فيها، وعبادتها تعادل عبادة ألف شهر، وفيها تنزل الخيرات والبركات، وبها يحظى العباد برحمة خاصة، كما إن الملائكة والروح تنزل فيها ... فهي إذن ليلة مفعمة بالسلامة من بدايتها حتى مطلع فجرها. والروايات تذكر أن الشيطان يكبل بالسلاسل هذه الليلة فهي ليلة سالمة مقرونة بالسلامة.

«نهاية تفسير سورة القدر»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٠٥

محتوى السورة: هذه السورة تناولت رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وما فيها من دلائل بيّنة.

وفى مقطع آخر من السورة بيان عن مواقف أهل الكتاب والمشرّكين تجاه الإسلام ...

بعضهم آمن وعمل صالحاً فهو خير المخلوقات، وبعضهم كفر وأشرك فهو شرّ البرية.

هذه السورة أطلق عليها لمناسبة الفاظها أسماء متعددة أشهرها: «البينة» و«لم يكن» و«القيمة».

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو يعلم الناس ما فى (لم يكن) لعطلوا الأهل والمال وتعلموها». فقال رجل من خزاعة: ما فيها من الأجر يا رسول الله؟ فقال: «لا يقرأها منافق أبداً ولا عبد فى قلبه شك فى الله عزّ وجل. والله إنّ الملائكة المقربين ليقرؤونها منذ خلق الله السماوات والأرض لا يفترون عن قراءتها، وما من عبد يقرؤها بليل إلّابعث الله ملائكة يحفظونه فى دينه ودنياه ويدعون له بالمغفرة والرحمة، فإن قرأها نهاراً اعطى عليها من الثواب مثل ما أضاء عليه النهار وأظلم عليه الليل».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٠٦

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) فى بداية السورة ذكر لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) ومشرّكى العرب قبل ظهور الإسلام، فهؤلاء كانوا يدعون أنّهم غير منفكين عن دينهم إلّابديل واضح قاطع.

«لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ».

و«البينة»: التى أرادوها: رسول من الله يتلو عليهم كتاباً مطهراً من رب العالمين:

«رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً».

وهذه الصحف فيها من الكتاب ما هو صحيح وثابت وذو قيمة: «فيها كُتِبَ قِيمَةٌ».

كان هذا ادّعاؤهم قبل ظهور الإسلام، وحينما ظهر ونزلت آياته تغير هؤلاء، واختلفوا وتفرقوا، وما تفرقوا إلّابعد أن جاءهم الدليل الواضح والنبي الصادح بالحق.

«وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ».

وهذا المعنى يشبه ما جاء فى الآية (٨٩) من سورة البقرة: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ».

نعلم أنّ أهل الكتاب كانوا ينتظرون مثل هذا الظهور، ولا بدّ أن يكون مشركو العرب مشاركين لأهل الكتاب فى هذا الإنتظار لما كانوا يرون فيهم من علم ومعرفة، ولكن حين تحققت آمالهم غيروا مسيرهم والتحقوا باعداء الدعوة.

«البينة»: فى الآية هى الدليل الواضح، ومصداقها حسب الآية الثانية شخص «رسول الله» وهو يتلو عليهم القرآن.

«صحف»: جمع «صحيفة»، وتعنى ما يكتب عليه من الورق، والمقصود بها هنا محتوى هذه الأوراق، إذ نعلم أنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لم يكن يتلو شيئاً عليهم من الأوراق.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٠٧

و«مطهّرة»: أى طاهرة من كل ألوان الشرك والباطل، ومن تلاعب شياطين الجن والإنس، كما جاء فى الآية (٤٢) من سورة فصلت: «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ».

ثم يتوالى التفرّيع لأهل الكتاب، ومن بعدهم للمشرّكين، لأنّهم اختلفوا فى الدين الجديد، منهم مؤمن ومنهم كافر، بينما: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ».

ثم تضيف الآية القول: «وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ».

والمقصود هو: إن دين الإسلام ليس فيه سوى التوحيد الخالص والصلاة والزكاة وأمثالها من التعاليم. وهذه أمور معروفة فلماذا يعرضون عنها.

المقصود بـ «الدين» هو مجموع الدين والشريعة، أى إنهم امرؤا أن يعبدوا الله وأن يخلصوا له الدين والتشريع فى جميع المجالات. جملة «وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ» إشارة إلى أن الاصول المذكورة فى الآية وهى: التوحيد الخالص، والصلاة (الإرتباط بالله) والزكاة (الإرتباط بالناس) من الاصول الثابتة الخالدة فى جميع الأديان، بل إنها قائمة فى أعماق فطرة الإنسان، ذلك لأن مصير الإنسان يرتبط بالتوحيد، وفطرته تدعوه إلى معرفة المنعم وشكره، ثم إن الروح الإجتماعية المدنية للإنسان تدعوه إلى مساعدة المحرومين.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاءُؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨) خير البرية وشرها: الآيات السابقة تحدثت عن انتظار أهل الكتاب والمشركين لبيئته تأتيهم من الله، لكنهم تفرقوا من بعدما جاءتهم البيئته.

هذه الآيات تذكر مجموعتين من الناس مختلفتين فى موقفهما من الدعوة «كافرة» و «مؤمنة» تذكر الكافرين أولاً بالقول: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ

مختصر الامثال، ج ٥، ص: ٥٠٨

جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ».

وعبارة «أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ» عبارة قارعة مثيرة، تعنى أنه لا- يوجد بين الأحياء وغير الأحياء موجود أفضل واسوأ من الذين تركوا الطريق المستقيم بعد وضوح الحق وإتمام الحجة، وساروا فى طريق الضلال.

تقديم ذكر «أهل الكتاب» على «المشركين» فى هذه الآية أيضاً، قد يعود إلى ما عندهم من كتاب سماوى وعلماء ومن صفات صريحة لنبى الإسلام صلى الله عليه وآله فى كتبهم، لذلك كانت معارضتهم أفضح وأسوأ.

الآية التالية تذكر المجموعة الثانية، وهم المؤمنون وتقول: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ».

والآية التى بعدها تذكر جزاء هؤلاء المؤمنين، وما لهم عند الله من ثوبة: «جَزَاءُؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ».

عبارة «أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ» تبين بجلاء أن الإنسان المؤمن ذا الأعمال الصالحة أفضل من الملائكة، فعبارة الآية مطلقة وليس فيها استثناء والآيات الاخرى تشهد على ذلك أيضاً، مثل آية سجود الملائكة لآدم، ومثل قوله سبحانه: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» (١).

إنهم راضون عن الله لأن الله أعطاهم ما أرادوه، والله راض عنهم لأنهم أدؤا ما أرادهم منهم، وإن كانت هناك زلة فقد غفرها بلطفه وكرمه، وأية لذة أعظم من أن يشعر الإنسان أنه نال رضا المحبوب ووصاله ولقاءه.

نعم، نعيم جسد الإنسان جنات الخلد، ونعيم روحه رضا الله ولقاؤه، لأن هذه الخشية دافع للحركة صوب كل طاعة وتقوى وعمل صالح.

بحث

على عليه السلام وشيعته خير البرية: ثمه روايات كثيرة بطرق أهل السنة فى مصادرهم الحديثية المعروفة، وهكذا فى المصادر الشيعية، فسرت الآية: «أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ» بأنهم على بن أبى طالب عليه السلام وشيعته.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٠٩

في الدر المنتور عن ابن عباس قال: لما نزلت «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ»، قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين».

وأخرج ابن مردويه عن علي عليه السلام قال: «قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: ألم تسمع قول الله «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ» أنت وشيعتك وموعدي وموعدكم الحوض، إذا جئت الامم للحساب تدعون غزاً محجلين». هذا الحديث من الأحاديث المعروفة المشهورة المقبولة لدى أكثر علماء الإسلام، وفيه بيان لفضيلة كبرى من فضائل علي عليه السلام وأتباعه.

وهذه الروايات تدل ضمناً أنّ كلمة «الشيعه» باعتبارها اسماً لأتباع علي عليه السلام كانت قد شاعت منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بين المسلمين على لسان الرسول نفسه. واولئك الذين يخالون أنّ الكلمة هذه ظهرت في عصور متأخرة في خطأ كبير.

«نهاية تفسير سورة البينة»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١١

٩٩. سورة الزلزلة

محتوى السورة: هذه السورة تدور مفاهيمها حول ثلاثة محاور: تتحدث أولاً: عن علامات البعث ويوم القيامة؛ و ثانياً: عن شهادة الأرض على جميع أعمال العباد؛ و ثالثاً: تقسم الناس إلى مجموعتين صالحه وطالحه، وتبين أنّ كل مجموعته ترى ثمار عملها. فضيلة تلاوة السورة: في المجمع ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها فكأنما قرأ البقرة واعطى من الأجر كمن قرأ ربع القرآن».

وفي الكافي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «لا تملوا من قراءة إذا زلزلت الأرض زلزالها فإنه من كانت قراءته بها في نوافله لم يصبه الله عزّ وجل بزلزلة أبداً، ولم يمت بها ولا بصاعقه ولا بأفه من آفات الدنيا حتى يموت».

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١٢

هذه السورة تبدأ ببيان صور من الأحداث الهائلة المفزعة التي ترافق نهاية هذا العالم وبدء البعث والنشور. تقول: «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا». «وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا».

عبارة «زلزالها» تعني أنّ الأرض بأجمعها تهتز في ذلك اليوم (خلافاً للزلازل العادية الموضعية عادة) أو أنّها إشارة إلى الزلزلة المعهودة، أي زلزلة يوم القيامة.

و «الأثقال»- جمع ثقل، بمعنى الحمل- ذكر لها المفسرون معاني متعددة. قيل: إنّها البشر الذين يخرجون من أجدانهم على أثر الزلزال؛ كما جاء في الآية (٤) من سورة الإنشقاق: «وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ».

وقيل إنّها الكنوز المخبوءة التي ترتمي إلى الخارج، وتبعث الحسرة في قلوب عبّاد الدنيا.

ويحتمل أيضاً أن يكون المقصود إخراج المواد الثقيلة الذائبة في باطن الأرض، وهو ما يحدث أثناء البراكين والزلازل، فإنّ الأرض في نهاية عمرها تدفع ما في أعماقها إلى الخارج على أثر ذلك الزلزال العظيم.

ويمكن الجمع بين هذه التفاسير.

فى ذلك الجو الملىء بالرهبه والفرع، تصيب الإنسان دهشة ما بعدها دهشة فيقول فى ذعر: ما لهذه الأرض تتزلزل وتلقى ما فى باطنها؟ «وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا».

إن الإنسان هنا له معنى عام يشمل كل أفراد البشر. فالدهشة من وضع الأرض فى ذلك اليوم لا يختص بالكافرين.

هذا السؤال التعجبى يرتبط بالنفحة الاولى، حيث تحدث الزلزلة الكبرى وينتهى فيها هذا العالم.

وفى هذه الحالة يكون المقصود من أثقال الأرض معادنها وكنوزها والمواد المذابة فيها.

وأهم من ذلك أن الأرض: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا».

تحدث بالصالح والطالح، وبأعمال الخير والشر، مما وقع على ظهرها، وهذه الأرض واحد من أهم الشهود على أعمال الإنسان فى ذلك اليوم، وهى إذن رقيبته على ما نفعله عليها.

وفى المجمع: جاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وآله قال: «أتدرون ما أخبارها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمه بما عمل على ظهرها، تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا، وكذا وهذا أخبارها».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١٣

«بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا».

فما فعلته الأرض إنما كان بوحى ربها، وهى لا تتوانى فى تنفيذ أمر الرب.

وعبارة «أوحى» إنما هى لبيان أن حديث الأرض خلاف طبيعتها، ولا يتيسر ذلك سوى عن طريق الوحي الإلهى.

«يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ».

«أشتات»: جمع «شت» وهو المتفرق والمبعثر، أى أن الناس يردون ساحه المحشر متفرقين مبعثرين، وقد يكون التفرق والتبعثر لورود أهل كل دين منفصلين عن الآخرين.

أو قد يكون لورود أهل كل نقطه من نقاط الأرض بشكل منفصل.

أو قد يكون لورود جماعة بأشكال جميله مستبشرة، وجماعه بوجوه عبوسه مكفهرة إلى المحشر.

أو أن كل امه ترد مع إمامها وقائدها؛ كما فى الآية (٧١) من سورة الإسراء: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ».

أو أن يحشر المؤمنون مع المؤمنين والكافرون مع الكافرين.

الجمع بين هذه التفاسير ممكن تماماً لأن مفهوم الآية واسع.

«يصدر»: من الصدور، وهو خروج الإبل من بركه الماء مجتمع هائجه، وعكسه الورود.

وهى هنا كناية عن خروج الأقوام من القبور وورودهم على المحشر للحساب.

المقصود من عبارة «لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ» هو: «تجسم الأعمال» ورؤية الأعمال نفسها.

وهذه الآية أوضح الآيات الداله على تجسم الأعمال، حيث تتخذ الأعمال فى ذلك اليوم أشكالاً تتناسب مع طبيعتها وتنتصب أمام صاحبها، وتكون رفقتها سروراً وانشراحاً أو عذاباً وبلاءً.

ثم ينتقل الحديث إلى جزاء أعمال المجموعتين المؤمنة والكافرة، الصالحه والطالحه.

«فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ». «وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ».

ظاهر الآية يدل أيضاً على مسألة «تجسم الأعمال» ومشاهده العمل نفسه، صالحاً أم طالحاً، يوم القيامة، حتى إذا عمل ما وزنه ذرة من الذرات يره مجسماً يوم القيامة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١٤

«مقال»: فى اللغة بمعنى الثقل، وبمعنى الميزان الذى يقاس به الثقل؛ والمعنى الأول هو المقصود فى الآية.

و «الذرة»: ذكروا لها معاني متعددة من ذلك، فهو هنا أصغر وزن.

الآيتان المذكورتان وآيات اخرى مشابهة تدلّ دلالة واضحة على الدقة المتناهية في تحرّي الأعمال وفي المحاسبة يوم القيامة، كقوله سبحانه: «يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صِيحْرِهِ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ» (١).

هذه التعابير القرآنية تدلّ على أنّ أصغر الأعمال يحاسب عليها في تلك المحاسبة الكبرى، وهذه الآيات تحذر أيضاً من استصغار الذنوب الصغيرة، أو التهاون في أعمال الخير والصغيرة. فما يحاسب عليه الله سبحانه - مهما كان - ليس بقليل الأهمية. وحقاً، لو تدبر الإنسان في محتوى هذه الآية تكفيه دافعاً إلى طريق الخير وناهياً عن طريق الفساد والانحراف. «نهاية تفسير سورة الزلزلة»

(١) سورة لقمان / ١٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١٥

١٠٠. سورة العاديات

محتوى السورة وفضيلتها: هذه السورة تبدأ بالقسم بأمور محفزة محرّكة، ثم تتناول بعض مظاهر الضعف البشري كالكفر والبخل وحب الدنيا، ثم تشير السورة إلى مسألة المعاد وإحاطة الله بعباده.

في المجمع ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من بات بالمزدلفة، وشهد جمعاً».

وعن الإمام الصادق صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ والعاديات وأدمن قراءتها بعثه الله مع أمير المؤمنين عليه السلام يوم القيامة خاصة، وكان في حجره ورفقائه».

إنّ هذه الفضائل إنّما هي نصيب من جعل السورة منهاجاً لحياته وآمن بكلّ محتواها وعمل بها.

وَ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُعِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَ إِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكِ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَ حُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١٦

سبب النزول

في المجمع: قيل: نزلت السورة لما بعث النبي صلى الله عليه وآله علياً إلى ذات السلاسل فأوقع بهم. وذلك بعد أن بعث عليهم مراراً غيره من الصحابة فرجع كل منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو المروى عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل قال: وسميت هذه الغزوة ذات السلاسل لأنه أسر منهم، وقتل وسبى وشدّ أسراهم في الجبال مكتفين كأنهم في السلاسل. ولما نزلت السورة خرج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الناس، فصلى بهم الغداة وقرأ «والعاديات» فلما فرغ من صلاته قال أصحابه: هذه سورة لم نعرفها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «نعم إن علياً ظفر بأعداء الله وبشّرني بذلك جبرائيل عليه السلام في هذه الليلة». فقدم على عليه السلام بعد أيام بالغنائم والأسارى.

التفسير

قسماً بالمجاهدين الواعين: قلنا إنّ هذه السورة تبدأ بالقسم بأمور محفزة متبّهة، تقسم أولاً بالخيول الجارية المندفعة (إلى ميدان

الجهاد) وهى تحمحم وتنفس بشدة: «وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا».

ويمكن أن يكون القَسَم هذا بإبل الحجاج المتجهه من عرفات إلى المشعر الحرام، ومن المشعر الحرام إلى منى وهى تنفس بشدة. وهذا التفسير أنسب من عدّه جهات، وورد فى روايات المعصومين عليهم السلام أيضاً. «العاديات»: جمع عاديه، من «العدو» وهو المغادرة والإبتعاد بالقلب. فتكون «العداوة» أو بالحركة الخارجيه فيكون (العدو) وهو الركض، أو بالمعاملات فيسمى (العدوان). و «العاديات» فى الآيه هى الجاريات بسرعه. «الضبح»: صوت الخيل وهى تنفس بشدة عند الجرى. ثم يأتى القَسَم التالى بهذه العاديات التى تورى النيران بحوافرها: «فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا».

وهى خيل المجاهدين التى تجرى بسرعه فائقه فى ميدان القتال، بحيث تنقذ النار من تحت أرجلها جزاء احتكاك حوافرها بصخور الأرض.

أو هى الإبل التى تجرى بين مواقف الحج، فتطير الحصى والحجارة من تحت أرجلها وترطم بحصى وحجارة اخرى فتقذح النيران. «الموريات»: جمع «موريه» والإبراء يعنى أضرار النار.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١٧

«القدح»: ضرب الحجاره أو الخشب أو الحديد بما يشبه لتوليد النار.

والقسم الثالث بالثى تغير صباحاً على الأعداء: «فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا».

«المغيرات»: جمع «مغيره» والإغارة: الهجوم على العدو، وقيل إن الكلمه تتضمن معنى الهجوم بالخيل.

ثم تشير الآيه التالىة إلى سرعه هذه العاديات فى هجومها، وذلك ياثارتها الغبار فى كل جانب: «فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا».

أو أن الغبار يثور من كل صوب نتيجة هجوم إبل الحجاج من المشعر الحرام على منى.

«أثرن»: من الإثارة، وهى نشر الغبار والدخان فى الجو.

وفى آخر خصائص هذه «المغيرات» تذكر الآيه أنها ظهرت بين الإعداء فى الفجر:

«فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا».

هجومها كان مباغتاً خاطفاً بحيث استطاعت خلال لحظات أن تشق صفوف العدو وتشن حملتها فى قلبه، وتشتت جمعه. وهذا نتيجة ما

تتحلى به من سرعه ويقظه وإستعداد وشهامه وشجاعه.

أو إنها إشارة إلى ورود الحجاج من المشعر إلى قلب منى.

من هنا يتضح أن الجهاد له منزله عظيمه حتى أن أنفاس خيل المجاهدين استحكقت أن يقسم بها ... وهكذا الشرر المتطير من حوافر

هذه الخيول ... والغبار الذى تثيره فى الجو ...

نعم حتى غبار ساحة الجهاد له قيمه وعظمه.

ثم يأتى جواب القسم، ويقول سبحانه: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ».

نعم، الإنسان البعيد عن التريه الصحيحه ... والذى لم تشرق فى قلبه أنوار المعارف الإلهيه وتعاليم الأنبياء ... الإنسان الخاضع لأهوائه

وشهواته الجامحه هو حتماً كفور بالنعمه وبخيل ... إنه لكنود.

و «كنود»: اسم للأرض التى لا تثبت، وتطلق على الإنسان الكفور والبخيل أيضاً.

كلمه (الإنسان) فى مثل هذه الاستعمالات القرآنيه تعنى الأفراد المتطبعين على الشر والشهوات الجامحه والطغيان.

«وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ». فهو بصير بنفسه، وإن استطاع أن يخفى سريرته فلا يستطيع أن يخفيها عن الله وعن ضميره، اعترف بهذه الحقيقة أم لم يعترف.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١٨

«وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ». أى أنه شديد الحب للمال والمتاع.

إطلاق «الخير» على المال فى الآية يعود إلى أن المال فى حد ذاته شىء حسن، ويستطيع أن يكون وسيلة لأنواع الخيرات، لكن الإنسان الكنود يصرفه عن هدفه الأصلى، وينفقه فى طريق ذاتياته وأهوائه.

وفى استفهام استنكارى يقول سبحانه: «أَفَلَمْ يَعْلَمْ إِذَا بُعِثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ». «وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ». وانكشف ما فى نفسه من كفر وايمان، ورياء واخلاص وغرور وتواضع وسائر نيات الخير والشر.

«إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ». نعم، فهو عليم بأعمالهم ونياتهم وسيجازيهم وفقها.

«بعثر»: من «البعثرة» وهى البعث والإثارة والإخراج وبعثرة ما فى القبور، بعث الموتى واخراجهم من القبور.

«حُصِّلَ»: من التحصيل، وهو فى الأصل يعنى إخراج اللب من القشر، وكذلك تصفية المعادن، واستخراج الذهب وأمثاله من الخامات. ثم استعملت لمطلق الإستخراج والفصل.

والكلمة فى الآية تعنى فصل الخير عن الشر فى القلوب ... الإيمان عن الكفر، أو الصفات الحسنة عن الصفات السيئة ... أو النوايا الحسنة عن الخبيثة ... تُفصل فى ذلك اليوم وتظهر، وينال كل فرد حسب ذلك جزاؤه.

والتعبير بكلمة «يومئذ» يعنى أن الله (فى ذلك اليوم) خير بأعمال العباد وسرائرهم.

ونعلم أن الله سبحانه عليم دائماً بذات الصدور. فالتعبير «يومئذ» هو لأن ذلك اليوم يوم الجزاء، والله يجازيهم على أعمالهم وعقائدهم.

نعم، الله سبحانه عليم وخبير بأسرارنا وما تنطوى عليه نفوسنا كاملاً، لكن أثر هذا العلم سيكون أظهر وأوضح عند الجزاء، وهذا التحذير لو دخل دائرة إيمان البشر لكان سداً منيعاً بينهم وبين الذنوب.

«نهاية تفسير سورة العاديات»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥١٩

١٠١. سورة القارعة

محتوى السورة وفضيلتها: تناول هذه السورة بشكل عام، المعاد، ومقدماته، حيث تُصنّف الناس يوم القيامة، إلى صنفين أو جماعتين: الجماعة التى تكون أعمالها ثقيلة فى ميزان العدل الإلهى، فتحظى جزاءً بذلك، حياة راضية سعيدة فى جوار الرحمة الإلهية، وجماعة أعمالها خفيفة الوزن، فتعيش فى نار جهنم الحارة المحرقة.

وقد اشتق اسم هذه السورة، أى (القارعة) من الآية الاولى فيها.

فى المجمع عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «من قرأ القارعة آمنه الله من فتنة الدجال أن يؤمن به، ومن قبح جهنم يوم القيامة».

القَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٢٠

الحادثة القارعة: هذه الآيات تصف القيامة وتقول: «الْقَارِعَةُ» * مَا الْقَارِعَةُ».

«القارعة»: من القرع، وهو طرق الشيء بالشيء مع إحداث صوت شديد، وسميت كل حادثة هائلة صعبة بالقارعة. (تاء التانيث قد تكون إشارة للتأكيد).

الآية الثالثة تخاطب حتى النبي صلى الله عليه وآله وتقول له: «وَمَا أَدْرِيكَ مَا الْقَارِعَةُ». وهذا يدل على أن عظمة هذه الحادثة القارعة إلى درجة لا تخطر على فكر أحد.

أكثر المفسرين ذكروا أن «القارعة» أحد أسماء القيامة، ولكن لم يوضحوا هل أنه اسم لمقدمات القيامة إذ تفرع هذه الدنيا. أو إنه اسم للمرحلة التالية.. أي مرحلة احياء الموتى، وظهور عالم جديد، وتسميتها «القارعة»- في هذه الحالة- لما تبعته من خوف وذعر في القلوب..

ولكن الإحتمال الأول أنسب، وإن ذكرت الحادثتان كلاهما في هذه الآيات متتابعتين.

وفي وصف ذلك اليوم العجيب يقول سبحانه: «يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ».

والتشبيه بالفراش قد يكون لأن هذه الحشرات تلتقي بنفسها بشكل جنوني في النار، وهذا ما يفعله أهل السيئات إذ يلقون بأنفسهم في جهنم.

ثم تذكر الآية التالية وصفاً آخر لذلك اليوم وتقول: «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ».

و «العهن»: هو الصوف المصبوغ.

و «المنفوش»: هو المنشور ويتم ذلك عادة بألة الحلج الخاصة.

سبق أن ذكرنا أن القرآن الكريم في مواضع متعددة يتحدث عن الجبال عند قيام القيامة بأنها تتحرك أولاً، ثم تدك وتتلاشى وأخيراً تصبح بشكل غبار متطاير في السماء. وهذه الحالة الأخيرة تشبهها الآية بالصوف الملون المحلوج... الصوف المتطاير في مهبّ الريح، لم يبق منه إلا ألوان... وهذه آخر مراحل انهدام الجبال.

ثم تتطرق الآيات التالية إلى الحشر والنشر وإحياء الموتى وتقسيمهم إلى مجموعتين:

«فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ». أي إن ميزان عمله ثقيل. «فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرِيكَ مَا هِيَ نَارٌ حَامِيَةٌ» (١).

«موازين»: جمع ميزان، وهو وسيلة للوزن، تستعمل في وزن الأجسام، ثم استعملت في المعايير المعنوية.

(١) «ماهيته»: أصلها «ما هي»، والهاء الحقت بها للسكت.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٢١

وليس من الضروري أن يكون الميزان هو الآلة المعروفة ذات الكفتين، بل هو كل وسيلة لتقويم الوزن، كما ورد في الحديث: «إن أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليهم السلام هم الموازين» (١).

وفي احتجاج الطبرسي عن الصادق عليه السلام حين سئل عن معنى الميزان قال: «العدل».

وبهذا نفهم أن أولياء الله وقوانين العدل الإلهي هي موازين يعرض عليها الناس وأعمالهم ويتم قياس الوزن على مقدار الشبه والمطابقة.

واضح أن المقصود بثقل الموازين وخفتها هو ثقل الأشياء التي توزن بها وخفة تلك الأشياء.

كلمة «ام» في قوله: «فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ» تعني المأوى والملجأ، لأن «الام» هي مأوى ابنائها وملاذهم، ويكون معنى الآية: إن هؤلاء المذنبين الذين خفت موازينهم لا ملاذ لهم سوى جهنم، وويل لمن كان ملجؤه جهنم.

«نهاية تفسير سورة القارعة»

(١) تصحيح اعتقادات الإمامية، الشيخ المفيد/ ١١٥.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٢٣

١٠٢. سورة التكاثر

محتوى السورة: هذه السورة تتناول في مجموعها تفاخر الأفراد على بعضهم استناداً إلى مسائل موهومة، وتذم ذلك وتلوم عليه، ثم تحذرهم من حساب المعاد وعذاب جهنم ومما سيسألون يوم ذاك عن النعم التي من الله بها عليهم.

وقد اشتق اسم هذه السورة، أي (التكاثر) من الآية الاولى فيها.

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع ابي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأها لم يحاسبه الله بالنعيم الذي أنعم عليه في دار الدنيا، واعطى من الأجر كأنما قرأ ألف آية».

إن كل هذا الثواب إنما هو لمن يقرأها ولمن يطبقها في برنامج حياته ويتفاعل معها روحياً ونفسياً.

أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٢٤

سبب النزول

المفسرون يعتقدون أن السورة نزلت في قبائل كانت تتفاخر على بعضها بكثرة الأموال والأنفس حتى أنها كانت تذهب إلى المقابر وتعد موتاهم لترفع احصائية أفراد القبيلة.

سبب النزول - مهما كان - فهو لا يحد قطعاً معنى الآية.

التفسير

بلاء التكاثر والتفاخر: الآيات الاولى توجه اللوم إلى المتكاثرين المتفاخرين وتقول:

«أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ». في الأنفس والأموال.

حتى إنكم ذهبتم إلى المقابر لتستكثروا أفراد قبيلتكم: «حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ».

«ألهاكم»: من «اللهو» وهو الإنشغال بالأعمال الصغيرة والإنصراف عن المهام الكبيرة؛ و «التكاثر»: يعني التفاخر والمباهاة.

«زرتم»: من الزيارة و «زور» (على وزن قول) في الأصل بمعنى أعلى الصدر، ثم استعمل للقاء والمواجهة؛ «المقابر»: جمع مقبرة، وهي

مكان دفن الميت. وزيارة المقابر إما أن تكون كناية عن الموت، أو بمعنى الذهاب إلى المقابر وإحصاء الموتى بهدف التكاثر في

الأنفس والتفاخر بالعدد (حسب التفسير المشهور).

والمعنى الثاني أصح، وأحد شواهد كلام لأمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام - في الخطبة (٢٢١) نهج البلاغة - قاله بعد

تلاوته: «أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» «يا له مرأماً أبعده! وزوراً ما أغفله! وخطراً ما أفضعه! لقد استخلوا منهم أى مدكر وتناوشوهم

من مكان بعيد! أقبصارع آباءهم يفخرون! أم بعديد الهلكى يتكاثرون! يرتجعون منهم أجساداً خوت، وحرركات سكنت. ولأن يكونوا

عبراً أحق من أن يكونوا مفتخراً».

الآيات التالية فيها تهديد شديد لهؤلاء المتكاثرين، تقول: «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ».

فليس الأمر كما ترون، وبه تتفاخرون، بل سوف تعلمون عاجلاً نتيجة هذا التكاثر الموهوم.

لمزيد من التأكيد يقول سبحانه: «ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ».

وفى المجمع عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ألهاكم التكاثر، إلى قوله: كلاً سوف تعلمون، يريد في القبر، ثم كلاً سوف تعلمون، بعد البعث».

«كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ». كلاً ليس الأمر كما تظنون أيها المتفخرون المتكاثرون.

فلو أنكم تعلمون الآخرة علم اليقين، لما اتجهتم إلى التفاخر والمباهاة بهذه المسائل الباطلة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٢٥

ولمزيد من التأكيد والإنذار تقول لهم الآيات التالية:

«لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوْهَا غَيْرَ الْيَقِينِ». «ثُمَّ لَتَسَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ».

في ذلك اليوم عليكم أن توضحوا كيف انفقتم تلك النعم الإلهية؛ وهل استخدمتموها في طاعة الله أم في معصيته، أم أنكم ضيعتم النعمة ولم تؤدوا حقها.

إن النعيم له معنى واسع جداً يشمل كل المواهب الإلهية المعنوية منها مثل: الدين والإيمان والإسلام والقرآن والولاية، وأنواع النعم المادية الفردية منها والاجتماعية. بيد أن النعم التي لها أهمية أكبر مثل: نعمه «الإيمان والولاية» يُسأل عنها أكثر، هل أدى الإنسان حقها أم لا؟

بحثن

١- منبع التفاخر والتكاثر: من آيات السورة يتبين أن أحد العوامل الأساسية للتفاخر والتكاثر والمباهاة، هو الجهل بجزء الآخرة وعدم الإيمان بالمعاد.

كما أن جهل الإنسان بضعفه ومسكته ... بدايته ونهايته ... من العوامل الأخرى الباعثة على الكبر والغرور والتفاخر.

ثم عامل آخر لهذه الظاهرة هو الإحساس بالضعف وعقدة الحقارة الناتجة عن الفشل.

والأفراد الفاشلون من أجل أن يغطوا على فشلهم يلجأون إلى الفخر والمباهاة، ولذلك في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما من رجل تكبر أو تجبر إلا لذلته وجدها في نفسه».

٢- اليقين ومراحلها: «اليقين» يقابل «الشك». ويستفاد من الروايات أن اليقين هو أعلى مراحل الإيمان، وهي ثلاثة:

(أ) علم اليقين: وهو الذي يحصل للإنسان عند مشاهدته للدلائل المختلفة، كأن يشاهد دخاناً فيعلم علم اليقين أن هناك ناراً.

(ب) عين اليقين: وهو يحصل حين يصل الإنسان إلى درجة المشاهدة كأن يرى بعينه مثلاً النار.

(ج) حق اليقين: وهو كأن يدخل الإنسان النار بنفسه ويحس بحرقتها، ويتصف بصفاتها.

وهذه أعلى مراحل اليقين؛ وهو في الحقيقة مؤلف من علمين، العلم بالمعلوم والعلم بأن خلاف ذلك العلم محال.

«نهاية تفسير سورة التكاثر»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٢٧

١٠٣. سورة العصر

محتوى السورة: شمولية هذه السورة تبلغ درجة حدث ببعض المفسرين إلى أن يرى فيها خلاصة كل مفاهيم القرآن وأهدافه.

تبدأ السورة من قسم عميق المحتوى بالعصر. ثم تتحدث عن خسران كل أبناء البشر خسراناً قائماً في طبيعة حياتهم التدريجية، ثم تستثنى مجموعة واحدة من هذا الأصل العام، وهي التي لها منهج ذو أربع مواد:

الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وهذه الاصول الأربعة هي في الواقع المنهج العقائدي والعملية الفردية والاجتماعية للإسلام.

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ والعصر في نوافله بعثه الله يوم القيامة مشرقاً وجهه، ضاحكاً سنّه، قريه عينه، حتى يدخل الجنة».

إنّ هذه الفضائل وهذه البشرية نصيب من طبق الاصول الأربعة المذكورة في حياته، لا أن يقنع فقط بقراءتها. وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ (٣) مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٢٨

في بدايه هذه السورة نواجه قسماً قرآنياً جديداً. يقول سبحانه: «وَالْعَصْرِ».

«العصر»: في الأصل الضغط، وإنما اطلق على وقت معين من النهار لأنّ الأعمال فيه مضغوطة. ثم اطلقت الكلمة على مطلق الزمان ومراحل تاريخ البشرية، أو مقطع زمانى معين، كأن نقول عصر صدر الإسلام.

قيل: إنّه كل الزمان وتاريخ البشرية المملوء بدروس العبرة، والأحداث الجسيمة. وهو لذلك عظيم يستحق القسم الإلهي.

بعضهم قال: إنّه مقطع خاص من الزمان مثل عصر البعثة النبوية المباركة، أو عصر قيام المهدي المنتظر عليه السلام، وهي مقاطع زمنية ذات خصائص متميزة وعظمة فائقه في تاريخ البشر.

والقسم في الآية إنّما هو بتلك الأزمنة الخاصة.

ولكن الأنسب فيها هو القسم بالزمان وتاريخ البشرية، لأنّ القسم القرآني - كما ذكرنا مراراً - يتناسب مع الموضوع الذي أقسم الله من أجله ومن المؤكّد أنّ خسران الإنسان في الحياة ناتج عن تصرّم عمره، أو أنّه عصر بعثه الرسول صلى الله عليه وآله، لأنّ المنهج ذا المواد الأربع في ذيل هذه السورة نزل في هذا العصر.

الآية التالية تحمل الموضوع الذي جاء القسم من أجله. يقول سبحانه: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ».

الإنسان يخسر ثروته الوجودية شاء أم أبى. تمرّ الساعات والأيام والأشهر والأعوام من عمر الإنسان بسرعة، تضعف قواه المادية والمعنوية، تتناقص قدرته باستمرار.

القلب له قدرة معينة على الضربان، وحين تنفذ هذه القدرة يتوقف القلب تلقائياً دون علّة من عيب أو مرض، هذا إذا لم يكن توقف الضربان نتيجة مرض، وهكذا سائر الأجهزة الوجودية للإنسان، وثورات قدراته المختلفة.

إنّ الدنيا في المنظور الإسلامى سوق تجارة، كما يقول الإمام على بن محمّد الهادى عليه السلام:

«الدنيا سوق، ربح فيها قوم وخسر آخرون» (١).

الآية الكريمة التي نحن بصدها تقول: كل الناس في هذه السوق الكبرى خاسرون إلّا مجموعة تسير على المنهج الذي تبينه الآية التالية.

(١) تحف العقول / ٤٨٣.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٢٩

نعم، هناك طريق واحد لا غير لتفادى هذا الخسران العظيم القهري الإجبارى، وهو الذى تبينه آخر آيات هذه السورة.

«إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ».

بحث

منهج السعادة ذو المواد الأربع: من المهم أن نقف ولو قليلاً عند المنهج الذى وضعه القرآن الكريم للنجاة من ذلك الخسران ... إنّه منهج يتكون من أربعة اصول هي:

الأصل الأوّل: «الإيمان» وهو البناء التحتى لكل نشاطات الإنسان، لأنّ فعاليات الإنسان العملية تنطلق من اسس فكره واعتقاده، لا

كالحيوانات المدفوعة في حركاتها بدافع غريزي.

بعبارة اخرى: أعمال الإنسان بلورة لعقائده وأفكاره، ومن هنا فإن جميع الأنبياء بدأوا قبل كل شيء باصلاح الاسس الاعتقادية للأمم والشعوب، وحاربوا الشرك بشكل خاص باعتباره أساس أنواع الرذائل والشقاوة والتمزق الإجتماعي.

الأصل الثاني: «العمل الصالح» وهو ثمرة دوحه الإيمان. تقول الآية: «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» لا العبادات فحسب، ولا الإنفاق في سبيل الله وحده، ولا الجهاد في سبيل الله فقط، ولا الإكتفاء بطلب العلم ... بل كل الصالحات التي من شأنها أن تدفع إلى تكامل النفوس وتربية الأخلاق والقرب من الله، وتقدم المجتمع الإنساني.

ولما كان الإيمان والعمل الصالح لا يكتب لهما البقاء إلأفى ظل حركة اجتماعية تستهدف الدعوة إلى الحق ومعرفته من جهة، والدعوة إلى الصبر والإستقامة على طريق النهوض باعباء الرسالة، فإن هذين الأصلين تبعهما أصلان آخران هما في الحقيقة ضمان لتنفيذ أصلى «الإيمان» و «العمل الصالح».

الأصل الثالث: «التواصى بالحق» أى الدعوة العامة إلى الحق، ليميز كل أفراد المجتمع الحق من الباطل، ويضعوه نصب أعينهم، ولا ينحرفون عنه في مسيرتهم الحياتية.

الأصل الرابع: «التواصى بالصبر» والاستقامة، إذ بعد الإيمان والحركة في المسيرة الإيمانية تبرز في الطريق العوائق والموانع والسرور. وبدون الاستقامة والصبر لا يمكن المواصلة في إحقاق الحق والعمل الصالح والثبات على الإيمان.

نعم، إحقاق الحق في المجتمع لا يمكن من دون حركة عامة وعزم اجتماعي، ومن دون

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٣٠

الإستقامة والوقوف بوجه ألوان التحديات.

«الصبر» هنا يحمل مفهوماً واسعاً يشمل الصبر على الطاعة، والصبر على دوافع المعصية، والصبر إزاء المصائب والحوادث المرّة، وفقدان الإمكانات والثروة والثمرات.

والمسلمون اليوم إذا طبقوا هذه الاصول الأربعة في حياتهم الفردية والاجتماعية لتغلبوا على كل ما يعانون منه من مشاكل وتدهور وتخلف، ولبدلوا ضعفهم وهزيمتهم انتصاراً، ولاقتلعوا شرّ الأشرار من على ظهر الأرض.

«نهاية تفسير سورة العصر»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٣١

١٠٤. سورة الهمزة

محتوى السورة: هذه السورة تتحدث عن اناس كرسوا كل همهم لجمع المال، وحصروا كل قيم الإنسان الوجودية في هذا الجمع. ثم هم يسخرون من الذين لا يملكون المال وبهم يستهزئون.

السورة تتحدث في النهاية عن المصير المؤلم الذى ينتظر هؤلاء، وكيف أنّهم يلقون في جهنم صاغرين، وأنّ نار جهنم تتجه بلظاها أولاً إلى قلوبهم المليئة بالكبر والغرور، وتحرقها بالنار، بنار مستمرة.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع ابى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من استهزأ بمحمد وأصحابه».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ ويل لكل همزة فى فريضه من فرائضه، نفت عنه الفقر و جلبت عليه الرزق وتدفع عنه ميتة السوء».

وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ

(٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩)

مختصر الامثال، ج ٥، ص: ٥٣٢

سبب النزول

في المجمع: قيل: إن الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان يغتاب النبي صلى الله عليه وآله من ورائه صلى الله عليه وآله ويطعن عليه في وجهه.

وقيل: نزلت في الأحنس بن شريق الثقفي، وكان يلزم الناس ويغتابهم.

ولكن، إن قبلنا أسباب النزول هذه فلا ينفي ذلك شمولية مفاهيم الآيات، بل إنها تستوعب كل الذين يحملون هذه الصفات.

التفسير

الويل للهـمازين واللمـيازين: تبدأ هذه السورة بتهديد قارع وتقول: «وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ»... لكل من يستهزئ بالآخرين، ويعيبهم، ويغتابهم، ويطعن بهم، بلسانه وحر كاته وبيده، وعينه وحاجبه.

«الهمزة» و«اللمزة»: صيغتا مبالغة. من مجموع آراء اللغويين في الكلمتين يستفاد أنهما بمعنى واحد، ولهما مفهوم واسع يشمل كل ألوان إصاق العيوب بالناس وغيتهم والظعن والإستهزاء بهم، باللسان والإشارة والنميمة والذم.

أساساً، الإسلام ينظر إلى شخصية الإنسان وكرامته باحترام بالغ، ويعد أي عمل يؤدي إلى إهانة الآخرين ذنباً كبيراً. وفي أمالي الصدوق عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «أذل الناس من أهان الناس».

وفي عوالي اللثالي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «رأيت ليلة الإسراء قوماً يقطع اللحم من جنوبهم ثم يلقمونه، ويقال: كلوا ما كنتم تأكلون من لحم أخيكم. فقلت: يا جبرئيل من هؤلاء؟

فقال: هؤلاء الهمازون من أمتك للمازون».

ثم تذكر الآية التالية منع ظاهرة اللمز والهمز في الأفراد، وترى أنها تنشأ غالباً من كبر وغرور ناشئين بدورهما من تراكم الثروة لدى هؤلاء الأفراد، وتقول: «الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ» بطريق مشروع أو غير مشروع.

فهو انشد بالمال انشداداً جعله منشغلاً دائماً بعد المال والالتذاذ ببريق الدرهم والدينار.

تحول الدرهم والدينار عنده إلى وثن ويرى فيه شخصيته وينظر من خلاله أيضاً إلى شخصية الآخرين، ومن الطبيعي أن يكون تعامل مثل هذا الإنسان الضال الأبله بالسخرية والإستهزاء مع المؤمنين الفقراء.

«عدده»: من (عد) بمعنى حسب. هذه الآية تقصد الذين يدخرون الأموال ولا ينظرون

مختصر الامثال، ج ٥، ص: ٥٣٣

إليها باعتبارها وسيلة بل هدفاً، ولا يحدّهم قيد أو شرط في جمعها، حتى ولو كان من طريق الحرام والإعتداء على حقوق الآخرين وارتكاب كل دينية ورذيلة، ويعتبرون ذلك دليلاً على عظمتهم وشخصيتهم.

هؤلاء لا يريدون المال لسد حاجاتهم الحياتية، ولذلك يزداد حرصهم على جمع المال كلما كثرت أموالهم، وإلا فإن المال في الحدود المعقولة ومن الطرق المشروعة ليس بمذموم، بل إن القرآن الكريم عبّر عنه في موضع بأنه «فضل الله»؛ حيث يقول تعالى في

الآية (١٠) من سورة الجمعة: «وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ».

وفي موضع آخر يسميه خيراً، كقوله سبحانه في الآية (١٨٠) من سورة البقرة: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا خَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ».

مثل هذا المال ليس بالتأكيد مبعث طغيان، ولا وسيلة تفاخر، ولا دافع سخرية بالآخرين، لكن المال الذي يصبح معبوداً وهدفاً نهائياً، ويدعو أصحابه من أمثال «قارون» إلى الطغيان، هو العار والذلة والمأساة ومبعث البعد عن الله والخلود في النار.

ومثل هذا المال لا يمكن جمعه وعده إلا بالسقوط في أحوال الحرام. في الخصال عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: «لا يجتمع المال إلا بخصال خمس: ببخل شديد، وأمل طويل، وحرص غالب، وقطيعة الرحم، وإيثار الدنيا على الآخرة». في الآية التالية يقول سبحانه: «يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ».

ما أتفه هذا التفكير! قارون بكل ما كان يملكه من كنوز لا تستطيع العصبية أولو القوّة أن تحمل مفاتيحها، لم يستطع أن يستخدم أمواله لتأخير مصيره الأسود ساعة واحدة:

«فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ» (١).

الأموال التي كان يمتلكها الفراعنة: «مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ» (٢)، تحولت في ساعة إلى غيرهم: «كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ» (٣).

لذلك فإن هؤلاء اللاهين بأموالهم، حين تزول من أمام أعينهم الحجب والأستار يوم القيامة يرفعون عقيرتهم بالقول: «مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ» (٤).

من هنا يتبين أن الظن بقدره المال على الإخلاء، هو الذي يدفع إلى جمع المال، وجمع المال

(١) سورة القصص / ٨١.

(٢) سورة الدخان / ٢٥ - ٢٧.

(٣) سورة الدخان / ٢٨.

(٤) سورة الحاقة / ٢٨ و ٢٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٣٤

مختصر الامثل ج ٥، ص ٥٧٥

أيضاً عامل على الإستهزاء والسخرية بالآخرين عند هؤلاء الغافلين.

القرآن الكريم يردّ على هؤلاء ويقول: «كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ». كلاً، ليس الأمر كما يتصور، فسرعان ما يقذف باحتقار وذلة في نار محطمة «وَمَا أَدْرِيكَ مَا الْحُطَمَةُ» نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ* الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئَةِ».

«لينبذن»: من نبذ، أي رمى الشيء لتفاهة قيمته.

أي إن الله سبحانه يرمى هؤلاء المغرورين المتعاليين يوم القيامة في نار جهنم كموجودات تافهة لا قيمة لها، ليروا نتيجة كبرهم وغرورهم.

«الخطمة»: صيغة مبالغة من «حطم» أي هشم. وهذا يعنى أن نار جهنم تهشم أعضاء هؤلاء.

عبارة «نار الله» دليل على عظمة هذه النار؛ و «الموقدة» تعنى استعارها المستمر.

والعجيب أن هذه النار ليست مثل نار الدنيا التي تحرق الجلد أولاً ثم تنفذ إلى الداخل، بل هي تبعث بلهبها أولاً إلى القلب، وتحرق الداخل وتبدأ أولاً بالقلب ثم بما يحيطه، ثم تنفذ إلى الخارج.

لماذا لا تكون كذلك، وقلوب هؤلاء الطاغين مركز للكفر والكبر والغرور، وبؤرة حب الدنيا والثروة والمال؟!

إنهم في هذه الدنيا احرقوا قلوب المؤمنين بسخريتهم وهمزهم ولمزهم؟! العدالة الإلهية تقتضى أن يرى هؤلاء جزاء يشبه أعمالهم.

الآيات الأخيرة من السورة تقول: «إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ* فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ».

و «موصدة»: من الإيصاد، بمعنى الأحكام في غلق الباب.

هؤلاء يقبعون في غرف تعذيب مغلقة الأبواب لا طريق للخلاص منها، كما كانوا يجمعون أموالهم في الخزانات المغلقة الموصدة.

جمع من المفسرين قال: إنها الأوتاد الحديدية العظيمة التي تغلق بها أبواب جهنم حتى لم يعد هناك طريق للخروج منها أبداً، وهي بذلك تأكيد على الآية السابقة التي تقول: «إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ».

«نهاية تفسير سورة الهمزة»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٣٥

١٠٥. سورة الفيل

محتوى السورة: هذه السورة - كما يظهر من اسمها - تشير إلى الحادثة التاريخية التي اقترنت بولادة رسول الله صلى الله عليه وآله، وفيها نجى الله سبحانه الكعبة من شر جيش كافر كبير تجهز من اليمن ممتطياً الفيل.

التذكير بهذه القصة فيه تحذير للكفار المغرورين المعاندين، كي يفهموا ضعفهم تجاه قدرة الله تعالى الذي أباد جيشاً عظيماً بطير أبايل تحمل حجارة من سجيل، وهو سبحانه إذن قادر على أن يعاقب هؤلاء المستكبرين المعاندين.

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع: أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ في الفريضة «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ» شهد له يوم القيامة كل سهل وجبل ومدبر بأنه كان من المصلين، وينادي يوم القيامة مناد: صدقتم على عبدى، قبلت شهادتكم له، أو عليه. أدخلوا عبدى الجنة، ولا تحاسبوه فإنه ممن احببه واحب عمله».

إن هذه الفضائل وهذا الثواب لمن كانت قراءته باعثاً على انكسار روح الغرور في نفسه، وعلى السير في طريق رضا الله سبحانه.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٣٦

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَزِمِيهِمْ بِحِجَارِهِ مِنْ سَجِيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) قصة أصحاب الفيل: ذكر المفسرون والمؤرخون: إن «ذو نواس» ملك اليمن اضطهد نصارى نجران قرب اليمن كي يتخلوا عن دينهم (ذكر القرآن قصة هذا الاضطهاد في موضوع أصحاب الأخدود في سورة البروج).

بعد هذه الجريمة نجا من بين النصارى رجل اسمه (دوس) وتوجه إلى قيصر الروم الذي كان على دين المسيح، وشرح له ما جرى. ولما كانت المسافة بين الروم واليمن بعيدة، كتب القيصر إلى النجاشي (حاكم الحبشة) لينتقم من (ذو نواس) لنصارى نجران، وارسل الكتاب بيد القاصد نفسه.

جهز النجاشي جيشاً عظيماً يبلغ سبعين ألف محارب بقيادة (أرباط) ووجهه إلى اليمن، وكان (أبرهة) أيضاً من قواد ذلك الجيش. اندحر (ذو نواس) وأصبح (أرباط) حاكماً على اليمن، وبعد مدة ثار عليه أبرهة وأزاله من الحكم وجلس في مكانه. بلغ ذلك النجاشي، فقرر أن يقمع (أبرهة). لكن أبرهة أعلن استسلامه الكامل للنجاشي ووفاءه له. حين رأى النجاشي منه ذلك عفا عنه وأبقاه في مكانه.

و (أبرهة) من أجل أن يثبت ولاءه، بنى كنيسة ضخمة جميلة غاية الجمال، لا يوجد على ظهر الأرض مثلها آنذاك، وقرر أن يدعو أهل الجزيرة العربية لأن يحجوا إليها بدل (الكعبة)، وينقل مكانة الكعبة إلى أرض اليمن.

أرسل أبرهة الوفود والدعاة إلى قبائل العرب في أرض الحجاز، يدعونهم إلى حج كنيسة اليمن. تذكر بعض الروايات أن مجموعة من العرب جاؤوا خفية وأضرموا النار في الكنيسة، وقيل إنهم لوثوها بالقاذورات، ليعبروا عن اعتراضهم على فعل أبرهة ويهينوا معبده.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٣٧

غضب أبرهة وقرر أن يهدم الكعبة هدماً كاملاً، للانتقام ولتوجيه أنظار العرب إلى المعبد الجديد، فجهز جيشاً عظيماً كان بعض أفراده يمتطي الفيل، واتجه نحو مكة.

عند اقترابه من مكة بعث من ينهب أموال أهل مكة، وكان بين النهب مائتا بعير لعبد المطلب.

بعث (أبرهة) قاصداً إلى مكة. جاء رسول أبرهة إلى مكة وبحث عن شريفها فدلوه على عبد المطلب، فحدثه بحديث أبرهة، فقال عبد المطلب، نحن لا طاقة لنا بحربكم، وللبيت ربّ يحميه.

وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه [فتزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه، وأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثم قال لترجمانه: قل له: حاجتك فقال له ذلك الترجمان فقال: حاجتي أن يرد على الملك مئتي بعير أصابها لي فلما قال ذلك قال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آباءك قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه؟!]

قال له عبد المطلب: إني أنا ربّ الإبل، وإنّ للبيت ربّ سيمعنه... فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التي أصاب له.

فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرز في شعف الجبال، والشعاب، تخوفاً عليهم من معرة الجيش ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده فقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هُمّ إنَّ العبد يمنع رحله فامنع حلالك لا يغلبن صليهم ومحالمهم عدواً محالك

إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك

قال ابن اسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها.

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهياً فيله وعبي جيشه وكان اسم الفيل محموداً، وأبرهة مجمع لهدم البيت، ثم الانصراف إلى اليمن. فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب [الختعمي حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ باذنه فقال: أبرك محمود، أو ارجع راشداً]

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٣٨

من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام، ثم أرسل اذنه، فبرك الفيل، وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم، فأبى، فضربوا رأسه بالطبرزين [ليقوم فأبى، فأدخلوا محاجن لهم في مرقه فبزغوه بها ليقوم فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك، فأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلاهلك.

وقيل: إن الحجر كان يسقط على الرجل منهم فيخترقه ويخرج من الجانب الآخر.

(أبرهة) أصيب بحجر، وجرح، فاعيد إلى صنعاء عاصمته ملكه، وهناك فارق الحياة.

وقيل: إن مرض الحصبة والجدرى شوه لأول مرة في أرض العرب في تلك السنة.

وفي هذا العام ولد رسول الله صلى الله عليه وآله حسب الرواية المشهورة، وقيل إن بين الحادثتين إرتباطاً.

إن أهمية هذه الحادثة الكبرى بلغت درجة تسميه ذلك العام بعام الفيل، وأصبح مبدأ تاريخ العرب «١».

التفسير

كيد أبرهة: يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وآله في الآية الاولى من السورة ويقول له: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ». «أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ». لقد استهدفوا الكعبة ليهدموها وليقيموا بدلها كعبة اليمن، وليدعوا قبائل العرب إلى حج هذا المعبد

الجديد، لكنّه سبحانه حال دون تحقق هدفهم، بل زاد الكعبة شهرةً وعظمةً بعد أن ذاع نبأ أصحاب الفيل في جزيرة العرب، وأصبحت قلوب المشتاقين تهوى إليها أكثر من ذي قبل، وأسبغ على هذه الديار مزيداً من الأمن.

كيدهم إذن صار في تضليل، أي في ضلال حيث لم يصلوا إلى هدفهم.
ثم تشرح الآيات التالية بعض جوانب الواقعة: «وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ».

(١) سيرة النبي صلى الله عليه وآله لابن هشام الحميري ١/ ٢٨؛ وبحار الأنوار ١٥/ ٧٠ و ١٣٠؛ ومجمع البيان ١٠/ ٤٤٢.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٣٩

عبارة «طيراً أبابيل» تعنى طيراً على شكل مجموعات، والمشهور أنّ هذه الطير كانت تشبه الخطاطيف قدمت من صوب البحر الأحمر في اتجاه أصحاب الفيل.

«تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ» (١).

«فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ».

و «العصف»: هو النبات الجاف المتهشم، أي هو (التبن) بعبارة اخرى.

وتعبير «مأكول» إشارة إلى أنّ هذا التبن قد سحق مرّة اخرى بأسنان الحيوان، ثم هشم ثلثه في معدته، وهذا يعنى أنّ أصحاب الفيل، قد تلاشوا بشكل كامل عند سقوط الحجارة عليهم.

وفي هذا السورة تحذير وإنذار لكل الطغاة والمستكبرين في العالم، ليعلموا مدى ضعفهم أمام قدرة الله سبحانه.

«نهاية تفسير سورة الفيل»

(١) «سجّيل»: كلمه فارسيه مأخوذة من دمج كلمتين هما «سنگ» و «گل»؛ وتعنى الطين المتحجر.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٤١

١٠٦. سورة قريش

محتوى السورة: هذه السورة مكمله لسورة الفيل، وآياتها تدل على ذلك. تتضمن هذه السورة بيان نعمة الله على قريش ولطفه لهم

ومحبته له، كى يحرك فيهم دافع الشكر ويحثهم على عبادة ربّ هذا البيت العظيم الذى يستمدون منه كل مفاخرهم وشرفهم.

وكما إنّ سورة «الضحى» وسورة «الشرح» تعتبران سورة واحدة كذلك سورة «الفيل» وسورة «قريش» هما سورة واحدة، وإرتباط موضوعهما يدل على ذلك أيضاً.

ولذلك وجب قراءتهما معاً فى الصلاة لمن يرى وجوب قراءة سورة كاملة بعد الحمد.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع ابى بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها».

هذه الفضيلة دون شك لمن عبد ربّ البيت حق عبادته، وصان حرمة البيت كما يجب، وتشربت نفسه برسالة هذا المركز التوحيدى.

لِيَلْأَفِ قُرَيْشٍ (١) إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٤٢

فى سورة الفيل جاء ذكر إبادة أصحاب الفيل الذين جاؤوا لهدم الكعبة وهذه السورة التى تعتبر امتداداً للسورة السابقة تقول: نحن جعلنا أصحاب الفيل كعصف مأكول:

«لِيلَيْفِ قُرَيْشٍ». أى لكى تأتلف قريش فى هذه الأرض المقدسة وتتهيا بذلك مقدمات ظهور نبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

«إيلاف»: مصدر آلف، و «آلفه» أى جعله يألف، أى جعله يجتمع اجتماعاً مقروناً بالانسجام والانس والإلتيام.

والمقصود إيجاد الالفه بين قريش وهذه الأرض المقدسة وهى مكة والبيت العتيق، لأنهم وكل أهل مكة إختاروا السكن فى هذه الأرض لمكانتها وأمنها. كثير من أهل الحجاز كانوا يحجون البيت كل سنة، ويقترن حجهم بنشاط أدبى واقتصادى فى هذا البلد الأمين.

كل ذلك كان يحدث فى ظل الجو الآمن، ولو أن هذا الأمن قد انعدم أو أن الكعبة قد انهدمت بفعل هجوم أبرهه وأمثاله لما كان لأحد الفة بهذه الأرض.

«إيلفهم رحلة الشتاء والصيف».

مكة تقع فى واد غير ذى زرع، والرعى فيها قليل، لذلك كانت عائدات أهل مكة غالباً من قوافل التجارة، فى فصل الشتاء يتجهون إلى أرض اليمن فى الجنوب حيث الهواء معتدل، وفى فصل الصيف إلى أرض الشام فى الشمال حيث الجو لطيف. والشام واليمن كانا من مراكز التجارة آنذ، ومكة والمدينة حلقتا اتصال بينهما. هذه هى رحلة الشتاء ... ورحلة الصيف.

والمقصود ب «إيلافهم» فى الآية أعلاه قد يكون جعلهم يألفون الأرض المقدسة خلال رحلاتهم وينشدون إليها لما فيها من أمن، كى لا تغريهم أرض اليمن والشام، فيسكنون فيها ويهجرون مكة.

وقد يكون المقصود إيجاد الالفه بينهم وبين سائر القبائل طوال مدة الرحلتين، لأن الناس بدأوا ينظرون إلى قوافل قريش باحترام ويعيرونها أهمية خاصة بعد قصة اندحار جيش أبرهه.

قريش لم تكن طبعاً مستحقة لكل هذا اللطف الإلهى لما كانت تقترفه من آثام، لكن الله لطف بهم لما كان مقدراً للإسلام والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله أن يظهر من هذه القبيلة وتلك الأرض المقدسة.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٤٣

الآية الاخيرة تقول: إن هذه النعم الإلهية التى أغدقت على قريش ببركة الكعبة يجب أن تدفعهم إلى عبادة رب البيت لا الأوثان. «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ». «الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَعَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ» ... الذى جعل تجارتهم رائجة مريحة ومربحة، ودفع عنهم الخوف والضرر، كل ذلك باندحار جيش أبرهه، وبفضل دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام مؤسس الكعبة. لكنهم لم يقدروا هذه النعمة، فبدلوا البيت المقدس بيت للأوثان، وذاقوا فى النهاية وبال أمرهم.

«نهاية تفسير سورة قريش»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٤٥

١٠٧. سورة الماعون

محتوى السورة: هذه السورة بشكل عام تذكر صفات وأعمال منكرى القيامة فى خمس مراحل، فهؤلاء نتيجة لتكذيبهم بذلك اليوم، لا ينفقون فى سبيل الله وعلى طريق مساعدة اليتامى والمساكين، ثم هم يتساهلون فى الصلاة، ويعرضون عن مساعدة المحتاجين.

وفى المجمع: قيل: نزلت فى أبى سفيان بن حرب كان ينحر فى كل أسبوع جزورين فأتاه يتيم فسأله شيئاً ففرعه بعصاه.

فضيلة تلاوة السورة: فى المجمع عن الباقر عليه السلام قال: «من قرأ «أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالذِّينِ» فى فرائضه ونوافله قبل الله صلته وصيامه، ولم يحاسبه بما كان منه فى الحياة الدنيا».

أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالذِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِى يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَ لَّا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ

صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٤٦

إنكار المعاد وآثاره المشؤومة: هذه السورة المباركة تبدأ بسؤال موجه للنبي صلى الله عليه وآله عن الآثار المشؤومة لإنكار المعاد وتقول: «أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ».

وتجيب عن السؤال: «فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ وَلَا يَخُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ».

«الدين» هنا «الجزاء» أو يوم الجزاء، وإنكار يوم الجزاء له عواقبه الوخيمة وانعكاسات على أعمال الإنسان، وفي هذه السورة ذكرت خمسة آثار لهذا الإنكار منها: «طرد اليتيم، وعدم الحث على إطعام المسكين»، أى إن الشخص المنكر للمعاد لا يطعم المساكين، ولا يدعو الآخرين إلى إطعامهم.

«يدع»: أى يدفع دفعاً شديداً، ويطرد بخشونة.

و «يخض»: أى يحرض ويرغب الآخرين على شىء.

ويتواصل وصف هؤلاء المكذبين بالدين فتقول الآيات التالية: «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ».

لا يقيمون للصلاة وزناً، ولا يهتمون بأوقاتها، ولا يراعون أركانها وشروطها وآدابها.

الصفة الرابعة والخامسة للمكذبين بالدين تذكرها الآيتان الأخيرتان: «الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ».

المجتمع الذى يتعود على الرياء لا يبتعد عن الله وعن الأخلاق الحسنة والملكات الفاضلة فحسب، بل تصبح كل برامج الجماعة فارغة خالية المحتوى، لا تتعدى مجموعة من المظاهر، وإنها لمأساء أن يكون مصير الفرد ومصير المجتمع بهذا الشكل.

من المؤكد أن أحد عوامل التظاهر والرياء عدم الإيمان بيوم القيامة، وعدم الرغبة بالثواب الإلهي. وإلا كيف يمكن للإنسان أن يترك مثوبة الله ويتجه إلى الناس ليتزلف إليهم.

«الماعون»: من «المعن» وهو الشىء القليل. وكثير من المفسرين قالوا: إن المقصود من «الماعون» الأشياء البسيطة التى يستعيرها أو يقتنيها الناس وخاصة الجيران من بعضهم، مثل حفنة الملح، والماء، والنار (الثقاب)، والأواني وأمثالها.

واضح أن الذى يبخل فى إعطاء مثل هذه الأشياء إلى غيره إنسان دنىء عديم الإيمان.

أى إنّه بخيل إلى درجة الإباء عن إعطاء مثل هذه الأشياء.

فى أمالى الصدوق عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من منع الماعون جاره منعه الله خيره يوم القيامة، ووكله إلى نفسه، ومن وكله إلى نفسه فما أسوأ حاله».

«نهاية تفسير سورة الماعون»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٤٧

١٠٨. سورة الكوثر

سبب نزول السورة: فى المجمع قيل: نزلت السورة فى العاص بن وائل السهمي، وذلك أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله يخرج من المسجد، فالتقى عند باب بنى سهم، وتحدثا، واناس من صناديد قريش جلوس فى المسجد. فلما دخل العاص قالوا: من الذى كنت تتحدث معه؟

قال: ذلك الأبتى. وكان قد توفى قبل ذلك عبد الله بن رسول الله صلى الله عليه وآله وهو من خديجة. وكانوا يسمون من ليس له ابن، أبتى. فسّمته قريش عند موت ابنه أبتى وصنبوراً.

[فنزلت السورة تبشر النبى بالنعم الوافرة والكوثر وتصف عدوّه بالأبتى].

ولمزيد من التوضيح نذكر أن النبي صلى الله عليه وآله كان له ولدان من ام المؤمنين خديجة عليها السلام أحدهما «القاسم» والآخر «الظاهر» ويسمى أيضاً عبد الله. وتوفى كلاهما في مكة، وأصبح النبي صلى الله عليه وآله من دون ولد. هذه المسألة وفرت للأعداء فرصة الطعن بالنبي فسموه الأبر «١».

والعرب حسب تقاليدها كانت تعير أهمية بالغه للولد، وتعتبره امتداداً لمهام الأب. بعد وفاة عبد الله خال الأعداء أن الرسالة سوف تنتهي بوفاء الرسول صلى الله عليه وآله.

(١) كان للرسول صلى الله عليه وآله ابن آخر من «مارية القبطية» اسمه إبراهيم، ولد في الثامنة للهجرة بالمدينة، ولكنه توفى أيضاً قبل بلوغ الثانية من عمره، وحزن عليه الرسول كثيراً.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٤٨

السورة نزلت لتردد على هؤلاء الأعداء بشكل إعجازي ولتقول لهم: إن عدو الرسول هو الأبر، وأن الرسالة سوف تستمر وتتواصل وهذه البشرية بددت من جهة آمال الأعداء وطيب خاطر النبي صلى الله عليه وآله بعد أن اغتم من لمر الأعداء وتآمرهم.

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع ابي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها سقاها الله من أنهار الجنة، واعطى من الأجر بعدد كل قربان قربه العباد في يوم عيد، ويقربون من أهل الكتاب والمشركين».

اسم هذه السورة (الكوثر) مأخوذة من أول آية فيها.

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣) أعطيناك الخير العميم: الحديث في كل هذه السورة موجه إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله (مثل سورة الضحى، وسورة الشرح)، وأحد أهداف هذه السور تسليئة قلب النبي إزاء ركاب الأحداث المؤلمة وطعون الأعداء. تقول له أولاً: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ».

و «الكوثر»: من الكثرة، وبمعنى الخير الكثير، ويسمى الفرد السخي كوثرًا. وفي معنى الكوثر: في المجمع: قال ابن عباس: لما نزلت «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ» صعد رسول الله صلى الله عليه وآله المنبر، فقرأها على الناس، فلما نزل قالوا: يا رسول الله! ما هذا الذي أعطاك الله؟ قال: «نهر في الجنة، أشد بياضاً من اللبن، وأشد استقامة من القدرح، حافته قباب الدر والياقوت».

وقيل: هو النبوة والكتاب، وقيل: هو القرآن. وقيل: هو كثرة الأصحاب والأشياء.

وقيل: هو كثرة النسل والذرية، وقد ظهرت الكثرة في نسله من ولد فاطمة عليها السلام، حتى لا يحصى عددهم، واتصل إلى يوم القيامة مددهم. وقيل هو الشفاعة. روه عن الصادق عليه السلام.

ولكن هذه التفسيرات تبين غالباً المصاديق البارزة لمعناها الواسع وهو «الخير الكثير».

إن كل الهبات الإلهية لرسول الله صلى الله عليه وآله في كل المجالات تدخل في إطار هذا الخير الكثير، ومن ذلك انتصاراته على الأعداء في الغزوات، بل حتى علماء أمته الذين يحملون مشعل الإسلام والقرآن في كل زمان ومكان.

ولا ننسى أن كلام الله سبحانه تعالى لنبيه في هذه السورة كان قبل ظهور الخير الكثير،

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٤٩

فهو إخبار بالمستقبل القريب والبعيد، إخبار إعجازي يشكل دليلاً آخر على صدق دعوة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله. هذا الخير الكثير يستوجب شكراً عظيماً، وإن كان المخلوق لا يستطيع أداء حق نعمة الخالق أبداً، إذ إن توفيق الشكر نعمة أخرى منه سبحانه، ولذا يقول سبحانه لنبيه: «فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ».

نعم، واهب النعم هو سبحانه. لذلك ليس ثمة معنى للعبادات إن كانت لغيره.

والأمر بالصلاة والنحر للرب مقابل ما كان يفعله المشركون من سجودهم للأصنام ونحرهم لها، بينما كانوا يرون نعمهم من الله. وتعبير

(لربك) دليل واضح على وجوب قصد القرية في العبادات.

وفي آخر آية يقول الله سبحانه لنبيه ردّاً على ما وصّيه به المشركون: «إِنَّ شَانِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ». «الشانيء»: هو المعادى من «الشان» - على وزن ضربان - وهو العداة والحقد.

و «أبتر»: في الأصل هو الحيوان المقطوع الذنب. وصدر هذا التعبير من أعداء الإسلام لإنتهاك الحرمه والإهانة. وكلمة (شانيء) فيها ايحاء بأن عدوك لا يراعى أيّة حرمة ولا يلتزم بأى أدب. أى أنّ عداوته مقرونة بالفظاظة والدناءة. والقرآن يقول لهؤلاء الأعداء في الواقع: إنكم أنتم تحملون صفة الأبتر لا رسول الله.

بحث

فاطمة عليها السلام والكوثر: قلنا إنّ «الكوثر» له معنى واسع يشمل كل خير وهبه الله لنبيه صلى الله عليه وآله، ومصاديقه كثيرة، لكن كثيراً من علماء الشيعة ذهبوا إلى أنّ «فاطمة الزهراء عليها السلام» من أوضح مصاديق الكوثر، لأنّ رواية سبب النزول تقول: إنّ المشركين وسموا النبي بالأبتر، أى بالشخص المعدوم العقب، وجاءت الآية لتقول: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ».

ومن هنا نستنتج أنّ الخير الكثير أو الكوثر هو فاطمة الزهراء عليها السلام، لأنّ نسل الرسول صلى الله عليه وآله انتشر في العالم بواسطة هذه البنت الكريمة ... وذريّة الرسول صلى الله عليه وآله من فاطمة عليها السلام لم يكونوا امتداداً جسمياً للرسول فحسب، بل كانوا امتداداً رسالياً صانوا الإسلام وضحووا من أجل المحافظة عليه وكان منهم أئمة الدين الإثنى عشر، أو الخلفاء الإثنى عشر بعد النبي كما أخبر عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله في الأحاديث المتواترة بين السنّة والشيعة.

والفخر الرازى في استعراضه لتفسير معنى الكوثر، يقول:

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥٠

القول الثالث: «الكوثر» أولاده، قالوا لأنّ هذه السورة إنّما نزلت ردّاً على من عابه صلى الله عليه وآله بعدم الأولاد، فالمعنى أنّه يعطيه نسلاً يقون على مرّ الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت، ثم العالم ممتلىء منهم، ولم يبق من بنى امية في الدنيا أحد يعبا به، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم «١».

«نهاية تفسير سورة الكوثر»

(١) التفسير الكبير ٣٢ / ١٢٤.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥١

١٠٩. سورة الكافرون

محتوى السورة: من لحن السورة نفهم أنّها نزلت في زمان كان المسلمون في أقلية والكفار في أكثرية، والنبي صلى الله عليه وآله يعانى من الضغوط التى تطلب منه أن يهادن المشركين، وأمام هذه الضغوط كان النبي يعلن صموده وإصراره على المبدأ، دون أن يصطدم بهم.

وفي هذا درس عبرة لكل المسلمين أن لا يساوموا أعداء الإسلام في مبادئ الدين مهما كانت الظروف، وأن يبعثوا اليأس في قلوبهم متى ما بادروا إلى هذه المساومة.

فضيلة تلاوة السورة: فى حديث أبى عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأ يا أيها الكافرون فكأتما قرأ ربع القرآن وتباعدت عنه مردة الشياطين، وبرىء من الشرك ويعافى من الفزع الأكبر».

وشعيب الحداد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «كان أبى يقول: (قل يا أيها الكافرون) ربع القرآن، وكان إذا فرغ منها قال: أعبد

اللَّهِ وَحْدَهُ، أَعْبُدِ اللَّهَ وَحْدَهُ».

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥٢

سبب النزول

في المجمع: نزلت السورة في نفر من قريش منهم الحارث بن قيس السهمي، والعاص بن أبي وائل، والوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأسود بن المطلب بن الأسد، وأميه بن خلف قالوا: هلم يا محمد فاتبع ديننا نتبع دينك، ونشركك في أمرنا كله، تعبد آلهتنا سنه، ونعبد آلهتك سنه، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا، كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يديك كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت بحظك منه.

فقال صلى الله عليه وآله: «معاذ الله أن أشرك به غيره».

قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك.

فقال: «حتى انظر ما يأتي من عند ربّي».

فتزل «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ»- السورة. فعدل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المسجد الحرام، وفيه الملاء من قريش، فقام على رؤوسهم، ثم قرأ عليهم حتى فرغ من السورة. فأيسوا عند ذلك، فأذوه وآذوا أصحابه.

التفسير

لا- أهدان الكافرين: «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ». والخطاب إلى قوم مخصوصين من الكافرين كما ذكر كثير من المفسرين، والألف واللام للعهد، وإنما ذهب المفسرون إلى ذلك لأن الآيات التالية تنفي أن يعبد الكافرون ما يعبده المسلمون وهو الله سبحانه في الماضي والحال والمستقبل، والمجموعة المخاطبة بهذه الآيات بقيت بالفعل على كفرها وشركها حتى آخر عمرها، بينما دخل كثير من المشركين بعد فتح مكة في دين الله أفواجاً.

«لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ». فهذه مسألة مبدئية لا تقبل المساومة والمهادنة والمداهنة.

«وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ». لما تأصل فيكم من لجاج وعناد وتقليد أعمى لأبائكم، ولما تجددونه في الدعوة من تهديد لمصالحكم وللأموال التي تدر عليكم من عبدة الأصنام.

ولمزيد من التأكيد وبث اليأس في قلوب الكافرين، وليبيان حقيقة الفصل الحاسم بين منهج الإسلام ومنهج الشرك قال سبحانه: «وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ». فعلى هذا معنى لإصراركم على المصالحة والمهادنة معي حول مسألة عبادة الأوثان فإنه أمر محال «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥٣

لحن الآيات يوضح بجلاء أنها نوع من التحقير والتهديد، أي دعمكم ودينكم فسترون قريباً وبال أمركم، تماماً مثل ما ورد في الآية (٥٥) من سورة القصص: «وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْنَا لِنَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ».

«نهاية تفسير سورة الكافرون»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥٥

١١٠. سورة النصر

محتوى السورة: هذه السورة نزلت في المدينة بعد الهجرة، وفيها بشرى النصر العظيم ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وتدعو النبي

صلى الله عليه وآله أن يسبح الله ويحمده ويستغفره شكراً على هذه النعمة.

في الإسلام فتوحات كثيرة، ولكن فتحاً بالموصفات المذكورة في السورة ما كان سوى «فتح مكة» (١)، خاصة وأن العرب - كما جاء في الروايات - كانت تعتقد أن نبي الخاتم صلى الله عليه وآله لا يستطيع أن يفتح مكة إلا إذا كان على حق ... ولو لم يكن على حق فرب البيت يمنعه كما منع جيش أبرهه، ولذلك دخل العرب في دين الله بعد فتح مكة أفواجا.

قيل: إن هذه السورة نزلت بعد صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة، وقبل عامين من فتح مكة.

ومن أسماء هذه السورة «التوديع» لأنها تتضمن خبر وفاة النبي صلى الله عليه وآله.

في المجمع: قال مقاتل: لما نزلت هذه السورة قرأها صلى الله عليه وآله على أصحابه ففرحوا واستبشروا، وسمعا العباس فبكي، فقال صلى الله عليه وآله: «ما يبكيك يا عم؟» فقال: أظن أنه قد نعت إليك نفسك يا

(١) فتح مكة فتح صفحة جديدة في تاريخ الإسلام، ودحر الأعداء بعد عشرين عاماً من المقاومة، وتطهرت أرض الجزيرة العربية من الشرك والأوثان، والإسلام تأهب لدعوة بقيته أصقاع العالم.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥٦

رسول الله. فقال: «إنه لكما تقول». فعاش بعدها سنتين ما رؤى فيهما ضاحكاً متبشراً.

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع ابي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها فكأنما شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فتح مكة».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ» في نافله أو فريضة نصره الله على جميع أعدائه، وجاء يوم القيامة ومعه كتاب ينطق، قد أخرج الله من جوف قبره، فيه أمان من حر جهنم ومن النار، ومن زفير جهنم، يسمعه باذنيه، فلا يمر على شيء يوم القيامة إلا بشّره، وأخبره بكل خير حتى يدخل الجنة».

إن هذه الفضائل لمن قرأ هذه السورة فسلك مسلك رسول الله وعمل بسيرته وسنته.

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (٣) عند انبلاج فجر النصر: في هذه السورة دار الحديث عن نصره الله، ثم عن «الفتح» والانتصار، وبعدها عن اتساع رقعة الإسلام ودخول الناس في دين الله زرافات ووحداناً.

نعم، لا بد من إعداد القوة للغلبة على العدو، لكن الإنسان الموحد يؤمن أن النصر من عند الله وحده، ولذلك لا يعتر بالنصر، بل يتجه إلى شكر الله وحده.

وبين هذه الثلاثة إرتباط علّة ومعلول، فبنصر الله يتحقق الفتح، وبالفتح تزال الموانع من الطريق ويدخل الناس في دين الله أفواجا.

بعد هذه المراحل الثلاث - التي يشكل كل منها نعمة كبرى - تحل المرحلة الرابعة وهي مرحلة الشكر والحمد.

من جهة اخرى نصر الله والفتح هدفهما النهائي دخول الناس في دين الله وهداية البشرية.

«التسبيح»: تنزيه الله من كل عيب ونقص.

و «الحمد»: لوصف الله بالصفات الكمالية.

و «الإستغفار»: إزاء تقصير العبد.

هذا الفتح العظيم ينبغي أن لا يؤدي بالإنسان إلى الظن بأن الله يترك أنصاره وحدهم (ولذلك جاء أمر التسبيح لتزويجه من هذا النقص) و أن يعلم المؤمنون بأن وعده الحق (موصوف بهذا الكمال)، وأن يعترف العباد بنقصهم أمام عظمة الله.

«نهاية تفسير سورة النصر»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥٧

١١١. سورة المسد

محتوى السورة: هذه السورة نزلت في أوائل الدعوة العلنية. وهي السورة الوحيدة التي تحمل هجوماً شديداً بالاسم على أحد أعداء الإسلام والنبي صلى الله عليه وآله آنذاك وهو أبولهب. ومن السورة يتضح أنه كان يحمل عداً خاصاً للنبي ويمارس هو وزوجه كل أنواع الأذى بحقه.

القرآن يصرح بأنهما أهل جهنم، وليس لهما طريق للنجاة، وتحققت هذه النبوءة القرآنية، وكلاهما مات على الكفر. فضيلة تلاوة السورة: في حديث أبي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من قرأها رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة».

إن هذه الفضيلة نصيب من بقراءتها يفصل مسيرته عن مسيرة أبي لهب، لا من يقرأها بلسانه ويعمل عمل أبي لهب في أفعاله. تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥٨

سبب النزول

سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: صعد رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم الصفا فقال: «يا صباحاه!» فأقبلت إليه قريش، فقالوا له: ما لك؟ فقال: «أرايتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أما كنتم تصدقوني». قالوا: بلى. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

فقال أبولهب: تبا لك! ألهذا دعوتنا جميعاً؟ فأنزل الله هذه السورة.

ويروى عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما نزلت هذه السورة، أقبلت العوراء ام جميل بنت حرب، ولها ولولؤه وفي يدها فهر، وهي تقول: مذمماً أينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا.

والنبي صلى الله عليه وآله جالس في المسجد ومعه أبو بكر. فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله! قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك، قال رسول الله صلى الله عليه وآله «إنها لن تراني». وقرأ قرآناً فاعتصم به، كما قال:

«وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَالِحًا وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا حَبَابًا مَّشْتُورًا» [الإسراء:

٤٥] فوفقت على أبي بكر، ولم تر رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: يا أبا بكر! أخبرت أن صاحبك هجاني. فقال: لا ورب البيت ما هجاك. فولت وهي تقول: قريش تعلم أنني بنت سيدها.

التفسير

هذه السورة- كما ذكرنا في سبب نزولها- ترد على بذات أبي لهب عم النبي صلى الله عليه وآله وابن عبد المطلب. وكان من ألد أعداء الإسلام، وحين صدح النبي صلى الله عليه وآله بدعوته واعلنها على قريش وأنذرهم بالعذاب الإلهي قال: تبا لك ألهذا دعوتنا جميعاً؟!

والقرآن يرد على هذا الإنسان البذئء ويقول له: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ».

في المجمع: قال طارق المحاربي: بينا أنا بسوق ذي المجاز إذا أنا بشاب يقول: «يا أيها الناس! قولوا لا إله إلا الله تفلحوا». وإذا برجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه، ويقول: يا أيها الناس! إنه كذاب فلا تصدقوه. فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو محمد، يزعم أنه نبي، وهذا عمه أبولهب يزعم أنه كذاب «١».

وفى رواية اخرى: وكان من عظيم خطر أبي لهب ضد الدعوة الإسلامية أنه كلما جاء وفد إلى النبي صلى الله عليه وآله يسألون عنه عمه أبلهه - اعتباراً بكبره وقرابته وأهميته - كان يقول لهم: إنه ساحر، فيرجعون ولا يلقونه، فأتاه وفد فقالوا: لا ننصرف حتى نراه، فقال: إنا لم نزل

(١) مجمع البيان ١٠ / ٥٥٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٥٩

نعالجه من الجنون فتبأ له وتعساً «١».

من هذه الروايات نفهم بوضوح أن أبلهه كان يتبع النبي صلى الله عليه وآله غالباً كالظل، وما كان يرى سبيلاً لإيذائه إلا سلكه، وكان يقذعه بأفظع الألفاظ، ومن هنا كان أشد أعداء الرسول والرسالة، ولذلك جاءت هذه السورة لترد على أبي لهب وامرأته بصراحة وقوة.

«مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ»، فليس بإمكان أمواله أن تدرأ عنه العذاب الإلهي «سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ».

من الآية الأولى نفهم أنه كان ثرياً ينفق أمواله في محاربة النبي صلى الله عليه وآله.

وأبلهه ناره ذات لهب يصلها يوم القيامة، وقيل: يصلها في الدنيا قبل الآخرة.

و «لهب» جاءت بصيغة النكرة لتدل على عظمة لهب تلك النار.

لا أبا لهب ولا أى واحد من الكافرين والمنحرفين تغنيه أمواله ومكانته الاجتماعية من عذاب الله، كما يقول سبحانه: «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» «٢».

بل لم تغنه في الدنيا من سوء المصير.

في تفسير مجمع البيان: قال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، وأسلمت أم الفضل وأسلمت وكان العباس يهاب قومه ويكره أن يخالفهم وكان يكتنم إسلامه وكان ذا مال كثير متفرق في قومه، وكان أبلهه عدو الله قد تخلف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، وكذلك صنعوا لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلاً.

فلما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كبتة الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزاً، قال: وكنت رجلاً ضعيفاً وكنت أعمل القداح أنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس فيها أنحت القداح وعندي أم الفضل جالسة، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل الفاسق أبلهه، يجزّ رجله حتى جلس على طنب الحجر، فكان ظهره إلى ظهري فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان ابن حرب بن عبد المطلب، وقد قدم. فقال أبو لهب، هلم إلي يا ابن أخي فعندك الخبر. فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخي!

(١) تفسير الفرقان ٣٠ / ٥٠٣.

(٢) سورة الشعراء / ٨٨ و ٨٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦٠

أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: لا شيء والله إن كان إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤوا وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلقي، بين السماء والأرض، ما تليق شيئاً، ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعت طرف الحجر بيدي، ثم قلت: تلك الملائكة. قال: فرفع أبلهه يده وضرب وجهي ضربة شديدة، فشاورته

واحتملني فضرب بي الأرض، ثم برك على يضربني وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت ام الفضل إلى عمود من عمد الحجر، فأخذته فضربته ضربة فلققت رأسه شجة منكرة، وقالت: تستضعفه إن غاب عنه سيده فقام مولياً ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة، فقتله.

ولقد تركه أبناء ليلتين أو ثلاثاً ما يدفناه حتى أنتن في بيته وكانت قريش تتقى العدسة كما يتقى الناس الطاعون، حتى قال لهما رجل من قريش: ويحكما ألا تستحيان إن أباكما قد أنتن في بيته لا تغيبان؟ فقالا: إنا نخشى هذه القرحة. قال: فانطلقا فأنا معكما، فما غسلوه إلا قذفاً بالماء عليه من بعيد ما يسمونه، ثم احتملوه فدفنوه بأعلى مكة إلى جدار، وقذفوا عليه بالحجارة، حتى واروه. «وَأَمْرًا تَهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ».

الآيتان تتحدثان عن ام جميل امرأة أبي لهب، وأخت أبي سفيان، وعمّة معاوية، وتصفانها بأنها تحمل الحطب كثيراً، وفي عنقها حبل من ليف.

ولماذا وصفها القرآن بأنها حمالة الحطب؟

قيل: لأنها كانت تأخذ الحطب المملوء بالشوك وتضعه على طريق رسول الله صلى الله عليه وآله لتدمي قدماه.

«نهاية تفسير سورة المسد»

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦١

١١٢. سورة الاخلاص

محتوى السورة: هذه السورة تركز على توحيد الله.

في الكافي في نزول السورة عن محمد بن مسلم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إن اليهود سألو رسول الله فقالوا: أنسب لنا ربك فلبث ثلاثاً لا يجيبهم. ثم نزلت قل هو الله أحد إلى آخرها».

وفي الإحتجاج عن العسكري عليه السلام إن السائل عبد الله بن سوريا اليهودي. وفي بعض روايات أهل السنة إن السائل عبد الله بن سلام سأله صلى الله عليه وآله ذلك بمكة ثم آمن وكنتم إيماناً. وفي بعضها أن أناساً من اليهود سألوه ذلك وفي غير واحد من رواياتهم أن مشركي مكة سألوه ذلك.

فضيلة تلاوة السورة: وردت في فضيلة هذه السورة نصوص كثيرة تدل على مكانة هذه السورة بين سور القرآن. في المجمع عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «أعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ قلت: يا رسول الله! ومن يطيق ذلك؟ قال: «اقرأ أو قل هو الله أحد».

وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إن النبي صلى الله عليه وآله صلى على سعد بن معاذ. فقال: لقد وافى من الملائكة سبعون ألفاً ملكك، وفيهم جبرئيل عليه السلام يصلون عليه فقلت: يا جبرئيل بما يستحق صلاتكم عليه؟ قال: بقراءته قل هو الله أحد قائماً، وقاعداً وراكباً وماشياً وذاهباً وجائياً».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦٢

وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قال: «من مضى به يوم واحد فصلّى فيه الخمس صلوات ولم يقرأ فيها بقل هو الله أحد، قيل له: يا عبد الله لست من المصلين».

وفي المجمع عن سهل بن سعد الساعدي قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فشكا إليه الفقر، وضيق المعاش. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا دخلت بيتك، فسلم إن كان فيه أحد، وإن كان لم يكن فيه أحد، فسلم واقراً «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» مرة واحدة».

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) جواباً عن الأسئلة المكررة التي طرحت من قبل الأفراد والجماعات بشأن أوصاف الله سبحانه تقول الآية: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ».

الضمير (هو) في الآية للمفرد الغائب ويحكى عن مفهوم مبهم، وهو في الواقع يرمز إلى أن ذاته المقدسة في نهاية الخفاء، ولا تنالها أفكار الإنسان المحدودة وإن كانت آثاره أظهر من أى شيء آخر، كما ورد في الآية (٥٣) من سورة فصلت: «سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ».

ثم بعد الضمير تكشف الآية عن هذه الحقيقة الغامضة وتقول: «اللَّهُ الصَّمَدُ».

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «رأيت الخضر عليه السلام في المنام قبل بدر ليلة، فقلت له: علمنى شيئاً أنصر به على الأعداء. فقال: قل: يا هو، يا من لا هو إلّا هو. فلما أصبحت قصصتها على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال لى: يا على علمت الإسم الأعظم، فكان على لسانى يوم بدر».

«... كان على عليه السلام يقول ذلك يوم صفين وهو يطارد، فقال له عمّار بن ياسر: يا أمير المؤمنين ما هذه الكنايات؟ قال: اسم الله الأعظم وعماد التوحيد لله لا إله إلا هو...» (١).

«الله» اسم علم للبارى سبحانه وتعالى. ومفهوم كلام الإمام على عليه السلام أن جميع صفات الجلال والجمال الإلهية اشير إليها بهذه الكلمة، ومن هنا سميت باسم الله الأعظم.

(١) التوحيد للشيخ الصدوق / ٨٩.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦٣

هذا الإسم لا يطلق على غير الله، بينما أسماء الله الاخرى تشير عادة إلى واحدة من صفات جماله وجلاله مثل: العالم والخالق والرازق، وتطلق غالباً على غيره أيضاً مثل: (رحيم، وكريم، وعالم، وقادر...).

هذا الإسم المقدس تكرر أكثر من «ألف مرّة» في القرآن الكريم، ولم يبلغه أى اسم من الأسماء المقدسة فى مقدار تكراره. وهو اسم ينير القلب، ويبعث فى الإنسان الطاقة والطمأنينة، ويغمر وجوده صفاءً ونوراً.

«أحد»: يعنى الله أحد وواحد، لا بمعنى الواحد العددي أو النوعي أو الجنسي، بل بمعنى الوحدة الذاتية. بعبارة أوضح: وحدانيته تعنى عدم وجود المثل والشبيه والنظير.

الدليل على ذلك واضح: فهو ذات غير متناهية من كل جهة، ومن المسلم أنه لا يمكن تصور ذاتين غير متناهيتين من كل جهة، إذ لو كان ثمة ذاتان، لكانت كلتاهما محدودتين، ولما كان لكل واحدة منهما كمالات الاخرى (تأمل بدقّة). «اللَّهُ الصَّمَدُ». وهو وصف آخر لذاته المقدسة.

وفى جامع الأخبار: سئل ابن الحنفية عن الصمد، فقال: قال على عليه السلام: «تأويل الصمد لا اسم ولا جسم، ولا مثل ولا شبه، ولا صورة ولا تمثال، ولا حد ولا حدود، ولا موضع ولا مكان، ولا كيف ولا أين، ولا هنا ولا ثمة، ولا ملاً ولا خلاً، ولا قيام ولا قعود، ولا سكون ولا حركة، ولا ظلمانى ولا نورانى، ولا روحانى ولا نفسانى، ولا يخلو منه موضع ولا يسعه موضع، ولا على لون، ولا على خطر قلب، ولا على شم رائحة، منفى عنه هذه الأشياء».

هذه الرواية توضح أن «الصمد» له مفهوم واسع ينفى كل صفات المخلوقين عن ساحته المقدسة.

الآية التالية ترد على معتقدات اليهود والنصارى ومشركى العرب وتقول: «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ».

إنها ترد على المؤمنين بالتثليث (الرب الأب، والرب الابن، وروح القدس).

النصارى تعتقد أن المسيح ابن الله، واليهود ذهبت إلى أن العزيز ابن الله: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦٤

كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» (١).

ومشركو العرب كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله: «وَحَرِّقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ» (٢).

ثم تبلغ الآية الأخيرة غاية الكمال في أوصاف الله تعالى: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ». أى ليس له شبيه ومثل اطلاقاً.

«الكفو»: هو الكفاء في المقام والمنزلة والقدر، ثم اطلقت الكلمة على كل شبيه ومثل.

استناداً إلى هذه الآية، الله سبحانه منزّه عن عوارض المخلوقين وصفات الموجودات وكل نقص ومحدودية، وهذا هو التوحيد الذاتى والصفاتى، مقابل التوحيد العددي.

من هنا فهو تبارك وتعالى لا شبيه له في ذاته، ولا نظير له في صفاته، ولا مثل له في أفعاله، وهو متفرد لا نظير له من كل الجهات.

أمير المؤمنين على عليه السلام يقول في الخطبة (١٨٦) نهج البلاغة: «لم يلد فيكون مولوداً، ولم يولد فيصير محدوداً ... ولا كفاء له فيكافئه، ولا نظير له فيساويه».

هذا التفسير الرائع يكشف عن أسمى معانى التوحيد وأدقها.

بحوث

الأول: التوحيد: التوحيد يعنى وحدانية ذات الله تعالى ونفى أى شبيه ومثل له، وإضافه إلى الدليل النقلى المتمثل فى النصوص الدينية ثمة دلائل عقلية كثيرة أيضاً تثبت ذلك نذكر قسماً منها باختصار:

١- برهان صرف الوجود: وملخصه أن الله سبحانه وجود مطلق لا يحده قيد ولا شرط، ومثل هذا الوجود سيكون غير محدود دون شك، فلو كان محدوداً لمنى بالعدم، والذات المقدسة التى ينطلق منها الوجود لا يمكن أن يعترضها العدم والفناء، وليس فى الخارج شىء يفرض عليه العدم، ولذلك لا يحده حد.

(١) سورة التوبة / ٣٠.

(٢) سورة الأنعام / ١٠٠.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦٥

من جهة اخرى لا يمكن تصوّر وجودين غير محدودين فى العالم، إذ لو كان ثمة وجودان لكان كل واحد منهما فاقداً حتماً لكمالات الآخر، أى لا يملك كمالاته، ومن هنا فكلاهما محدودان، وهذا دليل واضح على وحدانية ذات واجب الوجود (تأمل بدقّة).

٢- البرهان العلمى: عندما ننظر إلى الكون الذى يحيط بنا، نلاحظ فى البداية موجودات متفرقة ... الأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم وأنواع النباتات والحيوانات، وكلما ازددنا إمعاناً فى النظر الفينا مزيداً من الترابط والانسجام بين أجزاء هذا العالم وذراته، وظهر لنا أنه مجموعة واحدة تتحكم فيها جميعاً قوانين واحدة.

هذه الوحدة فى نظام الوجود، والقوانين الحاكمة عليه، والانسجام التام بين أجزائه كلّها ظواهر تشهد على وحدانية الخالق.

٣- برهان التمانع: (الدليل العلمى الفلسفى)، وهو دليل آخر على إثبات وحدانية الله، مستلهم من قوله سبحانه: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ» (١).

٤- دعوة الأنبياء إلى الله الواحد الأحد: وهو دليل آخر على وحدانية الله، إذ لو كان هناك خالقان كل واحد منهما واجب الوجود فى العالم، لاستلزم أن يكون كل واحد منهما منبعاً للفيض، فلا يمكن لوجود ذى كمال مطلق أن يبخل فى الإفاضة لأنّ عدم الفيض نقص

بالنسبة للوجود الكامل، وحكمته تستوجب أن يشمل الجميع بفيضه.

أمير المؤمنين على عليه السلام يقول لابنه الحسن المجتبى عليه السلام وهو يوصيه: «واعلم يا بنى أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه» (٢).

الثانى: فروع دوحه التوحيد: تذكر للتوحيد عادة أربعة فروع:

١- توحيد الذات: (وهو ما شرحناه أعلاه).

٢- توحيد الصفات: أى إن صفات الله ليست زائدة على ذاته، وليست منفصلة عن بعضها، بل هو وجود كله علم، وكله قدرة، وكله أزلية وأبدية.

ولو لم يكن ذلك لإستلزم التركيب، وإن كان مركباً لاحتاج إلى الأجزاء والمحتاج لا يكون واجباً للوجود.

(١) سورة الأنبياء / ٢٢.

(٢) نهج البلاغه، الرسالة ٣١.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦٦

٣- التوحيد الأفعالى: ويعنى أن كل وجود وكل حركة وكل فعل فى العالم يعود إلى ذاته المقدسة، حتى الأفعال التى تصدر منا هى فى أحد المعانى صادرة عنه، فهو الذى منحنا القدرة والاختيار وحرية الإرادة، ومع أننا نفعل الأفعال بأنفسنا، وأنا مسؤولون تجاهها. فالفاعل من جهة هو الله سبحانه لأن كل ما عندنا يعود إليه: (لا مؤثر فى الوجود إلا الله).

٤- التوحيد فى العبادة: أى تجب عبادته وحده دون سواه، ولا يستحق العبادة غيره، لأن العبادة يجب أن تكون لمن هو كمال مطلق، ومطلق الكمال، لمن هو غنى عن الآخرين، ولمن هو واهب النعم وخالق كل الموجودات وهذه صفات لا- تجتمع إلا فى ذات الله سبحانه.

الثالث: التوحيد الأفعالى: توحيد الأفعال له بدوره فروع كثيرة نشير إلى ستة من أهمها:

١- توحيد الخالقية: والقرآن الكريم يقول فى الآية (١٦) من سورة الرعد: «قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ».

ودليله واضح، فحين ثبت بالأدلة السابقة أن واجب الوجود واحد، وكل ما عداه ممكن الوجود، يترتب على ذلك أن خالق كل الموجودات واحد أيضاً.

٢- توحيد الربوبية: أى إن الله وحده هو مدبر العالم ومربيه ومنظمه؛ كما جاء فى الآية (١٦٤) من سورة الأنعام: «قُلِ أَعْتَزِلُّ اللَّهَ أُنْبِغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ».

دليل ذلك أيضاً وحده واجب الوجود، وتوحيد الخالق فى عالم الكون.

٣- التوحيد فى التقنين والتشريع: يقول سبحانه فى الآية (٤٤) من سورة المائدة:

«وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ».

لما ثبت أنه سبحانه هو المدير والمدبر، فليس لأحد غيره حتماً صلاحية التقنين. إذ لا سهم لغيره فى تدبير العالم كى يستطيع أن يضع قوانين منسجمة مع نظام التكوين.

٤- التوحيد فى المالكية: سواء «الملكية الحقيقية» أى السلطة التكوينية على الشىء، أم «الملكية الحقيقية» وهى السلطة القانونية على الشىء، فهى له سبحانه؛ كما فى الآية (١٨٩) من سورة آل عمران يقول تعالى: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ». وفى الآية (٧) من سورة الحديد يقول سبحانه: «وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ».

والدليل على ذلك هو نفس الدليل على توحيد الخالقية، وحين يكون هو سبحانه خالق كل شىء فهو مالك كل شىء أيضاً، فكل

ملكية يجب أن تستمد وجودها من مالكه.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦٧

٥- توحيد الحاكمية: لا بد للمجتمع البشري من حكومة، لأن الحياة الاجتماعية تتطلب ذلك، فلا يمكن بدون حكومة أن تقسم المسؤوليات، وتنظم المشاريع، ويحال دون التعدي والتجاوز.

ومن جهة اخرى، مبدأ الحرية يقرر أن لا أحد له حق الحكومة على أحد، إلا إذا سمح بذلك المالك الأصلي والصاحب الحقيقي. من هنا فالإسلام يرفض كل حكومة لا تنتهي إلى الحكومة الإلهية ومن هنا أيضاً نرى شرعية الحكم للنبي صلى الله عليه وآله وللأئمة المعصومين عليهم السلام ثم للفقهاء الجامع للشرائط بعدهم.

ومن الممكن أن يجيز الناس أحداً ليحكمهم، ولكن اتفاق الناس بأجمعهم غير ممكن في مجتمع عادة، ولذلك لا يمكن إقامة مثل هذه الحكومة عملياً (١).

٦- توحيد الطاعة: الله سبحانه هو وحده «واجب الإطاعة» في هذا الكون، وهو تعالى مصدر مشروع إطاعة غيره، أي إن إطاعة غيره يجب أن تعد إطاعة له.

دليل ذلك واضح أيضاً، حين تكون الحاكمية له دون سواه فيجب أن يكون هو المطاع دون غيره، ولذلك نحن نعتبر إطاعتنا للأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام ومن ينوب عنهم هي انعكاس عن طاعتنا لله؛ كما في الآية (٥٩) من سورة النساء يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ». وفي الآية (٨٠) من نفس السورة يقول تعالى: «مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ».

«نهاية تفسير سورة الإخلاص»

(١) لذلك إذا تعينت حكومة عن طريق الانتخابات وبأكثرية الأصوات، فلا بد من تنفيذ الفقهاء الجامع للشرائط كي تكون لها شرعية إلهية.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٦٩

١١٣. سورة الفلق

محتوى السورة: تتضمن السورة تعاليم للنبي صلى الله عليه وآله خاصة، وللناس عامة تقضى أن يستعينوا بالله من شر كل الأشرار، وأن يوكلوا أمرهم إليه، ويأمنوا من كل شر في اللجوء إليه.

فضيلة السورة: عن عقبه بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «انزلت على آيات لم ينزل مثلهن المعوذتان». وأبو عبيدة الحذاء عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: «من أوتر بالمعوذتين، وقل هو الله أحد، قيل له: يا عبد الله! أبشر فقد قبل الله وترك».

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: «يا عقبه! ألا اعلمك سورتين هما أفضل القرآن، أو من أفضل القرآن؟ قلت: بلى يا رسول الله. فعلمني المعوذتين، ثم قرأ بهما في صلاة الغداة، وقال لي: «إقرأهما كلما قمت ونمت».

إن هذه الفضائل نصيب من جعل روحه وعقيدته وعمله منسجماً مع محتوى السورة.

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٧٠

بِرَبِّ الْفَلَقِ أَعُوذُ: يخاطب الله سبحانه نبيّه باعتباره الاسوء والقذوة، ويقول له: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ».

«الفلق»: من «فَلَقَ» أى شَقَّ وَفَصَّلَ؛ وسمى طلوع الصبح بالفلق لأن ضوء الصبح يشق ظلمة الليل؛ ومثله الفجر، اطلق على طلوع الصبح لنفس المناسبة.

وقيل: إن الفلق يعنى ولادة كل الموجودات الحيّة، بشرية كانت أم حيوانية أم نباتية.

فولادة هذه الموجودات تقترن بفلق حَبَّتْها أو بيضتها، والولادة من أعجب مراحل وجود هذه الأحياء.

وقيل: إن الفلق له معنى واسع يشمل كل خلق، لأن الخلق، هو شَقَّ ستار العدم ليسطع نور الوجود.

وكل واحد من هذه المعاني الثلاثة (طلوع الصبح- وولادة الموجودات الحيّة- وخلق كل موجود) ظاهرة عجيبة تدل على عظمة البارئ والخالق والمدبّر، ووصف الله بذلك له مفهوم عميق.

«مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ» ... من كل موجود شَرِّير من الإنس والجن والحيوان وحوادث الشرّ والنفس الأمارة بالسوء، وهذا لا يعنى أن الخلق الإلهي ينطوى في ذاته على شرّ، لأن الخلق هو الإيجاد، والإيجاد خير محض. يقول سبحانه: «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ» (١).

بل الشرّ يعرض المخلوقات حين تنحرف عن قوانين الخلق، وتنسلخ عن المسير المعين لها، على سبيل المثال، أنياب الحيوانات وسيلة دفاعية تستخدمها أمام الأعداء، كما نستخدم نحن السلاح للدفاع مقابل العدو، فلو أن هذا السلاح استخدم في محله فهو خير، وإن لم يستعمل في محله كأن صوّب تجاه صديق فهو شرّ.

وجدير بالذكر أن كثيراً من الامور نحسبها شرّاً وفي باطنها خير كثير، مثل الحوادث والبلايا التي تنفض عن الإنسان غبار الغفلة وتدفعه إلى التوجه نحو الله هذه ليس من الشرّ حتماً.

«وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ». «غاسق»: من الغسق، وهو شدة ظلمة الليل في منتصفه.

«غاسق»: تعنى إذن في الآية: الفرد المهاجم، أو الموجود الشرير الذي يتستر بظلام الليل لشنّ هجومه.

«وقب»: من الوَقْب، وهو الحفرة، ثم استعمل الفعل «وَقَبَ» للدخول في الحفرة؛ وكأنّ

(١) سورة السجدة/ ٧.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٧١

هذه الموجودات الشريرة المضرة تستغل ظلام الليل، فتصنع الحفر الضارة لتحقيق مقاصدها الخبيثة، وقد يكون الفعل يعنى: نَفَذَ وتوغّل. «وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ».

«النفاثات»: من «النفث» وهو البصق القليل؛ ولما كان البصق مقروناً بالنفخ، فاستعملت نفث بمعنى نفخ أيضاً.

كثير من المفسرين قالوا إنّ «النفاثات» هي النساء الساحرات، وهي صيغة جمع للمؤنث ومبالغة من نفث، وهذه النسوة كن يقرأن الأوراد وينفخن في عقد، وبذلك يعملن السحر، وقيل: إنّها إشارة للنساء اللاتي كن يوسوسن في اذن الرجال وخاصة الأزواج ليتنوهم عن عزمهم وليوهنوا إرادتهم في أداء المهام الكبرى.

الفخر الرازي يقول أنّ النساء لأجل كثرة حَبَّن في قلوب الرجال يتصرفن في الرجال يحولنهم من رأى إلى رأى ومن عزيمة إلى عزيمة (١).

وهذا المعنى في عصرنا أظهر من أى وقت آخر، إذ إنّ إحدى أهم وسائل نفوذ الجواسيس في أجهزة السياسة العالمية استخدام النساء، اللاتي ينفشن في العقد، فتفتح مغاليق الأسرار في القلوب ويحصلن على أدقّ الأسرار.

وقيل: إنّ النفاثات هي النفوس الشريرة، أو الجماعات المشككة التي تبعث بوساوسها عن طريق وسائل إعلامها لتوهن عزيمة الجماعات والشعوب.

ولا يستبعد أن تكون الآية ذات مفهوم عام جامع يشمل كل اولئك ويشمل أيضاً النمامين والذين يهدمون بنيان المحبة بين الأفراد. «وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ».

هذه الآية تبين أن الحسد أسوأ الصفات الرذيلة وأحطها، لأن القرآن وضعه في مستوى أعمال الحيوانات المتوحشة والثعابين اللاسعة والشياطين الماكرة.

«الحسد»: خصلة سيئة شيطانية تظهر في الإنسان نتيجة عوامل مختلفة؛ مثل: ضعف الإيمان، وضيق النظر، والبخل. وهو يعنى طلب وتمنى زوال النعمة من شخص آخر.

الحسد منبع لكثير من الذنوب الكبيرة.

في الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إن الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب».

«نهاية تفسير سورة الفلق»

(١) التفسير الكبير ٣٢ / ١٩٦.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٧٣

١١٤. سورة الناس

محتوى السورة: الإنسان معرض دائماً لوساوس الشيطان، وشياطين الجن والإنس يسعون دائماً للنفوذ في قلبه وروحه، ومقام الإنسان في العلم مهما ارتفع، ومكانته في المجتمع مهما سمت يزداد تعرضه لوساوس الشياطين ليعدوه عن جادة الحق. وليبيدوا العالم بفساد العالم.

هذه السورة تأمر النبي صلى الله عليه وآله باعتباره القدوة والاسوة أن يستعيد بالله من شرّ الموسوسين.

محتوى هذه السورة شبيه بمحتوى سورة الفلق، فكلاهما يدوران حول الإستعاذة بالله من الشرور والآفات، مع فارق أن سورة الفلق تتعرض لأنواع الشرور، وهذه السورة تركز على شرّ (الوساوس الخناس).

فضيلة تلاوة السورة: في المجمع عن الفضل بن يسار قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله اشتكى شكوى شديدة، ووجع وجعاً شديداً، فأتاه جبرائيل وميكائيل عليهما السلام، فقعد جبرائيل عليه السلام عند رأسه وميكائيل عند رجليه، فعوذ جبرائيل بقل أعوذ بربّ الفلق وميكائيل بقل أعوذ بربّ الناس».

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٧٤

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) رَبِّ النَّاسِ أعوذ: في هذه السورة يتجه الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله باعتباره الاسوة والقدوة: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ».

يلاحظ أن الآيات ركزت على ثلاث من صفات الله سبحانه هي (الربوبية والمالكية والالوهية) وترتبط كلها إرتباطاً مباشراً بتربية الإنسان ونجاته من براثن الموسوسين.

المقصود من الإستعاذة بالله ليس طبعاً ترديد الإستعاذة باللسان فقط، بل على الإنسان أن يلجأ إليه جلّ وعلا في الفكر والعقيدة والعمل أيضاً، مبتعداً عن الطرق الشيطانية والأفكار المضللة الشيطانية، والمناهج والمسالك الشيطانية والمجالس والمحافل الشيطانية، ومتجهاً على طريق المسيرة الرحمانية، وإلما فإن الإنسان الذي أرخى عنان نفسه تجاه وساوس الشيطان لا تكفيه قراءة هذه السورة ولا تكرار الفاظ الإستعاذة باللسان.

على المستعيز الحقيقي أن يقرن قوله «رب الناس» بالإعتراف بربوبية الله تعالى، وبالإنضواء تحت تربيته؛ وأن يقرن قوله «ملك الناس» بالخضوع لمالكه، وبالطاعة التامة لأوامره؛ وأن يقرن قوله: «إله الناس» بالسير على طريق عبوديته، وتجنب عبادة غيره.

ومن كان مؤمناً بهذه الصفات الثلاث؛ وجعل سلوكه منطلقاً من هذا الإيمان فهو دون شك سيكون في مأمن من شرّ الموسوسين.

هذه الأوصاف الثلاثة تشكل في الواقع ثلاثة دروس تربوية هامة ... ثلاث سبل وقاية ...

وثلاث طرق نجاه من شرّ الموسوسين، إنها تؤمن على مسيرة الإنسان من الأخطار.

«مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ».

«الوسواس»: أصلها- كما يقول الراغب في المفردات- صوت الحُلى (اصطكاك حلية بحلية)، ثم اطلق على أى صوت خافت، ثم على ما يخطر في القلب من أفكار وتصورات سيئة، لأنها تشبه الصوت الباهت الذي يوسوس في الاذن.

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٧٥

«الوسواس»: مصدر، ويأتى بمعنى اسم الفاعل بمعنى الوسوس، وهى فى الآية بهذا المعنى.

«الخناس»: صيغة مبالغة من الخنوس وهو التراجع، لأنّ الشياطين تتراجع عند ذكر اسم الله؛ والخنوس له معنى الإختفاء أيضاً، لأنّ التراجع يعقبه الإختفاء عادة.

فقوله سبحانه: «مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ». أى: أعوذ بالله من شرّ الوسوس ذى الصفة الشيطانية الذى يهرب ويختفى من ذكر اسم الله.

عمل الشيطان هو التزيين، واخفاء الباطل تحت طلاء الحق، والكذب فى قشر من الصدق، والذنب فى لباس العبادة، والضلال خلف ستار الهداية.

ويجاز، الموسوسون مستترون، وطرقهم خفية، وفى هذا تحذير لكل سالكى طريق الله أن لا يتوقعوا رؤية الشياطين فى صورتهم الأصلية، أو رؤية مسلكتهم على شكله المنحرف.

أبدأ ... فهم موسوسون خناسون ... وعملهم الحيلة والمكر والخداع والتظاهر والرياء وإخفاء الحقيقة.

جمله «مِن الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ» تنبيه على حقيقة هامة هى إنّ «الوسواس الخناس» لا ينحصر وجوده فى مجموعة معينة، ولا فى فئة خاصة، بل هو موجود فى الجن والإنس ... فى كل جماعة وفى كل ملبس، فلا بدّ من الحذر منه أينما كان، والإستعاذة بالله منه فى كل أشكاله وصوره.

أصدقاء السوء، والجلساء المنحرفون، وأئمة الظلم والضلال، والولاة الجابرة الطواغيت، والكتاب والخطباء الفاسدون، والمدارس الإلحادية والإلتقائية المخادعة، ووسائل الإعلام المزورة الملققة، كلّها هى وأمثالها تدرج ضمن المفهوم الواسع للوسواس الخناس وتتطلب من الإنسان أن يستعيز بالله منها.

فى أمالى للشيخ الصدوق عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَعَفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ» [آل عمران: ١٣٥] صعد إبليس جبلاً بمكة يقال له ثور، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه فقالوا: يا سيّدنا لم دعوتنا؟ قال: نزلت هذه الآية، فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين، فقال: أنا لها بكذا وكذا. قال: لست لها. فقام آخر فقال مثل ذلك، فقال: لست لها. فقال الوسواس الخناس:

أنا لها. قال: بماذا؟ قال: أعدهم وأمنهم حتى يواقعوا الخطيئة، فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم

مختصر الامثل، ج ٥، ص: ٥٧٦

الإستغفار، فقال: أنت لها، فوكّله بها إلى يوم القيامة.

«نهاية تفسير سورة الناس»

اللهم! احفظنا من شر كل وسواس خناس.

ربنا! التأم دقيق، والعدو متربص، والمخططات خفية رهيبه، ولا نجاه منها إلا بطفك وفضلك.

يا كريم! بفضلك وبمَنك وبعمتك استطعت بعد ثلاثة عاماً أن نهى هذا التفسير.

يا غفور ويا رحيم! تعلم أننا في هذه اللحظات مغمورون بفرحة ممزوجة بالشكر فنبتهل إليك ونتضرع أن تغفر لنا زلاتنا فإنك أرحم الراحمين.

وتقبل منا يا رب هذا الجهد المتواضع بكرمك، واجعله لنا ذكراً يوم نلقاك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

قم - الحوزة العلميّة

أحمد - علي بابائي

١٣ رجب ١٤٢٧

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رحِمَ اللهُ عبداً أحيا أمرنا... يتعلم علمنا ويعلمها الناس؛ فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لأتبعونا... (بناذر البحار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رحمه الله - كان أحدًا من جهابذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشعفه بأهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) ولا سيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه وطريقة لم ينطفي مصباحها، بل تتبج بأقوى وأحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحه آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - ومع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: ديتية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافه الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرر الأذق للمسائل الديتية، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المتبدلة أو الرديئة - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامع ثقافية على أساس معارف القرآن و أهل البيت عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافه القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلامية، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...

- منها العدالة الاجتماعية: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقية و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

- ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...
 د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مواقع أُخرَ
 ه) إنتاج المنتجات العرضيّة، الخطّابات و... للعرض في القنوات القمرية
 و) الإطلاق و الدّعم العلميّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)
 ز) ترسيم النظام التلقائيّ و اليدويّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS
 ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكران و...
 ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشاركين في الجلسة
 ي) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السّنة
 المكتب الرّئيسي: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيد" / "ما بين شارع" پنج رَمضان " و مُفترق " وفائي" / "بنايه" القائمية"
 تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجريّة الشمسيّة (= ١٤٢٧ الهجريّة القمرية)
 رقم التسجيل: ٢٣٧٣
 الهويّة الوطنيّة: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦
 الموقع: www.ghaemiyeh.com
 البريد الالكتروني: Info@ghaemiyeh.com
 المتجر الانترنتي: www.eslamshop.com
 الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١)
 الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)
 مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)
 التجاريّة و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩
 امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)
 ملاحظه هامه:
- الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنّها لا تُوفى الحجم المتزايد و المتسعّ للامور الدينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثقافيّة؛ لهذا فقد ترجّى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمّى بالقائمية) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَل الله تعالى فرجه الشريف) أن يُوفّق الكلّ توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حدّ التمكن لكلّ احدٍ منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله وليّ التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

